

كان التاريخية

ISSN: 2090 - 0449

أول دورية عربية رقمية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨ م

Kan
Historical
Periodical

السنة الثامنة عشرة
العدد التاسع والستون

رقمية الموطن
عربية النهضة
عالمية الاداء



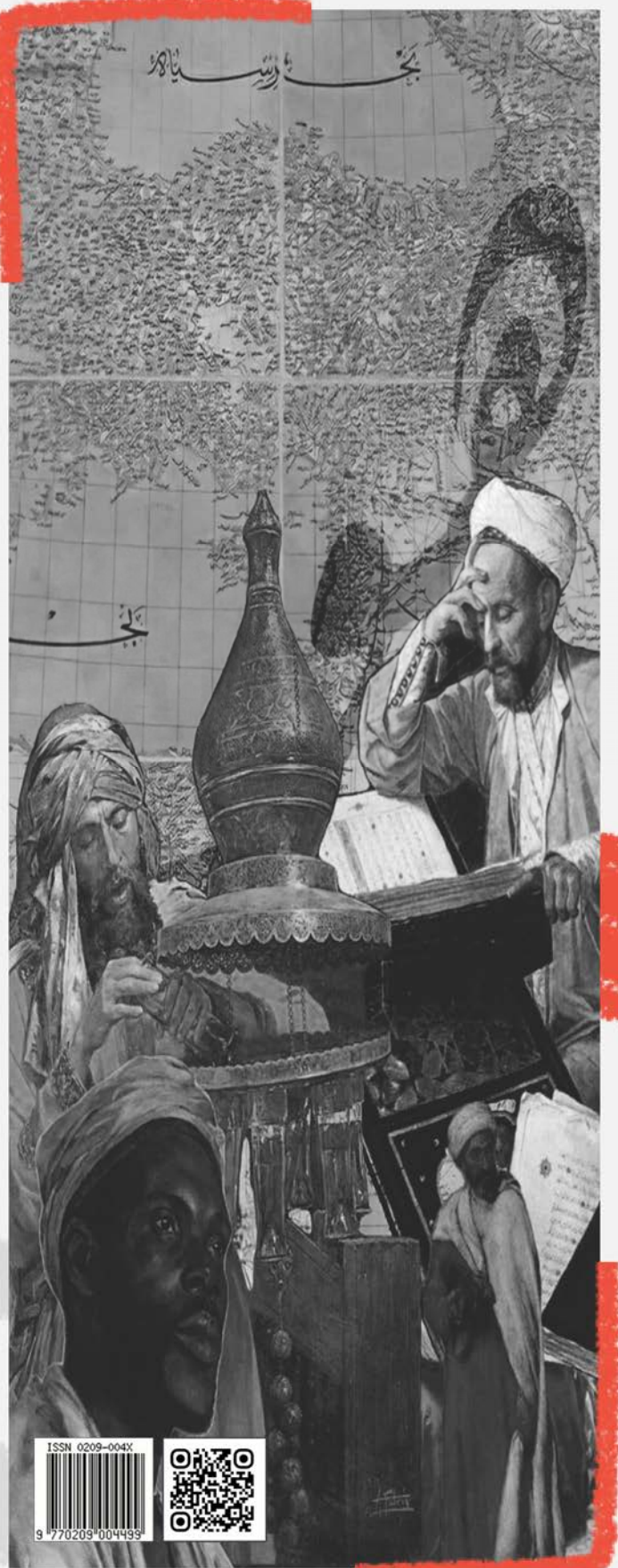
مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر
Kan Foundation for Studies,
Translation and Publishing



/historicalkan



@kanhistorique



ISSN 0209-004X
9 770209 004493



دورية كان التاريخية- س١٨ ، ع٦٩ (يونيو ٢٠٢٥ / ذوالحجة ١٤٤٦)

Dawriyyat Kān al-Tārīḥiyyat
Iliktrūniyyat, muḥakkamat, rub' sanawiyyat
Vol. 18, no. 69 [June. 2025]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
Egyptian Knowledge Bank.
Information on this issue: <https://kan.journals.ekb.eg>



دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر- س١ ، ع١٦ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة،
٢٠٠٨ – ٢٠٢٥ .

دورية إلكترونية مُحَكَّمَة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردم ٢٠٩٠ – ٠٤٤٩

٢- الآثار

١- تاريخ

٤- التراث

٣- التراجم

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical

Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo:
Organization, 2008 – 2025.

Peer-reviewed, open-access journal.

Indexed and abstracted in several international databases.

ISSN: 2090 – 0449 (Online)

Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

© ٢٠٢٥ دورية كان التاريخية – جميع الحقوق محفوظة

Copyright © 2025 Historical Kan Periodical

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, microfilming, recording or otherwise, without written permission from the publisher.

■ النتائج والتفسيرات والاستنتاجات الواردة في هذه الدورية هي للمؤلفين، ولا تمثل بالضرورة المشرف العام أو رئيس التحرير أو أعضاء

هيئة التحرير أو أعضاء الهيئة العلمية، أو أعضاء الهيئة الاستشارية، ولا يترتب عليها أي مسؤولية.

■ ليس في التسميات المستخدمة في هذه الدورية، ولا في طريقة عرض مادتها، ما يتضمن التعبير عن أي رأي كان من جانب المشرف

العام أو رئيس التحرير أو أعضاء هيئة التحرير أو أعضاء الهيئة العلمية، أو أعضاء الهيئة الاستشارية، بشأن المركز القانوني لأي بلد أو

إقليم أو مدينة أو منطقة أو سلطات أي منها، أو بشأن تعيين حدودها أو تخومها، كما أن الخرائط الواردة في المقالات والدراسات لا

تعتبر مرجعاً للحدود الدولية.

■ الهدف من الروابط الإلكترونية الموجودة في هذه الدورية تسهيل وصول القارئ إلى المعلومات، وهي صحيحة في وقت استخدامها، ولا

تتحمل الدورية أي مسؤولية عن دقة هذه المعلومات مع مرور الوقت، أو عن مضمون أي من المواقع الإلكترونية الخارجية المشار إليها.

■ لا يعني ذكر أسماء جهات أكاديمية، أو مؤسسات علمية، أو شركات تجارية أن دورية كان التاريخية تدعمها.

أول دورية عربية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م



ISSN: 2090 – 0449 Online

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأداة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

<https://kan.journals.ekb.eg>

أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:

دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ - الكويت

www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:

أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية - سان فرانسيسكو - الولايات المتحدة

www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" - السعودية

www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة بيانات المنهل

أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ - الإمارات

www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن

www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:

دليل الدوريات العربية المجانية

الدوريات العلمية الفَحَّكَّة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً

www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:

هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ - كاليفورنيا

www.icann.org



معتمدة من مركز مؤتتر - برلين:

المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالمياً.

<https://indexpolls.de>



المنتترف العام

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

أ.د. عبد العزيز غوردو

أستاذ التاريخ والحضارة
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
وجدة - المملكة المغربية

الهيئة الاستشارية

أ.د. خالد بلعربي	جامعة الجيلالي اليابس	الجزائر
أ.د. خليف مصطفى غرابية	جامعة البلقاء التطبيقية	الأردن
أ.د. الطاهر جيلي	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د. عارف محمد عبد الله الرعوي	جامعة إب	اليمن
أ.د. عائشة محمود عبد العال	جامعة عين شمس	مصر
أ.د. عبد الرحمن محمد الحسن	جامعة بخت الرضا	السودان
أ.د. عبد الناصر محمد حسن بس	جامعة سوهاج	مصر
أ.د. محمد الأمين ولد أن	جامعة نواكشوط	موريتانيا
أ.د. محمد عبد الرحمن يونس	جامعة ابن رشد	هولندا
أ.د. محمود أحمد درويش	جامعة المنيا	مصر
أ.د. ناظم رشم معتوق الأمارة	جامعة البصرة	العراق
أ.د. نهلة أنيس مصطفى	جامعة الأزهر	مصر

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



الهيئة العلمية

د. أنور محمود زناتي	جامعة عين شمس	مصر
د. عبد الحميد جمال الفراني	جامعة الأقصى	فلسطين
د. غسان محمود وشاح	الجامعة الإسلامية	فلسطين
د. ماجدة مولود رمضان الشرع	جامعة طرابلس	ليبيا

هيئة التحرير

د. إبراهيم برمّة أحمد	جامعة الملك فيصل	تشاد
د. زينب عبد التواب رياض	جامعة أسوان	مصر
د. غلا الطوخي إسماعيل	جامعة بنها	مصر
د. فهد عباس سليمان	جامعة كركوك	العراق
د. مأموؤو كان	جامعة العلوم الإسلامية	موريتانيا
د. محمد الصافي	جامعة الحسن الثاني	المغرب

” حسب الترتيب الأبجدي

”كان التاريخية“ أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ ”المعبر المفتوح“ في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية، ”كان التاريخية“ غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.



كان التاريخية

حاصلة على "معامل التأثير العالمي" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية.

حاصلة على "معامل التأثير العربي" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحْكَمَة.

مسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨١٤.

مصنفة ضمن تخصص التاريخ الفئة الوسطى (Q3) في معامل التأثير أرسيف.

عضو في الجمعية الدولية للمجلات العلمية الناشرة باللغة العربية.

رئيس التحرير

أ. د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



Magazine Cover

The cover image of the issue is a collage of images.

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم

رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com



historickan



groups/kanhistorique



kanhistorique



kanhistorique.blogspot.com



goodreads.com/kanhistorique



www.kan.nashiri.net



https://kan.journals.ekb.eg



كان التاريخية علمية. عالمية. محكمة. ربع سنوية

السنة الثامنة عشرة – العدد التاسع والستون – يونيو ٢٠٢٥

الإلتزام القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعتبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمل دورية كان التاريخية أية مسؤولية عن الموضوعات التي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكية أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والرقمي والترجمة محفوظة لدورية كان التاريخية، وبموجب الاعتماد والتسجيل الممنوح للدورية يحق لرئيس التحرير اتخاذ الإجراءات القانونية تجاه أي فرد أو مؤسسة أو موقع على شبكة الإنترنت يعيد استخدام محتويات الدورية بدون اتفاقية قانونية.

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرانسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

إدارة المعرفة

كان التاريخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهوية الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعميم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.



الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.

دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ

علمية. عالمية. مُحَكَّمَةٌ. ربع سنوية

أَخْلَاقِيَّاتُ النَّشْرِ وَالنَّزَاهَةُ الْعِلْمِيَّةُ

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدورية كان التاريخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهّم محرري المجلات العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللازمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية. يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكمين اثنين على الأقل ممن لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكمين أو طلبهم ألا يقوم محكمون معينون بمراجعة أوراقتهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيّزة.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دورية كان التاريخية من متخصصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسية أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحررين الآخرين أو المحكمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

كان التاريخية هي أول دورية عربية مُحَكَّمَةٌ ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأولى ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التاريخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهوية الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دورية كان التاريخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.



الأمانة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأ فادحاً في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعمالهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دورية كان التاريخية، وتوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيّد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقاً صحيحاً وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دورية كان التاريخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دورية كان التاريخية. ويجب على أي محكم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السرية، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

دورية كان التاريخية هي دورية علمية عالمية مُحكمة تعتمد سياسة المراجعة المزدوجة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر. إن الهدف الرئيس من الدورية هو دعم الدراسات التاريخية المتخصصة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعة أعداد في السنة وتقبل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية. كما تنشر الدورية مقالات أصلية وعالية الجودة في مجالات العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظراً لطبيعة التاريخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. ويشمل ذلك مجموعة واسعة من مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيف كبير من القراء ذوي التخصصات المتعددة.

تشرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرية التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال / دراسة / ترجمة / تقرير / عرض كتاب / عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

دورية كان التاريخية مجهزة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال / الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعين.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

أجور المحكمين

- لا تعتمد دورية كان التاريخية أية رسوم مقابل المراجعة العلمية والتحكيم والمراجعة اللغوية والتنسيق والنشر والأرشيف وفهرسة المقالات والدراسات.
- يتعاون مع دورية كان التاريخية بصفة تطوعية هيئة من المراجعين والمحكمين من ذوي الخبرة البحثية والمكانة العلمية المتميزة. ولا تدفع الدورية أية مكافآت مالية مقابل عملية المراجعة والتحكيم وتقييم المقالات والدراسات المقدمة للنشر.



أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دورية كان التاريخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممن عرفوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممن أصدروا كتباً أو أبحاثاً علمية متميزة في تخصص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

المقيّمون والمحكمون

أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب	●	تاريخ الحروب الصليبية.
أ.د. إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق	●	تاريخ العصور الوسطى.
أ.د. أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن	●	تاريخ الأزمات والأوبئة.
أ.د. أحمد عبد الله الخسوف	مركز الحسوة للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا	●	تاريخ الأدب العربي.
أ.د. أسامة عبد المجيد العاني	كلية الفارابي الجامعة	العراق	●	تاريخ العالم القديم.
أ.د. إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر	●	تراجم والنساب.
أ.د. أمين محمد علي الجير	جامعة زمار	اليمن	●	التاريخ المقارن.
أ.د. أيمن وزيري	جامعة الفيوم	مصر	●	العمارة والعمران والمدن.
أ.د. بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر	●	التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
أ.د. حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. الحسن تاوشينخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب	●	التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
أ.د. حسين صالح حسين العنسي	جامعة زمار	اليمن	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. حنيفة هلايلي	جامعة جيلالي ليايس	الجزائر	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. ذاكر محي الدين عبد الله العراقي	جامعة الموصل	العراق	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. سعاد يمينية شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. شعيب مقنوني	جامعة "أبوبكر بلقايد" تلمسان	الجزائر	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. صالح محمد زكي اللهبي	جامعة الجزيرة	الإمارات	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. عبد الرحيم مرشدة	جامعة جدارا	الأردن	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. عبد الله علي نوح	جامعة بنغازي	ليبيا	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. فاروق إسماعيل	جامعة حلب (سابقاً)	سوريا	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. كمال السيد أبو مصطفى	جامعة الإسكندرية	مصر	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. محمد دوكوري	الجامعة الإسلامية	النيجر	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
أ.د. وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق	●	الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.

”حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية والإنتاج الفكري والإشراف على الأطاريح الجامعية ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.

ترحب دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظراً لطبيعة التَّارِيخِ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجِدَّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

رسوم النشر

تلتزم دورية كان التاريخية بمجانية النشر، وتُعفي الباحثين والمؤلفين من جميع رسوم النشر والمراجعة والتحكيم.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقاً للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسباً للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمياً سرياً بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوءها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك، أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال / الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات / منتديات / مواقع / مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجودة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

عنوان البحث:

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

نبذة عن المؤلف (المؤلفين):

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم / الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون - الموبايل / الجوال - الفاكس).

صورة شخصية:

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

ملخص البحث:

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٣٥٠ - ٣٠٠) كلمة. البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

الكلمات المفتاحية:

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواءم مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

مجال البحث:

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

المقدمة:

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتسائلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

موضوع البحث:

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سليمة واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

الجدول والأشكال:

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

الصور التوضيحية:

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في «ملف منفصل» على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution).

خاتمة (خلاصة):

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

الهوامش:

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وإمكان الباحث استخدام نمط "APA" American Psychological Association الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

المراجع:

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقاً للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسؤولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأي كاتبها وعلى مسؤوليته هو وحده ولا تعبر عن رأي أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسؤولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهاماً معنوياً من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

مكافآت الباحثين

لا تدفع دورية كان التاريخية أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما يُنشر في الدورية إسهاماً معنوياً من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي عامة ومجال الدراسات التاريخية بصفة خاصة.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصاً وافياً لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف / المحقق / المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر / ورشة عمل / سيمينار) مركزاً على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دورية كان التاريخية أربع مرات في السنة: (مارس - يونيو - سبتمبر - ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسل الأعداد الجديدة إلى كُتّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية <https://www.facebook.com/historickan>
- تُرسل الأعمال المطلوبة للنشر عبر النظام الإلكتروني على موقع الدورية أو مباشرة إلى رئيس التحرير: <https://kan.journals.ekb.eg> mr.ashraf.salih@gmail.com

العراق	ربير جعفر أحمد مايي جامعة دهوك	١٥	بلاد نائيري في حوليات الملوك الآشوريين (١٥٢١ - ٦١٢ ق.م)
المغرب	عبد الرحمان عثمانى أكاديمية فاس مكناس	٢٩	إسهام قصور واحة فكيك في رسم المشهد السياسي والثقافي المغربي خلال المرحلة السعدية
قطر	محبوبة مجيدزادة معهد الدوحة للدراسات العليا	٣٨	تجليات التاريخ والذاكرة بين أميرة قاجارية ومستشرقة أوروبية
المغرب	حميد اجميلي جامعة ابن طفيل	٦٠	الجفاف في المتخيل اليهودي بمغرب العصر الوسيط
الجزائر	إبراهيم بوجلال بن محمد جامعة البليدة (٢)	٦٨	الصناعة السمكية وما يتصل بها في الغرب الإسلامي بالعصر الوسيط
المغرب	مهدي مستقري جامعة سيدي محمد بن عبد الله	٧٧	الألعاب الذهنية بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط: لعبة الشطرنج أنموذجاً
المغرب	نصر الدين خلاد جامعة محمد الأول	٩٠	انعكاس التحركات القبلية على نظم الجباية في المغرب وأساليبها: نموذج العهد السعدي الأول
الجزائر	حسن بربورة جامعة يحي فارس المدينة	١٠٠	نظرة على المؤسسة الدينية العثمانية من مرحلة الإصلاحات وحتى عهد التنظيمات "بين الدين والسياسة"
المغرب	عبد الله امجهادي جامعة ابن طفيل	١١٣	المغاربة بين الطاعون والوباء زمن المولى سليمان (١٧٩٢/١٨٢٢م)
المغرب	عبد الرحيم الربيعي دكتوراه من جامعة محمد الخامس	١٢٢	المجاعة وآثارها على السلوك الغذائي لدى المغاربة: نماذج من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين
اليمن	أحمد صالح المصري محاضر سابق في جامعة ذمار	١٣٢	الشيخ أحمد بن محمد اليماني الشرواني: إسهاماته في إحياء ونشر اللغة والأدب العربي في الهند البريطانية ١٢٢٥-١٢٥٦هـ / ١٨١٠-١٨٤٠م
المغرب	عبد الفتاح أيت أدري دكتوراه من جامعة الحسن الثاني	١٥٢	المحبوبي أحرسان: سيرته وتصوره للمسألة الأمازيغية بالمغرب
سوريا	مرح رافع البرغش دكتوراه من جامعة دمشق	١٦٤	أثر أنشطة النقل البحري الفرنسي مع الموانئ العثمانية على الاقتصاديين العثمانيين والفرنسيين ١٢٥٤-١٣٣٢هـ / ١٨٣٨-١٩١٤م
الجزائر	الطاهر جبلي جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان	١٨٤	تسليخ جيش التحرير الوطني الجزائري عبر الحدود الشرقية (الجزائرية- التونسية) خلال سنوات ثورة التحرير الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢
المغرب	بويكارن هشام الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة بني ملال	٢١٤	ملكية الأرض ونظام الاستغلال في المغرب ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلادي
مصر	أشرف صالح محمد سيد جامعة ابن رشد	٢٢٠	الخرايط الإسلامية في العصور الوسطى: دراسة استكشافية

عرض اطروحة

عرض كتاب



بيان من أجل التاريخ

أ.د. عبد العزيز غوردو

ماذا يعني أن نكتب التاريخ اليوم؟

امتياز التاريخ أنه يظل يكتب باستمرار. كتبه توقيديس، كتبه ابن خلدون، وكتبه فرنان بروديل... ويكتبه آخرون اليوم. إنه طفل لا يتوقف عن النمو، لكنه لا يكبر أبداً؛ ولذلك يظل دائماً مندهشاً أمام الأسئلة التي يطرحها، ومرتبكاً أمام إشكاليات العالم وظواهره. فالأليغوريا الماثورة: "إن التاريخ لم يجر تماماً كما كان متوقعاً، ولم يكتب تماماً كما وقع"، ليست قولاً أسفاً أو معبراً عن لحظة حرج، بقدر ما هو تشخيص للإرادات الحرة وامتثالها، في الواقع وفي الكتابة، فلنطلق عليه اسم الفواعل المنفردة التي قد يتدخل/ يتداخل في تشكيلها كل شيء، حتى نضاعف من عقلانيته غير العقلانية ابتداء. نعلم أن التاريخ ليس ذاك الذي يتعين أو يرجى وقوعه قبل أحداثه، لأنه هو/ هذه الأحداث نفسها. قد يقع وقد لا يقع، لكنه حين يقع لا يقع دائماً بالشكل الذي كان متوقعاً أن يقع به. وكتابته بعدة ميتودولوجية لا تتوقف عن تجديد ذاتها، بما راكمته مشاريع التجديد الكلياني (بمفهمة الانفصال والاتصال، والقطيعة والتجاوز، والتأسيس وإعادة التأسيس) على امتداد التجربة الإنسانية وعمقها، هي التي تُوقع أحداثه مواقعها الأنسب بين غيرها من الأحداث، تجادلها وتساجلها وتتمرد بها وعليها، وتخترق معها عتبات كل المداخل والمخارج، ليبقى المنفتح يذگر بالمنغلق، ويستحضر معه قصة انغلاقه.



ولذلك فإن السؤال: ماذا يعني أن نكتب التاريخ اليوم؟ سؤال فلسفي بامتياز، ولذلك، أيضاً، فمن حقه أن يكتسب امتياز السؤال الفلسفي؛ إذ كلما طرحه مؤرخ إلا وشرع في تناوله كما لو لم يتناوله أحد من قبله.

تتقاطع في حرفة المؤرخ، التي لم يعد يرغب فيها أحد ويتطفل عليها كثيرون، عوالم كثيرة هي التي تجمع قبيلة المؤرخين، من أجل تجسير حقول معرفية في صورة وثائقية وميتودولوجية خام، لا تكف عن عرض الإشكاليات في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والفكر...؛ وكان هذه الصورة الوثائقية-الميتودولوجية الخام، التي ليست هي الكتابة التاريخية، وتسبق كل كتابة تاريخية، ليست سوى حالة تجريدية بالقوة، ونحن إذ نحولها إلى كتابة تاريخية بالفعل فإننا نضاعف حالتها بمستوى آخر يقع فوقها أو تحتها، فيكتف المعنى وينشئ إستيميتها لتتجسم هندسة الممكنات صانعة التاريخ، ومعلوم أن التاريخ يكشف عن نفسه دائماً بوصفه أحد الاحتمالات الممكنة وليس الإمكان كله، وكذلك تأويلات الكتابة التاريخية. ونحن هنا لا نفعل سوى أن نعقل هذه المشكلة من داخل سياقها الكتابي- التاريخي؛ ذلك أن الكتابة لا تكتفي بتدوين التاريخ فحسب، ولكنها تحدثه أيضاً.

استحضار التاريخ، في مساحته الزمنية المتقاطعة مع علومه المساعدة - وإذ ندور هذه المراكز فتموقع التاريخ في الهامش علماً مساعداً لغيره من العلوم - يجعله يتخلص من حرج السقوط في زمانيته الحادة ذات البعد الواحد القانع بتكرار ورسكلة إنتاجاته التي لن تنتهي إلا بأن تصبح مقبرة له. إنه، منظوراً إليه بين علومه المساعدة، يعني استعراض مشاهدته كما لو كانت أيقونات قابلة للعرض في مصفوفات متجاوزة تتيح رؤيتها جميعاً، وتسمح بالتجوال الهادئ بين أبعادها الحقيقية، بما يعيد تأمل التاريخ، وممارسة تطهيره وعلاجه من أوهامه دون تمحل، وبما يسمح ببناء بدايات جديدة حسب سيرورات مخففة من أحمالها المؤسرة والمؤدجلة، ويجعل عملية إعادة التأسيس في المختلف تشف، وهي تعلن عن حقيقتها، عن واقع فعلي وليس بوصفها مجرد تهويمات حاملة. إذ إن المختلف ينبغي أن يكشف عن ذلك الآخر الذي يختلف عنه: بماذا وماذا. أليس المختلف/ الآخر يحمل في جيناته ما يختلف فيه عن سواه؟ عند هذا الحد يغدو فعل التأسيس بالمختلف، وفي المختلف، قارة فسيحة تسع الجميع، بدلاً من خطية الزمان الخاضعة لديكتاتورية حديثة-سياسوية، ضيقة وخانقة، ماثلة بكل هالات التضخيم والأسطرة التي كانت لها دائماً، والتي حجبت أحجامها الحقيقية في أوقاتها. ذلك أن من مهام التأسيس في المختلف، أيضاً، أن يقدم التاريخ نفسه بما هو تاريخ مختلف، لكن في سياق التاريخ "العادي"، وإلا استحالت رؤيته كذلك.

إن يكن ثمة من ثورة حقيقية في مناهج الدرس التاريخي اليوم، فهي إعلانها عن انفتاح هذا الدرس على عوالم معرفية أخرى، لصالح كل ما، ومن في هذه العوالم. إذ أن امتيازها الأكبر هو تساكنتها في "أغوراً" واحدة، وقد يكون من أعلى تجليات هذا الامتياز هو أن مشروع كتابة التاريخ، أو الكتابة بالتاريخ، قد بلغت أخيراً حالة وعي قصوى في مدارج تحري الموضوعية، وبحيث يقتنع التاريخ كذلك بأنه مجرد واحد من متعدد، وإن كان هذا الواحد يمثل تفرداً، لكن هذا التفرد يشترك في صناعة المتعدد ذاته.

تلك إذن هي حرفة لا يريد أن يسمح بها أحد؛ بعد أن اخترع المجتمع بديلاً عنها في التنقل بين الأجوبة الجاهزة، في مواقع الميديولوجيا التي انتصرت للإيديولوجية وتركت العقل ينزلق باتجاه التفاهة ويلوك منتجاتها المعلبة، التي توقع الأسئلة دائماً بتهافت في غير مكان من أمكنة القضايا المطروحة، فتوقع الأجوبة بالتالي خارج أمكنتها العقلية والطبيعية؛ وترتد بالعقل إلى عالم الطوباويات والميتافيزيقا، بعد أن استنفد العبثي دورة استهلاكه متفاقمة الوسائل والإغراءات، تتخطفه قولبة شمولية لعقل المجتمع وسلوكه، وقد استسهل القول التاريخي ورغب فيه فركبه وحوله إلى نوبات من الهذيان الصاخب. بينما يأبى المؤرخ المحترف إلا تقلب ركام وثائقه بين حيرة وتشكك، والهجوم في صبر وتؤدة على الزمن الخطي الباهت، ولكن دون أن يحويه، بل يشعبه ويتبعه في فروعه، وفروع فروعه، ثم يفرده ويغزله، وينسج منه أزمنة لا حصر لها، تقابل تعدد الحضارات والأنثروبولوجيات؛ ليستأنف، مرة أخرى، كتابة تاريخ لم يكتب

بعد ■

بلاد نائيري في حوليات الملوك الآشوريين ١٥٢١ - ٦١٢ ق.م

أ.م.د. ريبير جعفر أحمد مايي

قسم التاريخ - كلية العلوم الإنسانية
جامعة دهوك
إقليم كوردستان - جمهورية العراق



ملخص

يتناول البحث موضوع بلاد نائيري في حوليات ملوك الآشوريين (١٥٢١ - ٦١٢ ق.م). تلك البلاد الواقعة شمال بلاد آشور والتي كانت لها أهمية كبيرة للآشوريين حيث كانت مشهورة بتربية الخيول فضلاً عن امتلاكها المواد الأولية اللازمة، والمتمثلة بالحديد والقصدير والبرونز والتي كانت الدولة الآشورية بأمس الحاجة إليها لتطوير صناعاتهم، فضلاً عن حاجتها لأعداد كبيرة من الخيول لتجهيز جيشهم، خصوصاً أن بلاد آشور كانت تفتقر إلى تلك المواد الأولية. تناول المبحث الأول: جغرافية بلاد نائيري. المبحث الثاني: بلاد نائيري في حوليات الملوك الآشوريين خلال العصر الآشوري الحديث (٩١١ - ٦١٢ ق.م). توصلت الدراسة إلى عدد من الاستنتاجات أهمها: كانت بلاد آشور فقيرة من ناحية المواد الأولية، ولهذا أولى الملوك الآشوريين اهتماماً كبيراً ببلاد نائيري من أجل إخضاعها والحصول على تلك المواد. من الصعب المعرفة الدقيقة لحدود بلاد نائيري ولهذا فقد تعددت الآراء حول حدودها وإن كان أغلبهم متفقين على أنها تشمل المنطقة الواقعة جنوب بحيرة وان وغرب بحيرة أورمية. زودت حوليات الملوك الآشوريين معلومات مهمة عن أسماء العديد من مدن بلاد نائيري. جاءت في حوليات الملوك الآشوريين قيامهم بحملات عسكرية عديدة على بلاد نائيري من أجل إخضاعها، والتي كانت السبب الرئيس لحملاتهم هو الحصول على الغنائم وفرض الجزية السنوية عليهم.

بيانات الدراسة:

كلمات مفتاحية:

التاريخ العام، التاريخ القديم، تاريخ الكورد القديم، بلاد نائيري، العصر الآشوري

تاريخ استلام البحث: ٥ نوفمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ١٢ ديسمبر ٢٠٢٤

معرف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.435994



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

ريبير جعفر أحمد مايي، "بلاد نائيري في حوليات الملوك الآشوريين ١٥٢١ - ٦١٢ ق.م". - جورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد التاسع والستون: يونيو ٢٠٢٥. ص ١٥ - ٢٨.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: reber.jaafar@uod.ac

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في جُورِيَّة كان ٢٠٢٥ تحت رخصة المشاع المُنسب ٤.٠ (CC BY 4.0) International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

نهري دجلة والفرات تسمية نائيري كما سموها بحيرة وان بأسم بحيرة نائيري^(١).

أما المؤرخ جمال رشيد احمد فقد ذكر بأن بلاد نائيري تمثل المناطق الواقعة غرب بحيرة اورمية وجنوب بحيرة وان فيما بين الفروع العليا لنهري دجلة والفرات^(٢)، وحدد هاري ساكز بلاد نائيري بالمنطقة الواقعة غرب بحيرة وان وشمال جبال الكاشياري (طورعابدين) فيما تمثل مدينة تومي^(٣) النهاية الجنوبية الشرقية ومدينة دايانو^(٤) النهاية الشمالية الغربية لبلاد نائيري^(٥)، ويقول المستشرق الميجرسون: (أن بلاد نائيري لم تكن عبارة عن القسم الشمالي لنهر الزاب الأعلى فحسب، بل أن الملوك الآشوريين كانوا يطلقون أسم نائيري على الأقوام الساكنة في نواحي منابع دجلة والفرات وفي ولايات آمد (دياربكر) وخربوط وديرسم الحالية. وفي جبال بدليس وطوروس)^(٦).

تؤكد البحوث الحديثة أن بلاد نائيري أو خوبوشكيا هي وادي بوتان. وتمتد حتى أعالي الزاب الكبير، وجنوب بحيرة وان شمالاً، وفي الجنوب حتى بلدة رواندوز الحالية^(٧). ضمت العديد من المدن آنذاك وكانت أهمها (خوبوشكيا-كلزانو- سكونيا- أرزاشكو-تشخان- تومي- دايانو) وغيرها من المدن التي ذكرت في حويلات الملوك الآشوريين. الجدير بالذكر أن بقية النائيريين موجودون اليوم في القرى والعشائر بناحية نيري أو نهري في مقاطعة شمدينان التابعة لولاية هكاري في شمال كردستان^(٨).

٢/١- أهمية بلاد نائيري بالنسبة للآشوريين

كانت للبيئة الجغرافية لبلاد آشور تأثير كبير على الاقتصاد الآشوري حيث كانت تفتقر الى المواد الأولية اللازمة لتطوير الصناعة^(٩)، لذلك أدرك الملوك الآشوريون الحاجة الى وجود تلك المواد وأهتموا بالتجارة لتطوير اقتصادهم^(١٠).

كانت لمناطق كردستان الشمالية علاقات تجارية مهمة مع بلاد الرافدين^(١١)، وترجع تلك العلاقات التجارية إلى عصور ما قبل التاريخ بدليل العثور على الحجر البركاني الاوبسديان^(١٢)، والذي أستعمل في مستوطنات عصور ما قبل التاريخ لصناعة الآلات

لم تكن بلاد نائيري معروفة في العصر الآشوري القديم (٢٠٠٠- ١٥٢١ ق.م) على الرغم من تأسيس الآشوريين لمستعمرات تجارية في بلاد الأناضول وربما يعود سبب ذلك أن النائيريين كانوا يؤلفون قسماً من أقسام القوم السوباري وبالتالي لم يكن له دور آنذاك، وقد ظهر أسم نائيري في التاريخ خلال العصر الآشوري الوسيط (١٥٢١- ٩١١ ق.م) بعد أن تمكنوا من التخلص من السيطرة الميتانية وأسسوا دولة آشورية قوية وبالتالي أنتهج ملوكهم سياسة التوسع والقيام بالحملة العسكرية الى مختلف الجهات، وكانت بلاد نائيري خلال تلك الفترة وحسب ما يذكره بعض المؤرخين أنها تمكن من التغلب على القوم السوباري وبالتالي ظهرت أسم نائيري. قام الملوك الآشوريون خلال العصر الآشوري الوسيط والعصر الآشوري الحديث (٩١١- ٦١٢ ق.م) بحملات عسكرية عديدة ضد تلك البلاد من أجل إخضاعها وفرض الجزية عليها وهو ما أدى الى دخول بلاد نائيري في دوامة الحروب والقتال مع الآشوريين الذين دمروا وأحرقوا مدن تلك البلاد وأسروا سكانها حسب ما جاءت في حويلاتهم.

أولاً: جغرافية بلاد نائيري

١/١- الموقع الجغرافي

يعتبر النائيريون من الأقوام القديمة التي عاشت في كردستان وهم بذلك أجداد الكورد، على الرغم من أن أسم هذا القوم لم يذكر إلا في عهد الآشوريين^(١)، وأغلب الظن أنهم كانوا قبل هذه الفترة قسماً من أقسام السوباريين^(٢)، والكويتيين^(٣)، وبمرور الزمن تمكنوا من التغلب على القومين المذكورين وبالتالي حلت كلمة نائيري محلهم، والجدير بالذكر أن النائيريين كانوا على جانب عظيم من البأس والقوة والنضال، على حد قول العلامة محمد امين زكي^(٤)، وبعد ظهور الميديين على المسرح السياسي امتزج النائيريون مع الميديين وتألفت منهما أمة كبيرة^(٥). فيما يخص حدود بلاد نائيري فقد تعددت الآراء بهذا الخصوص حين ذكر بعض المؤرخين بأن الآشوريين أطلقوا على المناطق الواقعة ما بين منابع

ثانيًا: بلاد نائيري في حويلات الملوك الآشوريين خلال العصر الآشوري الوسيط (١٠٢١-٩١١ ق.م)

يطلق المختصون تسمية العصر الآشوري الوسيط على الحقبة الزمنية الممتدة من منتصف الألف الثاني قبل الميلاد وخصوصاً في بداية حكم الملك الآشوري بوزور آشور الثالث عام ١٥٢١ ق.م وحتى بداية حكم الملك أد نراري الثاني عام ٩١١ ق.م^(٢٧) وهذه الحقبة تميزت بتغيرات سياسية في منطقة الشرق الأدنى القديم^(٢٨)، كانت لها تأثير مباشر على بلاد آشور^(٢٩). إذ واجه الآشوريون خلالها أخطاراً عديدة^(٣٠). خصوصاً بعد ظهور الدولة الميتانية^(٣١) في المنطقة وسيطرتها لحقبة من الزمن على بلاد آشور^(٣٢). الى أن تمكن الملك آشور اوبلطان الأول (١٣٦٥-١٣٣٠ ق.م) من تخليص الآشوريين من سيطرتهم وبالتالي جعل الدولة الآشورية في مصاف الدول الكبرى، وقام هذا الملك وخلفائه بسياسة التوسع المتمثلة بقيادة الحملات العسكرية على مختلف المناطق والبلدان المجاورة لبلاد آشور^(٣٣).

ذكر الملك شلمنصر الأول (١٢٧٤-١٢٤٥ ق.م) أنه قام بحملة عسكرية على المناطق الشمالية لكوردستان وأسر عدداً من سكانها وجلبهم الى بلاد آشور حيث عملوا هناك كبنائين وكان من بين هؤلاء الاسرى كما يذكرها الملك تسعة وتسعين أسيراً من بلاد نائيري^(٣٤). كما أولى هذا الملك اهتماماً كبيراً ببلاد نائيري حيث وضع حاميات عسكرية على مدينتين من مدنها دون ذكر أسميهما لحماية الطرق التجارية خصوصاً وان الملك الآشوري قد أهتم بالتجارة مع بلاد نائيري وبالأخص تجارة القصدير^(٣٥).

فيما يخص الملك الآشوري توكلتي نورتا الأول (١٢٤٤-١٢٠٨ ق.م) فقد ذكر أنه وبعد أن تمكن من الانتصار على حلف مكون من القبائل الحورية^(٣٦)، توجه بقواته في السنة الأولى من حكمه أي في سنة ١٢٤٤ ق.م الى بلاد نائيري وتمكن من الانتصار على أربعين ملكاً من ملوكها وأسرهم وفرض عليهم الجزية^(٣٧). كما جاء في النص: ((خضت القتال مع أربعين ملكاً من ملوك بلاد نائيري وهزمتهم ووضعت القيود في أعناق ملوكهم

الزراعية، والمعروف أن مصدر ذلك الحجر هو منطقة بحيرة وان^(٣٨).

بدأت علاقة بلاد آشور التجارية مع شمال كوردستان منذ فترة مبكرة من تاريخ الآشوريين^(٣٩)، وذلك عندما أقاموا مراكز تجارية فيها^(٤٠). وحصل الآشوريون من خلالها على الكثير من المواد الأولية والبضائع^(٤١). وأهتم الملوك الآشوريون في الفترات اللاحقة بالتجارة الخارجية من أجل تحقيق الازدهار والنمو الاقتصادي، والذي سيؤدي بدوره إلى حصول استقرار سياسي^(٤٢). لذلك بذلوا جهوداً كبيرة للسيطرة على الطرق التجارية من وإلى بلاد آشور، كما أتبعوا من أجل تقوية اقتصادهم سياسة ثابتة وحازمة، وذلك بإخضاع البلدان الواقعة على الطرق التجارية وجعلها تدين بالولاء والتبعية للآشوريين، وتدفع الجزية لهم^(٤٣).

أدرك الملوك الآشوريون أن السيطرة على بلاد نائيري تعني السيطرة على المواد الأولية المتمثلة بالأخشاب والحديد والبرونز والنحاس والقصدير فضلاً عن الحبوب والأغنام والماشية إضافة الى الحصول على الأسرى الذين يستفاد منهم في أعمال البناء والزراعة وغيرها^(٤٤). وقد أبدى الملوك الآشوريون اهتماماً كبيراً بتأمين طرق القوافل التجارية التي تصل الى بلاد نائيري والاحتفاظ بهذه البلاد، إذ كانت القوافل التجارية تحمل الى بلاد آشور من هذه الطريق المواد الأولية اللازمة للإنتاج العسكري وفي صناعة الأسلحة من السيوف والحراب وعربات القتال والدروع وغيرها، فضلاً عن الصناعات المحلية المتمثلة بالأدوات المنزلية^(٤٥).

عليه فقد جهز الملوك الآشوريون العديد من الحملات العسكرية الى هذه البلاد من أجل السيطرة عليها وإخضاعها وإقامة حاميات عسكرية فيها من أجل تأمين اقتصادهم وقد نجح الآشوريون في أول الامر حيث ازدهر الاقتصاد الآشوري إلا أن ذلك لم يدم طويلاً خصوصاً بعد توحيد أمراء بلاد نائيري وأمراء القبائل الحورية وتكوينهم لدولة قوية وهي الدولة الاورارتية^(٤٦).

عرباتي وجيشي، ملك بلاد توممو، ملك بلاد تونوبو، ملك بلاد بلاد توالو، ملك بلاد داردارو، ملك بلاد اوزولا، ملك بلاد اونزامونو، ملك بلاد أنديابو، ملك بلاد بيلادارنو، ملك بلاد ادوركينو، ملك بلاد كولي بارزينو، ملك بلاد شينبيرنو، ملك بلاد خيموا، ملك بلاد بيتارو، ملك بلاد اويرام، ملك بلاد كيرينو، ملك بلاد البايا، ملك بلاد اوكيننا، ملك بلاد ناسابيا، ملك بلاد ابارسينو، ملك بلاد دايانو، كلهم معا ثلاث وعشرون ملكا من ملوك نائيري، ربطوا عرباتهم وجيوشهم في اراضيهم وقرروا إعلان الحرب...^(٥٢).

أشار هذا الملك على تحقيقه الانتصار على هؤلاء الملوك وبالتالي أسرهم وجلبهم الى بلاد آشور ومن ثم السماح لهم بالعودة الى بلادهم بعد أدائهم قسم الولاء للآلهة الآشورية، كما جاء في النص: ((قبضت على جميع ملوك نائيري وهم أحياء، عفوت عنهم، وأطلقت سراحهم مقابل إلهي شمش^(٥٣). وأجبرتهم أن يؤدون القسم للآلهة العظام على أن يكونوا في خدمتي...))^(٥٤). كما اخذ الملك تجلاتبليزر الأول أولاد الملوك رهائن عنده، وفرض عليهم الجزية من خيول وماشية، كما في النص: ((أخذت أبناءهم ورثاء حكمهم أسرى، وفرضت عليهم جزية مقدارها الف ومئتا حصان، مئتا رأس من الماشية...))^(٥٥). نستنتج من هذا النص أن بلاد نائيري كانت مشهورة بتربية الخيول والماشية وذلك لأنها كانت مشهورة باراضيها الزراعية الخصبة الملائمة للمراعي.

أشار الملك الآشوري الى أن أحد ملوك بلدان نائيري وهو ملك دايانو المدعو سيني رفض الخضوع للسلطة الآشورية وهو ما دفعه الى محاربته والانتصار عليه وبالتالي تم أسره وجلبه الى بلاد آشور ومن ثم سمح له بالعودة الى بلاده كما جاء في النص: ((جلبت سيني ملك دايانو الذي رفض الخضوع لإلهي آشور سيدي، مقيداً بالأغلال الى مدينتي آشور، أشفقت عليه، وسمحت له بترك مدينتي آشور حياً...))^(٥٦). يختتم الملك الآشوري قوله بأنه تمكن من السيطرة على جميع بلاد نائيري وأجبروهم على الخضوع للسلطة الآشورية كما جاء في حويلاته: ((...أصبحت ملك كل الأراضي الواسعة لبلاد نائيري...))^(٥٧).

وجلبتهم مجبراً إياهم على القسم والخضوع^(٥٨). وفي نص اخر يذكر: ((أصبحت سيداً لكل بلدان نائيري وفرضت عليهم الجزية الى الابد))^(٥٩). يبدو أن هذا الملك لم يتفاخر بقسوته ضد هذا البلاد إذ لم يذكر قتل سكانها ولا تدمير مدنها وإحراقها وتهجيرهم أو فرض السخرة عليهم^(٦٠).

الجدير بالذكر أن هذه الحملة هي أول حملة لهذا الملك على المناطق الشمالية لكوردستان^(٦١). وكان سبب توجيه الحملة على بلاد نائيري هو للحد من مساعدة هذه البلاد لأعداء الآشوريين والحصول على المواد الأولية اللازمة فضلاً عن وجود سبب آخر ألا وهو لجوء إيجلي تيشوب قائد الحلف الحوري الى هذه البلاد^(٦٢). لم يأت ذكر أسم نائيري في سجلات الملوك الآشوريين الذين خلفوا الملك توكلتي نورتا الأول حتى تسلم الحكم الآشوري الملك تجلاتبليزر الأول (١١١٥ - ١٠٧٧ ق.م) حيث اضطر في أول الأمر الى معاملة النائيريين وعامل ملوك بلاد نائيري معاملة حسنة^(٦٣).

إلا أن هذه المعاملة الحسنة لم يدم طويلاً حيث قام هذا الملك في السنة الرابعة من حكمه أي في سنة ١١١٢ ق.م بقيادة حملة عسكرية ناجحة ضد أقوام المشكي^(٦٤)، الساكنين على الأراضي الواقعة شمال غرب طور عابدين^(٦٥). ثم توغل في بلاد الأناضول ووصل الى مدينة ميليد^(٦٦). وتمكن من إخضاعها^(٦٧). ثم تقدم هذا الملك وبأمر من الإله آشور^(٦٨). نحو بلاد نائيري كما جاء في النص: ((بأمر سيدي الإله آشور ذهبت الى بلاد نائيري والتي لم تعرف الخضوع...))^(٦٩) وتمكن من هزيمة ثلاثين ملكاً من ملوك نائيري وأستولى على مناطق واسعة. وقد ترك بهذه المناسبة نصاً تذكاريًا نقش على صخرة في منطقة ملازكرد شمال غرب بحيرة وان^(٧٠). جاء في النص: ((تجلاتبليزر، الملك القوي، ملك آشور، ملك جهات الاربعة، ملك العالم، فاتح بلاد نائيري...))^(٧١).

ذكر الملك الآشوري أسماء عدة مدن وبلدان تابعة لنائيري كما ورد في حويلاته: ((... زحفت نحو بلاد نائيري التي ملوكها البعيدون عل ضفاف البحر العلوي (ويقصد بها بحيرة وان) في الغرب... حفرت السفح الحاد بفؤوسي النحاسية... صنعت جسورا لعبور

وتمكنوا من الوصول بالإمبراطورية الآشورية الى أزهى فتراتهما من جميع النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية والحضارية^(٦٥).

يبدأ العصر الآشوري الحديث بتسلم الحكم الملك أد نراري الثاني (٩١١ - ٨٩١ ق.م) الذي أهتم بتقوية الجيش من أجل القيام بالحملات والتوسع على حساب المناطق والبلدان المجاورة^(٦٦). جاء في حويلات هذا الملك ذكر بلاد نائيري وذلك بعد قيامه بحملة عسكرية ناجحة على بلاد كموخ^(٦٧)، ومنها تقدم نحو بلاد نائيري ودارت بينه وبين النائيريين معارك قوية بين نهر دجلة وجبل جودي انتهت بانتصار الآشوريين وإخضاع البلاد لسلطتهم كما جاء في النص: ((توجهت نحو...نائيري...أحرقت مدنهم...وفرضت عليهم الجزية...))^(٦٨).

بعد وفاة الملك أد نراري الثاني تسلم الحكم الآشوري أبنة توكلتي نورتا الثاني (٨٩٠ - ٨٨٤ ق.م) الذي سار على نفس سياسة والده والتي كانت تهدف الى تثبيت السيطرة الآشورية. فيما يخص بلاد نائيري فقد كان هذا الملك منشغلاً في السنوات الأربع الأولى من حكمه بالحملات العسكرية على تلك البلاد^(٦٩). حيث قام هذا الملك بحملة عسكرية على بلاد نائيري وعلى الرغم من تركه النص يؤيد انتصاره في هذه البلاد إلا أنه لم يذكر أسم أي مدن أو ملك من ملوك نائيري باستثناء قوله أنه تمكن من إخضاع البلاد وأخذ أسرة أحد ملوك نائيري الى بلاد آشور وفرض الجزية عليه ومن خلال ذلك النص يمكن القول أن السبب الرئيسي لهذه الحملة هو الحصول على الغنائم وفرض الجزية السنوية عليهم، كما جاء في النص: ((زحفت نحو بلاد نائيري...أخذت أبنائه وبناته وزوجته...وفرضت عليهم الجزية...))^(٧٠).

كما وجه الملك الآشوري حملة أخرى الى بلاد نائيري وتمكن من السيطرة عليها وفرض الجزية عليهم وأخذت ممتلكات (بي ابن امي با) ملك مدينتي من مدن نائيري هما مدينة أودي ومدينة شا، كما جاء في النص: ((بمساعدة الإله آشور سيدي، أنكهك الرعب البلاد كلها بي - ابن امي بال... وجهت عرباتي وجنودي الى بلاد نائيري (أخضعتها) من مدينة أودي الى مدينة شا... أخذت ممتلكاته وفرضت عليهم الجزية...))^(٧١).

مجمل القول؛ أن الحملة التي قادها الملك الآشوري على بلاد نائيري كان يكمن وراءها أهداف عديدة منها الحفاظ على أمن وسلامة الحدود الشمالية للدولة الآشورية وكذلك تأمين مصادر المواد الأولية اللازمة التي كانت تفتقر إليها بلاد آشور خصوصاً المواد اللازمة لصناعة الأسلحة والعربات الحربية، فضلاً عن تحقيق هدف آخر وهو ضمان توريد الخيول والماشية لبلاد آشور^(٥٨).

من الملوك الآشوريين الآخرين الذين ذكروا بلاد نائيري في حويلاتهم، الملك آشور بيل كالا الذي حكم خلال مدة (١٠٧٤ - ١٠٥٧ ق.م) حيث أشار هذا الملك الى قيامه بحملة عسكرية في سنة ١٠٧١ على بلاد نائيري وأحتل ٣٢ مدينة لم يذكر أسمائها باستثناء مدينة سميت ب زيقونو الواقعة غرب بحيرة وان^(٥٩). وقام هذا الملك بعد هذه الحملة للصيد في جبال بلاد نائيري وعاد بقطعان من الأغنام والغزلان وقتل النمر والدببة والذئاب^(٦٠). بعد تسليم تجلا تبليرز الثاني الحكم (٩٦٧ - ٩٣٥ ق.م) أشار في حويلاته على قيامه بثلاثة حملات على بلاد نائيري وسيطر على المناطق الواقعة ما بين بحر امورو وبحر نائيري (بحيرة وان)^(٦١).

ثالثاً: بلاد نائيري في حويلات الملوك

الآشوريين خلال العصر الآشوري الحديث

(٩١١ - ٦١٢ ق.م)

أطلق الباحثون تسمية العصر الآشوري الحديث على المدة الواقعة بين (٩١١ - ٦١٢ ق.م) من تاريخ الآشوريين^(٦٢). والذي دام نحو ثلاثة قرون، وقسم الباحثون هذا العصر الى قسمين سمي الأول بالإمبراطورية الآشورية الأولى (٩١١ - ٧٤٦ ق.م) حكم خلالها تسعة ملوك الذين قادوا العديد من الحملات العسكرية الى الجهات المختلفة^(٦٣).

أما القسم الثاني من العصر الآشوري الحديث فقد عرف بالإمبراطورية الآشورية الثانية (٧٤٥ - ٦١٢ ق.م) وحكم خلالها تسعة ملوك أيضاً وكان أشهرهم ملوك السلالة السرجونية^(٦٤). والذين بدورهم قاموا بالعديد من الحملات العسكرية الى مختلف الجهات حتى تمكنوا من الوصول الى مصر وإخضاعها لفترة من الزمن،

هناك منتصراً غير مقهور وعبرت مثل البرق الأنهر الهائية))^(٨٣).

سار الملك آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩ ق.م) على نهج سياسة والده فيما يخص بلاد نائيري، ففي السنة الأولى من حكمه (٨٨٣ ق.م) ذكر في حويلاته أن سكان خبوشكيا قد دفع الجزية له والتي أشتملت على الخيول والذهب والفضة والقصدير والبرونز، كما ورد في النص: ((بينما كنت في بلاد كيرورو^(٨٤)، غمر نور آشور ربي... الخبوشكيين قدموا إلي جزيتهم من الخيول والفضة والذهب والقصدير والبرونز وأطباق البرونز)) يمكن القول بأن سكان خبوشكيا قدموا إليهم الجزية خوفاً من قيام الملك الآشوري بحملة عسكرية شرسة ضد بلادهم خصوصاً إذا علمنا بأن هذا الملك قد وجه بحملة عسكرية على بلاد تومي وكيروري وسيطر عليهما وقتل العديد من سكانها وأحرق قراهم وفرض عليهم الجزية.

في السنة الثانية من حكمه أي في سنة ٨٨٢ ق.م قاد هذا الملك حملة عسكرية على بلاد نائيري حيث وصل بجيشه الى منبع نهر سنباط، وقام بعمل نصب تذكاري له الى جانب نصيبين للملك تجلاتبليزر الأول وتوكلتي نورتا الثاني، ثم تقدم بعدها ليعبر جبال الكاشياري ويدخل في معركة قوية مع خوليا حاكم مدينة كينابو^(٨٥)، كما ورد في النص: ((عصفت بالمدينة وأستوليت عليها خوليا حاكمهم أسرته...))^(٨٦).

استمر الملك في حملته حيث احتل مدناً في بلاد نائيري منها مدن تيدو وسينابو وقاديروا^(٨٧). وأستلم الجزية من ملوك بلاد نائيري وفرض عليهم الجزية، كما ورد في حويلاته: ((أستلمت من ملوك بلاد نائيري الخيول والبغال والفضة والذهب والبرونز والشيران والأغنام، وفرضت عليهم الجزية))^(٨٨).

واصل الملك الآشوري حملته تلك حتى وصل الى مدينة توشخان الواقعة في مدينة آمد^(٨٩). وقام بترميم مبانيها القديمة وبنى لنفسه قصراً وجعل تلك المدينة مركزاً إدارياً له وحامية عسكرية لمراقبة ومواجهة ملوك بلدان الواقعة في جبال الكاشياري بشكل عام وملوك بلاد نائيري بشكل خاص^(٩٠). كما ورد في النص: ((سيطرت على توشخان من أجل التجديد والإصلاح،

كذلك قام الملك توكلتي نورتا الثاني في السنة الرابعة من حكمه أي في سنة ٨٨٧ ق.م بحملة أخرى نحو بلاد نائيري وذكر أن سبب الحملة هو رفض أمي بالا ملك باتيشكون وبيت زماني الخضوع للسلطة الآشورية والأمتناع عن دفع الجزية، كما جاء في النص: ((في السنة الرابعة من حكمي زحفت الى بلاد نائيري... عند نهر سوبنط^(٩٢) عبرت جبال الكاشياري الى مدينة باتيشكون مدينة أمي بالا رجل بيت زماني))^(٩٣). يمكن القول أن الملك الآشوري اكتفى باقتحام البلاد وتدمير المدن التابعة لأمي بالا والحصول على الغنائم المتمثلة بالنحاس والحديد والأخشاب والبغال والحصان، كما ورد في النص: ((أخذت منه الجزية... النحاس والحديد... والخشب... والحصان والبغال...))^(٩٤).

أبقى الملك الآشوري على الملك أمي بالا بعد أن أضطر الأخير الى الخضوع للسلطة الآشورية، وأبقاه تحت مراقبة المندوبين الآشوريين في بلاده، كما جاء في النص: ((أمي بالا الذي لا يحترم الآلهة... جعلته يقسم يمين الولاء باسم الإله آشور ووضعت تحت مراقبة مندوبين آشوريين في بلاده...))^(٩٥). ويذكر هذا الملك أنه غير الطريق التي توجه بها الى بلاد نائيري بقوله: ((دخلت بلاد نائيري... وغيرت أتهاي أثناء عودتي))^(٩٦). كذلك وجه توكلتي نورتا الثاني حملة عسكرية جديدة الى بلاد نائيري وذلك بعد قيامه بحملة على بلاد سوبارتو وكلزانو^(٩٧) وأخذت الجزية منهم وألقي القبض على ملك خبوشكيا المدعو أبا كما جاء في النص: ((الجبال العالية من بلاد سوبارتو الى بلاد كلزانو ونائيري وأستلمت الجزية الفان وسبعمئة واثان حصاناً... وأستخدمتها لتقوية قوات بلادي^(٩٨). (قبضت على أبا ملك خبوشكيا...))^(٩٩).

فرض الملك الآشوري على مدن ومناطق نائيري الجزية السنوية المتمثلة بشكل خاص على الخيول التي كانت بلاد آشور بحاجة إليها لتجهيز جيوشها^(١٠٠)، وجاء ذكر فرض جزية الخيول في النص: ((إذا أنتم جهزتموني بالخيول فإن الإله ادد^(١٠١)... سوف يسامحكم))^(١٠٢). يختتم توكلتي نورتا الثاني حملاته الى بلاد نائيري بقوله: ((بعون الآلهة آشور وشمس وأدد ذهبت الى هناك وأخضعت الجبال العاصية من الشرق... وصلت الى

فقد ذكر الملك شلمنصر الثالث في السنة الأولى من حكمه (٨٥٨ ق.م) قيامه بحملة عسكرية ضد حاكم خوبوشكيا المدعو كيكي الذي انسحب الى جبال وطارده الجيش الآشوري وقاتله حتى أعلن خضوعه للسلطة الآشورية وفرض عليه الجزية، كما ورد في النص: ((أنتقلت بعرباتي وقواتي وأقربت من مدينة خوبوشكيا، أحرقت المدينة... كيكي ملك بلاد نائيري وبقايا جيشه خافوا أمام أسلحتي القوية وتحصنوا في الجبال وخضت حرباً معهم وهزمتهم... وفرضت عليهم الجزية))^(٩٨).

ثم توجه نحو مدينة سكونيا ودخل في حرب مع حاكمها المدعو آرامو انتهت بانتصار الآشوريين وإخضاعهم للمدينة والحصول على الكثير من الغنائم^(٩٩). وبعد الانتصار قام الملك الآشوري بغسل أسلحته بمياه بحيرة وان قدم القرابين للآلهة، كما ورد في النص: ((... غسلت أسلحتي بالبحر وقدمت الأضاحي الى ألهتي وأقمت عند البحر تمثلاً لي كملك لأرسي أسمي))^(١٠٠). واصل الجيش الآشوري زحفه حتى وصلوا الى مدينة كلزانو التي أخضعت للآشوريين وقدموا الجزية لهم والتي اشتملت على الماشية والأغنام والخيول^(١٠١). في سنة ٨٥٧ ق.م تقدم الجيش الآشوري مرة أخرى نحو بلاد نائيري وتمكنوا من إخضاع مدن دايانو وتومي وأرزاشكون وكلزانو وخوبوشكيا، كما ورد في النص: ((دخلت... مدن) دايانو وتومي وأرزاشكون المدينة الملكية (للكل) آرامو وفتحت كلزانو وخوبوشكيا))^(١٠٢).

يبدو أن مدن بلاد نائيري لم يرضوا الخضوع للسلطة الآشورية وثاروا ضدهم وبالتالي قاد الملك الآشوري العديد من الحملات ضدها ومما يؤيد ذلك الحملة الآشورية على بلاد نائيري في ٨٥٦ ق.م حيث تمكنت القوات الآشورية من إخضاع مدينة أنزت وفرضت عليها الجزية، كما أخضعوا مدن شومي ودايانو، ثم تقدم الملك الآشوري نحو مدينة أرزاشكون وجرت معركة كبيرة وانتهت بانتصار الآشوريين وانسحاب حاكم أرزاشكون، المدعو آرامو الى الجبال، كما ورد في النص: ((تحركت من دايانو وأقربت من مدينة أرزاشكون المدينة الملكية لأرامو... أربعته قوة ساحي وهرب... من مدينته وتسقلت الجبال وراءه حتى هزمته... وبدماهم صبغت

محوت أسوارها القديمة، خططت منطقتها ووصلت إلى أسسها وبنيت جداراً جديداً من الرأس حتى الأسفل وأقمت بالداخل قصراً لسكني، وصنعت أبواباً وثبتها في مداخله...))^(٩١).

في سنة ٨٧٩ ق.م قاد آشورناصر بال الثاني حملة أخرى على بلاد نائيري وذكر بأن الآلهة الآشورية قد أصدر أمراً له بالتوجه الى تلك البلاد كما ورد في النص: ((الآلهة آشور، أدد، شمش، عشتار... الذين مشوا في مقدمة (جيشي)، أصدروا إلي أمر بالذهاب الى بلاد نائيري))^(٩٢). وقد واصل الجيش الآشوري سيره عبر جبال الكاشياري، ولم تتوقف حتى وصلوا الى بلاد نائيري، وهاجموا مدينتي من مدنها هما مدينة شكش ومدينة مدارا التي كانت يحكمها شخص يدعى لابتورو وتمكن الآشوريين من السيطرة عليهما^(٩٣).

ذكر الملك الآشوري حملته تلك أنه دمر مائتين وخمسين مدينة من بلاد نائيري، كما ورد في النص: ((دمرت ٢٥٠ مدينة من مدن بلاد نائيري))^(٩٤). من المرجح أنه لم تكن هناك ذلك العدد من المدن في تلك البلاد بل كان فيها عدد من القرى الصغيرة.

كما وجه هذا الملك في سنة ٨٦٦ ق.م آخر حملة عسكرية خلال حكمه على جبال الكاشياري وبلاد نائيري وتمكن من السيطرة على إحدى مدنها وهي مدينة أودو التي يحكمها شخص يدعى لابتورو ابن توبوسو وذلك بعد محاصرتها لمدة ويتفاخر الملك الآشوري بقتله لعدد كبير من سكانها، كما جاء في حولياته: ((... وصلت مدينة أودو مدينة لابتورو ابن توبوسو المحصنة فحاصرت المدينة وغزوتها... قطعت بالسيف الفأ وأربعمئة من مقاتليهم وأسرت سبعمائة وثمانين مقاتلاً حياً... ووضعت يدي على المدينة بنفسي))^(٩٥).

تسلم الحكم الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م) الذي قاد العديد من الحملات العسكرية على بلاد نائيري وخصوصاً بعد ازدياد قوة مملكة اورارتو^(٩٦). وتحالفها مع ملوك بلاد نائيري وعليه فقد جاء ذكر بلاد نائيري في حوليات هذا الملك الذي قاد العديد من الحملات العسكرية ضدها^(٩٧).

الجبل بالأحمر... وجلبت من الجبال عرباته وخيوله وبغاله...))^(١٠٣).

بعد تحقيقه النصر رجع الملك الآشوري الى نينوى وفي طريق عودته توجه الى مدينة كلزانو التي أمتعت عن دفع الجزية وتمكن من إخضاعها بعد قتال عنيف وأستلم من أهلها الجزية ثم دخل مدينة شيلايا مدينة كيكي ملك بلاد خوبوشكيا وقتل العديد منهم، وحصل على الكثير من الغنائم المتمثلة بالماشية والخيول والأغنام، ثم وصل الى نينوى^(١٠٤). كذلك وجه شلمنصر الثالث في سنة ٨٥٤ ق.م وهي السنة الخامسة من حكمه حملة عسكرية على بلاد نائيري^(١٠٥)، وحسب ما يدعو فإنه تمكن من السيطرة عليها وحصل على الكثير من الغنائم وفرض عليهم الجزية^(١٠٦). كما وجه الملك الآشوري في سنة ٨٤٤ ق.م حملة عسكرية باتجاه بلاد نائيري التي تحالفت مع الأورارتيين، ودمر العديد من مدنها، كما ورد في النص: ((سرت الى بلاد نائيري... دمرت وأحرقت المدن...حتى منابع نهر فرات وغسلت أسلحتي هناك))^(١٠٧).

استمر الملك الآشوري في نشاطاته العسكرية ضد بلاد نائيري، ففي سنة ٨٢٩ ق.م أرسل حملة عسكرية بقيادة التورتان دايان آشور الى تلك البلاد وتمكنت القوات الآشورية من دخول مدينة خوبوشكيا وإخضاعها وحصلوا على الكثير من الممتلكات والغنائم وفرض عليهم الجزية السنوية^(١٠٨). في السنة التالية وهي السنة الحادية والثلاثين لحكمه، وجه الملك الآشوري بقيادة التورتان دايان آشور حملة عسكرية أخرى على مدينة خوبوشكيا وتمكنت القوات الآشورية للمرة الثانية من إخضاعها وأخذ الجزية منها، كما جاء في النص: ((في سنة حكمي الحادية والثلاثين، بينما كنت مقيماً في كالخو، أعطيت أوامري، وأرسلت دايان آشور لقيادة جيشي، تقدم جنوب مدينة خوبوشكيا وأخذ الجزية منها...))^(١٠٩).

بعد أن تمكن شمشي أدد الخامس (٨٢٤ - ٨١٠ ق.م) من القضاء على التمرد والأضطرابات التي حدثت في أواخر حكم والده شلمنصر الثالث، وسيطر على جميع مدن والمناطق الثائرة^(١١٠)، كما جاء في النص: ((... أخضعتهم تحت قدمي...))^(١١١)، وجه شمشي أدد

الخامس اهتمامه الى بلاد نائيري من أجل إخضاعها والحصول على الغنائم والممتلكات وفرض الجزية عليها، وعليه فقد وجه هذا الملك ثلاث حملات عسكرية على تلك البلاد^(١١٢). حيث قاد الملك الآشوري بنفسه الحملة الأولى له على بلاد نائيري وتمكنت من إخضاعها وفرض عليها الجزية وعلى الرغم من ذكره أنه فرض الطاعة لجميع ملوك بلاد نائيري، إلا أنه أشار في حملته أسم مدينة واحدة وهي مدينة باديرا، كما ورد في النص: ((في حملتي الأولى التي ذهبت فيها الى بلاد نائيري، استلمت الهدايا من الخيول وفرضت الطاعة على كل ملوك نائيري^(١١٣). (وأخضعت) مدينة باديرا في بلاد نائيري...))^(١١٤).

في سنة ٨٢١ ق.م وجه الملك الآشوري قواته مرة أخرى باتجاه بلاد نائيري^(١١٥). وأسند قيادة الجيش الى الراباشاق^(١١٦)، المدعو موتاكين - آشور، كما ورد في النص: ((في حملتي الثانية أصدرت الأوامر وأرسلت الراباشاق موتاكين - آشور القائد الأعلى الذكي، الخبير في الحرب، الرجل المجرب بجيشي ومعسكري الى بلاد نائيري...))^(١١٧). وقد تمكن الجيش الآشوري من السيطرة على بلاد نائيري وحصل على الكثير من الممتلكات والغنائم وفرض عليها الجزية^(١١٨).

من جانب آخر قام الملك الآشوري في سنة ٨٢٠ ق.م بنفسه بحملة عسكرية ثالثة على بلاد نائيري، حيث عبر جبال كولار وأستمر في تقدمه حتى وصل الى بلاد نائيري وتمكن من إخضاعها. وقد ذكر الملك الآشوري في حملته تلك أسماء ٢٧ مدينة من مدن بلاد نائيري التي فرضت عليهم الجزية السنوية واستلمت منها الغنائم وخصوصاً الخيول، كما ورد في حويلاته: ((فرضت الجزية... مجاميع من الخيول على سراشمة ملك باربارورا، واماخار ملك خارميشاندا، وزاريشو ملك بارزانيا، وزاريشو ملك خندورا، وستاشو ملك كيباباروتاكا، واردارا ملك اوشتاتا، وشوما ملك كينوكا، وتاتاي ملك كينكيبيرا، وبيسيرارين ملك اريمة، وباروشتا ملك كيباروشا، واشباشاتاتوك ملك اويلا، واماماش ملك ماسيراوشا، وممانيش ملك لوكسا، وزنزار ملك ديماما، وسيراشو ملك سيمكوريا، وكيشتا ملك ابدانا، وادادانو ملك اسايता، واورسي ملك كينخوختا، وبارا ملك كنزينا،

كما وجه هذا الملك في سنة ٧٣٧ ق.م حملة عسكرية على بلاد نائيري وتمكن من إخضاع ١٤ مدينة من مدنها، وأستلم الجزية منها والتي اشتملت على الماشية والأغنام والخيول والبغال، كما ورد في حويلاته: ((بأمر من آشور سيدي، زحفت نحو بلاد نائيري، أخضعت مدن دياكان، شو، ساكا، ثيبا، ثيليزانشو، لوكادونشا، كودا، ثيلوجيا، دانيا، دانزيون، ثوليا، لوكيا، ثبرانيا، ثيوسا... دمرتها وأحرقتها... أسرت ٩٠٠ من مقاتليها، استلمت منهم الجزية التي اشتملت على ١٥٠ (رأس من) الماشية، ١٠٠٠ (رأس من) الأغنام والخيول والبغال))^(١٢٨). كذلك قام الملك الآشوري بحملة عسكرية أخرى ضد بلاد نائيري في سنة ٧٣٥ ق.م وذلك بعد انتصاره على الملك الأورارتي، حيث أخضع بلاد نائيري وفرض عليها الجزية^(١٢٩). وأستمر في حملته تلك حتى أخضع مدينة تشخان وفرض عليها الجزية^(١٣٠). وقد أخضعت هذه البلاد للسلطة الآشورية خصوصاً إذا علمنا بأن هذا الملك أنتهج سياسة ترحيل السكان المحليين وإعادة إسكان البلاد بالأسرى من مدن أخرى التي أخضعت للآشوريين^(١٣١).

الجدير بالذكر أنه واثاء عودته من تلك الحملة هاجم الملك الآشوري في طريقه بلاد اولوبو(مناطق دهوك- زاخو) وأخضعها وخذل انتصاره بمنحوتة عرفت بمنحوتة مه لا مركى^(١٣٢)، نقشت عليها صورة الملك فضلاً عن كتابة مسمارية جاء فيها: ((حملت على بلاد اولوبو... (أخضعتها) ووضعت تمثالي هناك... في بلاد اولوبو... عينت عليها حاكماً آشورياً))^(١٣٣). تسلم الملك سرجون الآشوري الحكم (٧٢١-٧٠٥ ق.م) عن طريق الانقلاب العسكري وأطاح بالملك شلمنصر الخامس (٧٢٦-٧٢٢ ق.م) وبدأ نشاطاته العسكرية بالقضاء على التمردات والاضطرابات التي حدثت في بلاد آشور عقب توليه الحكم^(١٣٤). بعد استقرار الأمور في بلاد آشور وجه اهتمامه الى مملكة أورارتو التي كانت منافساً حقيقياً للدولة الآشورية، وعليه قاد الملك الآشوري في سنة ٧١٤ ق.م حملة عسكرية على مملكة أورارتو عرفت في التاريخ بحملة سرجون الثامنة^(١٣٥)، وقد تمكن من خلال هذه الحملة من القضاء بشكل كبير على القوة الأورارتية^(١٣٦).

واروا ملك كيندوتاووشا، وكيرناكوش ملك داكروا، وزابانو ملك زوزارورا، وايرتصاتي ملك كينكردا، وبارزوتا ملك تاوريا، وشوا ملك نانبتوما، وشاتيريا وارتاسيراري، كل ملوك بلاد نائيري...))^(١٣٩).

يُعدّ الملك أد نراري الثالث (٨١٠-٧٨٣ ق.م) الذي حكم بعد والده شمشي أد الخامس آخر ملوك الدولة الآشورية الأولى الذي جاء في حويلاته ذكر بلاد نائيري، إذ وجه هذا الملك حملة عسكرية على المدن الواقعة في جبال الكاشياري وتمكن من إخضاعها وفرض عليها الجزية^(١٤٠)، وطارد الذين فروا الى الجبال وقتل العديد منهم، كما ورد في حويلاته: ((...عبرت... في جبال كاشياري وزحفت ضد تلك البلاد وفي الليل طوقتهم... وقتلت الكثيرين))^(١٤١). ثم توجه نحو مدينة كلزانو وأخضعها لسلطته وأستلم منها الجزية التي اشتملت بشكل خاص على الخيول، كما جاء في النص: ((وجهت قواي وغزوت القلاع... واستلمت الجزية من الخيول من مدينة كلزانو))^(١٤٢). أستمر في تقدمه حتى أخضع مدناً أخرى من بلاد نائيري دون ذكر أسمائها وأستلم من ملوكها الجزية، كما جاء في حويلاته: ((استلمت الجزية من كل ملوك بلاد نائيري))^(١٤٣).

بعد وفاة أد نراري الثالث حلت ببلاد آشور الفوضى والاضطرابات وهو ما أدى الى قيام ثورة ضد الملك آشور نراري الخامس (٧٥٤-٧٤٦ ق.م) ومقتله مع جميع أفراد أسرته وتنصيب قائد الثورة المدعو تجلاتيليزر الثالث ملكاً على بلاد آشور (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) مؤسس الدولة الآشورية الثانية، الذي أنشغل في البداية بتقوية مركزه والقضاء على الاضطرابات الداخلية^(١٤٤). حيث أعاد تنظيم الجيش وتقويته فضلاً عن قيامه بإصلاحات إدارية^(١٤٥). فيما يخص بلاد نائيري فقد ورد في حويلات الملك قيامه بحملات عسكرية على تلك البلاد، حيث أشار أنه اثناء انشغاله في سنة ٧٤٣ ق.م بحملة عسكرية ضد الملك الأورارتي وحلفائه وتمكنه من هزيمتهم^(١٤٦).

هاجم ملوك بلاد نائيري بلاد آشور وهو ما دفع بالملك الآشوري الى التصدي لهم والدفاع عن بلاده وكان النتيجة انسحاب ملوك بلاد نائيري الى بلدانهم^(١٤٧).

عقدوا معاهدة الصلح مع ملوك أورارتو وبالتالي لم يقوموا بحملات عسكرية ضد القوات الأورارتية ولم يتوغلوا في بلاد نائيري. الجدير بالذكر أن اسم بلاد نائيري قد اختفت في أواسط القرن السابع قبل الميلاد ومن المرجح أنها زالت على يد الميديين^(١٤٤)، الذين أسسوا دولة قوية (٧٠٠-٥٥٠ ق.م) ووسعوا حدودها لتشمل بلاد نائيري وبلاد أورارتو وبالتالي انصهرت جميع هذه البلدان مع الدولة الميديّة التي تمكنت في سنة ٦١٢ ق.م من القضاء على الدولة الآشورية^(١٤٥).

جاء في حويلات الملك سرجون ذكر بلاد نائيري وذلك بعدما وصل بقواته الى مدينة تورشبا(مدينة وان) عاصمة الملك الأورارتي روسا، ولم يدخلها بسبب الإرهاق والتعب والخسائر التي ألحقت بجيشه بسبب المعارك العديدة التي خاضها وكذلك طبيعة المنطقة القاسية بجبالها ووديانها، ولهذا أستدار الملك الآشوري بقواته حتى وصلت الى بلاد نائيري^(١٣٧). وقد أستقبله أحد ملوك بلاد نائيري وهو ملك مدينة خوبوشكيا المدعو ايانزو الذي قدم له الجزية المتمثلة بالخيول والأغنام والماشية، كما ورد في حويلاته: ((من ايانزو ملك بلاد نائيري استلمت الجزية من خوبوشكيا مدينته القوية، الخيول، والماشية، والأغنام))^(١٣٨).

لم يذكر الملك الآشوري قيامه بتدمير مدن بلاد نائيري وذلك لأن ملوك تلك البلاد قدموا الى مدينة خوبوشكيا أثناء تواجد الملك الآشوري فيها وقدموا إليه الجزية باستثناء ملك مدينة موصاصير^(١٣٩)، المدعو أورزانا ولهذا توجه الملك الآشوري بقسم من قواته ودمر مدينة موصاصير^(١٤٠). بهذا أنهى الملك الآشوري حملته ورجع الى بلاد آشور محملاً الكثير من الغنائم والهدايا، كما ورد في النص: ((بالخطبة العظيمة لآشور سيدي الذي أنعم(عليّ)... أن اخضع أمراء الجبال وأن استلم هداياهم))^(١٤١).

تسلم الحكم الآشوري بعد الملك سرجون أبنة سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ ق.م) الذي لم يذكر قيامه إلا بحملة عسكرية واحدة على بلاد نائيري ومناطق بحيرة وان، بسبب الهدوء الذي ساد تلك البلاد بعد حملة والده، وقد ذكر الملك سنحاريب أنه وجه حملة عسكرية باتجاه تلك البلاد في سنة ٦٩٩ ق.م وحدثت معركة قوية بين الطرفين انتهت بإخضاع الملك الآشوري لعدد من مدن تلك البلاد^(١٤٢)، كما ورد في حويلاته: ((سكان مدن تامورو، شاروم، ئيزيما، كيشو، هاكيدا، كانا، التي... لم يكونوا خاضعين لسلطتي...دمرتها...أستوليت على مدنهم وقمت بنهبهم...))^(١٤٣).

يمكن القول إن الملك الآشوري سنحاريب هو آخر ملك آشوري يذكر في حويلاته أسم بلاد نائيري، إذ أن الملوك الذين جاءوا من بعده وخصوصاً أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩ ق.م)، وآشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٧ ق.م) الذين

الإحالات المرجعية:

خاتمة

تم التوصل من خلال هذا البحث الى ما يلي:

- من الصعب المعرفة الدقيقة لحدود بلاد نائيري ولهذا فقد تعددت الآراء حول حدودها وإن كان أغلبهم متفقين على أنها تشمل المنطقة الواقعة جنوب بحيرة وان وغرب بحيرة أورمية.
- كانت بلاد نائيري مشهورة بمراعيها الواسعة ولهذا فقد اشتهرت في التاريخ بتربية الخيول والأغنام والحبوب والماشية فضلاً عن امتلاكها المواد الأولية المتمثلة بالحديد، والبرونز، والقصدير، والنحاس.
- كانت بلاد آشور فقيرة من ناحية المواد الأولية، ولهذا أولى الملوك الآشوريين اهتماماً كبيراً ببلاد نائيري من أجل إخضاعها والحصول على تلك المواد.
- جاءت في حويلات الملوك الآشوريين قيامهم بحملات عسكرية عديدة على بلاد نائيري من أجل إخضاعها، والتي كانت السبب الرئيسي لحملاتهم هو الحصول على الغنائم وفرض الجزية السنوية عليهم.
- على الرغم من ادعاء الملوك الآشوريين سيطرتهم على بلاد نائيري، إلا أن الأحداث التاريخية آنذاك تبين أن هؤلاء الملوك قد وصلوا الى تلك البلاد وفرض عليهم الجزية إلا أنهم لم يتمكنوا من السيطرة عليها بشكل دائم، بدليل أن أغلب الملوك الآشوريين يذكرون أنهم سيطروا عليها ودمروها وأحرقوها وفي السنة التالية يأتي ذكر أسم نائيري كأحد البلاد التي توجهوا لها وسيطروا عليها مرة ثانية ودمروها وأحرقوها.
- اتسمت الحملات العسكرية للملوك الآشوريين على تلك البلاد تحقيق هدفين الأولى فرض السيادة الآشورية والحصول على الغنائم والجزية، والثانية تأمين طرق المواصلات التجارية.
- يتبين من خلال حويلات الآشورية أن بلاد نائيري لم تكن بلاد أورارتو بل كان ملوك بلدان نائيري حلفاء لملوك أورارتو، مثال على ذلك حملة سرجون الثامنة التي دمرت مدن أورارتو، إلا أنه لم يذكر تدميرها لمدن نائيري بعد استتبعاله من قبل ملوكها وتقديمهم الجزية له.
- زودت حويلات الملوك الآشوريين معلومات مهمة عن أسماء العديد من مدن بلاد نائيري.

(١) **الآشوريون** أحد الأقوام الجزرية التي هاجرت من موطنها الأصلي شبه الجزيرة العربية الى بلاد الرافدين، وأستقروا أول الأمر على ضفاف نهر فرات وقسم كبير منهم أستقروا في الجنوب في بلاد بابل فعرفوا بالبابليين وتوجه القسم الثاني الى القسم الشمالي لبلاد الرافدين واتخذوها موطناً لهم والتي عرفت فيما بعد بأسم بلاد آشور فسموا بالآشوريين.

johns. C. H. W. Ancient Assyrian, London-1918.p.6

(٢) **يَعَدُّ السوباريون** من أجداد الكورد، ورد أسمهم بصيغة سوبار- سوبير- شوبير- وكانوا يعيشون في المناطق الواقعة الى الشمال من بلاد سومر. للمزيد يُنظر: الزبياري، محمد صالح، " **الأقوام الكردية القديمة (السوباريون)** "، مجلة شأنه ده ر، عدد ٣، (أربيل: ١٩٩٧)، ص ٨٣.

(٣) **يَعَدُّ الكوتيون** من أجداد الكورد، وقد عاشوا في المنطقة الواقعة جنوب سهل شهرزور، أي في المنطقة المحصورة ما بين نهر الزاب الأسفل ونهر ديالو وكان مدينة أرابخا مركزاً لهم. أحمد، جمال رشيد، ورشيد، فوزي، **تاريخ الكرد القديم**، (أربيل: ١٩٩٠)، ص ٥٣.

(٤) **خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من اقدم العصور التاريخية حتى الآن**، ترجمة: محمد علي عوني، (بغداد: ٢٠٠٥)، ج ١، ص ١٣٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٣٧.

(٦) أحمد، ورشيد، المصدر السابق، ص ٧٩.

(٧) **ظهور الكورد في التاريخ**، (أربيل: ٢٠٠٥)، ج ١، ص ٧٩٣.

(٨) من مدن بلاد نائيري، الواقعة جنوب غرب بحيرة وان. ساكر، هاري، قوة آشور، ترجمة: عامر سليمان، (بغداد: ١٩٩٩)، ص ٩٤.

(٩) من مدن بلاد نائيري، الواقعة جنوب غرب بحيرة وان. المصدر نفسه، ص ٩٤.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(١١) نقلًا عن زكي، المصدر السابق، ص ١٧٢.

(١٢) **الأمين، محمود، "مسلةا طوبزواوه وكيله شين"**، مجلة سومر، ج ١، مج ٨، (بغداد: ١٩٥٢)، ص ٥٦.

(١٣) زكي، المصدر السابق، ص ١٣٧.

(١٤) **أبو الصوف، بهنام، "تجارة العراق الخارجية في عصور ما قبل التاريخ"**، مجلة بين النهرين، عدد ٤، (بغداد: ١٩٨٥)، ص ١٩١.

(١٥) **علي، فاضل عبد الواحد، "بين حضارتي الرافدين والنيل- أوجه للمقارنة"**، مجلة آفاق عربية، عدد ٩٦- ١٠٠، (بغداد: ١٩٩٩)، ص ٢١.

(١٦) **سليمان، عامر، العراق في التاريخ القديم**، (الموصل: ١٩٩٣)، ج ٢، ص ٢٤.

(١٧) **الدوبسديان**: يتركب هذا الحجر من كتلة متناسقة متنوعة في تركيبها الكيماوي، وهو حجر خالي من البلورات وقد تكون أثناء تبريد اللافا الحامضية، ولونه داكن ويصل إلى اللون الأسود وبريقه زجاجي ومكسره محاري، جودة حسنين جودة، معالم سطح الارض، (الإسكندرية: ٢٠٠٢)، ص ٨٠؛ للمزيد من المعلومات عن حجر الدوبسديان يُنظر: ديكسون، جي.ي.، وآخرون، " **الحجارة الدوبسديية وأصول التجارة** "، ترجمة: رضا الهاشمي، مجلة سومر، ج ٢٠-٢١، مج ٢، (بغداد: ١٩٧٢)، ص ٢٥٣ وما بعدها.

(١٨) **عبد كسار، أكرم محمد، "قراءة في عصور ما قبل التاريخ في العراق القديم"**، مجلة آفاق عربية، عدد ٤، (بغداد: ١٩٨٨)، ص ١٠٧.

- (٤٣) أسماعيل، زبير بلال، "تاريخ الكورد وكوردستان القديم"، مجلة كولان العربي، عدد ٢٢، (أربيل: ١٩٩٨)، ص ٥٩.
- (٤٤) جاءت تسميتهم في العهد القديم بأسم ميشيخ، وكانت دولة قوية تقع جنوب غرب الأناضول، شمال سورية وغرب أورارتو، وكانت هذه الدولة مسيطرة على الطرق البرية المؤدية إلى دويلات المدن اليونانية على السواحل الغربية من الأناضول. شيت، ازهار هاشم، **علاقة بلاد آشور مع بلاد الأناضول خلال الالفين الثاني والأول ق.م**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل: ١٩٩٦، ص ٩١، الجميلي، عامر عبدالله نجم، **المعارف الجغرافية عند العراقيين القدماء**، أطروحة دكتوراه منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل: ٢٠٠٦، ص ٩٤. من المحتمل أن مدينة موش الحالية الواقعة في كردستان الشمالية كانت من مدن الموشكيين.
- Izady, M,R, The Kurds Aconcise Handbook, (London-1992), p.29.
- (٤٥) ساكر، قوة آشور، ص ٩١.
- (٤٦) (ملطية حالياً) تقع على امتداد نهر الفرات وحتى سلسلة جبال أنتي طوروس الرئيسية، وكانت هذه المدينة مسيطرة على مضيقي في جبال طوروس. الأحمد، سامي سعيد، والهاشمي، رضا جواد، **تاريخ الشرق الأدنى القديم إيران والأناضول**، (بغداد: د، ت)، ص ٢٦٩.
- (٤٧) ساكس، هنري، **جبروت آشور الذي كان**، ترجمة: آخو يوسف، (دمشق: ١٩٩٥)، ص ٩٣.
- (٤٨) وهو الإله القومي للآشوريين فضلاً عن كونه إله الحرب عندهم. Lambart,W,G, "The God Assur", Iraq, London-1983, Vol-45,p.82
- (49) Grayson,Royal...,vol-1,p.21.
- (50) Wiseman,D,J,"Assyria and Babylonian 1200 -1000B.C", CAH,Vol-2, 1975,p.459.
- (٥١) ساكر، قوة آشور، ص ٩٣.
- (52) Luckenbill,op.cit,vol-1,p.80-81.
- (٥٣) إله العدالة. عبد الرحمن، عبد المالك يونس، **عبادة الإله شمش في حضارة وادي الرافدين**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد: ١٩٧٥، ص ١٣ ومابعدها.
- (54) Luckenbill,op.cit,vol-1,p.80.
- (٥٥) كانيك، ايفا، وكيرشباوم، **تاريخ الآشوريين القديم**، ترجمة: فاروق أسماعيل، (دمشق: ٢٠٠٨)، ص ٥٩.
- (56) Grayson,Assyrian,vol-1,p.21.
- (57) Grayson,Royal...,vol-1,p.22.
- (٥٨) سليمان، **منطقة الموصل في الالف الثاني....**، ص ٧٩.
- (٥٩) أحمد، **ظهور الكورد....**، ج ١، ص ٨٠.
- (60) Grayson,Assyrian,vol-1,p.102.
- (٦١) أحمد، **ظهور الكورد....**، ج ١، ص ٧٩٨.
- (٦٢) سليمان، عامر، **منطقة الموصل في النصف الأول من الالف الأول قبل الميلاد**، في موسوعة الموصل الحضارية، (الموصل: ١٩٩١)، ج ١، ص ٨٢.
- (٦٣) باقر، طه، **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، (بغداد: ١٩٧٣)، ج ١، ص ٤٩٧.
- (٦٤) سمي بهذا الاسم نسبة الى مؤسس السلالة سرجون الآشوري.
- (١٩) الهاشمي، رضا جواد، "التجارة"، في: موسوعة حضارة العراق، (بغداد: ١٩٨٥)، ج ٢، ص ٦٠.
- (٢٠) للمزيد يُنظر: الأحمد، سامي سعيد، **"المستعمرة الآشورية في اسيا الصغرى"**، سومر، مج ٣٣، (بغداد: ١٩٧٧).
- (٢١) الطائي، ابتهاج عادل، **"ملاحم من اثر التراث الفأوني الرافديني في حضارات الشعوب الأخرى دراسة تاريخية"**، مجلة آفاق الثقافة والتراث، عدد ٤٥، (ديي: ٢٠٠٦)، ص ٥٤.
- (٢٢) الأحمد، سامي سعيد، **"التجارة"**، موسوعة الموصل الحضارية، (الموصل: ١٩٩١)، مج ١، ص ١٩٢.
- (٢٣) ساكر، هاري، **عظمة آشور**، ترجمة: خالد اسعد عيسى وأحمد غسان سبانو، (دمشق: ٢٠٠٣)، ص ١١٧.
- (٢٤) ساكر، قوة آشور، ص ١٩٢.
- (٢٥) الأمين، المصدر السابق، ص ٥٤.
- (٢٦) المصدر نفسه، ص ٥٤.
- (٢٧) علي، فاضل عبدالواحد، وسليمان، عامر، **عادات وتقاليد الشعوب القديمة**، (الموصل: ١٩٧٩)، ص ٢٧.
- (٢٨) من المصطلحات الحديثة أستخدامه الاوربيون ويقصد بها المناطق الواقعة الى الشرق من أوروبا حسب مواقعها بالنسبة لبعدها وقربها، ويشمل الشرق الأدنى مناطق من آسيا مثل العراق وبلاد الشام وشبه الجزيرة العربية وإيران والأناضول، وتُعدّ مصر. في إفريقيا جزءاً مكملًا للشرق الأدنى. ساكر، قوة آشور، ص ١٣.
- (٢٩) سليمان، عامر، **الجيش والصلاح في العصر الآشوري، في موسوعة الجيش والصلاح**، (بغداد: ١٩٨٨)، ج ١، ص ٢٤٧.
- (٣٠) سليمان، عامر، **منطقة الموصل في الالف الثاني قبل الميلاد، في موسوعة الموصل الحضارية**، (الموصل: ١٩٩١)، مج ١، ص ٧٥.
- (٣١) عرفت هذه الدولة بثلاثة أسماء، وهي: الدولة الميتانية، والحوارية، وخانيكليات، يُنظر: الزبياري، أكرم سليم، **"العلاقات بين أقطار الشرق الأدنى القديم في القرن الرابع عشر قبل الميلاد"**، مجلة كلية الآداب، عدد ٢٨، (بغداد: ١٩٨٠)، ص ١٣٤.
- (٣٢) ساكر، قوة آشور، ص ٦٦.
- (٣٣) سليمان، **منطقة الموصل في الألف الثاني....**، ص ٧٦.
- (٣٤) ساكر، قوة آشور، ص ٧٩.
- (٣٥) المصدر نفسه، ص ٨٠-٨١.
- (٣٦) عن هذه الحملة يُنظر: أحمد، كوزاد محمد، **توكلتي نورتا منجزاته في ضوء الكتابات المسمارية المنشورة وغير المنشورة**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد: ١٩٩٣، ص ١٢٥ ومابعدها.
- (37) Erze,Afif, Eastern Anatolia and Urartians,Ankara-1992, p.73.
- (38) Luckenbill, D.D, Ancient Records of Assyrian and Babylonuan, Chicago -1926, vol-1, p.57.
- (39) Grayson,A.K,Royal Inscriptions of Mesopotamia, Assyrian Periods, Toronto-1987, vol-1, p.244.
- (40) Grayson,A.K,Assyrian Royal Inscription ,Wiesbaden-1976,vol-2,p.108.
- (41) Smith,S,Early history of Assyria,London-1961,p.44.
- (٤٢) للمزيد يُنظر: أحمد، **توكلتي نورتا....**، ص ١٢٩.

بلاد ما بين النهرين، ترجمة: سعدي فيضي- عبدالرزاق، (بغداد: ١٩٨١)، ص ١١١.

(97) Hammerton, J.A. The Out Line history of the World, London-With out D, p.56.

(98) Luckenbill, op.cit, vol-1, p.213.

(99) Ibid, vol-1, p.213-214.

(100) Hulin, P, "The Inscription on the Curved Therone base of Shalmaneser III", Iraq, London-1963, Vol-35, p.51.

(101) Ibid, 52.

(102) Luckenbill, op.cit, vol-1, p.202.

(103) Grayson, A.K, Assyrian Rulers of The Early first Mellionum, B.C., (859-745 B.C.), Toronto-1996, vol-3, p.21.

(104) Luckenbill, op.cit, vol-1, p.220.

(105) Cameron, G "The Annals of Shalmaneser III, king of Assyria Anew Text", Sumer, Baghdad-1950, Vol-6, p.21.

(106) Laessoe, J, "Building Inscriptions from for Shalmaneser Nimrud", Iraq, London-1959, Vol -21, p.152.

(107) Cameron, The Annals..., p.23.

(108) Luckenbill, op.cit, vol-1, p.209.

(109) Grayson, Assyrian Rulers..., vol-3, p.70.

(١١٠) باقر، مقدمة (١٩٧٣)، ج ١، ص ٤٠.

(111) parpola, S, and watambe, k, "Neo Assyrian treaties and loyalty Oaths", SAA, Helsinki-1988, Vol-2, p.26.

(112) Grayson, Ruyal..., vol-3, p.184.

(113) Grayson, Assyrian Rulers..., vol-3, p.182.

(114) Luckenbill, op.cit, vol-1, p.255.

(١١٥) دياكونوف، إم، **ميديا**، ترجمة: وهيبه شوكت، (دمشق: دت)، ص ١٦١.

(١١٦) كبير السقا، وهو ثاني أهم وظيفة في القصر. فضلاً عن كونه حاكم مقاطعة خاصة بوظيفته كان يتولى قيادة الجيوش أحياناً.

الجبوري، علي ياسين، "الإدارة"، في **موسوعة الموصل الحضارية**، (الموصل: ١٩٩١)، مج ١، ص ٢٤٦.

(117) Luckenbill, op.cit, vol-1, p.255.

(118) Ibid, vol-1, p.255.

(119) Ibid, vol-1, p.255-257.

(120) Millard, A.R, and, Tadmer, H, "Adadnirari III in Syria another stele fragment and dates of his campaigns", Iraq, London-1973 Vol-35, P.58.

(121) Tadmor, H, "The Historical Inscriptions of Adadnirari III", Iraq, London-1973 Vol-35, p.148.

(122) Ibid, p. ١٤٨.

(123) Ibid, p.143.

(124) Saggs, H.W.F, "The Nimrud Letters", Iraq, London-1959, Vol-21, part-5, p.176.

(١٢٥) روج، **العراق القديم**، ترجمة: حسين علوان حسين، (بغداد: ١٩٨٤)، ص ٩٠.

(١٦٥) باقر، مقدمة (١٩٧٣)، ج ١، ص ٩٨.

(66) Grayson, Assyrian, vol-1, p.82.

(١٦٧) تقع هذه البلاد جنوب ميليد (ملاطية) وتمتد مدينة كموخ جنوبي الفرات إلى مملكة كركميش من جهة الشمال. شيت، علاقة بلاد آشور مع بلاد الأناضول...، ص ٨٦.

(68) Grayson, Assyrian, vol-1, p.86.

(69) Luckenbill, op.cit, vol-1, p.125.

(70) Ibid, vol-1, p.126.

(٧١) Ibid, vol-1, p.126.

(٧٢) وهو النهر الذي يجري شرقاً من جبال الكاشياري ليلتقي بنهر دجلة. يُنظر:

Parker, B.J, The Mechanics of Empire the Northern Frontier of Assyria as a Case Study in Imperial Dynamics, Helsinki - 2001, p.162.

(73) Luckenbill, op.cit, vol-1, p.126-127.

(74) Ibid, vol-1, p.127.

(75) Grayson, Assyrian, vol-2, p.99-100.

(76) Ibid, vol-2, p.100.

(٧٧) عن هذه الحملة يُنظر:

Luckenbill, op.cit, vol-1, p.126-127.

(78) Ibid, vol-2, p.101.

(79) Salvine, Marjo, "On the location of Hubushia", SAA, vol-2, 1997, p.110.

(٨٠) ساكز، قوة آشور، ص ٩٠.

(٨١) إله الظواهر الطبيعية (البرق والرعد والأمطار).

Porter, B.N. One God or Many, Newyourk-2000, p.237.

(82) Olmstead, A.T, History of Assyria, London-1960, p.77.

(٨٣) ادي شير، **تاريخ كلدو آشور**، (بيروت: ١٩١٣)، ج ١، ص ٩٠.

(٨٤) كيروري: وهي المنطقة الممتدة من كويسنجق إلى رانية. للمزيد يُنظر:

, Iraq, London-1980, Vol- "The Land of Kurruri" Saggs, H.W.F, 42, p.80.

(٨٥) Porter, The Mechanics, p.167-168.

(٨٦) Luckenbill, op.cit, vol-1, p.147.

(٨٧) Porter, The Mechanics, p.163.

(٨٨) Luckenbill, op.cit, vol-1, p.148.

(٨٩) Grayson, A.K, Assyrian and Babylonian chronicles Vol-4, Newyourk-1975, p.89.

(٩٠) ساكز، **قوة آشور**، ص ١١٠.

(٩١) Porter, The Mechanics, p.168.

(٩٢) عبدالله، المصدر السابق، ص ١٣٠.

(٩٣) Luckenbill, op.cit, vol-1, p.155-156.

(٩٤) Ibid, vol-1, p.157.

(٩٥) Ibid, vol-1, p.181-182.

(٩٦) مملكة قوية تمركزت في المنطقة الواقعة حوالي بحيرة وان وقد استغرقت فترة أزدهارها من سنة ٩٠٠ إلى ٦٠٠ ق.م. ابونهايم، ليو،

(أماي) أو (مادا). أحمد، ورشيد، المصدر السابق، ص ١١١. للتفصيل عن الميدين. يُنظر: دياكونوف، المصدر السابق. (١٤٥) الأمين، المصدر السابق، ص ٥٩.

(126) Salvine, Marjo, " Assyrian and Urartaen Written sources for Urartaean History", Sumer, Baghdad-1986, Vol-42, p.156. (١٢٦) زكي، المصدر السابق، ص ١٧٢.

(128) Luckenbill, op.cit, vol-1, p.278.

(129) Wiseman, D.J, "Afragmentary Inscription of Taglath Pileser III from Nimrud", Iraq, London-1956, Vol-18, p.119.

(١٣٠) ساكز، هاري، **عظمة بابل**، ترجمة: عامر سليمان إبراهيم، (بغداد: ١٩٧٩)، ص ١٤١.

(131) Snell, D.C.S, Life in the Ancient Near East 3110-332 B.C, Newyork -1997, p79.

(١٣٢) تقع هذه المنحوتة في مضيق جبلي يعرف بأسم دهركهلا شيخ أحمد عند منحدر (كرئ رقةش) بمعنى التل الاسود ويقع الممر في أقصى شمال غربي مركز محافظة دهوك، وقد اكتشفت هذه المنحوتة لأول مرة من قبل المديرية العامة للآثار العراقية وذلك عندما أوفدت الهيئة محمود الأمين إلى المنطقة، فتمكن من اكتشاف المنحوتة سنة ١٩٤٧ في وسط ممر جبلي، وهو الممر التي يؤدي إلى قرية زيناوه في قضاء زاخو. البرواري، حسن أحمد قاسم، **رموز الآلهة في منحوتات منطقة بادينان (دراسة حضارية)**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة صلاح الدين، أربيل: ٢٠٠٢، ص ٣٢ وما بعدها.

(133) Inscription of Taglathpileser at Milamargi", Sumer, Baghdad-1973, Vol-39, p.175.

(134) Saggs, H.W.F, "Historical Texts and Fragments of Sargon II of Assyria", Iraq, London-1975 Vol-35, p.15.

(١٣٥) **سميت** بالحملة الثامنة لأنها حدثت في السنة الثامنة لحكمه والذي قاد الحملة بنفسه.

(١٣٦) عن الحملة الثامنة، يُنظر:

Saggs, H.W.F, "Assyrian Warfare in the Sargiond period", Iraq, London-1963, Vol-25, p.147ff.

(137) Mellart, J, The Archoeology of Ancient Turkey, London- '978, p.95.

(138) Luckenbill, op.cit, vol-2, p.8-9.

(١٣٩) تقع شمال مدينة رواندوز بـ ٨ كيلومترات، وهي مدينة دينية اورارتية مهمة وكانت مركزاً لعبادة الإله القومي للأورارتيين (الإله خالديا أو هالديا).

Erzen, op.cit, p.78.

(140) Ibid, vol-2, p.10.

(141) Saggs, H.W.F, The Assyrians, the People of Old Testament, Oxford-1975, p.168.

(١٤٢) زكي، المصدر السابق، ص ١٧٢.

(143) Luckenbill, op.cit, vol-2, p.122.

(١٤٤) من القبائل التي سكنت المنطقة الواقعة شرق جبال زاكروس وأخذوا من أكتانا (همدان) مركزاً لهم. مينورسكي، **"الأكراد أحفاد الميدين"**، مجلة المجمع العلمي الكردي، عدد ١، مج ١، (١٩٧٣)، ص ٥٥٣ وما بعدها؛ جاء أول ذكر للقبائل الميدين في كتابات الملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م) الذي قام بحملة عسكرية ضد القبائل الجبلية في تلك المنطقة وجاء أسمهم بصيغة

إسهام قصور واحة فكيك في رسم المشهد السياسي والثقافي المغربي خلال المرحلة السعدية

د. عبد الرحمان عثمانى

باحث في التاريخ والتراث

أكاديمية فاس

مكناس – المملكة المغربية



ملخص

أسهمت قصور واحة فكيك في إبراز معالم التاريخ السياسي والثقافي المغربي عبر المراحل التاريخية، فما وصلنا من أخبار خلال المرحلة الحديثة يجعلنا نطمئن إلى ما لهذه التجمعات السكنية المتاخمة للشريط الحدودي من دور كبير في إبراز الشخصية المغربية في شتى المجالات، على الرغم من محدودية الوثائق التاريخية التي مدّتنا بإشارات وإفادات بخصوص الفترات السابقة لحكم الأشراف السعديين للمغرب. من هنا نؤكد بأن الصورة التاريخية للمغرب لا يمكن أن تكتمل إلا بالبحث المونوغرافي *Monographic Research* والاهتمام بالتاريخ الجزئي الذي يلملم شتات أخبار المناطق والحواسر والقصور. خاصة البعيدة منها عن مراكز الحكم وإدارات السلطة المركزية، ويواسطته نسد فراغات التاريخ العام في تجلياته وصوره المختلفة. صحيح أن الأمر يبدو صعباً خاصة في ظل قلة المصادر التاريخية التي تناولت بلاد فكيك، على الأقل، إلى غاية قيام الدولة السعدية، غير أن النبش في متونها وربط بعضها ببعض الآخر قد يفسح المجال أمام الباحث للخروج باستنتاجات وخلاصات؛ تمكنه في الأخير من تتبع كثير من جوانب تاريخها السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي.

كلمات مفتاحية:

بلاد فكيك، قصور، الدولة السعدية، الحركة الثقافية، العثمانيون

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٣ نوفمبر ٢٠٢٤

تاريخ قبول النشر: ٢٨ ديسمبر ٢٠٢٤



10.21608/kan.2024.333584.1181

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الرحمان عثمانى. "إسهام قصور واحة فكيك في رسم المشهد السياسي والثقافي المغربي خلال المرحلة السعدية". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد التاسع والستون، يونيو ٢٠٢٥. ص ٢٩ - ٣٧.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: sbaik.2807@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان 4.0 This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

العصر الوسيط حسب علمنا. وبعده نلتقط أخباراً متفرقة ومفيدة عند ابن خلدون في كتابه "العبر"^(٢)، خاصةً عند حديثه عن البطون والفروع الزناتية وعلاقتها بأرض فكيك وما شيدته من عمائر وقصور بالمنطقة، ثم ما قدمه الحسن الوزان من أوصاف ونعوت حول القصور الفكيكية وأهميتها الاقتصادية^(٣).

غير أنه ابتداءً من مرحلة حكم السعديين للمغرب بدأت ملامح فكيك تظهر جلياً في بعض الكتب والنصوص التاريخية بما فيها الوثائق المحلية، والتي أثبتت باللمس خضوع المنطقة للحكم السعدي خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، مما يفسح المجال لعموم الباحثين لاقتفاء أثر أخبارها والغوص في جوانب كثيرة من تاريخها، وبالتالي يمنحهم إمكانية تناول تاريخ فكيك في كثير من تفاصيله مقارنة بالفترات السابقة.

لقد اتجهت أنظار السعديين إلى فكيك منذ فترة حكم السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ (٩٦٥ - ٩٨٢هـ / ١٥٥٧ - ١٥٧٤م)، لأهميتها ومكانتها الاستراتيجية والعسكرية، ليزداد نفوذهم فيها خلال مرحلة حكم أحمد المنصور الذهبي (٩٨٦ - ١٠١٢هـ / ١٥٧٨ - ١٦٠٣م). عناية المنصور بفكيك جعلته يتخذها منطلقاً رئيساً في حملته نحو تيكورارين وتوات والسودان^(٤)، وعيا منه بما تشكله من نقطة احتكاك وتجاذب بين دولته من جهة، وبين الطموح العثماني للتوسعي من جهة ثانية.

ينقل لنا صاحب "مناهل الصفا" رواية تاريخية تؤكد الأهمية الاستراتيجية لفكيك في التصور العسكري لأحمد المنصور السعدي؛ في إطار بسط نفوذه على المنطقة الشرقية في خضم التدافع السياسي والعسكري بين السعديين والعثمانيين. ولتأكيد التبعية السياسية والعسكرية لمنطقة فكيك للسلطة السعدية فقد جهز المنصور حملته العسكرية لغزو توات وتيكورارين مروراً بفكيك، غير أن قائده العسكري عمر بن محمد، الذي كان على رأس الجيش السعدي، تباطأ بالحملات بفكيك، فلم يتحقق مراد السلطان، فما كان على السلطان إلا أن عزله وصادر أمواله: "ثم ارتحل من بعد ذلك وعاج بالعساكر على فجيج وأقام عليها مورياً باقتضاء خراجها

تتدرج بلاد فكيك ضمن المناطق المغربية الحدودية المتاخمة للقوى السياسية التي حكمت المغرب الأوسط، خاصة مع بداية تفكك الدولة الموحدية، انطلاقاً من القرن (١٣هـ / ١١م)، وانقسام الغرب الإسلامي إلى دول وإمارات مستقلة منها الحفصيون بالمغرب الأدنى وبنو عبد الواد بالمغرب الأوسط، في حين أخذ المرينيون زمام الحكم بالمغرب الأقصى من يد الموحدين. ومنذ ذلك الحين صارت فكيك في خط التماس بين القوى السياسية المتعاقبة على الحكم في المغربين الأقصى والأوسط، وتزايد دورها السياسي خلال المرحلة الحديثة بعد وصول الأشراف السعديين إلى الحكم خلال القرن (١٠هـ / ١٦م)؛ بعد سقوط الدولة الوطاسية بالموازاة مع التوسع العثماني في شمال أفريقيا.

لذلك كان لزاماً على الدولة السعدية مواجهة المد العثماني وتحصين المناطق الحدودية، فكانت فكيك إحدى النقاط الرئيسية التي اتجهت إليها أنظار السعديين منذ تأسيس دولتهم، تأكيداً لسلطتهم عليها أولاً ودرءاً لأي خطر خارجي محتمل ثانياً. فما ظروف وملابسات الوجود السعدي بأرض فكيك؟ وما أهم الأحداث السياسية المواقبة لذلك؟ وما مظاهر الحركة العلمية والثقافية بقصور واحة فكيك إبان المرحلة السعدية؟

أولاً: بلاد فكيك في المشروع السياسي السعدي

نشير إلى أن المصادر التاريخية لم تسهم بشكل كبير في رسم المشهد السياسي لقصور واحة فكيك خلال الفترات السابقة لمرحلة حكم الدولة الموحدية، وبيان علاقاتها السياسية بالسلطة المركزية والدول التي تعاقبت على حكم المغرب إلى حدود العصر الوسيط، اللهم بعض الإشارات المتفرقة المبتوثة في بعضها، كتلك الإشارة التي أوردها صاحب مؤلف "الاستبصار في عجائب الأمصار"^(١) خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي إبان حكم يعقوب المنصور الموحي (ت. ٥٩٥هـ)، حيث قدم وصفاً جغرافياً مقتضباً لفكيك مشيراً إلى كثرة سكانها ووفرة نخيلها، ويعد هذا الكتاب المصدر التاريخي الوحيد الذي حدثنا عن فكيك إبان

قصر العبيدات، حيث وردت في كتاب "تقوية إيمان المحبين" إشارة مهمة تؤكد دخول عبد المالك فكيك، بحيث "إن بعض أشرف البلدة الفييجية سمعوا بخبر الأمير عبد الملك في تلمسان، وقدموا إليه لعله يطرق بلدهم حين رجوعه إلى المغرب، فساعفهم لذلك وجاء معهم بمحلته إلى فيجيج، فأطاع له أهل البلد ونصروه بلا قتال، سوى قرية العبيد"^(١٢).

بعد وفاة محمد الشيخ السعدي سنة (٩٦٥هـ/ ١٥٥٧م) دخلت الأسرة الحاكمة في صراع حول السلطة، تزعمه أبناء السلطان الإخوة الأربعة عبد الله الغالب الذي أسندت له مهمة حكم البلاد من جهة، والثلاثة الآخرين من جهة ثانية وهم عبد المالك وعبد المومن وأحمد المنصور، فبينما هم عبد الله الغالب بإبعاد إخوته عن الحكم محاولاً التخلص منهم، لم يكن أمامهم سوى الهروب والتهيو لاستجماع أسباب القوة للنهوض ضد أخيه، ليحل بهم المقام أخيراً في تلمسان الجزائر في حضرة العثمانيين.

أمام صمت المصادر المغربية عن الصراع السعدي حول الحكم، تبقى الإشارة الواردة في الكتاب المناقبي السابق "تقوية إيمان المحبين"، والإشارة الأخرى التي تضمنها كتاب الراهب "خوان بوتيسا"^(١٣) من أهم الدلائل التاريخية التي تبرز الدور الذي لعبته فكيك بداية حكم الدولة السعدية. يستعرض "خوان بوتيسا" في كتابه ملاحم وبطولات عبد المالك السعدي، لذلك فمتون هذا الكتاب تكون ذات أهمية قصوى في استجلاء جوانب من تاريخ فكيك خلال هذه المرحلة. فبعد تردد الأخوين عبد المالك وعبد المومن على الجزائر وتلمسان، قررا في الأخير التوجه صوب فكيك بهدف السيطرة عليها لتكون قاعدة انطلاقهما في مواجهة أتباع عبد الله الغالب بها، فجرت مواجهة بين الفريقين.

إذن كانت فكيك مسرحاً لمواجهة غير متكافئة بين عبد المالك وعبد المومن ورجالهما، ومن معهم من العلوج المحسوبين على الأتراك المستقدمين من الجزائر ضد عبد الله الغالب بجيشه الكبير عدداً وعدة، فما كان على عبد المالك إلا التراجع في الأخير، "وعندما أيقن أن الانتصار على أخيه عبد الله مستحيل نظراً لقوته وكثرة جنده قرر الفرار من ثغرة أو نافذة في السور لأن الأبواب

وشق عليه الزحف لتوات فتلكاً يلتمس الوليجة من دون ذلك"^(١٤).

رغم البعد الجغرافي لفكيك فقد كان أهل فكيك على درجة كبيرة من الوعي والجد بمجريات الأحداث التي عاشتها المناطق الساحلية في مغرب القرن (١٠هـ/ ١٦م)، خصوصاً مراحل الضعف وما صاحبها من احتلال للثغور المغربية من قبل الإسبان والبرتغال. فبالرغم من قصور تمثيل السلطة المركزية خلال المرحلة الوطاسية وبداية حكم الدولة السعدية بالمنطقة، نظراً لاضطراب الأحوال في الصحراء الشرقية^(١٥)، فقد شارك الفكيكيون في معركة وادي المخازن سنة (٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م) بقيادة أبي القاسم بن عبد الجبار الفجيحي (ت. ١٠١١هـ/ ١٦٠٢م)^(١٦)، لما عرف عنه من شجاعة ومهارة حربية فائقة^(١٧)، ولما تميز به الفكيكيون من تفوق في صناعة السلاح.

ولا نستبعد في هذا الإطار أن اتخذ السعديون من فكيك قاعدة عسكرية حقيقية، ارتباطاً بالصراع الذي نشب بين أفراد الأسرة الحاكمة أولاً، ثم التدافع السياسي الطارئ في المنطقة بين الأشرف السعديين والدولة العثمانية ثانياً، نستنتج ذلك من الإشارة التاريخية التي نقلها الراهب خوان بوتيسا تتعلق بقصبة استقر بها مولاي عبد الملك السعدي عدة أيام مع بداية النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي^(١٨)، وهي التي ستتأقلمها المصادر التاريخية خلال فترة حكم العلويين أيام المولى إسماعيل، وهي المسماة بـ: "قصبة المولى عبد المالك بن إسماعيل"^(١٩).

ثانياً: فكيك وصراع السلطة بين ملوك الدولة السعدية

كانت فكيك^(٢٠) مسرحاً لأحداث سياسية مفصلية في تاريخ الدولة السعدية، فقد توجه عبد المالك السعدي (٩٨٤ - ٩٨٦هـ/ ١٥٧٦ - ١٥٧٨م) صوب فكيك قاصداً إيها من تلمسان، بعد رجوعه إلى المغرب لاستعادة العرش في خضم التنافس السياسي حول السلطة بينه وبين أخيه عبد الله الغالب (٩٦٥ - ٩٨٢هـ/ ١٥٥٧ - ١٥٧٤م)، وقد تمكن من إخضاعها والسيطرة عليها رغم المقاومة التي لقيها من أهلها خاصة من أهل

بمجرد وصول الباشا التركي إلى الجزائر كاتبه المنصور ليذكره بأواصر الجوار والأخوة الدينية التي تجمع بين الإيالتين، ويشكو له ما صدر من صاحب تلمسان بخصوص الهجوم على فكيك، ويؤكد له أنه لم تمتد قط سلطة العثمانيين في وقت من الأوقات إلى فكيك إلا في ظروف استثنائية، وقد يقف هذا شاهداً على تشبث السعديين بفكيك بكونها أرضاً مغربية، "ثم مما تعرفونه وفقكم الله أنه انتهى إلينا في هذا التاريخ، أن صاحب تلمسان يروم مد اليد لأعراف عمالتنا بلاد فجيج، ولا يخفى على كل ذلك ما بين إيالتنا الحسنية والإيالة العثمانية من الوصلة، التي قامت في أشباحها وشائج الموالة مقام الأخوة الصريحة حتى لا سبيل إلى إدخال اعلال ولا اقتحام واختلال بين مبانيها الصحيحة، أنه لم تمتد قط يد وال من الولاية ولا تخصصت عين جاب من الجباة فيما مضى من الأنام والأوقات لناحية فجيج إلا هفوة شاذة، وزلة كانت فادة من حسن سوري في عهد ولاية رمضان باشا" (١٨).

ثالثاً: زوايا فكيك في خدمة الدولة السعدية

ارتبطت زوايا فكيك بالسلطة المركزية على عهد السعديين والعلويين على المستويين السياسي والروحي، من خلال ما كانت تقوم به من أعمال صلح وتهدة للأوضاع بفكيك مستغلة نفوذها الروحي للتأثير على الناس، مما جعلها تحظى بظواهر التوقير والاحترام، خاصة منها زاوية عبد الوافي وزاوية آل عبد الجبار.

إن انتصار أهل فكيك للجانب السعدي، سينعكس على طبيعة العلاقات المتينة بين الطرفين، وهذا ما تترجمه ظواهر التوقير والاحترام التي خص بها السلاطين السعديون وجهاء فكيك والساشرين على تسيير شؤونها، ومنهم مرابطوها وشرفاؤها من آل عبد الجبار وآل عبد الوافي. ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ظهير أحمد المنصور إلى أبي محمد عبد الوافي بن أحمد الفجيجي (١٩)، بتاريخ ٩٩٢هـ (٢٠)، جاء فيه: "يستقر هذا المجدد الكريم المنوط بالبر العميم بيد المرباط الخير الديني الفجيجي وإخوته وأولاده وولد أخته عمر ابن عبد الرحمان الشريف ومن لاد به من

كلها كانت محتلة واستطاع الوصول إلى حيث يوجد أخوه عبد المومن الذي كان قلقاً عليه بعد أن تركه بالقصبة يحيط به الخطر من كل جانب" (١٤). إن هذا النص التاريخي يجعل فكيك في قلب الصراع السعدي من أجل السلطة، نظراً لأهميتها العسكرية في تلك الفترة، لما توفره من حماية وتحصين بأسوارها وأبوابها، بل يشير النص السابق إلى استقرار مولاي عبد المالك بقصبة بها هو وبعض من أنصاره (١٥).

وقد فطن السلاطين السعديون منذ الوهلة الأولى إلى ضرورة تأكيد سلطتهم على التجوم الصحراوية درءاً لخطر الأتراك العثمانيين، وتجنباً لمطامعهم الرامية إلى توسيع حدود إمبراطوريتهم التي باتت قريبة من الحدود المغربية الجزائرية بعد الاستيلاء على المغرب الأوسط، لذلك كانت فكيك مجالاً للاحتكاك بين العثمانيين المتواجدين بالإيالة الجزائرية وبين الدولة السعدية، وقد أدرك العثمانيون هدف حملة أحمد المنصور نحو السودان، وهو تأكيد سلطته على فكيك التي باتت تمثل إحدى أهم محاور التجارة الصحراوية بعد التحول الذي عرفته التجارة الدولية على إثر احتكار الإيبيريين للتجارة الساحلية، فأصبح الجيش العثماني يثير كثيراً من القلاقل والمناوشات ضد أهل فكيك، انتهت بإعلان الحرب عليهم أواخر القرن (١٠هـ / ١٦م) تجسدت في معركة (٩٩١هـ / ١٥٩٣م) هزم فيها الفكيكيون، ووقع الصلح بين الطرفين على أن يدفع أهل فكيك للأتراك غرامة مالية قدرها ألفي دينار نصفها نقداً والنصف الآخر عينا، مقابل خروجهم من فكيك ورفع الحصار عنها (١٦)، ونجد ما يعضد هذا في إحدى الوثائق المحلية ورد فيها: "تاريخ نزول الترك بلاد فجيج، وذلك أول المحرم، ووقع القتال والهرج بينهم وبين أهل فجيج كثيراً، وأخذ منهم الترك في مطلبهم عشرين مائة دينار نصفها سلعة ونصفها دراهيم وذلك عام واحد وتسعين وتسعمائة" (١٧).

يستشف من هذه الواقعة مدى حرص الفكيكيين على الارتباط السياسي بالسلطة المركزية السعدية دون سواها، رغم ما تعرضوا له من مضايقات وتهديدات من لدن الأتراك، إذ سرعان ما تجاوب المنصور مع موقف أهل فكيك لصالح السعديين وانتصارهم لهم. حيث

التخوم الصحراوية رغم البعد الجغرافي، ومن جملة تلك المراسلات السلطانية الأخرى تلك الموجهة من المنصور السعدي إلى أحد فقهاء فكيك لعله أبو القاسم بن عبد الجبار يعلن فيها مدى اهتمامه ورعايته لها، ويتضح من مضمون نصها أنها رسالة جوابية من إنشاء محمد بن علي الفشتالي، وهي غير محددة التاريخ تؤكد في ثايلها ذلك الاتصال المستمر للفقهاء المذكور بالسلطة السعدية، ومما جاء فيها: "... وما أشرتم إليه من عمارة تلکم البلاد الفجيجية صونا لها، فاعلموا أنها بلدنا التي لا نوالي أمورها بالإغفال، وأن حياطها منا لعلی بال بيد أنا أخرنا أمرها حتى تقدموا إن شاء الله على أبوابنا العلية فنبرم معكم أمر تغغيرها، لأنکم أخبر بأحوالها وأعرف بأمورها مما تقوم به من الجيش وكيفية الغرض المراد منها، بحيث تعزمون على انتجاع موارد هذه الأبواب الكريمة إن شاء الله، فتوكلوا على الله فإن أبواب القبول لكم مفتوحة، وقواعد الاعتناء بكم مفرحة مشروحة، وآرابكم من هذا المقام مقبولة وبأسباب التيسير موصولة إن شاء الله." (٢٥).

رابعًا: علاقة الثائر ابن أبي محلي بأرض فكيك خلال المرحلة السعدية

نشير هنا إلى أن الوضع السياسي للدولة السعدية سيتغير بعد وفاة السلطان أحمد المنصور، وما تلا ذلك من صراع محتدم بين أبنائه، مما فسح المجال لبعض الثوار والمتمردين من أخذ المبادرة وقيادة ثورات ضد النظام السعدي المتأزم، وما يهمننا في ذلك الشق المتصل بفكيك التي أضحت مسرحاً لأحداث سياسية سواء من قبل أبناء الأسرة الحاكمة أو من هم خارجها. فهذا شخص يدعى يوسف العتروس قدم نفسه لأهل فكيك على أنه الأمير زيدان بن أحمد المنصور، واستطاع أن يستميل إليه عامة فكيك وخاصتهم ومنهم الشيخ عبد القادر السماحي الذي أمر ووافق "أهل فجيح أن ينصروا يوسف العتروس ظنا منهم ومنه أنه الأمير زيدان، وذلك أن الشيخ رضي الله عنه اعتمد في ذلك على الشهود، والذين أتوه وحلفوا له بأيمانهم اللازمة إلا أنه الأمير زيدان فقدم الشيخ الشريعة على الحقيقة في ذلك" (٢٦)، الخبر نقله كذلك ابن أبي محلي (ت. ١٠٢٢هـ / ١٦١٣م).

الخدام المتعلقين به، ليتجدد له به حكم ما استظهر به من أوامر سلفنا الكريم رحمه الله المتضمنة احترام الجميع بالاحترام التام والرعي الجميل المستدام، حيث لا سبيل لمن يطوف بساحته رعيًا لما هم عليه من خدمتنا وما عرفوا به فمن وقف عليه خدامنا بالبلاد الفجيجية فليعمل بمقتضاه ولا يخالفه ولا يتعداه، ولا بد وكتب في القعدة الحرام الذي من عام اثنين وتسعين وتسعمائة عرفنا الله بمنه وكرمه" (٢١).

نستنتج إذا مدى اهتمام الأشراف السعديين بأهل فكيك عامة وبأرباب الزوايا والصلحاء والمرابطين منهم خاصة، من ذلك أيضا رسالة سابقة بعث بها محمد الشيخ السعدي (٩٥١ - ٩٦٥هـ / ١٥٤٤ - ١٥٥٧م) إلى أبي القاسم بن عبد الجبار بمناسبة توسطه لدى السلطان في إطلاق سراح مجموعة من التجار والبنائين والطلبة الفكيكيين المستقرين بفاس، الذين أبوا الدخول في طاعة محمد الشيخ السعدي بعد دخوله مدينة فاس سنة (٩٥٦هـ / ١٥٤٩م) جاء فيها: "أهل فجيح أقرب لي من كل أحد. هم إخواني، ولا يأمن قلبي إلا وسط أهل فجيح وفيلالة، هم أهل بلادنا ونحن وإياهم كعضو واحد، وإخواننا" (٢٢)، ويتضح من أسلوب الرسالة ومنتها المكانة التي يحتلها أهل فكيك وشرفائها لدى السعديين، مما كان له أثر إيجابي في طبيعة العلاقة السياسية بين الطرفين وجعل من فكيك حصنا منيعا للدولة السعدية الناشئة في مواجهة الأطماع العثمانية التوسعية.

هذه العلاقة الروحية بين السلطة المركزية السعدية ومنطقة فكيك تؤكدتها إحدى الإشارات الهامة الواردة في كتاب "تقوية إيمان المحبين"، التي تعكس هي الأخرى مظاهر التقدير والاحترام التي حظي بها شيوخ الزوايا من قبل السلاطين السعديين، وصلت إلى حد تبادل الرسائل بين الطرفين، ومثال ذلك ما جرى بين الشيخ عبد القادر السماحي (ت. ١٠٢٥هـ / ١٦١٦م) (٢٣) وأحمد المنصور الذهبي، حيث كتب الأمير المذكور كتاباً للشيخ ليشيع له الاسم كي يتخذ شيخاً، وكان يخدم الشيخ ويتكاتب معه إلى أن مات (٢٤).

هذه الرسائل والظواهر تؤكد بالملاموس الارتباط الفعلي الوثيق بين السلطة المركزية السعدية وهوامشها الجنوبية الشرقية، وتشكل فكيك إحدى مراكزها في

قضى بضع سنوات يتحرك فيها بين قصور فكيك والشلالات وبنى كومي ليهيئ لنفسه أسباب القوة لإعلان "مهديته"، مدشنا بداية ثورته ضد أبناء المنصور، زاحفا نحو مراكز التي دانت له بعد تفوقه على الكتيبة السلطانية للمولى زيدان، غير أن الأمر لم يدم طويلاً حيث تمكن جيش السلطان من القضاء عليه بعد ثلاث سنوات فقط من ثورته سنة ١٦١٣م.

خامساً: ازدهار الحركة العلمية والثقافية بفكيك خلال المرحلة السعدية

شهدت قصور واحة فكيك نهضة علمية كبيرة منذ وقت مبكر وصلت أصدائها إلى مناطق بعيدة، تزعمتها كثير من الأسر الإدريسية التي نزحت من مدينة فاس انطلاقاً من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي على عهد عبد الرحمان الودغيري، كالمخولفين وآل عبد الوافي بقصر الوداغير وآل عبد الجبار بقصر المعيز والسكونيين بقصر الزاوية الكبيرة... وتبلورت هذه الحركة العلمية في زوايا صوفية وتربوية عرفت أزهى أيامها منذ القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي وتوجت بتأسيس مجموعة من الخزانات العلمية ضمت نفائس الكتب والمخطوطات في شتى العلوم والفنون نافست نظيراتها بالمدن والحوضر الكبرى.

لا شك في أن الخزانات العلمية سواء كانت عامة أو خاصة، نشأت وترعرعت بوجه خاص في كثير من الحواضر الكبرى، ونالت فكيك نصيبها من تلك المنشآت العلمية، تواتر عدد منها على ألسن أهلها كخزانتي بني سكون والراشديين^(٣١)، ونعثر في إحدى المخطوطات على إشارة مهمة حول خزانة كبيرة تعود للمخولفين بقصر الوداغير تسمى بخزانة "فقيق" وهي خزانة عظيمة تضم من الكتب والمخطوطات ما لا تجده في خزانة دار السلطان^(٣٢)، وقد أخذوا معهم نفائس كتبها عند مغادرتهم لفكيك إلى مقرهم الجديد بسيدي مخلوف بالمغرب الأوسط بلغت حمل سبعة إبل من الصناديق تعود إلى عهد مولاي أحمد بن علي المخولفي (القرن ١٠هـ / ١٦م)^(٣٣)، غير أن الدلائل الوثائقية والشواهد المادية تحتفظ فقط بواحدة منها تردد صداها

في مؤلف السيف البارق بقوله: "... وقد أظهر لهم (أهل فكيك) رجلاً مثلثاً فقال لهم انصروه فإنه مولانا زيدان فنصروه عن إذنه وإن شك فيه بعضهم..."^(٣٤).

لا يخفى على كل متصفح لتاريخ السعديين زمن اضمحلالهم أو بالأحرى أواخر عهدهم ذلك الصراع بين أبناء المنصور حول العرش مما فسح الطريق أمام من هو خارج دائرة الأسرة الحاكمة ليتسلق طموح السطو على حكم المغرب مستغلاً تداعي أركان الدولة الشريفة، إنه الثائر ابن أبي محلي السجلماسي. لن نخوض في سرد حياة هذا الرجل فقد أغنتنا الدراسات عن ذلك^(٣٥)، ولكن بالمقابل سنحاول إلقاء الضوء عليه من باب ارتباطه بفكيك واتخاذها قاعدة أساسية في ثورته ضد أبناء المنصور السعدي.

قاد ثورته ضد السعديين من فكيك، مستغلاً ضعف الدولة بعد فترة من الصراع بين أبناء أحمد المنصور الذهبي، فجمع الناس حوله وأقنع ثلة منهم باتباعه معلنا بذلك مواجهة مع الأمير زيدان، فكانت فكيك محطة انطلاق ثورة ابن أبي محلي نحو مراكز، فقد ورد ما يؤكد ذلك من خلال ما ذكره عرضاً صهره وخصمه عبد القادر السماحي "أن بعض الفقهاء كانوا يقرؤون عنده في صحيح البخاري، ثم إنهم يوماً اشتغلوا بذكر سيدي أحمد بن عبد الله بن القاضي المحلي، وذلك حين قدم بجيوشه لجهة المغرب"^(٣٦)، مما يدل على أن خبره داع بين صفوف الناس وسمعه عامتهم وخاصتهم.

لقد نقل لنا صاحب "تقوية إيمان المحبين" إشارات مهمة حول تواجد ابن أبي محلي الثائر بفكيك ليقود ثورته ضد أبناء المنصور انطلاقاً منها، مستغلاً ضعف الدولة السعدية جراء الصراع بين الأمراء السعديين، فجمع الناس حوله وأقنع ثلة منهم باتباعه معلنا مواجهته ضد الأمير زيدان. تفيدنا إحدى الإشارات التاريخية التي أوردها أبو بكر السكوني حقيقة دخول أهل فكيك في طاعة ابن أبي محلي، حتى أولئك المحسوبين على الشيخ عبد القادر السماحي، "ومن مناقبه رضي الله عنه أن الشيخ "أقنان" كان من خدامه، ثم أنه خالف عنه ولم يصدقه ولم يلتفت إليه ومال إلى سيدي أحمد بن عبد الله القاضي المحلي..."^(٣٧)، هكذا أضحت فكيك محطة انطلاق ثورة ابن أبي محلي نحو مراكز. لذلك يكون قد

سيدي عبد الجبار لشيخنا القاضي قد جرت عادة جميع من مر بفجيج من كل من يتعاطى العلم بزيارتها^(٣٨).

ومن جانب آخر فقد واكبت الأسر بفكيك ظاهرة الاحتفال بالأعياد الدينية كعيد المولد النبوي ويوم عاشوراء، فقد كانت مساجد فكيك، كل سنة، فضاء لإحياء ذكرى المولد النبوي نظراً لمكانتها في نفوس الفكيكيين كغيرهم من المغاربة الذين واطبوا على هذه الذكرى، والتي أخذت بعدها الرسمي بداية من العهد السعودي زمن حكم أحمد المنصور الذهبي^(٣٩)، هكذا كانت تعقد حلقات السماع والإنشاد يؤطرها كبار أئمة فكيك من بني عبد الجبار وغيرهم، ويخص هذا اليوم بإطعام القائمين عليه من المنشدين والحاضرين، ومن الناس من أوقف بعض أملاكه لهذا اليوم الاحتفالي^(٤٠).

وجرت العادة أن يحتفل الفكيكيون كذلك بيوم عاشوراء الذي يصادف العاشر من شهر محرم، إذ ثبت، في وثيقة محلية يرجع تاريخها لسنة (٩٨٨هـ / ١٥٨٠م)، احتفال أهل فكيك بيوم عاشوراء، حبست عليه امرأة تنتمي إلى قصر الحمام الفوقاني نخلة من "بوقفوس" يهياً منها الطعام للمحتفلين^(٤١).

إضافة إلى ما يقوم به الناس من زينة وتطيب وتظهر في يوم ذكرى المولد النبوي، فقد أكدت دراسة فرنسية إحدى الطقوس المرتبطة بزيارة الأضرحة خلال هذه المناسبة الدينية، والتي لا زالت قائمة إلى وقتنا الحاضر، تمارسها النساء على وجه الخصوص، وهي إشعال الشموع في الأضرحة^(٤٢)، حيث يسهل على الملاحظ أن يرى أثر الشموع في كوات جدران الكثير منها.

خلاصة القول فقد دأب أهل فكيك على الاحتفال بعيد المولد النبوي من فاتح ربيع الأول، بتلاوة القرآن والبردة ما بين صلاتي المغرب والعشاء إلى غاية اليوم العاشر من الشهر نفسه، وفي اليوم الحادي عشر منه يقوم الناس الليل إلى الفجر، وجرت العادة أن تكون وجبة الغداء في المسجد بالكسكس المحبس، ويستمر الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم في المساجد الفكيكية بحفلة في الثاني عشر من الربيع النبوي وأخرى في الثامن عشر منه، يأكل الحاضرون فيها من طعام الأحاباس^(٤٣).

في كثير من المناطق، ألا وهي خزانة بني عبد الجبار بقصر المعيز التي تلقب بـ: "دار العدة".

يرتبط اسم خزانة "دار العدة" بمؤسسها الأول الشيخ سيدي عبد الجبار بن أحمد البرزوزي الفكيكي (ت. حوالي ٩٢٠هـ / ١٥١٤م)، وتصنف ضمن الخزانات التراثية الحبسية، وعدها المرحوم محمد حجي ضمن المكتبات العامة التي استقطبت العلماء والطلبة طوال فترة حكم السعديين وما بعدها^(٤٤)، ولعل وجود قبور تعود لطلبة مصريين -تفاقتهم ألسن أهل فكيك تم دفنهم داخل ضريح سيدي عبد الجبار بقصر المعيز خير شاهد على الاستقطاب العلمي لفكيك خارج حدودها، فسار إليها الطلبة يلتمسون العلم من علمائها وفقهائها ويجيزونهم في مختلف فروعها، وتشكل هذه الخزانة أكبر صرح ثقافي وعلمي بشهادة من زارها ونهل من كتبها، ونخص بالذكر شيوخ الزاوية الناصرية ومن سار في ركبهم الصحراوي من الحجاج ابتداء من القرن (١٠هـ / ١٦م)، إلى جانب الباحثين المتأخرين. ويفيد التواتر أن هذه الخزانة دشنت بجمولة أربعين بغير من المؤلفات والمخطوطات^(٤٥)، تهم مختلف العلوم والفنون من حديث وفقه وآداب وتاريخ وغيرها من العلوم الأخرى، تم جلبها من حواضر فاس وتلمسان والمشرق الإسلامي، وفي هذا الصدد يشير الهشتوكي في رحلته "هداية الملك العلام" إلى ما يلي: "وزرنا صالحى فجيج وعلمائها السيد عبد الجبار وأولاده وأصحابه ودخلنا إلى خزانته العظيمة وتبركنا بها ورأينا فيه كتباً كثيرة"^(٤٦).

لولا أهميتها العلمية، من خلال ما تزخر به من نفائس المخطوطات وأمهات الكتب والمصنفات، لما أمر أبو سالم العياشي تلميذه القاضي أحمد بن سعيد المجيلدي بزيارتها، فيما نقله الهشتوكي في رحلته مخاطباً القاضي المجيلدي: "واجتمع ولا بد مع أولاد سيدي عبد الجبار الفجيحي واطلب منهم أن يدخلوك إلى خزانته وتبرك برؤيتها وزيارتها"^(٤٧)، بل يشير في موضع آخر من رحلته إلى أن زيارة خزانة "دار العدة" بقصر المعيز تقليد قديم دأب عليه أهل العلم ممن مر بفكيك: "ما أمر به شيخنا العياشي من دخول خزانة

ومن جانب آخر فقد ازدهرت الحركة العلمية والثقافية بفكيك زمن حكم السعديين قادتها أسر بعينها، تبلورت مظاهرها في أحضان زوايا صوفية وعلمية استغلت نفوذها الروحي للتأثير في المجتمع الفكيكي والدعاية السياسية للسلطة الحاكمة، مما بوأها مكانة مرموقة لدى السلطة الحاكمة ترجمتها ظواهر التوقير والاحترام التي حظيت بها على امتداد حكم السعديين.

الإحالات المرجعية:

- (١) مؤلف مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص. ١٧٩.
- (٢) ابن خلدون (عبد الرحمان)، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ج. ٦، دار الفكر اللبناني، بيروت، ٢٠٠٠، صص. ١٣٥-١٣٦.
- (٣) الوزان (الحسن بن محمد)، **وصف إفريقيا**، ج. ٢، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. ٢، ١٩٨٣، صص. ١٣٢-١٣٣.
- (٤) بنغلة (مصطفى)، "مسألة الحدود الشرقية في القرن ١٠هـ / ١٦م"، **مجلة جمعية تاريخ المغرب**، وجدة - العدد الأول، ١٩٩٣هـ / ١٤١٤م، مطبعة نكاد (سنيب)، وجدة، ص. ٦٤.
- (٥) الفشتالي (أبو فارس عبد العزيز)، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء**، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، د. ت، ص. ٦٥.
- (٦) حجي (محمد)، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، ج. ٢، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التاريخ (٢)، مكتبة فضالة، ١٩٧٧، ص. ٥١٢.
- (٧) سليل أسرة بني عبد الجبار العالمية والمؤسسة للزاوية العلمية المعروفة باسمهم والتي ذاع صيتها بفكيك منذ القرن (١٠هـ / ١٦م)، وهو من علماء فكيك المشهورين وكان كثير التردد على فاس، وقد تدخل لدى السلطان محمد الشيخ السعدي لإطلاق سراح سجناء فكيك إلى جانب عالم فكيكي آخر هو الداودي بن أحمد. للمزيد انظر: هلال (العربي) وبوزيان (محمد بنعلي)، "الفكيكي أبو القاسم بن محمد بن عبد الجبار"، **معلمة المغرب**، ج. ١٩، م. س، صص. ٦٥-٦٥.١.
- (٨) حجي (محمد)، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، ج. ٢، م. س، ص. ٥١٤.
- (٩) اللوه (آمنة)، "نصوص إسبانية حول المغرب في القرن السادس عشر"، كتاب الراهب خوان بوتيسستا عن مولاي عبد المالك"، **مجلة البحث العلمي**، المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، العدد ٣٤، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص. ١٢٢.
- (١٠) من الإشارات التاريخية التي نسوقها في هذا الإطار ما ذكره صاحب الرحلة الناصرية سنة ١١٢٢هـ / ١٧١٠م بقوله: "ونزلنا منزل الحاج اصفرارا عند دار الإمارة بإزاء قصر العبيد"، ابن ناصر الدرعي (أبو العباس أحمد بن محمد)، **الرحلة الناصرية**، تحقيق وتقديم عبد الحفيظ

وكانت مساجد فكيك يقرأ فيها صحيح البخاري في شهر رمضان، وتقام حفلتان دينيتان في بداية شهر الصيام وفي نهايته، يطعم فيهما الحاضرون من أحباس خاصة تسمى بـ: "أحباس البخاري"^(٤٤)، من ذلك ما "وهب عبد الله بن يع بن الحسن ربع نخلتين يسميان "أفروخ نتيجت" ليجعل أولاده من غلتها قدر صاعين من صاع النبي عليه السلام مع ما يديمه من سمن أو لحم عند ختم البخاري، والصاعان المذكوران من قمح فإن عدم القمح فالشعير ..."^(٤٥).

خاتمة

تلك إذاً إشارات تاريخية تبرز أهم الأحداث السياسية التي عاشتها واحة فكيك زمن السعديين خاصة في عهد أحمد المنصور الذهبي، الذي عرفت الدولة السعدية في أيامه أزهى مراحلها، بعد الفوز في معركة وادي المخازن، وامتدت سلطته نحو تخوم الصحراء إلى السودان، وقد دافع بقوة عن مغربية فكيك أمام حكام المغرب الأوسط من الأتراك العثمانيين، لكن بعد وفاته انصرم حبل الدولة الشريفة وعادت فكيك إلى سابق عهدها، وأصبحت مجالاً خصباً لقيام ثورات استغلت ضعف الدولة، لعل أهمها ثورة ابن أبي محلي، الذي هيا نفسه وجمع أتباعه انطلاقاً من فكيك وأحوازاها ليقود أكبر ثورة في تاريخ السعديين، ذاع صيتها في مختلف أرجاء المغرب ونالت حضنها من التدوين في كتب التاريخ.

ولعل الموقع الجغرافي الهامشي لفكيك، قد ساهم بشكل كبير في تحديد وضعها السياسي زمن السعديين، فهي منطقة حدودية وسط مجال جغرافي صحراوي معاملة غير واضحة، وبذلك كانت محط احتكاك وتجادب بين السلطة المركزية المغربية من جهة والعثمانيين بالمغرب الأوسط من جانب آخر، منذ حوالي منتصف القرن السادس عشر الميلادي.

- (٢٢) - رسالة خطية خاصة أوردها محمد بنعلي بوزيان في كتاب: **واحة فكيك تاريخ وأعلام**، م. س.، ص. ٤٤. انظر كذلك أحمد مزيان في كتابه: **المجتمع والسلطة المخزنية في الجنوب الشرقي المغربي خلال القرن التاسع عشر (١٨٤٥ - ١٩١٢)**، ج. ١، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط. ١، ٢٠٠٧، ص. ٢١٦.
- (٢٣) مؤسس الزاوية السماحية بفكيك التي ذاع صيتها بالمنطقة منذ أواخر القرن ١٠هـ / ١٦م.
- (٢٤) السكوني (أحمد ابن أبي بكر الشريف الفيجيجي)، **تقوية إيمان المحبين**، م. س.، ص. ١٣٣.
- (٢٥) بنعلة (مصطفى)، **مساهمة في دراسة جوانب من تاريخ المغرب الحديث، مجموعة ظواهر ورسائل السعديين**، م. س.، ص. ١٢٢.
- (٢٦) السكوني (أحمد ابن أبي بكر الشريف الفيجيجي)، **تقوية إيمان المحبين**، م. س.، ص. ٩٠.
- (٢٧) ابن أبي محلي (أحمد بن عبد الله بن القاضي)، **السيف البارق مع السهم الراشق**، مخطوط خ. و. ر.، رقم ق. ٣٣٨، ص. ٤٥١.
- (٢٨) لمزيد من التفاصيل عن حياة هذا الرجل وثورته، ينظر: القدوري (عبد المجيد)، **ابن أبي محلي الفقيه النائر ورحلته الإصليته الخريت**، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٩١.
- (٢٩) السكوني (أحمد ابن أبي بكر الشريف الفيجيجي)، **تقوية إيمان المحبين**، م. س.، ص. ١١٢.
- (٣٠) المصدر نفسه، ص. ٤٦.
- (٣١) بوزيان (محمد بنعلي)، **خزانة بني عبد الجبار، دار العدة، مجلة دعوة الحق**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب، العدد ٢٤٨، شعبان ١٤٠٥ / مايو ١٩٨٥، ص. ٩٥.
- (٣٢) القسنطيني (ابن مبارك)، **سيرة شيوخ المظاليف**، مخطوط خاص، بحوزة الباحث العربي هلال، ص. ٣٦.
- (٣٣) المصدر نفسه، ص. ٣٠.
- (٣٤) حجي (محمد)، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، ج. ١، م. س.، ص. ١٨٧.
- (٣٥) بوزيان (محمد بنعلي)، **واحة فكيك، تاريخ وأعلام**، م. س.، ص. ١٥٨.
- (٣٦) الهشتوكي (أحمد بن محمد بن داود بن يعزى)، **هداية الملك العلم**، م. س.، ص. ١٠٢.
- (٣٧) المرجع نفسه، ص. ١٠٧.
- (٣٨) المرجع نفسه، ص. ١٠٨.
- (٣٩) الفشتالي (أبو فارس عبد العزيز)، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء**، م. س.، ص. ٢٣٦ - ٢٣٧.
- (٤٠) هلال (العربي) وبوزيان (محمد بنعلي)، **نظام الأقباس بفجيج في العصرين السعدي والعلوي**، دار النشر الجسور، وجدة، ط. ١، ٢٠٠٤، ص. ٥٤.
- (٤١) المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- (42) Douité (Edmond), «Notes et impressions sur Figuig», Bulletin de la société de géographie, Paris, 1903, p. 198.
- (٤٣) هلال (العربي) وبوزيان (محمد بنعلي)، **نظام الأقباس بفجيج في العصرين السعدي والعلوي**، م. س.، ص. ٥٤.
- (٤٤) هلال (العربي)، **فجيج، تاريخ، وثائق، ومعاليم**، م. س.، ص. ٨٨.
- (٤٥) هلال (العربي) وبوزيان (محمد بنعلي)، **نظام الأقباس بفجيج في العصرين السعدي والعلوي**، م. س.، ص. ٥٢.

- ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ط. ١، ٢٠١١، ص. ٧٢٩. وذكر صاحب "رحلة الوافد" خلال القرن (١٢هـ / ١٨م)، أن سلطة المولى إسماعيل عمت بلاد الصحراء "إلى بلاد فكيك بناحية المشرق، وفيه قصبته وخليفته. وقد وجدناها به هناك سنة طلوغنا للحرمين الشريفين عام اثنين وعشرين ومائة وألف (١٧١٠م)"، انظر: التاسايفي (عبد الله ابن ابراهيم)، **رحلة الوافد، لحظات من تاريخ أدرار ن - درن (أطلس مراکش) وسوس في القرن ١٢ الهجري / ١٨ الميلادي**، تحقيق علي صدقي إيزايكو، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالفيظرة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٢، ص. ٢٣٠. وسماها صاحب "الاستقصا" بـ: **"قصر المخزن"**: الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد)، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج. ٨، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٦، ص. ١١٢.
- (١١) كانت فكيك تتشكل من عشرات القصور اندثر معظمها، بقي منها حالياً سبعة فقط وهي قصور زناكة والوداغير والمميز والحمام الفوقاني والحمام التحتاني وأولاد سليمان.
- (١٢) السكوني (أحمد ابن أبي بكر الشريف الفيجيجي)، **تقوية إيمان المحبين، مناقب الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد ابن سليمان بن أبي سماحة**، تحقيق عبد الله طواهرية، أدرار، الجزائر، ١٤١١هـ / ١٩٩١م، ص. ٩٨.
- (١٣) الكتاب يحمل عنوان: "أخبار عن حياة وأعمال العالي والمقتدر مولاي عبد المالك امبراطور المغرب وملك ممالك فاس ومكناس وسوس وعن انتصاره العظيم في استرجاع كل هذه الممالك"، نشر سنة ١٥٧٧م باللغة القشتالية، قدمه وعلق عليه مرتيديس غرتيا أرنال، وعبرته الباحثة آمنة اللوه، انظر: اللوه (آمنة)، "نصوص إسبانية حول المغرب في القرن السادس عشر، كتاب الراهب خوان بوتيسا عن مولاي عبد المالك"، م. س.، ص. ١١٣.
- (١٤) المرجع نفسه، ص. ١٢٢.
- (١٥) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
- (١٦) هلال (العربي)، **فجيج، تاريخ، وثائق، ومعاليم، المسجد العتيق والصومعة الحجرية**، المطابع المغربية والدولية، طنجة، ١٩٨١، ص. ٣٩.
- (١٧) وثيقة خطية خاصة أوردها الباحث محمد بوزيان بنعلي في كتابه: **فجيج في عهد السعديين، السياسة والثقافة والمجتمع**، مطبعة الجسور، وجدة، ٢٠٠٥، ص. ٢٣.
- (١٨) بنعلة (مصطفى)، **مساهمة في دراسة جوانب من تاريخ المغرب الحديث، مجموعة ظواهر ورسائل السعديين، دراسة وتحقيق**، ج. ١، مطبعة الرباط نيت، الرباط، ٢٠١١، ص. ١٢٤.
- (١٩) يوجد ضريحه بفكيك وعليه قبة.
- (٢٠) الظهير ورد عند الباحث مصطفى بنعلة في كتابه: **مساهمة في دراسة جوانب من تاريخ المغرب الحديث، مجموعة ظواهر ورسائل السعديين**، م. س.، ص. ١٢٥، دون ذكر اسم الشخص الموجه له الظهير، مبررا ذلك بحذفه من الأصل بسبب الطي، واعتقد أنه أبو القاسم بن عبد الجبار الفيجيجي، في حين نص الظهير الوارد في كتاب محمد بوزيان بنعلي: **واحة فكيك، تاريخ وأعلام**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٧، ص. ٤٦، حمل اسم المرسل إليه وهو أبو محمد عبد الوافي بن أحمد الفيجيجي.
- (٢١) بنعلة (مصطفى)، **مساهمة في دراسة جوانب من تاريخ المغرب الحديث، مجموعة ظواهر ورسائل السعديين**، م. س.، ص. ١٢٥.

تجليات التاريخ والذاكرة بين أميرة قاجارية ومستشرقة أوروبية

محبوبة مجيدزاده

باحثة دكتوراه في التاريخ الإيراني

معهد الدوحة للدراسات العليا

الدوحة - دولة قطر

ملخص

عُرف عصر الدولة القاجارية بدِيناميكية في مصادره التي لا تزال في مرحلة الكشف والظهور كالتوثائق الأولية والصور الفوتوغرافية والمذكرات الشخصية، والتي ساهمت في المحافظة على ذاكرة الزمن، ومن هنا تأتي أهمية الاستعانة بالمذكرات للباحث في التاريخ الاجتماعي في سياق البحث عن مصادر بديلة، فقد استأثرت قضية الذاكرة والتاريخ العديد من الحقول الاجتماعية والإنسانية. وانطلاقاً من ذلك، ستجول هذه الدراسة في نوعين من المذكرات النسائية ذات المنعطف الفردي الدرامي في إطار حكم شاهي، غير أنها تحمل مضموناً اجتماعياً ومن زاويتين متباينتين خارجية (غربية) متمثلة في ذاكرة مدام كارلا سيرنا الرحالة الأوروبية لبلاد فارس، وداخلية (أميرة داخل البلاط القاجاري نفسه) متمثلة في ذكريات تاج السلطنة الأميرة القاجارية المتمردة، وهي أحد السير الذاتية الهامة الباقية من العصر القاجاري. عبر قراءة تحليلية فاحصة لمذكراتهما التي تُعدّ مصدرًا غنياً في الدراسات التاريخية تعيننا على استكشاف الحياة الاجتماعية في بلاد فارس في القرن التاسع عشر بعدسة نسائية، مع الانتباه لاشتغالات هذين النوعين من الذاكرة ورهافة في التحليل تتناسب مع نوع المجتمع، لنستكشف علاقة الذاكرة بالتاريخ وفعل الذاكرة وتجلياتها في مرويّاتهما، محاولين التقاط أهم الصور التي سجلتها كل من الذاكرتين، ومقارنة هذه الصور ببعضها سواء بالنسبة لحياة القصر (الحريم) أو بالنسبة للمجتمع الإيراني (آنذاك). ودراسة مدى المسافة التي أخذتها كل منهما بين الذاتية والموضوعية في كتاباتهما. فكما يقول المفكر الفرنسي Paul Ricœur بول ريكور (١٩١٢-٢٠٠٥)، "الذاكرة تقودنا مباشرة إلى التاريخ لأنها هي الحاملة الأولى للتاريخ ولولاها لما كان هناك من علم لكتابة التاريخ".

كلمات مفتاحية:

المذكرات والسير الذاتية؛ الحريم؛ الدولة القاجارية؛ ناصر الدين شاه القاجاري؛ كارلا سيرنا

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٣ أكتوبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ١٨ ديسمبر ٢٠٢٤

معرف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.328065.1172



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محبوبة مجيدزاده، "تجليات التاريخ والذاكرة بين أميرة قاجارية ومستشرقة أوروبية"، دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة- العدد التاسع والستون، يونيو ٢٠٢٥، ص ٣٨ - ٥٩.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: mmajeedzadeh@yahoo.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع الإبداعي (Creative Commons Attribution 4.0 International License) (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

المفاهيم الغامضة والأكثر التباساً لارتباطها بالكثير من المجالات^(٦).

وعلى الرغم من أن الذاكرة والتاريخ مرادفان متعايشان يتفقان في حفظ الماضي واستحضاره، إلا أن ذلك لا يلغي خصوصية كل منهما، فالذاكرة تنطلق من شبكة من الحواس والعواطف والرويات، بينما يُعد التاريخ عنصراً أساسياً وهو مطلب انساني للبشر يرتكز على العقل في ضوء التراكمات النظرية، واستتطاق متن الكتابات الذاكرية^(٧). فساهم هذا الوعي بالتمايز بين الذاكرة والتاريخ إلى حضور كثيف للذاكرة في أشكال متباينة من الكتابات كاليوميات والمذكرات الشخصية التي تتناول التجارب الفكرية والسياسية والانطباعات الذاتية التي اختبرها المتذكر، والسير الذاتية التي تناولت وقائع الحياة العامة التي عايشها المتذكر أو كان شاهداً عليها^(٨).

وتُعدّ المذكرات وكتب أدب الرحلات البعيدة مصدراً غنياً بما تحويه من نصوص تزود المؤرخ بمعطيات وتفاصيل تساعد على فهم مجريات الحياة اليومية، ورصد التغييرات التي يتعرض لها مجتمع ما^(٩)؛ فالرحالة يحرص على تدوين كل ما يراه عن طبائع المجتمعات البعيدة فينقل لنا صورة عن الحكام والناس ومشاربهم ومستوياتهم، والقيم السائدة في إطار زمني محدد^(١٠)، ويمدنا بتفاصيل هامة ومفصلية في بعض القضايا التي قد لا يلتفت المؤرخ المعاصر لها باعتبارها أمراً بديهياً في سياق الحدث التاريخي؛ كالعادات والتقاليد وسلوكيات المجتمعات، محاولاً استنباط الحاضر من ملامح الماضي فتمتزج القراءتان في هيئة واحدة للإنسان^(١١).

ولقد ظل التاريخ التقليدي لمدة طويلة من الزمن يُدون انطلاقاً من المركز بهدف إبراز الأدوار التي تقوم بها الطبقة الحاكمة والنخب السلطوية، فاحتكر تاريخ السلالات الحاكمة تواريخ الأمم والشعوب. ولكي يتسنى للباحث رؤية الصورة متكاملة وفهم الاختلاف لابد أن ينطلق من المركز إلى الأطراف ونحو الهوامش ليرتاد أركان الماضي حتى تتقاطع زوايا النظر المتعددة فتصهر كاشفة عن جوانب خفية للموضوع. ومن هنا تأتي أهمية استتطاق الكتابات الذاكرية بما تحويه من روايات شفوية

يُعدّ موضوع الذاكرة من الانشغالات الفكرية التي أثّرت حولها الكثير من التساؤلات بين المشتغلين في ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية، ولعل الإشكالية المحيرة هي الصلة ما بين الذاكرة الفردية وما يرافقها من صعوبات التذكر والنسيان والإدراك واللوعي، وبين غياب الذاكرة الجماعية أو نسيانها الإرادي بين الشعوب والأمم، والآليات التي يمكن أن تؤثر في الفاعلين^(١). وقد كانت الارهاصات الأولى لموضوع الذاكرة مع الإغريق الذين اعتبروا الذاكرة إلهة أوصت البشر بتذكر الأبطال ومآثرهم، بينما كانت الذاكرة عند كل من أفلاطون وأرسطو مرتبطة بالنفس في الفلسفة اليونانية^(٢).

واليوم يرى علماء النفس أن للذاكرة وظيفة نفسية مبنية على استرجاع حالة شعورية من الماضي، وعلى القدرة على التمثل الانتقائي في أحد منظومات الذاكرة حول معلومة معينة؛ تم تخزينها بطريقة منظمة لتسهيل آلية إعادة انتاجها في المستقبل تحت ظروف محددة^(٣). وتتبلور عملية التذكر في مستويين الأول هو فعل آني ومجرد لم يفكر فيه المتذكر أو يعقله، والمستوى الآخر متمثل في فعل ممتد في الزمان يربط ما سبقه بما يليه^(٤). وقد درس الفلاسفة مفهوم الذاكرة من منظور اجتماعي فطبيعة الذاكرة عندهم اجتماعية وليست فردية، فجميع الذكريات تُحفظ في ذاكرة الجماعة، وكل فرد له تاريخ وتراث مشترك كونه عضو في الجماعة يستعين بها لاسترجاع الذكريات، فالذاكرة تقوم بتوظيف الماضي من أجل الحاضر والمستقبل^(٥).

وتبعهم المؤرخون في هذا المضمار، فقد شهد التاريخ تبدلات عميقة وتحولاً كبيراً على مستوى المعرفة التاريخية، وتمثل ذلك في حضور الذاكرة في الحقل التاريخي الذي بدأ يتسع نطاقه. وكثر الحديث في الآونة الأخيرة حول قضية الذاكرة وارتباطها بالتاريخ والعلاقة الجدلية بينهما، فهناك من يرى أن الذاكرة ترتكز على التاريخ فهي من تمده بالمعطيات وأن التاريخ وقوف على الذكريات. فيما يرى البعض الآخر استحالة التقاءهما فكل منهما حقل اشتغال خاص به، فمهوم الذاكرة من

خلال حكم ناصر الدين شاه القاجاري؟^(١٣) وكيف تمثلت ذاكرة مدام كارلا سيرنا الآتية من عالم الغرب والحريات المرأة في العصر القاجاري؟ هل قدمتها في صورة نمطية أم أنها التزمت بما شاهده دون التأثر بمخيلاتها؟ وكيف استحضرت كل منهما المهمشين في المجتمع؟ هل استحضرن الشخصيات من الذاكرة أم استعرن ذاكرة الماضي لإحياء الحاضر وبناء المستقبل؟ وكيف فسرنا ضعف الدولة وانتشار الفساد فيها؟^(١٤)

وبطبيعة الحال تتفرع من هذه الأسئلة أسئلة أخرى جوهرية هي: كيف تمكنت مدام كارلا سيرنا من النفوذ إلى عالم الحريم الغامض ونقل ذاكرة النساء التي لطالما ظلت مهمشة؟ وكيف تمثلت تاج السلطنة ذاكرة الماضي كموضوع للتاريخ؟ وهل كانت لها وجهة نظر خاصة؟ هل استخدمت الذاكرة كأحد المفاتيح لاخترق جدار الصمت والعزلة المفروضة على النساء في تلك الحقبة؟ وهل التزمت كل من مدام كارلا وتاج السلطنة بالحد الفاصل بين الذات والموضوعية في كتاباتهما؟ وكيف استحضرتا الأحداث والشخصيات في ذاكرتهما؟

فرضية الدراسة

تفترض الدراسة أن استنطاق الكتابات الذاكرية من العهد القاجاري بما تحويه من روايات شفوية، يمكن أن تزود الباحث بمعطيات تعد بمثابة قاعدة يبني عليها اشكالاته البحثية، فتسد بذلك ثغرات التاريخ التقليدي وتساعد بالكشف عن دور النساء والاستماع لأصواتهن التي لطالما ظلت في طي الكتمان. بناء على ذلك نسعى للتعرف على كل من مدام كارلا سيرنا والأميرة تاج السلطنة، وكيف رسمتا المجتمع الفارسي وصورتا المحيط الاجتماعي في بلاد فارس في القرن التاسع عشر الميلادي خلال فترة حكم ناصر الدين شاه القاجاري^(١٥). وكيف تناولت ذاكرة كل منهما بعض القضايا والأحداث اليومية التي كانت إما شاهداً عليها أو كان لها دور فيها، لنتحصل على استبصارات جديدة وننتطلع على صفحات نادرة من تاريخ بلاد فارس السياسي والاجتماعي والفكري.

تسد ثغرات التاريخ التقليدي وتساعد بإعادة المنسيين في التاريخ والاستماع لأصوات المهمشين المكتومة في الماضي^(١٦). وقد ظل تاريخ النساء إلى زمن قريب مقصي في ذاكرة النسيان على الرغم من أنه لم يكن بعيداً عن قلب الأحداث والوقائع، فبات على هامش التاريخ.

أهمية الدراسة

استقبلت بلاد فارس الكثير من الرحالة الذين جذبتهم حكايات الشرق وقصص ألف ليلة وليلة حيث امتزجت فيها الخرافة بالأسطورة والأحلام بالواقع فأسهمت في خلق صور رومانسية وعوالم غرائبية باتت مكمنا للخيالات الخصبية عن الشرق، فشدوا إليها الرحال في محاولة لاكتشاف آخر مختلف. فظهر العديد من كتب أدب الرحلات والمذكرات، التي تناول فيها أصحابها تفاصيل تلك الرحلات وعادات الشرق. من هذا المنطلق ستجول هذه الدراسة في ذاكرة مدام كارلا سيرنا Carla Serena (١٨٢٤-١٨٨٤) الرحالة الأوروبية القادمة من الغرب لاكتشاف بلاد فارس، عبر قراءة تحليلية فاحصة لمذكراتها ومشاهداتها في بلاد فارس لنستكشف علاقة الذاكرة بالتاريخ في مروياتها، ومدى اطلاعها على تفاصيل الأحداث والتزامها بالموضوعية والحييدة في سرد مذكراتها ودون المساس بجوهرها الذاتي من ناحية.

ومن ناحية أخرى سنسعى لتسليط الضوء على ذكريات الأميرة القاجارية زهرا خانم تاج السلطنة (١٨٨٣-١٩٣٦) وهي أحد السير الذاتية الهامة الباقية من العصر القاجاري. عبر تفحص مذكرات كل منهما بوصفها أداة للتحليل التاريخي ومصدراً للتاريخ الاجتماعي، محاولين سد النقص في الدراسات حول العصر القاجاري عامة والمرأة في الدولة القاجارية بشكل أساسي، والمرور على بعض التقاطعات في ذاكرة كل منهما، والتوقف عند عدد من المحطات باعتبارها محطات أساسية في السرد التاريخي.

مشكلة الدراسة

تسعى هذه الدراسة للإجابة على سؤال رئيسي هو ما حدود التقابل والاختلاف في الصورة التي قدمتها كل من مدام كارلا سيرنا والأميرة تاج السلطنة عن الحريم

المنهجية المتبعة في البحث

هي مقارنة تمزج ما بين السرد التاريخي والمنهج النقدي التحليلي عن طريق طرح النصوص ومناقشة مضامينها بموضوعية، والوقوف على أوجه التوافق والتباين في طريقة نقل الخبر واستحضار عقل المتذكر والشاهد للأحداث، وذلك بمقابلتها بالنصوص الواردة في المصادر والمراجع التاريخية المعاصرة التي تناولت هذه الفترة ومصادر ديناميكية أخرى تميز بها العصر القاجاري متمثلة في المتون المرئية.

قبل الشروع في تحليل المذكرات وكخطوة منهجية أولى لابد من التعرف على كاتبة المذكرات والاحاطة الدقيقة بشخصيتها وموقعها ودورها في الأحداث. سنستهل البحث بنبذة مختصرة عن كل شخصية وخلفيتها الاجتماعية والثقافية، وأهمية المذكرات التي كتبتها، ثم في المحور الثاني سنمعن النظر في عدد من القضايا والأحداث التي نقلتها الكاتبان ورؤية كل منهما. فمن هي مدام كارلا سيرنا ومن هي الأميرة تاج السلطنة؟

أولاً: مدام كارلا سيرنا (١٨٢٤-١٨٨٤)

ولدت كارلا سيرنا Carla Serena عام ١٨٢٤ في بلجيكا باسم كارولين هارتوغ مورجينستين، وتزوجت من أحد تجار البندقية الذي تعرض للنفي هو وأسرته نتيجة لنشاطه السياسي المناهض للحكم النمساوي، فاضطرت سيرنا وأسرته للتنقل بين عدد من المدن الأوروبية إلى أن استقروا في إنجلترا عام ١٨٥٠^(١٦). وقد تميزت سيرنا بنشاطها الاجتماعي فكانت تعقد صالونها في منزلها كل أسبوع يحضره نخبة من أبناء المجتمع من الإيطاليين والبريطانيين، وعلى الرغم من مشاغلها الأسرية كونها زوجة وأما لخمسة أبناء إلا أنها تمكنت من تخصيص جزء من وقتها لممارسة الكتابة ونشرت عددا من المقالات في صحيفة Précurseur. وفي عام ١٨٧٣م تم اختيارها لتمثيل الصحيفة في المعرض العالمي المقام في فيينا والذي تمحور موضوعه حول الثقافة والتعليم. فبات المعرض نقطة تحول في حياتها، فعقدت العزم بعد عودتها على مغادرة لندن وقد تجاوزت حينها الخمسين من عمرها، فحمى الطماح دفعها للقيام

برحلة بهدف ارتياد مجالات مجهولة، وقد امتدت رحلتها لأكثر من خمس سنوات تنقلت خلالها بين عدد من المناطق في الشرق مثل مصر والمدينة المقدسة وتركيا وجورجيا والقوقاز وأخيرا بلاد فارس عام ١٨٧٧. تقول سيرنا في نهاية رحلتها: "قبل السفر، كانت اهتماماتي محصورة بالاطلاع والتعرف على نساء من العالم نادرا ما خرجن من محيطهن الضيق، أما اليوم وبعد هذه الرحلات تغيرت نظرتي وانحصر اهتمامي بتدوين مشاهداتي"^(١٧). وقد نشرت سيرنا العديد من المقالات العلمية في مجلات متخصصة وصفت فيها الناس وطبائعهم وصورت الأمكنة والطبيعة الجغرافية لتلك المناطق. وبعد عودتها استقبلت بحفاوة في أوروبا وأهداها ملك إيطاليا ميدالية ذهبية تقديرا لجهودها وانجازاتها. وقد استندت في رحلتها وكتابتها على مصادر من مذكرات وكتب أدب الرحلات لمن سبقوها مثل الرحالة الفرنسي شاردان^(١٨) Jean Chardin (١٦٤٣ - ١٧١٣) وكتاب الجغرافيا لكارل ريتير (١٧٧٩ - ١٨٥٩) Carl Ritter.

ويجدر بالذكر أن أهمية مشاهدات سيرنا في رحلتها لبلاد فارس تتبع من عدة أسباب في مقدمتها كونها أول امرأة غربية تقوم برحلة للشرق على نفقتها الخاصة؛ فلم تكن مرافقا لسفير أو ضمن مجموعة مستشرقين قدموا الشرق لغايات معينة أو في مهمة رسمية مع مجموعة منظمة محدودة^(١٩). ولم يرافقها سوى مرشد، وقد تحملت مشاق السفر وتجشمت مخاطر الطريق ووعورته، وغامرت بسلك طرق برية غير معبدة على ظهر الخيل أو في عربات قديمة الطراز، وفي أحيان كثيرة توجب عليها السير على الأقدام وتحمل البرد والرياح والعواصف فضلا عن قطاع الطرق وعلى وجه الخصوص في رحلة العودة من العاصمة طهران إلى مدينة رشت على الأراضي الفارسية، وتميزت سيرنا بحضور الذهن وقدرتها على التواصل اليومي والتفاعل الاجتماعي العفوي فترددت على الأسواق وتحدثت مع التجار وزبائنهم، ونجحت في الحصول على الكثير من الأخبار التي كانت تتناقلها أفواه الخادمت والجواري خلال ارتيادهن للسوق وتجاذبهن لأطراف الحديث مع الباعة. وكانت متواضعة فلم ترفض الإقامة في منازل

مذكراتها وآثرت الابتعاد عن الذاتية في الخطاب الذاكري واستغلال الأحداث للظهور العلني وتضخيم دور الذات^(٢٤).

وقد اتسمت سيرنا بأسلوبها المميز في الكتابة حيث حرصت على اتباع الدقة في الوصف والشرح، واقتربت من الناس العاديين في محاولة لفهم أفكارهم وعاداتهم وأعرافهم وطرق معيشتهم، فاخترت ذاكرتها لتوليف من الذكريات المتنوعة، الجميلة منها والقبيحة، الذاتية والجماعية ونقلتها إلينا عبر مسار رحلة امتدت بين المدن والقرى عايشة فيها سيرنا مختلف الفئات وطبقات المجتمع الإيراني آنذاك.

ثانياً: تاج السلطنة (١٨٨٣-١٩٣٦)

أما تاج السلطنة فهو لقب الأميرة زهرا خانم ابنة ناصر الدين شاه القاجاري التي ولدت في طهران عام ١٨٨٣^(٢٥). والدتها هي توران السلطنة ابنة عم ناصر الدين شاه القاجار. وقد تم تعيين مربية (حاضنة) للاعتناء بها منذ ولادتها كعادة الأسر الحاكمة في بلاد فارس. والتحقت بالكتاب في سن السابعة، بيد أنها كانت طفلة لعوب ذات طباع سيئة ومتمردة وغير شغوفة بالعلم، فاعتادت على اعداد المقالب في معلمها حتى نجحت في اجباره على التخلي عن التعليم والاكتفاء بسرد القصص والحكايات، فلم تستكمل العامين حتى تركت الكتاب. وفور بلوغها العام الثامن من العمر تم عقد قرانها على حسن خان الملقب بشجاع السلطنة، وهو ابن محمد باقر خان الملقب بـ "سردار أكرم" أي القائد أكرم سليل أحد العائلات العريقة في بلاد فارس^(٢٦). وكانت ثمرة هذه الزيجة أربعة أبناء حُرمت منهم تاج السلطنة بعد أن انفصلت عن زوجها في الثامنة عشرة من عمرها، وقد حُمِلت ذاكرتها بوابل من الذكريات المؤلمة والمجروحة. عشقت الموسيقى فتعلمت العزف على البيانو في صغرها، وشغفت بالرسم والاطلاع على كتب الأدب والروايات وقراءة تاريخ الشعوب^(٢٧).

وتتبع أهمية هذه المذكرات من شخصية تاج السلطنة ومكانتها الاجتماعية، إذ تستحضر فيها ذاكرة مشحونة بالغموض والشد والجذب؛ فتسرد سيرة حياتها الذاتية التي تُعد الوحيدة من نوعها لامرأة عاشت في "الإنديرون"

القرويين النائية التي لا تتوافر فيها سوى سبل راحة محدودة^(٢٨). فاكسبت ثقة الناس وبرعت في استعارة ذاكراتهم لتروي لنا في مذكراتها عن صور الحياة اليومية لعامة الناس وما يمس حياة الجموع المجهولة أو من يُطلق عليهم الدهماء، فكانت ذاكرة مبدعة وغنية ومؤلمة ومثيرة للدهشة في الوقت ذاته، تدمج في الذكريات ذاتها أحداثاً مختلفة ويمكن أن تُثري في الحين نفسه ذكريات متعاقبة.

وحظيت سيرنا بفرصة لقاء ناصر الدين شاه القاجاري (والد الأميرة تاج السلطنة) لأول مرة في رحلته الأولى لأوروبا عام ١٨٧٣م^(٢٩). وخلال رحلتها لبلاد فارس أتاحت لها الفرصة للاقائه مرات عدة، وقد امتلكت كارلاً ذاكرة شديدة الملاحظة تمكنت عبرها من رصد أهم السمات الشخصية لناصر الدين شاه القاجاري ذو الحظوة والمكانة، إذ نعتته بالشخصية المتناقضة "فهو انسان خجول وللتغلب على هذا الضعف يتحدث بنبرة سريعة وبأسلوب فظ وبشيء من الغلظة"، يتقاطع وصف سيرنا مع السمات الذي ذكرها أمين الدولة عن الشاه في مذكراته "تمتع ناصر الدين شاه بجمال الخلق كل من يراه يدرك أنه ولد ليكون ملكاً، أحد سماته الحياء الذي يزيد من وقاره، وكان يتحدث بلحن غليظ وسريع ليُرهب من أمامه"^(٣٠). وقد استحضرت سيرنا كوكبة من القصص والمرويات عن الشاه المهاب المكروه بأن واحد، فكان بمثابة المركز في مذكراتها تبدأ منه أو تنتهي إليه أو تتمحور حوله الذكريات. وقد صادف تواجدها خلال الاحتفالات بالذكرى الثلاثين لاعتلاء الشاه عرش المملكة.

ومن الملفت للنظر اهتمام سيرنا بعدم خلط الأوراق وتوخي الموضوعية في مذكراتها والبعد عن الذاتية، وهذا ما ذكرته في مقدمتها، فقد سعت لفتح آفاق جديدة للقارئ الغربي الذي يرغب في التعرف على عادات وطبائع وخصائص الشعوب في الشرق أكثر من الاطلاع على أخبارها الخاصة. بيد أن الأحداث العجيبة التي لازمت رحلتها في بلاد فارس دفعتها إلى كتابة سيرة ذاتية تُفَرِّغ فيها تلك الذاكرة وعنونته بـ "امرأة أوروبية في بلاد فارس"^(٣١). لذا زعمت في مقدمتها أنها اتخذت مسافة بينها وبين المواضيع التي كتبت عنها في

الفرنسية وبنّت ذاتها المعرفية^(٣١). وقد أثرت المظاهر والانتماءات الثقافية على طريقة كتابتها ورؤيتها، فاستحضرت جانبها التكويني ورصيدها المعرفي في مذكراتها، ومزجت ببراعة بين الأدب والرواية والشعر وأحاسيسها الخاصة، واستعارت أدوات الراوي في التدوين بلغة بلاغية وجمالية، والتصوير الفني للشخصيات في مذكراتها، وتمكنت ببراعة من استحضار ذاكرتها الأدبية عند تقديم الشخصيات للقارئ كما يفعل الراوي في الأعمال الأدبية ولاسيما الروايات الغربية، فمثلاً تقول في وصف معلمها "إن له وجها حسنا ونيلاً ومريحاً، وعينان سوداوان متفكران وحزينان، [...] وله أنف شبيه بمنقار النسر. كلما رأيته تستدعي ذاكرتي ما قرأته في تاريخ فرنسا عن عائلة الأمير دوكنديه Prince de Conde، الذين كانوا يوسمون بذوي الأنوف الشبيهة بمنقار النسر"^(٣٢).

شرعت تاج السلطنة مذكراتها بشرح الحافظ الذي دفعها للتفكير في تدوين سيرتها الذاتية، وذلك على إثر حوارها مع معلمها وابن عمته الذي كان يوصيها بالاطلاع في التاريخ، فأجابته "هل تعتقد أنه ينبغي عليّ أن أشغل نفسي بأي نوع آخر من التاريخ، في حين أني أشغل نفسي في الماضي والحاضر مثير ومفعم، فهو يحوي على الكثير من الوقائع والأحداث الحزينة منها والمفرحة، إلا يكون استحضار تاريخ المرء أفضل اشتغال في هذا العالم؟" فأخبرها معلمها أن التاريخ لا يُعدّ تاريخاً إلا إذا افاد الإنسانية إيجاباً أو سلباً. لذا انكبت على أوراقها وقررت البدء في الكتابة استجابة لإلحاح معلمها فاسترجعت ذكرى الماضي بكل محتوياته من حزن وألم^(٣٣). وكأن الاستذكار لغاية مرتقبة وإعلان ضمني بأنها ستمنح الأسبقية للمجال الخاص فعملية الكتابة عندها هي بعث ماضي ما تنتمي إليه في ذاتها، فغايتها تدوين تاريخها الشخصي بعد أن أصبح ذكرى في التاريخ العام الموضوعي^(٣٤).

امتدت مذكرات تاج السلطنة من ولادتها عام ١٨٨٣ إلى أن بلغت التاسعة والعشرين من العمر، غطت فيها أحداث السنوات الخمس الأخيرة من حكم ناصر الدين شاه القاجاري إلى أن قُتل أثناء الاحتفال بالذكرى الخمسين لتوليهِ العرش حين كانت تبلغ من العمر اثني

الحريم الملكي، وتتحدى فيها التراث والتقاليد البالية؛ فتمكنت فيها ببراعة من تقديم توليفة من الذكريات مزجت بين وقائع حياتها الخاصة كامرأة من داخل منطقة الحريم دون موارد، وأخرى ضمنية في هيئة انتقادات للبلاط ونظام الحكم لما شاع فيه من فساد، وللتقاليد القديمة البالية - من وجهة نظرها- التي أجبرت النساء على العيش في ظروف حرجة عنوانها التعسف والجور؛ ولم يقابلنه بالرفض بل بالخضوع، في فترة شهد فيها تاريخ بلاد فارس الكثير من المنعطفات ونسائم التعصير كما وصفت في مذكراتها.

وقد روت تاج السلطنة تفصيلات حياتها الخاصة ببراعة يعسر تعريفها، فكانت المؤلف والسارد والبطل في آن واحد، فتمحورت ذاكرتها حول الذات وكأنها أرادت للقارئ "ألاً يرى وألاً يسمع شيئاً من مرويَّاتها إلاّ من منظور ذاتها الفردية"^(٣٥). وكانت أول امرأة قاجارية تسافر إلى أوروبا دون محرم (مرافق)، فتمردت على الأعراف وعبرت بحرية عن أفكار ورؤى وخواطر ومواقف عكست تطلعاتها نحو الحداثة الغربية، وكيف آمنت بالأفكار الوضعية فتبلورت شخصيتها وعاشت ازدواجية الهوية وتبنّت القيم الغربية. وكست حياتها لتحرير المرأة والدفاع عن حقوقها، فانقلبت على المجتمع وخلعت الحجاب وشاركت في ثورة المشروطة وكانت في طليعة المطالبات بإنصاف المرأة وتحريرها، ونادت بتعليم البنات وطالبت بالمساواة وعدالة النوع الاجتماعي^(٣٦).

عرفت تاج السلطنة بجمالها الباهر -حسب معايير الجمال المتعارف عليها في تلك الفترة- وبالدكاء الشديد، فتقول في مذكراتها "لقد منّ الله تعالى عليّ بكل ما هو جميل [...] بشرة بيضاء يعلوها مسحة من الحمرة [...] لم يكن هناك وجهاً أكثر جمالاً وجاذبية من وجهي في الحريم الملكي"^(٣٧). واشتهرت بأفكارها الليبرالية، وأسلوب حياتها غير العادية التي تمردت فيها على البلاط الملكي في مجتمع مبدأه ثنائية الداخل والخارج، ويقدّس سلطة الرجل، ويحبس المرأة خلف عباءة الدين والتقاليد. وعلى الرغم من رفضها التعلم ومشاكلها مع معلمها في الصغر، بيد أنها أيقنت بعد بلوغها حافة الهاوية أن العلم هو طوق النجاة وبصيص الأمل. فانفتحت على العلوم والآداب الغربية بعد أن أقتنت اللغة

اكتسب البائعون نفوذاً على العملاء. والذي يتماشى مع فكرة فوكو عن ممارسة السلطة من خلال التفاعلات اليومية. تلك التفاصيل الصغيرة والطريفة وأحياناً المبتذلة تمكنا من الولوج إلى زاوية من زوايا التاريخ المقصية، حتى نتجاوز روايات النخبة ونعيد بناء صورة أكثر دقة لتاريخ الحياة اليومية ترتقي نحو سطح المعرفة التاريخية.

فذكرت الكثير من الروايات التي تمكنت من سماعها من شهود العيان عبر تواجدها في السوق، على الرغم من أن ذلك لم يكن يسيراً في البداية فوجود سيدة أوروبية في المكان يدعو للريبة، لكن بعد مدة اعتاد الناس على وجودها واكتسبت ثقتهم فبدأوا في التفاعل معها.

إضافة إلى ذلك فإن لباقة سيرنا واطلاعها على ثقافة المجتمع الفارسي قبل الارتحال إليه، ورجاحة عقلها كانت المفاتيح التي فتحت لها الأبواب للولوج إلى عالم الحرير (الإنديون)^(٣٨) والاطلاع على حياة النساء وأسرار الأميرات في البلاط الفارسي، وقد حضرت بعض الشخصيات النسائية بصورة لافتة في ذاكرة سيرنا ونالت أخبارهن عناية خاصة، فطريقتها في سرد الرواية ونقل أدق التفاصيل بما فيها الانطباعات ساهمت في ذكر كم كبير من التفاصيل الدقيقة عن عدد منهن مما يدل على مدى تأثرها بتلك الشخصيات وأحوالهن الغربية. فنقرأ في مذكراتها حكاية الأميرة عزت الدولة الأخت الشقيقة لناصر الدين شاه -والذي كان يحبها ويقدرها- وحياتها المفعمة بالمآسي والأحداث، وكيف كانت أداة في يد الشاه، فمصيورها المحتوم كمصير باقي الأميرات في هذه الدنيا، لم تملك حريتها فأرغمت على الزواج في سن الثالثة عشر من عمرها بميرزا تقي خان الذي كان يكبرها سناً، فقد كان الصديق المقرب من الشاه الذي دعمه وأيده خلال الفترة الانتقالية للحكم، وأمن للشاه الحماية حين كان ولياً للعهد إلى أن تم تنصيبه على عرش المملكة، فما كان من ناصر الدين شاه إلا أن قام بتعيينه في منصب الصدر الأعظم ولقبه بأمير كبير.

احتفظت ذاكرة سيرنا بتفاصيل حكاية هذه الأميرة التي اصطدمت بمخيلتها الأوروبية الآتية من عالم الأنوار والحرية، فعلى الرغم من عدم رغبة الأميرة بهذا

عشر عاماً، وفترة حكم أخيها مظفر الدين شاه (١٨٩٦-١٩٠٦) فحسب، حيث لم يتم العثور إلى اليوم على الجزء الثاني من مخطوطة المذكرات^(٣٩).

اعتمدت تاج في مذكراتها على تذكر أحداث عاشتها مباشرة ونادراً ما كانت تستعين بذاكرات أخرى، فسجلت وقائع وأحداثاً شخصية مميزة في مراحل متباعدة من عمرها، واستحضرت ذكريات طفولتها وتفاصيل الحياة اليومية مروراً بالطقوس والاحتفالات في منطقة الحرير، فحملت لنا ذاكرتها تمثلات عقلية معقدة متمحورة حول وقائع مبهمه في ظاهرها بيد أنها متيسرة لها وحاضرة في ذهنها، فناولتنا أوصافاً وشروحات مختلفة للأحداث والفاعلين^(٤٠).

ثالثاً: صورة المرأة في الدولة القاجارية

(تواشج ذاكرتي مدام كارلا سيرنا الأوروبية

الغربية وذاكرة تاج السلطنة القاجارية الشرقية)

على الرغم من الأفكار السالفة في ذاكرة سيرنا حول النساء في بلاد فارس، بيد أنها لم تصدر أحكاماً مسبقة، وإنما بنت آرائها من واقع تجربة معاشة، بسعيها وراء الحقيقة بحثاً عن التجربة الإنسانية في كل زمان ومكان، فساهمت في تقديم صورة عن المرأة في الدولة القاجارية متباعدة عما قدمه الآخرون، إذ مزجت ما بين ذاكرتها الحاضرة والذاكرات المستعارة عند الاقتضاء حيث روت عن أحداث لم تكن جزءاً منها ووقعت في الماضي البعيد فتحولت بذلك إلى شاهد سماع يروي ما قيل له^(٤١).

فقد اعتادت سيرنا قضاء معظم يومها في السوق الذي اعتبرته مصدراً للأخبار، وتنقلت ذاكرتها بين حركة الناس من مختلف المشارب في ازدحام السوق، فقدمت لمحة رائعة عن التفاعلات الاجتماعية في المساحات التجارية النابضة بالحياة وتدفق المعلومات، والأخبار والقييل والقال، وروت كيف يتحدى الخدم ديناميكيات السلطة داخل الأسرة عبر النميمة التي وفرت لهم إحساساً بالقوة، وكيف كان الباعة يتفاعلون مع المشتريات ويستطيقون ببراعة تشير إلى ديناميكية قوة أوسع. من خلال التحكم في وتيرة التفاعل، فربما

كخاتم الصادرة يتسلمه مع معطف الوزارة كل من ارتقى إلى هذا المنصب" (41).

وتستمر المآسي في حياة هذه الأميرة، فقد تأمر الأعداء على الصدر الأعظم وأقنعوا الشاه بخيانتها فأمر بقتله، لتضحى أرملة للمرة الثانية، وما أن انتهت من فترة الحداد وإذ بها يُعقد قرانها للمرة الثالثة على ابن خالها الذي توفي بعد فترة وجيزة إثر إصابته في الوباء. ظلت الأميرة وحيدة لعدة سنوات إلى أن التقت ببجي خان أحد الوزراء في البلاط فأحبته واختارته زوجا لها. وعلى الرغم من أن الشاب لا ينتمي لإحدى العائلات العريقة، بيد أن ناصر الدين شاه لم يملك أن يرفض هذا الزواج بعد أن كان السبب في إرغام أخته على الزيجات السابقة وترملها لأكثر من مرة، أحسنت الأميرة الاختيار في المرة الرابعة فلم يكن الزوج مهتما بالسياسة قدر اهتمامه التقرب من البلاط لذا لم يكن متوقعا أن يلقي مصير من سبقوه (42).

من اللافت حرص سيرنا على تلبية دعوات النساء الأرستقراطيات لزيارتهن وقضاء الوقت معهن في الحريم، وقد حظيت بدعوات استثنائية للمشاركة في طقوس ومراسم التعزية وزيارة الحمام والاستحمام، فاحتفظت ذاكرتها بأدق التفاصيل حول تلك اللقاءات واستحضرتها بكل عناية لتُشبع فضول القارئ الأوروبي حول تلك المنطقة التي لطالما ظلت محرم عليهم الاقتراب منها.

وقد عبرت سيرنا عن شوقها الشديد وسعادتها للقاء عدد من الشخصيات النسائية مثل ماه تابان الملقبة بقمرة السلطنة سليلة العائلة الحاكمة وابنة فتحعلي شاه لما سمعته عنها، فكتبت جزئيات لقائها بها. كانت ماه تابان زوجة الصدر الأعظم على النقيض من زوجها غير المحبوب من العامة، فقد نجحت في اكتساب محبة وثقة الناس من خلال إبقاء بابها مفتوحا أمام أي مظلمة، فأمست تستقبل الشكاوى بترحيب وتطلب من الوزير النظر فيها ومعالجتها، في محاولة منها لجلب محبة الناس وتحسين صورة زوجها (43). وعلى الرغم من أنها لم تكن تتحدث الفرنسية غير أنها كانت تفهمها. ولعل قوامها الرشيق ولباقتها وذكاؤها تركت انطبعا مغيرا عن النساء في ذاكرة سيرنا. وقد أنعشت هذه الزيارة

الزواج في البداية غير أنها تألفت مع زوجها حيث وجدته الإنسان المثقف المفكر الذي بنى نفسه بنفسه ليرتقي من الطبقة الدنيا إلى أعلى المراتب في المجتمع، فكان من أعظم رجال السياسة في بلاد فارس وقام بالعديد من الإنجازات والإصلاحات التي مازالت حاضرة في ذاكرة الجماعة. بيد أن ذلك لم يرق لأعدائه فنجحوا في إثارة حفيظة الشاه وتحريضه ضده وإيهامه بأن أمير كبير يسعى لانتزاع الملك لنفسه ويخطط للجلوس على العرش، خاصة أنه تمكن من اكتساب محبة الناس بما قام به من إصلاحات فبات في نظرهم الحاكم الفعلي. فنجح أعداءه في التخلص منه ونفيه بعيدا عن العاصمة وهناك دبوا مؤامرة لقتله بمساعدة والدته الشاه مهد عليا التي لم تفلح في منع ابنتها الأميرة عزة الدولة من مرافقة زوجها والارتحال معه إلى منفاه. فقد صممت على مرافقة زوجها وحاولت جاهدة حمايته لدرجة أنها كانت تصر على تذوق أي طعام وشراب بنفسها قبل تقديمه لزوجها خوفا من تعرضه للتسمم (44). بيد أنه من العسير جدا معرفة خفايا مؤامرة أجيد حبكها، فلأسف لم تتمكن من منع القدر فقتل أمير كبير عام ١٨٥٢ خنقا في الحمام وبتدبير من والدتها صاحبة النفوذ القوي على الشاه وبأمر أخيها الشاه نفسه (45). فعادت الأرملة مع طفليها إلى الحريم وهي تجر أذيال الأسى والحزن. ومن سخرية القدر أن تُجبر للمرة الثانية على الزواج من خليفة الصدر الأعظم الذي تأمر على قتل زوجها السابق.

أحيانا وأثناء استحضار أخبار الماضي من الذاكرة قد تتسبب بُعد المسافة الزمنية بين الحدث وتدوينه احتمالية ضياع ونسيان بعض الأسماء فنجد أن سيرنا قد التبس عليها اسم الزوج الثاني للأميرة عزت الدولة مع اسم شخص آخر من رجال الدولة. حيث جاء في مذكرات Lady Sheil مدام شيل (١٨٠٣-١٨٧١) التي عاصرت هذه الحادثة أن الأرملة الجميلة تم تزويجها للصدر الأعظم ميرزا كاظم خان نظام الملك ابن ميرزا آقا خان نوري. بينما الاسم الذي ذكرته سيرنا هو ميرزا محمد خان اقبال الملك، فهو ابن ميرزا باباي حكيم باشي وزوج ابنة ميرزا آقا خان نوري. وأشارت أن زواج أخت الشاه صار طرفة يتداولها الإيرانيون "ان اخت الشاه

ذاكرة الجماعة، فأحد أهم الأحداث السعيدة التي احتفظت بها ذاكرة المجتمع الفارسي في عصر القاجار هي العرس الملكي والاحتفال بزفاف عصمت الدولة ابنة ناصر الدين شاه، إذ ترك هذا الاحتفال ومباهج البذخ فيه ذكرى اختلطت بالخيال في ذاكرة الجماعة، فقد امتدت الاحتفالات لعشرة أيام شارك فيها كل فئات المجتمع ولم تقتصر على طبقة النخبة فحسب، بل أقيمت الموائد في كل المناطق ودعي الجميع إليها، وزُفت العروس على فيل أبيض من قصر والدها الشاه إلى قصر زوجها، وتم انارة الطريق وتجميله بأعلى أنواع السجاد، وزُين جدار القصر بالحرير الكشميري⁽⁴⁶⁾.

ومثلت ابنة الشاه عصمت الدولة وزوجها نموذجاً لأسعد زوجين في البلاط، وكان يتم تداول أخبارهما في السوق، وبكس الصورة التقليدية التي تصور نساء البلاط بالضعف إلا أن هناك نماذج أخرى قوية مثل أنيس الدولة زوجة الشاه المحبوبة التي رافقته في رحلته الأولى لأوروبا وعند إرغامها على العودة وعدم اكمال الرحلة بتحريض من الصدر الأعظم، توعدته، وحرضت رجال الدين ونائب السلطنة عليه فنجحت بإقصاصه فور عودته⁽⁴⁷⁾.

بغض النظر عن محاولة سيرنا الالتزام بالموضوعية والحيدة خلال تدوين تفاصيل الأحداث إلا أنه ليس سهلاً على الإنسان التجرد من أرائه وخلفيته الثقافية ورؤيته، فقد استحضرت ذاكرتها مواقف فردية لبعض النساء، وانزلت في اصدار أحكام جزاف وعممتها على المجتمع الإيراني آنذاك، فتقول سيرنا: "أما نساء الأعيان فلا يخرجن الا نادراً إما لمراقبة أزواجهن ومحاولة ضبطهم بالجزم المشهود أو لخداع أزواجهن، فهذه عادة النساء في كل مكان ومن جملتهم النساء في أوروبا، تقوم السيدة بتغيير هيئتها في شكل رجل وفي ملابس الرجال حتى تتمكن من الولوج إلى الأماكن التي يرتادها الرجال كالمسجد والمقهى والمطعم" هذه الرواية نقلتها لها سيدة مجهولة لم تكشف عن هويتها سوى أنها من الطبقة الأرستقراطية، روت لها أن الغياب المتكرر لزوجها عن البيت دفعها لهذه الحيلة فبدأت مراقبته للتأكد من اخلاصه لها، وهي حالة فردية لا تعبر

خيال وذكريات سيرنا عن حدائق وقصور أوروبا فنظام القصر وتتساق الحديقة وحتى الغلمان الذين قاموا على خدمتهم وأزيائهم كانت تدل على تأثر الصدر الأعظم وزوجته بالثقافة الغربية في محاولة لمحاكاة القصور الأوروبية ورغبة في التطور والتبادل الثقافي بين الشرق والغرب ويكأنه احياء ضمنى بالتفوق الأوروبي⁽⁴⁴⁾.

حملت ذاكرة سيرنا الكثير من التفاصيل حول النساء في البلاط وكيف كن يقضين أوقتهن في التجميل، وذكرت أن النساء استبدلن القلم والمحبرة بصندوق مسحوق التجميل في إشارة ضمنية لمحدودية ثقافتهن. ولم تتمكن سيرنا من المحافظة على المسافة التي ألزمت نفسها بها في مقدمة مذكراتها، فطغت ذاتيتها في بعض الأحيان عندما شبهت النساء الإيرانيات بلغة ساخرة بفاكهة البطيخ "خريزة" وهي صورة نمطية مهينة تحصر المرأة في شيء واحد وتختزلها في مظهرها الجسدي. وفيها تجاهل للسياق الثقافي والتاريخي لمعايير الجسد ومثاليات الجمال في بلاد فارس، فالسمنة كانت من علامات الجمال في تلك الحقبة. وفي موقف آخر عادت سيرنا لتصف الفرح والمرح الذين كانا رفيقي تجمعات النساء عند الزيارات والذهاب للحمام، وتناول الطعام وتبادل الأحاديث، والرقص والغناء والاستماع إلى الموسيقى وحضور بعض المشاهد المسرحية. كانت ذاكرتها تستحضر كل تلك اللحظات الراسخة في أعماقها، فعلى الرغم من تصميم منطقة الحريم الفريد من نوعه بما يحتويه من الحدائق الغناء ونوافير المياه والأزهار الجميلة، وتوفر كل أسباب الراحة، بيد أن سيرنا في الوقت ذاته التقطت انطباعات الفرح والسرور الذي كان يغمر النساء في الحريم حين يُسمح لهن بمغادرة القصر في العربات الملكية والسير خلف الشاه للتزهر، "وكأنهن طيور فتح لهن باب القفص الذهبي وبدأن الطيران واستنشاق الهواء النقي ورؤية الطبيعة الغناء"⁽⁴⁵⁾، وعلى الرغم من المعنى الإيجابي للعبارة غير أن باطنها يعكس نظرة استشراقية نمطية تحاول تصوير وضع النساء كمضطهدات مقيدات في الحريم.

وقد استعارت سيرنا ذكريات إضافية لإحياء واستعادة مجرى الأحداث التي وقعت فتكاملت الصورة في ذاكرتها، فتفردت بنقل مروييات بقيت راسخة في

بالضرورة عن النساء في بلاد فارس، مما يجعل تعميمها من قبل سيرنا غير مبرر⁽⁴⁸⁾.

وفي موقع آخر تروي فيه عن أهمية الحذاء عند نساء بلاد فارس؛ فإضافة إلى وظيفته في حماية الأقدام أثناء السير، فهو أداة للدفاع عن النفس وضرب الرجال، تقول سيرنا أن المثل المعروف "فلان تحت ضربات فردة حذاء زوجته" ربما انتقل إلى إيطاليا وإسبانيا من بلاد فارس، ومن وجهة نظرها أن المرأة في بلاد فارس حقودة بطبعها، فإذا لم يعجبها حديث ما، على مُحَدَّثها انتظار ردة فعلها عبر فردة حذاءها. وفي مكان آخر تتحدث سيرنا بلغة ساخرة عن الألقاب التي اتخذتها النساء وأطلقنها على أنفسهن "لو انطبقت تلك الألقاب مثل نور الشمس ونجمة المساء واللؤلؤة وغيرها من الألقاب التي يتفاخر بها النساء بالفعل عليهن، لكانت أرض فارس احتوت أجمل الحسنات" في إشارة منها إلى أن الألقاب لا تعكس الحقيقة⁽⁴⁹⁾.

كثيرة هي القضايا التي أثارها ذكريات سيرنا فقد تمكنت من مخالطة النساء من مختلف الفئات أثناء رحلتها فحفظت ذاكرتها صورة الفلاحة في الأرياف التي لا تجد حرجاً في الكشف عن وجهها أمام الغرباء، ورغم بساطة بيتها إلا أنه نظيف ومنسق بشكل جميل. وتم استضافة سيرنا في بيوت الفلاحين أثناء رحلة العودة وحضرت بعض الاحتفالات، بيد أن ثقافتها الأوروبية والنظرة الاثنيومركزية غلبت عليها في أحيان كثيرة فعندما أعطتها أحد الفلاحات مرآتها المكسورة لاستخدامها افترضت أن غايتها الحصول على المال، وعندما قامت العازقات في حفل الزفاف بالغناء لها والترحيب بها اعتبرت ذلك طمعاً في المال، فقد وضعن النقود التي دفعتها لهن فوق جباههن وبدأن الرقص، وفي الواقع أن عادة الإيرانيين في تلك المناطق نثر النقود على الراقصين والرقص بها تعبيراً عن سعادتهم⁽⁵⁰⁾.

وفي المقابل حُفرت بعض الذكريات المؤلمة في ذهن سيرنا لتجسد ظلم المجتمع للمرأة فقد شاهدت واقعة رجم إحدى النساء حتى الموت، فعاشت في صراع مع ذاكرتها في محاولة سرد تفاصيل الواقعة⁽⁵¹⁾. ولعل أكثر المواقف التي طُبعت في ذاكرتها هي قصة الأرملة الشابة في مدينة انزلي وما عانتها من جور نتيجة تعرضها

للاعتداء في مجتمع يلوم الضحية ويحكم عليها وعلى طفلتها بالموت بدلاً من البحث عن الجاني ومحاكمته، ذكرى مؤلمة لم تتمكن من التخلص من أثرها العميق في ذاكرتها خاصة مع رؤية تلك الأرملة هائمة على وجهها في حوارٍ انزلي تبحث عن ابنتها التي بأي ذنب قتلت⁽⁵²⁾.

كانت هذه شذرات من ذاكرة سيرنا عن النساء في الدولة القاجارية، فما الذي ميز ذاكرة تاج السلطنة الأميرة التي عاشت في الحريم وعاصرت الكثير من الأحداث الهامة في أواخر حكم ناصر الدين شاه ومظفر الدين شاه القاجاري. "إن للذاكرة مقدرة على توليد تاريخ آخر"⁽⁵³⁾ وتاج السلطنة استحضرت ذاكرتها الفردية صوراً وذكريات من الماضي حين كانت تعيش في الإندرون، فحملت لغة اجتماعية وكأنها أرادت أن "تقدم صورة عن الماضي تستحق ثقة القارئ" روت فيها عن وقائع وأحداث كانت جزء منها، وأخرى وقعت في الماضي البعيد استعارتها من ذاكرة مربيتها.

كانت تاج السلطنة هي جوهر ذاكرتها التي تمحورت حول حياتها الشخصية قبل الزواج وعلاقاتها في قصر والدها، فرغم أنها نشأت في البلاط الملكي حيث تنعمت بمظاهر الأبهة والترفع من نعومة أضافرها، بيد أن ذاكرتها المكبوتة أعادت لها ذكرى أيام الحزن والأسى والألم، فوفقاً للقواعد الملكية فُرض عليها العيش مع مربيتها بعيداً عن والدتها التي لم تكن تقضي معها سوى ساعتين في اليوم، أما والدها الشاه فكانت تأخذ لرؤيته ساعة في اليوم. تلك التمثلات المؤلمة نُقشت في ذاكرتها، ودفعتها لانتقاد تلك الأعراف التي تفرض على الأم عدم إرضاع وليدها، وأثارت في ذهنها العديد من التساؤلات لماذا لا تعطى الأم طفلتها الحب والرعاية؟ كيف ترضى والدتها السيدة المتدينة ترك تربية ابنتها للمربية. كلما استحضرت تاج السلطنة ذكرياتها مع والدتها كانت تطفو على السطح ذكرى مجروحة؛ فتارة تتذكر اعتداء أمها وانهايها بالضرب عليها في غرفتها بسبب شائعة سمعتها من أحد النسوة في الحريم، وأخرى حين صفعتها أثناء انتشار الفوضى والهرج والمرج في الحريم بعد انتشار نبأ مقتل الشاه -لأنها رسمت حواجبها بالحبر الذي يصعب إزالته قبل عدة أيام، وهي عادة

بحجة أن الملابس الأوروبية ضيقة فلا تستطيع الصلاة فيها. ومن ثمَّ خلعت الحجاب، وبدأت نشاطها والمطالبة بتحرير المرأة من القيود المفروضة عليها وأولها الحجاب الذي برأيها هو سبب تخلف ورجعية الأمة⁽⁵⁸⁾. تدوين تلك الحقائق والتعبير عن معتقداتها بهذه الصورة آنذاك يعد أمراً جليلاً في مجتمع يُتجنب فيه هذا النوع من الأدب، والذي هو امتداد منطقي للثقافة السائدة في مجتمع ثنائي يفصل بين الداخل والخارج، نجد تاج قد تغلبت على سلطة الرقابة الأخلاقية الذاتية والخارجية وتحدث المجتمع بالكشف عن أسرارها الخاصة والقيود المفروضة على بنات جنسها، رغم تمرکز ذكرياتها حول الذات⁽⁵⁹⁾.

وبطبيعة الحال حملت لنا ذكريات تاج السلطنة الكثير عن النظام والسياسات المتبعة في الإندرون، فكل امرأة من الحريم كانت تملك جناحاً منفصلاً ولها جوارى وخدم مخصصين لخدمتها، ومن النادر أن تشترك اثنتان في منزل واحد إلا إذا كانت من الفئات الدنيا في المجتمع وتدخل القصر لأول مرة، إضافة إلى ذلك فقد تم تخصيص راتب ومنزل وأملاك خارج القصر لكل سيدة. وقد بلغ حريم ناصر الدين شاه ثمانين زوجة وجارية، لكل منهن خادمتان، ومجموع النساء في الحريم وصل إلى حوالي ستمائة، وقد رزق ما يقارب ثمانية نساء منهن فحسب بأبناء، أما الأغلبية فقد حُرمن من الأبناء إما لوفاتهم وهم صغاراً أو لأنهن لم يرزقن بأطفال⁽⁶⁰⁾.

وروت تاج السلطنة عن التقاليد والبروتوكولات الملكية المتبعة في منطقة الحريم بعد وفاة الشاه، حيث يتم نقل حريم الشاه المتوفى وإحلال القصر بحريم الشاه المتوج حديثاً، وتُعد تلك اللحظات من الذكريات الأكثر قسوة وتعقيداً في حياة تاج السلطنة بعد وفاة والدها الشاه، إذ حُكم عليها بترك القصر الواسع ضمن باقي الحريم والحرمان من الرفاهية التي كانت تتمتع بها، ومن ذكريات طفولتها وغرفة ألعابها والبيانو الذي كانت تعزف عليه، والانتقال للإقامة في منزل صغير ضيق، فكان هذا الانتقال مفاجئاً وصادمًا رافقه شعور بالانقباض⁽⁶¹⁾.

صورت ذاكرة تاج السلطنة النساء في الحريم كسولات وجاهلات لا يعرفن حزنًا أو غمًا في هذه

كانت متبعة بين النساء في مظاهر الفرح- أو حين أهتملتها للاعتناء بأخيها الصغير حتى في الساعات المخصصة لها. تلك المواقف قطعت حبل المودة في قلبها نحو والدتها وخلقت هوة شاسعة بينهما⁽⁵⁴⁾.

وهبت تاج السلطنة ذاكرة قوية بالفطرة وهو أفضل ما تملكه شاهداً على أن حدثاً معيناً قد حل أو قد مر، قبل أن تعلن أنها تتذكره⁽⁵⁵⁾. تستذكر تاج السلطنة همهمات وهمسات النساء في جنبات الحريم حين بلغت الثامنة من عمرها، عن الخطّاب الذين أرسلوا في خطبتها، فتروي لنا حذافير مراسم الخطبة، وكيف تم ترتيب زواج فُرض عليها فتقول "هل يمكن أن يكون هناك سوء حظ أكبر من زواج طفلة في الثامنة من العمر من شخص لم يختاره قلبها وروحها، واختاره الكبار نيابة عنها، يا لهذه القيم البالية"، واعتبرت ذلك اليوم الذي استلبت فيه من طفولتها يوماً مشؤوماً⁽⁵⁶⁾.

وتستعيد ذكريات حفل الزفاف بعد وفاة والدها بعام وكانت حينها هي وزوجها في الثالثة عشر من عمرهما، لم تكن سعيدة لكنها ظنت في أعماقها أن الزواج قد يحررها من ذلك المكان الذي عاشت فيه، عرضت بكل دقة تفاصيل الزفاف الملكي وانتقالها لمسكنها الجديد؛ حيث حملها والد زوجها عند النزول من العربة لعدم قدرتها على النزول نظراً لصغر حجمها. كان هذا الزواج محكوماً بالفشل منذ البداية، لارتباط طفلين لا يملكان أي خبرة في هذه الحياة⁽⁵⁷⁾.

هكذا تمضي تاج إلى الخلف نحو طفولتها مع الشعور بأن الأمور قد جرت في عصر آخر فتسرد بكل أسى تفاصيل دقيقة عن حياتها الزوجية وإهمال الزوج، وخيانتها لها بل وشذوذه، فباتت في حالة من التماسية قادتها إلى الاكتئاب ومحاولة الانتحار بالسّم أكثر من مرة، وعدم التردد في إجهاض جنينها، وبعد فترة وعلى إثر نصيحة أحد الأقارب توجهت للتعليم بعد أن أدركت أن الجاهل بلا قيمة في الحياة، فتلقت دروساً في اللغة الفرنسية، وانفتحت على الثقافة الغربية وتأثرت بالفلسفة الطبيعية؛ مما دفعها إلى التمرد ورفض العادات والتقاليد البالية، فتحدثت المعايير الأبوية وتبنت الأفكار الغربية "الاستلاب الثقافي"، فارتدت الملابس الأوروبية، وتوقفت عن ممارسة الشعائر الدينية كالصلاة

الحياة، فكان جميعاً متديناً وملتزماً بالصلاة والصيام وقراءة القرآن. وقد اعتدنا قضاء يومهم في التسلية والألعاب مثل ممارسة لعبة لاسكنة⁽⁶²⁾. ناهيك عن التنافس بالتجمل والتدلل ليختار الشاه واحدة منهم في المساء والباقي ذهبته جهودهم أدراج الرياح. فعشن حياة مرفهة ولم يتعرضوا لتحديات ومصاعب كبيرة، فنشأن هشات غير مدريات على تحمل الأعباء، لذا بعد وفاة الشاه وخروجهم من الحريم لم يتمكنوا من مواجهة العالم الآخر القابع خلف أسوار القصر، وبعد فترة قصيرة مات أغلبهم⁽⁶³⁾.

وفي مكان آخر وصفت النساء في بلاد فارس بأنهن لسن بشراً وإنما جزء من الحيوانات والوحوش، يقضين حياتهن في الحبس وخلف الجدران ويتحملن الكثير من الضغوط والحياة البائسة والشاقة، ويراقبن من بعيد في حسرة ما حققته النساء الأوروبيات اللاتي طالبن بحقوقهن في المساواة وحققن في المشاركة السياسية، فقد كانت الأخبار تصلهن من خلال قراءة الصحف الغربية⁽⁶⁴⁾.

لم تكتف تاج السلطنة باستحضار ذاكرتها الفردية، بل استعارت بعض الأحداث من ذاكرة مربيها التي كانت تروي لها قصصاً عن الشخصيات والوقائع التي جرت في الماضي قبل ولادة تاج، من هذه الشخصيات أمين أقدس زوجة الشاه التي كانت مسؤولة عن صندوق أموال الدولة، أضررت تلك السيدة من الأرياف وكانت في البداية خادمة جيران محظية الشاه والمسؤولة عن القطة التي أحبها الشاه لاحقاً، وعمة الطفل ملجيك الذي تعلق به الشاه بعد اختفاء القطة وأغدى عليه النعم وقربه من البلاط، فكان هذا الطفل علة ارتقاء هذه السيدة في النظام التراتبي في الحريم لتحتل مكانة مرموقة⁽⁶⁵⁾.

تجدد الإشارة هنا إلا أنه رغم القيود التي كانت مفروضة على النساء في تلك الفترة، بيد أن المرأة في بلاد فارس تمكنت من مزمنة التحديات ببراعة وكان لها دور مؤثر في أغلب الميادين وشاركت بفعالية في الثورات التي شهدتها المملكة، وظهرت شخصيات نسائية بارزة أثرت في المجتمع الفارسي مثل قرة العين ويبيي خانم وسردار مريم وغيرهن، والصورة السلبية التي نقلتها تاج السلطنة وان تضمنت الحقيقة في جوانب منها، غير أنها لا تعكس بالضرورة الصورة الكاملة بدقة، فهي تظهر مشاعر الشخصية المكبوتة نتيجة ظروف فرضت عليها.

التقت ذاكرة تاج السلطنة وسيرنا واتفقتا حول شخصية أنيس الدولة الزوجة المفضلة للشاه التي لم تكن تتمتع بمظاهر الجمال، بيد أنها احتلت منصب الصدارة في قلب زوجها الشاه. وصفت تاج السلطنة كيف التقاه الشاه في أحد رحلاته وكانت حين ذاك فلاحاً في الحقل، وكيف أسرت قلب الشاه بعفويتها وجراتها عند الإجابة على أسئلته دون خوف وخجل، فاخترها زوجة له وأحضرها للحريم وسلمها لجيران إحدى زوجاته

تمثلات تاج السلطنة في ماضيها تضمنت العديد من الخفايا المهمة التي تعين الباحث اليوم على تفسير وتحليل الوقائع والأحداث اللاحقة، دونت تاج عن زوجة الشاه ماه رخسار التي وقعت تحت تأثير الصدر الأعظم وحديثه المعسول -الذي نال ثقة السلطان فسمح له بالولوج إلى الاندرون- فكانت تمده بأخبار الشاه وفحوى

دورية كان التاريخية
علمية، عالمية، محكمة، ربع سنوية
السنة الثامنة عشرة - العدد التاسع والستون - يونيو ٢٠٢٥

الضعيفة والمغلوب على أمرها، أو التي لا هم لها سوى قضاء وقتها في التجميل والتسلية، أو المرأة القوية ذات النفوذ التي تسببت في تراجع الدولة والتخلص من الصدور العظام مثل مهد عليا وأنيس الدولة.

رابعاً: الذاكرة والمهمشون

"اهتم المؤرخون من نهاية القرن التاسع عشر بالمتشردين والمجرمين وبالهوامش في المجتمع"^(٧٣)، وقد رسمت مشاهدات سيرنا صورة حية للواقع المتناقض لحياة تعج بالنشاط في بلاد فارس، فتنتقلت ذاكرتها بين حركة الناس من مختلف المشارب في ازدحام البازار؛ واحتفظت بأخبار ومرويات متنوعة فصورت بدقة نماذج لبعض الفئات المهمشة ونالت عناية خاصة بأخبارهم لتبين مدى تأثيرهم وحضورهم في المجتمع وتطرت لأحوالهم الغريبة وأخبارهم وعاداتهم. ومن جانبها لم تهمل تاج السلطنة التطرق لشخصيات منسية في التاريخ كان لها دور في حياتها. وفي حين أن تلك الروايات قد تعكس خلفياتهم وتوقعاتهم الثقافية الخاصة، إلا أنها توفر نسيجاً غنياً بالتفاصيل حول المجتمع القاجاري، وتزودنا بتفاصيل مهمة ومفصلة في بعض القضايا لإنجاز قراءة تفهيمية للمجتمع الفارسي آتية من القاع من منظور المركزي والهامشي.

لم تحظ الطبقات الاجتماعية الدنيا في العصور المختلفة بنصيب كبير في الكتب التاريخية، وتم تجاهل أدوار العديد من الشرائح الاجتماعية والكادحين الذين لطالما عمّروا دهايز التاريخ وأقبيته المظلمة، بيد أن نصيبهم كان النسيان^(٧٤). ولعل شخصية الجارودار من أفضل الأمثلة في هذا المجال؛ فقد كانت تُعد من أدنى الطبقات الاجتماعية في المجتمع الفارسي، رغم أنها لعبت دوراً مهماً ومؤثراً في تسهيل حركة النقل والتجارة والسفر في الدروب الوعرة والفيافي الموحشة. فالجارودار هو شخص يمتلك دواب مثل البغال والخيول، ويعتاش عبر تأجيرها لنقل الركاب وحمل البضائع والسفر لمسافات طويلة، وأحياناً كثيرة لا يمانع بنقل الجنازات من منطقة لأخرى مع طول المسافة وتشعبها^(٧٥). حيث يقوم المسافرون باستئجار الدواب لحمل

المراسلات والخطابات المرسلة للشاه، وذلك حين كانت تحمل الضوء للشاه في المساء، وتقف خلفه أثناء قراءة الكتب وكتابة المراسلات واعداد المراسيم الهامة، لثقلته بها وظناً منه أنها لا تجيد قراءة المخطوطات، بيد أنها كانت تغافله في الصباح وتتطلع على فحوى تلك الخطابات لتنتقلها للصدر الأعظم. تظن تاج أن سداجة هذه المرأة وحبها للشاه دفعها إلى تلك الفعل التي لم تكن تدرك تداعياتها⁽⁷⁰⁾.

"إن التفاعل بين الماضي والحاضر هو تفاعل بين الإدراك الحسي والتذكر" فالإدراك الحسي ومعايشة الحدث يعززان من استحضار الذكرى^(٧٦)، فنجد تاج السلطنة تسترجع ذكريات رحلتها إلى مدينة تبريز حيث رأت النساء الفلاحات يعملن يداً بيد مع أزواجهن في زراعة الحقول وأحست بمدى السعادة التي تغمرهم رغم تعب ومشقة العمل تقول "كُنْتُ أرى النساء والرجال منهمكين في العمل سوياً، ودون حجاب"، هذه المناظر رسخت في ذهن تاج مسألة شديدة الأهمية حول الحجاب، فبات الحجاب سبب الرجعية والظلم القابع على النساء، وعدم ارتداء الحجاب ساهم من وجهة نظرها في إشاعة الود والحب بين الفلاحات وأزواجهن^(٧٧).

امتازت الذكريات التي دونتها كل من مدام سيرنا وتاج السلطنة عن النساء باتساع النظرة في المكان والزمان، فلم تقتصر على طبقة النخبة، بل كانت ذكرات حقيقية ومستعارة ومحاولة لإلقاء الضوء على تلك الفئة المهمشة في التاريخ، وبعض الأدوار التي لعبتها وتأثيرهن على السياسات في الدولة. فكان لكل منهما أسلوب مميز ودقة في الوصف، وبقراءة متأنية نجد أن تلك الأخبار تمدنا بطيف من الصور عن الحريم كمكان والنظام المتبع في البلاط، وعن نماذج نسائية متباينة إما مغلوب على أمرها أو نافذة السلطة. تقاطعت تلك الذكريات واتحدت معاً لتقديم لنا توليفة من الموضوعات، وحاولت تجنب الصور النمطية والالتزام بما شاهدته. وعلى الرغم من ذلك لاحظنا بعض الهفوات الاستشراقية الناجمة عن قصور في معرفة الخلفية الثقافية ونظرة انثرومركزية غربية من ناحية سيرنا، تلمسناها في النماذج التي اختارتها فتراوحت بين المرأة

بضائهم ويتولى الجارودار تسهيل عملية الحمل والنقل ومرافقة القافلة إلى مقصدها.

وقد تمت سيرنا وصفاً دقيقاً عن حياة الجارودار، فهم "أناس أقوياء وراضون، يقتاتون بكمية صغيرة من الأرز ورشفة من الماء، وفي الواقع، يرتاحون أقل من البغال". ووصفت شخصية جارودار الزعيم بأنه قائد مستقل يأخذ قراراته فيما يخص القافلة والطريق متى شاء ويتوقف متى شاء وفقاً لشروطه الخاصة. يشير هذا الترتيب غير الرسمي إلى وجود نظام تم التفاوض عليه داخل القافلة، وتوزيع للمهام مما يضمن الكفاءة دون وجود تسلسلات هرمية صارمة^(٧٦).

اقتربت سيرنا من الناس العاديين في محاولة لفهم أفكارهم وعاداتهم وأعرافهم وطرق معيشتهم، فاخترت ذاكرتها توليفة من الذكريات المتنوعة، فقدمت لنا لمحات فريدة عن عالم القوافل من خلال عدسة " الجارودار"، وتحليلاً للممارسات والروتينيات اليومية لهؤلاء الحمالين وكيفية تنقلهم والحفاظ على النظام داخل القافلة. تلقي هذه اللوحة عن "التاريخ من الأسفل" الضوء على الدور الحيوي للجارودار ومساهماتهم في النسيج الاقتصادي والاجتماعي لبلاد فارس القاجارية.

من جانب آخر استحوذت شخصية الدراويش باهتمامها فهم لا يتشابهون فكل منهم أخلاق وسمات تميزه عن الآخر، فمنهم الإيراني والهندي والعربي، والفرنسي. وغالباً ما يبدو هائمين على وجوههم الكئيبة والشاحبة، فالدراويش العربي مثلاً يرتدي قبعة مخروطية الشكل نقش عليها آيات وسور من القرآن وأدعية وأحاديث عن النبي ويرتدي ثوباً قذراً، ويحمل فأساً ثقيلًا على كتفه وحقيبة ظهر يحمل فيها ما يوجد به الناس من أطعمة. ويقوم ببيع الناس طلاسماً وآيات قرآنية ملفوفة في قطع أقمشة كحجاب يحفظهم وبأسعار زهيدة، وآخر يجني قوت يومه عبر صوته الرنان فينشد أشعاراً مذهبية ويتوسل بالأئمة ويروي مصائب أهل البيت لجذب انتباه العامة بنبرة صوته^(٧٧).

وفي موقع آخر تستحضر ذاكرة سيرنا بالتفصيل حياة الدراويش فهم يتنقلون بكل حرية في بلاد فارس والهند ومصر ودول أخرى، ويعيشون هائمين على وجوههم يلتقطهم السيارة في الطريق ويتصدقون عليهم،

البعض منهم ينقلون احكام القرآن للهند وينشرون افكار وحضارة الهند بين المسلمين، والبعض الآخر فقهاء ويمكنهم الفتوى في ادق الأمور الدينية، ومنهم الذي اكتفى بحفظ عدد من الروايات يرددها دائماً، ومن بينهم الكثيرين الذين يقومون ببيع الطلاسماً والاحجية للحفظ والشفاء، ويستعين بهم الناس في حال سرقت اموالهم او ضاعت، ويلجأ اليهم البعض للاستشارة قبل بدء أي تجارة او الذهاب في رحلة ويستغل هؤلاء بساطة الناس في الحصول على الأموال^(٧٨).

ومن القصص الطريفة التي استرجعتها ذاكرة سيرنا لقائها بدرويش فرنسي أو السيد ميم كما أطلقت عليه والذي ينتسب لعائلة ثرية وذات شأن في الغرب، فكان يجيد اللغات الشرقية التي تعلمها في باريس في عام ١٨٧٥، ونتيجة لتعرضه لبعض الضغوط في عمله كونه ضابطاً وفقد له والديه يصاب بخلل في قدراته العقلية، وبعد حين يقرر هذا الشاب الارتحال فيسافر عن طريق روسيا إلى الشرق وفي الطريق يقبض عليه بتهمة التجسس ويتعرض للتعذيب في السجن، إلى أن يتم التحقق من كونه سائح ويفرج عنه فيرحل للشرق وهناك يختلط بالدراويش ويعيش معهم في المساجد ويزور الأضرحة. وقد وصل دخل هذا الدراويش ثمانين فرنكاً من الصدقات التي كان يغدق بها الناس عليه، فكان يقوم بإرسالها عن طريق إسطنبول لفرنسا. وقد حاول الفرنسيون المقيمون في بلاد فارس ورجال الدين إعادته لفرنسا لكنه أبى الذهاب وفضل هذه الحياة عن حياة القصور، إلى أن تمكنوا من إرغامه على الخروج من طهران والتوجه لباريس^(٧٩).

وبطبيعة الحال فإن الحرية التي كانت تتمتع بها سيرنا أتاحت لها فرصة التنقل بين المدن والقرى الهامشية، وكان هذا الاهتمام نتيجة ثقافة غربية بدأ يجد فيها المهمشون مساحة للحضور والتأثير، ونتيجة لما شاهدته سيرنا من تأثير هذه الفئة وحضورها على العقل الاجتماعي فاستحضرت الكثير من الشخصيات في مذكراتها، بيد أن حيز الدراسة لا يسمح بذكرها. وفي المقابل نجد تاج السلطنة المقيدة بقواعد البلاط والمزمة بالاحتجاب، تمحورت ذاكرتها حول سيرة حياتها فانغمست في ذاتها، بيد أن ذاكرتها القوية ومهاراتها

للإفادة منها في تقدم بلاده، فحرصت ذاكرتها على رصد أصداء تلك الرحلة والإصلاحات التي حاول تطبيقها بعد عودته. كانت باكورة تلك الإصلاحات انشاء مجلس الشورى لتباحث قضايا المملكة بين اعضاء المجلس من الوزراء وبعض كبار رجال الدولة -الذين قام الشاه بتعيينهم-. وأمر الشاه بنشر صناديق لجمع التظلمات في كافة انحاء البلاد يضع فيه المظلومون شكاواهم لبحثها ونصرتهم. بيد أن حكام المدن ورجال الدولة الفاسدين وضعوا رجالهم عند تلك الصناديق ليهلدوا الناس بالجلد والتعذيب في حال وضعوا شكاوهم في الصناديق، فكانت الصناديق تصل عند الشاه فارغة فيطمئن قلب الشاه ظنا منه أن الأمن مستتب وأن الشعب مرتاح⁽⁸²⁾.

واستعرضت سيرنا عددا من الإنجازات في عصر ناصر الدين شاه القاجار مثل تأسيس مكتب للبريد ودارا لصك العملة تم تسليم ادارتهما لأوروبيين، وأمر بحفر ومد أحدث طريقين في تاريخ إيران بإيعاز بريطاني، واستصلح البنية التحتية لصرف المياه، وباتت طهران مدينة جميلة في عهده. واهتم بتجديد الجيش وتسليحه بأسلحة حديثة من فرنسا، وأنشأ مدرسة نظامية تحت اشراف ووزارة الحرب بقيادة ضابط دانماركي⁽⁸³⁾. ويكأن تلك التفاصيل تعكس رؤية استشرافية تتسم بالتأكيد على الحاجة إلى الخبرة الأوروبية والتفوق الغربي، وتكرس الصورة النمطية السلبية عن المجتمع الشرقي.

وقد نشط شريط ذاكرة سيرنا في تدوين صورة وتفاصيل من ذكريات واعية لتجارب ومحطات فارقة عايشتها الجماعة كالاحتفال بافتتاح طريق شويه الجديد عام ١٧٤٤ للربط بين العاصمة طهران وضريح شاه عبد العظيم، وكان أكثر الطرق وعورة لكثرة العراقيل الطبيعية وكثرة الأمطار والثلوج وغزارتها ووجود الأنهار التي كادت تتسبب في إيقاف المشروع بعد أن جعلت مهمة انشاءه مستحيلة، حتى اضطر المهندس المعماري الأوروبي إلى بناء أكثر من ثمان سدود لاستكمال الطريق. سردت سيرنا كيف نُقش هذا الحدث في الذاكرة الجمعية واحتفظت بتفاصيله حيث استُخدمت

اللغوية ساعدتها في إبراز بعض الشخصيات المهمشة من المحيطين بها في بلاط الحريم التي وإن سقطت من ذاكرة التاريخ كان لها أدوار وساهمت في تكوين الصورة. فقد استحضرت تاج من ذاكرة طفولتها آقا نوري خان خواجه نائب اعتماد الحرم والمسؤول عن بوابة الحريم والذي كان يحتفظ بمفاتيح القصر الملكي، ويصدر أوامر الدخول والخروج لمنطقة الحريم، وصفت تاج ملامحه القاسية بدقة وكأنه سفاح "حين يتجشأ كنا نسمع الصوت من أبعد مكان في القصر"، يهابه كل من في القصر "فحتى لو مرض أحد أفراد الحريم وكان على حافة الموت، واقا نوري في الحمام لن يتجرأ أي أحد على تخطيه"، دخل القصر صغيرا واكتسب ثقة الشاه فتمكن من الصعود لأعلى المراتب⁽⁸⁴⁾.

وسردت تاج عن مربيتها الشخصية (الدادا)، وهي امرأة في الخامسة والأربعين سوداء البشرة لا تتحدث كثيرا، وإذا تحدثت فبنبرة حادة. وكانت مربية والدة تاج سابقا، وباتت المسؤولة عن تربية تاج وتوفير جميع أنواع الطعام والشراب لها. ورغم ملامح وجهها المخيفة وجسمها الضخم إلا أن تاج كانت تحبها وتعلقت بها بشدة لدرجة أن هذه المودة انتقلت معها لكل من يحمل اسم دادا وله بشرة سمراء. وقد تعلمت التحدث بلغتها وكانت تخاطب بها الأطفال⁽⁸⁵⁾. وتكشف ذاكرة تاج عن ازدواجية في مواقفها تجاه قضية العرق والحرية، فتارة نجدتها تبدي استيائها الشديد لما تتعرض له الطبقة الدنيا في المجتمع الفارسي وخاصة العبيد، وتستتكر فرض السيطرة على عباد خلقهم الله أحرارا واستعبدهم بني البشر فيتعرضون للبيع والشراء. وفي موضع آخر تنتقد والدتها لترك تربية ابنتها لامرأة سوداء وجاهلة لا تعرف الفرق بين الألف من الياء. كثيرة هي القصص التي روتها تاج عن شخصيات من الطبقات الدنيا، تعيننا هذه الروايات في استكمال السردية التاريخية حول الإماء والعبيد السوداوات في القصور الفارسية.

خامساً: الذاكرة والنظام والفساد الإداري

احتفظت ذاكرة سيرنا بتفاصيل لقائها الأول مع الشاه في باريس عام ١٨٧٣ التي هدف فيها التعرف عن كُتب على الحضارة الأوروبية وأصول الحياة الحديثة

الأعلام والورود لأول مرة في تدشين الطريق وعُزف النشيد الوطني⁽⁸⁴⁾.

غير أن تلك الإصلاحات ما انفكت أن توقفت. فنجد سيرنا في أحيان كثيرة تغلبها الذاتية وتصدر أحكاماً بنظرة استعلائية وتعميمية على الإيرانيين فهم "شعب لا تجتمع فيهم صفات التنمية والتطوير لذا فاستمرار الإصلاحات الإيجابية في بلاد فارس أمر غير ممكن، والدليل توقف سلسلة الإصلاحات التي بدأها الشاه في غضون عدة أشهر".

خلفية سيرنا الأوروبية وذاكرتها المثقفة التي تكونت في صالونها حيث اللقاءات بين كبار الشخصيات وتبادل الأحاديث أسهمت في تكوين رصيد معرفي مكثف من توسيع النظرة في المكان وفي الزمان، فاخترت الكثير من الإشارات حول فساد النظام في بلاد فارس أولها الحاكم الذي يدعي أنه ظل الله على الأرض، ويوظف سلطته من أجل الاستتباع والتبعية. فقدمت وصفا تفصيليا حول إيرادات الشاه وخزانة المملكة وفي مقدمتها الضرائب التي يتولى الحكام وكبار رجال الدولة بتحصيلها من الشعب وتحويلها لخزانة الشاه، فيأخذ جزءا منها، ثم يتقاسم الوزراء يتبعهم رجال البلاط كل يأخذ نصيبه منها بالتسلسل فلا تصل إلى خزانة الدولة إلا مبالغ قليلة جدا وقد لا تصل في بعض الأحيان، ويظل صغار الموظفين والجنود شهورا طويلة دون استلام حقوقهم. والمنبع الآخر هو الهدايا الثمينة التي كانت تقدم للشاه خلال جولاته الداخلية لمنازل كبار الرجال في الدولة، ومن وضع يده على الموارد ذات القيمة العالية، وقد أجاز الشاه لرعاياه العمل الحر وتكوين الثروات شريطة أن يحصل بدوره على نصيب منها. وعند التخطيط للقيام بالرحلة الثانية لأوروبا قام بالإفراج عن المجرمين المحكوم عليهم بالموت للحصول على العفو العام مقابل مبالغ مالية، ساهمت تلك المبالغ في تأمين نفقات الرحلة الثانية مما أعفاه من استخدام أمواله الخاصة⁽⁸⁵⁾.

وكان ناصر الدين شاه بارعاً في ابتكار طرق جديدة وطريقة للحصول على الأموال فقد ابتدع "لعبة البائع"، فكان يحدد يوما يخرج فيه للسوق ويتم دعوة كبار الشخصيات والمشاهير والأعيان لمرافقة الشاه، وفي

السوق يقع اختياره على أحد الحوانيت التي كانت تباع الأدوات المعدنية والغريبة المستوردة من الخارج، فيجلس الشاه على المنضدة في المحل ويسأل صاحب المحل هل تمنع في شراكتي اليوم، ومن البديهي ألا يملك التاجر الرفض. فيلعب الشاه دور صاحب المحل ويبيع البضائع بأسعار غالية وخيالية ويضطر التجار الأعيان والناس للشراء منه؛ وفي نهاية اللعبة يقسم الأرباح بين الشاه وصاحب المحل. ومن ثم تحول الأموال لسبائك ذهب ويتم تخزينها في صناديق يحتفظ بها الشاه في قصره⁽⁸⁶⁾.

تتجلى هنا الذاكرة الغربية لسيرنا التي نشأت وترعرعت على أصداء عصر التنوير والثورة الفرنسية في نهاية القرن التاسع عشر حين تصطدم فكريا بنظام الحكم الذي يعد فيه الشاه نفسه "ظل الله على الأرض" فقانونه هو السائد ولا يعلوه أي حكم، فافترضت أنه نتيجة لهذا النظام ظل المجتمع الإيراني أسيرا لأهواء هذا الحاكم ورجال البلاط⁽⁸⁷⁾. في حين أن هذا النظام لم يكن سمة فريدة بهذا السياق الثقافي، فمفهوم "الملكية المطلقة" كان سائدا في أوروبا في القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث، حيث ارتبطت الملكية بالكنيسة واعتبر الملك رمزا للسلطة الإلهية.

وتفرض هذه الذاكرة نفسها على سيرنا حين تقوم بمقارنة خاطئة بين سيد محمد علي باب ومارتن لوتر في محاولة لتشبيه حركة باب الإصلاحية بحركة الإصلاح الديني التي قادها لوتر في أواخر القرون الوسطى وبدايات العصور الحديثة⁽⁸⁸⁾.

وكلما اقتربت سيرنا من الناس وعاشتهم قوبلت بظواهر ومواقف عديدة تتصادم فيها مع ذاكرة التنوير، فمفهوم "السجن والسجين" مثلا يرتبط بسلطة القانون وحقوق الأفراد في ذاكرة سيرنا، بيد أنه يتعارض مع ما شاهده في منازل عدد من الأهالي وذوي السلطة والنخبة في بلاد فارس، فكل منهم قانونه وسجنه الخاص الذي بناه في منزله أو قصره لمعاقبة وحبس المخالفين والخارجين عليه من العامة، وفي عملية استحضار للذاكرة تروي سيرنا مشاهداتها قائلة "تقسم السجون لعدة أنواع، [...] فكل إيراني صاحب مقام يعتقد أنه ان لم يحكم ويعاقب أحدا، فإنه سيفقد هيئته

مجلس للشورى يُمثل فيها عن كل ولاية نائب منتخب، فلماذا يحاول رعبتي قتلي" (93).

أحد الملكات التي يتمتع بها الإنسان هي الذاكرة التي يقوم بتوظيفها لاستعادة أحداث الماضي ومعايشته في الخيال، غير أن استحضار تلك اللحظات لا تعني بالضرورة أنها مطابقة للأنباء والوقائع المحتفظ بها في الذاكرة، ففي كثير من الأحيان تقوم الذاكرة ببلورة الذكريات الشخصية وتقديمها بصورة مرغوبة للمتذكر، فيتذكر معلومات شخصية غير دقيقة أو خاطئة وذلك بسبب عملية التصفية والفرز في الذكريات (94)، وذلك ما حصل مع تاج فنجدها تارة تفتخر بوالدها ولا ترى به أي عيب أو نقص وتقول "قلو أتيت له الفرصة لكان أسس دستوراً مُحكما وراسخا لهذه الأمة ولكان قدم الصدر الأعظم للمحاكمة وحاسبه أمام مجلس الأمة على خيائته وفساده". في الواقع أن أحداث الثورة الدستورية وقيام المجلس وقعت في عهد مظفر الدين شاه وليس ناصر الدين شاه، لقد اختلطت ذكريات الحاضر بالماضي عند تاج وذلك ناجم عن محاولات استرجاع ماضٍ بعيد بتفاصيله.

حملت ذاكرة تاج علاقة جدلية وصراع ما بين حبها الشديد لوالدها الشاه من جهة وانتقاده له لانشغاله عن إدارة الدولة بالم لذات واللهم من جهة أخرى، فروت عن انشغاله عن أمر الرعية وعشقه لأخت زوجته ماه رخسار الذي أثار زوبعة في البلاط لولا تدخل صنيع الملك وحل الأزمة بدهاء (95). كانت تاج تشعر بالأسى والحزن لاسترجاع تلك اللحظات فترقرقت عيناها بالدموع لاضطرابها لاستحضار هذه الذاكرة والتأريخ لهذه الوقائع عوضاً عن سرد إنجازات والدها الشاه في تنمية البلاد، وكأنها تود أن تحول دون ضياع ذلك الماضي المرفوض في متهاتات النسيان (96).

وقد تمخضت عن ذاكرة تاج السلطنة ذكريات سردها بحرقة وحزن شديدين حول رحلات أخاها مظفر الدين شاه وكيف تسببت في الضغط على الناس وفرض الضرائب والاقتراض لجمع الأموال اللازمة لتيسير هذه الرحلات، وكيف تم اهدار هذه الأموال في أمور بلا طائل، فقد أمر الشاه بشراء أشجار عملاقة بمبالغ طائلة وتم شحنها بكلفة عالية جدا من أوروبا ليتم

ومكانته الاجتماعية". ومن هنا سادت الفوضى ذلك المجتمع الذي بات رازحا تحت رحمة وسلطة كل صاحب نفوذ يهب نفسه الحق في الهيمنة والاستبداد على تلك الفئة الضعيفة ويكأنه "ظل الله". في مملكة يحكمها الملك بالسيف والأهواء لا بالقانون: فهو صاحب النفوذ على الأرواح والمال بلا منازع، فلا عزيز ولا قريب فقد خلع الشاه صدره الأعظم الملقب بـ "أمير كبير" وأمر بقتله (89). بيد أن الإصلاحات التي قام بها أمير كبير بقيت ذكرى جميلة في الذاكرة الجمعية للشعب. كانت هذه بعض الانتقادات اللاذعة التي ما فتأت تذكرها سيرنا بين الحين والآخر (90).

في المقابل يتباين شريط ذكريات تاج السلطنة عن ناصر الدين شاه وتتجلى في علاقة الأب بابنته الصغيرة فكشفت صوراً وألواناً من المشاعر الجياشة، فتتذكر تاج وجهه الحنون رغم ملامحه البائسة وحديثه المفعم بالمحبة والرأفة، كان والدها سلطانها وسيدها أحبته أكثر من أي شخص آخر، لم ترى منه سوى الحنان والاحترام وهي تستحضر آخر لقاء معه قبل اغتياله فكتبت "نظر إليّ أبي نظرة عميقة اثرت فيّ وظل يتأمل وجهي، وقال سأزوجك قريباً وحينما أزورك في منزلك عليك بخدمتي"، ثم طبع قبلة دافئة على جبهتي ما زلت أحس بدفئها يسري في جسدي" آه معلمي العزيز ... الآن وأنا استحضر تلك اللحظات، أشعر أن نبضات قلبي ستتوقف [...]، يا إلهي رغم مرور سبعة وعشرين عاماً على تلك اللحظة ما زلت أشعر بها وكأنها حدثت للتو" (91).

"الذاكرة تحفظ الماضي والتاريخ يحفظ أحداث الماضي" (92) وذاكرة تاج تحفظ ذكريات الماضي الحزين وتعود بها إلى الليلة الأخيرة قبل اغتيال الشاه حيث الاستعدادات للاحتفال بمرور خمسين عاماً على حكمه، وتسترجع محاولات أنيس الدولة زوجة الشاه لإقناعه بتأجيل الاحتفال ثلاثة أيام حسب نبوءة المنجم ورفض الشاه قائلاً " لو نظر الي رعبتي بمنظار دقيق وعادل سيدركون أنني لم أكن حاكماً سيئاً، فلم أقتل أي فرد خلال فترة حكمي [...] ولم أؤثر أي صراع مع الدول المجاورة، حرصت على توفير الأمن والرفاه لرعبتي [...] وقد قررت بعد الاحتفال إيقاف الضرائب، وافتتاح

الرغم من اختلاف زوايا رؤية كل منهما حول أسباب الفساد وسوء النظام فقد التقت تلك الرؤى لتكمل بعضها البعض وتقدم للباحث صورة متكاملة عن نظام الحكم في بلاد فارس خلال نصف قرن من الزمان، تساعد على فهم مجريات الأمور فتكمل الصور تدريجياً وفي صمت حتى تصل لما آلت إليه الأحداث من قيام الثورة الدستورية ومطالبات الشعب بالحرية والحقوق وإنشاء مجلس يُمثل فيه نواب عن الشعب.

خاتمة

بدأت مذكرات كارلا سيرنا من مدينة رشت وكتبت معظم أحداثها أثناء رحلتها في بلاد فارس وفي محطاتها الأساسية فكانت ذاكرتها وعاءاً للتاريخ وللوقائع وللأحداث والمواقف، أما تاج السلطنة فقد تعهدت في مذكراتها على تقديم تاريخ حياتها فشكّل المسار الشخصي لتاج بؤرة الأحداث فطغت الذات الراوية عندها، وكانت ذاكرتها صوراً من الصراع وتعايير من القلق، والحزن، والالتباس، والألم.

وقد وفرت هذه المذكرات بما تحويه من تفاصيل دقيقة مادة تاريخية من وجهات نظر مختلفة وزوايا متباينة، بعين امرأتين إحداهما قادمة من الغرب وعصر التنوير والحريات، فدونت في مذكراتها ما يتوقعه القارئ الغربي، والأخرى بعدسة امرأة شرقية عاصرت الحريم وعاشته بكل تفاصيله، وسعت للخروج من بوتقتها فكانت تكتب واضحة نصب عينيها خلفيتها المعرفية. فباتت الذاكرات مكملات لبعضها البعض في أغلب الأحيان وأحياناً أخرى متعارضة خاصة في التفاصيل، والجزئيات، والمسارات الفردية، والسياسية. وقد ارتقت من السرد الحداثي للوقائع إلى تأويل الأحداث والتحليل التاريخي فتراجع هامش الاختلاف وكاد يختفي عند الرواية عن وضع النساء في البلاط وعن النظام والفساد الإداري^(١٠١).

زراعتها في أرجاء مملكة فارس، بيد أن النسبة الكبرى من هذه الأشجار جفت في الطريق قبل أن تصل المملكة، وتم استيراد انابيب من الحديد لصناعة تمثال ضخيم والعديد من الأدوات غير النافعة المتروكة دون اهتمام في فرج آباد بعد صرف الأموال الطائلة على شراءها، وتم انفاق الملايين في أوروبا دون أي نتيجة مثمرة عوضاً عن شراء أي قطعة سلاح، فتراكمت الديون على إيران. والأمر الطريف احضار نوع من البودرة التي تسبب الحكة الشديدة، فكان الشاه يبعثر البودرة على فرش العمال ونتيجة لاحتكاك الجسم بهذه البودرة يبدأ النائم في التحرك بطريقة مضحكة في الفراش. أما في الرحلة الثانية فتم عقد صفقة لشراء أسلحة وذلك بتوصية وجهود ممتاز السلطنة سفير إيران المقيم في باريس^(٩٧).

امتلك تاج السلطنة ذاكرة ناقدة وحاقدة نحو انتشار الفساد في المملكة فكان ضعف شخصية مظفر الدين شاه السبب الرئيس فيها، وعلى الرغم من صعوبة البحث عن الذكريات المستبعدة لثقلها على النفس، حفرت تاج بذكرياتها تجارب جارحة وقدمت شهادة تاريخية حين انتقدت بقسوة وريث العرش الجديد أخوها مظفر الدين شاه وعدم أهليته لإدارة الدولة وجهله^(٩٨) واقصاه كل رجالات الدولة واستبدلهم برجال من حاشيته، فقد بات العوبة في يد وزيره الأعظم أمين السلطان، وإذا كان رأس الدولة غارقاً في ملذاته ورحلاته، فإن الفساد ينخر في عظم المؤسسات، فانتشرت الرشاوى بين حكام المحافظات ورجالاتهم، وانتقلت إلى الموظفين العاديين فتفشى ظواهر السرقة والقتل، وغيرها الكثير من الجرائم التي لم يعتد عليها المجتمع المسلم، تفاقم هذا الصراع مع التدخلات الأوروبية واقتراض المملكة من الحكومات الأخرى وبيع أجزاء من أرض الوطن كلها أسباب دفعت البلاد نحو الهاوية^(٩٩). وكأن تاج السلطنة أرادت تقديم مفاتيح لتفسير أحداث الماضي^(١٠٠).

كثيرة هي الذكريات التي استحضرتها سيرنا عن الدولة وتفضي الفساد فيها، وعن الإصلاحات التي بدأها ناصر الدين شاه. وفي المقابل تمثلت تاج السلطنة نظام الحكم الإداري والمفاسد التي انتشرت في عهدي والدها ناصر الدين شاه وأخيها مظفر الدين شاه. على

الإحالات المرجعية:

- (١) موريس إيمار، "التاريخ والذاكرة: التركيب والتفكيك وإعادة التركيب"، (ترجمة: بهجت عبد الفتاح)، **مجلة ديوجين**، ع ٢٠١، مركز مطبوعات اليونيسكو، مصر، ٢٠٠٥، ص. ٨-٧، من <http://search.mandumah.com/Record/747366>
- (٢) جاك لوغوف، **التاريخ والذاكرة**، (ترجمة: جمال شحيد)، ط١، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات (سلسلة ترجمان)، بيروت، ٢٠١٧، ص. ١١٦، ١٢٠.
- (٣) محمد عبد الله، **سيكولوجية الذاكرة، قضايا واتجاهات حديثة**، سلسلة عالم المعرفة، ٢٩٠، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠٣، ص. ١٧.
- (٤) إبراهيم بوطالب، "الذاكرة والتاريخ"، **مجلة البحث التاريخي**، ع ١، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المغرب، ٢٠٠٣، ص. ٩، من <http://search.mandumah.com/Record/593830>
- (٥) عبد الفتاح أيت ادري، "الذاكرة والتاريخ أية علاقة؟"، **مجلة أنفاس نت من أجل الثقافة والإنسان**، من <https://bit.ly/2EN1gn6>
- (٦) إبراهيم بوطالب، "الذاكرة والتاريخ" مرجع سابق، ص. ٥.
- (٧) حميد هيمة، "الذاكرة بين التاريخ الأكاديمي والتأليف المدرسي: قراءة تحليلية لكتاب" الذاكرة والتاريخ: المغرب خلال الفترة 1912 - 1956"، عبد العزيز الطاهري، **مجلة ليكسوس في التاريخ والعلوم الانسانية**، ع ٢٣، المغرب، ٢٠١٨، ص. ٥٧. وانظر: إبراهيم بوطالب، "الذاكرة والتاريخ" مرجع سابق، ص. ١٨، ٢٦. ودورا شوار ستاين، "التاريخ والذاكرة"، **دورية كان التاريخية**، س٣، ع ٨، مؤسسة كان التاريخية، الكويت، ٢٠١٠، ص. ٧.
- (٨) عبد العزيز الطاهري، **الذاكرة والتاريخ - المغرب خلال الفترة الاستعمارية (١٩١٢-١٩٥٦)**، (الرباط: دار أبي رقرق للطباعة والنشر، ٢٠١٦)، ص. ٩-١٠.
- (9) Jochen Hellbeck, "The Diary between Literature and History: A Historian's Critical Response", *The Russian Review*, Vol. 63, No. 4 (Oct. 2004), pp. 621-629. <http://www.jstor.org/stable/3663983>
- (١٠) فرانكويز فيرت، "التاريخ والتكنولوجيا" في **الكتابة التاريخية**، (ترجمة: محمد حبيدة)، (الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، ٢٠١٥)، ص. ١٩.
- (١١) _____، **الكتابة التاريخية**، (ترجمة: محمد حبيدة)، (الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، ٢٠١٥)، ص. ١٠.
- (١٢) جان كلود شميت، "تاريخ الهامشيين"، في: جاك لوغوف، **التاريخ الجديد**، (ترجمة: محمد الطاهر المنصوري)، (مراجعة: عبد الحميد هنية)، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤)، ص ٤٣٧-٤٣٨، ٤٧٣.
- (١٣) الحريم: جاءت لفظة الحريم من كلمة الحرم وتعني أهل الرجل وما يزود عنه ويحميه، والمقصود هنا المكان المقدس والمصان حرمة والذي يسمح للأفراد المقربين لدخوله كالزوجة والأبناء، والأجداد، والأعمام، والأخوال. ولفظة حريم باللغة الفارسية هي "حرمسرا" وبالتركية "حرمك"، وتعني أيضا النساء اللاتي يقطن تلك المنطقة.
- (١٤) يتم استخدام مصطلح الدولة هنا للإشارة إلى الأسرة المالكة في بلاد فارس خلال حكم الأسرة الفاجارية والطبقات الحاكمة المرتبطة بهذه الأسرة حسب فهم الرعايا في القرن التاسع عشر.
- ساهمت هذه المذكرات في استدامة الذاكرة وحفظها من النسيان، بيد أن هناك معيقات قد تأثر في مصداقية تلك الكتابات فمثلا ألزمت سيرنا نفسها الحياد والفصل بين الذات والموضوع فحاولت فصل كل ما يخص الذات لإدراجه في كتاب خاص حول رحلتها الشخصية، وحرصت على إدراج ما يساهم في فتح آفاق جديدة في مذكراتها، بيد أن ذلك دفعها إلى الاختزال والانتقاء أي أنها ربما ذكرت أحداث وأقصت أخرى وفقاً لرهانات الذاكرة وحسب أهميتها للقارئ مما قد يؤثر في الحقيقة التاريخية. وفي الجهة المقابلة فإن الموقع الاجتماعي والنفسي لتاج السلطنة لم يمنعها من تخطي الرقابة والبوح بما ينبغي التذكير به وتخليده، فجسدت تاج السلطة في نواح كثيرة التوترات بين التقاليد والحدائق التي كانت تحول المجتمع الإيراني في عصرها، وفي خضم ذلك غلبتها عاطفتها وغرقت في ذاتيتها، لدرجة أن ذاكرتها لم تستحضر أي ذكرى عن جدتها مهد عليا أو عن عمتها عزت الدولة التي كانت ضحية سياسة البلاط أو حتى عن أخواتها مثل عصمت الدولة. إذا على الباحث الانتباه وتوخي الحيطة فعملية الخلط بين الذاكرة والتاريخ لها محاذيرها.
- أخيراً، كشفت الدراسة عن نجاعة الاستعانة بالمذكرات للباحث في التاريخ الاجتماعي في سياق البحث عن مصادر بديلة، وقدمت لنا طيفا متنوعا من المؤشرات والعناصر التي يمكننا من خلالها التنقيب عن العديد من القضايا والموضوعات، والاتجاهات لبحوث مستقبلية لسد بعض الثغرات في دراسة التاريخ الاجتماعي وتاريخ المرأة والفئات المهمشة.

(٢٧) تاج السلطنة قاجار، **خاطرات تاج السلطنة (ذكرياتي، يوميات تاج السلطنة)**، (تحقيق: اتحاديه منصوره (نظام مافى)، وسيروس سعدونديان)، (نشر تاريخ إيران، مجموعة ستون واسناد تاريخي، ب. ت. ص. ٣٠٤، ٨٠، ٣٢).

(٢٨) عبد العزيز الطاهري، **الذاكرة والتاريخ... مرجع سابق**، ص. ٣٠-٣٦.
(29) Behrooz Bakhtiari, & Esmaeil Najari, "Zahrā Khānūm Tāj al-Saltāna and Mary Wollstonecraft: A Comparative Study of "Memoirs of Tāj al-Saltāna" and "A Vindication of the Rights of Woman", International Journal of Persian Literature, (Penn State University Press, 2017), Vol. 2, No. 1, pp. 160.

(٣٠) تاج السلطنة قاجار، **خاطرات... مصدر سابق**، ص. ١٢.

(٣١) **المصدر نفسه**، ص. ٣٠٤، ٨٠، ٣٢.

(٣٢) **المصدر نفسه**، ص. ٦.

(٣٣) **المصدر نفسه**، ص. ٥-٦.

(٣٤) فاتح قدارة، "التأريخ مرجع سابق"، ص. ٨٢.
(35) Mahdavi, Shireen. "Taj al-Saltaneh, an Emancipated Qajar Princess", *Middle Eastern Studies*, (Taylor & Francis, Ltd., 1987), Vol. 23, No. 2, pp. 188, at <http://www.jstor.org/stable/4283171>.

(٣٦) محمد عبد الله، **سيكولوجية الذاكرة، قضايا واتجاهات حديثة**، سلسلة عالم المعرفة ٢٩٠ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٣)، ص. ٩١.

(٣٦) عبد العزيز الطاهري، **الذاكرة والتاريخ... مرجع سابق**، ص. ٤٧ (الذاكرة المستعارة).

(٣٧) كارلا سيرينا، **سفرنامه مادام كارلسرنا.. مصدر سابق**، ص. ٦٣-٧٠.

(٣٨) الإندرون: كلمة فارسية يقصد بها المنطقة أو الجناح المخصص لإقامة الحريم في القصر الملكي والتي لا يسمح لغير المحارم الدخول إليها وتقابلها كلمة حرمك بالتركية.

(٣٩) تصف مدام ماري شيل زوجة السفير الإنجليزي التي عاصرت بدايات حكم ناصر الدين شاه في بلاد فارس في مذكراتها عن نوع وشدة العلاقة الزوجية التي تربط بين الإيرانيين فتستحضر ذاكرتها أحداثاً عاصرتها فكانت شاهدة عليها وتقول "كانت الأميرة في كاشان حريصة على تذوق جميع أنواع الأطعمة والمشروبات قبل أن يتناولها زوجها الأمير حتى تحميه من خطر التسمم"، انظر: ليدي شيل، **خاطرات ليدي شيل همسر وزير مختار انجليس (مذكرات الليدي شيل زوجة الوزير البريطاني المنتدب)**، (ترجمة: حسين ابوترايبان)، (تهران: نشرنو، ١٣٦٨)، ط ١، ص ٢٢٤-٢٢٥. وانظر كارلا سيرينا، **سفرنامه... المصدر نفسه**، ص. ٩٨-٩٩.

(٤٠) يخالف دوستعلي خان معير الممالك (ابن الأميرة عصمت الدولة ابنة ناصر الدين شاه) هذا الرأي فيقول "أغلب المصادر التاريخية تؤكد أن الشاه هو السبب في عزل وقتل الصدر الأعظم أمير كبير، في الواقع لم يكن للشاه أي يد في تلك المؤامرة التي حيكّت ضد أمير كبير وقتل على إثرها، لبحث الأمر والتأكد من حقيقته يمكن للباحث إعادة قراءة يوميات مسيو ريتشارد استاذ اللغة الفرنسية في مدرسة دار الفنون، فقد كان يسجل الوقائع اليومية بدقة وحداية" انظر: دوستعلي خان معير الممالك، **يادداشتهايس از زندگاني خصوصي ناصر الدين شاه**، مجموعه ٥ متون واسناد تاريخي كتاب

(١٥) ناصر الدين شاه القاجاري (١٨٣١-١٨٩٦) أطول من حكم المملكة الفارسية من أسرة القاجار حيث امتدت فترة حكمه إلى خمسين عاماً (١٨٤٧-١٨٩٦)، كان مولعا بالصيد وشغوفاً بالرحلات والسفر. ويُعد أول ملك فارسي يقوم بعدة رحلات لأوروبا حيث غادر مملكة فارس ثلاث مرات متوجهاً إلى أوروبا في رحلات امتدت لشهور طوال تنقل فيها بين العواصم الأوروبية، وأستقبل من قبل ملوكها وأمرائها أحسن استقبال. كانت أول رحلاته عام ١٨٧٣ بهدف التعرف عن قرب على الحضارة الغربية، وأصول الحياة الحديثة في أوروبا، وقد اشتهر بكتابة مشاهداته وتدوينها في مذكراته.

(16) Penelope Tuson, *Western Women Travelling East, 1716-1916*, (2014), chapter 6.

(١٧) كارلا سيرينا، **سفرنامه مادام كارلسرنا آدمها وآيينها در إيران** (مذكرات مادام كارلا سرنا)، (ترجمة: علي أصغر سعیدی)، (تهران: كتابفروشی زوّار، ١٣٦٣ ش، ١٩٨٣ م)، ط ١، ص. ٣٠٢.

(١٨) جان شاردين Jean Chardin (١٦٤٣-١٧١٣) من أشهر الرحالة الفرنسيين الذين زاروا بلاد فارس عام ١٦٦٦ خلال حكم الأسرة الصفوية، وكتب مشاهداته عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والمجتمع الفارسي آنذاك في عشرة مجلات.

(19) Daniele Artoni, "Carla Serena (1824-84): A Solo Western European Woman Traveller and Her Multifaceted Easts", *University of Verona*, (Riga: 5th Euroacademia International Conference, Re-Inventing Eastern Europe, 2016). P2.

(20) Carla Serena, *The Kartvelologist Journal of Georgian Studies*. on <http://kartvelologi.tsu.ge/public/en/arqive/11/>.

(٢١) قد يكون لقاء كارلا سيرينا بناصر الدين شاه القاجار حدث خلال مشاركتها في المعرض الثقافي العالمي المقام في فيينا عام ١٨٧٣ خلال رحلة الشاه الأولى لأوروبا، حيث قام الشاه بزيارة للمعرض لتفقد جناح المملكة الفارسية، وتنقل بين الأجنحة الأخرى للتعرف على ثقافات الشعوب وتوقف للتحدث مع المشاركين وبعض الجمهور حسب ما جاء في مذكراته.

(٢٢) ميرزا علي خان، **خاطرات سياسي ميرزا علي خان امين الدولة**، (تحقيق: حافظ فرمانفرمائيان)، (تهران: مؤسسه انتشارات امير كبير، ١٣٧٠). ص. ١. وانظر كارلا سيرينا، **سفرنامه مادام كارلسرنا.. مصدر سابق**، ص. ٨٢.

(٢٣) كارلا سيرينا، **سفرنامه مادام كارلسرنا.. مصدر سابق**، ص. ١٧.

(٢٤) حميد هيمه، "الذاكرة بين التاريخ... مرجع سابق"، ص. ٥٨.

(٢٥) ذكر اعتماد السلطنة المترجم الخاص للشاه ووزير المطبوعات: آن ذاك، أن ناصر الدين شاه القاجاري رزق بابنة لقبته بتاج السلطنة في ليلة الاثنين السادس من ربيع الثاني سنة ١٣٠١ هـ. انظر: **روزنامه خاطرات اعتماد السلطنة - وزير انطباعات در اواخر دوره ناصري**، (مقدمه: ايرج افشار)، (تهران: مؤسسه انتشارات امير كبير، ١٣٥٠). ط ٢، ص. ٢٧٧.

(٢٦) جاء في مذكرات اعتماد السلطنة أنه في يوم السبت الموافق جمادي الأول سنة ١٣١١ ق، عاد الشاه للمدينة لعقد قران كريمة تاج السلطنة على ابن شجاع السلطنة "سردار أكرم". انظر: **روزنامه خاطرات اعتماد السلطنة مرجع سابق**، ص. ٩٢١.

خصوصاً ناصر الدين شاه، مجموعه ي متون واسناد تاريخي كتاب
نهم (ملاحظات من حياة ناصر الدين الخاصة)، (تهران: نشر تاريخ إيران
تهران، ١٣٦١) ص. ١٧. وانظر: تاج السلطنة قاجار، **خاطرات... مصدر
سابق** ص. ٣٥، ٥٨.

(٦٨) أحب ناصر الدين شاه القاجاري قطعة كانت تحتفظ بها زوجته جيران،
وبعد وفاة زوجته انتقل اهتمامه للقطعة التي كانت تذكره بها، وبات
للقطعة شأن عظيم في البلاط وعين لها مربية وخدام وانتشرت
صورها في أنحاء القصر لدرجة أنها أثارت غيرة وحقد زوجات الشاه،
نظراً للوقت الذي كان يقضيه برفقتها وتفضيل صحبتها عليهن.
فتآمر الحريم وتكاتفوا ودبروا مكيدة مع أحد الخواجات في القصر
للتخلص من القطعة، التي رُميت في قعر بئر في القصر وتم ردمه
فلم يصل إليه أحد. وبعد أن فشل أعوان الشاه في إيجاد القطعة
اغتم الشاه كثيراً وبدأ تدريجياً للاهتمام بالصبي ملجيك الذي كان
يرافق القطعة فبات رفيقه في كل مكان، هذه الحوادث حدثت قبل
ولادة تاج السلطنة واستعارتها من ذاكرة مربيته. وقد وصف أمين
الدولة هذه العلاقة الغريبة بين الشاه والصبي بعد اختفاء القطعة
"مازال الشاه مرتبطاً بهذا الصبي بشدة بعد فقدان القطعة". انظر:
ميرزا علي خان. **خاطرات سياسي ميرزا علي خان امين الدولة**
(تحقيق: حافظ فرمانفرمانيان)، (تهران: مؤسسه انتشارات امير كبير،
١٣٧٠). ص. ١٠٣. وانظر: تاج السلطنة قاجار، **خاطرات... مصدر سابق**،
ص ١٥-١٨.

(٦٩) تاج السلطنة قاجار، **خاطرات... مصدر سابق** ص. ١٥، ٣٠.
(٧٠) أكد معير الممالك هذه الأحداث فيقول: "من عادة الشاه حين يود
كتابة المراسلات والقرارات السياسية والإدارية خاصة ما يتعلق بعزل
أحد رجالات الدولة، أن يأمر أحد زوجاته من الدرجة الثانية بالجلوس
بقربه واشغال الضوء له أثناء تحرير تلك الرسائل، وكان يختار منهن
من لا تجيد القراءة، بيد أن الواقع أن أغلب النساء يخفين معرفتهن
بالقراءة ومنهن من كانت تعمل لصالح بعض رجال الدولة وفي نقل
الأخبار. وقد تكون إحدى تلك التغييرات في المناصب التي أعلن
الشاه أنه بصدد القيام بها بعد الاحتفالية هي السبب باغتياله"،
دوستعلي خان معير الممالك، **مصدر سابق**، ص ١٥٣. وانظر: تاج
السلطنة قاجار، **خاطرات... مصدر سابق** ص. ٥٠.

(٧١) إبراهيم بوطالب، "الذاكرة والتاريخ" **مرجع سابق**، ص. ١٦.
(٧٢) تاج السلطنة قاجار، **خاطرات... مصدر سابق** ص. ١١٤-١١٥.
(٧٣) جان كلود شميت، "تاريخ الهامشيين" ... **مرجع سابق**، ص. ٤٣٩.
(٧٤) عبد الحكيم الراوي، "في تاريخ الهامش والمهمش من أجل ديمقراطية
من لا تاريخ لهم"، **مجلة ليكسوس**، ع ١١ (٢٠١٧)، ص ١٥٩.
(٧٥) اوژن اوين، **إيران امروز ١٩٠٦-١٩٠٧ إيران وبين النهرين (إيران اليوم)**،
ترجمة علي أصغر سعیدی، (إيران امروز - ١٣٦٢)، ط ١، ص ٣٤١.

(٧٦) كارلا سيرينا، **سفرنامه ... مصدر سابق**، ص. 29-30.
(٧٧) حدث بعض اللبس في المفهوم لدى مدام سيرينا فالدرويش عندها
هو كل فقير وصاحب حاجة، بيد أن الدرويش في اللغة الفارسية
ليس بالضرورة الفقير الذي لا يجد قوت يومه فيقصد به أيضاً
الصوفي وللمفهوم عدة دلالات أخرى. كارلا سيرينا، **سفرنامه...
المصدر نفسه**، ص. ٦٩-٧٠.

(٧٨) صنفت سيرينا الدراويش إلى فئتين الأولى هم الفقراء الذين يلفون
على البيوت ويسكنون المدينة ويحترفون التجيم، وعاهدوا
أنفسهم بعدم الزواج والاستمرار في حياة العزوبية؛ حتى يظلوا

نهم (ملاحظات من حياة ناصر الدين الخاصة)، (تهران: نشر تاريخ إيران
تهران، ١٣٦١)، ص. ١١-١٢.

(٤١) ليدي شيل، **خاطرات... مصدر سابق** ص ٢٢٧. وانظر كارلا سيرينا،
سفرنامه... مصدر سابق، ص. ١٠١.

(٤٢) كارلا سيرينا، **سفرنامه... مصدر سابق**، ص. ١٠٢-١٠١.

(٤٣) قمر السلطنة زوجة الصدر الأعظم ميرزا حسين خان، وهي ابنة
فتحعلي شاه جد ناصر الدين شاه القاجاري، وعمته الكبرى.
وفتحعلي شاه هو الحاكم الثاني في الدولة القاجارية بعد آقا محمد
خان، اعتلى العرش عام ١٧٩٧، وحكم لمدة ٣٧ عام، وتوفي عام
١٨٣٤ تاركاً من خلفه مئات من البنين والبنات.

(٤٤) كارلا سيرينا، **سفرنامه... مصدر سابق**، ص. ١١٠-٩٠.

(٤٥) **المصدر نفسه**، ص. ١٢٠، ١٥١.

(٤٦) **المصدر نفسه**، ص. ٢٢٤-٢٢٧.

(٤٧) **المصدر نفسه**، ص. ٧٤، ٧٧-٧٨.

(٤٨) **المصدر نفسه**، ص. ٦٨.

(٤٩) **المصدر نفسه**، ص. ٢٤٨، ٢٨١.

(٥٠) **المصدر نفسه**، ص. ٢٤٧-٢٤٩، ٢٦٠.

(٥١) **المصدر نفسه**، ص. ١١٠، ١٣٠، ٢٢٢، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٧٦.

(٥٢) **المصدر نفسه**، ص. ٢٩٨-٣٠٠.

(٥٣) بول ريكور، **الذاكرة، التاريخ، النسيان**، (ترجمة: جورج زيناتي)، (بيروت:

دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٩)، ص ٥٩٤.

(٥٤) كارلا سيرينا، **سفرنامه... مصدر سابق**، ص. ٧٠-١٠١.

(٥٥) بول ريكور، **الذاكرة... مرجع سابق**، ص. ٥٦.

(٥٦) تاج السلطنة قاجار، **خاطرات... مصدر سابق**، ص. ٣٥، ٣٨-٤٠.

(٥٧) **المصدر نفسه**، ص. ٨٦-٩٠.

(٥٨) **المصدر نفسه**، ص. ٦٩-٩٩، ١١١-١٢٣.

(٥٩) Bakhtiari, & Esmaeil Najar, "Zahrā Khānūm", Behrooz
Ibid. P. 163.

(٦٠) تاج السلطنة قاجار، **خاطرات... مصدر سابق**، ص. 15-14.

(٦١) **المصدر نفسه**، ص. ١٣، ٧٩.

(٦٢) لعبة للاسكنة: لعبة اعتادت نساء القاجار ممارستها في منطقة
الحريم خلال حفلات الضيافة وأثناء اللقاءات للتسلية، وكانت عبارة
عن مجموعة من الأقنعة والوجوه الملونة والمضحكة المصنوعة من
نوع من الورق المقوى، تلبسه النساء ويقمن ببعض الأدوار
التمثيلية لإشاعة البهجة في الأجواء والتسلية والمرح للترفيه عن
ذواتهن.

(٦٣) تاج السلطنة قاجار، **خاطرات... مرجع سابق**، ص. ١٩ و ٣٢.

(٦٤) **المصدر نفسه**، ص. ٩٨.

(٦٥) منصوره پيرنيا، دختران ایران، **سالر زنان جهان: سرگذشت زن ایرانی از
آغاز تا به امروز**، انتشارات مهر ایران، واشنتن، ٢٠١٦، ص. ٣٠.

(٦٦) قُتل ناصر الدين شاه في اليوم التالي (٢ مايو ١٨٩٦) أثناء زيارته
لضريح الشاه عبد العظيم على يد ميرزا رضا كرمانی أحد أتباع جمال
الدين الأفغاني.

(٦٧) يؤكد معير الممالك شدة علاقة هذه السيدة بزوجها، فبعد وفاة
الشاه أحضروا لأنيس الدولة بعض القطع النقدية منقوشة عليها
صورة ناصر الدين شاه، فشعرت بحزن عميق واحتضنت النقود وهي
تبكي بحرقة، ومرضت بعدها لعدة شهور ثم لحقت بزوجها الشاه.
انظر: دوستعلي خان معير الممالك، **يادداشتهاي از زندگاني**

بإحدى حريم الشاه والتي كانت مصدر معلوماته، قد يكون تحليل تاج
للأمور صحيحا فقد عاشت الأحداث من داخل البلاط وما أتيح لها لم
يتح لغيرها. انظر: عبد الله مستوفى، **شرح زندگانی ... مصدر
سابق**، ص. ١٧، ١٦، ١. وتاج السلطنة قاجار، **خاطرات... مصدر
سابق**، ص. ٩٧-٧٨، ١، ٦، ١.

(. . ١) دورا شوار ستاين، "التاريخ والذاكرة" ... مرجع سابق، ص٧.

(١.١) عبد العزيز الطاهري، **الذاكرة والتاريخ... مرجع سابق**. ص. ٣٦٥-٣٧٨.

طاهرين ومنزهين. والفئة الثانية فهم يتزوجون ولديهم حريم ويعيشون من بركة الصدقات والخيرات. كارلا سينا، **سفرنامة.. مصدر سابق**. ص. ١٤٨-١٤٥.

(٧٩) المصدر نفسه، ص. ١٥١-١٤٧.

(٨٠) تاج السلطنة قاجار، **خاطرات... مصدر سابق** ص ١٤.

(٨١) المصدر نفسه، ص. ٩.

(۸۲) کارلا سیرینا، سفرنامه ... مصدر سابق. ص ۸۵

(٨٣) المصدر نفسه، ص ٨٥-٨٦.

(٨٤) تُعدّ مذكرات سيرنا من اهم المصادر التاريخية التي ذكرت تفاصيل هذا الحدث، بل تكاد تكون الوحيدة حسب شهادة مؤرخي تلك الحقبة. **المصدر نفسه** ص١٩٤-١٩٥. وقد وردت هذه الأخبار في مذكرات معاصرة انظر: عبد الله مستوفى. **شرح زندگانی من (تاریخ اجتماعی واداری دوره قاجاریه از سلطنت مظفر الدین شاه تا قراداد وثوق الدوله با انگلیس)**، (تهران: انتشارات زوّار، ١٣٤١) ج١. ص٦٩ و ص٧٠.

(٨٥) كارلا سيرينا، سفرنامه ... مصدر سابق. ص ٨٨-٩٢.

(٨٦) المصدر نفسه، ص ٩٣.

(٨٧) المصدر نفسه، ص. ١٢١-١٢٢.

(٨٨) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٨٩) المصدر نفسه، ص ١٢٤-١٢٦.

(٩٠) روى كلمنت ماركام وهو جغرافي بريطاني متخصص في تاريخ السياسة وجغرافيا إيران وأفغانستان ومناطق آسيا المركزية، عن الإصلاحات التي قام بها الصدر الأعظم أمير كبير، وكيف تم عزله عن منصبه وصدور أمر بقتله، لتتقاطع الرواية مع ما سردته كارلا سيرنا في مذكراتها. انظر: كلمنت ماركام، (ترجمة: ميرزا فرزانه)، **تاريخ إيران در دوره قاجار**، (ب. م. فرهنگ ایران، ۱۳۶۷)، ط ۲، ص. ۱۴۵.

(٩١) تاج السلطنة قاجار، *خاطرات... مصدر سابق*، ص ٢٨، ٧٠-٦٩.

(٩٢) بول ريكور، الذاكرة... مرجع سابق، ص ٥١.

(٩٣) تاج السلطنة قاجار، **خاطرات... مصدر سابق**، ص ٦٠-٦١.

(٩٤) محمد عبد الله، سيكولوجية....، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٩٥) تعلق الشاه بالقطة والصبي الملقب بملجيك وزواجه من أخت زوجته كلها وقائع وردت في مصادر معاصرة بيد أن تاج قدمت تفاصيل دقيقة وكلما زادت الوقائع الجزئية التفصيلية زادت نسبة الصدق فيها. انظر: ميرزا علي خان. **خاطرات... مصدر سابق**، ص١٧٩. وتاج السلطنة قاجار، **خاطرات... مصدر سابق**، ص١٧-١٥، ٤٧-٤٥.

(٩٦) مريس إيمار، "التاريخ والذاكرة...."، مرجع سابق، ٩.

(٩٧) تاج السلطنة قاجار، **خاطرات... مصدر سابق**، ص. ٤٧-٤٨.

(٩٨) استندت تاج على عدة براهين لإثبات عدم قدرة مظفر الدين شاه على إدارة شؤون البلاد مثل طرده لكل موظفي الدولة واستبداله بأتباعه غير المؤهلين لتلك المناصب، والتغييرات في الوزارة على أهون سبب، باستثناء الصدر الأعظم الذي استبقاه وسلمه أمور البلاد ولقبه بالأتابك. وقد وردت هذه الأنباء في مصادر معاصرة انظر: عبد الله مستوفى، **شرح زندگانی مصدر سابق**، ص.

.I., IX, IO, IV

(٩٩) تقاطعت رواية حادثة قتل الشاه التي روتها تاج السلطنة مع ما ورد في عدد من المصادر المعاصرة، بيد أن أصابع الاتهام نحو الصدر الأعظم والحجج التي عززت بها تاج السلطنة هذا الاتهام لم ترد بنفس الدقة والتفاصيل، وعلى وجه التحديد علاقة الصدر الأعظم

الجفاف في المتخيل اليهودي بمغرب العصر الوسيط

عبد الحق بعلا

باحث سلك الدكتوراه تاريخ العصر الوسيط
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل - المملكة المغربية



د. حميد اجميلي

أستاذ التعليم العالي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل - المملكة المغربية



ملخص

يهدف هذا المقال إلى تتبع جانب من التاريخ الذهني ليهود مغرب العصر الوسيط، والمرتبطة بكارثة الجفاف التي تعدّ من أعظم الرزايا التي اكتوى بناها اليهود المغاربة خلال العصر الوسيط، خاصةً وأنه كان ينجم عنه الكثير من التحولات الطبيعية والاقتصادية والرجات الذهنية. ولأنها تحولات كانت تتم بشكل فجائي وتتعدى إمكانيات وقدرات يهود المرحلة على مجابقتها ومعاركتها بطرائق علمية وبآليات مادية، فقد ابتدعوا طرائقاً وممارسات مستمدة من نماذج أصلية بمرجعيات ثقافية، دينية على وجه التحديد، بهدف الهروب من ذلك الواقع أو للتخفيف من آثاره، وهو ما أفرز ألواناً من التفسيرات الغيبية والمواقف الذهنية. وقد توصلت الدراسة إلى أن الجفاف أضحى أمراً مألوفاً عند المغاربة، إلا أن الآليات والتقنيات التي تم التوصل إليها زمن الدراسة لم تكن كفيلة بمواجهته بطرائق علمية، وهو ما كان يندر بأيام صعبة، حيث يصبح الجوع وشبح الموت أقرب إلى الإنسان من أي وقت آخر، لذلك، ينتصب المتخيل اليهودي مخترقاً المألوف ومتجاوزاً حدود الذهن باحثاً عن الخلاص.

كلمات مفتاحية:

التاريخ الذهني؛ اليهود؛ العصر الوسيط؛ الاستمطار؛ المهدي المنتظر

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٣ ديسمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٠٥ يناير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.341449.1190

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الحق بعلا، حميد اجميلي، "الجفاف في المتخيل اليهودي بمغرب العصر الوسيط"، دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة - العدد التاسع والستون، يونيو ٢٠٢٥، ص ٦٠ - ٦٧.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: baallaabdelhak2@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

النصوص المقدسة والقيام بالعديد من الابتهاالات^(٤)، ناهيك عن زيارة الربيين والصلحاء وهم حفاة^(٥).

إن إنسان زمن الكوارث الطبيعية يصبح متقبلاً لكل التعليقات وأفكار الخلاص العارية من المنطق، حيث يصبح "ميكانيزم"^(٦) التفكير عنده خرافياً بامتياز. فغياب الأمن، بأشكاله المختلفة، كان يعزز حضور الخرافة وانتعاشها وسط العامة التي تنعدم لديها الثقة في المستقبل^(٧). فقد شاع عند يهود المغرب، زمن الانتكاسات والكوارث الطبيعية التردد على زيارة قبور الأولياء، فيظهر هؤلاء بمثابة "منقذين لهم ولأحلامهم"^(٨). فقد اتسمت القرون الوسطى بفعالية الأموات وحضورهم بين الأحياء بشكل ملفت للنظر^(٩).

شكلت كرامة الأولياء متنفساً سيكولوجياً للعوام^(١٠)، والتي تظل مرتبطة "بالحياة اليومية للناس الذين عاشوا بينهم"^(١١)، فيتم اللجوء إليهم في حالة الضيق والخطر، إما عن طريق ذكر اسمهم، أو زيارة قبورهم، أو لمس قماش، أو لباس حزام كان يخص أحدهم في حياته، وهو ما يعني أن الآثار الشخصية للقدسيين اليهود تبقى ذات قوة علاجية حتى بعد مماتهم^(١٢). كما كانت لهم القدرة على استجلاب المطر حسب المتخيل^(١٣) اليهودي، ودفع ما يمكن أن يطل الإنسان من مخاطر. وقد ارتبط هذا الأمر بتاريخ بني إسرائيل منذ القدم، حيث كان يتم الاستعانة بدعاء بعض الأولياء للاستسقاء^(١٤). كما جرى كذلك زيارة مزارات بعض الأولياء طلباً للغيث، كما هو الحال مع الربى إسحاق هاكوهين "مول الميلا" بمدينة صفرو، والذي خص في حياته بإجراء الختان، وذلك بنشر خرقة مبللة بدم الختان على شاهد قبره مع قراءة المزامير والأدعية استنزالاً للمطر^(١٥).

لقد خلق يهود المغرب، زمن الدراسة، العديد من الرموز بحثاً عما يقيهم من "شر الوجود في الطبيعة والمجتمع"^(١٦). فإنسان الكوارث مستهلكاً بامتياز لعالم الخرافة والسحر^(١٧)، مستعينا في ذلك بالعديد من الحيوانات التي وظفها في طقوسه الاستمطارية لاستدراج عطف السماء. فقد علل يهود المغرب الجفاف بتلك الأرواح الشريرة التي تسكن بعض أنواع النبات والحيوان، لذلك اتخذوا من تلك المشتبه في احتضانها لأسباب منع الغيث قرباناً يقدم للإله الغاضب بعد إراقة

أدت التحولات الطبيعية والاقتصادية التي شهدتها المغرب خلال العصر الوسيط إلى رجأت ذهنية في صفوف يهود المغرب خلال العصر الوسيط. وقد كانت تلك التحولات تتم بشكل فجائي وتتعدى إمكانيات وقدرات إنسان المرحلة على مجابقتها ومعاركتها بطرائق علمية وبآليات مادية، لذلك ابتدع طرائقاً وممارسات مستمدة من نماذج أصلية بمرجعيات ثقافية، دينية على وجه التحديد، بهدف الهروب من ذلك الواقع أو للتخفيف من آثاره، وهو ما أفرز ألواناً من التفسيرات الغيبية والمواقف الذهنية. وقد أشار الحسين بولقطيب إلى أن المؤرخين التقليديين نادراً ما يهتمون بقضية المتخيل، لكونه يدخل ضمن اهتمامات دارسي الآداب والعقليات، لكن التطور الذي شهدته مناهج علم التاريخ وانفتاحه على علوم أخرى، جعلت المؤرخ المعاصر على وعي تام بأهمية الإحاطة بمختلف أبعاد الظواهر التاريخية والعوامل الفاعلة فيها^(١).

إن التغيرات التي تطرأ على المناخ، يتبعها تغيراً على مستوى الاقتصاد، وتغيرات في صحة الإنسان وتقلب ذهنه^(٢). فحالة الساكنة أثناء التساقطات والخصوبة ليست هي حالتها زمن الجفاف والقحوط وما يتبعها من مجاعات وأوبئة. فتلك الأزمات التي تصيب الإنسان في قوته اليومي وتهدد بذلك وجوده، تجعله يتوسل العديد من الممارسات، التي وإن بدت على أنها بعيدة عن المنطق والتحليل العلميين إلا أنه يجد فيها بلسماً لشقائه ووسيلة للتشبث بتلايب الحياة التي كشرت عن أنيابها في وجه ساعة الأزمة. هذه الأخيرة أسهمت في تخصيص مخياله وتمثلاته وأفرزت لديه العديد من الأشكال المتخيلة.

أولاً: ذهنيات يهود المغرب زمن الجفاف (التفسير وسبل المواجهة)

حاول يهود المغرب إعطاء تفسيرات للآفات التي كانت تهدد أقواتهم، خاصة الجفاف، وربطوها بكثرة المعاصي، لذلك توسلوا بالعديد من الطقوس الدينية، كإقامة صلواتهم الاستمطارية، حيث كانوا ينفردون بيوم أو يخرجون مع باقي السكان من المسلمين^(٣)، مع تلاوة

غياب الفكر النقدي، وغياب آلية التحليل العلمي، وهو ما يجعل من تلك الظواهر ردة فعل إلهية مباشرة على خطايا وزلات بشرية، استحققت معها العقاب الإلهي.

ساهم الموروث الديني والاجتماعي في بلورة ذهنيات متعددة المناحي^(٢٣)، حيث ارتبطت الكوارث الطبيعية، بكثرة الذنوب وعدم الالتزام بالضوابط التي أقرتها أسفار التوراة. لذلك كان لابد من التكفير عن تلك الآثام، وذلك بالاستعانة بالأطفال، رمز النقاء من الذنوب، إلى جانب طلبة التلمود الذين كانوا يجلسون أمام أسفار التوراة، وهم في حالة من الخجل من طلب العفو وكشف ما حل بهم من كارثة، لكونهم لم يلتزموا بالضوابط التي أقرتها التوراة لذلك يتشفعون بهؤلاء الأطفال^(٢٤). خاصة أمام اقتناعهم بأن ما أصابهم مؤشر على برودة علاقتهم بخالقهم^(٢٥).

لجأ يهود المغرب إبان الأزمات، إلى طلب الصفح من بعضهم البعض بصوت مرتفع، وإرجاع ما يمكن أن يكون قد نهبه أحدهم من الآخر، وذلك بالقول "أنا نهبت فلانا كذا وكذا"^(٢٦)، لكن أغلب الذين اعترفوا كانوا من الفقراء. ومن عاداتهم كذلك، عند انحباس المطر، صيام يوم الخميس، لكن "كثرة الذنوب كانت تحول دون الاستجابة"^(٢٧)، وهو ما يزيد من أحزانهم. والتفسير الذي غدا من الثابت في مثل هذه الحالات هو كثرة الذنوب وسوء الأدب مع الله الذي يفتح أبواب الشدائد، وهو ما سمح بنشوء "شعور راسخ بأنه لا يمكن حدوث انفراج إلا بإرضاء الرب الغاضب"^(٢٨)، بوساطة الأولياء نظرا لمسؤولياتهم فيما قد يلحق من كوارث، بفضل دعواتهم التي يمكن تتسبب في "الخسف والزلزلة والطوفان والصواعق"^(٢٩).

قدس اليهود والمسلمون، نفس الأولياء، وقاموا بنفس طقوس الزيارة في بعض الأوقات^(٣٠). كما كان اليهود يقيمون صلاة الاستسقاء (يقونه هكشيم) طلبا للغيث، وذلك تزامنا مع صلاة المسلمين^(٣١). لقد كانت الأزمة بشكل عام مناسبة سانحة لتعزيز مكانة الأولياء ودورهم المحوري داخل نسيج المجتمع، لذلك كان يتم الحرص على تبجيلهم. فقد ترسخ في ذهنية العامة أن الولي بإمكانه أن يدفع ما لحق بها من ضرر، خاصة ما ارتبط بالنشاط الفلاحي الذي شكل قطب الرحى ضمن عجلة

دمها أو قذفها في النار، حتى يتم التخلص من تلك الأرواح الشريرة الكامنة فيها والممانعة للمطر^(٣٢). وفي ذلك الجو الاحتفالي تشرَّب أعناق المشاركين فيه إلى السماء ترقباً للمطر. واعتبر البقر من أهم الحيوانات التي وظفت لهذه الغاية. فحسب الاعتقاد الذي كان سائداً فإن لهذه الحيوان قوة تتحكم في نزول المطر، وتعود هذه الممارسات إلى "مخلفات عبادة الثور، وما يرمز إليه من الخصب والإرواء"^(٣٣). كما كان يتم اللجوء إلى طرق تنجيمية أخرى لاستجلاء أحوال القادم من الأيام وما تخفيه من جذب أو خصب، خاصة خط الرمل الذي ساد بالمناطق الصحراوية، إلى جانب أخذ عظمة كتف الشاه وإمعان النظر فيها وقراءة ما تحتويه من الرموز لمعرفة ما سيحدث في المستقبل^(٣٤).

الواضح أن الرؤى والأحلام أضحت، كذلك، آلية يتم الارتكان إليها لرصد أحوال المناخ، ولبسما يخفف من الآثار النفسية التي تخلفها السنوات العجاف في النفوس، فقد أخذ من النوم وسيلة لاستجلاء أسرار المناخ، ومعرفة ما ستكون عليه السنة من جذب أو خصب، وهذا كان حال أهل غمارة. يقول البكري: "ومن أعاجيب بلد غمارة أن عندهم قوما يعرفون بالرقادة (...) يغشى على الرجل منهم يومين وثلاثة فلا يتحرك ولا يستيقظ ولو بلغ به الأقصى مبلغ من الأذى ولو قطع قطعاً، فإذا كان بعد ثلاثة من عشيته استيقظ كالسكران (...) فإذا أصبح في اليوم الثاني أتى بعجائب مما يكون في ذلك العام من خصب أو جذب أو حرب أو غير ذلك وهذا أمر مستفيض لا يخفى"^(٣٥).

أضحت تلك الممارسات جزءا من المتخيل الجمعي لسكان غمارة، حتى عُد من خالف أو شكك في نجاعة هذه الطقوس، نذير شؤم عند أهل غمارة، يتم التطير منه ويقذف بالجهل وقصور الفكر، حيث "تترأى كارثة الجفاف في المعتقدات الشعبية من خلال منظور ديني ينزع عنها صبغتها الطبيعية، ويجعل منها ظاهرة غيبية. فقحط الموسم الفلاحي، وتسلط الجراد وانتشار الجوع الذي يسوق الناس بالجملة إلى القبر، كل هذا يبرز في مخيلة المعاصرين بصورة عقاب من السماء ينزل بسبب خطايا مجهولة"^(٣٦)، وهو ما يعكس نظرة العامة إلى الكوارث الطبيعية، والتفسير الديني لتلك الظواهر، أمام

والطقوس ليعطيا لهذا المتخيل أبعاداً شمولية وخصائص محلية^(٤١).

ثانياً: الجفاف وانبعث فكرة المخلص

تحكمت ظروف العيش ونمط الاقتصاد السائد خلال العصر الوسيط، المرتكز على الزراعة، في بروز "المعتقدات المرتبطة بالطبيعة"^(٤٢)، خاصةً الجفاف، والذي وإن كان أحد أشد الكوارث الطبيعية وطأة على إنسان المرحلة المدروسة، بقدر ما أفرز فكراً استسلامياً ينتظر المخلص الذي تمثل في فكرة انتظار المنقذ "المسياني"^(٤٣). والتي قالت بنهاية العالم، وهو ما خلق جوا من الترقب في صفوف اليهود بالمغرب والأندلس على حد سواء.^(٤٤)

كانت الكوارث الطبيعية مناسبة تثير الاعتقاد في عودة المسيح المنقذ، والذي كان يتم استدعاؤه في الفترات والمنعطفات التاريخية الحرجة من جفاف ومجاعات وأوبئة وأزمات سياسية. وقد ارتبطت فكرة المسيح^(٤٥) المنتظر باليهود أيما ارتباط، لأنه "لم تشغل قضية من القضايا بال اليهود كقضية المسيح المنتظر (الذي) سيعود لتطهير العالم من الظلم والبؤس ومن أجل سيادة السلام والعدل"^(٤٦)، حيث تطفو فكرة المسيح المنتظر إلى سطح الوجود كلما ساد الظلم والخوف والبؤس.

ولم تكن فكرة المهدوية^(٤٧) مرتبطة باليهود فقط، بل شكلت وماتزال خاصية ملازمة للمتخيل الإسلامي كذلك. فالمسلمون يتشوفون إلى المنقذ الذي يبعثه الله تعالى ليجدد للناس دينهم ويخرجهم من الأزمة^(٤٨). فأصحاب الديانتين يشتركون حد التماهي في هذا الأمر، فقد سيطر "وسواس" المهدوية على المغاربة، فالتشوف إلى منقذ من صميم اعتقادهم لحظة حلول الأزمة المرتبطة بالأقوات والمهددة للوجود. لذلك تم اللجوء إلى ممارسات تجميلية وأخرى سحرية وميثولوجية. هذه الممارسات لم تسلم من سهام النقد من طرف موسى بن ميمون، فقد اعتبر تلك الممارسات سبباً وراء اندحار اليهود وضياهم في العالم، لأن ذلك يتعارض مع الوصية الثانية من الوصايا العشرة المنزلة على موسى عليه السلام. كما اتهم بن ميمون المتعاطين

الاقتصاد^(٤٩). كما ارتد العديد من اليهود بالمغرب، زمن الكوارث الطبيعية، نحو الطور "الوحشي" البدائي، حيث يصبح الإنسان مفترساً للنبات ومستهلكاً للحشرات التي كانت تأنفها نفسه في الأيام العادية^(٥٠). ورغم تحريم الشريعة اليهودية، أكل الجراد^(٥١)، إلا أن اليهود المغاربة لم يتوانوا عن أكله خاصة في فترات الجوع، الناتج عن الجفاف، حيث يجدون فيه غذاء شهياً^(٥٢). وهو ما يعكس تسامح الحاخامات اليهود بالمغرب مع تناول بعض الأطعمة التي تتدرج في خانة المحظور في الأيام الطبيعية، وهو أمر فرضته الظروف الطبيعية الصعبة، تماشياً مع مبدأ الضرورات تبيح المحظورات، حيث يصبح بعض المحرم من الطعام حلالاً، في فترات المجاعة وارتفاع الأسعار المفرط (...). مع الرجوع إلى مقتضيات الشريعة عندما تتحسن الأحوال الاقتصادية^(٥٣).

وأمام انسداد الأفق، خاصةً أمام تفاقم حدة الجوع، وبعد أن تكون المجاعة قد نشبت مخالفاً في أجساد الجوعى، لا يجد البعض من أصحاب تلك الأجساد المنهكة إلا خيار الانتحار موئلاً للهروب من بؤس الواقع^(٥٤). وإن كنا لا نتوفر على نسب قد تسعف أكثر في الإحاطة بهذا الموضوع، أي الانتحار بدافع الجوع، إلا أننا نرشح أن العدد ظل محدوداً، لعوامل مرتبطة بحب البقاء من جهة، ولوجود كوابح ثقافية تتعارض مع فعل الانتحار من جهة ثانية. لكن وما هو مؤكد، أنه ليس "هناك كارثة أخرى تحطم شخصية الإنسان وتدمرها كما يفعل الجوع، فإن الفرد إذا استبد به الجوع لا يتورع عن القيام بأعمال شاذة إذ يتغير سلوكه من أساسه كما يحدث لأي حيوان نال منه الجوع"^(٥٥).

يتضح، أن المتخيل ينتعش في حالة الرغبة إلى التطلع نحو مجالات غير قابلة للإدراك، وفي حالة الخوف من المجهول، وأمام هول الكوارث الطبيعية، والقهر، والاستبداد الاجتماعي، والاقتصادي. وهو ما يؤدي إلى الهروب أو الرفض عبر بعض الروايات المثالية^(٥٦). إنه إذن بمثابة آلية دفاعية ضد الطبيعة يتم توسلها في حالة الوهن بهدف تحقيق توازن نفسي واجتماعي^(٥٧). كما يتسم المتخيل الاجتماعي، من خلال مظاهره المختلفة، بطابع الدين والسحر اللذين يتآلفان في الشعائر

على الرغم من أن اليهود آمنوا دائماً بفكرة المخلص، إلا أن التصوف اليهودي (القبالة) الذي وجد طريقه إلى المغرب خلال القرن الثاني عشر للميلاد^(٥٥)، شكل إحدى الدعامات الرئيسية التي روجت لفكرة المهدوية، فقد كان دائم التبشير بالمنقذ المخلص أو "المسيح المنتظر"^(٥٦)، "وقد أحدث الصوفية تغيرات ملموسة في الأسس النظرية والعملية للمهدوية مسيطرة لتحولات الحقل السياسي والاجتماعي"^(٥٧) وهو ما سمح بظهور عدد من المتنبئين، أمثال موشي الدرعي "المتنبئ" الذي ظهر في بداية المائة الثانية عشر، وأبراهام أبو العافية (الأندلسي) الذي ظهر في العقد السابع من المائة الثانية عشر. كما تحدثت الكثير من مؤلفات يهود المغرب عن ظاهرة "المخلص المنتظر" كما هو الحال مع "إسحاق ابرفنييل" و"ابراهيم اللاوي"^(٥٨).

لقد اقترنت ظاهرة المهدوية والمسيحانية كذلك بادعاءات محمد بن تومرت، مهدي الموحدين، الذي رفع شعار المهدوية أواخر عمر الدولة المرابطية^(٥٩)، وقبله مؤسس الحركة المرابطية عبد الله ابن ياسين الذي نسبت إليه العامة قدرته على تفجير الماء في الصحراء القاحلة^(٦٠). فنجاح ابن تومرت في استقطاب عدد من الاتباع الذين آمنوا بما جاء به، جعل الكثير من اليهود يروجون لقرب ظهور المسيح. وهو ما جعل "سيمون ليفي" (simon levy) يربط بين مهدوية اليهود ومهدوية ابن تومرت، فقد ادعى البعض أن المهدي بن تومرت هو المسيح المنقذ الذي كان يبشر به موشي الدرعي من أعلى منابر بيعات فاس، حتى قبل ظهور حركة ابن تومرت^(٦١). إن الانتظارات المرتبطة بإحدى الديانات السماوية الثلاث، يكون لها بالغ الآثار على باقي الديانات الأخرى، خاصة وأن الديانات الثلاث ترى في الإسلام خاتم الأديان، وهو ما يؤشر على قرب قيام الساعة^(٦٢). ويبدو أن سنة (٥٠٠ هـ / ١١٠٧م) كانت مفعمة بالانتظارات الحدثانية بالنسبة لليهود، ومن أولئك اليهود الذين درسوا أشراف ساعة الخلاص نجد اليهودي "ابراهيم بارحيا" (م. ١١٣٦) من خلال مؤلفه "لفيفة اللفاف" والذي كان يعتقد فيه أن المخلص سيظهر بعد ٥٠٠ سنة من هجرة الرسول. وقد ارتبطت تلك الأفكار المبشرة

للتنجيم بالحمق والتفاهة ويكون ادعاءاتهم لا قيمة لها بالقول: "اعلموا، يا سادتي، أن كل واحد من المواضيع المتعلقة بعلم التنجيم الشرعي، والتي تتعلق بأن أمرا ما سيحصل بطريقة محددة، وأن الكوكب الذي يولد المرء تحته، يحدد له ما سيكون عليه وما سيقع له بطريقة معينة دون أخرى، كل هذه الادعاءات بلاهة"^(٦٣). إلا أن ذلك لم يكن حائلا دون التعاطي لتلك الممارسات من طرف اليهود.

ويُعدّ موشي الدرعي من أولئك اليهود الذين روجوا لفكرة ظهور المسيح المخلص سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٧م^(٦٤)، وهو ما جعل بعض اليهود يعتقدون في كون المهدي ابن تومرت هو المسيح الذي بشر به المتنبئ^(٦٥). وأمام النبوءات المتتالية بقرب مجيء المخلص ونهاية العالم، أقدم العديد من اليهود على بيع ممتلكاتهم للمسلمين بأثمان زهيدة، وهو ما عرض عدد منهم للإفلاس، خاصة أمام عدم تحقق تلك النبوءات المبشرة بظهور "المسيح" (משיח). لكن إذا علمنا العلاقة التي تجمع اليهود بالمال، فإننا نشك في كونهم فرطوا في ممتلكاتهم تحت طائلة ظهور المسيح.

شكل القرن (٦هـ / ١٢م) منعرجاً نحو ظهور عدد من المتنبئين في المغرب والأندلس^(٦٦)، فقد ظهر عدد من مدعي المهدوية من اليهود بالأندلس، ففي قرطبة لوحدها، ادعى رجل أنه المسيح المخلص في الفترة ما بين (١١٠٢م - ١١٠٧م)، وبعد فشله في ادعاءاته، ادعى رجل آخر من نفس المدينة سنة ١١١٧م أنه المسيح، لكن هذه المرة لم يتم الاستسهال معه من طرف السلطة الحاكمة، حيث كان الإعدام مصيره هو من اتبعه. ولم يكن مصير يهودي آخر ادعى نفس الادعاءات أفضل ممن سبقه، بل كان مصيره "تراجيدياً"^(٦٧). ولم تنته سلسلة مدعي المهدوية عند هذا الحد، بل ظهر خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي مدع يهودي آخر للمهدوية وهو ابراهيم أبو العافية الأندلسي (ت. ١٢٩١/٥٦٩)^(٦٨). إن تنامي ظاهرة المهدوية، خلال القرن الثاني عشر للميلاد على وجه التحديد يدفع إلى التساؤل عن العوامل المفسرة لاقتتران هذه الظاهرة بشكل خاص بهذه الفترة التاريخية بالذات.

خاتمة

عملنا من خلال المقال الراهن، على تتبع بعض الممارسات التي لجأ إليها يهود المغرب خلال العصر الوسيط لمواجهة أزمة الجفاف، نظراً لتبعاتها وما ينجم عنها من غلاء في الأسعار وأسقام في الأبدان. وقد خلصنا إلى أن الهروب والهجرة شكلتا إحدى المداخل الأساسية التي قصدها يهود المغرب، متخذة تلك الهجرة ألواناً متعددة؛ هجرة إلى الرب الغاضب، بالدعاء وطلب المغفرة والصفح عم اقترفته أيديهم من ذنوب وآثام والتي استحقوا معها ذلك الغضب. هجرة إلى مزارات الربيين، التي وجدوا فيها موئلاً للتخفيف من وقع ما أصابهم. كما كانت الهجرة من منطقة إلى أخرى إحدى آليات المواجهة كذلك، خاصة وأن استعار نار أزمة الجفاف وغيرها من الكوارث والجوائح يعقبها تضيق على اليهود من طرف المسلمين. ورغم أن الجفاف أضحى أمراً مألوفاً عند المغاربة، إلا أن الآليات والتقنيات التي تم التوصل إليها زمن الدراسة لم تكن كفيلة بمواجهته بطرائق علمية، وهو ما كان يندر بأيام صعبة، حيث يصبح الجوع وشبح الموت أقرب إلى الإنسان من أي وقت آخر، لذلك، ينتصب المتخيل اليهودي مخترقاً المألوف ومتجاوزاً حدود الذهن باحثاً عن الخلاص. هذا الأخير حمل لواءه العديد من مدعي المهداوية والمسيحانية، لكن الراجح أننا هذه الادعاءات سرعان ما تخبو جذوتها بانقشاع غمامة الواقع المأزوم، بما كان يحمله من تناقضات اجتماعية واقتصادية واضطرابات سياسية.

بالخلاص المشيخي بحملة الجور والتضييق التي طالت اليهود من طرف المسلمين والمسيحيين على حد سواء^(٦٣). والراجح كذلك، أن المنجمين والسحرة كانت لهم اليد الطولى في الترويج لمثل هذه الأفكار، والتي كانت تتلقفها العامة دون أن تضعها في ميزان النقد والتمحيص، حتى أنه بلغ بهم الأمر إلى الترويج لفكرة خطيرة، مؤداها فناء العالم سنة (٥٨٢هـ/١١٨٦م)^(٦٤). وهو ما أحدث حالة من الرعب في صفوف المجتمع. وفي معرض رسالته إلى يهود أهل اليمن، وهي الرسالة التي بعث بنسخة منها إلى يهود فاس، حذر موسى بن ميمون من المسيحاء مدعي النبوة، الذين يظهرون في الفترات العصيبة من تاريخ اليهود. كما تضمنت الرسالة تحريماً للتجميم وإدانة الاعتقاد الباطل بتأثير النجوم على الإنسان^(٦٥). وبالمقابل، وضع موسى بن ميمون علامات المسيح المخلص وعلامات زمانه، محذراً منه خشية أن يفسد الجماعات اليهودية. ومما تضمنته الرسالة: " كتب لي إخواننا باليمن رسالة طويلة أخبروني فيها بأقواله (...) وبالبدع التي ابتدعها في الصلوات. وأخبروني بأنهم شاهدوا بعض معجزاته (...) وأني أستنتج من كل ذلك أن هذا الرجل المسكين، جاهل (...) لا حكمة لديه البتة. وكل ما شوهه من فعله أو سمع من قوله باطل وكذب، وإني أخاف على أولئك اليهود"^(٦٦). لقد ظل وما يزال هاجس انتظار المخلص جلياً ضمن عدد من ممارسات اليهود الاحتفالية والطقوسية وبخاصة ضمن عيد "ميمونة" كما أشار إلى ذلك حاييم الزعفراني^(٦٧).

الإحالات المرجعية:

- الحد الذي وضعته الملاحظات الناتجة عن التجارب، مما يعني أن لكل ثقافة متخيلها. فتاريخ المتخيل هو إذن تعميق للتاريخ، ودراسة خيال مجتمع هو الذهاب إلى أعماق ضميره بهدف الكشف عن تطوره التاريخي. كما اعتبر المتخيل محركاً وموجهاً للتاريخ، فبدونه يبقى هذا التاريخ ميتوراً. وبذلك تكون البنية الموجهة لهذا التاريخ ليس البنية التحتية/الاقتصادية، بل المتخيل هو من يقوم بذلك. راجع: نور الدين الزاهي، **المقدس والمجتمع**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١١، ص. ٩. إملين باتالين، "تاريخ المتخيل"، ضمن: **التاريخ الجديد**، إشراف جاك لوغوف ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، مراجعة عبد الحميد هنية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص. ٤٨١. بسام الجمل، **المتخيل الديني: المناهج والغايات**، <https://www.mominoun.com>، بتاريخ: ٢٨-٨-٢٠٢٢.
- Jaques legooff, *L'imaginaire médiéval, Essais*, Gallimard, Paris, 1985, P. 7-9
- (١٤) محمد بن عبد العزيز بن عبد الله، **الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي**، ج٢، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، ١٩٩٤، ص. ٤٠٥.
- (١٥) حاييم الزعفراني، **يهود المغرب والاندلس، ج٢، م س، ص. ٤٢٧.**
- (١٦) محمد إبرهيموش، "الاستغاثة بالموتى"، **م س، ص. ١٤٥.**
- (١٧) إبراهيم القادري بوتشيش، "كتابة التاريخ الاجتماعي والذهني في ضوء تجربة وحدة التكوين والبحث: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي"، **مجلة أسطور**، العدد ١٩، ٢٠٢٣، ص. ٢٣٢.
- (١٨) ارتبط البقر بنزول المطر عند العديد من الشعوب، خاصة تلك التي توجد في المناطق الصحراوية. وكان يتم ربط الحطب، الذي يكون أساساً من شجر السلق والعشر، بأذناب البقر، ثم يصعدون به إلى جبل بعد أن يتم إشعال النار في ذلك الحطب. وكانوا يرون ذلك من أسباب السقيا. ويعللون ذلك بكون النار تشير إلى البرق، وهذا الأخير يجلب المطر. محمد بن عبد العزيز بن عبد الله، **الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي، ج٢**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، ١٩٩٤، ص. ٣٩٤-٤٠٣.
- (١٩) نفسه، ص. ٣٩٤.
- (٢٠) إبراهيم القادري بوتشيش، **حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي**، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص. ١١١.
- (٢١) أبو عبيد الله البكري (المتوفى سنة ٤٨٧هـ)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، مكتبة المثنى بغداد، دون سنة النشر، ص. ١٠١-١٠٢.
- (٢٢) محمد أمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ١٨، ١٩٩٢، ص. ٣٤٧.
- (٢٣) عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية، م س، ص. ١٠.**
- (٢٤) أخبار عائلة ابن دنان، **التواريخ أو تاريخ فاس، م س، ص. ٢٩-١٨.**
- (٢٥) محمد إبرهيموش، "المخيل المغربي قبل الأزمنة الحديثة وفقاً للبحث التاريخي"، ضمن **المغرب وإفريقيا: دراسات تاريخية ومنهجية أعمال مهداة لروح الأستاذ الحسين بولقطيب**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة، الطبعة الأولى، ٢٠٢٣، ص. ٤٥.
- (٢٦) أخبار عائلة ابن دنان، **التواريخ، م س، ص. ٣٣.**
- (٢٧) نفسه، ص. ٣٣-٣٤.

- (١) الحسين بولقطيب، **جوانح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، قضايا تاريخية**، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ص. ٢٩.
- (٢) محمد سيد كامل محمد، "الكوارث الطبيعية بالغرب الإسلامي وأثرها على الصحة والبيئة (ق ٦-٧هـ/١٢-١٣م)"، ضمن: **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وتاريخ الذهنيات بالمغرب والاندلس قضايا وإشكاليات، الجزء الأول: قضايا في التاريخ الاقتصادي، أوراق الندوة التكرمية المهداة للأستاذ المؤرخ إبراهيم القادري بوتشيش**، تقديم وتنسيق الدكتور محمد الشريف، الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، الطبعة الأولى، ٢٠١٩، ص. ٢٥٠.
- (٣) اختلف العلماء المسلمون في مسألة خروج اليهود مع المسلمين للاستسقاء، أو خروجهم لوحدهم. وقد برر الذين أفتوا بخروجهم مع المسلمين، بكون اليهود إذا ما خرجوا لوحدهم ينزل المطر لأنهم يحملون عظم أحد الأنبياء. أبي عيسى سيدي المهدي الوزاني (المتوفى عام ٥١٣هـ)، **النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى المسماة بالمعيار الجامع المعرب عن فتاوى المتأخرين من علماء المغرب، الجزء ١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الطبعة الأولى ١٩٩٦، ص. ٥٧٢-٥٧١.**
- (4) Georges Vajda, *un recueil de textes historiques judéo-Marocains*, collection Hespéris, N° XII, Larose, paris, 1951, pp. 77 – 79.
- (٥) أخبار عائلة ابن دنان، **التواريخ أو تاريخ فاس**، ترجمة عبد العزيز شهير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦-٢٠٠٧، ص. ٣٧.
- (٦) عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية وأثرها على سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والاندلس ق ٦-٨هـ / ١٢-١٤م**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى آب (أغسطس)، ٢٠٠٨، ص. ١٣٦.
- (٧) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية: برلين- السوربون- استراسبورغ، من المنهج إلى التنازع**، دار الأمان الرباط، ٢٠١٩، ص. ١٠٧.
- (٨) عطا علي محمد شحاتة ربة، **اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين**، دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا- دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص. ٩٨.
- (٩) محمد إبرهيموش، "الاستغاثة بالموتى في المغرب وأوروبا خلال الأزمنة: الطاعون الأسود نموذجاً"، ضمن: **المغرب والمجال المتوسطي: تاريخ مشترك وتفاعل مستمر**، الرباط، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ٢٠١٩، ص. ١٤٨.
- (١٠) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية برلين-السوربون-استراسبورغ، م س، ص. ١٠٧.**
- (١١) محمد إبرهيموش، "الاستغاثة بالموتى"، **م س، ص. ١٤٧.**
- (12) Issachar ben-ami, *culte des saints et pèlerinages judéo-musulmans au Maroc*, édition Maisonneuve et Larose, paris, 1990, p. 50-115.
- (١٣) يعتبر المتخيل الفضاء المُشكّل من الكيفيات المتعددة التي يهب بها الإنسان المعنى للأشياء قصد تملكها دلاليًا. إنه المجال الذي يتعالى به وفيه عن طبيعته الحسية وكذا عن حسية ما يحيط به، نحو التصور، والتمثل، والترميز، والحكي. إنه جملة من التمثيلات التي تفيض على

- (٤٧) تتجلى النزعة المهدوية في التشوف لمستقبل بشري سعيد، يعم فيه العدل والكرامة ويتحقق فيه الخلاص على يد المنقذ المخلص. مراد جدي، "النزعة المهدوية والتشوف بشمال المغرب: دراسة في تاريخ المتخيل الديني"، ضمن: **قضايا في البحث التاريخي: مؤلفون ونصوص - متلازمة الدين والسياسة والاقتصاد**، مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي، عدد مزدوج ١٣-١٤/١٦-٢٠١٧، ص. ١٠٣.
- (٤٨) محمد ستيتو، **الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن ١٦ م، م س،** ص. ٢٨٤.
- (٤٩) عبد السميع البجدي، "رسالة في علم التنجيم"، **مجلة ضفاف للعلوم الإنسانية**، العدد ٢، ٢٠٢٣، ص. ٩٨-٩٤.
- (٥٠) مرسيدس كارسيا ارينال، "التشوف اليهودي زمن المهدوية"، ص. ٤٣٩، ٤٤٠.
- (٥١) محمد المغراوي، **الموحدون وأزمات المجتمع**، جذور للنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص. ١٢٦.
- (٥٢) رضوان رابحي، **الموت والصلوات الرمزية بين الأحياء والموتى بالمغرب والأندلس إبان العصر الوسيط**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٢٣، ص. ٢٨٩.
- (٥٣) نفسه، ص. ٢٩٠.
- (٥٤) أحمد شحلان، **اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة قراءة في الموروث والأحداث**، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٩، ص. ١٢٥.
- (٥٥) كان هناك تفاعل ثقافي بين المسلمين واليهود خلال العصر الوسيط مما أدى إلى تبادل الأفكار والمعتقدات، فقد عرف القرن الثاني عشر للميلاد ترجمة أعمال الغزالي إلى العبرية، ومنها ستة على الأقل من أعماله الكبرى، فقد كان اليهود يكتفون احتراماً وتقديراً كبيرين للغزالي، كما أن بعض أفكاره لم تحفظ إلا باللغة العبرية.
- Haïm Zafarani, **Kabale vie mystique et magie judaïsme d'occident musulman**, éditions Maisonneuve et Larose paris (V), 1986, p.28-29.
- (٥٦) أحمد شحلان، **اليهود المغاربة، م س،** ص. ١٢٥.
- (٥٧) مراد جدي، "النزعة المهدوية والتشوف بشمال المغرب"، **م س،** ص. ١٠٣.
- (٥٨) أحمد شحلان، **اليهود المغاربة، م س،** ص. ١٢٥.
- (٥٩) محمد ستيتو، **الكوارث الطبيعية، م س،** ص. ٢٨٤.
- (٦٠) بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين، م س،** ص. ١١١.
- (٦١) رابحي رضوان، **م س،** ص. ٢٩٠.
- (٦٢) مرسيدس كارسيا ارينال، "التشوف اليهودي زمن المهدوية"، **م س،** ص. ٤٣٥.
- (٦٣) نفسه، ص. ٤٣٧.
- (٦٤) عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية، م س،** ص. ١٣٢.
- (٦٥) حاييم الزعفراني، **أخلاق وتشوف اليهودية على أرض الإسلام، م س،** ص. ٨٦-٨٧.
- (٦٦) عبد السميع البجدي، "رسالة في التنجيم"، **مجلة ضفاف للعلوم الإنسانية**، المجلد ٩، العدد ٢، ٢٠٢٣، ص. ١٠٥.
- (٦٧) حاييم الزعفراني، **يهود الأندلس والمغرب، م س،** ص. ٥٣٨.
- (٢٨) محمد أمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات، م س،** ص. ٣٤٩، ص. ١٤٨.
- (٢٩) الميلودي شغوم، **كان ما سيكون، أسس المتخيل بحث في لواعي الحداثة**، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٧، ص. ٥٩.
- Haïm Zafrani, **deux mille ans de vie juif au Maroc**, Maisonneuve et Larose, paris, 1983, p. 118.
- (٣١) محمد أمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات، م س،** ص. ٣٥١.
- (٣٢) أبو يوسف يعقوب بن يحيى بن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق، أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، ص. ٢٥٣.
- (٣٣) عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية، م س،** ص. ٨.
- (٣٤) رغم أن الجراد شكل أحد الوجبات التي فرضت على مائدة المغاربة زمن الجوع، إلا أن هذه الحشرة كانت مسؤولة كذلك عن العديد من المجاعات التي عرفها المغرب، فحيثما "مر الجراد ترك مجاعة كبيرة" خاصة في المناطق الجنوبية. حسن الوزان، **وصف إفريقيا، ج٢**، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ص. ٢٧٨-٢٧٩.
- (٣٥) محمد أمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات، م س،** ص. ٣٥٨.
- (٣٦) حاييم الزعفراني، **يهود الأندلس والمغرب، الجزء الثاني**، ترجمة أحمد شحلان، مرسوم الرباط، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، ص. ٥١٦.
- (٣٧) عبد الله بللمليح، "الانتحار في تاريخ المغرب"، ضمن: **الوفيات والموت مقاربات تاريخية واثروبولوجية**، أعمال مهداة إلى الأستاذ عثمان بناني ومحمد العربي المساري وآخرون، جامعة محمد الخامس الرباط، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، ٢٠١٧، ص. ٥٨.
- (٣٨) كاسترو، **جغرافية الجوع**، ترجمة زاكي الراشدي، دار الهلال، ص. ١٥٨.
- نقلا عن محمد أمين البزاز، **المجاعات والأوبئة، م س،** ص. ٣٥٩.
- (٣٩) إملين باتالين، "تاريخ المتخيل"، **م س،** ص. ٤٨.
- (٤٠) جليبر دوران، **الخيال الرمزي**، ترجمة علي المصري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٤، ص. ١٤.
- (٤١) حاييم الزعفراني، **يهود الأندلس والمغرب، ج٢**، ترجمة أحمد شحلان، منشورات مرسوم الرباط، ٢٠٠٠، ص. ٤١٧.
- (٤٢) إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع-الذهنيات الأولى**، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص. ١٠٩.
- (٤٣) حاييم الزعفراني، **يهود الأندلس والمغرب، ج٢**، ترجمة أحمد شحلان، منشورات مرسوم الرباط، ٢٠٠٠، ص. ٥٢٢.
- (٤٤) مرسيدس كارسيا ارينال، "التشوف اليهودي زمن المهدوية" ضمن: **السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب: الائتلاف والاختلاف**، تعريب: ذ محمد الغراب، ذ عبد العزيز بالفايدة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية القنيطرة، مطبعة الرباط نت، ٢٠١٣، ص. ٤٣٥.
- (٤٥) لا تعني هنا لفظة "المسيح" ما يدل عليه الأمر عند النصارى، ولكنها تعني مسيح اليهود خاصة، وهو الذي يطلق عليه بالعبرية "مسيح" (מָשִׁיחַ). أحمد شحلان، **اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة قراءة في الموروث والأحداث**، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٩، ص. ١٢٣.
- (٤٦) فالج مهدي، **البحث عن منقذ دراسة مقارنة بين ثمانى ديانات**، ط١، دار بن رشد، ١٩٨١، ص. ١١٨.

الصناعة السمكية وما يتصل بها في الغرب الإسلامي بالعصر الوسيط

د. إبراهيم بوجلال بن محمد

باحث في تاريخ العلم والمجتمع والاقتصاد بالمغرب
الإسلامي والحياة العلمية في المغرب الأوسط
جامعة البليدة (٢) – الجمهورية الجزائرية



ملخص

يتناول المقال الراهن أحد أهم الموضوعات الاقتصادية في بلاد الغرب الإسلامي طيلة العصر الوسيط الذي يمتد من الفتح الإسلامي لبلاد المغرب والأندلس في القرن الهجري الأول إلى غاية بداية العصر الحديث مع مطلع القرن العاشر هجري، وهذا الموضوع يدور حول إشكالية هامة تتمثل في الصناعة السمكية وما يتصل بها في الغرب الإسلامي بالعصر الوسيط، وذلك لما تميز بها هذا المجال الجغرافي الواسع من موارد ومسطحات مائية غنية كانت وراء وجود ثروة حيوانية مائية متنوعة، استطاع سكان العصر الوسيط من استغلالها بطرائق متنوعة لقضاء متطلباتهم في الحياة من خلال إبداعاتهم في استغلال الثروة السمكية والحيوانات البحرية بأصنافها كمادة متجددة في بعض الصناعات، كالمحافظة على هذه المادة من التلف بعد صيدها عن طريق تصبير الأسماك، وحتى استخدامها كمادة طبية في علاج بعض الأمراض التي كانت تصيبهم وصناعة الأدوية منها، وكذلك استعمال الأسماك الكبيرة كمادة في إنتاج بعض السوائل كالزيوت والدهون لما تحتويه من مقادير معينة والاستفادة منها في الطبخ، كما استخدمت بعض الأصناف في إنتاج مادة النسيج وصناعة الألبسة منها، واستعملت حتى في صناعة بعض المجوهرات الثمينة، إلى جانب المتاجرة بها كمادة خام ومصنعة في الغرب الإسلامي.

كلمات مفتاحية:

السمك، الأدوية، الزيوت، النسيج، الغرب الإسلامي، العصر الوسيط

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢١ نوفمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٣٠ ديسمبر ٢٠٢٤



10.21608/kan.2025.338127.1187

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

السيد إبراهيم بوجلال، "الصناعة السمكية وما يتصل بها في الغرب الإسلامي بالعصر الوسيط"، دورية كان التاريخية، - السنة الثامنة عشرة - العدد التاسع والستون، يونيو ٢٠٢٥، ص ٦٨ - ٧٦.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: boudjellalibrahim@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت شروط الترخيص المشاع ٤.٠ (CC BY 4.0) International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

يمتد إقليم الغرب الإسلامي من برقة إلى غاية السواحل المحيطية للمغرب الأقصى، إضافة إلى شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس)، وهذا الإقليم من أهم الأقاليم لما يتمتع به من ثروات بفضل موقعه الجغرافي المتميز بين الأقاليم، فقد جمع ثروة حيوانية بين المحيط الأطلسي، والبحر المتوسط، والأنهار، والبحيرات. لعل هذا ما جعله يزخر بثروة سمكية ومرجانية قيمة، دفعت السكان إلى استغلاله في عدة مجالات، ومن هذه المجالات، قيام الإنسان إلى تحويل هذه الثروة المتجددة من طبيعتها التي كانت عليها إلى صناعات لأجل تلبية حاجياته اليومية التي كان يفتقرها.

لذلك تكمن أهمية الموضوع في توضيح قدرات إنسان الغرب الإسلامي في العصر الوسيط في الاستفادة من هذه الثروة بعيداً عن كونه مجرد طعام والذي تعداه إلى ذلك الاستغلال الأمثل في بعض الصناعات المشتقة من الأسماك والمرجان، وأيضا في قيمتها كبضاعة تجارية، لذلك الدراسات في هذا الجانب قليلة حسب اطلاعنا منها مقال قدوري طاهر الموسوم بـ "السماك والتغذية بالغرب الإسلامي في العصر الوسيط". وانطلاقاً مما سبق فإن إشكالية بحثنا تكون حول ماهية تلك الصناعات التي استخرجت من الأسماك والمرجان؟ وكيف تم تسويقها؟

أولاً: الصناعة السمكية

يقصد بالصناعة السمكية طريقة استغلال الأسماك ليس كمادة غذائية فقط، بل كمادة تم تحويلها من طبيعتها إلى صناعات استفاد منها الإنسان في حياته اليومية: كالتصبير، النسيج، الزيوت والدهون، الحلي والأدوية.

١/١- تصبير الأسماك

هذه الأخيرة من أهم الصناعات المنتشرة في بلاد الغرب الإسلامي التي تهدف إلى المحافظة على جودة السمك وقيمتها الغذائية، وتسعى إلى حماية المستهلكين له، ومن المدن الساحلية التي اشتهرت بهذا النوع من الصناعات مدينة بنزرت التونسية التي كان لسكانها دراية واسعة في تجفيف السمك بجميع أصنافه، ومما

يثبت براعتهم المهنية في ذلك هو أن الأسماك كانت تخزن لأكثر من سنة وتبقى محافظة على نفس الذوق والطعم^(١). وقد استخدمت مادة العسل من طرف سكان مدينة باجة التونسية لنفس الغرض على ما يبدو، حيث وضعت بعض الأسماك في العسل وتم نقلها من هذه المدينة إلى الأمير عبيد الله المهدي الشيعي (ت ٣٢٢هـ/٩٣٤م)^(٢)، وبقيت على حالها سالمة وصالحة إلى غاية تسليمها إلى صاحبها^(٣).

تعدّ مادة الملح من أكثر المواد حضوراً في تجفيف السمك هذا ما أكدّه صاحب كتاب الأغذية في قوله "والناس يقددون الحوت بالملح... فإنه يكتسب حرارة من المكث ببعض التعفن ويكتسب من حرارة ومن تجفيفه فيكون جوهره الطف وغذائه أقل"^(٤)، وهو ما يفسر قيام يهود سواحل سبتة بالمغرب الأقصى بتجفيف نوع من الأسماك يسمى "سمك موسى" وتعليقه وإرساله إلى المناطق البعيدة^(٥). هذه الطريقة التقليدية في المحافظة على مثل هذه الأغذية السريعة للتلف، إنما تعكس لنا الثقافة الغذائية عند ساكنة الغرب الإسلامي في حماية طعامهم لفترات طويلة لضمان توافره وقت الحاجة، خاصة في الفترات التي تقل فيها وفرة السمك نتيجة نهاية مواسم الصيد، كما تسمح لتوفير حاجيات الأسواق من هذه السلعة.

هذه الصناعة من الوظائف الأساسية التي اهتم بها الصيادون، ومن هؤلاء صيادوا مدينة بادس بالمغرب الأقصى الذين كانوا يملحون ما يصطادونه من أسماك السردين في عرض البحر، وبسبب بقاءهم فترة في البحر قاموا بهذه العملية على متن مراكب الصيد، وبعد عودتهم إلى الساحل يحملها التجار عنهم إلى المناطق الداخلية لأجل تسويقها هناك، وهذه الطريقة الوحيدة التي كانت تسمح بدوام الصيد وتحقيق المال^(٦). كما كانت هذه العملية تنجز في مواقع الصيد أو بالقرب منها، فنجد الصيد بنهر سبو الواقع بالمغرب الأقصى، قد شهد تحميل كميات معتبرة من أسماك الشابل والبوروي المجففة والطرية نحو المناطق والمدن العامرة بالسكان دون أن يطرأ عليها أي تغيير في طراوة لحومها بعد عملية نقلها^(٧)، وحتى صيادوا قرية ترغة القريبة من

يبدو أن مستودعات تصبير الأسماك قديمة القدم، فقد وجدت آثار رومانية تتصل بالصيد البحري وتجفيف السمك، ومما لا شك فيه أنها كانت وظيفة تابعة لنشاطات الرباطات البحرية^(١٣)، والحق أن الرباطات الساحلية في عصر الإسلام كانت تحتوي على مخازن تجفيف الأسماك، هذا ما شيد به المؤرخ المالكي في ترجمته لأبي جعفر أحمد الطرابلسي المربط بالمنستير في تونس، إذ أنه لم يكن يأكل من لحوم صيد بحر المنستير طرياً ولا مالحاً^(١٤). أكدت الاكتشافات الأثرية التي أجريت بين مدينة طنجة ولكوس بالمغرب الأقصى إلى وجود آثار تدلّ على عملية تصبير الأسماك في المنطقة، والتي توزعت على عشرة مجموعات صناعية، قدرت أحواضها بـ ١٤٧ حوض بسعة إجمالية تصل إلى حوالي ١٠١٣ متر مكعب^(١٥).

ويُعدّ أكثر الناس دراية بشؤون السمك وتصبيره ساكنة الأندلس، فقد تميزوا عن غيرهم في ذلك، إذ وصلوا في عملية التصبير إلى توزيع السمك المصبر ووضعه في صناديق من نفس الحجم، وكل صندوق يتكون من سبعة صفوف تملأ بالأسماك، وإذا انتهوا من ذلك قاموا بصيانتها وتخزينها في مواضع معينة^(١٦). وعلى الرغم أننا نجهل حجم ونوع تلك الصناديق، إلا أنها في الغالب مصنوعة من الخشب. هناك مَنْ كان يقوم بتجفيفها بعد التخلص من أحشائها ومن ثمّ يعمل على حشوها بمادة الملح، وفي الأخير يضعها على فراش من نبات الدوم يكون عبارة عن واقي لها^(١٧). وحتى مادة الملح المستخدم بكثرة لا نعرف أن كان نفسها المستعملة في الطهي أم هناك نوع مغاير.

٢/١- صناعة الدهون والزيوت

تستخرج هذه الصناعة من الأسماك الغنية بمادة الدهون كأسماك البوري التي استعملت كوقود في إشعال النار عند سكان طبرقة وباجة الواقعتان في تونس، هذا ما أكدّه الجغرافي صاحب كتاب الاستبصار في قوله "إن أهل تلك النواحي يستخرجون دهنه ويستعملونه في مصابيحهم"^(١٨). تحدث الوزان عن سكان مدينة أزمور في المغرب الأقصى الذين يستخدمون أسماك الشابل كمصدر لتوفير الزيوت، إذ يستخرجون هذه المادة

مدينة فاس كانوا يستخدمون الملح في تمليح الأسماك^(١٩).

تمثل بلاد الأندلس الإسلامية أكثر المناطق استعمالاً لهذه المادة، حيث كثر استخدامه هناك، خصوصاً في تجفيف الأسماك ذو الحجم الكبير كسمكة التونة الكبيرة التي كان يستعمل في تصبيرها كميات معتبرة من الملح تناسب طبيعة أحجامها، وكان يتم ذلك بعد إزالة شوائبها وأوساخها، ثم تقديدها، وذلك حتى يلامس الملح جميع مواضع السمكة، مما يجنب فساد بعض المواضع فيها التي قد لا يصلها الملح في حالتها الطبيعية^(٢٠). نضيف من هذه المناطق، جزيرة شلطيّش الواقعة جنوب غرب الأندلس التي زاول سكانها الصيد كحرفة لتأمين معاشهم وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية، إذ كانت تحمل أسماكهم إلى المناطق الداخلية بعد تمليحها، ومن المدن الأندلسية الكبرى التي وصلتها هذه البضاعة مدينة إشبيلية^(٢١). والملاحظ أن مادة الملح كانت من أهم المواد المستخدمة في المحافظة على جودة الأسماك وقيمتها، وقد يعود ذلك إلى توفر الملح الذي لم يكن يكلف الكثير من المال مقارنة بمواد أخرى.

وهناك طريقة ثانية اعتمدها الأندلسيون في تجفيف السمك، هذا ما أورده الجغرافي الزهري (ت ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م) في قوله "يبس ويدخر ويجلب إلى جميع الأقطار"^(٢٢). رغم صمت الزهري عن شرح كيفية القيام بذلك، إلا أن ذلك كان عن طريقة يد مهنية صاحبة تجربة للقيام بهذا العمل. كما كان يتواجد مخازن تصبير الأسماك في العصور الإسلامية الوسطى، وهذا ما أثبتّه الفقيه ابن الأخوة (ت ٥٧٢٩هـ/ ١٢٢٩م) في حديثه عن الأسماك التي كانوا يحملونها من مراكز الصيد إلى المدن التي كانت تحتوي على مستودعات لتخزينها، كان على مستواها يتم القيام بعملية تمليح الأسماك عبر خياشيمها من طرف مجموعة من العمال، هؤلاء كانوا يحرصون على التعامل معها بحذر شديد من خلال تجنب لمس قشورها لسلامتها، وما فسد منها كان يرمى في المزابل خارج المدن^(٢٣).

الواحد منها حوالي ألف دينار لقلته وجودته لكثرة الطلب عليه^(٢٤).

٤/١- صناعة الحلي

يعود صناعة الحلي إلى وفرة مادة المرجان في حوض البحر الأبيض المتوسط الذي كان يحتوي أجود أنواع المرجان خاصة في مواضع التقاء مياه البحر مع مياه المحيط الأطلسي^(٢٥)، فكان يستخرج من سواحل إفريقية (تونس) من مهدية وطبرقة^(٢٦)، ومن مدن المغرب الأوسط (الجزائر) كمرسى الخرز "القالا" وساحل مدينة عنابة^(٢٧)، وبالمغرب الأقصى من ساحل سبتة^(٢٨)، وكذلك تمّ صيده على طول سواحل الأندلس كالبيرة ومرسية^(٢٩).

قبل شروع الصناع في تحويل المرجان إلى خواتم وقلائد كانوا يعملون على إزالة الغبار الملصق به عن طريق حكّه إلى أن يظهر لونه الحقيقي "الأحمر"^(٣٠)، ويشير الجغرافي ابن حوقل في ذلك إلى ممراسة سكان مدينة سبتة حرفة صناعة الخواتم والقلائد من المرجان في قوله " أن بها معدنا للمرجان صالحاً يعمل منه قوبريات لطاف"^(٣١).

لقيت هذه الصناعة اهتماماً كبيراً من طرف الصاغة في صناعة الخواتم الذين عمدوا إلى وضع المرجان في سائل الخل حتى يصبح لونه أبيض ولين، ثم يتم صب على كل الخواتم شمعاً ويكتب عليها أي شيء، كما كانت تتحت عليها رسوم زاهية أو ينقش عليها، ومما زاد جمال ورونق ما يصنعونه هو تآكل الخل ليبقى الفص على حاله^(٣٢).

لقد كانت الأصداف المستخرجة من ساحل سبتة يعمل منها القلائد والخواتم^(٣٣)، كما أخبرنا صاحب كتاب الأمثال العوام عن انتشار صناعة القلائد في بلاد الأندلس، إذ أن سكانها يعلقونها في أعناق الحيوانات فيقول: "كما أن الدر والجوهر ليس بلائق أن يعلق على أعناق الخنازير"^(٣٤).

٥/١- صناعة الأدوية

استعملت بعض الأسماك في فترة العصور الوسطى في تحضير بعض الأدوية ضمن الوصفات الطبية التي كان ينصح الأطباء بتناولها لتجاوز بعض الأعراض

بتعريض هذا النوع لحرارة النار حتى يخرج منه أكثر من رطل زيت، ثم يستعمله سكان المنطقة كمادة أساسية في تحضير الطعام وذلك لافتقار المنطقة إلى زيوت أخرى^(٣٥).

٣/١- الصناعة النسيجية

اشتهرت صناعة النسيج المعروف بـ "صوف السمك" وخاصة في مدينة صفاقس التونسية، ويرجع سبب تسميته بذلك إلى مادة الصوف التي كانت تستخرج من بعض الأصداف البحرية، حيث كانت تتم العملية بعد صيدها مباشرة من خلال شق هذه الأصداف وتركها تحت أشعة الشمس إلى أن تجف من مختلف السوائل، ثم يستخرج منها نوع من الصوف يصنع منه الخيوط التي كانت تستعمل في صناعة الثياب الحريرية ذات الجودة العالية مع دبعها بالألوان الباهية كالأسود والأخضر، وهذه الثياب لقيت عناية كبيرة من طرف الحكام لأنها تمثل ثياب الخاصة كالسلاطين وحاشيتهم^(٣٦).

يبدو أن هذه الثياب الفاخرة، قد خصص لها دور طرز خاصة لتسويقها إلى مختلف الأماكن، منها تسويقها إلى مدينة السوس بالمغرب الأقصى التي كان لسكانها ثياب مصنوعة من صوف السمك تعرف صفاقس، والتي ربما هي ثياب برع في صناعتها أهل صفاقس التونسية التي حملت اسمهم^(٣٧).

كانت هذه الثياب موجودة أيضا في الأندلس، وهي كذلك لقيت اهتمام الحكام ونستشهد في ذلك لما كان مع المنصور ابن أبي عامر (ت ٣٩٢هـ / ١٠٠١م)^(٣٨) في أحد فتوحاته التي جمع فيها العديد من المغانم منها واحد وعشرون ثوبا من صوف السمك وثوبين عنبريين المصنوعان من حوت العنبر^(٣٩).

وفي مدينة شنترين من سواحل الأندلس، كان سكانها يخرجون كثيراً إلى الساحل لجمع مادة الوبر التي كانت تتخلص منه بعض الأسماك الكبيرة نتيجة احتكاكها بالصخور الساحلية، وكان هذا الوبر ذو لون ذهبي نادر قلما يحصل عليه، حيث صُنعت منه الثياب الفاخرة التي كان يقتنيها الحكام ولا تباع لغيرهم، وقد وصل الثوب

٦/١- صناعات أخرى

استعمل سمك موسى في صناعة الحبر إذ أنه يفرز سائلا أسودا في الماء عندما يشعر بالخطر دفاعا عن نفسه، وهذا السائل يستخرج ويجمع من إحدى غدد هذا السمك بعد اصطياده، وقد أستخدم كحبر في الكتابة وفضله النساخون لنوعيته الرفيعة التي تظهر من خلال محاسن خطوطه على الورق التي فاقت أي حبر آخر^(٤٦). وهذه المعلومات عن هذا الحيوان البحري الذي ذكر كسمكة في جميع المصادر التي وقفنا عليها في هذه الدراسة، قد يكون هو نفسه "الأخطبوط البحري".

ينقل لنا صاحب كتاب الاستبصار معلومة قيمة عن سمك الشولي الذي كان يستخرج منه ألوان متعددة ذات نوعية جيدة على حد قوله: "بمدينة فاس والمكناسة الحوت الذي يسمى الشولي وهو الذي يوجد منه أنواع السمك تصنع منه الألوان بأصناف البقل فلا تشم له رائحة"^(٤٧). والملاحظ أن صناعة الحبر والألوان من الأسماك إنما كانت تخضع في تحضيرها إلى طرق خاصة نجهلها، وربما تعدد الألوان دليل على إضافة مواد أخرى وإلا لما وجدت ألوان مختلفة. سجل الوزان من خلال ملاحظاته في المناطق التي مر منها أن بمدينة ماسة على محيط المغرب الأقصى يتواجد مسجد على شاطئ البحر له سقف محمول على عظام نوع من الأسماك الكبيرة تدعى البلين، واستغل سكان المنطقة عظامه في مصالحهم دون تحديده نوعية المصلحة المقصود بها هنا^(٤٨).

ثانياً: تجارة الأسماك والمرجان

إن الحديث عن تجارة الأسماك والمرجان في بلاد الغرب الإسلامي يقودنا إلى تحديد مراكزه التجارية وأهم المدن التي كانت تعرف نشاط تجاري مقبول لهذا النوع من البضائع.

١/٢- الأسواق

في الغالب تكون أسواق السمك والمرجان في المدن والقرى القريبة من التجمعات السكانية، وقد تواجدت في مواضع بعيدة عن الشوارع الرئيسية للمدينة وذلك لتجنب الروائح الكريهة التي كانت تصدر من حوانيت

المرضية، مثل السمك المعروف بـ"الرضراضي" الذي كان من أجود أصناف السمك وأنفعها في صناعة الأدوية^(٤٩). ولقد ذكر الجغرافي البكري (ت ٨٧٥هـ/ ١٠٩٤م) أن سمك موسى كان من فوائد تخليص جسم الإنسان من أعراض حصة المعدة ويساعد في تقوية وظائف العقل^(٥٠)، وكان السكان يتناولون أسماك البوق كغذاء لمفعوله في تعزيز الصحة ومحافظة على سلامة الجسم^(٥١).

كان الأطباء ينصحون بتناول أنواع معينة من الأسماك لأولئك الذين يعانون من مشاكل صحية على مستوى الجماع، فينصحون بتناول سمك القمرون^(٥٢)، وكذلك كانوا ينصحون بتناول السمك مع العسل للوقاية من الأعراض المرضية التي قد تسببهم نتيجة الإفراط في تناول السمك^(٥٣). واستخدم ملح الأسماك كعلاج للقضاء على أمراض القروح وكذا إزالة عرق النساء^(٥٤)، وقد استعملت السلاحف البحرية في علاج مرض الصداع، وكان يتم ذلك بتحضير الدواء من دمائها مع دقيق الشعير وعجنه مع إضافة الخل، ثم تصنع منه أقراص شبيهة بحبات الحمص التي كان الأطباء ينصحون بتناولها مرتين في اليوم بعد الغداء والعشاء، وكان يستمر المرضى في تناولها إلى غاية الشفاء التام من الصداع^(٥٥)، وكذلك استعملت لحوم السلاحف في علاج أمراض الجذام بوصفة دوامها سبعة أيام على التوالي^(٥٦).

كما كان لحم جرادة البحر نافع من داء الجذام، فقد أخذت لحوم هذه الجرادة البحرية ووضعت في قدر حديد وكان يشعل لها النار حتى تقترب من الاحتراق وبعدها تسحق حتى تعطى للمصاب سبعة أيام متتالية، وإذا أضيف لها ماء الحمص فتت الحصى الموجودة في المثانة والكلية^(٥٧). وفضلاً عن هذا كانت السرطانات البحرية تؤخذ كعلاج لأولئك الذين يتعرضون لحالات التسمم وحتى الذين يتعرضون لعض الكلاب، حيث كانت تحضر برميها في قدر من فخار ويجعل عليها النار حتى تقترب من الاحتراق، ثم تسحق وتعطى لمصاب الكلب فيتعافى، وقد لا يأخذ العلاج مفعوله إلا بعد تناوله عدة مرات متتالية^(٥٨). وفي كل الأحوال استعملت الحيوانات البحرية في علاج أمراض متعددة كعلاج النقرس والفالج والبارد^(٥٩).

الحافلة^(٦٠). جرى تسويق السمك في بعض مدن هذه البلاد حتى جلب إطناب المؤرخين في ذكره، فهاهو ابن الخطيب يعطينا وصفاً عن رواج تجارة السمك في مدينة مربلة فيقول " بلد التأذين على السردين"^(٦١).

٢/٢- الأسعار

تختلف أسعار السمك والمرجان من مكان إلى آخر من حيث الغلاء والرخص حسب الجودة والنوعية وعوامل أخرى متعلقة بالتجار والدول، فقد كانت أسعار السمك في طرابلس دائماً في متناول جميع طبقات المجتمع الساكنة في المنطقة على اختلاف مستوياتهم المعيشية^(٦٢)، ويرجع السبب في الغالب إلى وفرة المنتج مما ساهم في تحقيق الاكتفاء الذاتي للسكان من هذا الغذاء، وكذلك كان بيعه بأثمان رخيصة في مدينة مهدية^(٦٣).

يذكر المالكي أثر التجار في وقوع الغلاء في بعض أنواع السمك، فهذا سمك قلقط حاول تاجر شراءه من رباط المنستير بدينار كامل على الرغم أن سعره أقل من ذلك بكثير، ولعل السبب في ذلك يعود إلى كثرة الطلب عليه من طرف الزبائن^(٦٤)، بينما نقل لنا الجغرافي البكري انخفاض أسعار السمك بمدينة بنزرت في قوله: " أنها أرخص البلاد سمكاً"^(٦٥). في حين أن سعر المرجان هو الآخر كان منخفضاً كمادة خام لم يطرأ عليها أي تعديل بمرسى الخرز القريبة من عنابة، مما جعل المقدسي يقول عنه " يباع بها جزافاً بغير كيل"^(٦٦)، لكن ضخامة الإنتاج حققت الثراء لسكان المدينة في جباية أموال طائلة^(٦٧).

على خلاف بعض المدن كان لا يباع فيها ولا يشتري، كحال أسماك مدينة دلس، فقد تأخذ مجاًناً من دون مال^(٦٨)، وهذا الاستثناء ربما يرجع لرداءة النوعية وقلة الأيادي الخبيرة في الصيد انطلاقاً من أن البحر يحتوي على العديد من الأنواع ذات الجودة الرفيعة. وانخفاض أسعار هذه البضاعة كان بشكل كبير في المدن الساحلية، منها مدن المغرب الأقصى، على غرار المناطق الداخلية لهذه البلاد، التي شهدت أسعاراً باهظة ارهقت الزبائن^(٦٩). ومن الواضح أن هذا الأمر لا ينطبق على

الباعة^(٧٠)، كما أنها لم تكن مجاورة لباقي الحوانيت الأخرى كمحلات الخبز والألبان^(٧١)، وهذه الأسواق ليست كسائر الأسواق التي قد نجد فيها سلع متنوعة، وإنما هي أسواق لا يباع فيها سوى السمك^(٧٢). ففي مدينة صفاقس التونسية أسواقاً يومية للأسماك كانت مكتظة بالتجار على الدوام، وكان يقصدها الكثير من تجار جزيرة قرقة المقابلة لهذه المدينة في البحر محملين بكميات كبيرة من سمك القرنيط^(٧٣).

يتحدث البكري عن سوق مدينة بنزرت التي كانت مقصداً للتجار الكبار من أصحاب الصفقات التجارية، حيث كانوا يعتقدون تلك الصفقات مع الصيادين من خلال توفير كميات معينة من أسماك البوري وفق متطلبات التجار المنصوص عليها شفاهة أو كتابة بين الطرفين^(٧٤). وفي مرسى الخرز بمدينة القالة أسواق موسمية مواكبة لمواسم صيد المرجان على حد ذكر الجغرافي المقدسي في قوله " وأسواق المرجان قرب مناطق صيده"^(٧٥)، وفي هذه الجهة الشرقية كانت مدينة جيجل تشهد فائضاً من صيد الأسماك وذلك ما قد يجعلها سوقاً مهمة لتوافد التجار^(٧٦).

من الواضح أن هذه الأسواق كانت تمتد على طول الساحل، خاصة في المدن الكبرى، فأسواق مدينة فاس بيع فيها الكثير من أسماك البوري والشابل^(٧٧). وهناك في سبتة الساحلية المشهورة بصيد المرجان العديد من دكاكين أصحاب حرفة إعادة صناعة المرجان وتكوينه^(٧٨)، وحتى مدينة ترغمة القريبة من بادس المحيطية كانت مقصداً لتجار السمك المناطق الداخلية الذين كانوا يشترونه من هناك ويتاجرون به إلى مسافات بعيدة قد تصل إلى مائة وعشرون ميلاً في المناطق الداخلية^(٧٩).

ويخبرنا المقري بتواجد الكثير من الأسواق لهذا المنتج في عدة مدن أندلسية التي عرفت شوارعها وجود الكثير من حوانيت بيع الأسماك التي كان سوقها رائجاً^(٨٠)، ففي مدينة الجزيرة الخضراء القريبة من جبل طارق يوجد بها أهم المراكز التجارية التي كان يقصدها التجار على الدوام من مناطق شتى، هذا ما لمح إليه ابن الخطيب في قوله "والسمك كما جردت الصفائح إذا استبحر الكفاح وطريقة مسلك القافلة وببابه السوق

ومن مدن المغرب الأقصى التي صدرت الأسماك مدينة سبتة، إذ كان يرفع من موانئها الأصداف البحرية المستخرجة من ساحلها نحو بلاد الأندلس، كما صدرت هذه الأصداف إلى مناطق الجنوب^(٨٣)، واستوردت هذه المنطقة كذلك مرجان سبتة المنظوم وغير المنظوم، كغافنة وبلاد السودان الغربي^(٨٤). كما خرج من ميناء أزموور كميات مهمة من أسماك الشابل الذي كان يصاد بكثرة في مياهاها ومنها يحمل إلى بلاد الأندلس، وكان جزء من هذه الأسماك تصدر بعد تمليحها إلى مملكة البرتغال محملة في السفن^(٨٥).

خاتمة

- من خلال ما تم تقديمه في هذه الدراسة توصلت إلى مجموعة من النتائج يمكن عدها في النقاط التالية:
- انتشرت مخازن تصبير الاسماك بالقرب من مواقع الصيد وكذا في المدن الساحلية الكبرى التي استخدمت في هذه الصناعة عدة مواد للمحافظة على السمك أهمها الملح.
 - شكلت بعض الاسماك موردا هاما في صناعة الأدوية وعلاج الأمراض: الجذام، الصداع، الفروج، الكلب، الحصى والتسمم، وكذلك في إنتاج الزيوت والدهون من الحيتان الكبيرة التي تحمل كميات معتبرة من الشحوم.
 - استخرج من بعض الأسماك والأصداف البحرية مادة النسيج التي حولت وصنعت إلى ثياب فاخرة ونادرة خصصت للطبقة الحاكمة والثرية، وفي صناعة أنواع القلائد والخواتيم ذات أشكال ورسومات باهية من المرجان.
 - يرجع ازدهار تجارة الأسماك والمرجان إلى وفرة الانتاج وكثرة الاسواق وتنظيماتها واستقرار أسعارها ورواج تصديرها.

جميع المدن الداخلية لأن الأسعار تختلف بين المدينة والريف.

سجل التميمي في إحدى مشاهداته في هذه النواحي أنه هناك من دفع درهما^(٧٠) وبقيت له منها خروبة^(٧١) في شراء سمكة واحدة من الشابل^(٧٢)، وها هو ابن أبي زرع يذكر أن سعر هذا السمك قد وصل في سنة (٥٨٠/١١٨٢م)، بواحد قيراط^(٧٣) بمدينة فاس^(٧٤). ونقل لنا صاحب كتاب الاستبصار أثمان سمك البوري بشهادة أحد الثقات أنه تم بيع الكبير منه بثلاثة عشر درهما وكيل الرطل بدرهم ونصف في بعض المواضع من المغرب الأقصى^(٧٥)، أما في عهد الوزان فقد بيعت بأبخس الأثمان بهذه النواحي^(٧٦). وهناك رسالة من الاسكندرية من التاجر إسحاق ألافى بن سمحا النيسابوري إلى أبي العلاء صاعد جوزيف الدمشقي بالفسطاط وهي مؤرخة من سنة (٥٤٠/١١١٩م) يذكر فيها أسعار المرجان الصادر من المغرب والاندلس أن المنظوم منه يباع اليوم من في دار المكوس بمبلغ ١١ ونصف دينار وبيع بعضه حتى بثمانية دنانير بينما ما عندي من المرجان يساوي ٢٠ دينار وإلا لم يظل من المرجان شيء لا من بلاد المغرب ولا الأندلس^(٧٧).

٣/٢- المدن المصدرة للأسماك والمرجان

تميزت بعض المدن الساحلية في العصور الوسطى بتصديرها الأسماك والمرجان، فسواحل إفريقية خلال هذه الفترة صدرت المرجان الذي كان يحملونه التجار من موانئ مهدية إلى موانئ الإسكندرية وعدن والهند^(٧٨)، في هذا الخط التجاري كانت مدينة تونس تمول مصر بكميات من أسماك التونة المملحة، وفي المقابل كانت تونس تستورد منها الأصداف البحرية الصغيرة^(٧٩). وعرف الساحل الممتد على طول إفريقية في الفترة الوسيطية تمويل البلاد الأندلسية بأحد الأصناف القليلة في المنطقة تعرف بسمك القرب التي كثر صيدها في هذا الساحل^(٨٠)، واستوردت نفس المنطقة مرجان مرسى الخرز، حيث كان يتوافد تجار الأندلس في تحميله من المدينة^(٨١)، بل وصلت تجارته إلى مناطق بعيدة كالشام والهند^(٨٢).

الإحالات المرجعية:

- (١٦) ابن عسكرو أبو عبد الله وابن الخميس أبو بكر (عاشا في القرن الثامن للهجرة): **أعلام مالقة**. تح عبد الله المرابط الترغني، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ١٩٩٢، ص ٧٥.
- (١٧) مجهول: المصدر السابق، ص ١٢٦. والحميري أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم (توفي في أواخر القرن التاسع الهجري): **الروض المعطار في أخبار الأقطار**، تح إحسان عباس، ط ٢، مكتبة لبنان، ١٩٩٤، ص ٣٨١.
- (١٨) مجهول: المصدر السابق، ص ١٢٦. والحميري: المصدر السابق، ص ٣٨١.
- (١٩) العمري أبي الفضل شهاب الدين (ت ١٣٤٩/٥٧٤٩م): **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تح سليمان الديوري، ط ١، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠١٠، ج ٤، ص ٧٩.
- (٢٠) نفس المصدر: المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٧.
- (٢١) الإدريسي أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله (ت ١١٦٦/٥٥٦): **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، (د ط)، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد - مصر، (د ت ن)، ص ٢٢٨.
- (٢٢) هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري، كان جده عبد الملك المعافري من العرب الفاتحين للأندلس مع طارق بن زياد، لقب بالحاجب لتوليته هذا المنصب في عهد الخليفة الأموي المؤيد بالله هشام بن الحكم، وقد بلغ عدد غزواته في حكمه واحد وخمسون غزوة. للمزيد انظر: الذهبي شمس الدين (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م)، **سير أعلام النبلاء**، تح شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، ط ١، مؤسسة الرسالة، سوريا، ١٩٨٣، ج ١٧، ص ١٦.
- (٢٣) المقرئ شهاب الدين (ت ١٦٣٢/٥١٤١م): **أزهار الرياض في أخبار عياض**، تح سعيد أحمد أعراب وعبد السلام الهراس، (د ط)، مطبعة فظالة المحمدية، الإمارات، ١٩٨٠، ج ٥، ص ١٢٩. وابن عذاري المراكشي (ت ١٢٩٥/٥٦٩٥م): **البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس**، تح ج.س. كولان وليفي بروفنسال، ط ٢، دار الثقافة، بيروت-لبنان، ١٩٦٧، ج ٢، ص ٢٩٧.
- (٢٤) العمري: المصدر السابق، ج ٢٢، ص ٢٠٠.
- (٢٥) الإدريسي: المصدر السابق، ص ١٦.
- (٢٦) المقدسي شمس الدين (ت ٣٧٨هـ/٩٨٨م): **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط ٢، دار صادر، بيروت-لبنان، ١٩٠٦، ص ٢٢٥. ومؤلف مجهول (ت. ٣٦٧هـ/٩٨٩م): **حدود العالم من المشرق إلى المغرب**، تح يوسف الهادي، ط ٢، دار الثقافة، القاهرة، مصر، ١٩٩٩، ص ١٠. والحميري: المصدر السابق، ٣٨٦.
- (٢٧) الحميري: المصدر السابق، ص ٥٣٨. وروبار برنشفيك: **تاريخ إفريقية في عهد الحفصيين من القرن ١٣ إلى القرن ١٥م**، ترجمة حمادي الساحلي، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ١٩٨٨، ج ١، ص ٣٣.
- (٢٨) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٥٢٩.
- (٢٩) ابن الفقيه الهمداني: **مختصر كتاب البلدان**، مطبعة بريل، مدينة ليدن المحروسة، (د ت ن)، ص ٨٩. والمقرئ: المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٢، ١٤٣.
- (٣٠) العمري: المصدر السابق، ص ١٦.

- (١) مجهول: **الاستبصار في عجائب الأمصار**، تح زغلول عبد الحميد، (د ط)، دار الشؤون العامة للنشر والتوزيع، بغداد - العراق، ١٩٨٦، ص ١٢٥.
- (٢) عبيد الله المهدي، هو المهدي بالله أبو محمد عبد الله بن الحسن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن جعفر الصادق، والمهدي هذا هو مؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، وهو أول أمراءها حكم ما بين (٣٢٢.٢٩٧/٥٣٢٢.٩٠٩م). انظر: ادريس عماد الدين (ت ٤٨٨/٥٨٧٢م): **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار**، تح محمد اليعلاوي، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت. لبنان، ١٩٨٥، ص ١٤٣.
- (٣) البكري أبو عبيد الله (ت ٤٨٧/٩٤٠م): **المسالك والممالك**، تح أدريان فان ليوفن وأندري فيري، (د ط)، دار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩٢، ج ٢، ص ٧٢.
- (٤) ابن زهر عبد الملك: كتاب التغذية، تح أكيراثيون غارثيا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية - معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد - إسبانيا، ١٩٩٢، ص ٥٧.
- (٥) القزويني زكريا بن محمد بن محمود: **أثار العباد وأخبار العباد**، (د ط)، دار صادر - بيروت، لبنان، (د س ن)، ص ٥٣.
- (٦) الوزان حسن بن محمد (عاش في القرن ١٦م): **وصف إفريقيا**، تر محمد حجي والأخضر محمد، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ١٩٨٣، ج ١، ص ٣٢٦.
- (٧) ابن أبي زرع (ت ٧٤١/١٣٤٠م): **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس**، (د ط)، دار الطباعة المدرسية، مدينة أوبسالة، ١٨٨٣، ص ١٨.
- (٨) الوزان: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٣.
- (٩) ابن سعيد المغربي (ت ٨٢٥/١٣٦٨م): **الجغرافيا**، تح إسماعيل العربي، ط ٢، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٢، ص ١١١.
- (١٠) المقرئ شهاب الدين (ت ١٦٣٢/٥١٤١م): **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، تح إحسان عباس، (د ط)، دار صادر، بيروت - لبنان، ١٩٨٩، ج ١، ص ١٦٨.
- (١١) الزهري أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٥٥٦/١١٦٠م): **كتاب الجغرافيا**، تح محمد الحاج صادق، (د ط)، مكتبة الثقافة الدينية، بوسعيد، مصر، (د س ن)، ص ١٢٠.
- (١٢) ابن الأخوة محمد ابن أحمد القرشي (ت ١٣٢٩/٥٧٢٩م): **معالم القرية في أحكام الحسبة**، تح محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى الطبعي، ط ١، مكتبة الإعلام الإسلامي للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، ١٩٦٧، ص ١٧٩.
- (١٣) ناجي جلول : **الرباطات البحرية بإفريقية في العصر الوسيط**، السلسلة التاريخية، تونس، ١٩٩٩، ع ٩، ص ١٧٧.
- (١٤) المالكي أبو بكر عبد الله بن محمد (ت ٤٨٤/٩١٠م): **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسأهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم**، تح بشير بكوش ومحمد العروسي المطوي، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ١٩٩٤، ج ٢، ص ٤٣٤.
- (١٥) قدوري طاهر: **السماك والتغذية بالغرب الإسلامي في العصر الوسيط**، مجلة العصور الجديدة، يصدرها مختبر البحث التاريخي، جامعة وهران، جويلية ١٤٣٤/٢٠١٤م، ع ١٠، ص ٥٧.

- (٥٨) الوزان: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٢.
- (٥٩) المقرئ: **نفح الطيب**، ج ١، ص ٢٢٦.
- (٦٠) ابن الخطيب لسان الدين (ت ٥٧٦٦/١٣٧٤م): **خطرة الطيف- رحلات في المغرب والأندلس (١٣٦٢-١٣٧٤م)**، تح أحمد المختار العبدى، ط ١، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٣، ص ١٠٠.
- (٦١) نفس المصدر، ص ٨٨.
- (٦٢) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٧٦.
- (٦٣) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٧٦.
- (٦٤) المالكي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٢.
- (٦٥) نفس المصدر، ج ٢، ص ٧٢١.
- (٦٦) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٣٩.
- (٦٧) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٢١٩.
- (٦٨) الوزان: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٢.
- (٦٩) نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٣٣.
- (٧٠) يبلغ وزن الدرهم ٤٩ غ وهو مقتبس من طرف الموحدين. انظر: بن مصطفى دريس: **الروابط الاقتصادية للمغرب الإسلامي مع دول الجنوب غرب أوروبا (ق ٧-١٣/١٦م)**، ط ١، النشر الجامعي الجديد، تلمسان-الجزائر، ٢٠١٧، ص ١٤١.
- (٧١) **خروبة**: هي قطعة نقدية صغيرة، قيمتها جزء من عشرين من الدينار كانت تضرب بمصر في العصر الفاطمي ولقد تفاوتت قيمتها واختلف معدنها زمانا ومكانا، والخروبة أيضا مكبال. انظر: محمد عمارة: **قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية**، ط ١، دار الشروق، بيروت-لبنان، ١٩٩٣، ص ١٩١.
- (٧٢) التميمي أبو عبد الله الفاسي (ت ١٢٠٣/٥٦٠ أو ١٢٠٧/٥٦٠ أو ١٢٠٨م): **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من بلاد**، تح محمد الشريف، ط ٢، منشورات كلية الآداب، الرباط-المغرب، ٢٠٠٢، ج ٢، ص ١٢٦.
- (٧٣) **قيراط**: يبلغ وزن القيراط ٧٥ غ، كان جزئين من القيراط يساوي درهما. انظر: بن مصطفى: المرجع السابق، ص ١٤١.
- (٧٤) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٢٢.
- (٧٥) مجهول: **الاستبصار**، ص ١٨٤.
- (٧٦) الوزان: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٨.
- (٧٧) مجهول: **التجارة في عهد بني زيري بإفريقية (٣٦٢-٩٧٢م)**، مذكرة الماجستير، المشرف مجهول، (د، جامعة)، (د، قسم)، ص ٥٣.
- (٧٨) نفس المرجع، ص ٣٥.
- (٧٩) جوا تيابن: **دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية**، تعريب وتحقيق عطية قومي، ط ٣، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠، ج ٣، ص ٢٤٠.
- (٨٠) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٣٩.
- (٨١) علاوة عمارة: **دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغلب الإسلامي**، د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية بن عكنون - الجزائر، ٢٠٠٨، ص ١٤٢.
- (٨٢) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٤٢٠.
- (٨٣) حسن علي حسن، المرجع السابق، ص ٢٨٠.
- (٨٤) نفس المرجع، ص ٢٨٢.
- (٨٥) كرفخال مرمول: **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي وآخرون، (د ط)، دار النشر المعرفة، الرباط-المغرب، ١٩٨٩، ج ٣، ص ٣٥.
- (٣١) ابن حوقل أبو القاسم محمد بن علي النصيبي (ت ٩٧٧/٥٣٦م): **صورة الأرض**، (دط)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، ١٩٩٠، ص ٧٩.
- (٣٢) ابن الأفكاني بن ساعد الأنصاري السنجاري (ت ٥٧٤٩/١٣٤٨م): **نخب الذخائر في أحوال الجواهر**، (دط)، دار صادر، بيروت - لبنان، ١٩٩٩، ص ٨٩.
- (٣٣) حسن علي حسن: **الحضارة الإسلامية في المغرب الإسلامي عصر المرابطين والموحدين**، ط ١، مكتبة الغانجي للنشر والتوزيع، قطر، ١٩٨٠، ص ٢٨٠.
- (٣٤) الزجال أبو يحيى عبيد الله بن أحمد القرطبي (ت ١٢٩٧/٥٦٩م): **أمثال العوام في الأندلس**، تح محمد ين شريفة، (دط)، مطبعة محمد الخامس، فاس-المغرب، ١٩٧٥، ج ١، ص ١٣٨.
- (٣٥) قدوري: المرجع السابق، ص ٥٥.
- (٣٦) البكري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٨٣. والحميري: المصدر السابق، ص ٥٢. والعمري: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٠١.
- (٣٧) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٨.
- (٣٨) قدوري: المرجع السابق، ص ٥٥.
- (٣٩) العمري: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٧.
- (٤٠) ابن سهل الطبري (ت ٨٦٣/٥٢٦م): **فردوس الحكمة في الطب**، تح محمد زبير الصديقي، (دط)، مطبعة أفتاب، برلين-ألمانيا، ١٩٢٨، ص ١٣٩.
- (٤١) العمري: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٥.
- (٤٢) نواره شرقي: **الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين (٥٢٤-١١٦٦-١٢٦٨م)**، مذكرة ماجستير، إشراف عبد العزيز محمود لعرج، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية (٧٠٠-٢٠٠٨)، ١٤٢٨/٢٠٠٨، ص ١٥٧.
- (٤٣) نفس المرجع، ص ١٥٢.
- (٤٤) قدوري: المرجع السابق، ص ١٥٢.
- (٤٥) شرقي: المرجع السابق، ص ١٥٧.
- (٤٦) ابن لب الغرناطي (ت ٥٧٨٢/١٣٨١): **تحفة الألباب ونخبة الأعاجيب**، تح إسماعيل العربي، ط ١، دار الأفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٣، ص ١٨٢.
- (٤٧) مجهول: المصدر السابق، ص ١٨. والحميري: المصدر السابق، ص ٦٠٦.
- (٤٨) الوزان: المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٤.
- (٤٩) ليفي بروفنسال: **ثلاثة رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة-مصر، ١٩٥٥، ص ٨٨.
- (٥٠) نفس المصدر، ص ٩٠.
- (٥١) نفس المصدر، ص ٩٢.
- (٥٢) مقديش محمود: **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، تح علي الزواوي ومحمد محفوظ، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ١٩٨٠، ج ١، ص ١٤٠.
- (٥٣) البكري: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٢.
- (٥٤) المقدسي شمس الدين (ت ٩٨٨/٥٣٧م): **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط ٢، دار صادر، بيروت-لبنان، ١٩٠٦، ص ٢٣٩.
- (٥٥) الحميري: المصدر السابق، ص ١٨٤.
- (٥٦) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٨.
- (٥٧) الإدريسي: المصدر السابق، ص ١٨٤.

الألعاب الذهنية في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط لعبة الشطرنج أنموذجاً

د. مهدية مستقري

باحثة في التاريخ الاجتماعي للمغرب الوسيط
دكتواره في الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله – المملكة المغربية



ملخص

تعتبر لعبة الشطرنج من الألعاب التقليدية التي مارسها الإنسان منذ فترات قديمة، وطورها حتى أصبحت من الألعاب التي تُعقد لها منافسات في كثير من بقاع الأرض، يشارك فيها الكثير من اللاعبين من مختلف الثقافات والحضارات. وعلى الرغم من اعتبار لعبة الشطرنج من الألعاب الترفيهية، إلا أنها تعد أيضاً من الألعاب التي تنمي قدرة الإنسان وتجعله يكتسب العديد من المزايا المعرفية والتنموية، كما تنمي لديه الصبر والتركيز. وقد أصبحت لعبة الشطرنج في الوقت الراهن جزءاً من الحياة الثقافية والرياضية لجمهور واسع ومنتشر في جميع أنحاء العالم. وبالرجوع إلى الفترة الوسيطة، زمن الدراسة، نجد أن لعبة الشطرنج كانت في أغلب الأحيان ترتبط بالاستراتيجيات العسكرية، حيث تُعد أنموذجاً مصغراً للحروب. أخذ منها اللاعبون كيفية التعامل مع المواقف الصعبة، واتخاذ القرارات الصائبة، وتنظيم التكتيكات المناسبة أثناء الحروب والمعارك لتحقيق الانتصارات المنشودة. وبالتالي فهي لعبة ذهنية تعتمد على الذكاء والفطنة، كما تهدف إلى تنشيط العقل وتطوير المهارات الفكرية مثل التركيز والتحليل والتخطيط، وإيجاد الحلول المناسبة للمشاكل. الأمر الذي أدى إلى أن تصبح من الألعاب التي حظيت بمكانة مرموقة داخل المجتمعات الوسيطة، حيث مارسها السلاطين والأمراء والكتّاب وأعيان القوم، وكانت علامة على الذكاء والفطنة التي تفاخر بها لاعبوها في الكثير من المجتمعات والحضارات.

كلمات مفتاحية:

تاريخ العصور الوسطى؛ الألعاب الذهنية؛ بلاد الغرب الإسلامي؛ الشطرنج

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٦ نوفمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٢٥ يناير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.337034.1184

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

مهدية مستقري، "الألعاب الذهنية في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط: لعبة الشطرنج أنموذجاً"، دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة- العدد التاسع والستون، يونيو ٢٠٢٥، ص ٧٧ – ٨٩.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: mahdiamastagri@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان 4.0 تحت شروط الترخيص المشاعية (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

تعتبر لعبة الشطرنج من الألعاب التقليدية التي مارسها الإنسان منذ فترات قديمة، وطورها حتى أصبحت من الألعاب التي تُعقد لها منافسات في كثير من بقاع الأرض، يشارك فيها الكثير من اللاعبين من مختلف الثقافات والحضارات. وعلى الرغم من اعتبار لعبة الشطرنج من الألعاب الترفيهية، إلا أنها تُعدّ أيضاً من الألعاب التي تنمي قدرة الإنسان وتجعله يكتسب العديد من المزايا المعرفية والتنموية، كما تنمي لديه الصبر والتركيز. وقد أصبحت لعبة الشطرنج في الوقت الراهن جزءاً من الحياة الثقافية والرياضية لجمهور واسع ومنتشر في جميع أنحاء العالم.

وبالرجوع إلى الفترة الوسيطة، زمن الدراسة، نجد أن لعبة الشطرنج كانت في أغلب الأحيان ترتبط بالاستراتيجيات العسكرية، حيث تُعدّ نموذجاً مصغراً للحروب. أخذ منها اللاعبون كيفية التعامل مع المواقف الصعبة، واتخاذ القرارات الصائبة، وتنظيم التكتيكات المناسبة أثناء الحروب والمعارك لتحقيق الانتصارات المنشودة. وبالتالي فهي لعبة ذهنية تعتمد على الذكاء والفتنة، كما تهدف إلى تنشيط العقل وتطوير المهارات الفكرية مثل التركيز والتحليل والتخطيط، وإيجاد الحلول المناسبة للمشاكل. الأمر الذي أدى إلى أن تصبح من الألعاب التي حظيت بمكانة مرموقة داخل المجتمعات الوسيطة، حيث مارسها السلاطين والأمراء والكتّاب وأعيان القوم، وكانت علامة على الذكاء والفتنة التي تفاخر بها لاعبوها في الكثير من المجتمعات والحضارات^(١).

وفي هذا السياق سنحاول دراسة الشطرنج باعتباره لعبة من الألعاب الذهنية التي سادت في أوساط المجتمعات الوسيطة بالمغرب والأندلس، إلى جانب ألعاب ذهنية مشابهة من قبيل "فريسيا" و"تيداس" اللتين نطمح أن نجد عنهما معلومات وافية تمكننا من دراستهما دراسة مستقلة، لذلك وددنا في مقدمة هذا المقال إطلاع القارئ على هاتين اللعبتين من خلال ما توفر لدينا من معلومات، أملاً منا أن تحظى بدراسات منفردة مستقبلاً.

فيما يخص لعبة "فريسيا" فهي شبيهة بلعبة الشطرنج، عرفت الأندلس خلال القرنين (٤-١٠هـ/١٠-١١م) باسم "فريسيا"، كما كان يطلق عليها أيضاً "ملكة اللعب"، محرفة عن الكلمة اليونانية "Pettentis"، وكانت تلعب على لوحة يقسمها خمسة خطوط في اتجاهين، ثم تجزأ إلى ٣٦ مربعا^(٢). جاء ذكر لعبة "فريسيا" في ثانيا كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب، عندما ترجم صاحبه لأبي عبد الله محمد بن أبي سعيد بن شرف الجُدّامي (ت ٤٦٠هـ/١٠٦٨م) وذكر مؤلفاته ومنها: رسالته في اللعب باللعبة التي تسمى "فريسيا"، وهي من غرائب الدهر، عند الخاصة والجمهور^(٣). إنها من الألعاب التي كان يمارسها الخاصة والعامة من المجتمع الأندلسي، غير أنه من الواضح أن اللوحة التي كان يلعب بها الخاصة كانت مصنوعة بإتقان ومن أجود أنواع الخشب، على عكس العامة التي تستعمل الخشب العادي، كما لا يستبعد أنها كانت أيضاً ترسم على الأرض^(٤).

أما ببلاد المغرب فنجد ألعاباً شبيهة بالشطرنج^(٥)، لعبة "تيداس" الأمازيغية التي تعني الوقفة والمواجهة الحربية، مشتقة من كلمة "تيدّي" التي تعني الوقفة والموقف، وقد سادت ببلاد المغرب منذ القديم، لكنها أصبحت حالياً تقتصر على بعض المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من المغرب، وحسب روايات شفوية لسكان هذه المناطق فإن "تيداس" تحيل على أرض للمعركة، لاعبا هو القائد، والبياذق جنود، يتوجب عليهم أن يقاتلوا دائماً على شكل صفوف وليس بشكل متفرق في الميدان، معتمدين في لعبهم على الذكاء والخبرة والمكيدة لتحقيق الانتصار بأقل عدد من الجنود. وهذا ما يجسده شكل لعبة "تيداس" التي تتكون من مربع في الوسط، ومن ستة عشر شكلاً شبه منحرف، تلعب باثني عشر بيدقاً لكل لاعب، توضع واحداً واحداً بالتناوب بين اللاعبين، والبياذق لا يكون إلا على الزاوية، وينتقل في جميع الجهات عبر خط مستقيم من زاوية إلى أخرى تليها، وبالتالي كلما تكون صف من ثلاثة بياذق إلا ويؤخذ بياذق واحد للخصم^(٦).

وذهبت طائفة من اللغويين على أن مصطلح شطرنج تم تعريبه عن الفارسية، ثم حاولوا تفسيره في اللغة الأصلية، فقال بعضهم هو معرب صدرتك بمعنى مائة حيلة، وقصدوا بذلك التكاثر لا الحصر في عدد المائة. وقال البعض الآخر: هو معرب شدرتك ومعناه ذهب الغناء باطلاً^(١٢). وانطلاقاً من هذه التعريفات دخلت مجموعة من المفردات المتعلقة بالشطرنج إلى معاجم اللغة، إذ استعمل الشطرنجيون ستين ٦٠ كلمة لتسمية أدوات الشطرنج والتعبير عن أوضاعه ومصطلحاته^(١٣).

أما تعريف الشطرنج اصطلاحاً فهو رياضة ذهنية وثقافية، تنمي القدرات العقلية وتدريب على الصبر والمثابرة والتخطيط الجيد. ثم إن مباراة الشطرنج هي منافسة بين شخصين متقابلين على رقعة بها ٦٤ مربعا، ذات لونين مختلفين، أحدهما لون فاتح أبيض والآخر أسود^(١٤). ولكل لاعب مجموعة من القطع تتمثل في الشاه، أو الملك والفرزان، أو الملكة والأسقفين، أو الفيلين والحصانين أو الإسبرنجين ثم الرخين أو القلعتين ويتقدم هذه القطع ثمانية بياذق أو جنود^(١٥).

نشير أيضاً إلى الارتباط الوطيد بين لعبة الشطرنج والحرب باعتبار هذه اللعبة تجسيدا تمثياليا لساحة المعركة، وبالتالي فلعبة الشطرنج يدرّب على تعلم مكائد الحروب وأخذ الحيطة والحذر المسبقة لشكل ساحة المعركة وتموقع الجنود، وهذا ما أكدّه الشاعر أبو زيد بن العمّة عند حديثه عن الشطرنج منشداً:

هَلَمْ إِلَى تَدْبِيرِ جَيْشَيْنِ جُمُعَا
رَخْـاُ وَأَفْيَالٌ وَجَرْدٌ سَوَابِجُ
تَكْبُرْنَ عَنْ حَمَلِ السَّلَاحِ إِلَى الْوَعَى
فَأَرْمَاحُهَا أَلْبَابُنَا وَالْقَرَائِحُ^(١٦)

واعتبرت لعبة الشطرنج من الألعاب الذهنية التي تهافتت على ممارستها فئة الخاصة، ليس للمتعة والتسلية فقط، بل لتعلم مكائد الحروب وخططها والاستعداد المحكم لمواجهة العدو.

ووردت الإشارة إلى لعبة "تيداس" في حديث ابن أبي زرع عن نسب بني مرين، فذكر عن ماخوخ الزناتي، جد المرينيين، أنه كان يلعبها باستمرار حيث "كان قد اتخذ في حلتة قباباً وخياماً مضروبة مفروشة بالقطف والوسائد، قد أعتدها لنزول الضيفان والوارد وأبناء السبيل، وكان يقعد مع أشياخ زناتة: مغراوة، وبني يفرن، وبني واسين، ونفوسة وغيرهم، يلعب بتداس بأقلام الفضة والذهب، فإذا فرغ من لعبه وأراد القيام أنهيها جلساءه"^(٧).

يتضح من المعطيات السابقة، أن لعبتي "فريسا" و"تيداس" كانتا من الألعاب الذهنية التي شاعت في أوساط سكان بلاد المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، استقينا ذلك من الإشارات القليلة التي زدتنا بها المادة المصدرية على الرغم من شحها كما سلف الذكر. وفي ظل سكوت المصادر وإغفالها لجوانب عديدة مرتبطة باللعبتين، وجهنا اهتمامنا للعبة الشطرنج.

أولاً: تعريف الشطرنج

تُعَدُّ لعبة الشطرنج من بين أكثر الألعاب الذهنية شهرة وانتشاراً، حيث كان يقاس بها تقدم البلدان والحضارات عبر الزمن؛ وكان لهذه اللعبة شأن منذ القدم، جعلت العديد من الشعوب تدعي أنها من اختراعتها. تعتمد لعبة الشطرنج كلياً على الفطنة والذكاء، فهي تثقف العقل وتقوي عزيمة لاعبيها، كما يزداد بها المرء حكمة وبصيرة، باعتبار أنها تدخل ضمن خانة اللعب الجاد^(٨).

وعرف ابن منظور الشطرنج بأنه "الشَطْرَجُ والشَطْرَنج: فارسي معرب، وكسر الشين فيه أجود ليكون من باب جَرْدَحْل"^(٩)؛ بمعنى الضخم من الإبل^(١٠). علاوة على ذلك، هناك من عرف الشطرنج أنه مأخوذ من المشاطرة (المقاسمة)؛ لأن كلا من الطرفين له شطرما، يستحقه من اللعب وهو النصيب، وإذا جاء بالسين المهملة: (سطنرج) يعني أنه مأخوذ من التسطير أو التظلم عند تعبئة الرقعة. والحاصل أن لفظة الشطرنج لها معنيان، إما مأخوذة من المشاطرة، إذا كانت بالشين المعجمة أو من التسطير عند تعبئة الرقعة إذا كانت بالمهملة، والمشهور المعنى الأول^(١١).

ثانيًا: أصل لعبة الشطرنج

من المفيد أن نشير، قبل الاستطرداد في تناول أصل لعبة الشطرنج، أن هناك ألعاب مشابهة لها عرفتها بعض الحضارات العريقة، مثل لعبة "السنت" ومعناها "العبور"، وهي لعبة تجمع بين لاعبين، شاعت بين الأمراء في حضارة مصر القديمة؛ وقيل إن رمسيس الثالث وتوت عنخ آمون كانا يلعبانها باستمرار^(١٧).

واختلف شكل رقعة السنت على مر العصور غير أن الأكثر انتشاراً تلك المتكونة من ثلاثين مربعا، مقسمة إلى ثلاثة صفوف في كل صف عشرة مربعات. وكان هذا اللوح المستطيل يوضع على مائدة منخفضة أو صندوق مستطيل، به مكان لحفظ قطع اللعب^(١٨). إلى جانب لعبة "السنت" المصرية، هناك لعبة "جو" "Go" التي عمت في الحضارة الصينية القديمة، وظلت تعتمد من قبل القادة الكبار في الاستراتيجيات الحربية لقرون عديدة، وهي إحدى ألعاب الطاولة المرتبطة بالتخطيطات العسكرية^(١٩). رقعتها أكبر من رقعة الشطرنج تستخدم فيها أحجار بيضاء وسوداء، يختار كل منافس حجر بلون معين، يتم وضعه بالتتابع على التقاطعات بهدف محاصرة وعزل أكبر عدد من أحجار الخصم^(٢٠).

يُستشف مما سبق أن الشطرنج شُبه للناس بألعاب ظهرت قديما، حيث كانت تحاكيه بشكل من الأشكال أو تقاربه في صفة من الصفات، مما جعل بعض أمم الحضارة القديمة تدعيه بِشبه ما بينه وبين ألعابها التاريخية من تماثل أو قرابة^(٢١). وقد اختلفت الروايات عن أصل الشطرنج، فمنهم من قال إن أصله هندي، وهناك أدلة على هذا:

أولها: أن لفظ شطرنج من اللغة السنسكريتية العريقة، إضافة إلى أن رقعة الشطرنج تشبه إلى حد كبير الجيش الهندي في عدده ونظامه قديما.

ثانيها: ورود كلمة الشطرنج كثيرا في الثقافة الشعبية الهندية القديمة^(٢٢).

ثالثها: الحكاية الطريفة التي شاعت عن سبب وضع الشطرنج، فقد روي أن أحد ملوك الهند العظماء كان له ابن اسمه شاه، أخرجته في يوم من الأيام لمعركة فقتل فيها، فخاف الناس من إخبار ملكهم بموت ابنه، فوضع

له حكيمة "صصه" بن داهر الهندي" الشطرنج ليشرح له مكاييد الحروب، بين فيها التدبير والحزم والاحتياط والمكيدة والاحتباس، وبعد أن تم صنعها أمر الحكيم أن تلعب أمام الملك، فلما لعبوا بها قال الغالب للمغلوب: شاه مات، فهم الملك المقصود وأمر أن يعزى بولده^(٢٣).

رابعها: ورد في إحدى الروايات أن الحكيم "صصه" بن داهر الهندي" لما رأى أن ملك زمانه، على الرغم من كونه مستعداً للخير والعدل في الرعية، كان يحب اللهو واللعب، وبما أن الملوك آنذاك كان يثقل عليهم سماع النصيح والإرشاد، دبر هذا الحكيم حيلة في إيصال الموعظة إلى الملك في صورة اللعب باختراع الشطرنج، الذي مبناه على أن بقاء الملك ببقاء الرعية، ولما اخترعه وعلم الملك به استقدمه ليعلمه اللعب به، فكان يلعبه ويشرح له في ضروب اللعب مما يمثل له حالته، وما يتوقع من أخطارها، فتحسن الأحوال نتيجة لهذا العمل^(٢٤)، واهتدى الملك الشاب وعاد بعد الغي إلى الصواب^(٢٥).

وعلى الرغم من اختلاف المصادر في إثبات الموطن الأصلي للشطرنج، إلا أن جل الروايات التي أفصحت عن أصولها التاريخية ترجح أنه من عمل بلاد الهند، فإن ذلك لا يمكن أن يحجب عنا ذيوع لعب الشطرنج عند العرب في العصر الوسيط، فالثابت أنهم أخذوه عن الفرس وتداولوه حتى صار جزءا من تراث البشرية الفني والعلمي في العالم الإسلامي^(٢٦).

وينبغي الإشارة في هذا الصدد، إلى أن شغف العرب بالشطرنج، أدى بهم إلى تطويره. كما تعدى بهم الأمر إلى نقله للقارة الأوروبية عن طريق الأندلس وإيطاليا وبلاد الشام، إبان الحروب الصليبية، وبالتالي علا شأنه داخل المجتمعات الأوروبية وعُد من جملة الأشياء الجميلة التي أخذها أهل أوروبا عن ثقافة العرب وحضارتهم^(٢٧).

وتحتفظ المصادر العربية بالعديد من أسماء الشطرنجيين المسلمين الذين عرفوا ببراعتهم وجودة لعبهم، نقصر على ذكر نماذج منهم، ومن أشهرهم: أبو بكر محمد الصولي (ت ٩٣٠/٩٤١م)، الذي عرف بأنه أوحده عصره في لعب الشطرنج، مما حدا ببعض الناس إلى القول بشكل مبالغ فيه في حسن لعبه: فلان يلعب الشطرنج مثل الصولي. وكثير منهم ذهب إلى القول إنه

ثالثاً: موقف الفقهاء من الشطرنج

أثار الشطرنج خلافاً كبيراً بين الفقهاء في حكمه بين الإباحة والتحريم. وفي هذا الصدد أخبرنا عبيد الله بن عمر قال: "سئل ابن عمر عن الشطرنج فقال: هي شر من النرد"^(٣٥). وفي حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أن من لعب بالنرد والشطرنج والجوز والكعب مقته الله، ومن جلس إلى من يلعب بالنرد والشطرنج لينظر إليهم مُحيت عنه حسناته كلها وصار ممن مقته الله"^(٣٦). وحجة الفقهاء في تحريم لعب الشطرنج كونه ينسي ذكر الله، حتى قيل إن كثيراً من لاعبي الشطرنج يغفلون عن أداء الصلاة في أوقاتها، لأن الشطرنج من الألعاب التي تستغرق وقتاً كثيراً، وأحياناً يحلف اللاعبون كذباً وبهتاناً بقولهم مات شاه"^(٣٧). وقد روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "صاحب الشطرنج أكثر الناس كذباً، يقول أحدهم قتل وما قتل، ومات، وما مات"^(٣٨).

روي عن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما سأل عن الشطرنج قال: "وما الشطرنج؟ قليل له: إن امرأة كان لها ابن وكان ملكاً فأصيب في حرب دون أصحابه؛ فقالت: كيف يكون هذا، أروني عياناً؛ فعمل لها الشطرنج، فلما رآته تسلت بذلك، ووصفوا الشطرنج لعمر رضي الله عنه"^(٣٩). ويبدو أن المسلمين ولعلوا بلعبة الشطرنج، ويظهر ذلك في كون الحجاج في طريقهم للحج كانوا يجلسون فوق شقاديذ"^(٤٠) واسعة وصلبة توضع على الجمال وعليها مظلة، حتى يتمكن شخصان أن يلعبا الشطرنج"^(٤١).

وقد ذكر بعض المفسرين أن الآية الكريمة (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢))،^(٤٢) جاءت في إطار الحديث عن النبي إبراهيم عليه السلام، حيث ذهبوا أنها مرتبطة بلعبة الشطرنج التي عكف عليها الأولون. ويذهب ابن كثير فيما رواه عن الحسن بن محمد الصباح، عن أبي معاوية الضرير، عن سعيد بن طريف، عن الأصمعي بن نباتة، قال: "مر علي على قوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها

هو من وضع الشطرنج"^(٤٣). وكان الصولي من الحذاق البارعين الذين أبهروا الخليفة العباسي المكتفي (ت ٩٠٨/٥٢٩٥م) أثناء لعبه الشطرنج معه"^(٤٤). وقد وصف المسعودي هذه الواقعة الشطرنجية فقال: "وذكر أن الصولي في بدء دخوله إلى المكتفي، وقد كان ذكر له بجودة لعبة الشطرنج"^(٤٥).

وأما الماوردي (ت ١٠٥٨/٤٥٠م) فقد كان اللعب عنده مقدماً، متمكناً من قلبه معجباً بلعبه، فلعب بحضرة المكتفي، فحمل المكتفي حسن رأيه في الماوردي، وتقدم الحرمة والألفة على نصرته وتشجيعه حتى أدهش ذلك الصولي في أول وهلة، فلما اتصل اللعب بينهما وجمع له الصولي غايته وقصد قصده، غلبه غلباً لا يكاد يرد عليه شيئاً، وتبين حسن لعبه للمكتفي، فعدل عن هواه ونصره للماوردي، وقال له: "صار ماء وردك بولاً"^(٤٦).

اهتم الخليفة العباسي المهدي بالشطرنجي أبو حفص عمر بن العزيز (ت. حوالي ٨٢٥/٥٢١٠م)، وكان شاعراً وشطرنجياً متفوقاً، يحسن الشطرنج وشغوا بلعبها"^(٤٧). وكان الخليفة هارون الرشيد لاعباً ماهراً، فهو أول من لعب الشطرنج من خلفاء بني العباس، كان مولعاً به أشد الولع، وممن يحسن لعبه ويتقنه غاية الإتقان. وقد انتشرت لعبة الشطرنج بفضل اهتمامه به، وبلغ من شغف الرشيد به حتى أنه لعبه أثناء رحلاته، فقد روى المسعودي في مروج الذهب أن إبراهيم بن المهدي كان يرافق ابن أخيه هارون الرشيد في رحلاته، فقال: "كنت أنا والرشيد على ظهر حراقة وهو يرد نحو الموصل والمدادون يمدون، والشطرنج بين أيدينا"^(٤٨).

وترى أبناء هارون الرشيد أيضاً على حب لعبة الشطرنج فكان المأمون يحبها حباً شديداً، ويقول: "هذا يشحن الذهن، واقترح فيها أشياء، وكان يقول: لا أسمع أحداً يقول: تعال حتى نلعب، ولكن يقول: نتداول، أو نتناقل، ولم يكن حاذقاً بها. وكان يقول: أنا أدبر الدنيا فأتسع لذلك، وأضيق عن تدبير شبرين في شبرين"^(٤٩).

وعلى العموم، كان لابد من إدراج هذه النماذج ضمن محور أصل الشطرنج لإثبات تجذر أصول الشطرنج عند العرب المسلمين، وتبين ما شهدته هذه اللعبة من تطورات، وهو ما يعتبر دليلاً على انتقال الشطرنج إلى أوروبا عن طريق العرب.

وأدائها في وقتها، خاصة صلاة الجمعة، وأضاف إليها ملازمة الغناء وسماعه بشكل يخرج عن المعهود، ويبدو ذلك في قوله: "وتسقط الشهادة بالإدمان على الشطرنج، والنرد، وبلاشتغال به عن صلاة واحدة حتى يخرج وقتها، وترك صلاة الجمعة ثلاث مرات من غير عذر، وقيل: بتركها مرة واحدة. وتسقط أيضاً بفعل ما يسقط المروءة وإن كان مباحاً؛ كالأكل في الطرقات، والمشي حافياً، أو عرياناً، وملازمة الغناء، وملازمة سماعه" (٥٠).

ولم يخرج ابن جزي عن إجماع الفقهاء في تحريم لعبة النرد، في حين كان الموقف عن لعبة الشطرنج يسير في اتجاهين الأول التحريم إن كان بهدف القمار، أما الثاني فالكراهة إن كان دون ذلك حسب الشافعي، يقول: "مسألة: النرد حرام بإجماع، وأما الشطرنج: فإن كان بقمار: فهو حرام بإجماع. وإن كان دونه: فمكروه، وفقاً للشافعي. وقيل: حرام وفقاً لأبي حنيفة، وقيل: يحرم إن أدمن عليه، أو شغله عن أوقات الصلاة أو غيرها من أمور الدين، أو فعل على وجه يقدر في المروءة؛ كلعبة مع الأوباش" (٥١) أو على الطريق، بخلاف ما سوى ذلك" (٥٢).

إن التدقيق فيما تضمنته كتب الفقه عن موضوع الألعاب بصفة عامة ولعبة الشطرنج بصفة خاصة، يظهر أن أغليبيته، إن لم نقل جله، محصوراً في زاية موقف القرآن والسنة، مع إغفال جانب العقوبات التي تتفد على من كان يلعب ألعاباً لا تتوافق مع الشرع. والغالب على الظن أن اتخاذ مواقف واضحة في هذا الجانب كان يُعد مجازفة كبيرة، لاسيما أن بعض الألعاب كانت مفضلة لدى فئة الخاصة.

رابعاً: لعبة الشطرنج في الأندلس

قبل الحديث عن لعبة الشطرنج بالأندلس خلال العصر الوسيط، لابد لنا من التنبيه إلى أن المادة المصدرية المتاحة لم تمكننا من الإلمام بكافة النواحي المقترنة بها بشكل مستفيض؛ خاصة ما يتعلق بتاريخ وكيفية دخول الشطرنج إلى الأندلس، غير ما ورد عرضاً في بعض المصادر التي ترجمت لبعض الشخصيات المرموقة في الأندلس، وأشارت إلى ولعهم بلعبة الشطرنج، أو بعض الأحداث التاريخية التي كان لحضور اللعبة دور فيها.

عَاكُفُونَ؟ لَأَنَّ يَمَسَّ أَحَدُكُمْ جَمْرًا حَتَّى يُطْفَأَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّهَا" (٤٣).

ونظراً لما تسببه مثل هذه الألعاب من تضییع للوقت بدون فائدة، وما ينتج عنها من غفلة عن الأعمال الصالحة، قال الشافعي: "ولا أحب اللعب بالشطرنج، وأكره كل ما يلعب به الناس؛ لأن اللعب ليس من صنعة أهل الدين ولا المروءة" (٤٤). كما أن بعض الفقهاء مثل أبي يوسف مال إلى كراهة التسليم على من يلعبون الشطرنج تحقيراً لهم وحثاً لهم على تركه (٤٥)، كما ذكر أيضاً أن اللاعبين بالشطرنج كانت ترد شهادتهم (٤٦).

وأمام مفارقة تحريم هذه الأحاديث للعب الشطرنج، ووعي الفقهاء بأهميته الفكرية والذهنية، وكون تحريمه ينطلق من آثاره، أباحه الكثير منهم، لكن بشروط معينة وجب على اللاعبين التقيد بها كعدم تأخير الصلاة عن وقتها، وألا يُلعب قماراً، وأن يحفظ اللاعب لسانه عن قول الكلام الفاحش والردى أثناء لعبه (٤٧). وذهب بعضهم إلى إباحة لعب الشطرنج لما تقدمه لهم من مساعدات في تعلم تدبير الحرب ومكائدها (٤٨).

يتضح من ذلك أن موقف الفقهاء من لعب الشطرنج اتخذ أشكالاً مختلفة من لاعبيه؛ تأرجحت بين التحريم تارة وبين الإباحة تارة أخرى، مع الحرص على احترام شروط اللعب وأوقاته. وبالعودة إلى المصادر الفقهية الوسيطية بالمغرب والأندلس وقفنا على إشارات تهم موقف الشرع من لعب الشطرنج، حيث لم يفت البرزلي أن يربط العلاقة بين لعب الشطرنج وأداء الشهادة، وذلك من خلال وضعه في مصاف الأمور الملهية المدمن عليها، فحسب رأيه أنه "من ثبت عليه أن الشطرنج ألهاه على صلاة واحدة حتى خرج وقتها؛ كصلاة النهار بغروب الشمس وصلاة الليل بطلوع الفجر والصبح بطلوع الشمس، لم تُقبل شهادته حتى يتوب [...]، وأما مطلق اللعب بها ففي المدونة إذا أدمن لعبها لم تجز شهادته، وفيها تفصيل وخلاف يُنظر في الأمهات" (٤٩).

وكان لبعض الفقهاء الأندلسيين أمثال ابن جزي الكلبي (ت. ٧٤١هـ/١٣٤٠م)، فتاوى تخص الألعاب الأكثر ممارسة في البيئة الأندلسية، وهذا ما دفعهم إلى إصدار بعض الأحكام مثل إسقاط الشهادة عن مدمني الشطرنج والنرد، لأنهما يؤديان إلى الانشغال عن الصلاة

إلى جانب هذا وظفت بعض الأشعار أسماء قطع الشطرنج لضرب المثل لمن كان وضيعا وارتفع^(٥٧)، أنموذج شعر أبي عبد الله محمد بن شرف (ت. ٤٦٠هـ/١٠٦٧م) متلفظاً:

يَقُولُونَ سَادَ الْأَزْدَلُونَ بِأَرْضِنَا
وَصَارَ لَهُمْ مَالٌ وَخَيْلٌ سَوَابِقُ
فَقُلْتُ لَهُمْ وَلَى الزَّمَانُ وَلَمْ تَزَلْ
تُفَرِّزْنِي فِي أُخْرَى الدُّسُوتِ^(٥٨) الْبَيَادِقِ^(٥٩)

وبالمثل، وردت بعض الأشعار تهجو الشخصيات التي أغفلت الوقت وتشاغلت بلعب الشطرنج؛ مثل أحمد بن عباس بن أبي زكريا (ت. ٤٢٧هـ/١٠٣٥م)^(٦٠)، حتى صار يردد شعرا صيره أوقات لعبه بالشطرنج:

"عيون الحوادث عني نيامٌ
وهَضُمِي على الدهر شيء حَرَامٌ"^(٦١)

ولم تَشُدَّ الأمثال الشعبية عن الآراء السابقة، فعبرت عن ذهنية المجتمع الأندلسي، حيث ذمت لعب الشطرنج ووصفت لاعبيه بالشؤم، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: "أقل النحس: أين تمشي؟ قال: لشطرنجي أنْ موركُ"^(٦٢)!

ومن الواضح، أن موقف المجتمع الأندلسي من لعبة الشطرنج كان منافيا لفئة الخاصة، فقد اشتهرت شخصيات مرموقة بلعب الشطرنج أمثال محمد بن أحمد بن قطبة الدُّوسي^(٦٣)، ومحمد بن قاسم بن أبي بكر القرشي المالقي (ت ٧٥٧هـ/١٣٥٦م)^(٦٤)، والكاتب أبو جعفر أحمد بن عباس، والكاتب الحسن ابن عياش، والطبيب ابن زهر الحفيد، الذي لقب بالشطرنجي لولعه بلعبها، ف قيل إنه لم يكن بإشبيلية من يلعبها مثله^(٦٥)، والشاعر الوزير ابن عمار^(٦٦)، على الرغم من أن الشنتريني قال عنه "وليس له من ذلك كله إلا البراءة من الإحسان، والاستطالة بمكانه من السلطان، أبى الله إلا انهماكه في الشراب والشطرنج"^(٦٧). كما وصفت بعض الشخصيات بتعبيرات مجازية لإتقانها لعب الشطرنج، أنموذج الشاعر أبي الصلت الأندلسي حين قيل عنه كانت له "في الشطرنج يد بيضاء"^(٦٨).

وإذا كانت المصادر الأندلسية لا تمدنا بما يكفي من المعلومات عن تفاصيل دخول الشطرنج إلى الأندلس، فيلزمنا البحث بين ثنايا المصادر المشرقية، بحكم أن مؤسس الدولة الأموية هناك عبد الرحمن الداخل (١٣٨-١٧٦هـ/٧٥٦-٧٨٨م) ينتمي إلى المشرق، فقد عثرنا عن خبر امتلاكه لوحة شطرنج من ياقوت أحمر يعود إلى بلاد فارس، كانت لدى الوالي الأموي الحجاج بن يوسف الثقفي (٤١-٩٥هـ/٦٦١-٧١٤م)^(٥٣).

تطلعنا المصادر الأندلسية على القليل من النصوص التي تحوي إشارات ومعلومات عن وجود الشطرنج بالأندلس خلال العصر الوسيط، إذ ظهرت أصداؤها في الشعر الأندلسي في وقت مبكر في نظم للشاعر يحيى الغزال (ت ٢٥٠هـ/٨٦٤م)، يخاطب فيه ابن أخته إبراهيم الذي كان مولعا بالشطرنج ومعتادا عليه، على أنها لعبة لا تليق إلا بالملوك والأمراء فأنشد:

عَمَّنِي عَشْقُكَ لِلشَّطْرَنْجِ هَذَا يَا بَرَهِيمُ
عَمَلٌ فِي غَيْرِ بَرٍّ وَاخْتِلَافٌ وَلَزُومٌ
إِنَّمَا أَسْسَهَا وَيَحْكُ شَيْطَانٌ رَجِيمٌ
هَبْكَ فِيهَا أَلْعَبَ النَّاسُ فَمَاذَا يَا حَكِيمُ؟
لُعْبَةُ الشَّطْرَنْجِ شَوْمٌ فَاجْتَنِبْهَا يَا شَوْمُ
فَلْيَقُلْ مَا شَاءَ مَنْ شَاءَ فَقُولِي مُسْتَقِيمٌ^(٥٤)

يؤكد الشاعر الغزال من خلال هذه الأبيات أن الشطرنج لعبة استأثرت بها فئة الخاصة لا غير، لامتلاكهم الأموال والخيرات وتمتعهم بمغريات الحياة وأوقات الرفاه دون تعب وعناء، ولذا يحث العامة على الانصراف عنها وشغل أنفسهم بالسعي وراء متطلبات الحياة بالجد والعمل والابتعاد عن ذوي الشأن العظيم وتسلياتهم^(٥٥).

وبالمثل كانت أشعار ابن اللبانة (٥٠٧هـ/١١١٣م)، في رثاء المعتمد بن عباد ملك إشبيلية تشي بانتشار الشطرنج بالأندلس بين فئة الخاصة، جاء في محتواها:

والدهر في صبغة الحرياء منغمس
ألوان حالاته فيها استحالات
ونحن من لعب الشطرنج في يده
وربما قمرت بالبيدق الشاة^(٥٦)

تبرز إلى المقاتلة بلا سلاح، ويصرع بعضها بعضاً بلا جراح، قد اكتفت عن الصوارم بصرامتها، وعن السابغات بصلابتها:

جيشان يقتتلان لا لعداوة
أبدأً ويصطلحان لا لوداد
أهداهُ سَعْدُ الدولة النَّدْبُ الذي
جَمَعَتْ مَحَبَّتُهُ غُرَى الأكباد^(٧٠)

هذا الوصف الدقيق يبين دور اللعب في العلاقات بين الكيانات السياسية آنذاك، بل يعتبر كذلك من النصوص النادرة التي أشارت إلى شكل الشطرنج المنتشر بالأندلس في القرن (١١هـ/١١م)، وأيضاً طريقة تنظيمه وكيفية لعبه. ولعل التفاخر بامتلاك أبهى الشطرنجات قد ارتبط بالمكانة الاجتماعية للشخص، فكلما كانت مرموقة وميسورة إلا وكان غناها يرسم على لعبة الشطرنج.

وبعد سنوات اخترع الشاعر والأديب الأندلسي الحسين بن عتيق بن الحسين بن رشيق التغلبي (ت حوالي ٦٠٢هـ/١٢٠٦م)، سفره شطرنج مستطيلة الشكل^(٧١)، مما يعني أن خاصة بلاد الأندلس لم تهتم فقط بإتقان لعب الشطرنج، بل تجاوز الأمر إلى تطوير شكله وصناعته، وفي ذلك انعكاس للمكانة الاجتماعية التي حظي بها كل من امتلك هذه اللعبة. وهذا ما دفعنا للتساؤل عن الحرف المرتبطة باللعب والألعاب خلال العصر الوسيط، أملاً منا أن تجيبنا المصادر مستقبلاً: هل كان هناك حرفيون منتظمون ومختصون بإنجاز تصاميم لها علاقة باللعب؟ أم أن الأمر كان ينجز في مناسبات معينة من قبل حرفيين يزاولون حرف أخرى مثل النجارة والحدادة وغيرهما من الحرف؟

لا يخامرنا شك أن لعب الشطرنج كما ساهم في توطيد العلاقات بين الدول، سمح أيضاً في تعزيز الصلات بين العديد من الوزراء الذين كانوا يستغلون تفوقهم في لعب الشطرنج من أجل التقرب من الأمراء والملوك، للوصول إلى أهم المناصب في البلاد، كما وقع مع عيسى بن شهيد والوليد بن غانم وتمام ابن عامر الثقفي، الذين كانوا وزراء في عهد الأمير محمد بن عبد

وإذا كانت المصادر الأندلسية لا تمدنا بما يشفي الغليل من المعلومات عن لعبة الشطرنج بالأندلس، فإنها على الأقل تؤرخ لحدث تاريخي مهم كان لحضور لعبة الشطرنج دور كبير فيه، مكننا من معرفة مدى أهمية اللعبة في بلاد الأندلس ليس فقط باعتبارها وسيلة من وسائل الترفيه والتسلية، بل لكونها تتمتع بدور بارز في توطيد العلاقات الدبلوماسية بين البلدان، كما هو الشأن مع ابن عمار وزير الملك المعتمد بن عباد (ت ٤٨٨هـ/١٠٥٥م) حاكم إشبيلية، الذي نجح في رد حملة الملك الإسباني ألفونسو Alfonso (ت ٥٨٥هـ/١١٩٠م) على إشبيلية، مستغلاً حبه للعبة الشطرنج، فأمر بصنع رقعة شطرنج في غاية الإتقان والإبداع ليس لها مثل عند أحد من الملوك، فجعل قطعها من الأبنوس والعود الرطب، وزينها بالذهب، ولما لقي الملك ابن عمار سألته: كيف أنت في الشطرنج؟ وأين هي الرقعة التي صنعتها؟ فأخبره ابن عمار أنه يتقن لعبها جداً وأنه سوف يأتيه بالرقعة شريطة أن يلعبا معا عليها، وتصبح ملك لمن كانت له الغلبة، إضافة إلى طلب الغالب من المغلوب ما أرادته شريطة الوفاء بهذا الوعد أمام شهود، فقبل الملك شرط ابن عمار، فافتتحا يلعبان وكان هذا الأخير كما ذكرنا طبقة بالأندلس لا يقوم له أحد فيها فغلب الملك القشتالي، فحكم عليه بأن يرجع إلى بلاده^(٦٩).

وعلى الرغم من المبالغة الواضحة التي تضمنتها هذه الرواية، إلا أنه لا يمكن أن يغيب عن بالنا أن إدمان اللعبة والحماسة التي تتاب ممارسيها جعلتهم يقطعون وعودا دون وعيهم التام بحجم تبعياتها.

ولما علم ابن مجاهد العامري بولع ابن عمار بلعب الشطرنج أرسل له "شطرنجاً صغيراً كأن أقليدس قسم أجزاءه، ورقق أشكاله وأنحاءه، يحار لطيف صنعه الوهم، ويضل في كلفه الفهم، قد قسم قسمين: قسم أحمر، وقسم كأنه من ناصع الجوهر، تتقابل خيله بلا فرسان، وتتقاد بلا عنان، في أرض مربعة الأقطار، تثير سناكبها العثار، وكأن الرخ إذا برز للمصاع، وأشهر العرصه للقرع، بطل تتقى حملته، ولا تؤمن جوثته، يهوي هوي الصقر في الجو، ويصول صولة الأسد في الدو، [...] وقلب الكتيبة وعليها تقتتل العساكر، وكأن الرجل رجل جراد تريش سهام الحرب، وتقذح نار الطعن والضرب،

هذا الأمر شكل دافعاً جلياً وراء حماسهم للإلمام بكافة ما له علاقة بحياة اللهو من قريب أو بعيد، وسعيهم للحصول على امتيازات معنوية وعينية من قبل الملوك والأمراء.

خامساً: لعبة الشطرنج في المغرب

خلافًا للأندلس التي عرفت انتشاراً واسعاً للعبة الشطرنج خلال العصر الوسيط، لم نجد إشارات، حسب علمنا، تدل على انتشار هذه اللعبة في بلاد المغرب. قبل العهد المريني، عدا إشارة فريدة إلى جلسة لعب جمعت في نهاية القرن (١٢هـ/١٢م) ومطلع القرن (١٣هـ/١٣م) بين كاتبين من كتاب الدولة الموحدية هما أبو عمران الطرياني وأبو الحسن بن عياش. فقد ورد على لسان الكاتب الأول: "كنت [...] عند الكاتب أبي الحسن بن عياش، فبينما أنا ألاعبه بالشطرنج إذ دخلت إليه أمة له [...]".^(٨٠)

أما خلال عصر المرينيين فقد ثبت أن الرجال كانوا يلعبون الشطرنج باستمرار للتسلية والترفيه عن النفس^(٨١)، كما أولوا اهتماماً بالغاً لتعليم أبنائهم الشطرنج. وفي هذا الصدد نجد محمد بن عبد المنعم الصنهاجي السبتي الأصل "يلعب الشطرنج في حال صغره ظاهراً ويفالِب فيه الأقوياء من قبله"^(٨٢)، وعندما ذهب إلى مدينة فاس في وفد أهل سبتة أيام السلطان أبي الحسن^(٨٣)، كان يلعب الشطرنج مع خاصة أهل فاس، لما عرف عليه من معرفة وذكاء ونباهة في لعبه^(٨٤). وقد شهد عهد السلطان أبي عنان أيضاً انتشاراً للعب الشطرنج بين رجاله^(٨٥). من خلال هذه الإشارات السريعة، يتضح أن لعبة الشطرنج خلال العصر المريني كانت حاضرة عند فئة الخاصة من أهل سبتة، التي كانت تعلم أبنائها قواعد هذه اللعبة، وتحرص على إتقان ممارستها.

أما أهل فاس فيبدو أنه كان للشطرنج حيزاً في تسلية وترفيه الخاصة بها، فقد أشار الحسن الوزان إلى أن الشطرنج كان لعبة الخاصة حيث "لا يوجد بين الناس المهذبين من ذوي البيئات الحسنة غير لعبة واحدة هي لعبة الشطرنج تبعا لعادة أسلافهم"^(٨٦). ولم تقتصر لعبة الشطرنج على المدن الكبرى، بل نجد ملك فاس عندما

الرحمن بن الحكم عندما تعاقبوا في منصب ولاية المدينة^(٧٢).

كان الثقيفي أكثر حظوة لدى الأمير لاشتهاره ببراعته في لعب الشطرنج^(٧٣)، مما يعني أن أصحاب المراتب العليا في البلاطات كانوا يتنافسون من أجل إرضاء الملوك والأمراء والتقرب منهم عن طريق خوض مقابلة شطرنجية معهم. وعلى الرغم من أن فقهاء الأندلس كانوا ينهون عن لعب الشطرنج، كالفقيه محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن الفخار الجذامي، الذي ألف بهذا الخصوص مؤلفاً عنونه بـ "استواء النهج في تحريم اللعب بالشطرنج"^(٧٤)، ونهى الفقيه ابن عبدون عن هذه اللعبة إذا كانت على سبيل القمار لأنها تشغل عن الفرائض^(٧٥)، نجد في المقابل بعضاً من الفقهاء الذين كانوا يجيدون لعب الشطرنج، منهم الفقيه المعروف أبي بكر بن العربي^(٧٦).

ومن خلال تتبعنا لفترة حياة هذه الشخصيات أمكننا استخلاص أن الشطرنج كان منتشرًا في الأندلس، ما بين القرنين الخامس والثامن الهجريين/ الحادي عشر والرابع عشر الميلادي، إضافة إلى أن لعبة الشطرنج ارتبطت بالمدن الأكثر شهرة بالأندلس كغرناطة وإشبيلية. مما يجعلنا نطرح السؤال الآتي: هل وجدت بالأندلس مدن مشهورة بلعب معينة عن أخرى، أم أن المدن الكبيرة والمشهورة فقط هي التي عرف سكانها اللعب على غرار المدن الصغيرة والقرى، مما يؤكد هذا الطرح أننا لم نعثر على إشارات تُظهر ولع سكان البوادي بالشطرنج.

وخلافًا لما سبق بخصوص ارتباط لعب الشطرنج بفئة الخاصة، تحدثنا المصادر عن مشاركة العبيد للأمراء في لعب الشطرنج، كما هو شأن الأمير الأموي محمد الأول (ت. ٢٧٣هـ/٨٨٦م) الذي كان مولعاً بلعب الشطرنج مع فتاه إيدمون^(٧٧)، أو أيدون^(٧٨)، وذاعت هذه القصة في الأندلس وصار معظم فتيانها يسعون لتعلم لعبة الشطرنج للتقرب من الملوك والأمراء وللحصول على جوائز^(٧٩).

والخلاصة، أنه مثلما تدرج حضور رقيق البلاطات بالأندلس في المهام السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كان لهم أيضاً مشاركة في حياة الترفيه والتسلية، ولعل

خاتمة

حاولنا في هذا المقال إثارة بعض القضايا المتعلقة بلعبة الشطرنج، باعتباره لعبة ذهنية مُورست بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، ومن بين هذه القضايا مسألة عدم التوازن في المادة المصدرية التي توزعت بين عدوتي المغرب والأندلس، ففيما يخص المجال الأندلسي يلاحظ أن هناك نصوصاً وافرة إذا ما قورنت بما عليه الحال بالمجال المغربي، وهذا الأمر يطرح من جديد إشكالية التأثير والتأثر الذي مارسه كل مجال في الآخر في مختلف المظاهر الحضارية.

من ناحية أخرى انتهينا إلى أن لعبة الشطرنج اعتبرت لعبة النخبة بامتياز، بحيث اقتصر لعبها على فئة الخاصة، إلا فيما ندر من الحالات، فهل الأمر يرجع لكون الفئة التي كانت تلعب الشطرنج هي الفئة الحاكمة من أهل السيف والقلم، الذين كان يوكل إليهم تدبير شؤون الرعية ووضع الخطط لكسب رهان المعارك والحروب؟ أم أن الأمر مجرد ترفيه وتسليه وترويح عن النفس؟

يثير الموضوع أيضاً قضية أصول اللعبة وانتقالها عبر الزمان، تبعاً لتعاقب الحضارات وانتشارها في المجال المدروس، انطلاقاً من تأثيرات المشرق في بلاد المغرب الإسلامي، فالشطرنج باعتباره لعبة ذهنية لها حمولة ثقافية وفنية كان له حضور، إلى جانب العناصر الأخرى التي تدخل في عداد شروط الترف التي أضحت عليها بعض الدول التي تعاقبت على حكم المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، في الأوساط الاجتماعية الحضارية بالأساس.

يبدو من خلال استقراء بعض النصوص أن لعبة الشطرنج هي لعبة فئة الخاصة من المجتمع، وأيضاً هي ممارسة لفنون السياسة والحرب بشكل مُسلٍّ، مما كان يرى فيها من يلعبها أنها تقوي القدرات الذهنية، وتسهم بشكل كبير في تنمية الذكاء واكتساب النباهة والدهاء.

كان يقضي وقتنا بالبادية، من أجل حماية مصالح البلاد، كانت لعبة الشطرنج هي وسيلة تسليته في أوقات فراغه، ولربما عبره، وجدت اللعبة طريقها إلى أعيان البوادي^(٨٧). على عكس الأندلس التي لم تشر المصادر الخاصة بها عن لعب الشطرنج بالبوادي.

وبالرجوع إلى شخصية ابن رشيق التغلبي السالف الذكر^(٨٨)، نجد أنه في أواخر حياته انتقل إلى مدينة سبتة، ولا ريب أن شخصاً مثله يحب الشطرنج واخترع شكلاً جديداً له نجده ينقل معه هذه الثقافة الشطرنجية إلى المغرب. ويبقى السؤال المطروح هنا هل لعب الشطرنج عندما انتقل للعيش ببلاد المغرب؟ وهذا الاحتمال هو الأرجح، أم أن ابن رشيق لقي معارضة من قبل الفقهاء، وبالتالي استسلم للأوضاع الدينية التي كانت سائدة ببلاد المغرب؟

لا نملك إجابات شافية عن هذا السؤال، وأسئلة أخرى بقيت عالقة في ذهن، لصمت المصادر عنها، وعلى الرغم من شح المادة المصدرية المتعلقة بلعبة الشطرنج في المغرب خلال العصر الوسيط، ولعل في النماذج القليلة التي أوردناها ما يقدم دليلاً على ذلك. إلا أننا ركبنا زورق المغامرة لإدراج ما توفر لدينا في هذه الدراسة أملين أن تحظى بدراسات جديدة من قبل الباحثين.

الإحالات المرجعية:

- (١) مهدية مستقري، **اللعب والألعاب في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط**، أطروحة دكتوراه، إشراف الأستاذ عبد الإله بنمليح، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرارز، فاس، ٢٠٢٠-٢٠٢١، ص ١٩٠. (مرفوعة)
- (٢) نفسه، ص ٢٠٥.
- (٣) أبو الخطاب عمر بن حسن بن دحية، **المطرب من أشعار أهل المغرب**، تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرون، منشورات دار العلم للجميع، لبنان، د.ت، ص ٦٧.
- (٤) نفس المصدر والصفحة.
- (٥) كما ظهرت ببلاد المغرب خلال القرن التاسع عشر لعبة شبيهة بالشطرنج ابتكرها عبد الله بن علي بن الطاهر بن أحمد (ت ١٢١٥هـ/١٨٠٠م)، ابن عائلة شَطِيرِ التطوانية، سماها "الوسيط". وقد كانت ابنته الباتول تشرف على تعليم النساء كيفية لعبها. انظر محمد بن عزوز حكيم، مادة "شَطِيرِ"، **معلمة المغرب**، منشورات الجمعية المغربية للترجمة والنشر، منشورات مطابع سلا، ٢٠٠٢، م ١٦، ص ٥٣٨.
- (٦) الحسين جهادي، مادة "تيداس"، **معلمة المغرب**، منشورات الجمعية المغربية للترجمة والنشر، منشورات دار الأمان، الطبعة الثانية، ٢٠١٤، م ٨، صص ٢٦٥٧-٢٦٥٨.
- (٧) علي بن أبي زرع الفاسي، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، منشورات دار المنصور، الطبعة الأولى، الرباط، ١٩٧٢، ص ٢٠.
- (٨) يوهان هوسينغا، **ديناميكية اللعب في الحضارات والثقافات الإنسانية**، ترجمة صديق محمد جوهر، منشورات كلمة، الطبعة الأولى، أبو ظبي، ٢٠١٢، ج ١، ص ٤٦-٤٧.
- (٩) ابن منظور، **لسان العرب**، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، منشورات دار المعارف، القاهرة، د.ت، ج ٤، ص ٢٢٦٣.
- (١٠) حمدة محمد حيدر الزرعوني، **الترفيه في العراق والشام (من العصر العباسي الأول إلى نهاية القرن الرابع الهجري/ من القرن الثامن إلى القرن العاشر الميلادي) نماذج مختارة**، منشورات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، الطبعة الأولى، الإمارات، ٢٠٢٢، ص ١٤٦.
- (١١) محمد بن حسين التجري، **تحريم النرد والشطرنج والملهي**، تحقيق محمد سعيد عمر ادريس، منشورات إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٦، ص ٦٨-٦٩.
- (١٢) أحمد الشرقاوي إقبال، **لعبة الشطرنج في ماضيها الإسلامي**، مطبعة النجاح، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ١٩٦٩، ص ٧٨.
- (١٣) نفسه، ص ٧٥.
- (١٤) التجري، م.س، ص ٦٩-٧٠.
- (١٥) محي الدين صف الدين، "لعبة الشطرنج في الأندلس بين المقلبين عليها والعازفين عنها"، **مجلة كان**، عدد ٥٤، ٢٠٢١، ص ٦٤.
- (١٦) ابن دحية، م.س، ص ٧٥.
- (١٧) زاهي حواس، **الألعاب والتسلية والترفيه عند المصري القديم**، منشورات مكتبة أسرة القراءة للجميع، ٢٠٠٧، ص ١٨.
- (١٨) نفس المرجع والصفحة.
- (١٩) ويليام في كوستانزو، **السينما العالمية من منظور الأنواع السينمائية**، ترجمة زياد إبراهيم، منشورات هندواي سي آي سي، المملكة المتحدة، ٢٠١٧، ص ١٠٧.
- (٢٠) روبرت جرين، **قواعد السطوة**، ترجمة هشام الحناوي، منشورات أقلام عربية، القاهرة-مصر، ٢٠١٧، ص ٦٨٧-٦٨٨.
- (٢١) الشرقاوي، م.س، ص ١٢.
- (٢٢) نفسه، ص ١٩.
- (٢٣) محمد بن عبد الكبير الكتاني الفاسي، **بيان التفات في تضييع الأوقات**، تحقيق محمد بن عزوز، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، مطبعة دار ابن حزم، بيروت، ٢٠١٢، ص ١٥٠.
- (٢٤) التجري، م.س، ص ٧١-٧٢.
- (٢٥) الشرقاوي، م.س، ص ١٧.
- (٢٦) محمد حسين السوسي البهاوي، مادة "الشطرنج"، **معلمة المغرب**، منشورات الجمعية المغربية للترجمة والنشر، منشورات مطابع سلا، ٢٠٠٢، م ١٦، ص ٥٣٧-٥٣٨.
- (٢٧) نفس المرجع والصفحة.
- (٢٨) عبد القادر أبي الوفاء القرشي، **الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية**، تحقيق محمد حامد، د.ت، ج ١، ص ٤٤٥.
- (٢٩) الشرقاوي، م.س، ص ٦٥.
- (٣٠) علي بن الحسين بن علي المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، عناية ومراجعة كمال حسن مرعي، منشورات المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٥، ج ٤، ص ٢٥٩.
- (٣١) نفس المصدر والصفحة.
- (٣٢) أبو الفرج الأصفهاني، **الأنغاني**، تحقيق دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٩٤، ج ٢٢، ص ٤٤.
- (٣٣) ابن علي المسعودي، م.س، ج ٣، ص ٣٠٠-٣٠١.
- (٣٤) جلال الدين السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، منشورات دار ابن حزم، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٢٥٧.
- (٣٥) التجري، م.س، ص ١٣٨.
- (٣٦) أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٣٥، ج ٨، ص ٣٣٩.
- (٣٧) شمس الدين الحنبلي المقدسي، **النكت والفوائد السنية**، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ج ٢، ص ٢٦٧-٢٦٨.
- (٣٨) الشرقاوي، م.س، ص ١٩-٢٠.
- (٣٩) الأنصاري القرطبي، م.س، ج ٨، ص ٣٣٩.
- (٤٠) شقادي: هودج كان يركبه الحجاج. انظر ابن منظور، م.س، ج ٦، ص ٤٦٣-٤٦٣١.
- (٤١) عبد المنعم ماجد، **تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى**، منشورات مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة السابعة، القاهرة، ١٩٩٦، ص ١٤٣.
- (٤٢) سورة الأنبياء، رواية ورش، الآيتان، ٥١-٥٢.
- (٤٣) إسماعيل بن عمر بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق سامي بن محمود السلامة، منشورات دار طيبة، الطبعة الثانية، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٩، ج ٥، ص ٣٤٨.
- (٤٤) أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، منشورات دار ابن حزم، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٥، ص ٧٣٩.

(٦١) لسان الدين بن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، منشورات مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، القاهرة، ج ١، صص ٢٦٠-٢٦١.

(٦٢) أبو يحيى عبيد الله بن أحمد الزجالى القرطبي، **أمثال العوام في الأندلس**، تحقيق محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، مطبعة محمد الخامس، فاس، ١٩٧٥، ج ١، ص ٢٥٤.

(٦٣) محمد بن أحمد بن قطبة الدوسي: من أهل غرناطة، كان متحلياً بالوقار والحشمة، متمكناً من الشعر والكتابة. ومناقبه يقصّر عنها الكثير من أبناء جنسه كالفروسيّة والتجنيد والبسالة والرماية والسباحة والشطرنج. انظر ابن الخطيب، **الإحاطة**، م.س، ج ٢، صص ٢٥٠-٢٥١.

(٦٤) محمد بن قاسم بن أبي بكر القرشي المالقي (٣٠٣-٧٠٥هـ/١٣٠٣-١٣٠٦م): ولد بمالقة، كان طبيباً ذكياً وحميدي الخصال متمكناً من لعب الشطرنج. ارتحل إلى فاس وشغل بها مناصباً في المارستان سنة ٥٧٤هـ. انظر ابن الخطيب، **الإحاطة**، م.س، ج ٢، صص ٥١٥-٥١٦.

(٦٥) أحمد بن القاسم بن خليفة بن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، صص ٢٠٢.

(٦٦) الزجالى القرطبي، م.س، ج ١، صص ٢٥٥-٢٥٦.

(٦٧) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق إحسان عباس، منشورات دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧، قس ٣/م، ١، ص ٤٩.

(٦٨) أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، منشورات دار صادر، بيروت، ١٩٧٢، م ١، ص ٢٤٦.

(٦٩) عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق وتعليق محمد زينهم محمد غرب، منشورات دار الفرجاني، القاهرة، ١٩٩٤، صص ٨٠-٩٠.

(٧٠) ابن بسام الشنتريني، م.س، قس ٣/م ١، صص ٢١٥-٢١٦.

(٧١) ابن الخطيب، **الإحاطة**، م.س، ج ١، ص ٤٧٦.

(٧٢) محمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس**، منشورات مكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٩٧، ج ١، صص ٣١٣.

(٧٣) نفس المرجع والجزء والصفحة.

(٧٤) إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون المالكي، **الديباج المذهب في معرفة علماء أعيان المذهب**، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور، منشورات دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، د.ت، ج ٢، ص ٢٨٩.

(٧٥) محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي، **رسالته ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، تحقيق ليفي بروفنسال، منشورات مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للتأثير الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٥٣.

(٧٦) الزجالى القرطبي، م.س، ج ١، ص ٢٥٥.

(٧٧) نفس المصدر والصفحة.

(٧٨) ابن حكم الغزال، م.س، ص ٧٤.

(٧٩) نفسه، ص ٧٣.

(٤٥) علاء الدين الكاساني الحنفي، **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، منشورات دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٦، ج ٥، صص ١٢٧.

(٤٦) الأنصاري القرطبي، م.س، ج ٨، ص ٣٣٧.

(٤٧) البهاوي، م.س، م ١٦، ص ٥٣٧١.

(٤٨) الكتاني الفاسي، م.س، ص ١٥٩.

(٤٩) ابن أحمد البلوي البرزلي، **جامع مسائل الأحكام**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، منشورات دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٢، ج ٤، ص ٢١٢.

(٥٠) محمد بن أحمد بن جزي الكليبي الغرناطي، **القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية والتنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية**، تحقيق محمد بن سيدي محمد مولاي، منشورات دار العليان، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٠، ص ٤٦٨-٤٦٩.

(٥١) الأوباش: مفرد وبَشَّ، الأخلط من الناس والضروب المتفرقون، كالشجر والنبات، وهي جمع مقلوب لأوشاب. انظر ابن منظور، م.س، ج ٦، ص ٤٧٥٣.

(٥٢) ابن جزي، م.س، صص ٦٢٠-٦٢١.

(٥٣) أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، **ربيع الأبرار في نصوص الأخبار**، تحقيق عبد الأمير مهنا، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى، لبنان، ١٩٩٢، ج ٥، ص ٢٣.

(٥٤) يحيى بن حكم الغزال، **ديوان ابن حكم الغزال**، تحقيق محمد رضوان الداية، منشورات دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٣، صص ٧٣-٧٤.

(٥٥) محمد بن عبد الرحمن بشر، **مباهج الأندلس**، منشورات دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠١٢، صص ٧٩-٨٠.

(٥٦) عدنان خلف سرهيد دراجي، **التأثير الحضاري المتبادل بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية خلال عصر سلطنة غرناطة (٦٣٥-٨٩٧هـ/١٢٣٨-١٤٩٢م)**، منشورات دار حميثرا، الطبعة الأولى، العراق، ٢٠١٨، صص ١٥١-١٥٤.

(٥٧) علاء الدين علي بن عبد الله البهائي الغزولي دمشقي، **مطالع البذور في منازل السرور**، تحقيق التجاني سعيد محمود، منشورات دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٧١، ج ١، ص ١٩.

(٥٨) أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي، **رايات المبرزين وغايات المميزين**، تحقيق محمد رضوان الداية، منشورات طلاس، الطبعة الأولى، دمشق، مطبعة العجلوني، ١٩٨٧، ص ٢٦١.

(٥٩) المقصود من قول تَقَرَّرُنْ البيدق بمعنى صار فرزاناً، وهو مثل يضرب لمن يتعاطم وهو حقير، ابن سعيد الأندلسي، م.س، هامش رقم ٢، ص ٢٦١.

(٦٠) أحمد بن عباس بن أبي زكريا (ت ٤٢٧/٣٥٠م): أنصاري النسب، وزير صاحب ألمرية خيران العامري، وكان كاتباً حسن الكتابة غزير الأدب ورث الوزارة عن أبيه. قتل على إثر الخلاف القائم بين أميره خيران العامري وباديس بن حبوس أمير غرناطة. انظر أسامة عبد الحميد حسين السامرائي، **تاريخ الوزارة في الأندلس**، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧١، هامش ص ١٢٨.

- (٨٠) أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي، **الغصون الياضنة في محاسن شعراء المائة السابعة**، تحقيق إبراهيم الإبياري، منشورات دار المعارف، مصر، ١٩٤٥، صص ٤٣-٤٤. راجع أيضا عبد الله كنون، **ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة**، تقديم وترتيب محمد بن عزوز، منشورات دار ابن حزم، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٠، ج ١، ص ٢٩٢.
- (٨١) روجيه لوتورنو، **فاس في عصر بني مرين**، ترجمة نقولا زياده، منشورات فرنكلين، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٠٦.
- (٨٢) مؤلف مجهول، "بلغة الأمانة ومقصد اللبيب فيمن كان بسببته في الدولة المرينية من مدرّس وأستاذ وطبيب"، **مجلة تطوان**، عدد ٩، سنة ١٩٦٤، ص ١٧٦.
- (٨٣) نفسه، ص ١٧٥.
- (٨٤) جلال الدين السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، منشورات عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، مصر، ١٩٦٤، م ١، ص ١٦٤. راجع أيضا إميل بديع يعقوب، **موسوعة علوم اللغة العربية**، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧١، ج ٨، ص ٢٩٦.
- (٨٥) علي حامد الماحي، **المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٦، ص ٢٧٣.
- (٨٦) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٣، ج ١، ص ٢٥٩.
- (٨٧) نفسه، ج ١، ص ٢٩١.
- (٨٨) راجع، ص ١٨.

انعكاس التحركات القبلية على نظم الجباية في المغرب وأساليبها نموذج العهد السعودي الأول ١٥١٠ – ١٥٧٨م

نصر الدين خلا

باحث دكتوراه تكوين التراث الثقافي والتنمية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة
جامعة محمد الأول – المملكة المغربية



ملخص

عمل محمد الشيخ السعودي مباشرة بعد تمكنه من مقاليد الحكم، على تعميم ضريبة النابية التي أقرها أبوه عبد الله القائم، وقد أدى هذا الإجراء إلى اضطراب العلاقة بين مركز الحكم والرعية التي طغى عليها طابع الانتجاع والترحال، بحيث بدا الجهاز الجبائي بكل كوادره سواء المركزية منها أو المحلية، عاجزا عن التحكم في حركية القبائل وإيجاد قنوات ناجعة للتواصل معها، ومن ثم إرغامها على أداء المستحقات الجبائية لصالح بيت المال، فكان نادراً ما يفلح في تحقيق ذلك بأساليب سلمية ومرضية للطرفين، إذ في الغالب الأعم، ما جنح الجباة إلى الشطط واستعمال القوة ضد القبائل المرتحلة في المجال، مما يدفع هذه الأخيرة بدورها إلى مزيد من التملص الضريبي، الذي قد يتطور أحياناً إلى خلع البيعة وشق عصا الطاعة، وهكذا أضحت العلاقة الجبائية بين مركز الحكم والقبائل غير المستقرة في مغرب القرن السادس عشر لميلاد معقدة للغاية، وفي حاجة إلى تسليط مزيد من الأضواء حول ثناياها.

كلمات مفتاحية:

السياسة الجبائية؛ التحركات القبلية؛ الدولة السعودية؛ العلاقة الجبائية؛
ضريبة النابية

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٧ نوفمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٢٩ يناير ٢٠٢٤



10.21608/kan.2025.337055.1185

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

نصر الدين خلا، "انعكاس التحركات القبلية على نظم الجباية في المغرب وأساليبها: نموذج العهد السعودي الأول". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد التاسع والستون: يونيو ٢٠٢٥. ص ٩٠ - ٩٩.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: n.khallad@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٤.٠ This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made. فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

٣. انعكاس تعقد واضطراب العلاقة الجبائية بين السلطة السعدية والقبائل الرحل.

أولاً: أبرز التحركات القبلية إبان القرن السادس عشر الميلادي

ليس باليسير على الباحث رسم خريطة توطن بدقة، مراكز استيطان القبائل ومسارات تنقلاتها بالمغرب السعدي، وذلك نظراً لسببين اثنين، أولهما يتعلق بالحركية والدينامية المجالية التي تميزت بها هذه القبائل، لا سيما العربية منها، والتي عاشت حرة طليقة تنتقل من جهة إلى أخرى، إما انتجاعاً للمراعي وطلباً للرزق، إذ أن الأرض التي هم عليها، ليس لهم منها إلا الحيوان، الذين يملكون قطيعه بقدر ما يملكهم،^(٤) وإما اضطراباً تحت ضغط الأحداث القبلية أو تنفيذاً للأوامر السلطانية، وتبعاً لهذا لم يكن الرحل مقيدين بقوانين الهجرة ولا خاضعين لشروط الاستيطان التي عرفت فيما بعد، بل لم تكن تقيدهم حدود سياسية ولا جغرافية، وإنما كانوا يدمنون على النجعة والتجوال لا يقر لهم في أي موطن قرار،^(٥) أما السبب الثاني، فيتجلى في أن المؤرخين وكذلك الجغرافيين المعاصرين للدولة السعدية لم يهتموا بدراسة التحركات القبلية دراسة دقيقة تسمح بضبط مواطن الاستقرار للقبائل الرحل ورسم مسار لتنقلاتها داخل المجال المغربي أو المغربي عموماً، بل كان جل تركيزهم على عواصم الحكم والحواضر الكبرى.^(٦)

يلزم التنبيه بداية إلى أن ظاهرة الترحال لم تكن حكراً على العرب الوافدين على البلاد، بل مارسها البربر لاسيما منهم "قبائل البتر"، فهؤلاء أهل البداوة والرحلة أيضاً، لذلك وصفوا بأهل الوبر، أي سكان الخيمة، يعيشون منتجعين بين السهوب والهضاب والمناطق الرعوية الصحراوية أو القريبة من الصحراء،^(٧) على غرار قبيلة زناتة التي كانت تسكن الخيام وتتخذ الإبل وتركب الخيل،^(٨) بحيث تقاسمت مع عرب معقل المراعي الواقعة في حوض ملوية والريف الشرقي لمدة ليست باليسيرة (ق ١٣ — ق ١٤)، قبل أن تعمل بعد وصول أحد بطونها (بني مرين) إلى الحكم، على إقصائهم

تعتبر الفلاحة من معاش المتضعين وأهل العافية،^(١) لأنها وبشقيها الأساسيين، الزراعة وتربية الماشية، كانت كثيرة التأثير بغياب الاستقرار السياسي والاجتماعي،^(٢) مما يجعل مواردها محدودة ومتواضعة للغاية، وغير قارة ولا ثابتة، وبناء على ذلك، لم تعتبرها السلطة السعدية الناشئة مستهل ق ١٦م، مصدراً للثروة على قدر طموحاتها السياسية ومطامعها التوسعية، فاجأت لتعويض هذا الخصاص في موارد بيت المال وسد ثغراته، إلى الإكثار من الضرائب والمغارم، فتم في سياق ذلك، ابتداء ضريبة النابية.

هذا الإجراء، فتح الباب على مصراعيه أمام تعقد العلاقة الجبائية بين السلطة والرعية، فتراوحت بين الاستقرار حيناً والاضطراب أحياناً أخرى، لاسيما إذا استحضرننا في البال أن هذه الرعية، قد تألفت أساساً من قبائل رعوية وزراعية تعتمد في حياة أفرادها على خصوبة التربة وتوفر الكأ ومواطن المياه، وأمام الظروف الطبيعية الصعبة، كانت تضطر هذه القبائل إلى التنقل المستمر بانتظام في واحات الصحراء، أو بين أعماق الأرياف وضفاف الوديان، أو بين سفوح الجبال وقممها، أو غير ذلك من سبل العيش ومسالك التي تفصي إلى دينامية مجالية، تعبر عنها كثافة الهجرات والتحركات القبلية، مما كان يؤدي تلقائياً إلى تطاحنات قبلية ونزاعات عشائرية انتهت في حالات كثيرة إلى صراع مسلح مع القبائل صاحبة الأرض أو فيما بينها.^(٣)

وقد اخترنا من أجل المشاركة ضمن هذا العدد، أن يكون إسهامنا بمثابة محاولة لإغناء الموضوع في محوره المتعلق بالتحركات القبلية وآثارها السوسيو-اقتصادية والانعكاسات المترتبة عنها، وذلك من خلال التركيز على المسألة الجبائية، باعتبارها أبرز العوامل التي قد تساهم في ازدهار النشاط الاقتصادي للقبائل المرتحلة أو تفضي إلى انكماشه، وذلك من خلال التطرق لما يلي:

١. نماذج وأمثلة عن التحركات القبلية بالمجال المغربي خلال القرن السادس عشر.
٢. أساليب الاستخلاص الضريبي من القبائل المتحركة في المناطق الخاضعة للسعديين.

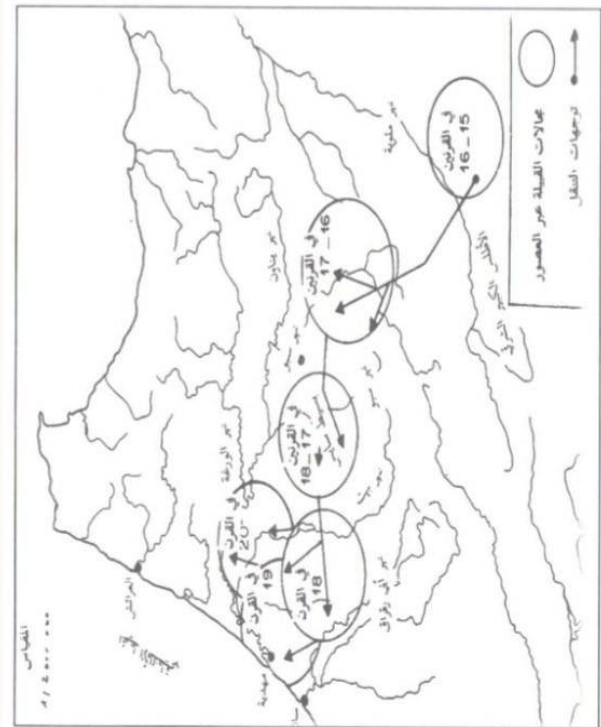
التدريجي عن مداخل السهول الغربية ما بين حوض زيز وواد زّا، مما اضطر قبائل معقل إلى إعادة الانتشار من خلال الانتجاع بين بلاد ملوية شمالاً ووحدات كورارة وتوات وما جاورها من بلاد درعة وسوس جنوباً، وظلت تتحين الفرصة المواتية للتسرب نحو السهول الأطلنطية انطلاقاً من مجالات نجعتها بالهوامش،^(٩) ولم يتم لها ذلك إلا بعد انتقال مقاليد السلطة من بني مرين إلى بني زيدان مطلع القرن السادس عشر الميلادي.^(١٠)

أما الحديث عن القبائل العربية الوافدة، فيقودنا إلى طرح نموذج معبر عن دينامييتها في المجال وحركيتها الدؤوبة، يتعلق الأمر بقبائل بني احسن التي تتبع كل من الوزان ومارمول مسارات تنقلاتها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، لتستمر هذه الحركة حتى مطلع القرن العشرين الميلادي، انطلاقاً من أعالي نهر ملوية شرقاً وصولاً إلى سواحل الأطلسي غرباً، وبالضبط حول ضفاف نهر سبو، الخريطة المرفقة توضح لنا ذلك.^(١١)

وقد حاول البرتغاليون بعد سيطرتهم على موانئ الأطلسي في نفس الفترة، لمّ شتات القبائل المتحركة على طول ضفاف أم الربيع وجعلهم قبائل مستقرة، بهدف استعمال طاقتهم البشرية في استغلال المجال استغلالاً وافياً، غير أن محاولتهم هاته باءت بالفشل، نظراً لتشبث مختلف قبائل الشاوية بنمط الترحال الذي عهدوه، ذلك بسبب أنها "كانت متقلة وتعيش بدواوير على شكل خيام".^(١٢)

ننتقل لمثال آخر أكثر وضوحاً عن حركية القبائل، يتجلى في قبيلة الشرقية (شراكة) التي يصعب توطينها بدقة إبان ق١٦م باعتبار الأوضاع السياسية التي أجبرتها على القيام برحلات مكثفة، وبالعودة إلى منطلقها فهم مجاورون لأولاد حسين من ناحية الشرق،^(١٣) ولعل هذا سبب تسميتها بغية التمييز عن باقي قبائل المعقل، إذ كانوا يشغلون خلال حياته تخوم المغرب الأقصى شرقاً، لينتقلوا غرباً إلى حوز مراكش إبان الفترة قيد دراستنا،^(١٤) ففرض عليهم قائد أزمور الدون بدرو دي سوسا (D. Pedro de Sousa) بعد وصولهم أداء إتاوات في شكل قمح للتاج البرتغالي بعد حملها إلى أزمور، غير أن القبيلة أبت الالتزام بذلك مدعية أنها لا تعرف ممثلاً للبرتغال غير "أطايد"، وإذا لم يحترم رغبتها ويخلي سبيلها فسوف تعود من حيث أتت.^(١٥)

وذلك ما كان، إذ لم يدم مكوثها طويلاً باعتبار الأوضاع السياسية كما أشرنا آنفاً، فبعد اتساع نفوذ الدولة السعدية، حضر سلطان مراكش لمهاجمة آسفي



خريطة رقم (١)

مجالات تحرك قبائل بني احسن من ق١٥م إلى ق٢٠م.

وخلال العهد السعدي، حافظت تامسنا على أهميتها الاقتصادية باعتبارها المغرب الخصيب الذي يضم أبرز



خريطة رقم (٢)

مسارات تحرك العائلات والقبائل على العهد السعودي

ثانيًا: معايير التحصيل الضريبي من القبائل

بالاعتماد على فصل بعنوان " القضاة وكيفية الحكم والتسيير" عند الوزان،^(٢٦) نستنتج بأن محمد الشيخ السعدي لم يحدث بعد دخوله إلى العاصمة فاس تغييراً يستحق الذكر عن نظام الحكم الوطاسي،^(٢٧) وتبعاً لذلك يمكن تكوين الصورة التالية عن النظام السعدي بعد توحيد بلاد المغرب:^(٢٨)

١. محمد الشيخ
٢. الوزير
٣. الحاجب
٤. الكاتب
٥. موظفو القصر
٦. الحيش

تجنباً للإطالة، سنقتصر على شرح وتوضيح المناصب الموكول لها مهام استخلاص الضرائب من بوادي المغرب التي طغى على ساكنتها نمط الظعن والانتجاع، وبالبضبط الكاتب والجيش، فالأول كان من خططه إلى جانب الكتابة " رئيس الخدم وأمين الصندوق"،^(٢٩) والمقصود هنا بيت المال، إذ كان للكاتب دور مهم في حيازة النابية واستخلاصها من الرعية، يذكر عن ذلك

وأزمور في غشت ١٥٢٨م، فكان ذلك فرصة لأولاد عمران من أجل الثورة ضد البرتغال، وقد تراجعوا بعد ذلك نحو الداخل على بعد خمسة أميال في اتجاه مراكش عاصمة السعديين الجديدة، وقضوا هناك سنوات يرعون ماشيتهم حتى وصلوا إلى جبال درن التي تسميها المصادر البرتغالية (Môetes claros) بالجبال البيضاء دون أن يتمكن منهم أحد.^(٢١)

نختم هذا المحور بمثال آخر لا يقل أهمية عن سابقه، من أجل أخذ صورة واضحة عن مدى تسارع حركية القبائل الرحل إبان الفترة موضوع مقالنا، وعن أبرز المجالات المعنية بتقلقاتها، ويتعلق الأمر بقبيلة "الرحامنة"، التي خبرت الترحال منذ انطلاقتها من شبه الجزيرة العربية، فبالرغم من اشتغالها خلال مقامها بالصحراء وسوس بالتجارة مطلع ق ١٦م،^(٢٢) إلا أنها لم تفرط في نشاطها الأصلي الذي يستوجب كثرة الترحال، فقد كانوا يمارسون الرعي الواسعة مع ما يتطلبه هذا النشاط من ضرورة النجعة،^(٢٣) لذلك مارست الرحامنة الترحال الرعوي من تخوم الصحراء إلى بلاد السوس، لينته بها المطاف في سهل الحوز،^(٢٤) غير أنه لم تكن للسعديين كامل الثقة في قبائل الرحامنة، إذ ظل محمد الشيخ متخوفاً من عددهم وقوتهم، ولذلك لجأ مباشرة بعد إزاحة أخيه ثم مبياعته ملكا على مراكش، إلى ترحيلهم نحو منطقة تامسنا وأقطعهم أراضٍ جيدة هناك، وتلخيص أبرز التحركات القبلية بصفة عامة سواء الدائمة أو الموسمية إبان الفترة موضوع مقالنا هذا، ندرج الخريطة التالية.^(٢٥)

استعملوا القوة ضدها أحياناً أخرى، هادفين إلى ضمان حقوق بيت المال ومستحقاته، رغم الدينامية وكثافة تحرك القبائل لاسيما العربية منها.

وتبعاً لهذه الدينامية، عرفت النائية تغيرات ملحوظة على مستوى صيغ تطبيقاتها وطرق تحصيلها، وقد ارتهنت هذه التغيرات الحاصلة على نوعية هذه الضريبة وكيفية أدائها (نقداً/ عيناً)، بانضباط مختلف القبائل خاصةً المرحلة منها في المناطق البعيدة عن مركز الحكم، ومدى التزامها بأداء المستحقات الجبائية لصالح بيت المال، أما بخصوص المقدار العيني لهذه الضريبة زمن محمد الشيخ، فقد كان " صحيفة من الشعير وعشرين مداً من القمح لكل نائية وصاعاً من السمن وكبشا لكل أربع نواشب"، (الناصري، ١٩٥٥، ص ٣١) أما حين كانت تؤدي نقداً في عهد أحمد المنصور، فقد حدد مقدارها بعض الباحثين^(٣٤) في أربع دنانير كواجب جبائي عن كل خيمة، وبعضهم الآخر بمقتال وربع عن كل فرد بلغ ١٢ سنة فما فوق رجلاً كان أو امرأة، وعن كل كانون نفس المبلغ،^(٣٥) ونشير إلى أن قيمتها اختلفت من خيمة لأخرى بحسب عدد أفرادها، لأن محمد الشيخ " جعل الوظيف على رؤوس الناس وسماه بالنائية" كما سبق وأن رأينا.

وقد عرفت ضريبة النائية طريقة عادية ومألوفة في الجبي، وذلك بحكم عراقة الوسائل المتاحة أمام السلطة المركزية، فإما أن يتكفل بجمعها ولاية السلطان أو عمال الخراج، وأحياناً يتكفل السلطان بنفسه بجمعها في شكل حركات^(٣٦) خاصة في المناطق البعيدة التي يرتادها الرحل، كما كانت عوائد النائية وحواصلها، لاسيما إبان فترات التوتر والحالات الطارئة، تحمل إلى مركز تجمع الضرائب، وهي مراكز على شكل مخازن وأهراء إقليمية يتم تحديد موقعها سلفاً حسب مسار الحركة، قبل أن تحمل إلى بيت المال المركزي، فمثلاً لما كان السلطان يريد مهاجمة قبائل طنجة أمر بجمعها بالخروب، أو جمعها بالقصر الكبير بالنسبة لحصيلة نائية منطقة فاس.^(٣٧)

ويتحتم علينا التنبيه في هذا المقام، إلى أن ظاهرة العنف أثناء استخلاص الضرائب، قد مثلت آخر إجراء يلجأ إليه المخزن السعودي بعد أن يستنفذ كل الوسائل

صاحب الدوحة " لما استفحل السلطان محمد الشيخ وتغلب على أقطار بلاد السوس، وضع عليها الخراج وجعل الوظيف على رؤوس الناس وسماه بالنائية، وكان يضبط أزمة ذلك مع كتابه، إلى أن مروا في الأزمة بذكر أولاد الشيخ خالد، قال لهم السلطان ارسموهم لي في النائية، ..."، (ابن عسكر، ١٩٧٧، ص ١١٦) أما مؤسسة الجيش فيمكن اعتبارها من أبرز الآليات التي اعتمدها أوائل السعديين من أجل استخلاص ضريبة النائية من الرعية، مرة باللين ومرات أخرى كثيرة بالقوة والإجفاف، لاسيما من الرحل الذين كانوا يميلون في أغلب الحالات إلى الامتناع عن الاستجابة لتكليفات المخزن الجبائية، وسنأتي لتقديم أمثلة دالة في ما هو آت.

لكن قبل ذلك، وجب توضيح سبب اعتمادنا ضريبة النائية دون غيرها، كنموذج لدراسة العلاقة الجبائية بين مركز الحكم السعودي والقبائل الرحل، فنقول بأن هذه الضريبة لا تعدو أن تكون تعويضا لضريبة الخراج،^(٣٨) بدليل نص ابن عسكر أعلاه، وأمام حركية القبائل المغربية وتقلاتها غير المضبوطة وغير النهائية، فإن اشكالية " فتح بلاد المغرب" وطبيعة أسلوبه؛ صلحاً/ عنوة ظلت مطروحة،^(٣٩) وهو الاشكال الذي استغله محمد الشيخ، من أجل تعميم ضريبة النائية على اعتبار أن الأراضي الواقعة في السهول قد فتحت عنوة،^(٤٠) وبالتالي فهي تستوجب على من يستغلها سواء بالزرع أو الرعي أن يدفع خراجها، مع العلم أن هذا النوع من الأراضي يمثل المجال الرئيسي للقبائل الرحل فلا تستقيم حياتهم بدونها.

ولا شك أن الاضطرابات السياسية التي كانت تعصف بالمغرب إبان الفترة موضوع دراستنا،^(٤١) قد أثرت سلباً على الأوضاع الاقتصادية للبلاد وأنظمتها الجبائية، حيث كان نجاح طرف دون الآخر وضمان بقائه في سدة الحكم، يتوقف على ما لديه من موارد مالية تضمن ولاء الجند وتضعف الخصم، أو كما قال الإفرائي في النزهة: " أن الملك لا يتأتى إلا بالمال" (الإفرائي، ١٩٩٨، ص ٨٣). وامتثالاً لذلك، اعتمد السعديون أساليب ودية أثناء عمليات الاستخلاص الضريبي من القبائل المتنقلة في المجالات الخاضعة لهم حيناً، كما

ثالثاً: الانعكاسات المترتبة عن اضطراب العلاقة الجبائية

بالموازاة مع ما هو سياسي، كان للجوانب الجيو-سوسيولوجيا دور لا يقل أهمية في تعقد واضطراب العلاقة الجبائية بين مركز الحكم والرعية ومضاعفة الانعكاسات المترتبة عن ذلك، حيث أن ترامي أطراف البلاد وبُعد المناطق النائية منها عن مركز السلطة، كان يضعف قدرة الحاكم على إيجاد قنوات ناجعة للتواصل مع عماله ونوابه في مختلف الأقاليم ويقلل من فعالية إشرافه عليهم، مما يسمح لهم بالاستقلال عن المركز من جهة،^(٤٤) ومن جهة أخرى يشجع القبائل على الممانعة وعدم الاستجابة لتكليفات المخزن الجبائية، لاسيما منها تلك المستقرة في المناطق الجبلية أو البدو الرحل،^(٤٥) ويعطينا الوزن نماذج كثيرة عن ذلك، كأعيان وفرسان جبل لوكاي بالريف، الذين يرفضون أداء أية إتاوة للسلطة نظراً لأن "الطبيعة والجبل تحتميا بهم حماية تامة" (الوزان، ١٩٨٣، ص ٣٣٦) وكذلك أهالي بني مراسن بإقليم الحوز الذين "لا يؤدون أية ضريبة لملك فاس لأن جبلهم منيع". (نفسه، ص ٣٦٨)

في السياق نفسه، يمكن القول، أن بنية المجتمع المغربي وخصوصيته، ساهمت بنصيب أوفر في تدهور الأنشطة الاقتصادية وتراجع موارد الدولة منها، إذ أن هذا المجتمع تألف في جزء كبير منه، من القبائل الرحل وشبه الرحل المتنقلين باستمرار بين مختلف أرجاء البلاد بحثاً عن شروط ملائمة للاستقرار، الأمر الذي كان يؤدي إلى صراع مسلح ما بين القبائل المستقرة صاحبة الأرض والقبائل الرحل، أو فيما بين هؤلاء،^(٤٦) فكانت المحصلة طغيان التوتر وعدم الاستقرار على وضعية النشاط الفلاحي ومردوديته، وخير تعبير على هذه الحالة وصف بعض المصادر الأجنبية التي عاينت ذلك، بأن "المغاربة لا يملكون الأراضي الفلاحية ولا البساتين إلا بالقرب من المساجد وأسوار المدن، وسبب ذلك يعود إلى العرب الذين ينهبون في الليل كل شيء، ولهذا تراجع تعاظم السكان للنشاط الفلاحي فلا يستغلون خيرات بلادهم"،^(٤٧) مما ساهم في تكريس نمط الانتجاع

السلمية وطرق التفاوض الممكنة، فبيعت الرسائل والوفود للتوسط أو يطالب بحضور ممثلين عن القبيلة المعنية قبل الإقدام على توظيف العسكر واستخدام القوة معها، لأن ذلك وإن كان يرغمها على الإذعان لمطالب جهازه الجباي، فإنه في نفس الوقت لا يصب في مصلحة السلطة المركزية،^(٤٨) سياسة اللين والتفاوض هاته، جعلت الكثير من القبائل تقبل ولو اضطراباً بأداء ضرائب وإتاوات إلى أكثر من جهة، مقابل حمايتها لهم وعدم تعرضها لمحاسيلهم، أو تأمينها لمواصلاتهم وتجارتهم، مثل قبائل منطقتي الشاوية ودكالة اللتان كانتا تدفعان الضرائب للبرتغاليين والسعديين والوطاسيين في آن واحد.^(٤٩)

من جانب آخر يمكن القول بأن خليفة محمد الشيخ، أي السلطان عبد الله الغالب (١٥٥٧م-١٥٧٤م)، يعتبر أفضل نموذج يمثل سياسة اللين والنهج السلمي في استخلاص حواصل النائية المقررة على استغلال المراعي من قبل الرحل،^(٥٠) فقد كان عهده "عهد سلم شامل في المغرب"، (دي صالدايا، ٢٠١١، ص ٢٨) وسبب ذلك راجع بالأساس إلى أن الدولة السعدية كانت قد اجتازت مرحلة البناء والتأسيس في عهد أبيه مع ما تتطلبه هذه المرحلة من موارد مالية وفيرة، وبالتالي حققت استقراراً شبه تام في الأوضاع السياسية والعسكرية، فقد "كانت أيامه، أيام هدنة وعافية ورفاهية وربح معه الجيش، وكان يجمع الأموال ويعطيها، ولأجل ذلك صلح ملكه ولم يحدث في أيامه شر".^(٥١)

تبعاً لما سبق، فقد وصفت بعض الدراسات الأجنبية "عبد الله الغالب" بأنه المؤسس الفعلي للدولة السعدية،^(٥٢) ويمكن إرجاع ذلك إلى الرخاء الاقتصادي والاستقرار الاجتماعي، حيث توفرت له مداخل اقتصادية على جانب كبير من الأهمية،^(٥٣) فإلى جانب الزكوات والأعشار التي كانت تؤديها أغلب القبائل بطوعية وتلقائية باعتبارها من الضرائب التي أوجبها الشرع الإسلامي، نجد النائية التي لم يلجأ "الغالب" في فرضها إلى نهج القسوة والإكراه الضريبي، بل روعي عند جبايتها الرأفة والمقدرة على الأداء كما أجمعت أغلب المصادر المشار إليها.

كان الشريف يثقل بها كاهلهم". (دي طوريس، ١٩٨٨، ص ١٧١)

ولعل المقصود في سياق الكلام أعلاه، قبائل "الخلط"، التي تتبع كل من الفشتالي^(٥٠) والإفراني^(٥١) حركيتها الدؤوبة بين الأطلس المتوسط والكبير والبحر الأبيض المتوسط،^(٥٢) وقد ثار هؤلاء الرحل ضد المنصور رغم أنه "حرر منهم النصف من بذل الخراج، وضربه على النصف الآخر"، (الفشتالي، دون تاريخ، ص ١١٠) وقد استغل "الناصر ابن الغالب" هذه الظروف ليوسع ثورتهم إلى أن شملت سائر الشمال المغربي بما فيها فاس وبني زناسن ومليلية، "فقد زحف معه عرب الشرق بجلهم وأولادهم كافة ... ثم أخماس تازي عن آخرها ومشهور البربر بحذاقها". (نفسه، ص ١٨٤).

نفهم من هذا النص المصدري، أن الإجحاف والتعسف الضريبي من قبل أحمد المنصور، كنموذج مغاير لسلفه عبد الله الغالب، قد ساهم في توحيد مختلف مكونات المجتمع المغربي، إذ شاركت في الثورات والتمردات المذكورة سابقاً، كل من القبائل البربرية والأعراب الرحل، مؤطرين أساساً بواسطة عدد من الأولياء والصلحاء وأرباب الزوايا، الذين كانوا في وقت مضى يضيفون صفة النزاهة والمصادقية في العلاقة مع الرعية وكذلك صبغة المشروعية السياسية على سلطة السعديين ونظامهم الجبائي، بل كان هؤلاء هم أساس بُنيان دولة الشرفاء، وفي طليعتهم أهم سوس، يقول عن ذلك محمد المختار السوسي: "كان الفقهاء السوسيون الجزوليون أول من أقام عماد الدولة السعدية حوالي ٩١٨ هـ، فنجحوا في عملهم نجاحاً باهراً". (المختار السوسي، ١٩٦٦، ص ٢٩).

وانتشار ظاهرة الترحال بين جل القبائل سواء العربية أو البربرية، كما وضعنا سابقاً من خلال أمثلة.

وقد كان لهذه الأوضاع انعكاسات وخيبة، إذ مباشرة بعد تأسيس الدولة السعدية في الجنوب المغربي واتساع كيانه الجغرافي فيما بعد لتصبح حدودها متاخمة لأتراك الجزائر شرقاً والإيبيريين شمالاً، كثر المتربصون بها في الداخل والمعادون لها من الخارج، حيث نجد عند الإفراني أن السلطان أحمد المنصور، وبعدما رأى أن المغرب "غب تلك الفتن قد فغر أفواهه لالتقامه عدوان عظيم من الترك وعدو الدين الطاغية، فاضطر رحمه الله إلى الاستكثار من الأجناد لمقاومة الأعداء والدب عن الدين وحماية ثغور المسلمين، فدعا تضاعف الأجناد إلى تضاعف العطاء، وتضاعف العطاء إلى تضاعف الخراج، وتضاعف الخراج إلى الإجحاف بالرعية". (الإفراني، ١٩٩٨، ص ٨٧).

لذلك نعتبر أن الانعكاسات المترتبة عن نظام ضريبة النائية، قد جعلت منه بصمة بارزة في تاريخ الدولة السعدية، وذلك نظراً لدوره البارز في خلخلة الثوابت والأسس التي تحكممت سابقاً في العلاقات البنيوية بين الدولة والقبائل، إذ أنه ومباشرة بعد تعميمها من قبل محمد الشيخ لتشمل مختلف مناطق البلاد وكافة أطراف المجتمع، تأججت نار الحقد والكراهية للمخزن السعدي وكوادر الجبائية، لاسيما من طرف المتضررين من هذه الضريبة وفي طليعتهم القبائل الرحل، مما أدخل البلاد في سلسلة من الصراعات السياسية والاضطرابات الاجتماعية.

حيث اندلعت في جبال الأطلس الكبير على سبيل المثال لا الحصر، ثورة عارمة قادها أشياخ بعض القبائل ما بين ١٥٥٤م-١٥٥٧م، احتجاجاً على توسيع مجالات استخلاص النائية،^(٤٨) كما ثارت القبائل المرتحلة في نطاق درعة وواحتها بزعامة بعض الأولياء،^(٤٩) وشهدت قبائل الأطلس المتوسط ثورة مشابهة بقيادة "سيدي بوزيد" ولم تهدأ ثورتهم إلا بعد تدخل السلطان في حركة بنفسه لإخمادها بالقوة، يروي دي طوريس عن ذلك أن القبائل البعيدة عن مركز الحكم والمنتشرة في بادية الأطلس قد: "أحدثوا اضطراباً كبيراً حتى بلغ خبر ذلك إلى الشريف، ويعزى سبب تمردهم إلى الضرائب التي

الإحالات المرجعية:

- (١) عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة**، منشورات الدار التونسية، مكتبة ودار المدينة المنورة للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٨٤، ص ٤٧٥.
- (٢) هذا بغض النظر عن تأثيرها بالكوارث الطبيعية المتعاقبة، من جفاف أو جراد أو أوبئة، للمزيد حول انعكاسات هذه الكوارث وغيرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لسكان المغرب، خلال المرحلة قيد دراستنا، يرجى مطالعة مقال مشترك في هيسبريس تامودا لـ: Bernard Rosenberger et Hamid Triki, " *Famines et épidémies eu Maroc aux XVI(e) et XVII(e) siècles*", Hespéris Tamuda, vol : XIV, éditions Techniques Nord-Africaines, Rabat, 1973, pp 109-175.
- (3) René-Jules Frisch, **Le Maroc: géographie, organisation, politique, (1895)**, Éditions Hachette Livre, Paris, 2012, pp 166-167.
- (٤) محمد عابد الجابري، **فكر ابن خلدون، العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ٦، ١٩٩٤، ص ١٤٨.
- (٥) لا سيما منهم سكان الصحاري والقفار الذين تتميز أراضيهم بالجذب والقطر، مما يجبرهم على الحركة الدائمة من مكان لآخر، بحثاً عن العشب لإبلهم التي " تدعوهم إلى التوحش في القفر لرعيها"، حسب تعبير ابن خلدون، والذي يضيف في السياق نفسه: " أما من كان معاشهم في الإبل، فهم أكثر طعنًا وأبعد في القفر مجالا، لأن مساح التلول ونباتها وشجرها، لا يستغني بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر"، انظر: ابن خلدون، **المقدمة**، م س، ص ١٢١.
- (٦) هذا باستثناء ابن خلدون الذي تتبع شعوب العرب والبربر وقبائلهم وبين مواطنها الأصلية وتنقلاتها، ثم المجالات التي انتهى بها المطاف على عهده، لذلك سنعتمد عليه من أجل عرض بعض الأمثلة عن مناطق تحركات القبائل المغربية خلال حياته (ق ١٤م) مع تتبعها إبان الفترة موضوع مقالنا هذا (ق ١٦م).
- (٧) عبد الوهاب بن منصور، **قبائل المغرب**، ج ١، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٨، ص ٢٩٧-٣٠٢.
- (٨) عبد الرحمن بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (تاريخ ابن خلدون)**، المجلد ٦، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د ت، ص ٢٨٩.
- (٩) يقول ابن خلدون عن قبائل معقل: " وجاوروا زناتة في القفار والغربية فعفوا وكثروا وأثبتوا في صحاري المغرب الأقصى، فعمروا رماله وتغلبوا في فيافيها،... فلما ملكت زناتة بلاد المغرب ودخلوا إلى الأمصار والمدن، قام هؤلاء المعقل في القفار وتفرّدوا في البيداء"، انظر المصدر نفسه، ص ٢٩٣.
- (١٠) فقد وفد الزيدانيون، الذين سُلِّقوا فيما بعد بالسعديين مع قبائل بني هلال من المشرق العربي، عبر شمال الصحراء ليستقروا في جنوب المغرب، قبل أن يتحالفوا مع عدد من القبائل البربرية بسوس ليتمكنوا من تأسيس دولتهم، انظر:

خاتمة

لنبداً استنتاجنا بآخر ما توقفنا عنده، ونقول بأن هذا الواقع المتردي الناجم عن تعميم النائية والاحجاف في استخلاصها، قد أدى إلى انكماش السلطة السعدية، حيث غدت العلاقة بين أغلب القبائل الرحل مع مركز الحكم في العاصمة لا تتجاوز مستوى التبعية الإسمية من جهة،^(٥٣) ومن جهة ثانية كانت المجموعات القبلية المتحركة في القفار والمناطق النائية، لا تتوانى عن إعلان الثورة ونكت عهود الطاعة والولاء في كل فرصة تتاح لها، وهو الأمر الذي كان يشكل ضربة قاصمة لقوة الدولة وامتداداتها السياسية في المجال القبلي المؤطر بواسطة الزوايا.

هذا الواقع يترجم بوضوح في الحركات السلطانية المتعددة التي لم تكد تتوقف أمام إحجام الرحل عن أداء النائية رغم استعمال القوة ضدها، إذ كان "السلطان يجد صعوبة كبيرة في إخضاع القبائل، ورغم أن أغلب الرعايا يعترفون به، فلا تؤدي له ولو قبيلة واحدة الضرائب إلا إذا ذهب بنفسه لاستخلاصها من الدواوير والمنازل على رأس حملة عسكرية تضم عادة ما بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ فارس".^(٥٤)

وقد أدت هذه الحركات، نظراً لضخامة المصاريف التي تلتهمها، إلى مضاعفة الانعكاسات التي لحقت القبائل الرحل من جراء تطبيق نظام ضريبة النائية، إذ انكمش الانتاج الزراعي وكذلك الحيواني إلى مستويات كارثية، فكانت الحصيد تضررهم في الأرزاق وسبل العيش، وبالتالي، إصرارهم على الانتجاع بعيداً عن المركز تجنباً للقاء الجهاز الجبائي المخزني،^(٥٥) مما كان يدفع هذا الأخير بدوره إلى تنويع أساليبه بين اللين والإجحاف، من أجل استخلاص المستحقات الضريبية الواجبة على القبائل المرتحلة، بمعنى آخر أن العلاقة الجبائية بين الطرفين، كانت معقدة للغاية تدور في حلقة شبه مفرغة، مع غياب حلول في الأفق.

- collaboration avec Mohamed Tozy, Editions La Croisée des Chemins, Collection Sources et ressources, Casablanca, 2017, p 192.
- (٢٥) محمد مزين، **فاس وباديتها، مساهمة في تاريخ المغرب السعدي (١٥٤٩-١٦٣٧م)**، الجزء الأول، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ١٢، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، ١٩٨٦، الرباط، ص ١٢٦.
- (٢٦) الوزان، **وصف أفريقيا**، ج ١، م س، ص ٢٤٩ وما بعدها.
- (٢٧) سبق لابن خلدون وأن قدم لنا تفسيراً لهذه القاعدة، حيث قال في مقدمته: " وأهل الملك والسلطان إذا استولوا على الدولة والأمم، فلا بد وأن ينزعوا إلى عوائد من قبلهم ويأخذوا الكثير منها... ". انظر: ابن خلدون، **المقدمة**، م س، ص ٥٩.
- (٢٨) نشير في هذا الصدد إلى أن المصادر التاريخية المرتبطة بالدولة السعدية، قد تغني الباحث من أجل دراسة الجهاز الإداري والنظام الجبائي المتبع من طرف أحمد المنصور، وذلك أن غنائم معركة واد المخازن وعوائد التوسع جنوباً نحو السودان، قد وجه اهتمام المؤرخين نحو بيت المال ودفعهم إلى التأريخ الدقيق لمداخل خزنته، بما فيها الضرائب والجبائيات التي كانت مقررة آنذاك، وخير مثال وثيقة " **ديوان قبائل سوس** " لإبراهيم بن علي الحساني، على العكس من ذلك، فإن الفترات التي سبقت أحمد المنصور لا تزال في حاجة إلى مزيد من التقصي والبحث، لاسيما مرحلة حكم محمد الشيخ، وهذا ما دفعنا إلى محاولة تكوين صورة عن أجهزة الإدارة وأدائها الجبائية، ثم أساليب تعاملها مع الرعية الممتنعة خاصة القبائل الرحل.
- (٢٩) ديبغو دي طورييس، **تاريخ الشرفاء**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة شركة المدارس النشر والتوزيع، الدار البيضاء، ١٩٨٨، ص ١٨٣.
- (٣٠) يعتبر الخراج بمثابة إيجار يفرض على الأراضي المفتوحة عنوة يدفعه المزارع أو الراعي، سواء كان مسلماً أم غير مسلم لصاحب الأرض أي السلطان، وقد كان الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي أول من سنه بعد اعتباره أن بلاد المغرب الأقصى قد فتحت عنوة، انظر: أبي الحسن الماوردي، **الأحكام السلطانية**، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦، صص ٢٢١-٢٢٢.
- (٣١) حيث نجد في كتب النوازل مسائل عدة ذات علاقة بالموضوع، طرحت على الفقهاء المعاصرين للمرحلة موضوع مقالنا هذا، انظر مثال عند: أبي العباس الونشريسي، **المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، ج ٩، تحقيق محمد حجي وآخرون، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ١٩٨١، ص ٧٣.
- (٣٢) محمد الصغير الإفرائي، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٨، ص ٨٧.
- (٣٣) شكل عدم الاستقرار السياسي إلى جانب الاضطرابات الاجتماعية، السمة البارزة التي ميزت أواخر ق ١٥م ومطلع ١٦م من تاريخ المغرب، فعلاوة على الصراع بين السلطة المركزية للوطاسيين والدعوة الناشئة للسعديين، نجد طرفاً ثالثاً تمثل في الإيبيريين، وآخر رابعاً تجلى في أتراك الجزائر، هذا ناهيك عن قوى محلية كانت Yves Lacoste, **Géopolitique de la Méditerranée**, Armand Colin Editeur, Paris, 2006, pp 321-323.
- (١١) مصطفى بوشعراء، **علاقة المخزن بأحوال سلا، قبيلة بني احسن نموذجاً ١٨٦٠-١٩١٢**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٦، ص ٣٤.
- (١٢) Yves Lacoste, **Géopolitique**, op. cit, p 316.
- (١٣) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف أفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج ٣، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣، ص ١٩٦.
- (١٤) ابن خلدون، **كتاب العبر**، المجلد ٦، م س، صص ١٣٩-١٤٤.
- (١٥) نذكر أنه في بادئ الأمر انفرد بنو هلال بمنطقة تامسنا، لكن بعدما انضفت إليهم قبائل أخرى مثل جشم والخلط وسفیان ... واندماج الكل مع بعض القبائل البربرية (زناتة وهوارة) التي أشار إليها الوزان، أطلق على الجميع " شاوية " تغليبا، بمعنى أن هذا اللفظ لا يدل على أصل عرقي أو إثني، وإنما هو لقب لمن امتنهن الرعي ولزم التنقل والترحال، يقول ابن خلدون حول تسمية هذه القبائل: " ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر، فهم طواغن في الأغلب لارتياح المسارح والمياه لحيوانهم، إذ التقلب في الأرض أصلح بها، ويسمون شاوية، ومعناه القائمون على الشاء والبقر "، انظر: ابن خلدون، **المقدمة**، م س، ص 121.
- (١٦) الوزان، **وصف**، ج 3، م س، ص ١٩٦.
- (17) Pierre de Cenival, **Les Sources Inédites de l'histoire du Maroc**, première série, Dynastie Sa'dienne, Archives et bibliothèques de Portugal, Tom II, juillet 1486 – avril 1516, éditions Paul Geuthner, Paris, 1934, op. cit, p ٨2.
- (١٨) ابن خلدون، **كتاب العبر**، المجلد ٦، م س، ص ٦٧. وجب الإشارة إلى أن " الشرقية " مرادفة لـ " أولاد عمران "، فهما إسمان لقبيلة واحدة باعتبار نفس المصدر، ص ٥٨ و ٦٠.
- (١٩) حليلة بنكرعي، **العنصر العربي والمجال في المغرب ١٤٥٩-١٥٤١م، بداية الواجهة الأطلسية نموذجاً**، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، ٢٠٠٠، ص ١٤٩. - نجد تأكيد لهذا المعطى عند: عبد الرحمان المودن، **البوادي المغربية قبل الاستعمار؛ قبائل إيناون بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٥، صص ١٦٤-١٦٥.
- (٢٠) Portugal, tom I, op. cit, p 2 Sources Inédites, ٣٢.
- (٢١) وذلك بناء على ما تؤكد إحدى الرسائل بين قائد أزمور والتاج البرتغالي، موثقة بتاريخ ٣ أكتوبر ١٥١٨م، انظر: Sources Inédites, Portugal, tom I, op. cit, p ٢٣٣.
- (٢٢) عبد الرحيم العطري، **الرحامنة، القبيلة بين المخزن والزاوية**، منشورات دفاتر العلوم الإنسانية، سلسلة أبحاث ودراسات رقم ١، مطبعة طوب بريس، الرباط، ط ٤، ٢٠١٣، صص ٣٦-٣٧.
- (٢٣) عبد الرزاق الصديقي، مادة " **الرحامنة** " في مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، **معلمة المغرب**، ج ١٣، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، ط ١، ٢٠٠٢، ص ٤٢٨٤.
- (24) Paul Pascon, **Un été dans le Haouz de Marrakech**, Tom I, Ouvrage conçu et présenté par Abdelmajid Arrif en

سنويا، في الوقت الذي بلغت فيه عائدات السكر المصنوع في البلاد ككل ١٥٠٠٠ مثقال سنويا، كما اهتم أيضا بالمبادلات التجارية مع الدول الأوروبية. انظر: Sources Inédites, France, tom I, op. cit, p 304.

(٤٤) عابد الجابري، **فكر ابن خلدون**، م س، ص ٢٦.

(45) Abdallah Laroui, *L'histoire du Maghreb : un essai de synthèse*, édit FRANÇOIS MASPERO, 1. PARIS, 1975, p 84.

(٤٦) ابن خلدون، **المقدمة**، م س، صص ١٢١-١٢٣.

(47) Sources Inédites, France, tom III, op. cit, pp 699-700.

(٤٨) عبد العزيز الفشتالي، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء**، تحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دون تاريخ، ص ٤٠.

(٤٩) الفقيه الإدريسي، **الجباية**، م س، ص ٤١٨.

(٥٠) الفشتالي، **مناهل الصفا**، م س، صص ١٠٨-١١٢.

(٥١) الإفرائي، **النزهة**، م س، صص ٩٨-٩٩.

(٥٢) حركة الانتجاع هاته، يؤكددها مرمول في قوله "إنهم يفلحون أراضيهم ويحصلون فيها على كثير من الشعير والقمح، ويربون العديد من الماشية الكبرى والصغرى، ولذلك فهم لا يستقرون في أي مكان، بل ينتقلون بين هذه الجهة وتلك طلبا للمراعي"، انظر: مرمول، **إفريقيا**، ج ١، م س، ص ٨٧.

(٥٣) يقول عابد الجابري في دراسته لفكر ابن خلدون: "هؤلاء البدو الرحل الذين لا وطن لهم، كانوا يعيشون في الغالب، بمنأى عن السلطة الحاكمة فلا يدفعون ضرائب ولا يخضعون للمراقبة، وإنما تكتفي منهم الدولة حتى في إبان قوتها بمجرد الولاء والتبعية الإسمية"، انظر: عابد الجابري، **فكر ابن خلدون**، م س، ص ٢٦.

(54) Sources Inédites, France, tom III, op. cit, p 362.

(٥٥) وقد شكل هذا الأمر، نواة وسببا كافيا لنشأة ما سيعرف في قاموس التاريخ المغربي بقبائل السبيبة، في مقابل قبائل المخزن التي تدعن له بأدائها لتكاليفه الجبائية، للمزيد من التفاصيل يرجى الاطلاع على:

R-J Frisch, *Le Maroc*, op. cit, p 172.

تطمح إلى الحكم هنا وهناك، مستغلة ضعف السلطة المركزية لبنى وطاس، الذين لم يحكموا حسب شهادة مرمول سوى فاس ونواحيها، انظر: مرمول كاربخال، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي وآخرون، ج ١، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف، الرباط، ١٩٨٧، ص ٤٢٤.

(٣٤) الفقيه الإدريسي، **الجباية في عهد الدولة السعدية مساهمة في**

دراسة النظام المالي بالمغرب، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، ج ١، مرقونة بخزانة كلية الآداب بفاس، ١٩٩٥، ص ٢٠٥.

(٣٥) حليلة بنكري، **مداخل بيت مال المغرب في عهد السعديين ١٥٤٨-**

١٦٦١م دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، ٢٠٠٦، ص ٤١. والتي تحيل إلى كتاب "إفريقيا" لمرمول في جزئه الثاني، غير أن المصدر الذي يرد فيه هذا المعطى بشكل أقرب للدقة هو: دي طوريس، **تاريخ الشرفاء**، م س، ص ٢٢٣.

(٣٦) الحرقة، مصطلح مخزني يعني الغزوة أو المسيرة العسكرية التي تنظمها السلطة لإثبات سيادتها على جهة ما من البلاد عن طريق إخضاع الخارجين عن الطاعة والممتنعين عن أداء الضرائب، انظر: عبد الإله الفاسي، ضمن **معلمة المغرب**، ج ١، م س، صص ٣٧٨-٣٣٨.

(٣٧) حليلة بنكري، **مداخل بيت مال**، م س، ص ٣٨ - الفقيه الإدريسي، **الجباية**، م س، ص ٢١٦.

(٣٨) عبد الرحمان المودن، **اليوادي المغربية**، م س، صص ٣٥١-٣٥٥.

(٣٩) وكذلك الرحل المنتجعين ضواحي آسفي جنوب البلاد، على غرار قبيلة "مشنزاية" المصمودية، التي تنعتها المصادر بـ"خدام السلطان وخدام القبطان"، إذ أن تحركاتها المنتظمة جعلها تتردد مرة في المناطق التابعة لسلطان مراكش بعد تمكن السعديين منها، ومرة أخرى في المناطق الخاضعة لقبطان آسفي، حيث نجد في المصادر البرتغالية رسالة مفادها: "نعلمك بمشنزاية خدام السلطان وخدام القبطان، ونعلمك بأن أحمد ابن الحاج أسدّ البيبان عن الحرب، ومشنزاية ما عندهم إلا يرفعوا الغرامة في يوم واحد ولا تبقي عليهم خروبة، فقام إليهم يحيى أوتعفوفت لترفعوا شيء، حتى تنزلوا من دار الحرب، ففشلوا عن الغرامة، إن كانت عافية السلطان وعافية القبطان باقية أعلمنا به، وتنه يحيى عن المسایل التي اشتغل بها." انظر:

Sources Inédites, Portugal, tom I, op. cit, p 370.

(٤٠) مرمول، **إفريقيا**، ج ٢، م س، صص ١٦٧ و ٣١٦. الإفرائي، **النزهة**، م س، ص ٩٩.

(٤١) أي لم تسجل المصادر قيام ثورات ضده على عكس سلفه محمد الشيخ، وكذا خلفه أحمد المنصور، والذي سنتطرق لأسلوبهما في الجباية من الرحل، كنموذج دال عن الإجحاف واستعمال القوة أثناء عمليات الاستخلاص وما يترتب عن ذلك من انعكاسات، انظر: مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمذارتية**، تحقيق عبد الرحيم بن حادة، منشورات عيون المقالات، مطبعة دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، ط ١، ١٩٩٤، ص ٤٢.

(42) Gaston Deverdu, *Marrakech des origines à 1912*, éditions Technique Nord africaines, Rabat, 1959, p 359.

(٤٣) عمل عبد الله الغالب بعد توليه الحكم على تنمية موارده المالية من خلال الاهتمام بالمداخل التي تدرها صناعة السكر، حيث وصلت عائدات معامل السكر في مدينة تارودانت وحدها ٧٥٠٠ مثقال ذهباً

نظرة على المؤسسة الدينية العثمانية من مرحلة الإصلاحات وحتى عهد التنظيمات بين الدين والسياسة

د. حسن بربورة

دكتوراه تاريخ الدولة العثمانية

مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور
جامعة يحي فارس المدينة - الجمهورية الجزائرية



ملخص

تمتعت الهيئة الدينية في الدولة العثمانية بمكانة مميزة، وكان لفتاوى شيخ الإسلام تأثير كبير في مسار تطور الدولة زمن قوتها، وحتى في مرحلة الضعف والتراجع، سواء في إعلان الحروب، أو في تحقيق الإصلاحات والتغييرات الحكومية، وقد أملت السياقات التاريخية خلال القرن التاسع عشر الميلادي، إلى ظهور حركة التنظيمات العثمانية (١٨٣٩-١٨٧٦ م)، وصدر العديد من التشريعات واللوائح الإصلاحية، التي فرضت نقل معطيات الحداثة الأوربية إلى مؤسسات الدولة وإدارتها انطلاقاً من المؤسسة العسكرية التي كانت في أولى درجات الاهتمام، ثم مؤسسات الحكم الأخرى وكل الهيئات الإدارية والدينية بمختلف اختصاصاتها، وهو ما انعكس سلباً على واقع المؤسسة الدينية، وأدى إلى تراجع دورها في الشأن السياسي فكيف كانت تركيبة الهيئة الدينية العثمانية؟ وما أهم مظاهر ضعفها؟ وفيما تجلّت محاولات إصلاحها؟ وكيف كان توظيفها السياسي داخل نظام الحكم العثماني خلال القرن التاسع عشر الميلادي؟ وهل ساهمت في الحفاظ على كيان الدولة؟ أم كانت مجرد وسيلة أداتية بيد السلطة الحاكمة خلال القرن التاسع عشر الميلادي؟

كلمات مفتاحية:

المؤسسة الدينية؛ تنبؤ الإسلام؛ مرحلة الإصلاحات؛ عهد التنظيمات

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٢ أكتوبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٢٠ ديسمبر ٢٠٢٤



10.21608/kan.2024.330307.1176

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حسن بربورة، "نظرة على المؤسسة الدينية العثمانية من مرحلة الإصلاحات وحتى عهد التنظيمات بين الدين والسياسة". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد التاسع والستون: يونيو ٢٠٢٥، ص ١٠٠ - ١١٢.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: hassen.barboura@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

شكّلت العلاقة بين الدين والسياسة عنصراً أساسياً في بنية الدولة العثمانية على مدار تاريخها السياسي، وقد تجسّد حرصُ الدولة والتزامها بتطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً دقيقاً، واتّخاذها مصدراً أساسياً لكل القوانين والتشريعات في استحداث "الهيئة الدينية"، التي امتدّت جذورها في أوساط المجتمع والجيش، وكافّة رعاياها في ولاياتها المختلفة، وجعلت لها اختصاصات واسعة، وتمكّنت من المشاركة في الحكم.

حيث مثّل شيخ الإسلام الشخصية الثالثة في نظام التشريعات العثماني، وكان لفتاواه تأثير كبير في مسار تطوّر الدولة، من خلال إعلان الحرب، أو قمع حركات المعارضة، وفي الإصلاحات وغيرها. وكان قاضيا العسكر عضوين بارزين في الديوان الهمايوني، كما كان منصب النيشانجي (كاتب سر السلطان) في كثير من المرات بأيدي العلماء^(١).

غير أنّ سياقات القرن التاسع عشر الميلادي^(٢) مهّدت لظهور حركة التنظيمات العثمانية (١٨٣٩-١٨٧٦م)، وصدور العديد من التشريعات واللوائح الإصلاحية، التي فرضت نقل معطيات الحداثة الأوروبية إلى مؤسسات الدولة وإدارتها انطلاقاً من المؤسسة العسكرية التي كانت في أولى درجات الاهتمام، ثمّ مؤسسات الحكم الأخرى وكلّ الهيئات الإدارية والدينية بمختلف اختصاصاتها^(٣)، وهو ما انعكس سلباً على واقع المؤسسة الدينية، وأدّى إلى تراجع دورها في الشأن السياسي، كما شهدت الدولة مرّة أخرى أزمةً متعدّدة الجوانب خلال الفترة (١٨٧٥-١٨٧٨م)، أين لحقت بها خسائر إقليمية في البلقان، وفقدت كثيراً من مواردها المالية، وصارت مُحاصرة من جميع الجهات ومهدّدة من الداخل، ما شكّل واقعاً جديداً عهد السلطان عبد الحميد الثاني، الذي تميّزت فترة حكمه بالمركزة وبالإصلاحية السلطوية^(٤)، بعد التساؤلات التي طرّحت حول مدى نجاعة سياسة تغريب المؤسسات والمجتمع، التي سلكها الاصلاحيون في الباب العالي خلال فترة التنظيمات.

يُحيلنا هذا كلّهُ إلى ضرورة التعرّف على تطوّرات المؤسسة الدينية، ورصد أهم أدوارها في نظام الحكم العثماني. فكيف كان واقع الهيئة الدينية العثمانية في ظلّ حركة الإصلاح العثماني؟ وهل ساهمت في الحفاظ على كيان الدولة، أم كانت مجرد وسيلة أداتيّة بيد السلطة الحاكمة خلال القرن التاسع عشر الميلادي؟

أولاً: تركيبة الهيئة الدينية في نظام الحكم العثماني

ضمّت الهيئة الدينية العثمانية كلّاً من شيخ الإسلام (المفتي الأكبر)، قاضي العسكر، القضاة بمختلف فئاتهم ودرجاتهم، المفتون، علماء الشريعة وأصول الدين، هيئات التدريس في المدارس الإسلامية، ويُعاون هؤلاء جميعاً الكثير من الإداريين، إضافة لما يلحق بهاته المؤسسة من طبقات وفئات موسّعة كقنابة الأشراف، وشيوخ الطرق الصوفيّة المنتشرة بكثرة في مركز الدولة وأقاليمها المختلفة^(٥).

وقد ضمّت أجهزة الدولة العثمانية عدداً كبيراً من العلماء ذوي الصلاحيات، فكان قاضي بروسه^(٦) أوّل مسؤول من العلماء في جهاز الحكم العثماني، وبعد تطوّر الدولة استُحدث منصب قاضي العسكر سنة ١٣٦٣م بداية عهد السلطان مراد الأوّل^(٧)، والذي توزّعت مهامه بين إدارة الأجهزة التعليمية، وتلبية الاحتياجات القضائية بين أفراد الجيش العثماني، وفئة العسكريين الإداريين في الحرب والسلم، وترأس النظام القضائي العثماني ومقره العاصمة، والإشراف على أعمال القضاة في سائر أنحاء الدولة، كما تولّى إصدار الفتاوى السياسية والدينية لتأييد شيخ الإسلام، أو بدلاً عنه نتيجة بعض الأسباب^(٨)، ومما ضاعف صلاحياته، حضوره جلسات الديوان الهمايوني، وإبداء رأيه في المسائل القانونية خاصّة الشريعة منها، وسماع الدعاوى التي تدخل ضمن اختصاصه.

وبعد اتّساع أراضي الدولة في الرومي والأناضول، استحدثت الدولة منصباً ثانياً لقضاة العسكر سنة ١٤٨١م أواخر عهد السلطان محمد الفاتح، لكن وابتداءً من أواخر القرن السادس عشر الميلادي أخذ نفوذ شيخ الإسلام يتضاعف أمام نفوذ قضاة العسكر، حتى صار

أمر تعيينهم منوطاً به، وفي القرن التاسع عشر الميلادي دخل المنصب ضمن كيان باب المشيخة الإسلامية^(٩). أما "شيخ الإسلام"^(١٠) فبعد الرئيس الفعلي للهيئة الدينية، وإن كان خاضعاً هو نفسه لحكم السلطان، فإذا كان السلطان العثماني هو رئيس الهيئة الإسلامية بمداولها العام والخاص، فإن "شيخ الإسلام" كان الرئيس الفعلي للهيئة العلمية الإسلامية والمهيمن عليها، يقول عنه المؤرخ "بول ريكو" Paul Ricaut: "هو القديس الأعظم، وفي الوقت نفسه المرجع الديني والمفسر للقانون"، ويخضع له القضاة الشرعيون والقضاة العسكريون والمفتون^(١١)، حيث كان كل من الإفتاء، القضاء والتدريس في بدايات الدولة العثمانية ضمن اختصاص واحد^(١٢)، ثم استقلت الوظائف الدينية عن بعضها البعض، فأصبح "مفتي استانبول" هو من يتولى رئاسة الهيئة الدينية الإسلامية^(١٣).

ويأتي شيخ الإسلام بعد الصدر الأعظم^(١٤) ويتلوه في التشریفات الرسمية، وله مهامه الخاصة التي يؤديها باستقلال في وجود السلطان والصدر الأعظم، مثل تشييع جنازة السلطان المتوفى، ومبايعة السلطان الجديد وتقليده السيف^(١٥). وتقديراً لمكانته كان السلطان يستشير في العديد من المسائل الهامة كتعيين الوزراء الجدد، وفي قضايا إعلان الحرب وتحقيق الإصلاحات والتغييرات في مؤسسات الدولة الحكومية، ليس هذا فحسب بل كان له حق إقرار ما إذا كانت انتفاضة ما، كالتى تقوم بوجه الدولة شرعية أم باطلة، كما كان يفتي فيما إذا كانت المطالبة بالعرش السلطاني من طرف ورثة السلطان جائزة أم أنها مخالفة^(١٦)، وقد حرص السلاطين على تدعيم سلطة شيخ الإسلام، فكانوا يفرعون إلى استغلال مكانته والإفادة من نفوذه عند الأزمات، حتى بلغ من سلطته قدرته على إصدار فتوى بعزل السلطان نفسه^(١٧).

وفي بداية ظهور المنصب في الدولة، كان يُسمى "مفتي العاصمة" تمييزاً له عن رجال الإفتاء الذين كانوا يعملون في معظم الأقاليم الأخرى^(١٨)، واختلفت آراء المؤرخين حول الفترة الزمنية التي أطلق فيها لقب "شيخ الإسلام"^(١٩)، ومهما يكن من أمر فإنه على الرغم من أن المصادر تفتقر إلى الوثائق التي يمكن من خلالها إصدار

رأي قاطع فيما يتعلق بنشأة منصب شيخ الإسلام، فإن أغلب المصادر تصرح بأنه قد عرف منذ وقت مبكر عند العثمانيين^(٢٠)، فمنذ أن تولّى مراد الثاني الحكم (١٤٢١-١٤٥١م) بعد فترة من البلبلّة الدينية والسياسية، أدرك أهمية وجود شخصية مرجعية دينية على مستوى الدولة فعين شمس الدين الفناري^(٢١) في منصب المفتي الأكبر، ومع أن السلطان محمد الثاني (١٤٥١-١٤٨١م) هو من أطلق في قانون نامه لقب "شيخ الإسلام" ورئيس العلماء^(٢٢)، إلا أن التطور الأهم حصل عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م) الذي حدد مهامه بصفة دقيقة، فجعله أكبر شخصية في الهيئة الدينية، وقدمه على جميع موظفي الدولة، وأوكل إليه صلاحية إقالة وتعيين أعضاء طبقة العلماء، إلى جانب إصدار الفتاوى والتدريس، ما جعله يمارس تأثيراً سياسياً واضحاً في شؤون الحكم والإدارة^(٢٣). ولعل الخلط الذي أحدثه كثير من الباحثين بين لقب مفتي وشيخ الإسلام، سببه ربطهم بين الفتوى الصادرة عن المفتي وفتاوى شيخ الإسلام، وذلك لتشابه كل من (مفتي وفتوى)، وقد حدث الخلط نفسه بين لقب القاضي وشيخ الإسلام^(٢٤).

ويعود ظهور لقب "شيخ الإسلام" أيضاً إلى رغبة السلطان في إضفاء مزيد من الأهمية والتبجيل على مفتي العاصمة، في مواجهة رؤساء الطوائف الدينية غير الإسلامية من جهة، وتوسط ميزان القوى بين التيارات والمذاهب الإسلامية الكثيرة في الدولة من جهة أخرى، وذلك بأن يكون لشيخ الإسلام الرأي الفاصل في الفتوى، حتى لا يطغى في الدولة مذهب ديني على حساب مذهب آخر يكون بمقدوره التأثير في المجتمع، إضافة إلى محاولة إيجاد نوع من التوازن بين الوظائف القيادية في الهيئتين الرئيسيتين في الدولة، وهما: طبقة "القولار" والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة، فرات أن تطلق على شخصية دينية إسلامية، لقباً دينياً وأدبياً يجعل من هذه الشخصية نداً للصدر الأعظم^(٢٥). ويعرض لنا النص القانوني في تلخيص البيان، تحت فصل (قانون شيخ الإسلام) بيان أهمية هذه المؤسسة ومقامها: "ومن المعلوم في هذه الدولة العالمة مقام شيخ الإسلام، فهو في مرتبة الوكالة الكبرى"، بمعنى أنه إذا لم يكن أعلى من الوزارة العظمى على الأقل، فهما متساويان

مدى الحياة، وله امتيازاته ومكانته في الدولة، إذ يتولّى تسيير شؤون الأشراف المختلفة^(٢٨)، ورغم أن أعماله لم تكن ذات حجم كبير إلا أنه كان يحظى بجهاز خاص، ويساعده في أعماله خارج العاصمة وكيل في كل ولاية، يُدعى "قايمقام نقيب الأشراف"^(٢٩).

ثانياً: مظاهر الضعف في الهيئة الدينية ومحاولات إصلاحها

منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، وبعد الأزمة^(٤٠) التي شهدتها الدولة، بدأ الضعف يدب في جميع مؤسسات الحكم العثماني، بما فيها الهيئة الدينية، وقد عبر رجال الإصلاح العثمانيون، كل من موقعه وتخصّصه عن الخلل الذي شهدته مختلف المؤسسات، فكتبت العديد من المؤلفات، وأُرسلت الكثير من تقارير السفراء، كما سبقتهما العديد من رسائل الإصلاح التي تنتمي من حيث الشكل إلى ما يُعرف في الأدب الإسلامية "نصائح الملوك"، هاته الأخيرة التي حملت الكثير من الأفكار والتصورات لتشخيص واقع الدولة، والدعوة إلى إصلاح مؤسساتها، لكنها أفكار ظلت في عمومها وإلى غاية نهاية القرن السابع عشر الميلادي محكومة بالأطر التقليدية وعقدة التفوق؛ وضرورة الاكتفاء بالمرور الإسلامي العثماني؛ وعدم الالتفات إلى العالم المحيط، سيما أعداء الدولة العلية من الأوربيين، وهو ما حال دون استشعار المتغيرات الحقيقية المحيطة بالدولة العثمانية.

ويُعدُّ كتاب "آصفنامه" من أوائل المؤلفات التي استشعرت التفكك في نظام الحكم العثماني، حيث تحدّث مؤلفه "لطف باشا الرومي ابن معين الألباني"^(٤١) (ت ١٥٦٤م) عن العلماء، واستخدم عبارات لا تدلُّ كثيراً على الإطراء والمديح، بل كان له من الجرأة التصريح بأن شيخ الإسلام أبا السعود أفندي (ت ١٥٧٥م) وبعض العلماء في عصره، لا يملكون علماً يعدل ما بلغوه من شهرة^(٤٢)، أمّا "طاشكيري زاده أحمد أفندي" (ت ١٥٦١م)، فيقول بأن الرغبة القديمة في العلوم الشرعية ضاعت بين العلماء في المدارس خلال العقد الخامس من القرن ١٦م، ومستوى العلم تدنّى بوجه عام، ولم يعد أحد يقبل على قراءة كتب العلوم النظرية، وقد

في الدرجة، بل في بعض الخصوصيات يُعدُّ هو أعلى منها^(٢٦).

ويأتي بعد شيخ الإسلام فئة القضاة، ولا تُمنح صفة القاضي^(٢٧) في الدولة إلا لمن كان له مسار علمي ودراسي طويل، وينقسمون حسب وظائفهم إلى خمس فئات تختلف في الدرجة والمقام: "الملّا الكبير" Molla، ثمّ الملّا الصغير^(٢٨)، والذين يعملون كقضاة عاديين، ويشكّلون الغالبية العظمى من عدد قضاة الهيئة الإسلامية، وقد بلغ عددهم في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي أربعمئة وخمسين قاضياً، يباشرون القضاء بالمدن الصغيرة في الولايات العثمانية^(٢٩)، ويليهما المفتشون وكانوا خمسة فقط، يختصّون بالإشراف على الأوقاف السلطانية^(٣٠)، ثمّ النواب الذين يباشرون اختصاصاتهم القضائية في بعض القرى والمدن الصغيرة، كما يُنوبون عن القضاة أثناء غيابهم^(٣١)، وباعتبار المذهب الحنفي مذهباً رسمياً للدولة العثمانية، فقد كانت الأولوية للقاضي الحنفي^(٣٢).

كما يُشكّل الإفتاء أهمية كبيرة في الهيئة الإسلامية، وإن كان يأتي في ترتيبه بعد القضاء، ويشغل المفتون مناصبهم مدى الحياة دون تقيّد بالسن، ووظائفهم غير مُحاطة بأي نوع من الامتيازات التي كانت تُحاط بها المناصب الأخرى^(٣٣)، وكانوا يدرسون العلوم الدينية في مدارس العالم الإسلامي لاسيما في الشام ومصر، ثم يعودون للتدريس إمّا في العاصمة أو المدن العثمانية المهمة، أو لشغل مناصب في الهيئة الدينية، بناءً على تعيين من السلطان أو شيخ الإسلام^(٣٤).

إضافة لما سبق ضمت الهيئة العلمية كبار العلماء في الدولة، والذين يعملون على مقربة من السلطان منهم أئمة الصلاة داخل القصر، ويتمتع جميعهم بنفوذ كبير لاتصالهم المستمر والوثيق بالسلطان، وأغلبهم على ثقافة كبيرة، ما يجعل السلطان يأخذ بآرائهم أحياناً، ولم يكن علماء الدين وحدهم ينتمون إلى هاته الفئة، بل كانت هذه الهيئة تتسع لتشمل علماء التّجيم^(٣٥)، والأطباء وغيرهم^(٣٦). وإلى جانب العلماء شكّل الأشراف جزءاً من الهيئة، ومثلوا أحد الأنظمة الوراثية التي استمرت في الدولة إضافة لوراثة العرش السلطاني في أسرة آل عثمان^(٣٧)، وكان نقيب الأشراف يُعيّن من طرف السلطان

كما تحدّث المؤرّخ مصطفى نعيما في كتابه "روضة الحسين في خلاصة أخبار الخافقين" المشهور بتاريخ نعيما، عن الممارسات الخاطئة والمحسوبيّة في الهيئة الدينيّة، فيذكر أنّ شيخ الإسلام فيض الله لم يكن أوّل العلماء الذين قدّموا وظائف لأقاربهم وأتباعهم، بعد النّقة التي منحها له السلطان مصطفى الثّاني، ورغم أنّ تلك التّعيينات تكون مقبولة إذا كانت في صالح الدولة، لكن كان يجب أن يتمّ ذلك بشكل معتدل، أمّا عائلة فيض الله -برأيه- فقد سعت للسيطرة على كلّ المناصب، من أصغر منصب إلى أهمّ المناصب العلميّة والإداريّة، أو حتى في الصّدارة العظمى، وسعت للسيطرة على ممتلكات ومصالح النّاس، والتّدخل في صلاحيات الصّدر الأعظم، وهي كلّها سلوكيات لا تصلح لكرامة العلماء^(٤٧).

وقد حاولت الدولة العثمانية إصلاح ما يمكن إصلاحه في نظم وتشكيلات الهيئة العلميّة وبأساليب مختلفة، حيث صدرت أوائل القرن الثامن عشر الميلادي عدّة فرمانات سلطانيّة إلى المسؤولين عن إصلاح نظم الهيئة خلال عهد السلطانين أحمد الثالث ومحمود الأوّل، وتناولت هذه فرمانات تلك الموضوعات التي جرى الحديث عنها بالشكل التقليدي خلال القرنين ١٦-١٧م، كما حاول السلطان سليم الثالث إجراء الإصلاح في كافّة الميادين تقريباً، واهتمّ بتشكيلات الهيئة العلميّة وأعطاهم الأولويّة، ففي فرمانات التي أصدرها خطاباً إلى قاضي العسكر "حميدي زاده"، ومن بعده إلى شيخ الإسلام "دري زاده محمد عارف أفندي"، تعرّض لمواطن الخلل في نظام القضاة والتدابير اللّازم اتّخاذها لذلك^(٤٨).

غير أنّ أغلب الحلول والمقترحات الإصلاحية التي نظّر لها المؤرخون من خلال مؤلّفاتهم، وحاولت السّلطة ترجمتها إلى مشاريع سياسيّة للإصلاح، لم تكن واقعيّة في أغلب الأحيان، وارتبطت بصراعٍ مريعٍ بين أنصار "النّظام الجديد"، والنّخب المحافظة وحلفائها، كما أنّ أغلب الإصلاحات قد ركّزت على الجوانب السياسيّة، العسكريّة، الإداريّة والماليّة، في حين لم تتل سائر المجالات الأخرى ومنها التّعليم والمعرفة، وكل ما يتعلّق

كان لهذا أثره بلا شكّ على الهيئة الدينيّة، حيث وجّه "مصطفى عالي الغليبولي" بدوره (١٥٤١-١٦٠٠م) انتقادات شديدة للعلماء في كتبه: "كُنْه الأخبار"، "نصحة السّلاطين" و"موائد النّفائس في قواعد المجالس"، وذكر بأنّ العلماء قد تحوّلوا إلى رجال احتفالات ومراسم باستثناء البعض. وتحدّث كلّ من مصطفى السّلافي وحسن كافي الاقحساري (ت ١٦١٧م) عن الاضطراب والقلق النّاشئين عن كثرة العزل والتّعيين داخل الهيئة الدينيّة، وعجز العلماء عن أداء واجباتهم بسبب الإهمال والتّراخي، وتنافسهم حول التّشريفات^(٤٩).

وفي الرّسالتين اللّتين قدّمهما قوجي بك مصطفى الألباني (ت ١٦٤٨م) للسلطان مراد الرّابع، والسلطان إبراهيم خلال القرن السابع عشر الميلادي، انتقد وضع المؤسسة الدينيّة، وأشار إلى كثرة العزل وانتشار الرّشوة والمحسوبية، حيث وردّ في رسالته الأولى، بعد حديثه عن المسار العلمي الصّارم للعلماء عهد السلطان سليمان القانوني: "أما اليوم فقد تدهورت حتى طريقة التّعليم بشكل ملحوظ... وبدأ منصب شيخ الإسلام يفقد هيئته، فقد عيّن وعزل شيخ الإسلام صنّع الله أفندي عدّة مرّات من منصبه، فكان ذلك من بين الأسباب التي دفعت العلماء إلى ربط صدقات مع رجالات الدولة من أجل تأمين وظائفهم، فقلّت تبعاً لذلك جرّأتهم في الصّدع بالحق"^(٤٤).

وتحدّث "كاتب جلبي" (١٦٠٩-١٦٥٧م) أيضاً في مؤلّفاته وبالأخص في رسالته "دستور العمل لإصلاح الخلل"، عن الأزمة التي تعرّضت لها المدارس العثمانية والحياة العلميّة بوجه عام، وذكر الأسباب التي أدت إليها ووسائل علاجها^(٤٥)، ورغم أنّه لم يرفع تقريره للسلطان لإدراكه -وهو أحد رجالات الدولة- ضعف السلطان محمّد الرّابع وحاشيته، لكن جهده تمّ الاطلاع عليه فيما بعد، بما أنّه أعطاه لشيخ الإسلام عبد الرحمن بن حسان الدين (حسام زاده الرومي)، ولعلّ الصّدر الأعظم محمد باشا كوبرولو (١٦٥٦-١٦٦١م) كان هو ذاك الحاكم المستبدّ الذي تمنّاه كاتب جلبي، والذي استطاع استعادة هيبة وقوّة الدولة، خاصّة وأنّ كثيراً من إصلاحاته وإصلاحات خلفائه الأقوياء من عائلة كوبرولو تتوافق مع رؤاه^(٤٦).

بالهيئة الدينية ما يكفي من الاهتمام لإنجاح عملية الإصلاح^(٤٩).

ثالثاً: الهيئة الدينية خلال القرن التاسع عشر الميلادي (بين تراجع النفوذ وتطور المؤسسات)

شهدت الدولة العثمانية منذ العقد الثالث من القرن التاسع عشر الميلادي، عديد التطورات السياسية والإدارية، خاصة ما تعلق بمجال إصلاح المؤسسات ونظمها الإدارية المقتبسة من الغرب الأوربي وبالأخص فرنسا، ومحاولة وضعها في قالب عثماني^(٥٠)، حيث بدأت النظرة إلى هيئة رجال العلم وأدوارهم تختلف، فأهملت الدولة فئة العلماء، وانتزعت ما كان لهم من إمكانيات ونُفوذ واسع، وقد تنازع تيار الإصلاح آنذاك اتجاهان: تيار الإصلاح الليبرالي من جهة، وتيار الأصالة والمحافظين الذين دافعوا أمام حركة التغيير والتغريب، لكنه ورغم الاستجابة القوية لهم من قطاعات الأمة المختلفة، لم يكن لهم نفوذ وسلطة النخبة العثمانية المثقفة ثقافة غربية في أوساط الحكم، يؤكد ذلك ما جاء في مقدمة خط كلخانة: "إن المؤسسات الحديثة الموجودة في هذه الأيام في أوروبا، لا يوجد مثيلها في البلاد العثمانية، ولا بد أن تستورد هذه المؤسسات من الغرب"^(٥١).

وكغيرها من مؤسسات الدولة تعرضت الهيئة الدينية لإعادة هيكلة، تراجع من خلالها منصب شيخ الإسلام، وسُحبت منها كثير من الصلاحيات، نتيجة لظهور المؤسسات الجديدة المنظمة على الطريقة الأوروبية، وظهور المعاهد التقنية، والقضاء المتخصص، ففقدت الهيئة نفوذها تدريجياً، وتوارى تأثير العلماء في عهد التنظيمات^(٥٢)، وأصبح في الدولة العثمانية مؤسستين الأولى سلفية عثمانية إسلامية (المؤسسة القديمة)، والثانية جديدة على الطراز الغربي، وصارت الهيئة الدينية مؤسسة بمعنى الكلمة.

ويمكن تقييم أوضاع الهيئة الدينية خلال مرحلة التنظيمات ضمن إطارين: تراجع النفوذ وتطور المؤسسات الإدارية، ففيما يخص تراجع النفوذ والتأثير، فقد سحبت الإصلاحات العثمانية من شيخ الإسلام

ورجال الهيئة الإشراف على الكثير من القطاعات الحكومية التي صارت مدنية، بعد أن كانت ذات طابع شرعي إسلامي^(٥٣)، وكانت أكبر ضربة وجهت إليهم في هذا الصدد هي تأسيس "أوقاف همايون نظارتى"^(٥٤) (نظارة الأوقاف الهمايونية) سنة ١٨٢٩م، والتي استحوذت على موارد الأوقاف، فتضررت المدارس التي كانت تُسير بفضل وارداتها بعد أن سلبت مواردها المالية، كما تضررت الخدمات الدينية الأخرى، ولم تقم فيها محاولات جادة لتجديدها وتطويرها، بل على العكس تركت على حالها، كما تلقت تلك المدارس ضربة أخرى عند تأسيس نظارة المكاتب العمومية (نظارة المدارس العامة) سنة ١٨٤٦م^(٥٥)، والتي تغير اسمها فيما بعد إلى نظارة المعارف العمومية^(٥٦)، حيث رأت الدولة ضرورة أن تُقيم مؤسسات تعليمية بديلة على الطراز الأوربي.

أيضاً وفي إطار تراجع نفوذ شيخ الإسلام، قامت الدولة سنة ١٨٣٠م بسحب عضوية قاضي العسكر من الديوان الهمايوني (الحكومة)، وأدخل شيخ الإسلام إلى عضويته بدلاً عنه وبذلك قل نفوذه^(٥٧)، ومع صدور خط التنظيمات "همايون ١٨٥٦م" باشرت الدولة سلسلة من الإجراءات التشريعية والقانونية، تم من خلالها تحديث النظام القضائي وفقاً للمفاهيم الغربية، وأعيد النظر في تنظيم محاكم الدولة، فأنشئت محاكم مدنية مختلطة، كما قُسم القضاء ابتداءً من سنة ١٨٥٨م إلى: قضاء "شرعي" يستند على تطبيق الشرع الإسلامي، وقضاء "نظامي" وفقاً للمفاهيم الغربية، وشرعت الدولة استناداً للقوانين الفرنسية في المجالات الجنائية والمدنية، ما قلص من نفوذ شيخ الإسلام والمؤسسة الدينية ككل^(٥٨).

من جهة أخرى، وإذا كانت حركة التنظيمات قد حددت من نفوذ المؤسسة الدينية فإنها قد سمحت من جهة ثانية بتطورها إدارياً ومؤسساتياً، حيث قامت الدولة بإعادة بناء مؤسسات الهيئة بأسلوب جديد، فخصص السلطان محمود الثاني "سرايا أغاسي" وهو مبنى قيادة الانكشارية القديم بعد إلغائها كمقر لشيخ الإسلام، وسمي (باب المشيخة)^(٥٩)، وبذلك صار عنواناً ثابتاً لمشيخة الإسلام^(٦٠)، كما جرى تنظيم جديد كما تبينه السالنامة^(٦١) العثمانية العامة خلال الفترة (١٨٥٦-١٨٥٦)

فتوى من شيخ الإسلام تُجيزُ له محاربة "محمد علي" والي مصر، إثر اندلاع حرب الشام الأولى سنة ١٨٣١م، وعندما توقفت العمليات الحربية بين الطرفين وأبرمت اتفاقية "كوتاهية" سنة ١٨٣٣م، عاد واستصدر فتوى أخرى تُجيزُ له التوقف عن حربه، وقد جاء في الفتوى ردًا على سؤال السلطان: "إذا كانت طائفة من المسلمين جمعت العساكر وهجمت على طائفة أخرى من المسلمين، ولكنها عرضت بعد ذلك الطاعة إلى إمام المسلمين وخليفة الأرض، خلد الله ملكه إلى يوم الدين، ورجعت عن تعدياتها، هل يكون من المشروع أن تقبل طاعتها وترك قتالها؟" (٧٠)، فصدرت الفتوى من شيخ الإسلام بقبول طاعتهم والكف عن قتالهم.

كما وظف محمود الثاني الهيئة الدينية في سياسته الخارجية، حين استصدر فتاوى تجيز تنازل الدولة عن أقاليم عثمانية خاضعة لها لدول أخرى، بعد اضطراره لقبول صلح أدرنه سنة ١٨٢٩م، عقب الحرب الخاسرة ضد روسيا سنة ١٨٢٨م، والاعتراف باستقلال اليونان استقلالاً داخلياً، وباستقلال ولايتي "الأفلاق والبغدان" في إدارتهما تحت حماية روسيا، وبهذا اتجه إلى شيخ الإسلام للحصول على فتوى يستند عليها في التصديق على المعاهدة (٧١).

من جانب آخر استغلت المؤسسة الدينية من أطراف مختلفة في نظام الحكم، ويمكن إعطاء أمثلة عن ذلك في مجال فتاوى عزل السلاطين، والتي كانت تستصدر عادة من معارضي السلطان أو المؤسسة العسكرية، كفتوى عزل السلطان سليم الثالث سنة ١٨٠٨م، بسبب الإصلاحات التي شرع فيها في الدولة، والتي مست تنظيم الجيش الانكشاري وفقاً للأساليب الأوروبية، وكان نص فتوى شيخ الإسلام محمد عطا الله أفندي (٧٢): "إن كل سلطان يدخل أنظمة الفرنجة وعوائدهم، ويجبر الرعية على إتباعها لا يكون صالحاً للملك"، وبالفعل تم عزله وقتله على يد الانكشاريين، الذين وقفوا بدوافع المصلحة الشخصية في وجه كل محاولة لتطوير الجيش من حيث نظامه أو أسلحته (٧٣).

أيضاً كانت فتوى عزل السلطان عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦م) في ٢٩ ماي ١٨٧٦م على يد شيخ الإسلام "حسن خير الله أفندي" (٧٤) مظهراً آخرًا لتوظيف

من خلال استحداث عشرة مجالس شرعية مختلفة الاختصاص (٦٢) تُشرف على كافة القطاعات والأجهزة الدينية والشرعية فيها، وأصدرت العديد من القوانين والأنظمة التي تنظم عمل الهيئة الدينية (٦٣).

فكانت المشيخة الإسلامية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي تتألف من شيخ الإسلام ومكتبه المركزي، والذي يضم مستشار ومفتش الأوقاف، بالإضافة لجهاز القضاء العثماني برئاسة قاضي عسكر الروملي وقاضي عسكر الأناضول، وجهاز قضاء مدينة إستانبول وضواحيها، وقد استمر هذا التنظيم الإداري للمشيخة حتى نهاية الدولة العثمانية، مع بعض التغييرات الإدارية الطفيفة التي تشمل تغيير بعض المسميات في بعض الإدارات أو المجالس، أو إضافة بعض الدوائر الداخلية (٦٤).

رابعاً: نماذج من التوظيف السياسي للهيئة الدينية خلال القرن التاسع عشر الميلادي

مع إعادة هيكلة المؤسسة الدينية، ورغم تراجع دور وأهمية شيخ الإسلام خلال القرن التاسع عشر الميلادي، فقد تم توظيف المؤسسة الدينية في الشأن السياسي العثماني، وحرص السلاطين دائماً على تدعيم سلطتهم من خلال فتاوى شيخ الإسلام، الذي ظلت تتمتع باحترام لدى الرأي العام العثماني وتؤثر فيه (٦٥)، لذا كان يدعى إلى الديوان الهمايوني عند الحاجة، على الرغم من أنه ليس عضواً فيه (٦٦).

فاستخدم السلطان محمود الثاني المؤسسة الدينية استخداماً أداتياً لتطبيق برنامجه، وهذا بعد أن كسبها إلى جانبه، من خلال تعيين أشخاص موالين له في مناصب شيخ الإسلام وقضاة العسكر، ووافق العلماء على ضرب حلفائهم التقليديين (الانكشارية)، واعتبروه عملاً خيراً سنة ١٨٢٦م، بل صار القضاء عليهم واجباً إسلامياً، وأصدر شيخ الإسلام "طاهر أفندي قاضي زاده" (٦٧) فتواه بتأسيس الجيش الجديد، وبذلك مهدت المؤسسة الدينية لتقليص نفوذها على نحو تدريجي (٦٨).

وفي مجال إقناع المجتمع العثماني بجدوى سياسته، وتكوين رأي عام مساعد (٦٩) استصدر محمود الثاني

الإسلام محمد ضياء الدين أفندي^(٨٤) الذي أُجبر على توقيعها: "إذا قام إمام المسلمين زيد بطي وإخراج بعض المسائل (المسائل) الشرعية المهمة من الكتب الشرعية.. وقام بالتبذير والإسراف من بيت المال.. ووردت أخبار متوالية من جوانب بلاد المسلمين يعتبرونه مخلوعاً، وأصبح بقاؤه محقق الضرر، وزواله محتمل الصلاح، فهل يجب أحد الأمرين: خلعه أو تكليفه بالتنازل عن الإمامة والسلطنة، على حسب ما يختاره أهل الحل والعقد، وأولي الأمر من هذين الوجهين؟ الجواب: نعم"^(٨٥).

وعندما انفرد الاتحاديون بالسلطة بعد عزل السلطان عبد الحميد حرص النظام الجديد على الانتقاص من سلطة هذه الهيئة، المتمثلة في سلطة شيخ الإسلام وسائر علماء الدين، وتجريدتهم تبعاً من اختصاصاتهم وامتيازاتهم، كما انتزعت منها مهمة الإشراف على التعليم والقضاء، لتلغى بعدها وظيفة شيخ الإسلام والمؤسسة الدينية ككل.

خاتمة

من أهم ما خلصت إليه الدراسة من استنتاجات:

١. كان لحركة الإصلاحات والتطعيمات خلال القرن التاسع عشر الميلادي، تأثير على كل مؤسسات الدولة بما فيها الهيئة الدينية، التي تعرضت لإعادة هيكلة، تراجع من خلالها منصب شيخ الإسلام، نتيجة لظهور المؤسسات الجديدة المنظمة على الطريقة الأوربية، ويمكن تقييم أوضاعها ضمن إطارين: تراجع النفوذ، وتطور المؤسسات الإدارية.

٢. رغم ما تعرضت له المؤسسة الدينية من إهمال خلال القرن التاسع عشر الميلادي، فقد استغلت ووظفت سياسياً من أطراف مختلفة في نظام الحكم، سواء من قبل السلاطين، حيث استفاد كل من محمود الثاني وعبد الحميد الثاني في سياستهما الداخلية والخارجية من المؤسسة الدينية، وفي إقناع المجتمع العثماني بجدوى إصلاحاتهم، أو من طرف المؤسسة العسكرية وحركات المعارضة، خاصة فيما تعلق بفتاوى خلع وتنصيب السلاطين.

المؤسسة الدينية في صراعات الحكم، وكانت الحجة هي إسرافه والتجائه إلى القروض الأجنبية من باريس ولندن وعجزه عن تصريف شؤون الدولة^(٧٥)، وهي الفتوى التي أملت في حقيقة الأمر المؤسسة العسكرية، فكان أن عزل السلطان عبد العزيز رسمياً في اليوم الموالي لصدورها، وعين مكانه ابن أخيه "مراد الخامس"، والملاحظ أن تلك الفتوى لم تكن كافية وحدها لعزل السلطان، لولا تدخل ضباط الجيش وتأييدهم لها ومطالبتهم بتنفيذها^(٧٦)، كما تم بعد ثلاثة أشهر فقط من جلوس مراد الخامس استصدار فتوى خلعه بسبب اختلال قواه العقلية، بعد حادثة الافتحام التي قام بها حسن بك جركس، وتم تنصيب عبد الحميد الثاني على العرش العثماني^(٧٧).

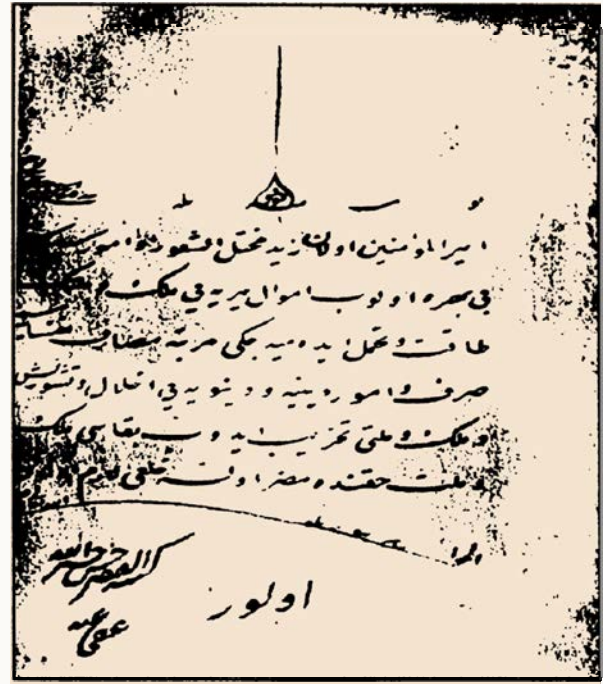
أما في العهد الحميدي، فقد سعى السلطان عبد الحميد الثاني وفي إطار سياسته الإسلامية، إلى إعادة هبة العلماء ورجال الدين، والمتصوفين، وافتتح التكايا والزوايا، ورعى المؤسسات الإسلامية، ودعم الصحافة الإسلامية بالمال، للترويج لأفكار الجامعة الإسلامية^(٧٨)، لكن الملاحظ أن حكمه الفردي قد أضعف البناء المؤسسي^(٧٩)، فهو حتى في مشروع الجامعة الإسلامية التي سعى من خلالها للوقوف في وجه الاستعمار والمطامع الغربية، قد أقامه بالأساس على أشخاص مقربين منه كشيخو بعض الطرق الصوفية، وسعى لتكوين رابطة بين مقر الخلافة استانبول، وبين تكايا ومراكز تجمع تلك الطرق في كل أنحاء العالم الإسلامي، فتكونت لجنة مركزية من علماء وشيوخ تلك الطرق، عملوا كمستشارين للسلطان في شؤون الجامعة أبرزهم: أحمد سعيد، محمد ظافر الطرابلسي^(٨٠)، أبو الهدي الصيادي وغيرهم^(٨١)، كما وجد في شخصية جمال الدين الأفغاني الطرف الأنسب للإشراف على المشروع، حيث عمل على استمالته واستقدامه لاستانبول سنة ١٨٩٢م، لكن علاقته به سرعان ما توترت وانهارت الثقة وبالتالي المشروع^(٨٢)، والأهم في كل هذا أن البناء المؤسسي ممثلاً في المشيخة الإسلامية لم يعط حقه في المشروع^(٨٣).

كما وظفت المشيخة الإسلامية مرة أخرى سنة ١٩٠٩م في حادثة عزل السلطان عبد الحميد الثاني نزولاً عند رغبة الاتحاديين، حيث جاء في فتوى شيخ

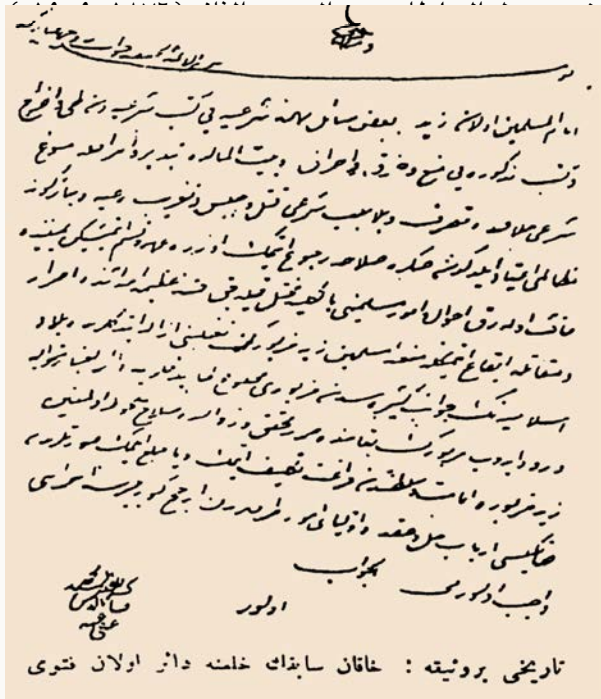
الملاحق

ملحق رقم (١)

فتوى عزل السلطان عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦م)



ملحق رقم (٢)



منه التوفيق

ما قول شيخ الإسلام دَامَ بَابُهُ مَرْجِعًا لِلْأَنَامِ فِي هَذِهِ

المسألة:

إذا قام إمام المسلمين زيد بطي وإخراج بعض المسائل (المسائل) الشرعية المهمة من الكتب الشرعية.. وقام بالتبذير والإسراف من بيت المال.. ووردت أخبار متوالية من جوانب بلاد المسلمين يعتبرونه مخلوعاً، وأصبح بقاؤه محقق الضرر، وزواله محتمل الصلاح، فهل يجب أحد الأمرين: خلعه أو تكليفه بالتنازل عن الإمامة والسلطنة، على حسب ما يختاره أهل الحل والعقد وأولي الأمر من هذين الوجهين؟ الجواب: نعم.

نشرت الفتوى في تقويم وقائع، ١٩٤٤، وفي الدستور (الترتيب الثاني) وفي غيرها.

أحمد صدقي شقيرات، تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني، ١٤٢٥-١٩٢٢م، مج ٢، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٢، ص ٣٣٦.

منه التوفيق

إذا كان أمير المؤمنين زيد مُخْتَلُّ الشُّعُور، وقليل الاختبار بالشؤون السياسية، يُنفق الأموال الأميرية في سبيل شؤونه الذاتية بصورة ليس في مقدور الشعب والبلاد احتمالها، ويُشَوِّشُ الأمور الدينية والزمنية، مُخْرِبًا البلاد والعباد، فهل يَصِحُّ خَلْعُهُ، إذا كان بقاؤه مُضِرًّا بِالْمُلْكِ وَالشَّعْبِ؟

الجواب: يَصِحُّ

كتبه الفقير حسن خير الله عفي عنه

أحمد صدقي شقيرات، تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني، ١٤٢٥-١٩٢٢م، مج ٢، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٢، ص ٢٦٦.

الإحالات المرجعية:

(١٠) **شيخ الإسلام:** ظهر مصطلح شيخ الإسلام Seyhul-Islam كلقبٍ تشريفي يُطلق على بعض شيوخ المتصوفة وعلماء الشريعة في العالم الإسلامي منذ القرن ١٠م كإبن تيمية. ومنذ سنة ١٣٠٠م ارتبط المصطلح أكثر بطبقة المفتين في كل من مصر والشام، التي مثل فيها لاحقاً صفة أعلى منصب على رأس المؤسسة الدينية، ويعتبر "محمد شمس الدين فناري" أول شيخ للإسلام في الدولة العثمانية. يُنظر: أكرم كيدو، **مؤسسة شيخ الإسلام في الدولة العثمانية**، تر: هاشم الأيوبي، لبنان، ١٩٩٢، ص٢٤؛ أحمد صدقي شقيرات، **تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني ٨٢٨-١٣٤١هـ/١٤٢٥-١٩٢٢م**، مج١، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٢، ص٣٠١؛

J.H. Kramers and R.W. Bulliet, *Shaykh AL-Islam, The Encyclopedia of Islam*, T.9, New Edition, E.J.Brill, Leiden Holland, 1997, pp399-400.

(11) Sir Paul Ricaut, *The Present State of The Ottoman Empire*, Harvard Univ Library, 1958, p.110.

(١٢) طاشكيري زاده، **الشقائق العثمانية في علماء الدولة العثمانية ويليهِ العهد المنظوم في أفاضل الروم**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٥، ص١٨.

(١٣) محمد م. الأرنؤوط، **دراسات في التاريخ الحضاري للإسلام في البلقان**، تق: عبد الجليل التميمي، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي زغوان، تونس، ١٩٩٦، ص١٠١ وما بعدها؛ يُنظر أيضاً: يعقوب جايمار أوغلي، **حقوق النقليات في الدولة العثمانية من خلال فتاوى شيخ الإسلام أبي السعود في القرنين الخامس عشر والسادس عشر**، رسالة ماجستير، المعهد الأعلى لأصول الدين جامعة الزيتونة، تونس، ٢٠٠٢، ص٨.

(١٤) بل إنّه في عهد السلطان سليمان القانوني صارت رتبة شيخ الإسلام تُعادل رتبة الصدر الأعظم، حيث كانا الموظفَين الوحيدَين اللذين يُقلدان المنصب من طرف السلطان نفسه، وفي المراسم يتقدّمان بحيث لا يسبق أحدهما الآخر. للمزيد يُنظر: هاميلتون جب وهارولد بوون، **المجتمع الإسلامي والغرب دراسة حول تأثير الحضارة الغربية في الثقافة الإسلامية بالشرق الأدنى في القرن ١٨م**، تر: أحمد إيبش، ج٢، ط١، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ٢٠١٢، ص٢٩٩.

(١٥) سعد الدين مستقيم زادة سليمان، **"دوحة المشايخ مع الملحق مشايخ الإسلام في الدولة العثمانية"**، عرض: عبد الخالق عبد الكريم عبد الفتاح، مجلة كلية اللغات والترجمة، ع١٧، القاهرة، ١٩٨٧، ص٣٦.

(١٦) كيدو، **مؤسسة شيخ الإسلام...**، المرجع السابق، ص٩٨.

(١٧) شمس الدين نجم، مرجع سابق، ص٢٢٢.

(18) Lybyer Albert Howe, *The Government Of The Ottoman Empire In The Time Of Suleiman The Magnificent*, Volume.XVIII, Cambridge Harvard University Press, Henry Frowde Oxford University Press, London, 1913, P.199.

(١٩) يرى القانوني التمسلاوي "هايدبورن" Heidborn، أنّ السلطان مراد الثاني هو من أطلق لقب شيخ الإسلام على المولى "شمس الدين الفناري" مفتي أدرنة، بينما يرى فريق آخر منهم المؤرخين: "مرادجا دوسون" Dohosson و"ألبرت ليبير" Lybyer، أنّ السلطان محمد الثاني، هو من أطلقه على مفتي العاصمة، في حين يرى فريق ثالث منهم المؤرخين "جب وبون" Gibb and

(١) علي مزهر العكلي، **النظام السياسي في الإسلام دراسة تحليلية مقارنة حول النظم السياسية عند المسلمين**، أطروحة دكتوراه، إشراف: ياسين العيثاوي، الأكاديمية العربية في الدنمارك، كلية القانون والسياسة، ٢٠١٤، ص٢٣٧؛ أوريل هايد، **"موقف العلماء من الإصلاحات في عهدي سليم الثالث ومحمود الثاني"**، تر: عبد اللطيف الحارس، مجلة الاجتهاد، السنة ١١، ع ٤٥-٤٦، دار الاجتهاد للترجمة والأبحاث والنشر، بيروت، شتاء وربيع ٢٠٠٠، ص٤٢-٤٣.

(٢) كان من أبرز تلك السباقات ازدياد الضغوط الأوربية على الدولة العثمانية، ونمو الرأسماليات التوسعية التنافسية، إضافةً لوعي النخب المحلية لأهمية الإصلاح باعتباره مدخلاً لإنقاذ الدولة وتقويتها، عبر اقتباس ما تعتقد أنّه مكمّن ازدهار وقوة الغرب.

(٣) وجيه كوثراني، **"التنظيمات العثمانية والدستور بواكير الفكر الدستوري نصاً وتطبيقاً ومفهوماً"**، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية، المركز العربي للدراسات الفكرية والثقافية، الدوحة، ٢٠١٣، ص٧-٨.

(٤) فرانسوا جورجيو، **النزاع الأخير ١٨٧٨-١٩٠٨**، في تاريخ الدولة العثمانية، إشراف: روبير مانتوران، تر: بشير السباعي، ج٢، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣، ص١٦٧.

(٥) كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، تر: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، طه، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨، ص٤٨١.

(٦) **بروسه Bursa:** (اسم المكان باللغة العثمانية Yer Adi Osmanlıca) تعتبر الحاضرة العثمانية الخامسة في تاريخ العثمانيين، بعد كل من سكود Söğüt، قره جه حصار Karacahisar، يني شهر Yeni şehir، وازنيك Iznik. **للمزيد يُنظر:** إيرين بيلديسينو، **البدايات عثمان وأورخان**، في: تاريخ الدولة العثمانية: إشراف: مانتوران، المرجع السابق، ص١٧ وما بعدها؛

Tahir Sezen, *Osmanlı Yer Adları*, T.C. Başbakanlık Devlet Arşivleri Genel Müdürlüğü Yayın NO:26, Ankara, 2017, SS139,392,416, 695, 815.

(٧) كان أول من شغل وظيفة قاضي العسكر، هو قاضي بورصة خليل خير الدين جندرلي، أول عائلة جندرلي، وأحد العلماء البارزين آنذاك، كما تولّى أفراد هذه الأسرة منصب الصدارة العظمى ولمدة أربعة أجيال، وهم على التوالي: خير الدين قره خليل جندرلي (٧٧-٨١٣هـ) عهد السلطان مراد الأول، علي بن قره خليل (٨١٣-٨١٥هـ) عهد السلطان بايزيد الأول، إبراهيم بن علي (٨١٤-٨٣١هـ) عهد السلطان محمد الأول، خليل بن إبراهيم (٨٣٢-٨٥٧هـ) عهد السلطان مراد الثاني، وإبراهيم (بن خليل بن إبراهيم) سنة ٩٠٣هـ عهد بايزيد الثاني. يُنظر: أكمل الدين إحسان أوغلي وآخرون، **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة**، تر: صالح سعداوي، مج١، د.ط، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون الإسلامية ارسیکا، إستانبول، ص٢٩٩؛ إدوارد فون زامباور، **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، أخرجه: زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، تر: سيدة إسمايل كاشف وآخرون، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٠، ص٢٤٠-٢٤١.

(٨) خليل إينالجيک، **تاريخ الدولة العثمانية**، تر: محمد م. الأرنؤوط، ط١، دار المنار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢، ص٢٦١-٢٦٠.

(٩) إحسان أوغلي، المرجع السابق، ص٣٠١-٣٠٢.

بالمستأمنين التي كانت من اختصاص محاكم القنصليات تطبيقاً لمقتضيات الامتيازات الممنوحة للأجانب، كما أنَّ قضايا أهل الذمة كانت من اختصاص محاكم الطوائف، وقد أوكلت للقضاة أيضاً بعض المهام الإدارية كمرافقة الأسواق والبضائع والأسعار، يساعده في ذلك المحتسب حتى زمن التنظيمات، عندما قرّرت الدولة العثمانية إحالة وظائفهم الإدارية على موظفين إداريين كالولاء والقائمقام، ولم يبق لهم سوى الوظائف القضائية. **يُنظر:** بنحادة عبد الرحيم، **العثمانيون المؤسسات الاقتصادية والثقافة**، تقديم عبد الرحمن المودن، ط ١، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٨، ص ١٥٧-١٥٨.

(٢٨) كان القضاة من فئة "الملا الصغار" يعملون بعشر مدن عثمانية، من مدن الصف الثاني وهي: مرعش، بغداد عنتاب، بوسنا سراي، بلغراد، صوفيا، فيلوبوليس، ديار بكر، كوتاهية، قونية. **يُنظر:** كيدو، مرجع سابق، ص ١٢.

(٢٩) محمد فريد بك، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تح: إحسان حقي، ط ١، دار الجبل، بيروت، ١٩٧٧، ص ٣١١.

(٣٠) جلال يحيى، **العالم الإسلامي الحديث والمعاصر**، مكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص ٥٨١-٥٨٢.

(٣١) الشناوي، ج ١، المرجع السابق، ص ٤٣٢.

(٣٢) إينالجيك، المرجع السابق، ص ٢٢٢.

(٣٣) مانتران، **تاريخ الدولة العثمانية**، ج ١، المرجع السابق، ص ٢٨١-٢٨٢.

(٣٤) صلاح أحمد هريدي، **دراسات في تاريخ العرب الحديث**، ط ١، عين للدراسات والبحوث الإسلامية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٢٦.

(٣٥) رغم إجماع العلماء على إنكار علم التنجيم، إلا أنَّ عددًا غير قليل من العلماء المسلمين كانوا يؤيدونه، مثل الكندي وإخوان الصفا وفخر الدين الرّازي، إذ كانوا يرون التنجيم فرع من علم النجوم، وأطلقوا عليه "علم أحكام النجوم"، وقد كان لفظ المنجم يطلق على الفلكي أيضاً، وإن لم يكن هناك تفرقة دقيقة آنذاك بين المنجم والفلكي، ولكن ظهرت التفرقة في القرن ١٩م، ومعروف أن بعضاً من السلاطين العثمانيين كمصطفى الثالث كان لا يقوم بعمل من الأعمال إلا بإشارة من المنجمين، وبالمقابل تدلنا المصادر التاريخية من ناحية أخرى أن السلطان عبد الحميد كان لا يعيا كثيراً بأقوالهم **يُنظر:** الشناوي، ج ١، المرجع السابق، ص ٤٣٧-٤٣٨؛ ؛ إحسان أوغلي، مرجع السابق، ص ٦٠٣.

(٣٦) دوسون، المصدر السابق، ص ١٤.

(٣٧) راد صاريك، **نقابة الأشراف في الدولة العثمانية**، ط ١، دار القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٢٧ وما بعدها.

(٣٨) شمس الدين نجم، المرجع السابق، ص ٢٢٢.

(٣٩) إحسان أوغلي، مرجع السابق، ص ٣٠٤.

(٤٠) يقصد بالأزمة بداية تراجع الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٦٦م، وكان من أهم مظاهرها الهزائم العسكرية أمام الدول الأوروبية، ووصول عدد من السلاطين الضعاف إلى الحكم، ما أتاح الفرصة لتدخل الحريم، إضافة للفساد الإداري وتراجع موارد الخزينة، وقد مسّت تلك الأزمة أغلب مؤسسات الدولة وهياكلها، وامتدّت زمانياً ومكانياً. رغم ذلك يرى بعض المؤرخين بأنه لا يصح أن تُطلق عليها بفترة ضعف، حيث أن البحث التاريخي بين أن الدولة العثمانية قد عانت من أزمت عديدة قبلها وتكيّفت معها، واستطاعت الاستمرار بعد قيامها ثانية، وهو ما يُفسّر طول بقائها الذي يعلو عن كونه مجرد عهد تحلل أو اختلال أو غير ذلك من

Bowen أن السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م) هو صاحب التسمية، بل يذهب المؤرخ التركي جميل بهيم إلى أن هذا اللقب يرجع إلى عهد متأخر منتصف القرن ١٨م، وأن السلطان محمود الأول (١٧٠٣-١٧٥٤م) هو من أطلقه على مفتي استانبول سنة ١٧٤١م، وهو رأي ضعيف، لا تؤيده الشواهد التاريخية. **للمزيد يُنظر:** الشناوي عبد العزيز محمد، **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفتري عليها**، الجزء ١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٤٠٠-٤٠١؛ بهيم محمد جميل، **فلسفة التاريخ العثماني كيف نشأت وارتقت السلطنة العثمانية وإلى أي حد بلغت عظمتها**، ج ٢، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٢٥، ص ٢٩٨؛ جب وبوون، المصدر السابق، ص ١٩٦؛ Heidborn A, Manuel de Droit Public et Administratif de L'Empire Ottoman, Vol.1, Livraison1, C.W. Stern Editeur, Vienne, 1909, p.215.

(٢٠) عمرو محمد عبد الباقي، **"ألقاب إسلامية عند الترك العثمانيين شيخ الإسلام قاضي العسكر المفتي"**، مجلة كلية اللغات والترجمة، ع ١٧، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٨٧، ص ١٥٧.

(٢١) **فناري زاده:** من العائلات العلمية البارزة في تاريخ الدولة العثمانية، ويعتبر المولى شمس الدين محمد فناري أول مفتي يحصل على لقب شيخ الإسلام، وهو من مواليد مدينة بورصة سنة ١٥١٧هـ/١٣٥٠م، تلمذ الصوفي الشهير صدر الدين الكوراني (ت ١٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، اشتغل بالتدريس في مدينة بورصة، ثم قاضياً، وقد ارتبط هو وعائلته كثيراً بالسلطان مراد الثاني وابنه محمد الفاتح، من أشهر مؤلفاته "فصول البدائع في أصول الشرائع". **يُنظر:** طاشكبري زاده، **الشقائق العثمانية**، المصدر السابق، ص ١١١-١١٥؛ **يُنظر أيضاً:**

J.R. Walsh, Fenari-Zade, The Encyclopaedia of Islam, Op. Cit, T. 2, p.879.

(٢٢) تضمّن قانون نامه الفاتح تحديداً دقيقاً لمراكز ورّث كبار موظفي الدولة واختصاصاتهم، وورّد في الفقرة الأولى من القانون ما نصّه: "إعلم أن الوزير الأعظم هو رئيس الوزراء والأمراء، وأجلهم قدراً وأرفعهم مقاماً وهو الوكيل المطلق للسلطان.. وإن شيخ الإسلام رئيس العلماء، والمعلم السلطاني قايّد العلماء بهذا الخصوص على سواء، ويليق بالوزير الأعظم أن يقدّمهم رعاية لهمّا على نفسه". **يُنظر:** بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، مرجع سابق، ص ٤٧٣-٤٧٤؛ خليل ساحلي أوغلي، **"قانون نامه آل عثمان"**، مجلة دراسات، مج ١٣، ع ٤٤، الأردن، ١٩٨٦، ص ١١٢.

(٢٣) أحمد أق كوندز وسعيد أوزتورك، **الدولة العثمانية المجهولة**، وقف البحوث العثمانية، استانبول، ٢٠٠٨، ص ٥٨١.

(٢٤) عمرو محمد عبد الباقي، **"ألقاب إسلامية عند الترك العثمانيين شيخ الإسلام قاضي العسكر المفتي"**، مجلة كلية اللغات والترجمة، ع ١٧، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٨٧، ص ١٥٧.

(٢٥) حمد حرب، **العثمانيون في التاريخ والحضارة**، دار القلم، دمشق، ١٩٨٩، ص ١٧٦.

(٢٦) عليان الجالودي، **التحوّلات الفكرية في العالم الإسلامي أعلام وكتب وحركات وأفكار من القرن العاشر إلى الثاني عشر الهجري (١٨١٦م)**، ط ١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن، ٢٠١٤، ص ٥٦٣.

(٢٧) كانت للقاضي مسؤوليات متعدّدة منها: النظر في القضايا الحقوقية، أمّا القضايا المتعلقة بالميراث فكانت من اختصاص الديوان الهمايوني، ونفس الشيء يُقال عن القضايا المتعلقة

(٥٠) شقيرات، **تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام...**، مج ١، المرجع السابق، ص ٢٦٥.

(٥١) **الدستور**، ترجمه من اللغة التركية إلى العربية: نوفل نعمة الله نوفل، مر: خليل الخوري، ج ١، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٨٨٣، ص ٣-٤.

(٥٢) استغرقت حركة التنظيمات العثمانية الإصلاحية قرابة مائة وخمسين عاماً، يُقسّمها المؤرخون على أربعة أدوارٍ مهمّةٍ هي: الدور الأول ويشمل محاولات الإصلاح حتى إعلان كلخانة ١٨٣٩م، الدور الثاني: ويمتدّ حتى إعلان القانون الأساسي ١٨٧٦م، الدور الثالث: التنظيمات في فترة ما بين المشروطيتين (١٨٧٦-١٩٠٨م)، الدور الرابع: ويشمل التنظيمات في العهد الدستوري (١٩٠٨-١٩١٤م). لكن يبقى أنّ مصطلح التنظيمات هو علمٌ على عهدٍ بعينه (١٨٣٩-١٨٧٦م)، وكان يُسمى "تنظيماتٌ خيرية". يُنظر: إحسان أوغلي، المرجع السابق، ص ٣٢١.

(٥٣) شقيرات، المرجع السابق، ص ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧٠.

(٥٤) أُسّست نظارة الأوقاف الهامايونية (وزارة الأوقاف السلطانية) على يد السلطان محمود الثاني في ١٤ تشرين الأول ١٨٢٦م في أعقاب الواقعة الخيرية، وكانت هاته النظارة من أقدم النظارات العثمانية على الإطلاق، وكان الهدف من إنشائها إدارة الأوقاف العثمانية من قبَل مرجعٍ رسميٍّ واحدٍ، فكان "آغا السعادة" يُشرف على أوقاف الحرمين و"سراي روزنامه جي" يُشرف على الأوقاف السلطانية، وقد استمرت نظارة الأوقاف حتى نهاية الدولة العثمانية، حيث ألغيت سنة ١٩٢٢م، وأُقيم بدلاً عنها في العهد الجمهوري مديرية الأوقاف العامة. يُنظر: شقيرات، المرجع السابق، ص ٢٧.

(٥٥) نفسه، ص ٢٧١.

(٥٦) **نظارة المعارف**: تأسست عهد السلطان عبد المجيد الأول ٨ نوفمبر ١٨٤٦م باسم "مكاتب عمومية نظارتي" (نظارة المدارس العامة)، وكانت خارج نطاق الحكومة العثمانية، ثم أُعيد تسميتها سنة ١٨٥٧م، باسم (نظارة المعارف العامة) ضمن عضوية الحكومة العثمانية للإشراف على القطاع التعليمي الجديد، وعلى القطاع الثقافي أيضاً، بما في ذلك المطابع والمكتبات العامة والمتاحف. يُنظر: يلماز أورتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، تر: عدنان محمود سلمان، مر: محمود الأنصاري، مج ٢، ط ١، منشورات مؤسسة فيصل للتطوير، إستانبول، ١٩٩٠، ص ٥٠٦-٥٠٧.

(٥٧) أورتونا، مج ٢، المرجع السابق، ص ٤٧٤.

(٥٨) شقيرات، مج ١، المرجع السابق، ص ٢٧١-٢٧٢. وللمزيد يُنظر أيضاً: Karon D. Salch, *Şeykûlislam and the Tanzimat*, Masters of Arts, a thesis submitted to the faculty of graduate studies and research, McGill University, Montreal, August 1980.

(٥٩) استخدم العثمانيون كلمة "باب" العربية، ومقابلها التركي "قايي" للدلالة على الإدارات أو الدوائر الحكومية في نظم الدولة، فقد أطلقوا على مدخل سراي السلطان "باب همايون"، وعلى الصدارة العظمى "باب آصفى-باب عالي"، وعلى الدائرة المالية "باب دفترى"، وعلى مقر القيادة العسكرية العامة اسم "باب سر عسكى"، وعلى دائرة شيخ الإسلام "باب مشيخت". يُنظر: إحسان أوغلي، مج ١، مرجع سابق، ص ٢٠٦.

(٦٠) أورتونا، المرجع السابق، ص ٤٧٤-٤٧٥.

(٦١) **السالنامه**: مصطلحٌ فارسيٌّ يتألف من مقطعين: سال (سنة)، ونامة (سجل)، فتعني السجل السنوي، وقد اشتملت على الأخبار الرئيسية لمختلف الولايات العثمانية، وكانت تُصنّف إلى السالنامات

الصفّات الاختزالية، فَطُوْلُ الفترة التي يُنسبُ إليها الضّعف (ثلاثة قرون)، هي فترة لم تعشها كثيرٌ من الإمبراطوريات الكبرى، فكيف بها تكون مجرد فترة ضعف صمدتها الدولة العثمانية؟! **للتوسع أكثر في الموضوع يُنظر: عبد الحي الخليل، "النخبة المثقفة وأزمة السلطة في البلاد الإسلامية بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلادين: المغرب والدولة العثمانية نموذجاً (دراسة مقارنة)"**، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ٢٠١٢، جين هاتواوي جين وكارل بريبرك، **البلاد العربية في ظل الحكم العثماني ١٥١٦-١٨٠٠**، تر: محمد شعبان صوان، ابن النديم للنشر والتوزيع ودار الروافد الثقافية ناشرون، وهران-بيروت، ٢٠٠٨، ص ١١-١٠.

(٤١) **لطفى باشا بن معين الألباني**: تنقل بين الوظائف في عهد ثلاثة من أشهر سلاطين الدولة العثمانية بايزيد الثاني، سليم الأول وسليمان القانوني، فكان من الرجال البيروقراطيين في الدولة العثمانية، والطبقة العليا المنتقاة. يُنظر: رامي البناء، **الدين والسياسة في الدولة العثمانية قراءات في فكر الصدر الأعظم لطفى باشا**، مركز التاريخ العربي للنشر، القاهرة، ٢٠٢٢.

(٤٢) إحسان أوغلي، مج ٢، المرجع السابق، ص ٢٢٩.

(٤٣) إحسان أوغلي، مج ١، المرجع السابق، ص ٨-٣٠٨.

(44) Danişman Zuhuri, **Koçi Bey Risâlesi**, Baskı 1, Devlet Kitapları (Türk Kültürü Kaynak Eserleri Dizisi), Millî Eğitim Bakanlığı, İstanbul, 1972, S25.

نقلًا عن: بشير توهامي، فئة الكتاب من أهل القلم في الدولة العثمانية و دورهم في الإصلاح والانفتاح على أوروبا ١٦٣٠-١٨٧٦م، أطروحة دكتوراه، إشراف: عبد الملك بوعريوة، جامعة أحمد درارية أدرار، الجزائر، الموسم الجامعي ٢٠٢١-٢٠٢٢، ص ١٤٢.

(٤٥) إحسان أوغلي، مج ١، المرجع السابق، ص ٨-٣٠٩.

(٤٦) توهامي، المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٤٧) OTTPOL: Naîmâ Mustafa Efendi: Târih-i Na'îmâ, (٤٧)

<http://ottpol.ims.forth.gr/?q=content/târih-i-na'îmâ-naimas-history>

وقد اعتمد الباحثون في ملخص المشروع البحثي OTTOPOL على تحقيق تاريخ نعيما (٢٠٠٧)، للمؤرخ إيشيرلي محمد، وكذا دراسة حول نعيمة (١٩٧٢) لتوماس لويس، ودراسة رسائل الإصلاح (٢٠٠٣) للباحث يلماز كوتجوك.

İpşirli, M: **Naîmâ Mustafa Efendi: Târih-i Na'îmâ (Ravzatü'l-Hüseyin fi hulâsati ahhâri'l hâfikayn)**, Ankara 2007.

Thomas, L. V: **A Study of Naima**, ed. N. Itzkowitz, New York, 1972.

Coşkun Yılmaz: **"OsmanlıSiyaset Düşüncesi Kaynakları İle İlgili Yeni Bir Kavramsallaştırma: İslahatnâmeler"** Türkiye Araştırmaları Literatür Dergisi, cilt 1, sayı 2, 2003.

نقلًا عن: توهامي، المرجع السابق، ص ١-٢٠٢.

(٤٨) للمزيد حول محتويات تلك القرارات الإصلاحية. يُنظر: ماجدة مخلوف، **"بدايات اتجاه المسلمين إلى الغرب إصلاحات السلطان سليم الثالث ١٧٨٩-١٨٠٨م"**، حوليات آداب عين شمس، مج ٣١، القاهرة، أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٣.

(٤٩) الخليل، المرجع السابق، ص ٤٦.

- (٧٣) شقيرات، المرجع السابق، مج ١، ص ٢٦٧.
- (٧٤) **شيخ الإسلام حافظ حسن خير الله أفندي (١٨٩٨/١٨٤٣م)**: اشتهر بالإمام السلطاني، كما أطلق عليه العلماء ورجال المشيخة لقب (مفسد إمام)، تولى المشيخة مرتين الأولى سنة ١٨٧٤م، والثانية سنوات ١٨٧٦-١٨٧٧م، للمزيد حوله يُنظر: شقيرات، مج ٢، المرجع السابق، ص ص ٢٤٤-٢٦٨.
- (٧٥) محمد جميل، **العرب والترك الصراع بين الشرق والغرب**، المطبعة الوطنية، بيروت، ١٩٥٧، ص ١٢٧.
- (٧٦) الشناوي، ج ١، المرجع السابق، ص ٣١٣.
- (٧٧) سليم سركيس، **سر مملكة تاريخ حياة عبدالعزيز وقتله، ولاية مراد وخلعه، محاكمة محدث باشا وأعوانه**، ج ١، مصر، ١٨٩٥، ص ص ١٣٩-١٤٢.
- (٧٨) عبد الرؤوف سنو، **تطور الاتجاهات الإسلامية في الدولة العثمانية من التنظيمات حتى نهاية عصر السلطان عبد الحميد الثاني**، مجلة المنهاج، بيروت، ١٩٩٧، ص ٩.
- (٧٩) محمد يوسف العوض، **"إخفاقات السلطان عبد الحميد الثاني"**، في: السلطان عبد الحميد في الذاكرة العربية، إشراف: محمد إلهامي، ج ٢، ط ١، دار الأصول العلمية، اسطنبول، ٢٠١٩، ص ٤٥.
- (٨٠) **الشيخ محمد حسن بن حمزة ظافر المدني**: شيخ الطريقة المدنية الدرقاوية، ولد في مدينة "مصراته" بطرابلس الغرب سنة ١٨٢٨م، وتلقى تعليمه وتربيته على يد أبيه، ثم شيخ الطريقة الدرقاوية الشاذلية الشيخ محمد حسن المدني، الذي خلفه بعد وفاته شيخاً للطريقة، زار تونس والمدينة المنورة، كما قدّم استنبول عهد السلطان عبد العزيز سنة ١٨٧٠م في زيارته الأولى، أين التقى بالأمير عبد الحميد الثاني ووالدته، وانتسباً للطريقة الشاذلية على يديه، وظلّ يتردد على طرابلس والمدينة المنورة، وبعد اعتلاء عبد الحميد الثاني للعرش استدعاه لاستنبول وأنزله مسجد الحميدية، وأنشأ له تكية أرطغرل في "بشيكطاش" سنة ١٨٨٨م، حيث قام بدور دَعَوِي وسياسي هام، مُدعماً دعوة السلطان إلى الجامعة الإسلامية، وبقي في استنبول حتى وفاته في سنة ١٩٠٣م.
- للمزيد يُنظر:**
- İyat Erbakan, "Osmanli Döneminde Şazeliyye Tarikatinin Derkaviyye Kolu Yayılması İstanbul ve Şam Örneği", Tasavvuf Dergisi, 44, Istanbul, 2019, ss49-78.
- (٨١) فاطمة الزهراء رحمانى، **الجامعة الإسلامية بين السيد جمال الدين الألفغاني والسلطان عبد الحميد الثاني أواخر القرن ١٩م ومطلع القرن ٢٠م**، مذكرة ماستر في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: نادية طرشون، جامعة يحي فارس المدينة، الجزائر، ٢٠١٤ - ٢٠١٥، ص ٥١ وما بعدها.
- (٨٢) **مذكرات السلطان عبد الحميد**، تقديم وترجمة: محمد حرب، ط ٣ مزيدة ومنقحة، دار القلم، دمشق، ١٩٩١، ص ص ٢٥-٢٦.
- (٨٣) يوسف العوض، المرجع السابق، ص ص ٤٥-١٠٤.
- (٨٤) **شيخ الإسلام ضياء الدين أفندي (١٩١٧.١٨٤٧م)**: محمد ضياء الدين بن عثمان نوري اللازيلي، آخر شيوخ الإسلام في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. للمزيد حول حياته ومشيخته. يُنظر: شقيرات، المرجع السابق، ص ص ٣٠٢-٣٣٩.
- (٨٥) **للمزيد يُنظر:** النص الأصلي الكامل للفتوى وترجمته: شقيرات، المرجع السابق، ص ص ٣٣٦-٣٣٧.

- العامّة التي كانت تصدر سنوياً عن الحكومة المركزية في استنبول، وتضمّنت معلومات تفصيلية عن الدولة العثمانية وولاياتها، وصدر أول عددٍ منها سنة ١٨٤٧م عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١م)، في حين صدر آخر عددٍ سنة ١٩١٧م، وهناك السالنامات الخاصّة، التي كانت تصدر من بعض الوزارات، وسالنامات الولايات التابعة للدولة العثمانية. يُنظر: فاضل مهدي بيّات، **دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية**، دار المدار الإسلامي، ط ١، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٢٠٦، إبراهيم خليل أحمد، **"السالنامات العثمانية وأهميتها في دراسة تاريخ العرب الحديث"**، مجلة دراسات تاريخية، ع ٢، بيت الحكمة، بغداد، ١٩٩٩، ص ٤٩.
- (٦٢) هاته المجالس هي: مجلس انتخاب حُكّام الشّرع (تأسّس سنة ١٨٥٦م) ويُشرف على انتقاء وتعيين قضاة المحاكم الشرعية، مجلس عالي تنظيمات في دائرة قاضي العسكر (١٨٦٠م) لإصلاح وتجديد القضاء الشرعي العثماني، لكنّه ألغي بعد سنة فقط، مجلس التّدقيقات الشرعية (١٨٦١م) ويعمل كمحكمة تمييز أو نقض شرعية، مجلس المشايخ (١٨٦٨م) للإشراف على الطرق الصوفية، مجلس امتحان القرعة الشرعية (١٨٧١م) الخاصّة بعملية سحب وجمع الجنود للخدمة العسكرية الإلزامية في العاصمة استنبول، والولايات العثمانية الأخرى، مجلس إعداد مجلة الأحكام العدلية (١٨٧٣م)، بهدف وضع أول قانون مدني عثماني يستند للفقه الحنفي الإسلامي، واستمرّ حتى سنة ١٨٨٧م، مجلس إدارة أموال الأيتام (١٨٧٤م)، مجلس الطلبة (١٨٧٧م)، ويُشرف على التعليم الشرعي، مجلس تدقيق المؤلفات (١٨٩١م)، مجلس تفتيش المصاحف الشريفة (١٨٩٦م). يُنظر: شقيرات، مج ٢، المرجع السابق، ص ص ٢٧٥-٢٨٠.
- (٦٣) نفسه، ص ص ٢٧٤-٢٨١.
- (٦٤) نفسه، ص ص ٢٨١، ٢٨٣.
- (٦٥) علي محافظة، **الاتجاهات الفكرية عند العرب (١٧٩٨-١٩١٤)**، ط ٣، الدار الأهلية للنشر، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٢.
- (٦٦) إحسان أوغلي، مرجع سابق، ص ٣٠٢.
- (٦٧) **شيخ الإسلام قاضي زاده (١٨٣٨/١٧٥١م)**: هو المولى محمد طاهر بن عمر بن مصطفى بن محمد دري بن إلياس الرومي الشهير بقاضي زاده، تولى المشيخة عهد السلطان محمود الثاني، خلال الفترة (١٨٢٥/١٨٢٥م). للمزيد حول حياته ومشيخته. يُنظر: شقيرات، المرجع السابق، ص ٨٠.
- (٦٨) خالد زيادة، **"دور فئة الكتاب الإداريين في علمنة الدولة العثمانية"**، مجلة الاجتهاد، ع ٣، دار الاجتهاد للبحاث والترجمة والنشر، ربيع ١٩٨٩، ص ص ١٩٥-١٩٦.
- (٦٩) احسان أوغلي، المرجع السابق، ص ص ٣١-٣١١.
- (٧٠) الحصري أبو خلدون ساطع، **البلاد العربية والدولة العثمانية**، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٠، ص ٥٤.
- (٧١) حمزة الزين، **الدولة العثمانية في الميزان**، ط ١، دار الفاروق للاستثمارات الثقافية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ١٣٩ وما بعدها.
- (٧٢) **شيخ الإسلام محمد عطا الله أفندي (١٨١١.١٧٦٠م)**: اشتهر باسم عطاء الرؤومي، وطوبال عطاء الله. تولى مشيخة الاسلام مرتين خلال الفترة (١٨٠٦.١٨٠٦م)، عهد كل من السلطان سليم الثالث ومصطفى الرابع. للمزيد حول حياته ومشيخته. يُنظر: شقيرات، المرجع السابق، مج ٢، ص ص ١٥٢-١٥٨.

المغاربة بين الطاعون والوباء

زمن المولى سليمان (١٧٩٢/١٨٢٢م)

عبد الله امجهادي

باحث في سلك الدكتوراه

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية



ملخص

تعتبر الأوبئة والطواعين والمجاعات والكوارث الطبيعية بشتى أصنافها وسيلة حاسمة لفهم جوانب من تاريخنا الوطني، واستيعاب أهم التحولات التي مست حياة الإنسان، خاصةً وأنها أثرت على كل زاوية من زوايا المجتمع من اقتصاد وديموغرافية وسياسة. ومن المعلوم أن المغرب عانى من ويلات الأوبئة والمجاعات لسنوات كثيرة، وشهد توالي الكوارث الطبيعية طيلة تاريخه الطويل، حتى تكاد لا تخلو فترة تاريخية من ذكر شدة بأس الوباء أو توالي الكوارث وتفاقم الغلاء واستعصاء الحياة. لقد خصصنا هذا المقال للبحث في موضوع الطاعون والوباء في فترة مفصلية من تاريخ المغرب وهي فترة المولى سليمان، فلقد اعتبر مجموعة من الباحثين أنها كانت فترة رخاء وازدهار إذ يؤكدون على أنها تزامنت مع فترة استقرار واستراحة. لكن ما استقيناه من المصادر التاريخية يؤكد على أن الأزمات التي شهدتها الفترة، رغم قلتها إلا أن وقعها كان عميقاً على المجتمع، فلا نعتقد بأن المغرب شهد فترة حكم طويلة تزامنت مع استراحة الناس من أهوال الطبيعة، فكل فترة كيفما كانت طالت أو قصرت إلا وتخللتها أزمات صعبة تدفع بالناس إلى اليأس والخضوع، وتجعلهم يتركون الأمر بيد الله لعله يخفف عليهم ما نزل.

كلمات مفتاحية:

الطاعون، الوباء، الأزمة، تاريخ المغرب الحديث، تاريخ الأوبئة، المجاعات، الطواعين

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٤ نوفمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٠٤ يناير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.333776.1182

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الله امجهادي، "المغاربة بين الطاعون والوباء زمن المولى سليمان (١٧٩٢/١٨٢٢م)". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد التاسع والستون: يونيو ٢٠٢٥. ص ١١٣ - ١٢١.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: imajhadiabdellah@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المُنسب 4.0 (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

الفترة. وربما هو أمر يمكن اعتباره من بين الأسباب التي جعلت المؤرخين لا يهتمون بالحديث عن الجانب الطبيعي إلا النزر القليل منهم، والذين أرخوا للطاعون والمجاعة اللذان كسرا الهدوء العام من ويلات الطبيعة، وبالتالي يمكننا أن نتفق على أن الفترة شهدت بدورها فترات انتشر فيها الوباء واشتد فيها القحط والمجاعة وان كانت بوثيرة متباينة.

أولاً: الطاعون^(١) الكبير (١٧٩٨-١٨٠٠م)، أول

اختبار لحكمة السلطان

تعتبر مرحلة حكم السلطان مولاي سليمان من بين الفترات التي عرفت رخاء وهدوء نسبياً، خاصةً فيما يهم الجانب الطبيعي، حيث ساد الاستقرار من حيث الأوبئة والمجاعات، وشهد غياباً شبه تام للكوارث الطبيعية، ونجد هذا الأمر متجلياً عند الضعيف الرباطي الذي يقول: "لقد كانت المرحلة الأولى من عهد المولى سليمان (١٧٩٢-١٧٩٧م) من المراحل التي نعمت فيها البلاد برخاء نسبي، حيث كانت محاصيل القمح وفيرة وأثمانها رخيصة، مما جعل منها أهم مادة تصديرية في مراسي الشمال والجنوب على السواء"^(٢). فلقد عرف المغرب فترة استراحة ليس على المستوى الاقتصادي فقط، ولكن على جميع المستويات خاصة منها السياسية، وما وجب الإشارة إليه هنا أن الكوارث الطبيعية والأوبئة والمجاعات لا تتأخر كثيراً عن الحلول على المجتمع المغربي حيث إن دورتها لا تتجاوز في الغالب الثلاث سنوات.

هذا ما اتفق عليه مجموعة من المؤرخين من خلال بروزه بوضوح في هذه الفترة فلم تكد سنة ١٧٩٨م أن حلت حتى انقلبت الأوضاع رأساً على عقب، فلقد أصيبت البلاد بأزمة شديدة، لم تشهد مثلها من قبل، يقول عنها صاحب "الاستقصا": "وفيها كانت المجاعة العظيمة بالمغرب والفتن ونهب الدور بالليل بفاس وغيرها وصار جل الناس لصوصاً، فكان أهل اليسار لا ينامون لحراستهم دورهم وأمتعتهم وهلك من الجوع عدد لا حصر له حتى لقد أجبر صاحب المارستان أنه كفن في رجب وشعبان ورمضان ثمانين ألفاً وزيادة سوى من كفنه أهله هذا بفاس وليقس عليها غيرها..."^(٣).

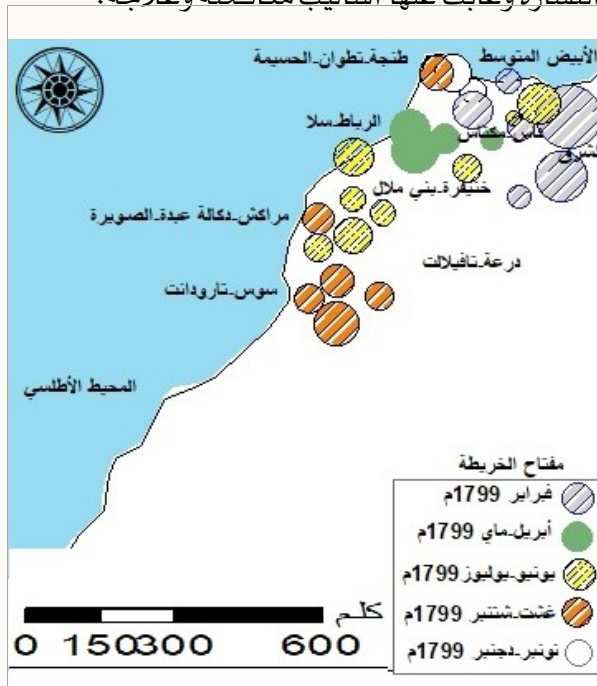
يفتح لنا البحث في تاريخ الأوبئة والمجاعات وتاريخ الكوارث الطبيعية باباً مهماً، يساعد على سبر أغوار التاريخ الطبيعي وكشف ما له من تأثيرات على الإنسان بشكل مباشر، عبر ما يخلفه من موت وخراب جراء الأزمات المختلفة سواء المرتبطة بالجفاف أو المتعلقة بالفيضانات والانجرافات وما تحمله معها من دور وإنسان وحيوان.

لقد اهتم الباحثون والمؤرخون كثيراً بهذه المواضيع الجديدة على حقل التاريخ، وتوزعت الدراسات بين كل فترات التاريخ المغربي بداية بالقديم مروراً بالوسيط والحديث وصولاً إلى الفترة المعاصرة، ولعل أغلب النتائج التي تم التوصل إليها تتفق على أن الإنسان المغربي كان يقف عاجزاً أمام هول هذه الكوارث ويكتفي ببعض الحلول الترفيقية لما بعد الكارثة، إذ كثيراً ما يستبعد أن تكون هناك مبادرات للوقاية من الحوادث التي أصبحت مع مرور الزمن متداولة حتى اعتاد عليها الناس، بل قام البعض منهم بربطها بغضب الطبيعة وربطها آخرون بغضب الله، فاستسلموا للموت وواجهوا سوء المصير.

في إطار تتبعنا لمسار الأحداث التاريخية التي شهدتها المغرب خاصةً في الفترة العلوية، توقفنا مطولاً عند ما خطته أقلام المؤرخين سواء الإخباريين المعاصرين لها، أو الجدد الذين كتبوا عن الفترة من زوايا متعددة. لاحظنا التركيز الكبير على الجانب السياسي خاصةً بعد أزمة الثلاثين سنة التي أدخلت البلاد بعد وفاة المولى اسماعيل في دوامة من الأزمات التي كانت جلها تتمحور حول الصراع على السلطة، من طبيعة الحال التركيز على الجانب السياسي لا يعني أن المرحلة لم تعرف ظواهر طبيعية عمقت الأزمة، بل يبدو أن التوجه العام للمؤرخين الإخباريين كان منصباً على السلطة السياسية وما حام حولها من مشاكل جمة.

لم تكن فترة حكم المولى سليمان (١٧٩٢-١٨٢٢م) مستثنية من هذه الظاهرة، وهذا الأمر هو ما تؤكد بعض الكتابات التاريخية التي أشارت على أنها كانت من أحسن الفترات التي شهدتها البلاد، حيث اعتبرت فترة استراحة من ويلات امتدت طيلة السنوات السابقة لهذه

التي بدأت تظهر من طرف بعض القبائل كآيت أومالو، وبذلك كان الهاجس الأمني أكبر من الهاجس الوبائي. يؤكد الضعيف الرباطي بدوره انتشار الطاعون بين صفوف الجيش بقوله: "وارتحل السلطان من عين عتيق لناحية أسفي، وذلك يوم الخميس ٢٩ من ذي القعدة عام ١٢١٣هـ، وبات بوادي بوزنيقة، وفي كل يوم يموت من جيش السلطان كذا وكذا بالوباء إلى أن قطع وادي أم الربيع، وكأنه نهض بجندين: جند من العسكر وجند من الوباء. ولم يكن بدكالة وعيدة وأحمر وغيرهم حتى دخل جند السلطان ببلادهم"^(١٠)، ومن الطبيعي أن ينتشر الوباء في كل هذه المناطق، ولكن الأصعب من ذلك ازدياد عدد الضحايا بشكل تصاعدي حيث يشير جاكسون في هذا الصدد إلى حلول الطاعون بمدينة فاس: "حصد هذا البلاء غير المسبوق ضحية إلى ضحيتين في اليوم ثم ثلاثة إلى أربعة في اليوم الثاني، فسته إلى ثمانية في اليوم الثالث، وتصاعدت وتيرته حتى بلغ عدد الوفيات اثنين في المائة من مجموع السكان"^(١١)، فلقد حدثت رجة ديموغرافية عنيفة أثناء فترة انتشار الطاعون، ربما تعتبر من أكبر مخلفات الأوبئة والطواعين في المغرب، والسبب راجع بشكل كبير لوجود بيئة خصبة ساهمت في انتشاره وغابت عنها أساليب مكافحته وعلاجه.



خريطة رقم (١)

مناطق ومراحل انتشار الطاعون الكبير لسنة ١٧٩٩م^(١٢)

في نفس السياق تضيف بعض الشواهد على أن الأمور تغيرت في سنة ١٧٩٨م، عندما حل بالبلاد جفاف تبعه اكتساح الجراد للمحاصيل، وعن هذه الأزمة الفلاحية يقول القنصل البريطاني في تقرير كتبه في غشت من نفس السنة: "إن الزراعة بالمغرب قد عرفت نكسة شاملة"^(٤)، وبالتالي صار ثمن القمح باهظاً^(٥)، وأصبحت البلاد معبدة لأسوأ كارثة ديموغرافية عرفتتها البلاد منذ قرون...^(٦)، فلقد اعتبرت من أسوأ الكوارث التي عرفتتها البلاد مع بدايتها سنة ١٧٩٩م، والأخطر أنها لم تكن زراعية كما العادة، ولكنها كارثة ديموغرافية بامتياز. وعرفت هذه الكارثة "بالطاعون الكبير"، والذي أتى على قسم كبير من السكان، فأصبحت المحاصيل الزراعية، على وفرتها، دون فائدة بسبب انعدام من يجمعها من الحقول، ويقول الفشتالي عنها: "جاءت الصابة لكن لا غالب لها"^(٧)، فهل ساهمت قلة خبرة السلطان في تدبير الشؤون الخاصة بالدولة في تفشي الوباء وانتشاره بعد ظهوره الأول؟

لقد ورد في مجموع ما كتب حول الطاعون الكبير لا سواء من مصادر تقليدية أو كتابات ومقالات عمقت النقاش في الموضوع وأحاطت بجميع جوانبه أن السلطان قد ساهم بطريقة أو بأخرى في انتشار الطاعون بشكله المهول والذي غطى جل ربوع البلاد من خلاله الحركات التي قام بها في نفس السنة التي ابتدأ بها، فانتقاله إلى مراكش مع جيشه وحاشيته وقومه ساهم بشكل كبير في انتشار المرض في ناحية مراكش ومعها كل المناطق التي مر بها أو حط بها الرحال، وهذا الأمر يؤكد الفشتالي بقوله: "في سنة ١٢١٣هـ تحرك السلطان مولاي سليمان بن محمد بن عبدالله بن اسماعيل لأرض مراكش ومعه خلق كثير، ولم يكن لسفره دليل وموجب"^(٨)، فجيش السلطان نقل العدوى من فاس إلى الرباط ثم إلى باقي السهول الأطلنكية"^(٩). وما يثير انتباهنا فيما قيل إن المرحلة لم تكن تستدعي أي تحركات من السلطان فقد كانت كما قال الفشتالي بدون موجب، أي بدون سبب، وربما لم يفطن السلطان لخطورة الأمر، رغم ما سجل من وفيات بالجملة في صفوف الجيش والحاشية التي سارت معه في الحركة، ولكن على ما يبدو أن المصادر أغفلت هم السلطان الذي كان هو إخماد بعض الثورات

اجتاح الطاعون المغرب في بداية القرن التاسع عشر^(١٧).

ما يمكن استنتاجه من مجموع الإشارات التي تناولت الموضوع اتفاتها على الانتشار الواسع والقوي للطاعون في فترة وجيزة، إضافة إلى فتكه بحياة بالعديد من الناس، فاضطر من كانت لهم القدرة المالية للهجرة هرباً من توابعه، في حين واجه من لم يستطع مصيره، فلقد أشارت بعض التقديرات المعقولة وعلى الرغم من عدم دقتها، إلى أن ربع السكان بوجه عام لقي حتفه، بينما كانت الخسائر أكثر بكثير في المراكز الحضرية، حيث بلغ عدد ضحايا الوباء في كل أرجائها ما بين النصف والثلاثين من مجموع سكانها^(١٨)، فهي معطيات تصور هول الفاجعة، وإن كانت الأرقام غير مضبوطة بالرغم من عدم وقوفنا عند دراسات تؤكد هذه الفرضية، لكن ما يتضح بشكل جلي هو أن المغرب في هذه الفترة شهد أهم كارثة طبيعية في تاريخه، خاصة وأن المجتمع المغربي لم يكن قادراً على حماية نفسه من الإصابة بالطواعين، ولم يكن كذلك قادراً على علاجه، ولا حتى الالتزام ببعض التدابير الاحترازية البسيطة التي تكفل وقفه أو حصره مثل الحجر الصحي، فشروتر في معرض حديثه عن هذا الجانب قال: تقدم لنا رواية لرحالة أوربي مثلاً نموذجياً في هذا الشأن "إن المسلم لا يعرف كيف يحمي نفسه من الطاعون والجذام، كما أنه لا يرغب في معرفة ذلك. وحسب المعنى الحرفي للقرآن - أو بالأحرى حسب تفسيره المبهم من قبل الفقهاء المغاربة- فإن كل محاولة لصد البلوى أو الكوارث التي يمكن أن يسلطها الله على المؤمنين الحقيقيين من عباده، لتعتبر اقتراناً للإثم والمعصية"^(١٩)، وإن كان هذا القول صائباً في جزء منه إلا أننا لا يجب أن نغفل تدخلات السلطة المركزية التي اتخذت مجموعة من التدابير لحماية دخول الطاعون من البلدان المشرقية، خاصة في فترة الحج التي يتوافد عليها غالب المغاربة، وتكون مناسبة للإصابة بمثل هذه الأمراض^(٢٠).

من الواضح إذن أن فترة حكم المولى سليمان عاشت أول ضربة موجعة وأول اختبار لمدى قدرته على تجاوز المحن الطبيعية، التي اعتبرت أصعب ما يمكن أن يواجهه بعد الهدوء الذي عرفه المجال السياسي. فبعد هاتين

لقد امتد انتشار الطاعون الكبير لسنتين حسب المصادر التاريخية التي ذكرته، رغم التناقض الذي عرفته في تحديد سنة انطلاقه وكذلك في مصدر دخوله للمغرب، ولكن ما اجتمعت عليه هو انتشاره في جل ربوع البلاد، وكانت سنة ١٧٩٩م هي سنة الذروة كما تبين (الخريطة رقم ٠١)، حيث يقول أبو القاسم الزباني: "وفي هذا العام دخل الوباء للمغرب فعم حواضره وبواديها"^(٢١)، وارتفع عدد ضحاياه بشكل كبير وهو ما جاء في تقييد لعبد السلام الفشتالي الذي دون: "الحمد لله، فشى الطاعون بالمغرب وأول ما ظهر بقبيلة لوداية حتى فنى من شاء الله بمحلتهم النازلين بصواعة ونواحيها، ودخل القصبة وفاس الجديد منتهى جمادى الثانية عام ثلاث عشر ومائتين وألف (دجنبر ١٧٩٨م) حتى تحيرت الناس وفتتوا الأحياء من كثرة الموتى ... ثم دخل فاس أواخر شعبان من العام المذكور (فبراير ١٧٩٩م) حتى ازداد أمره واشتد بأول شوال (٨ مارس ١٧٩٩م)، حتى صاروا يدفنون ما يزيد على ألف كل يوم"^(٢٢)، ومما يظهر من أغلب المصادر التي اهتمت بتدوين خطورة هذا الوباء هو ما خلفه من خسائر فادحة في الأرواح، فاضطر البعض للهروب خاصة الأجانب الذين تركوا البلاد خوفاً من الإصابة والوفاة.

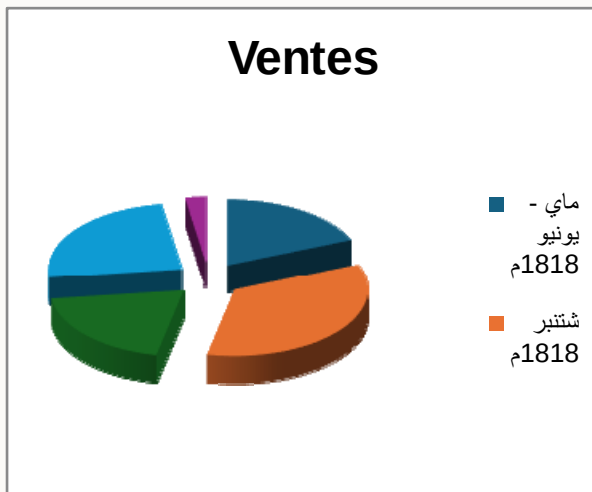
يورد دانييل شروتر في سياق حديثه عن يهودي السلطان صاحب المجموعة الوثائقية التي اشتغل عليها لإعداد كتابه وهو المذكور "صاموئيل ليفي قرقوز (Samuel Lévicarcos)، التي تمتد زمنياً لتغطية جزء من تاريخ حكم المولى سليمان، والذي استهل إقامة أولى طويلة الأمد في لندن سنة ١٨٠٠م، في وقت كان فيه الطاعون الكبير يجتاح أرض المغرب"^(٢٣)، ويستمر المؤلف قائلاً: "...ولكنه على الأرجح لم يترك البلاد بحثاً عن فرص أحسن للكسب، بل فر خوفاً من مdahمة الموت له من جراء الوباء الفتاك الذي كان يجتاح شمال إفريقيا عند منعطف القرن التاسع عشر، ألا وهو طاعون الدمل"^(٢٤). ولقد ذكر الكاتب مجموعة من التجار الذين هربوا إلى الدول الأوربية خوفاً من هذا الطاعون الفتاك ومن بينهم التاجر "مايير مقنين" الذي راكم ثروة كبيرة ومكانة اجتماعية مرموقة سواء لدى السلطة المركزية وكذلك لدى الدول الأجنبية، ورغم ذلك فر هارباً لما

كافيا لظهوره بشكل يندر بخطورة قادمة في الأفق القريب.

سينتشر الوباء في البلاد على مراحل بنفس الطريقة التي انتشرت بها أغلب الأوبئة التي شهدتها البلاد، مع اختلافات طفيفة في سرعة انتشاره والوعي به من عدمه. وما يمكن قوله هنا أن الجهل بالمرض وخطورته أو اللامبالاة تكون دائماً سبباً في بلوغه لمراحل متأخرة يصعب معه إيجاد الحلول لمكافحته، بالإضافة إلى غياب الأدوية الخاصة والأطعم الطبية الكافية لعلاجها أو حصره. وفيما يلي مبيان يوضح مراحل انتشار الوباء وعدد الوفيات التي شهدتها كل مرحلة:

مبيان رقم (١)

مراحل انتشار الوباء ما بين ماي ١٨١٨م ومارس ١٩١٩م



ما يتم استنتاجه من هذا المبيان أولاً التباين الواضح بين كل مرحلة على حدة، فالمرحلة الأولى للوباء سجلت وفيات قليلة مقارنة بالمرحلة التي تليها حيث تعتبر ذروة الانتشار، فلقد تصاعدت عدد حالات الوفيات بشكل كبير جداً، لكنها لم تبلغ أقصاها حتى المرحلة الثالثة والرابعة اللتان شهدتا أكبر عدد من الموتان وصل إلى ٧٣٦ حالة. وبعدها ستبدأ الحالة للعودة إلى سابق عهدها من خلال تراجع عدد الوفيات كبدية لانحصار الوباء وتراجعها إلى أن انتهى وقعه في نهاية سنة ١٨١٩م. في هذا الإطار يمكن القول بأن السنوات الطبية لا تدوم طويلاً، فكما سبقت الإشارة إلى ذلك لم ينعم المغاربة طيلة فتراته التاريخية بالهناء على الدوام، بل كثيراً ما تتخللها مراحل وفترات قاسية تؤدي بحياة

السنتين سينتقل المغرب إلى مرحلة استراحة، مكنت المغاربة نسبياً من التداوي والاستشفاء وإعادة البناء، في انتظار عودتها من جديد.

ثانياً: وباء^(٢١) (١٨١٨-١٨٢٠م)، اشتداد الأزمة

خرج المغاربة من "الطاعون الكبير" منهاري القوى، يحاولون للممة ما فتك بهم من أمر، فكانت سنوات ١٨٠١ إلى ١٨١٧م فترة استراحة، عرفت فيها البلاد نوعاً من الرخاء، فإذا حاولنا إجمال ما عرفته الفترة بصفة عامة سنوافق ما قاله البزاز محمد أمين بأنه: "في عهد مولاي سليمان (١٧٩٢-١٨٢٢م) وبداية عهد خلفه المولى عبدالرحمان (١٨٢٢-١٨٥٩)، تعرض المغرب لثلاث كوارث طبيعية جديدة تركت كل واحدة منها بصماتها على حياة البلاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، الأوليتان تمثلتا في طاعون ١٧٩٨-١٨٠٠م ووباء ١٨١٨-١٨٢٠م، والثالثة في مجاعة ١٨٢٥-١٨٢٦^(٢٢). وما بين الكارثة الأولى والثانية حوالي ١٨ سنة تخللتها سنوات هادئة، وربما بعض السنوات الصعبة ولو كانت بنسبة أقل خطورة من التي ركز عليها البزاز، حيث يمكن القول أن الاختلافات الحاصلة هو من حيث نوع كل كارثة، وحدتها، والنتائج المترتبة عنها، لأن بعض المراجع تقول بأن أسوأ كارثة عرفتها البلاد في سنة ١٧٩٩م إذ لم تكن زراعية بل كانت ديمغرافية، حيث أتى "الطاعون الكبير"، على قسم مهم من السكان، فأصبحت المحاصيل الزراعية، على وفرتها، دون فائدة بسبب انعدام من يجمعها من الحقول، كما قال الفشتالي في هذه الصدد: "جاءت الصابة لكن لا غالب لها"^(٢٣).

بعد مرور ثمانية عشر سنة على وقوع الطاعون، ستكون البلاد معبدة لكارثة وبائية جديدة ستنتقل في ٢٢ مايو ١٨١٨م، مع وصول أول أفواج الحجاج المغاربة القادمين من مكة المكرمة عبر الإسكندرية، والتي ستسجل أولى حالات الوباء^(٢٤)، وما سيزيد من تأزيم الوضع هو عدم خضوعهم لحجر صحي حتى يتسنى معرفة إمكانية حملهم للوباء من عدمه. وبعد أقل من شهر من الزمن سيتم إعلان الوباء بشكل رسمي من قبل القنصل الإسباني في طنجة^(٢٥)، فشهراً واحداً سيكون

وتبين أغلب المصادر التي اهتمت بتناول موضوع الأوبئة والمجاعات والأزمات المناخية/ المطرية، الأثمان والأجور، عن وجود ثلاث فترات أساسية يمكن أن يقسم إليها التاريخ الطبيعي أو تقسم إليها العلاقة بين الإنسان والعوامل الطبيعية المحيطة به، وهي فترة أزمة سواء أكانت ذات أثر سلبي كالجفاف من جراء انحباس المطر أو ذات أثر إيجابي ولكنه يكون بمفعول سلبي وهو الوفرة التي تؤدي إلى نتائج عكسية كالفيضانات والإنجرافات، ثم فترة الهدوء حيث تكون السنة مطيرة على قدر الخصائص، يكون معها الخصب وتتوفر فيه الحبوب والأغذية وتنتشر فيها الخيرات، وكثيرا ما تكون هذه السنوات ولو كانت قليلة كفيلا بأن تنسي المغاربة هول ما تجرعوه في سنوات الغضب من مرارة الفاقة والحاجة التي تصل في أحيان كثيرة إلى الوفاة.

رغم كل هذا، وبعد توالي المجاعات والأوبئة ردحا من الزمن، استراح المغاربة من هذه المحن فترة تمتد إلى نصف قرن، لتعاود الظهور من جديد، حيث ظهر الوباء وأصبح المغرب يعيش بين عشية وضحاها يعيش "ذروة أزمة لا مثيل لها في نهاية قرن تالت فيه شتى ضروب المحن، من حروب أهلية وقحوط ومجاعات"^(٢٩). فهذا الاختفاء لمدة وجيزة، والظهور من بعد كان كفيلا لإعطاء السكان مهلة للاستراحة، وإعادة الاستقرار والتعمير، ولما لا تخزين ما يمكن تخزينه من الحبوب لمواجهة ما ستأتي به السنوات اللاحقة من تغيرات جديدة، وهو ما يؤكد الضعيف الذي سجل بدوره ما عاشه المغرب في هذه الفترة من رخاء، حيث تهاطلت الأمطار بشكل جيد ساهم في انتشار الخصب...^(٣٠).

يزيد من تأكيد هذا السكون الذي شهدته هذه المرحلة ما أشاد به كذلك الناصري الذي قال: "وفي هذه السنين كلها كانت الرعية في غاية الطمأنينة والأمن والخصب والرخاء...، وكانت القبائل قد تمولت ونمت مواشيها وكثرت الخيرات لديها...فصارت القبيلة التي تعطي عشرة آلاف مثقال مضاربة أيام والده (سيدي محمد بن عبد الله) يستخرج منها على الشرع عشرون وثلاثون ألف مثقال"^(٣١). من خلال هذه الإشارات يتأكد الطرح الذي جاء به البزاز من أن المغرب تمتع خلال المدة المتراوحة بين ١٨٠١-١٨١٦م بفترة من الهناء، بحيث أن

الناس إلى الوفاة، وهو نفس ما عاشته فترة حكم المولى سليمان، رغم أنها امتازت بطول أمد الراحة مقارنة مع ما قبلها، ويقول البزاز محمد الأمين في هذا الصدد بأن بعد هذه المرحلة من الراحة بلغت حوالي ١٥ سنة^(٣٢)، ومن الطبيعي أن تأتي أزمة أخرى بعدها مرتبطة بالغلاء، يخبرنا عنها المنصور محمد: "إن الرخاء لم يستمر طويلا، فسرعان ما مال منحاه على الهبوط وكان أول مؤشر لهذا الهبوط قلة الأمطار في الجنوب سنة ١٨١٨م"^(٣٣)، ولا نعتقد بأن هذه السنوات كلها مرت دون أية أزمة تذكر، فجميع المصادر تؤكد على مسلمة مفادها أن المغرب يتعرض لأزمة دورية كل سبع سنوات^(٣٤). ولا يمكننا إلا أن نؤكد هذا القول دون أن ننفي بأن المغرب عاش بشكل عام فترة مهمة من الاستراحة، استراحة من أزمة سياسية تعتبر من أعمق الأزمات التي عرفها المغرب فيما قبل الاستعمار، واستراحة من أزمة طبيعية أنعم بها الله على عباده لمدة وصلت ل ١٨ سنة تقريبا، فكيف تعامل المغاربة مع هذه الفترة؟ وهل فعلا استطاعوا تجاوز المخاوف التي كانت دائما مرتبطة بأذهانهم كلما اقترب فصل الشتاء، أو طالت مدة الجفاف؟

ثالثا: الاستراحة من ويلات الطاعون، فرصة لاسترجاع الأنفاس

يتفق العديد من المؤرخين على أن إصابة الناس بالطاعون، تعتبر في أحيان كثيرة أهول من تعرضهم للقحط والنقص في المواد الغذائية، فالأمطار وإن جاءت وفيرة وكانت الظروف المناخية مواتية، صعب على الناس فلاحه الأرض لأسباب متعددة يتجلى بعضها في لنفوق أغليبيتهم من جهة، وهجرة من نجوا من هول الطاعون وتبعاته من جهة ثانية. أما الارتباط بين الآفات الثلاثة (المجاعة - الطاعون - الغلاء) فيجعل السكان يقفون عاجزين عن أي رد فعل ممكن، ويكون الملاذ الأسهل بالنسبة للناس هو المساجد والزوايا تقريبا من الله وطلباً للعتو والمغفرة والرحمة.

تعتبر فترات الاستراحة من أهم الفترات التي تعيشها الرعية خاصة بعد خروجها من أزمات حادة تسبب تغييرات عميقة على جميع المناحي الحياتية،

يقول أكنسوس من جهته عن الفترة بأن الوباء انقطع بالمغرب، بفاس ومكناس ونواحيها، وظهر في الدنيا سرور وفاضت الخيرات بمتخلف الأموات^(٣٥). أما الناصري الذي سار على نفس المنوال فقد قال: "وفي هذه السنين كلها كانت الرعاية في غاية الطمأنينة والعافية والأمن والخصب والرخاء وكمال السرور والهناء"^(٣٦). وينطبق ذلك بالتحديد على أواسط عهد المولى سليمان، ثم يضيف نفس المؤرخ: "لقد أدركننا الجم الفقير ممن أدرك أواسط دولته فكلهم يثني عليها"^(٣٧). فلقد شهدت مرحلة ما بين ١٨٠٠ و ١٨١٢ رخاء فلاحياً مؤكداً، بحيث هبطت أسعار الزرع إلى أدنى مستوى لها. بل كان بإمكان المغرب إرسال كميات من القمح إلى البلدان الجارة، ولقد سمح المولى سليمان في هذه الفترة بتصدير ٥٠٠٠٠ قنطار من الحبوب لتزويد الجيش البريطاني الذي كان يحارب جيوش نابليون في لشبونة وقادس^(٣٨).

ظلت البلاد طيلة هذه السنوات إلى غاية سنة ١٨١٦م، بإجماع من جل المصادر التاريخية تتوفر على ما يكفي لسد حاجياتها، بل وفاض عليها ما يزيد عنها^(٣٩)، حتى اشتهرت المرحلة بالرخاء وانعدام الغلاء وتوفر الأقوات، ما ساهم في الدفع بعجلة الاقتصاد من خلال إعادة فتح بعض الموانئ لتصدير المواد الغذائية إلى أوروبا، ومن طبيعة الحال ستلتئم جروح المغاربة التي ما فتئت تتفتق بسبب الدورة المناخية القاسية، فكانت بحق مرحلة لإعادة أخذ النفس من أجل مواجهة قادم الأزمات في مغرب يمكن أن نلخص تاريخه في صفحات من النضال ضد الأزمة.

مصادرنا لا تشير خلال المدة إلى ظهور أي وباء. لتتزامن هذه الاستراحة القصيرة مع ظرفية مناسبة مكنت السكان من استئناف حياتهم العادية، وتحقيق نوع من التوازن بين محيطهم الطبيعي وبين إنتاجهم وحاجياتهم^(٤٠).

من الطبيعي أن تشهد فترة المولى سليمان بدورها سنوات من الرخاء ربما اعتبرت من الفترات الأكثر رخاء في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وخاصة منها التي غطت السنوات الممتدة ما بين ١٨٠٠م إلى ١٨١٥، ربع قرن اعتبر بالنسبة للزياني بداية جيدة للقرن التاسع عشر: "كانت القبائل تمولت ونمت مواشيتها وكثرت الخيرات عليها"^(٤١). فالوباء الذي أفنى جزءاً من الساكنة، ساهم بشكل أو بآخر في إثراء من بقي على قيد الحياة. وربما يفهم من قول الزياني ومن مجموعة من الإشارات التي تسير في نفس المنوال، أن من رحم المعانات تتولد النعم، ولو أنها تكون على حساب الجانب الأخلاقي والديني، فالمترامي على ما خلفه الموتى من أراض بدون وجه حق يفتح الباب أمام بعض السلوكيات التي ارتبطت بشكل مباشر بمخلفات الأوبئة والمجاعات، ولقد تطرق لهذا الموضوع مجموعة من الباحثين، خاصة فيما يتعلق بالذهنيات التي رافقت مثل هذه الكوارث على تنوعها.

إن السنوات التي تعرف نوعاً من الاستقرار الطبيعي تترك المجال للسكان للعمل والبدل ولهذا نشهد نوعاً من الحركية التجارية والانتعاش الصناعي والعطاء الفلاحي، فلقد ارتبط رخاء الصنائع حسب لوتورنو بشكل وثيق، ببسر الفلاح، فقد كان لسنوات الجفاف والمحاصيل الهزيلة آثار مباشرة على الصناعة والتجارة على السواء. ففي مثل هذه السنوات كان على أهل الحواضر إنفاق جزء هام من مداخيلهم لاقتناء الأقوات، وتحديدًا الزرع. وبالمقابل كان الجز في الغلال يقلص من نفقات سكان القبائل ويحد من قدرتهم لشراء منتجات المدينة. لقد وفر صناع الحواضر للقبائل الأسلحة والسروج والمواد الجلدية والأقمشة وسائر الأدوات المنزلية^(٤٢)، مما يساهم في توفير فرص الشغل ولقمة العيش والراحة المادية التي تغيب أثناء الأزمات.

خاتمة

الإحالات المرجعية:

خلاصة القول، أن الأوبئة والطواعين التي تكون ناتجة عن الدورات المناخية القاسية والتي تؤدي إلى تخريب المزروعات وهلاك الماشية، وبالتالي هلاك المحاصيل الزراعية ثم النقصان الحاد في المواد الغذائية إن لم نقل انعدامها، فغلاء القليل المتواجد يساهم بدوره في أزمات أخرى أهمها صعوبة الحصول على الغذاء، وبالتالي موت عشرات الآلاف من البشر، نتيجة الجوع وانتشار المرض، وانعدام الوقاية والعلاج، إضافة إلى الحروب التي كانت ترخي بظلالها بين الفينة والأخرى على هذه الكوارث، فتساهم بدورها في تتمة مسلسل الهلاك الذي يسري في العباد كالنار في الهشيم. وإذ كانت مقاومة نتائج المجاعة، يتعاون في تنظيمها الدولة والمجتمع، فإن الأمراض الفتاكة المعدية، تفرض وعيا صحيا ومعرفة بوسائل الوقاية، غير أن المعتقدات العامة كانت ترفضها بحجة أنها أتت من "النصارى" أي من الغرب الاستعماري. فيزيد الجهل وقلة الوعي بخطورتها الطين بلة، وبذلك يكون الإنسان المغربي في فترة ما قبل الاستعمار يصارع الطبيعة ويكون عليه الدفاع على ثلاث واجهات: الأوبئة والطواعين، المجاعات والمساغب، غلاء الأسعار وانعدام فرص العمل.

- (١) يدخل الطاعون ضمن الأمراض المعدية القاتلة والتي تسببها بريسينية طاعونية، سميت على اسم عالم البكتيريا الفرنسي السويسري "الكسندر برسين" الذي اكتشفها سنة ١٨٩٤م، وينتقل هذا المرض إلى الإنسان بواسطة الفئران أو البراغيث. تسبب الطاعون في فوضى عارمة في العالم خلال العصور الوسطى، حيث أثر على كافة مناحي حياة الإنسان. فؤاد العبودي وعلال ركوك، **المغرب في مواجهة الوباء: طاعون ١٨١٨م**، مقال ضمن المجلة الصحية المغربية، عدد ٩، يناير ٢٠١٥، ص: ٥٨.
- (٢) الضعيف، محمد بن عبد السلام بن أحمد بن محمد الرباطي، **تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان ١٠٤٣هـ/١٦٣٣م-١١٣٨هـ/١٨١٢م**، تحقيق: محمد البوزيدي الشيشي، م، دار الثقافة، الدار البيضاء، ٢٠٠٧، ص: ٢٧٤.
- (٣) الناصري أحمد بن خالد، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة السعيدة**، تحقيق، جعفر الناصري ومحمد الناصري، الجزء الخامس، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٥، ص: ١٢٨.
- (٤) المنصور محمد، **المغرب قبل الاستعمار المجتمع والدولة والدين**، ١٧٩٢-١٨٢٢م، ترجمة حبيدة محمد، ص: ٧٢.
- (٥) الفشتالي عبد السلام بن سليمان، **تقييد في وباء ١٢١٣هـ في مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط**، رقم: ٢٨٣، ص: ١٢٥.
- (٦) المنصور محمد، **ن م**، ص: ٧٧.
- (٧) البزاز محمد الأمين، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ١٨، ١٩٩٢، ص: ٧٧.
- (٨) الفشتالي عبد السلام بن سليمان، **تقييد في وباء ١٢١٣هـ في مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط**، رقم: ٢٨٣، ص: ١٢٦.
- (٩) المنصور محمد، **ن م**، ص: ١٧١.
- (١٠) الضعيف الرباطي، **م س**، ص: ٣١٥.
- (١١) James Grey Jackson, An Account Of the empire of morocco and the districts of Suse and Tafilelt, Third Edition, 1868, P.176-177.
- (١٢) الخريطة من إنجاز شخصي باعتماد مجموعة من الإشارات المصدرة،
- (١٣) الزياتي أبو القاسم، **الروضة السليمانية**، مخطوط الخزنة العامة بالرباط، رقم ده ١٢٧، ص: ١٨١.
- (١٤) الفشتالي عبد السلام بن سليمان، **تقييد في وباء ١٢١٣هـ في مخطوط الخزنة الحسنية بالرباط**، رقم د ٢٨٣، ص: ١٢٦.
- (١٥) شروتر دانييل، **يهودي السلطان، المغرب وعالم اليهود السفرد**، تعريب خالد بن الصغير، جامعة محمد الخامس أكادال، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط ١، ٢٠١١، ص: ١١.
- (١٦) نفسه، ص: ١١٤.
- (١٧) نفسه، ص: ١١٤.
- (١٨) دانييل شروتر، **م س**، ص: ١١٧.
- (١٩) نفسه، ص: ١٥٤.
- (٢٠) أنظر في هذا الصدد: البزاز محمد الأمين، **الإصلاحات والمشاكل الصحي في مغرب القرن التاسع عشر**، ضمن الأيام الدراسية من ٦ إلى ٩. رجب ١٤٠٤/٢٠ إلى ٢٣ أبريل ١٩٨٣، تحت عنوان: **الإصلاح**

والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٧، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.

(٢١) لا تقدم المصادر التاريخية ولا الكتابات الحديثة حول الأوبئة والطواعين تعريفات دقيقة لكل مفهوم على حدة، لكن ما يفهم من سياق قراءة الدراسات التي اتخذت من الأوبئة والمجاعات موضوعاً لها، أن الوباء يطلق على كل مرض معد، ينتشر بسهولة بين الناس ويؤدي في غالب الأحيان إلى الوفاة، ويعتبر الطاعون من بين الأوبئة التي فتكت بالمغاربة ردحا من الزمن.

(٢٢) البزاز محمد الأمين، **تاريخ الأوبئة والمجاعات...**، ص: ٨٥.

(٢٣) المنصور محمد، **م س**، ص: ٧٧.

(٢٤) فؤاد العبودي وعلال ركوك، **م س**، ص: ٥٩.

(٢٥) نفسه، ص: ٥٩.

(٢٦) البزاز محمد الأمين، **تاريخ الأوبئة والمجاعات...**، ص: ٨٥.

(٢٧) المنصور محمد، **م س**، ص: ٣٨٥.

(٢٨) سبق أن أشار لها شارل دوفوكو وكذلك دانييل شروتر.

(29) Pascon PAUL, **Le Haouz de Marrakech**, Rabat, 1977, T1 ; P:195.

(٣٠) الضعيف الرباطي، **م س**، ص: ٣٦٥-٣٨٨.

(٣١) الناصري، **م س**، ص: ١٦٩-١١٣.

(٣٢) البزاز محمد الأمين، **تاريخ الأوبئة والمجاعات...**، ص: ٩٩.

(٣٣) أبو القاسم الزياني، **البستان الظريف، في دولة أولاد مولاي الشريف (من النشأة إلى نهاية عهد سيدي محمد بن عبد الله)**، تحقيق، رشيد الزاوية، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، ص: ٢٠٤.

(٣٤) روجي لوتورنو، **فاس قبل الحماية**، ج ١، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص: ٩٨.

(٣٥) أكنسوس، محمد بن أحمد المراكشي، **الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي**، تحقيق وتقديم: أحمد بن يوسف الكنسوسي، جزآن، مراكش، دون تاريخ، ص: ٢٨١.

(٣٦) الناصري أحمد خالد، **م س**، ٨، ص: ١١٤.

(٣٧) المنصور محمد، **م س**، ص: ٩٩.

(٣٨) رسالة من محمد بن عبد الصادق، قائد الصورة، إلى الحكومة البريطانية، ٨ فبراير ١٨١٣، أوردها محمد المنصور، ص: ٧٩.

(٣٩) البزاز محمد الأمين، **تاريخ الأوبئة والمجاعات...**، ص: ٨٠.

المجاعة وآثارها على السلوك الغذائي لدى المغاربة نماذج من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين

د. عبد الرحيم الربيعي

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
دكتوراه من جامعة محمد الخامس
الرباط – المملكة المغربية



ملخص

واجه المغرب عبر تاريخه موجات من المجاعات الخطيرة، بسبب انحباس المطر، وقل القوت والغذاء وارتفعت الأسعار، وهلك بذلك الإنسان والحيوان، بسبب سوء التغذية وصعوبة الحصول على الطعام مما أدى إلى ارتفاع معدلات الوفاة. يسعى هذا البحث المتواضع إلى تسليط الضوء على سلسلة من المجاعات التي ضربت المغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وما خلفته من نتائج سلبية على بنياته الاقتصادية والاجتماعية والديمقراطية، مما أدى إلى إفراز سلوك غذائي ارتكز على النباتات والحشائش السامة وأكل الجراد والحيوانات والخنازير، والأكثر من ذلك فقد أقبل بعض الجوعى على أكل الجيف والموتى لضمان البقاء والاستمرارية في الحياة، مما دفع مجموعة من السلاطين والصلحاء إلى التقرب من الفئات المتضررة بمشاركتهم محنتهم وأزماتهم وتوعيتهم وتحسين مستوى معيشتهم. المقال مجرد محاولة للنش عن واقع المجاعة، وتأثيرها على السلوكيات الغذائية لبعض فئات المجتمع المغربي، التي كانت تصارع قسوة الجوع عبر ارتكاب كل الموبقات لتأمين البقاء حباً في الحياة.

كلمات مفتاحية:

المجاعة؛ سلوك غذائي؛ الجوع؛ نبات إيرني؛ أكل الجيف؛ القوت

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٥ سبتمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٣٠ أكتوبر ٢٠٢٤



10.21608/kan.2025.436389

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الرحيم الربيعي، "المجاعة وآثارها على السلوك الغذائي لدى المغاربة: نماذج من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين". دورية كان التاريخية. السنة الثامنة عشرة- العدد التاسع والستون: يونيو ٢٠٢٥. ص ١٢٢ – ١٣١.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: rbiabderrahim@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في جُوبية كان ٤.٠ This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made. فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

واجه المغرب عبر تاريخه موجات من المجاعات الخطيرة، بسبب انحباس المطر، وقل القوت والغذاء وارتفعت الأسعار، وهلك بذلك الإنسان والحيوان، بسبب سوء التغذية وصعوبة الحصول على الطعام مما أدى إلى ارتفاع معدلات الوفاة، التي كان لها انعكاس مباشر على اقتصاد البلاد، وخاصة الحرف التي شهدت تراجعاً حاداً بسبب قلة الصناعات والحرفيين من جهة، والوهن والضعف الذي أصيبت الأبدان به بسبب الجوع المفرط والأوبئة من جهة أخرى، مما أدى إلى انتشار سلوكيات عجيبة كآكل الأعشاب السامة والنباتات البرية كنبته ايرني والخبيزة والخروب وغيرها من النباتات التي أقبل عليها المغاربة، والتي تحولت إلى أطعمة رئيسية زمن القحط والجفاف، وأخرى غريبة ومقززة لا يمكن أن يصدقها عقل ولا يقبلها منطق؛ كإقبال المغاربة على أكل الجيف والموتى، بل أكثر من ذلك فقد وصل بالبعض إلى أكل أبنائهم للنجاة من الموت الذي راح ضحيته العديد من المغاربة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين. فما السلوك الغذائي الذي ابتكره المغاربة زمن القحط والمجاعة؟ وما التدابير والإجراءات التي اتخذها السلاطين والصلحاء لتحسين مستوى عيشهم؟

أولاً: المجاعات والأوبئة وانعكاساتها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - الميلاديين

كان للكوارث الطبيعية أثر كبير على الحياة الاقتصادية، فالأوبئة والمجاعات اعتادت أن تجتاح البلاد وتخلّف انعكاسات سلبية على الإنسان والطبيعة، محدثة إرباكاً في الحالة الاقتصادية للبلاد ولا سيما في المجال الزراعي الذي تأثر كثيراً، الشيء الذي انعكس على باقي القطاعات الاقتصادية الأخرى التي تعتمد وبشكل كبير على القطاع الزراعي. ونسوق من الأمثلة ما حصل سنة ١٧٣٦م، حيث شهدت البلاد موجة "جفاف أدت إلى قلة الإنتاج الزراعي الغذائي وهلاك الحيوانات مما أدى إلى غلاء الأسعار"^(١)؛ ففي "مدينة مكناس وصل ثمن القمح إلى 20 أوقية"^(٢) وفي "سلا 15 أواق، بينما وصل في

فاس 80 مثقالاً"^(٣) والشعير إلى ما يقرب ذلك، والزيت 25 مثقالاً، وقد تواصلت الزيادة في أسعار المواد الغذائية حتى بلغ ثمن القمح بفاس نحو 100 مثقالاً لدرجة أصبح السكان يبيعون أحسن منازلهم بـ 60 مثقالاً إلى 86 مثقالاً بدافع شراء ما يلزمهم من حاجياتهم الغذائية"^(٤).

وهذا نتج عنه "هلاك عدد كبير من السكان"^(٥)، فلجأ المخزن إلى التجار الأوروبيين لتزويده بالحبوب لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من السكان المغاربة الذين كانوا يموتون جوعاً، فقد "قام قائد العبيد الحوات ومحمد بن عربية بمراسلات إلى التجار الأجانب بالرباط وسلا لتزويدهم بالحبوب لبلدانهم"^(٦)، وهو ما حصل فعلاً "إذ استغل التجار الأوروبيون هذه الفرصة لتصريف منتجاتهم، فنشطت حركة البيع والشراء في بعض المراسي مثل تطوان والرباط، لكن باشا تطوان أحمد الريفي قام بتعطيل تجار فاس عن طريق أهل تطوان في جلب الحبوب من إسبانيا لمدة ستة أشهر"^(٧)، مما دفع بالعديد من الناس إلى الهجرة بحثاً عن الأمن والغذاء، ومن بينهم يهود فاس "الذين غادروها سنة ١٧٣٨م متجهين إلى مدن أخرى"^(٨) أمام انتشار واسع للظاهرة اللصوصية في الطرق والأسواق، و"من أهم المناطق التي انتشرت فيها فاس ومكناس وزهون والرباط"^(٩)، مما انعكس سلباً على الوضع المعيشي والأمني للسكان.

وقد سجلت كتب التاريخ سلسلة من الهزات الأرضية خلال القرن الثامن عشر، والتي كان نصيب طنجة من أثارها كبيراً؛ "في سنة (١١١٩هـ / ١٧٠٨م) حيث حصلت زلزلة عظيمة بمكناس سقطت على إثرها دور كثيرة، وفي سنة (١١٣١هـ / ١٧١٩م) حصلت زلزلة بفاس والسواحل ومراكش، وفي سنة (١١٥١هـ / ١٧٣٨م)، حصلت زلزلة عظيمة سقطت على إثرها القوس الكبير بباب البحر برباط الفتح"^(١٠).

أمام هذا الواقع المتردي دخل المجتمع في أزمتات وشح اقتصادي، دفع بالبلاد إلى شفير الانهيار التام في غياب المعالجات والحلول كليا والدخول في تبعات ثقيلة تطحن في طريقها المواطن الذي أصبح وحيداً في مواجهة أزمة تهدد أمنه الغذائي والاجتماعي معاً، وسط الضربات القاسية للجفاف والمجاعات مما خلق جوا من

وهنا تجدر الإشارة إلا أن سنة ١٨٧٨م من أشد الأعوام قحطاً عم مختلف أنحاء البلاد، ففيها هلك رجال من كبار خدام المخزن، ومنهم الحاجب موسى بن أحمد، وقائد مشور مولاي عبد الرحمان بن هشام وابنه سيدي محمد والوالي على فاس ثم طنجة الجيلالي بن حم. وفيها استطاع رجال من أعيان الغرب من دوار التفاوتية أن يحقق مضاربة كبرى، "إذا أسلف لأهل بلده زرعاً وأخذ في ضمانته رده وثائق ممتلكاتهم، ولما عجزوا عن تسديد ما عليهم استولى على تلك الأراضي وسلبها أصحابها بين عشية وضحاها"^(١٥).

ثانياً: النظام الغذائي زمن المجاعات والأوبئة

شهد المغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، تراجعاً في الإنتاج الفلاحي وذلك بسبب الجفاف وما نتج عنه من مجاعات وأوبئة أثرت على المستوى المعيشي لسكان المغرب حيث قل الطعام، مما دفع بالسكان إلى الإقبال على تناول أغذية نباتية وأخرى يمكن القول عنها أنها مقززة وغير مألوفة، من أجل تجاوز محنة قلة الغذاء.

فما هو النظام الغذائي الذي أفرز زمن المجاعات والأوبئة؟ وما تأثيرها على الأفراد والجماعات بالمغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين؟

١/٢- العودة إلى النظام الغذائي النباتي

تعتبر المجاعات واحدة من أخطر الكوارث الطبيعية التي شهدتها المغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وما ترتب عنها من آثار سلبية على الاقتصاد والصحة، دفعت بالملايين من الناس إلى تبني نظام غذائي نباتي لتجاوز أزمة الجوع والتمسك بجبل النجاة هرباً من الموت، وفي هذا السياق يقول محمد المختار السوسي صاحب كتاب المعسول: "ففي عام ١٢٦٧هـ / ١٨٥٠م ... اشتد الجوع على الناس حتى أكلوا الحشيش والربيع -النبات- والنخل وغير ذلك مما يمكن أكله..."^(١٦)، وهي حالات تتكرر أثناء المجاعات وانحباس المطر، مما دفع بالمغاربة إلى أكل الحشائش كأسلوب غذائي جديد لتجاوز ظروف الأزمة، ومن الأمثلة على ذلك ما حدث في مجاعة ١٢٢٥هـ - ١٢٣٤هـ (١٨١٠م -

القلق والاضطرابات أمام تردي الأوضاع الاقتصادية، ففي عام ١٨٢٥م "حدث غلاء شديد في جميع أنحاء المغرب، وأشدّه في فاس، فقد بلغ مد القمح ٧ مثقالاً، ومات جل الضعفاء، وأشرف الناس على الهلاك، وأكل الناس الميتة والجيف والكلاب والقطط، وانكشف حال الناس، وزالت الحشمة، فإذا صنع أحد وليمة جاء الناس يهرولون من غير دعاء، وأكلوا من غير تثبت، وحملوا الطعام معهم، وجعل الناس لا يكتسبون إلا من القمح والدقيق والخبز. وكان القمح يجلب من افريقية ومصر ومن أرض المسك (روسيا) فيباع في المراسي ويحمل على الإبل. لكن الأعراب يذبحونهم في الطريق ويأخذونه، فلا يصل منه إلا القليل من شدة الجوع والقحط في الطريق"^(١٧)، لينكمش الاقتصاد بسبب مظاهر متعددة مجتمعة أو منفردة مثل ما وقع في عام ١٨٢٥م وفي عام ١٨٥٠م وفيما بين ١٨٦٥م و ١٨٦٩م "عندما اتخذت الأزمة مظاهر متعددة، فقد وقع قحط شديد نجمت عنه محاصيل رديئة فانعدمت الأقوات فوقعت المجاعة وتزامن معها في عدد من الحالات ظهور أوبئة معدية"^(١٨)، واكبها ارتفاع في الأسعار وما رافقها من فساد ونهب منظم لخزينة الدولة، مما أدى إلى هزة اقتصادية قوية، بدأت مؤشرات واضحة المعالم مع حلول خريف ١٨٧٧م الذي شهد جفافاً رهيباً، استمر طيلة شتاء ١٨٧٨م، حيث لم تنزل ولو قطرة واحدة في الأقاليم الشمالية، وفي هذا السياق أشار السفير البريطاني (جون درومند هاي) "بأن الأمطار الجمعية لم تبلغ من شتبر ١٨٧٧م إلى بداية فبراير ١٨٧٨م سوى ٧٦ ملم مقابل ٧٦٢ ملم إلى ١,٠٠٠ ملم في الأوقات العادية"^(١٩).

وقد اطرّد في مثل هذه الظروف العصيبة قيام المتولين وبعض رجال المخزن بنشاط يتمثل في تقديم القروض للتجار وفي عقد الصفقات والشركات الفلاحية مع المضطرين. ومن الطبيعي أن يقع بالنسبة لصغار الفلاحين عجز عن أداء الدين المترتب عليهم، وبذلك تؤدي عمليات القرض والشركة بشكل متدرج بطيء لا محيد عنه إلى سلب ملكيات الآخرين. "ومن المحقق أن تقويضات كبرى في الممتلكات قد وقعت في الأزمة التي عرفها المغرب ما بين ١٨٧٨م و١٨٨٥م"^(٢٠).

من النباتات، كالنبق، والبلوط، وخشاش الأرض كخشب النخل^(٢٤)، وأشجار أركان التي كانت تستهلك في أوقات المجاعات والجفاف لمقاومة وخزة الجوع وضمان البقاء على قيد الحياة، وفي هذا السياق ورد في تقرير لرئيس البعثة الفرنسية العسكرية عن شهر أبريل ١٨٩٣ ما يلي: "منذ ثلاث سنوات ومحاصيل الحبوب تأتي عاطلة على التوالي في إقليم الشياظمة، إلا أن السكان يتوفرون على إنتاج أشجار أركان مما ساعدهم على البقاء"^(٢٥).

٢/٢- الجوع وأكل الجيف والموتى

بعد انحباس المطر وندرة القوت وتأثر معاش الناس وارتفاع الأسعار، أقبل الجياع على التهام الكلاب والقطط والجيف^(٢٦)، وهو سلوك غذائي غريب وقاس لإطفاء نار الجوع الذي أصبح ينخر بطون العديد من المغاربة، وفي هذا الإطار يقول كاسترو في كتاب جغرافية الجوع: "ليس هناك كارثة أخرى تحطم شخصية الإنسان وتدمرها كما يفعل الجوع، فإن الفرد إذا استبد به الجوع لا يتورع عن القيام بأي عمل شاذ، إذ يتغير سلوكه من أساسه، كما يحدث لأي حيوان نال منه الجوع"^(٢٧)، فيبحث عما يسد رمقه خوفاً من الموت والهلاك.

وفي هذا الإطار ذكر الضعيف الرباطي في كتابه تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة): "أن في سنة ١٠٧٢هـ - ١٦٦١م، ارتفعت الأسعار حتى بلغ سوم الصاع النبوي من القمح نحو درهمين ونصف شرعية وأزيد. وأكل الناس الموتى والجيف وذبح فيه الأطفال"^(٢٨)، وهو مشهد تكرر في سنة ١٠٧٣هـ - ١٦٦٢م حينما بلغ ثمن القمح "خمسة دراهم شرعية لمقدار الصاع النبوي، وأكلت فيه الجيف، وكثرت الموتى بالأزقة"^(٢٩)، إما بسبب الجوع، أو ورمي الناس لموتهم في الأزقة والمزابل بسبب عجزهم عن دفنهم^(٣٠)، مما دفع بالجياع إلى التهافت على الاقتيات عليها كبديل غذائي للنجاة من الموت، وهو ما أكدته عبد الله العياشي مؤلف "الإحياء والانتعاش" في مراسلة كتبها محمد بن عبد الجبار العياشي وتصف المجاعة التي عرفتها سنة (١٠٧٢ / ١٦٦١) وقد وجهها في حوالي ١٧ إلى شيخه أبي سالم أثناء مقامه بالحرمين، وأشار فيها أنه "رأى أدمي يأكل ميتا جهارا

١٨١٨م) حينما انحبس المطر وقلة المواد الغذائية بشكل غير معتاد، وهلك من الجوع أعداد كبيرة من الناس وخاصة في مدينة طنجة التي أضحى سكانها يقتاتون على الحشائش وتكيفيه قدر المستطاع ليصبح سائغا للأكل، وهذا ما أكدته تقرير قنصلية طنجة: "إن نصف سكان هذه المدينة خلال هذه الفترة كانوا يقتاتون من الحشائش"^(٣١) التي كانت غذاءً أساسياً للتخفيف من حدة الجوع وهلاك الأجساد.

ومن النباتات التي أنقذت المغاربة من ويلات المجاعات التي راح ضحيتها الملايين من المغاربة، نبات إيرني الذي "ارتبط اسمه بتاريخ المجاعات الكبرى في المغرب؛ ففي كل مجاعة كان الشاغل للفقراء الخروج بفؤوسهم إلى الخلاء للبحث عن هذا النبات الذي يساعدهم على البقاء"^(٣٢)، ويدعى أيضاً حسب المناطق "إرني" و"أرني" و"إرنا" و"أيرني"، له ورق على شكل بوق صغير لدى بزوغه يدعى "أمزوغ" أو "بوتمزوغ"، وجذوره نشوية ذات سمة خفيفة، يحضر من دقيقها خبز وكسكس تكاد تنعدم قيمتها الغذائية، وللحصول على هذا الدقيق، تغسل جذور إيرني وتقتشر وتطبخ لمدة طويلة على البخار مثل الكسكس، فتجفف بعد ذلك ثم تطحن^(٣٣). فتعطي "دقيقاً يصنع منه خبز شديد البياض"^(٣٤).

ولم يقتصر المغاربة على أكل نبات إيرني لسد رمقهم، بل كذلك نبات الخبيزة أو البقولة باللهجة الدارجة المغربية، وهي "نبته خضراء تؤكل طرية قبل تصلب عودها، وتطبخ بأشكال مختلفة، وقد تستعمل مخلوطة بغيرها من الأعشاب"^(٣٥)، والتي شكلت غذاءً أساسياً للمغاربة وقت المجاعة، وفي كثير من الأحيان "كانت القوت الوحيد بالنسبة لكثير من العائلات"^(٣٦)، إلى جانب نوار الخروب "الذي كانت تستهلكه حتى العائلات الغنية في أوقات الجوع، ويتحول إلى مادة تجارية رائجة يجني منها التجار أرباحاً سهلة. وفي هذا الإطار يخبرنا نائب قنصل فرنسا بالرباط بأن تجار الاحتكار كانوا في مجاعة ١٨٥٠ يأتون بأحمال كبيرة منه إلى المدينة، يبيعها تجار التقسيط ب ١٥، ٠ ف (موزونتين) للرطل؛ وقد دخل منه للمدينة في زمن يسير ٨٠٠ قنطاراً بيعت في بضعة أيام"^(٣٧)، كما تمت الاستعانة بأنواع مختلفة

اجتباؤه والعياذ بالله. كل ذلك من شدة القحط والجوع^(٤٠).

كما لجأ المغاربة إلى اصطيد الجراد وأكله مقلبا ومشويا بعد أن يذر عليه الملح والفلفل والخل، لمقاومة سطوة الجوع الفتاك، وفي هذا السياق يشير السفير البريطاني جون درومند هاي "بأن سكان الصحراء كانوا يبتهجون عند قدوم الجراد ويسمونهم "الخير"، إذا لا يلحقهم ضرر منه، في حين يقدم لهم وجبة لذيدة"^(٤١)، ومن شدة الجوع أصبح الجراد وجبة رئيسية لدى العديد من الأسر المغربية.

ثالثاً: جهود السلاطين والصلحاء في مكافحة الجوع والحد من انتشاره

أدت المجاعات التي كانت تضرب البلاد بين الفينة والأخرى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وما كان يترتب عنها من أزمات غذائية؛ دفعت بالكثير من السلاطين والصلحاء سواء كانوا يهودا أو مسلمين إلى تقديم ما تم تخزينه وادخاره من مأكّل ومشرب للفقراء والمساكين ابتغاء وجه الله، والحد من الجوع الذي ظل ينخر بطون العديد من فئات المجتمع المغربي. فما الإجراءات والتدابير التي اتخذها السلاطين والصلحاء في مواجهة الجوع والحد من انتشاره خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين؟

١/٣- جهود السلاطين والصلحاء في مكافحة الجوع والحد من انتشاره

بذل سلاطين المغرب جهودا كبيرة للتخفيف من تداعيات المجاعات والكوارث الطبيعية، وذلك بتوزيع صدقات وموئل غذائية وهبات مالية، وهنا نورد مبادرة مولاي إسماعيل خلال مجاعة (١١٣٣هـ / ١٧٢١م) حينما "فتح مخازن القمح وفرقه على الضعفاء وذوي العاهات [...] وأتته قبائل البربر والأعراب وأنزلهم ببلاد الغرب فعاشوا وواساهم بقمح ومال وثياب"^(٤٢)، كما حاول السلطان سيدي محمد الثالث تحسين أوضاع الفقراء والمحتاجين لاسيما أيام مجاعة (١١٩٠ - ١١٩٦) (١٧٧٦ - ١٧٨١) حينما "قدم هبات مالية ضخمة إلى

قرب القرويين"^(٣١). وفي رواية أخرى تخبرنا "بأن في عام ١٢٦٧ هـ ... صار الغلاء الكثير في الحبوب في الزرع والثمار وسائر ما يوكل ... ومات جل الناس بالجوع في الطرقات ... حتى إن بعضهم يأكل بعضا والعياذ بالله^(٣٢)، فيما لجأ آخرون إلى افتراس جثث الحيوانات وخاصة في مدينة طنجة التي قصدها الجائعون فاكتظت بالافاقيين والمشردين الذين تهافتوا على "الاقتيات بجثث الخيول، والحمير وبالبلغال، والأبقار، التي تركت ملقاة على قارعة الطريق"^(٣٣).

ومن شدة الجوع وشح الموارد، أصبح المغاربة سنة ١٧٢١م "يرسلون عجين الخبز إلى الفرن داخل صندوق، مخافة أن يسرق"^(٣٤)؛ فجحافل الجياع، الذين ملأ الطرقات آنذاك، لم تكن أعينهم لتتحمل المنظر البديع للخبز البلدي وهو فوق "وصلات" الميسورين، ممن سمحت لهم مدخراتهم بتذوق خبز القمح في غفلة من الجوع الذي عصف بإخوانهم الفقراء، في زمان كان فيه خبز القمح والشعير غذاء أساسيا للمغاربة كما تدل على ذلك النصوص التاريخية التي تحدثت عن غلاء الخبز وقت الشدة وعن ثراء الخبازين، فأطلق المغاربة على فترة تلك الأزمة "عام الصندوق"^(٣٥)، والتي "امتدت لأربع سنوات حتى سنة ١٧٢٤م"^(٣٦)، بلغت فيها "أسعار الحبوب والفواكه والخضروات مستويات فاحشة"^(٣٧) فمات خلق كثير.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل استمرت معاناة الجوعى إلى نهاية ١٧٧٨م، ليبلغ العجز الغذائي أسوأ مراحل على مدار فصول السنة على الرغم من تباعدها، مما دفع بالإنسان الجائع إلى البحث في جحور الفئران والنمل. وأكلوا ما كان محرما شرعا "من لحوم الموتى والدم والخنزير"^(٣٨). وهذا لا يتماشى مع قوله تعالى: "حرمت عليكم الميتة، ولحم الخنزير"^(٣٩)، لكن الجياع خلال مرحلة الصراع من أجل الاستمرارية في الحياة لا يفكرون في مثل هذه القيود بعدما نفذ القوت في المطامر والأهراءات، ويبست الحشائش والنباتات فلم يعد بديل أمام الجياع سوى أكل الميتة ولحم الخنزير، وهذا ما أورده المختار السوسي في كتابه المعسول بقوله: "وقد اشتد الجوع على الناس في آخر عام ١٢٦٦ هـ... وأكل الناس الجيف والميتة والدم وغير ذلك مما يجب

طقوس لجأ إليها المغاربة بالتوجه للصالحين والفقهاء والشرفاء، وحتى المجاذيب ليستمطروا بهم ولأخذ بركاتهم، وكانت خطب الفقهاء والأئمة خلال هاته الفترة. وربما عبر تاريخ المغرب -تدعو المصلين إلى مراجعة أنفسهم وتربط بين الكارثة وبين ما عليه الناس والحكام، لأن الكارثة لا تنزل فجأة من السماء، وإنما هي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأعمال الناس- وهو ما تشهد به مجموعة من النصوص والوثائق التاريخية، ومن بينها نقرأ في وثيقة بتاريخ ٢٥ صفر ١٢٨٥هـ/ ١٧ يونيو ١٨٦٨م "والجوع [...] قاهر بالسطوة الإلهية وإن كنا مستحقين لجميع ما يحل بنا لما نحن عليه من العصيان والمخالفة"^(٥٠)، وكان اليهود بدورهم "يطلبون الغوث، ويلجأؤون إلى الاستسقاء التي تسمى عندهم يقون هكشيم"^(٥١).

٢/٣-مقاومة الجوع بالادخار والتخزين

يُعدّ تخزين وادخار المواد الغذائية إحدى التدابير التي تم اتخاذها من طرف المغاربة زمن المجاعة والأزمة الاقتصادية، "بحيث كانت المطمورة قادرة على خزن الحبوب في حالة جيدة لمدة طويلة قد تصل إلى عشرين سنة"^(٥٢)، ففي حدود عام ١٨٦٨م، جاء في مراسلة أجنبية من الدار البيضاء "أن ثروة المغاربة تقوم على امتلاك عدد كبير من المطامير المليئة قمحاً؛ ثم أضافت المراسلة: أنهم لم يكتف أصحاب الثروة في إخفاء الحبوب والشعير وغيرها من المواد الغذائية وإنما قاموا باكتناز القطع النقدية من فئة خمسة فرنكات"^(٥٣). ولحمايتها من الرطوبة "كانوا، يقومون قبل دفنها بوضعها في كسكاس وتعريضها لبخار ماء يغلي في قدرة تحته ثم حكها بالنخالة"^(٥٤). إلى جانب حليهم ومجوهراتهم، حفاظاً عليها من التلف والضياع. وبالإضافة إلى المطمورة كانت هناك الأهرام الجماعية"^(٥٥)، "وهناك أحكام عرفية نظمت منذ القديم، وبكامل الدقة، لاستغلال هذه الأهرامات، والمحافظة عليها وإصلاحها بما يحقق المنفعة وينفي الضرر"^(٥٦).

ولعله من المفيد أن نؤكد هنا نصيحة توصي بعدم التبذير وتحث على قيمة العمل والادخار، وهي للفقير السوسي البوشواري المعاصر لمجاعة ١٨٧٨م، حيث يقول

سكان البوادي وضمن الخبز للضعفاء في مختلف الجهات كما أقرض تجار المدن أموالاً طائلة وبذلك كانت الأزمة أخف ضرراً لطول مدتها"^(٥٧).

ومما لا شك فيه أن مساعدة السلاطين للفقراء والمحتاجين أيام المحن والمجاعات كان من أولوياتهم عبر تاريخ المغرب، وهذا ما أكدته الضعيف الرباطي بقوله: "وفي ربيع الأول عام خمسة وتسعين ومائة وألف قدم السلطان على رباط الفتح، وفرق المال على الضعفاء والمساكين وكان يعطيهم بيده وهو داخل الكدش، ورتب لهم الخبز في كل يوم"^(٥٨)، إلى أن تحقق الرخاء والأمن الغذائي. ومن الجدير بالذكر أيضاً أن المخزن قد بذل مجهودات من أجل استيراد القمح وتوزيعه على الفقراء والمحتاجين، فخلال المجاعة الكبيرة (١٧٧٦-١٧٨٢) قام السلطان محمد الثالث باستيراد القمح من أوروبا، بل قدم مبلغاً هاماً من المال لشركة إسبانية لاستيراد القمح"^(٥٩). وفي سنة ١٨١٧ استورد المغرب الحبوب من جبل طارق"^(٦٠)، مما عمل على التخفيف من حدة الجوع، بل إن المصادر المغربية تؤكد أنه لولا استيراد هذه الحبوب "لمات جميع من في المغرب جوعاً"^(٦١).

لم يكن هذا التكافل الاجتماعي مقتصرًا على السلاطين، فقد برز عدد من الصلحاء من أغنياء المدن والقرى، الذين قدموا مساعدات كبيرة لرفع الشدة على الفقراء والمحتاجين، وذلك عبر تقديم صدقات ومنح مالية، ولنا في ذلك أمثلة متعددة، نقتصر بذكر هذا المثال الذي أورده محمد حجي في ترجمته للفقير محمد الصنهاجي والمتوفى عام ١١٥٤هـ، أنه "كان يواسي في زمان الشدة فاتخذ المساكين الحائرون عدة، أقام أياماً يطعم الطعام حين المسغبة العظيمة وضيق العيش للخاص والعام"^(٦٢). وازداد اهتمام الصلحاء بالفقراء والمحتاجين خاصة في مناسبات دفن الموتى والأعياد الدينية بتوزيع الخبز والكرموس عليهم، فهذا الشيخ محمد بن ويسعدن السكتاني، أحد مشايخ سوس الكبار، كان "يرد عليه الفقراء، والمساكين، والضعفاء، فيقيمون ويأكلون كلهم، ويشربون في هناء، مع كون البلد ضيقاً، وربما توالى عليه القحوط"^(٦٣).

وفي ظل هذه الأوضاع لجأ المغاربة لصلاة الاستسقاء في اليوم الواحد عدة مرات، صاحبت هذه الصلاة

طريقه^(٥٩)، مما أدى إلى إفراز جو من الخوف والقلق، "دفع الناس إلى قبض أيديهم على ما لهم من قوت، وخرنه والامتناع عن عرضه في السوق، لادخار المقادير اللازمة من الغذاء لهم ولأسرهم في هذه الأوقات العصبية، أو طمعاً في كسب منتظر"^(٦٠). وبالتالي أصبح سكان المدن يولون اهتماماً كبيراً بتخزين الأقوات داخل دورهم، "فيضعونها في سلال كبيرة تجصص بالطين، وتخصص لها غرف فوق السطوح التي جرت العادة باستغلالها في الأغراض المعيشية"^(٦١).

وكانت المراهنة على هذا الادخار إحدى أهم الثوابت التقليدية في حياة بعض المدن التي تعرضت في عصورها المختلفة لضروب المحن، سواء على يد الطبيعة أو الإنسان. ذلك ما لاحظته "طورنو" بالنسبة لفاس وعبر عنه بقوله: "أن هؤلاء الحضريين الذين تعودوا منذ قرون على الصمود أمام ما يضرب عليهم من حصار، وعلى تحمل نتائج السنوات العجاف، قد صاروا يتكيفون مع هذه الأحداث السيئة. فعندما يلاحظون البوادر الأولى لأي اضطراب كان من جهة السماء أو البشر، يقومون بالادخار من كل نوع، بحيث يتمكنون على العموم من الخروج سالمين من المخاطرة"^(٦٢). مما أدى إلى قلة العرض بالنسبة للطلب، وبالتالي ارتفاع أسعار المواد الغذائية، مما يشكل خطراً على الأمن الغذائي للسكان، خصوصاً منهم الفقراء، وذلك ما حدث بين سنتي (١٨٧٤م-١٨٥١م)، حيث تعرض المغرب لأزمة غذائية طاحنة تذكر بتلك التي عاشها عام ١٨٢٥م.

استفحلت الظروف التي أدت إلى هذه الأزمة على نحو تراكمي، بعد سنتين من الصعوبات في توفير الغذاء، مثل ما ظهر في تدني المحصول؛ "فمحصول (١٨٤٥م-١٨٤٦م) جاء دون المتوسط المعتاد"^(٦٣)، وأرغم الفلاحين على إفراغ مطاميرهم واستهلاك مخزوناتهم من الطعام. كما جرت عملية إفراغ مطامير السهول الوسطى عن طريق تحريك الأقوات منها نحو الجهات الأكثر تضرراً. وفي هذا الإطار أمر مولاي عبد الرحمن بن هشام قائد تطوان الحاج عبد القادر أشعاش، بجلب الحبوب لضعفاء ومساكين تطوان من مراسي الدار البيضاء وآسفي بقوله: "خديمنا الأرضي الحاج عبد القادر أشعاش، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله

فيها: "عليك بخزن زريعتك والاقتصاد في معيشتك فخذ الثلث من كل شيء وادخره وكل الثلثين، وعلبك بإعانة قوتك بالخضر ولا تسرف، وانصح الناس، ولا تكثر من تملك البقر، فإن لم تحكم يدك وغلب عليك الإسراف، فاجعل ما فضل لك في الحصن أو في موضع لا تصل إليه بسرعة، وعلبك بالجهاد (يعني الكد والعمل) دنيا وأخرى. ولا تكن بخيلاً (يعني كسولاً) فعاقبة البخل (الكسل) الندامة [...]"^(٥٧).

إن لهذا النص مدلولاً اقتصادياً يحث على العمل، مع ادخار ما تم اكتسابه من حبوب وأموال ومتاع لأيام الأزمات والمجاعات التي كان يمر منها المغرب، فقلما كانت دار في البادية أو المدينة لا تضم بين جدرانها وسقوفها مطامير.

ففي الحقبة المضطربة التي تلت وفاة مولاي إسماعيل لجأ الفلاحون إلى إخفاء منتوجاتهم الفلاحية من حبوب وشعير، خوفاً من مصادرة رجال الدولة لها إما لأسباب طبيعية، أو مجاعة، أو لمواجهة ثورات داخلية، أو لتسديد ديون خارجية، مما دفع بالمخزن في مناسبات عديدة إلى تتريك مطامير الرعية. ففي الوقت الذي كانت فيه مجاعة (١٧٢١م-١٧٢٤م) تحصص الأرواح، كانت الخزينة فارغة والحرب سجلاً بين السلطان محمد بن عربية وأخيه مولاي عبد الله؛ وبينما كانت العادة ادخار الأقوات تحسباً لأوقات القلة، قام السلطان الأول منذ توليه الحكم باستخراج الموجود منها في الأهرار أو لدى الخواص، وذلك إرضاء للعبيد بعد أن نضب معينه من المال. يقول الزباني: "فرق (محمد بن عربية) على العبيد ما عنده من المال لراتبهم فلم يكفه ذلك واشتغل بنهب الزرع من ديار مكناسة، والبحث عليه في الأهلية والمطامير، وكل من أتى به من أهل البادية يؤخذ منه وكل من ذكر أن عنده زرعاً يقبضه إلى أن يخرج ما عنده"^(٥٨).

هذه كلها عوامل "دفعت سكان القبائل إلى تهريب مخزوناتهم ووضعها في أماكن خاضعة لوصاية الزوايا مثلاً، أو إخفائها بكل عناية، وهو وضع لم تجد الأجهزة المخزنية صعوبة في تجاوزه إبان حكم المولى إسماعيل الذي وظف الكلاب للكشف عن المطامير [...]" بدليل أنه لم يكن يتأخر في نهب كل المخازن التي يجدها في

ومن خلال هذه الأمثلة المختلفة والمتعددة، نلاحظ أن الخوف من المجاعات والكوارث الطبيعية دفع الكثير من الرعايا إلى دفن مؤنهم في المطامير والأهراء والآبار والبيوت والبساتين والقبور، وغيرها من الأماكن التي كان يرى فيها أصحاب الثروات الأمن لمؤنهم وممتلكاتهم، وكما أسلفنا الذكر فإن هذه الثروات التي كانت تدفن خوفاً من الجفاف وشح الغذاء كان لها انعكاس سلبي على الاقتصاد المغربي خاصة في أوقات الأزمات التي كان يتم استغلالها من أجل تخزينه وعرضه بفوائد مرتفعة لتحقيق الربح على حساب الفقراء والمحتاجين.

خاتمة

من خلال ما سبق ذكره يمكن القول، إن هذه المقالة هي مجرد محاولة للنش عن واقع المجاعة، وتأثيرها على السلوكيات الغذائية لبعض فئات المجتمع المغربي، التي كانت تصارع قسوة الجوع عبر ارتكاب كل الموبقات لتأمين البقاء حياً في الحياة، وهذا ما دفع بالعديد من السلاطين والصلحاء إلى خلق توازن نفسي وتقديم دعم مادي وعيني للفئات المتضررة من تداعيات المجاعة العنيفة وشبح الموت جوعاً، الذي كان يطارد الفقراء والمحتاجين خلال فترات المجاعات والأزمات الاقتصادية.

تعالى وبركاته، وبعد فقد وصلنا كتابك مخبراً بما عليه خدامنا آل تطوان من ضيق المعيشة بغلاء سعر القمح والشعير وبلوغ ثمنها الغاية لقلّة الوارد بهما، وأنهم طلبوا الإذن في وسقتهما من الثغر الآسفي، فقد أذننا في ذلك على شرط أن يرضى من يجلبهما بالربح القليل عند إرادة بيعهما بالثغر التطواني رفقا بالضعفاء والمساكين، ولذلك أسقطنا صاكتهما، ويصلك كتابنا بذلك لخدمنا الطالب محمد بن عزوز بتسريح ذلك لمن يتوجه من قبلكم لجلب ذلك، وإن أردتم وسق ذلك من الدار البيضاء فأعلمنا فإنها أقرب وأكثر زرعاً، والسلام" (٦٤).

هذا الوضع ازداد تآزماً خلال عهد مولاي الحسن، والذي استغلته فئة المحميين المغاربة من مسلمين ويهود الذين كان لهم دور في تمهيد الطريق للتسرب الأوربي بالمغرب، كما استغلت المشاكل السياسية وأيضاً الاقتصادية التي كان يمر منها المغرب، خاصة في فترات القحوط والمجاعات، لتحقيق الثراء السريع وذلك عبر عدة أساليب كانت تدر عليها أرباحاً كبيرة حتى في الأوقات العادية، من خلال "شراء الصوف قبل أوان الجز، والمحاصيل قبل موسم الحصاد، بل وخلال موسم البذر، ثم الإمساك عن إخراجها بعد جمعها، ارتقاباً لسعر ملائم للبيع. كما كانت تقرض بفوائد عالية، تصل في فترات الرخاء إلى ٥٠ و ٦٠ في المائة" (٦٥)، وذلك مقابل ارتهان رسوم الملكيات من أراض ودور ومحاصيل زراعية ومنتجات حرفية. وواضح أن أرباح هذه التجارة الربوية كانت تزيد بصورة واضحة في فترات القحوط والمجاعات، حيث يصبح بؤس العالمين القروي والحضري على السواء، مورداً ضخماً لكل مضارب في الحبوب، وحيث تصل فوائد الرأسمال الربوي إلى مستويات فاحشة، مما أدى إلى ظهور بعض الظواهر الاجتماعية السيئة كاللصوصية والتي اتجه نشاطها إلى نهب المطامير الموجودة في حوزة الحضريين، خاصة منهم المحميون والأوربيون. ففي غضون ١٨٧٨م، "جاءت جماعة من الزيائدة واستولت بأولاد زيان على مطامير من الحبوب في ملك المعطي، وهو محمي فرنسي، وقتلت أخاه الذي حاول المقاومة، وبلغ ما نهبت ٣٣ حملاً من القمح، و١٢ حملاً من الشعير، و١٢ حملاً من الفول" (٦٦).

الإحالات المرجعية:

- (٢٠) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب ...**، م. س، ص ٣٥٧.
- (٢١) السيمو (بهيجة)، **العلاقات المغربية الإيطالية، ١٨٦٩-١٩١٢**، منشورات اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، المملكة المغربية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ٣، ٢٠٠٣، ص ٤٠٧.
- (٢٢) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب ...**، م. س، ص ٢٠٦.
- (٢٣) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب ...**، م. س، ص ٣٥٨.
- (٢٤) السوسني (المختار)، **المعسول**، ج ١٥، م. س، ص ١٣.
- (٢٥) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب ...**، م. س، ص ٣٥٨.
- (٢٦) مجهول، **البيتسام عن دولة ابن هشام**، مخطوط الخزنة الحسنية، الرباط، ز ١٢٤٢٠.
- (٢٧) مجهول، **البيتسام عن دولة ابن هشام**، مخطوط الخزنة الحسنية، الرباط، ز ١٢٤٢٠.
- (٢٨) الضعيف الرباطي (محمد)، **تاريخ الضعيف ...**، م. س، ص ٣١.
- (٢٩) الضعيف الرباطي (محمد)، **تاريخ الضعيف ...**، م. س، ص ٣١.
- (٣٠) الضعيف الرباطي (محمد)، **تاريخ الضعيف ...**، م. س، ص ١٢٥.
- (٣١) حركات (إبراهيم)، **المغرب عبر التاريخ ...**، ج ٣، م. س، ص ٤٩٩.
- (٣٢) السوسني (المختار)، **المعسول**، ج ١٥، م. س، ص ١١-١٠.
- (٣٣) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب ...**، م. س، ص ١٢٢.
- (٣٤) آيت فرحي (حميد)، "عام الجوع نهار لمغاربة كُلو بعضياتهم"، ضمن **مجلة الآت**، ع. ٩٦، ٢٠١٤، ص ٢٤.
- (٣٥) القادري (محمد بن الطيب)، **نشر المئاني ...**، ج ٣، م. س، ص ٢٥٣.
- (٣٦) آيت فرحي (حميد)، **عام الجوع ...**، م. س، ص ٢٤.
- (٣٧) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات ...**، م. س، ص ٣٩.
- (٣٨) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات ...**، م. س، ص ٧٤.
- (٣٩) **القرآن الكريم**، سورة البقرة، الآية: ١٧٣.
- (٤٠) السوسني (المختار)، **المعسول**، ج ١٥، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٦١، ص ١١.
- (٤١) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب ...**، م. س، ص ٣٥٨.
- DRUMMOND-HAY (John), *Western Barbary: Its wild tribes and savage animals*, John Murray, London, 1844, Tr. Fr., p.177.
- (٤٢) ابن الحاج السلمي (أحمد)، الدار المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن، ج ٧، مخ. خ. ح، رقم ١٩٢٠، ص ٧.
- (٤٣) حركات (إبراهيم)، **المغرب عبر التاريخ ...**، ج ٣، م. س، ص ٥٠٠.
- (٤٤) الضعيف الرباطي (محمد)، **تاريخ الضعيف ...**، م. س، ص ١٨٣.
- (٤٥) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب ...**، م. س، ص ٧٦.
- (٤٦) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب ...**، م. س، ص ١٠٢.
- (٤٧) الضعيف الرباطي (محمد)، **تاريخ الضعيف ...**، م. س، ص ١٢٦.
- (٤٨) حجي (محمد)، **موسوعة أعلام المغرب**، ج ٧، دار الغرب الإسلامي، ط ١، بيروت، ١٩٩٦، ص ٢١٢٢.
- (١) الضعيف الرباطي (محمد)، **تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)**، تحقيق: تعريب. تقديم. أحمد العماري، دار المأثورات، ط ١، الرباط، ١٩٨٦، ص 124.
- (٢) هي وحدة حسابية نقدية كانت تؤدي بها الرسوم الجمركية، وتستعمل أيضاً كوحدة من وحدات الوزن وتعادل ٣٤ غراماً انظر: محمد قبلي، **تاريخ المغرب تحيين وتركيب، المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب**، ط 1، الرباط، 2011م، ص 752.
- (٣) هو وحدة من وحدات الوزن استعمل للدلالة على الدينار الذهبي وفي القرن 18 م- أصبح يطلق في المغرب على قطعة نقدية فضية من فئة عشر دراهم، وفي القرن 19 م أصبح المثلثات عملة حسابية وحول محله الريالان الإسباني والفرنسي. انظر: محمد قبلي، م. س. د، ص 756.
- (٤) الريفي (عبد الكريم)، **زهر الأكم: مساهمة في تاريخ الدولة العلوية من النشأة إلى عهد المولى عبد الله بن إسماعيل**، دراسة وتحقيق آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٢م، ص 249.
- (٥) ضعيف، **تاريخ الضعيف ...**، م. س، د، ص 124.
- (٦) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٩٢، ص 51.
- (٧) حركات (إبراهيم)، **المغرب عبر التاريخ من نشأة الدولة العلوية إلى إقرار الحماية**، ج ٣، دار الرشاد الحديثة، ط ٢، الدار البيضاء، ١٩٩٤، ص ٧٢.
- (٨) القادري (محمد بن الطيب)، **نشر المئاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، ج ٢، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، مكتبة الطالب، الرباط، ١٩٨٢، ص ٤٠٤.
- (٩) ضعيف الرباطي (محمد)، **تاريخ الضعيف ...**، م. س، ص ١٤٠.
- (١٠) الداودي (عبد الله بن ادريس)، **بيوتات طنجة في القرن ١٨ من خلال حوالة أحبابها**، مطبعة أطوبريس، ط ١، طنجة، ٢٠١٣، ص ٧٧-٧٨.
- (١١) بوزيان (عمر)، **جذور اتحاد المغرب والجزائر (١٨٣٢-١٨٤٧)**، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٨، ص ٥٦-٥٧.
- (12) Miège, (Jean-Louis), *Le Maroc et L'Europe: 1830- 1894*, P.U.F, 1961, T.2, pp.39, 240, 540 et suivantes.
- (13) HAY J. (Drumond): « AMemoir », Muray, London, 1896, p.323.
- (١٤) الشايب (مصطفى)، **النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر**، مطبعة فضالة، ط ١، المحمدية، ٢٠٠٥، ص ١٤٩.
- (١٥) الشايب (مصطفى)، **النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر**، م. س، ص ١٥١.
- (١٦) السوسني (المختار)، **المعسول**، ج ١٥، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٦١، ص ١٠.
- (17) Miège (Jean Louis), *Le Maroc et L'Europe (1830- 1894)*, TII, Presses Universitaires, Paris, 1961, p22.
- (١٨) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٩٢، ص ٣٥٧.
- (١٩) الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، **معلمة المغرب**، ج ٢٢، مطابع سلا، ٢٠٠٤، ص ٧٦٥٦.

(٤٩) التجكاني (محمد الحبيب)، **الإحسان الإلزامي في الإسلام وتطبيقاته في المغرب**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٩٩٦، ص ٥٥.

(٥٠) رسالة من عبد القادر الفاسي إلى الحاج محمد بن المدني بنيس، بتاريخ ٢٥ صفر ١٢٨٥ / ١٧ يونيو ١٨٦٨م، البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات...**، م. س، ص. ٣٤٧.

(٥١) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب...**، م. س، ص ٣٥١.

(٥٢) GRILLON (Pierre), *Un chargé d'affaire au Maroc, La correspondance du consul Louis Chénier, 1767-1782*, S.E.V.P.E.N., Paris, 1970, p.267.

(٥٣) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات...**، م. س، ص. ١٥٩-١٦٠.

MIEGE (Jean-Louis), *Le Maroc et L'Europe...*, t. III, (٥٤) 100. Op. cit, p

(٥٥) **الأهراء الجماعية**: عبارة عن مخازن بنتها القبائل على شكل قلاع كبيرة تدعى "أكدير" أو "ايغرم"، ويتكون كل منها من طبقتين أو ثلاث، وبزواياه أبراج للحراسة.

(٥٦) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات...**، م. س، ص. ٢٥٣.

(٥٧) السوسني (المختار)، **المعسول**، ج. ١٧، مطبعة النجاح ومطبعة فضالة، الدار البيضاء، ١٩٦٠، ص. ٢٥٨-٢٥٩.

(٥٨) الزباني (أبو القاسم)، **البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف**، ج. ١، در. تح. رشيد الزاوية، مطبعة المعارف الجديدة، ط ١، الرباط، ١٩٩٢، ص. ٢٧١.

(٥٩) جادور (محمد)، **مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب**، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، ٢٠١١، ص. ١٤٧.

(٦٠) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات...**، م. س، ص. ٤٥.

(٦١) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات...**، م. س، ص. ٣٥٣.

(٦٢) لوطورنو (روجر)، **فاس قبل الحماية**، ج. ١، تر. محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٦، ص. ٦٣.

MIEGE (Jean-Louis), *Le Maroc et L'Europe: 1830-1914*, t. II, P.U.F, Paris, 196١, p. 220.

(٦٤) **حول توجيه القوات إلى تطوان**، انظر: رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمن إلى عامل تطوان الحاج عبد القادر أشعاش، بتاريخ ١٩ ذو القعدة ١٢٦١هـ / ١٩ نوفمبر ١٨٤٥م، م. و. م. ر، مح. ذو القعدة ١٢٦١هـ، تحت رقم: A15-023.

(٦٥) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات...**، م. س، ص. ٢٩٥.

(٦٦) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات...**، م. س، ص. ٣١٠.

الشيخ أحمد بن محمد اليمني الشرواني

إسهاماته في إحياء ونشر اللغة والأدب العربي في الهند البريطانية

١٢٢٥ - ١٢٥٦ هـ / ١٨١٠ - ١٨٤٠ م

د. أحمد صالح المصري

باحث في التاريخ الحديث والمعاصر
دكتوراه من جامعة أيرفورت - ألمانيا
محاضر سابق في جامعة دمار - الجمهورية اليمنية



ملخص

تتناول الدراسة شخصية الأديب اللغوي اليمني الشيخ أحمد بن محمد اليمني الأنصاري الشرواني، الذي خدم في شركة الهند الشرقية خلال الفترة (١٢٢٥-١٢٥٣ م/ ١٨١٠-١٨٣٧ م)، كمعلم لمادة اللغة العربية في المؤسسات التعليمية التابعة للشركة، ومحرراً وناشراً في مطبعة كلية فورت ولیم، علاوة على عمله كمستشار في بلاط بعض أمراء الولايات الهندية. إذ يُعدّ نموذجاً لعلماء اليمن في المهجر، الذين لعبوا أدواراً حضارية في شبه القارة الهندية في العصر الحديث، كما أنه أول شخصية يمنية وعربية تعمل لدى كلية فورت ولیم في كلكتا، وهي من أهم المؤسسات التعليمية والاستشرافية الإنجليزية في الهند البريطانية، ويُعد الشيخ نموذجاً جديداً وفريداً لمشاركة العلماء العرب في إحياء اللغة و التراث العربي ونشره، عبر المؤسسات الاستشرافية، فقد ساهم في خدمة اللغة والأدب العربي، سواءً من خلال التدريس، أو التأليف، أو الطباعة والنشر، باعتباره، أحد أعمدة اللغة العربية ورائد حركة طباعة ونشر الأدب العربي في كلية فورت ولیم خلال القرن التاسع عشر. وتتضمن بُنية الدراسة مقدمة وخاتمة، وخمسة مباحث رئيسية، علاوة على قائمة النتائج التي تم التوصل إليها، وكذلك التوصيات المقترحة.

كلمات مفتاحية:

الشيخ أحمد بن محمد اليمني الشرواني؛ نفحة اليمن؛ العجب العجائب؛
حديقة الأفراح؛ كلية فورت ولیم؛ الأدب العربي في الهند

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٦ ديسمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٠٥ فبراير ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.436390

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أحمد صالح المصري، "الشيخ أحمد بن محمد اليمني الشرواني: إسهاماته في إحياء ونشر اللغة والأدب العربي في الهند البريطانية ١٢٢٥ - ١٢٥٦ هـ / ١٨١٠ - ١٨٤٠ م"، جورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة- العدد التاسع والستون، يونيو ٢٠٢٥، ص ١٣٢ - ١٥١.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: ahmed.s.almesri73@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في جُورية كان ٢٠٢٥ تحت رخصة المشاع المُنسب ٤.٠ دولي (CC BY 4.0) (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

إن امتلاك أيّ إنسان لمواهب وفنون ومهارات متأصلة وكامنة في ذاته أمراً مُسلم به، غير أن التعرف عليها بدقة، واختيار الطريقة الصحيحة لتحريرها، واستثمارها بطريقة إيجابية تحقق الذات، ليس بالأمر السهل، بل قد يصل إلى درجة التحدي، فثمة رغبات وأولويات تسكن مُخيلة المرء، ويسبب هاجس تلبيتها وتحقيقها حالة ضغط وتشويش، مما قد يؤدي، في كثيرٍ من الأحيان، حالة من الشعور بالتخبط، ويفقد المرء بوصلة التوجيه الصحيح، وتُدفن تلك الامكانيات والقدرات بتقادم الأيام، وفي الاتجاه الآخر هناك من يجد نفسه في الوقت والمكان المناسبين، لتحرير تلك المواهب، ويقتنص الفرصة المُتاحة لإثبات وتحقيق الذات، فتتغير بها مجمل حياته.

يُعتبر الشيخ أحمد بن محمد اليميني الشرواني الأنصاري أنموذجاً للشخصيات الأدبية، التي أعادت رسم مسار حياتها، واستثمرت الفرصة المناسبة، لإعادة اكتشاف نفسها، وتحرير طاقتها؛ فقد وجد نفسه في المكان والزمان المناسبين، عندما أُتيحت له فرصة العمل لدى شركة الهند الشرقية البريطانية، كأستاذ للغة العربية في كلية فُورت وليم في مدينة كلكتا الهندية، فتغيرت حياته جذرياً، وخلع عباءة التاجر المغمور، وارتدى عمامة الفقيه اللغوي، ليبدأ مشوار خدمة اللغة العربية وآدابها في الهند على مدار ثلاثة عقود.

الشيخ أحمد اليميني الشرواني من الشخصيات الأدبية اليمنية، التي لعبت دوراً جوهرياً في إحياء ونشر اللغة العربية في الهند في القرن التاسع عشر، كما أنه أول عربي مسلم يعمل في المراكز الاستشرافية في شبه القارة الهندية، وتزامنت فترة عمله مع ازدهار حركة الاستشراق ومرورها بأوج مراحلها. وربما يُعدّ نموذجاً جديداً وفريداً لمشاركة العلماء العرب في إحياء اللغة والتراث العربي ونشره، عبر المؤسسات الاستشرافية. وعلى الرغم من أهمية دوره وما قدمه للغة العربية، علاوةً على كونه نموذجاً للتلاقح الثقافي بين الحضارات العربية والفارسية والهندية؛ إلا أن شخصيته ودوره لم تأخذ أحدهما من التعريف والتقدير.^(١)

انطلاقاً مما تقدم تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على شخصية الشيخ أحمد اليميني الشرواني، ورصد ما قدمه وساهم به في خدمة اللغة والتراث العربي في الهند، سواء في مجال التدريس والتأليف أو في الطباعة والنشر، كما تكشف في الوقت نفسه جانباً مهماً من اهتمامات إدارة شركة الهند الشرقية باللغة العربية وآدابها، في شبه القارة الهندية في القرن التاسع عشر؛ وذلك من خلال: معرفة من هو الشيخ أحمد اليميني الشرواني، وكيف تشكلت معالم بنيته الفكرية والمعرفية، وكذلك هويته الثقافية؟ وإلى أي مدى ساهم في خدمة اللغة والتراث العربي في شبه القارة الهندية؟ وما العوامل التي ساعدته في تحقيق ذلك؟ وكيف لعبت الظرفية التاريخية آنذاك دوراً في تحقيق إنجازاته؟ وسيأتى كل ذلك من خلال تتبع ما كُتب ورُصد عن حياته في المصادر الأساسية، ممثلة بمؤلفات الشيخ أحمد نفسه، ومؤلفات ابنه عباس، بالإضافة إلى سجلات كلية فورت وليم؛ علاوةً على المصادر الثانوية والدراسات السابقة، التي تناولت الأدوار الحضارية للمهاجرين اليمنيين في شبه القارة الهندية في القرن التاسع عشر.^(٢) وستعتمد الدراسة بشكل رئيسي على منهج الوصف التاريخي، علاوةً على منهج دراسة الحالة.

أولاً: آل الأنصاري (الجذور والهجرة)

العلم والسياسة والهجرة، متلازمات ارتبطت بتاريخ أسرة الشيخ أحمد بن محمد اليميني الشرواني الأنصاري منذ عهد جد الأسرة الأول، الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري.^(٣) فمعه بدأ تاريخ هجرة وتقل الأسرة بين أقاليم العالم الإسلامي، حين هاجر من المدينة المنورة إلى بلاد العراق، واستقر في مدينة المدائن ومات ودفن بها (٦٩٧/٥٧٨م).^(٤) على نفس المنوال سار أبنائوه وأحفاده، فبعد تأسيس بغداد انتقل إليها بعض أفراد الأسرة، واستقروا فيها لفترة غير معروفة.^(٥)

عاد نجم أسرة الأنصاري للظهور من جديد، مع بدايات القرن الثامن الهجري/الربيع عشر الميلادي، حين ارتبط بعض أفرادها بالخدمة في بلاط السلطان نادر شاه الأفشاري، مؤسس حكم الأسرة الأفشارية (تولى الحكم خلال الفترة ١٧٣٦-١٧٤٧م)، وبحسب المصادر

متوفر من معلومات تروي أنه توقف في الحديدة لبعض الوقت، أثناء عودته من أداء فريضة الحج، وفي الحديدة تعرّف على التاجر حيدر بن محمد البغدادي، وهو أحد تجّار المدينة، والذي أبدى احتراماً وتقديراً لشخصية محمد الشرواني، وعرض عليه البقاء في المدينة ومشاركته في التجارة، فستجاب محمد الشرواني لهذا العرض، ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد، بل جرت بينهما فيما بعد علاقة مصاهرة، بزواج محمد الشرواني من ابنة البغدادي.^(١٢)

مثّل استقرار محمد الشرواني في مدينة الحديدة، بداية مسار جديد لحياة أسرة الشرواني الأنصاري، وأصبحت اليمن من حينها إحدى أهم المحطات على خارطة هجرات الأسرة بين أقطار العالم الإسلامي، وفي اليمن أيضاً، تشكّلت ملامح تطورات جذرية في نمط حياة محمد الشرواني، فبعد أن كان منهمكاً بالسياسة والارتباط بالسلطة، أصبحت التجارة مصدر رزقه، وحرفته التي كرّس لها وقته وجهده، كما أسس شبكة علاقات اجتماعية مع علماء وفقهاء مدينة الحديدة خاصة، وبلاد تهامة اليمن عامة، وحاز على مكانة مرموقة في المجتمع الجديد، وخاطبه معاصروه بالقب الشيخ محمد.^(١٣)

ثانياً: الشيخ أحمد بن محمد اليميني الشرواني

١/٢- الأديب التاجر

رُزق الشيخ محمد الشرواني بعددٍ من الأبناء، الذين سيمثلون الجيل الثاني من أسرة الشرواني الأنصاري المستقرة في اليمن، وحمل أفرادها لقب اليميني أو اليماني؛ وبتاريخ الإثنين ٢١ رمضان ١٢٠٠هـ / ١٧ يوليو ١٧٨٥م، كان ميلاد أشهر أبنائه "أحمد"، والذي سيكون أحد أهم أساطين عائلة اليميني الأنصاري. نشأ أحمد وتشكّلت شخصيته وهويّته اليمينية في مدينة الحديدة، وتشرب فيها مبادئ الوسطية، وعرف معنى الاختلاف والتنوع الفكري، كما أسس فيها شبكة علاقاته العلمية والأدبية، وفيها صُقلت موهبته الشعرية وقريحته الأدبية؛ إذ كان والده مُعمّله الأول وقودته ومُلهمه، وعلى يديه تعلم أبجديات علوم اللغتين العربية والفارسية.^(١٤)

فقد كان الميرزا إبراهيم خان الأنصاري الهمداني (أحد أحفاد الصحابي جابر بن عبدالله وجد الشيخ أحمد)، وابنه علي وحفيده محمد، ممن خدم في بلاط السلطان نادر شاه؛ إذ كان الميرزا إبراهيم أحد مستشاري السلطان، وهناك إشارات في بعض المصادر بأنه تولى منصب الوزارة، وأشارت إليه باسم الوزير إبراهيم خان.^(١٥) أما ابنه علي فقد تولى منصب الاستشارية من بعده، وبقي في هذا المنصب إلى أن قُتل في أحداث عام (١١٦٠هـ / ١٧٤٧م)، التي أدت إلى اغتيال السلطان نادر شاه وبعض معاونيه، وبعد شهرين من تلك الأحداث قرر الحفيد محمد بن علي بن إبراهيم -والذي كان حينها يخدم في جيش نادر شاه- ترك العسكرية والهجرة إلى مدينة شروان، الواقعة شمال بلاد فارس، حيث استقر فيها لبعض الوقت، ومن ذلك الحين أضيف لقب الشرواني إلى اسم الأسرة.^(١٦)

يبدو أن محمد بن علي الشرواني لم يمكث سوى فترة قصيرة في شروان، إذ غادرها متّجهاً إلى النجف، التي كانت أيضاً محطه ثانوية في حياته؛ فقد غادرها متّجهاً إلى بلاد الهند، وبالتحديد إلى مدينة بنارس، بعد أن علم بأن أفراداً من عائلته يعيشون فيها.^(١٧) ولأسباب غير معروفة، غادر مدينة بنارس وتوجه إلى مدينة لكتاوا، وفيها التحق بالخدمة في بلاط النواب آصف الدولة، نواب ولاية أوده (تولى حكم الولاية خلال الفترة ١١٨٩-١٢١٠هـ / ١٧٧٥-١٧٩٥م)، الذي اهتم بتأسيس مدينة لكتاوا، كمركز فكري وديني للشيعة في بلاد الهند، على غرار مدينة بهوبال السنية، لهذا شجع علماء الشيعة على القدوم إلى المدينة.^(١٨) تأقلم محمد بن علي الشرواني مع الوضع الجديد، ويبدو أنه قد استثمر خبراته في تحسين وضعه، وتمكن في وقت قصير من الترقى في بلاط آصف الدولة، حتى وصل إلى منصب المستشار.^(١٩)

خرج محمد بن علي الشرواني لتأدية فريضة الحج، ويبدو أن ذلك كان في الربع الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي، وفي طريق عودته نزل في مدينة الحديدة اليمينية، التي كانت إحدى محطات حجاج الهند وجنوب شرق آسيا، وفيها قرر البقاء.^(٢٠) ولا توجد تفاصيل واضحة عن أسباب اتخاذ قرار البقاء فيها، وكل ما هو

الثاني دروساً في الأدب العربي.^(٢١) وفي بلاد الهند تتلمذ أيضاً على يد الشيخ بهاء الدين محسن العاملي (ت. ١٢٢٢هـ/١٨٠٨م)، وحيدر بن علي الطوكي (١٨٥٦م)، وكذلك على يد الشيخ عبد الله بن عثمان بن جامع الحنبلي.^(٢٢)

أسس الشيخ أحمد خلال فترة حياته في اليمن، والتي امتدت حوالي خمسة وعشرون عاماً، شبكة علاقات علمية واسعة، شملت شخصيات علمية وسياسية وفكرية يمنية، وقد أشار إلى تلك العلاقات في مؤلفاته المختلفة، لا سيما الفصل الأول من كتابه "العجب العجائب"، واستمرت تلك العلاقات حتى بعد هجرته إلى الهند، كما ارتبط بعلاقات صداقة مع فقهاء وأدباء ورجال سياسة من خارج اليمن.^(٢٣)

٢/٢- الرحلة الأخيرة إلى كلكتا

طلباً للرزق ومعاونة لوالده، أشتغل الشيخ أحمد في بداية حياته العملية في التجارة، ونظم مع والده رحلات تجارية إلى الهند، وعمان، والحجاز؛ وقد استثمر فرص تنقلاته وسياحاته التجارية للالتحاق بحلقات العلم، والتعرف على العلماء؛ خاصة في بلاد الهند. لم تكن كل رحلاته التجارية موفقة أو تسير بسلا، ففي سنة (١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م) تعرضت سفينة رحلته التجارية إلى كلكتا لقرصنة الفرنسيين قبالة سواحل عمان، وقد أشار إلى الرحلة والحادثة في مناسبتين مختلفتين، الأولى في رسالته إلى الشريف الحسن بن خالد، أمير المخلاف السليماني، وفيها ذكر خروجه من الحديدة قاصداً كلكتا: "ثم لا يخفاكم أدام الله علاكم، أن الحقير في هذه الأيام عازم على إقتحام لج القُمام، ومراده الوصول إلى الديار الهندية والجهات الشرقية؛ لينال بأسباب التجارة الأُمْنِيَّة من فضل رب البرية؛ فإن كانت لكم حاجة أو غرض، فشرفوا بقضاية المملوك، فإن قضاءه يفترض، هذا ولولا وجوب سفر أحمد من حمد جنابكم وشكر، لكان من الحاضرين بين يديك والباذلين مهجتهم شفقة عليك."^(٢٤)

أما المناسبة الثانية فكانت في رسالته إلى صديقه عبد القادر البحر، حيث أشار فيها إلى حادثة القرصنة التي تعرضت لها سفينتهم التجارية: "نعم أيّه السائل عن

تلقى أحمد العلم والمعرفة من مشائخ وعلماء مدن تهامة المشهورين في وقته، بالإضافة إلى تتلمذه على أيدي بعض مشائخ مكة والمدينة، فنهل من بحر علومهم في الفقه، واللغة العربية، وآدابها، وفنونها. وقد أشار في مقدمة كتابه "منهج البيان الشافي" إلى مدى اهتمامه وحرصه على تحصيل العلم والمعرفة بقوله: "وبعد فيقول العبد الفقير إلى كرم الله الغني القدير أحمد بن محمد بن علي بن إبراهيم الأنصاري اليميني الشهير بالشرواني لطف الله به وتجاوز بإحسانه العقيم عن ذنبه، كنت في أيام الشباب مشتغلاً بفنون الآداب راغباً في اكتساب نفائس المنثور والمنظوم أخذاً لتلك الفنون من شمس العلوم."^(٢٥)

لم يشر أحمد (الشيخ أحمد) بشكل مباشر إلى أسماء مشائخه الذين تتلمذ على أيديهم، سواء في اليمن أو الحجاز أو بلاد الهند، كما لم يتحدث عن تجربته التعليمية، إلا أنه أشار بطريقة غير مباشرة إلى أسماء بعضهم، حين خاطبهم في مراسلته بألفاظ مثل "سيدي" أو "شيخ"، وكلاهما يبين أنه تعلم على أيديهم، غير أن ابنه عباس قد أشار في كتابه "تاريخ آل أمجاد" إلى أسماء مشائخ والده، ولعل أشهرهم العلامة إبراهيم بن محمد بن إسماعيل ابن الأمير الصناعي (ت. ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨)، وكذلك قاضي مدينة الحديدة ومفتي المذهب الشافعي فيها القاضي الحسن بن إبراهيم الدريهمي الزبيدي (ت. ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م)،^(٢٦) والشيخ العلامة عبدالرحمن بن أحمد البهكلي (ت. ١٢٤٨/ ١٨٣٢)، ويبدو أن الشيخ أحمد قد تعرف على البهكلي أثناء إقامته في بيت الفقيه، وقد أشار إليه مراراً بلقب سيدي، ولم يكن القاضي البهكلي مجرد شيخ ومعلم بالنسبة له فحسب، بل كان صديقاً مقرباً منه.^(٢٨) ومن مشائخه أيضاً الشيخ عبدالرحمن بن سليمان الأهدل (ت. ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م) مفتي زبيد وشيخها.^(٢٩)

تلقى الشيخ أحمد علوم اللغة العربية والفقه الشافعي على يد القاضي زين العابدين بن علوي المشهور بـ جمل الليل (١٢٣٥هـ/ ١٨١٩م) قاضي المدينة المنورة ومفتيها.^(٣٠) علاوة على ذلك فقد كان الشيخان علي بن عفيف اليماني ومحسن بن عيسى النجفي، من مشائخه في اليمن، إذ تلقى من الأول علم الفقه الشافعي، ومن

٣/٢-وظيفة في كلية فورت ولیم

اهتمت شركة الهند الشرقية البريطانية خلال فترة حكمها للهند (١٧٥٧-١٨٥٨م)، بدراسة التاريخ واللغة والثقافة الهندية، كون فهم لغة وتاريخ وثقافة أي مجتمع يُساعد وبشكل مباشر في عملية التواصل معه، ويبني جسور علاقات قوية. وقد أشار إلى ذلك صراحة السير "وارن هاستينغز" Warren Hastings، أول حاكم عام بريطاني لولاية بنجالة الهندية خلال الفترة (١٧٧٣-١٧٨٥م)، وأحد مؤسسي حركة الاستشراق، بقوله: "إن أقرب الطرق إلى قلوب الناس، تكون بفهم لغتهم"

know that the quickest route to the heart of a people is through the language of the country.

انطلاقاً من تلك الرؤية، أسست شركة الهند الشرقية العديد من المدارس، والكليات، والمعاهد المختلفة؛ التي اهتمت بدراسة تاريخ الشرق، ولغاته، وثقافته؛ وعمل فيها العديد من المستشرقين المتخصصين في علوم اللسانيات، والأدب، والأديان.^(٢٨) في خطوة تعكس إحدى تجليات حركة الاستشراق، التي خدمت الحركة الاستعمارية. كانت بداية تنفيذ تلك الرؤية وبشكل عملي، قد تزامن مع وصول الطبيب والمستشرق الأسكتلندي جون جيلكريست (John Gilchrist) إلى الهند عام ١٧٨٢م، والذي خدم في الشركة خلال الفترة (١٧٨٢-١٨٠٤م)، واقترح على الشركة تأسيس مدرسة في كلكتا لتعليم موظفيها اللغة الهندوستانية، وقد وافقت الشركة على مقترحه، وتم تأسيس مدرسة في كلكتا عام ١٧٩٩م، وعُرفت باسم "مدرسة جيلكريست" (Gilchrist ka Madrasa) أو (Oriental Seminary).^(٢٩)

بعد مضي عام على تأسيس المدرسة، بالتحديد في ١٠ يوليو عام ١٨٠٠م، قرر الحاكم العام لولاية بنجالة الهندية السير ماركوس ويلزلي (Marques Wellesley) تولى خلال الفترة ١٧٩٨-١٨٠٥م، توسيع المدرسة، وتأسيس كلية فورت ولیم، لتكون مركزاً لتعليم موظفي الشركة للغات والآداب الشرقية "مركز استشراق"، وفقاً للمبادئ السياسية التعليمية التي وضعها السير هاستينغز، سعى ويلزلي إلى تطوير الكلية وجعلها مماثلة

حالي، لانتسّل عما حل بي وجرى لي، فلو حكيتُ لجنايبك طرفاً من ذلك، لأيقنت أن الله أغاث عبده الضعيف برحمته في تلك المهالك، فالحمد لله على سلامة الروح، والمال يأتي ويروح؛ وها أنا منتظر للفرج بعد الشدة، وراج من الله تعالى أن يهلك الفرنسيين وجنده، فلقد ازداد عتوه وطغيانه، وحل من مكائده بالظاعنين لطلب المعاش مايطول شرحه وبيانه.^(٢٥)

خسر الشيخ أحمد في هذه الحادثة كثيراً من ماله وبضاعته؛ وتوقف في مسقط لبعض الوقت،^(٢٦) بعد ذلك عاد إلى اليمن وبقي فيها قرابة عام؛ بهدف الإعداد لرحلته الجديدة، وبالفعل أبحر من مدينة الحديدة سنة (١٢٢٤هـ/١٨٠٩م) متجهاً إلى بلاد الهند، وعلى وجهه التحديد إلى مدينة كلكتا، والتي وصلها في شعبان/سبتمبر من نفس السنة. وهناك أثر الشيخ أحمد البقاء في المدينة لبعض الوقت؛ والعمل في التجارة لتحصيل بعض المال، لتعويض خسارته في الرحلة السابقة، ولم يكن يعلم بأن هذه هي آخر رحلاته إلى بلاد الهند، وآخر عهده بالتجارة.^(٢٦)

كانت مسألة بقاء الشيخ أحمد في كلكتا وعودته إلى اليمن مسألة وقت لا أكثر، فلم يخطط للعيش والاستقرار في الهند، بل أشار في أكثر من مناسبة إلى معاناة الغربة، وتحيّنه فرصة العودة إلى اليمن.^(٢٧) غير أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً؛ إذ تبدل الحال بعد بضعة أشهر من إقامته في كلكتا، وذلك حين لاحظ له فرصة العمل كأستاذ للغة العربية في كلية فورت ولیم، التابعة لإدارة شركة الهند الشرقية البريطانية في الهند. فكانت هذه الفرصة بمثابة اللحظة التي طالما انتظرها، لاستثمار مواهبه، وإبراز قدراته كأديب، وشاعر، ولغوي؛ وبالفعل بدأ بمراجعة خططه السابقة، وبدأت فكرة عودته إلى اليمن تتلاشى تدريجياً، وفي نهاية المطاف حسم أمره وقرر العمل في كلية فورت ولیم؛ فأحدث ذلك نقلة نوعية في حياته ومستقبله؛ وطوى صفحة من حياته، قضاها في السفر والترحال كتاجر، لتبدأ مرحلة جديدة، برزت فيها شخصيته الأدبية. وبالنسبة لكلية فورت ولیم، فقد كان الشيخ أحمد الرجل المناسب في المكان المناسب، وفي اللحظة المناسبة.

الذي التحق بخدمة الشركة خلال الفترة (١٧٩٤-١٨٢٦م)، وعمل أستاذًا للغتين العربية والفارسية في الكلية، وكان المسؤول الأول عن مطبعة كلكتا ورئيس لجنة مكتبة كلكتا، وارتبط بعلاقات وثيقة بالشيخ أحمد. (٣٥)

وكذلك المستشرق جون بايلي John Bailie (١٧٧٢-١٨٣٣م)، الذي خدم الشركة خلال الفترة (١٨٠١-١٨٠٧م)، وكان أحد مؤسسي قسمي اللغة العربية والفارسية في الكلية. ومنهم أيضاً الكابتن أبراهام لوكت Captain Abraham Lockett، الذي عُيِّن سكرتيراً للكلية وأستاذًا للغات العربية والفارسية والهندية فيها خلال الفترة (١٨٠٨-١٨١٨م). وقد لعب هؤلاء جميعاً دوراً مهماً ومحوياً في تحرير ونشر العديد من كتب التراث العربي خلال فترة عملهم في الكلية. (٣٦)

ضمَّ الطاقم التدريسي في القسم مجموعة من المعلمين الهنود، ومن أبرزهم مولوي علي تقي خان، وجان علي، وروشن علي، ومحمد أسلم، ونظام الدين، وكان المعلمون الهنود يُمنحون ألقاباً بحسب المستوى، فمنهم من يحصل على لقب "منشيء أول" بمعنى معلم أول، وآخرون على لقب "منشيء ثان" بمعنى معلم ثان؛ وقد ساهموا أيضاً في تحقيق ونشر العديد من المصنّفات الأدبية العربية. (٣٧)

انضم الشيخ أحمد اليماني الشرواني إلى الطاقم التدريسي في قسم اللغة العربية، في منتصف أكتوبر ١٨١٠م الموافق منتصف رمضان ١٢٢٥هـ، ويعتبر أول ناطق بالعربية يتم تعيينه في القسم. جاء تعيين الشيخ أحمد نتيجة لحاجة الكلية إلى توظيف ناطق بالعربية كلفة أم؛ ورغبة الكلية في تعيين معلمين متمكنين في اللغة العربية، فقد كان القسم حينها يعاني من تدني مستوى المعلمين الهنود، وهو ما أشار إليه السيد لومسден صراحة في تقريره المقدم لإدارة الكلية سنة ١٨١٧م، حول أوضاع الدراسات العربية في الهند، حيث وصف الأساتذة الهنود العاملين في قسم اللغة العربية في الكلية، بأنهم عبارة عن مجموعة من كاسبي العيش، ونعتمهم بأنهم مجموعة من المحتالين، فهم لا يفقهون فنون العربية ولا أسرارها اللغوية، وأن دراستهم للغة العربية لم يكن للغة ذاتها، بل لفهم القوانين والدين. وبحسب تقريره، فإن تدريب وتأهيل أساتذة هنود

لجامعتي أكسفورد وكامبريدج من حيث الحجم وتقديم المواد التعليمية، فتم إدراج مواضيع تعليمية أخرى في خارطة البرنامج التدريسي للكلية. (٣٨)

عمل في الكلية العديد من العلماء واللغويين الإنجليز المهتمين بتراث الشرق بشكل عام، والهند بشكل خاص، اللذين لعبوا دوراً محورياً في نشر الفكر والمعرفة وتطوير حركة الترجمة، وتحويل كلية فورت ولیم إلى مركز للغات والآداب الشرقية؛ ومن أبرز هؤلاء: جون جلكريست (John Gilchrist)، أستاذ اللغة الهندوستانية وأول مدير للكلية، ومؤسس المطبعة الهندوستانية في الكلية؛ (٣٩) والمستشرق والمبشر ولیم كيري William Carey (١٧٦١-١٨٣٤)، أستاذ اللغة البنجالية والسنسكريتية، الذي اشتهر بدراسة النثر البنجالي وسُمي "أبو النثر البنغالي"، وعُيِّن رئيساً لقسم اللغة البنجالية في الكلية، كما قام بترجمة الكتاب المقدس إلى عدة لغات هندية محلية. (٤٠) وكذلك الكابتن توماس روبيك Thomas Roebuck (١٧٨١-١٨١٩م) مؤلف كتاب "Annals of the College of Fort William" والذي أيضاً كان ضمن الطاقم التدريسي للغة الهندوستانية. (٤١)

كانت اللغة العربية إحدى اللغات الشرقية المستخدمة في الهند، والتي حرصت إدارة الكلية على تدريسها؛ وإن لم يصل مستوى الاهتمام بها، سواء من حيث إعداد المناهج أو برامج التعليم إلى مستوى اللغات الأخرى، كالفارسية والهندية والأوردية، والتي كانت لغات سائدة في الهند في تلك الفترة؛ إلا أن ثمة اعتبارات وقفت وراء تبني الكلية لقرار إدراج العربية ضمن مناهجها، فاللغة العربية هي لغة الصلوات، ولغة التشريع الديني بالنسبة للمسلمين في الهند، والذين كانوا يمثلون شريحة كبيرة، كما أن معرفة اللغة العربية يُعد أساساً لتعلم اللغة الفارسية، التي كانت لغة الأدب الرسمي في الهند في تلك الفترة. (٤٢)

تأسس قسم اللغة العربية في الكلية، في عام ١٨٠١/١٢١٦م، بالتزامن مع تأسيس قسم اللغة الفارسية، وتولى التدريس فيه مجموعة من المستشرقين المهتمين باللغة العربية وآدابها، منهم المستشرق متى أو ماتيو ليمسден Matthew Lumsden (١٧٧٧-١٨٣٥)،

أوصلته الأقدار الى الجهات الهندية، فأحب الحلول في أعظم بنادرها المعمورة، وهو بندر كلكتة [...]، ثم إنه ضرب حباً الاستيطان في البندر المذكور، راجياً من الله نيل المطلوب وتيسير الأمور، فكان من إرادة الله رب البرية، أنا ستخدمته المكارم الإنجليزية ليكون أحمد هادياً لطلاب العلوم العربية إلى مناهج فنون اللطائف الأدبية".^(٤٠)

ولا يُستبعد أن يكون القاضي نجم الدين كاكوري قد لعب دور في تعيين الشيخ أحمد في الكلية،^(٤١) فقد كان القاضي يعمل حينها معلماً ومُحرراً في قسم اللغة الفارسية في الكلية، بمعنى آخر ربما كان وسيطاً بينهما، خاصة وأن ثمة علاقة صداقة تربط القاضي بأسرة الشيخ أحمد، من قبل استقرار الأخير في الهند.^(٤٢) على أية حال، فقد بقي الشيخ أحمد قرابة ثلاثة عقود في خدمة شركة الهند الشرقية، ولمع اسمه كعالم ضليع في اللغة العربية وآدابها، علاوة على جهوده كمُحرر ومُصحح لغوي في بعض المؤسسات التعليمية التي أنشأتها شركة الهند الشرقية، أو ساعدت في تأسيسها في الهند؛ وتمكن من تسجيل اسمه في قوائم الإنتاج المعرفي العربي في القرن التاسع عشر.

ثالثاً: الشيخ أحمد وتدريس اللغة ونشر- الأدب

١/٣- تدريس اللغة العربية

باشر الشيخ أحمد وظيفته أستاذاً للغة العربية في المراكز التعليمية التابعة للشركة، كلية فورت ولیم والمدرسة العلية، منذ منتصف أكتوبر ١٨١٠م، واستمر في عمله حوالي ثمان سنوات تقريباً، وخلال فترة عمله استطاع أن يساهم في تطوير تدريسها، ومعالجة بعض مشاكل القصور التي كان يعاني منها قسم اللغة العربية؛ فقد لاحظ أن الطلاب لا يغيرون اللغة العربية اهتماماً كافياً، ولا يطمحون إلى تعلّمها، بل إنهم عوضاً عن ذلك يهتمون بحقل الدراسات الفلسفية، كما أن مستواهم المعرفي ضعيف، وفهمهم بعلوم وفنون اللغة والأدب العربي بائس، وكثيراً ما يخلطون بين اللغتين العربية والفارسية عندما يتحدثون، بالإضافة إلى ندرة كتب النحو الأساسية في مكتبة الكلية.^(٤٣)

للتحدث والكتابة باللغة العربية ومن ثم لتدريسها، يُعدّ أمراً صعباً ولا يمكن تحقيقه، وأعتبر أن الضرورة استدعت الاستعانة بخدمات ناطق باللغة العربية كلغة أم، وهو ما اقتضى توظيف الشيخ أحمد اليميني للقيام بهذه الوظيفة.^(٢٨)

إجمالاً، فقد حصل نوع من التوافق وتبادل المصالح بين الشيخ أحمد وإدارة كلية فورت ولیم، فهو شخصية أدبية بالفطرة، والتثنية، والتعليم والتثقيف، ووجد في هذه الوظيفة فرصة لا تُعوّض، لاستثمار قدراته ومهاراته الأدبية في عملٍ يحقق ذاته؛ وبالنسبة للكلية، فإن الشيخ أحمد كان الضالة المنشودة الذي بحثت عنه، فتعيين ناطق باللغة العربية، وممن له سعة وعلمٌ بآدابها ويفهم فنونها لتولي تدريسها، وتطوير منهاجها في المراكز التعليمية في كلكتا، وكذلك تولي مهمة تحرير الأعمال الأدبية العربية، والأشراف على طباعتها؛ كانت جميعها ضرورة تقتضيها طبيعة الأهداف المرجو تحقيقها بالنسبة للكلية، والتي من أجلها تم إنشاء قسم اللغة العربية.

لم تقدم لنا المصادر المتّاحة أيّ تفاصيل حول بداية وكيفية تعرّف الشيخ أحمد على الكلية أو على القائمين عليها، ولا كيف حصل على فرصة العمل، وكل ما ذكر حول ذلك ليس أكثر من إشارات أوردها الشيخ أحمد في رسائله إلى والده وأصدقائه؛ ففي رسالته إلى والده بتاريخ (١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م)، اعتذر عن تأخر عودته إلى اليمين في تلك السنة، بسبب انشغاله بالعمل مع الإنجليز: "ثم إن سألتهم عن حال هذا الغريب، فهو في خير من الله الملك المجيب ماكتا في البندر المعمور بنجالة، على أكمل عزة وجلالة، فلولا تعلقه بخدمة الدولة الانجليزية (الانجليزية) لبادر للوصول إلى تلك الحضرة العلية".^(٢٩)

يبدو أن الشيخ أحمد قد اتخذ قرار البقاء في الهند، بعد مضي وقت قصير من وصوله إلى كلكتا، ففي رسالته إلى أستاذه عبد الرحمن البهكلي بتاريخ (١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م)، أكد أن بقاءه في الهند أصبح قدراً محتوماً، وذلك بعد أن وجد عملاً لدى الإنجليز لتدريس اللغة العربية، ورأى في ذلك خدمة طلاب العلم في تلك الديار: "والمملوك بعد خروجه من الديار اليمينية،

لكنوا خلال فترة عمل الشيخ في بلاط النواب غازي الدين حيدر،^(٤٨)

ومن تلاميذه أيضاً القاضي معشوق علي الجنبوري (ت. ١٢٦٨هـ/١٨٥١م)، الذي تتلمذ على يدي الشيخ أحمد في المدرسة العلية، وقد وصف المدرسة بأنها أهم مركز للأدباء في عصره، بالإضافة إلى الشيخ خليل الدين الكاكوري (ت. ١٢٨١هـ/١٨٦٤م) مفتي مدينة كانبور الهندية، ومندوب النواب غازي الدين حيدر لدى السلطات الإنجليزية، والذي تتلمذ على يدي الشيخ في كلكتا،^(٤٩) بالإضافة إلى الأديب الهندي وزير علي السنديلاوي، والذي ألتحق بحلقات دروس الشيخ أحمد في المدرسة العلية في كلكتا، وبعد ذلك عُين معلماً في المدرسة، فأصبح زميلاً للشيخ أحمد، وذكر الشيخ أحمد بأنه ألف كتابه "الجوهر الوقاد" بطلب من الشيخ وزير.^(٥٠)

٢/٣- نشر الأدب العربي

لئن كان تدريس اللغة العربية قد نال اهتمام إدارة كلية فورت ولیم، فإن نشر كتب التراث الشرقي بما فيها كتب التراث العربي، كانت من أولويات وأهداف إدارة الكلية، فعملت على نشر العديد من المصنفات الأدبية الشرقية، خاصة كتب الأدب والنحو والدين، والتي كانت موجودة في مكاتب وخزانات مدينة كلكتا، وغيرها من المدن الهندية، وتمكنت الكلية خلال فترة نشاطها (١٨٠٠-١٨٥٤م) من طباعة ونشر العديد منها، وقد عهدت الشركة إلى العاملين في الكلية مهمة تحقيق ومراجعة تلك الأعمال، ومن ثم الإشراف على طباعتها، ونالت كتب التراث العربي نصيباً جيداً من عملية التحقيق والنشر، إذ تمت طباعة ونشر عشرون عملاً،^(٥١) وقد تولى الشيخ أحمد اليميني مهمة الإشراف على تحرير خمسة أعمال أدبية عربية وأعدّها للطباعة، وهي:

٢/٣) ١- رسائل إخوان الصفا

قام الشيخ أحمد، بتكليف من إدارة كلية فورت ولیم، بمراجعة ونشر الرسالة الثامنة من رسائل إخوان الصفا المعنونة بـ "رسائل الحيوان"، والتي تضمنت حواراً بين الإنسان والحيوانات؛ وقد طُبعت هذه الرسالة في مجلد

سعيًا منه لمعالجة تلك المشاكل، قام بتأليف كتاب نفحة اليمین لتطوير مهارة الطُّلاب في علم البلاغة، كما حرر كتابي ألف ليلة وليلة والقاموس المحيط، وكانت تلك المؤلفات ضمن المنهج التدريسي للغة العربية في الكلية.^(٤٤) بالإضافة إلى ذلك، ألف كتابين آخرين هما "العجب العجائب وحديقة الأفراح"، كما حرَّر قصيدة كعب بن زهير؛ وعلى الرغم من أن الثلاثة المؤلفات الأخيرة، لم تكن ضمن مناهج التدريس الرسميّة، إلا أنها كانت مواد أدبيّة مساعدة لتطوير مهارات اللغة العربية لدى طُلاب الكلية. وقد طُبعت جميعها بإشراف إدارة الكلية. علاوة على ذلك فقد وفَّر الشيخ أحمد بعض كتب النَّحو الأساسيّة، سواءً بشرائها من الهند أو إحضارها من اليمین.^(٤٥)

كُلّف الشيخ أحمد، لى جانب عمله في كلية فورت ولیم، بالعمل أستاذًا للغة العربية في المدرسة العلية (مدرسة كلكتا)، التي أسستها شركة الهند في كلكتا سنة ١٧٨٠م، ولا يُعرف بالضبط متى بدأ عمله ولا مدة بقائه فيها، ويبدو أن تكليفه قد تزامن مع تعيين البرفيسور لومسدن مديراً للمدرسة، على أيّة حال فقد بقي يعمل في المؤسستين حتى عام ١٨١٨م، وهو تاريخ مغادرته كلكتا.^(٤٦)

تتلمذ على يدي الشيخ أحمد عددٌ من الطُلاب والراغبين في تعلم العربية، ويبدو أن بعضهم قد التحق بدروسه في مراكز التعليم الرسميّة التي عمل فيها الشيخ، سواءً في كلية فورت ولیم أو مدرسة كلكتا/ المدرسة العليّة، بينما التحق الآخرون بحلقات دروسه الخاصة، التي ربما كان يعقدها في منزله أو في أحد مساجد المدينة. وترصد لنا سجلات التراجم عدداً من تلاميذه، الذين لعبوا دوراً مهماً في مجال الدين والأدب واللغة العربية في الهند خلال القرن التاسع عشر، ولعل أشهرهم الأديب الهندي أوحد الدين البلجرامي (ت. ١٢٦٢هـ/١٨٥٤م)، والذي وصف الشيخ أحمد اليميني بأنه أبرز علماء اللغة في عصره، وافتخر أنه تلقى العلم على يديه،^(٤٧) وكذلك الفقيه والأديب الهندي بناء عطا السيلوني (ت. ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م) الذي تتلمذ على يدي الشيخ أحمد في المدرسة العلية في كلكتا، وكذلك في

حديثه، وهو أمر يحسب للشيخ أحمد كأول ناشر للكتاب.^(٥٦)

(٢/٣) ٣- القاموس المحيط

اعتنت إدارة الكلية بطباعة كتاب "القاموس المحيط والقبوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماميط)، وتُعدّ طبعة كلكتا أقدم طبعة للكتاب؛ إذ طُبِعَ في أربعة مجلدات على يد الشيخ أحمد اليميني وبمساعدة تلميذه أوحده الدين البلجرامي، وذلك سنة (١٢٣٢هـ/١٨١٧م). ويُعدّ تحرير وطباعة الكتاب من الأعمال التي تُحسب للشيخ أحمد، وضمن إنجازاته، كونه أول من أشرف على طباعته طباعة حديثة.^(٥٧) وقد أشاد المستشرق البريطاني متى لومسدن - في مقدمة الطبعة الأولى للكتاب - بجهود الشيخ أحمد اليميني الشرواني في عملية إعداد الكتاب للطباعة والنشر بقوله: "إعداد هذه النسخة للطباعة، قد رُوِّعَت فيها أعلى درجات الاهتمام بدقة وأهولية المُحرر، جنباً إلى جنب مع مثابرة العمل، وغزارة المعرفة بهذا المجال، وقد تصدى للعملية أحمد اليميني الشرواني، وقد تم الاعتماد على إحدى عشر مخطوط من كتاب القاموس، كما تم الاعتماد على عدد كبير من المعاجم وبعضها من المعاجم النادرة [٠٠] وقد أعدت كلها بمعرفة أحمد الشرواني". كما أشار إلى أن إخراج هذا العمل العظيم يمثل إنجازاً في مجال الآداب العربية، ويواكب وعلى قدم المساواة تقدم العلوم الأدبية في أوروبا وإحيائها في كل بلدان الشرق، وهي شهادة من لومسدن على كفاءة الشيخ أحمد.^(٥٨)

(٢/٣) ٤- ديوان المتنبي

يضم الديوان حوالي ٥٤٩٤ بيتاً شعرياً للشاعر أبي الطيب المتنبي، والتي جمعها بنفسه في هذا السفر الشعري، وقد جذب الديوان بعض الأدباء إلى كتابة تعليقات وشروح عليه، لعل أبرزها "شرح الواحدي (ت. ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م)، وكذلك "شرح المحبّي (ت. ١١١٠هـ/ ١٦٩٩م)؛^(٥٩) وقد طُبِعَ الديوان عدة مرات، وتُعدّ طبعة كلكتا التي أشرف عليها الشيخ أحمد هي الأقدم والأشهر؛ إذ قام بتصحيحها وإعدادها للطباعة معتمداً على نسخة شرح المحبّي المعروفة بـ"ديوان المتنبي شرح

واحد في المطبعة الهندوسانية في كلكتا سنة (١٢٢٧هـ/١٨١٢م)؛ ونشر هذه الرسالة يُعتبر أول أعمال الشيخ أحمد في مجالي التحرير والنشر،^(٥٢) وقد كتب الشيخ أحمد تعليقاً في مقدمة هذه الطبعة: "يقول العبد الفقير الجاني أحمد بن محمد الأنصاري المعروف بالشرواني لطف الله بهما وتجاوز عن سيأتهم، هذه رسالة من رسائل إخوان الصفا وخلان الروّة والوفاء للشيخ الفاضل الشهير يابن الجلدي، من بالغ في الثناء عليه القاضي العلامة إسحاق العبدى. قد احتوت على فصول يبتهج لما فيها للبيب ويستلذ بحلاوة مضامينها الأديب..."^(٥٣)

(٢/٣) ٢- ألف ليلة وليلة

أنجز الشيخ أحمد اليميني طباعة مجلدين من كتاب ألف ليلة وليلة، بناءً على طلب من مجلس إدارة لكلية فورت ولیم، بغرض إدراج الكتاب كجزء من المنهج الدراسي لمادة اللغة العربية في الكلية، وتضمن المجلد الأول المائة الليلة الأولى، وصدر سنة (١٢٢٩هـ/١٨١٤م) تحت عنوان "مائة ليلة من ألف ليلة وليلة". أما المجلد الثاني فقد صدر سنة (١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م)، تحت عنوان "المجلد الثاني من كتاب ألف ليلة وليلة ويشتمل على حكاية السندباد والهندباد". وتمت طباعة المجلدين في مطبعة الهندوسانية تحت رعاية كلية فورت ولیم.^(٥٤) وفي مقدمة المجلدين بيّن الشيخ أحمد أهمية مجموعة ألف ليلة وليلة، وطريقته في إعداد هذا النص للنشر: لا يخفى أن مؤلف ألف ليلة وليلة وشخص عربي اللسان من أهل الشام. وكان غرضه من تأليف الكتاب أن يقرأه من يرغب في أن يتحدث بالعربية الفصحى، فتحصل له من قرائته طلاقة اللسان عند التحدث بها، ولهذا كُتِبَ بعبارات سهلة، كما يتحدث بها العرب، مُستعملاً في بعض المواضع الفاظاً ملحونة بحسب كلام العرب الدارج؛ لذلك فلا يظن من يتصفح هذا الكتاب ويجد ألفاظاً ملحونة في مواضع منه أنها غفلة من المصحح، وإنما وضعتُ عمداً تلك الالفاظ التي قصد المؤلف استعمالها كما هي.^(٥٥) والجدير بالإشارة أن هذه النسخة تُسمى أيضاً بـ"نسخة الشرواني" وكذلك بـ"نسخة كلكتا"، وتعتبر أقدم نسخة عربية مطبوعة طباعة

وبإشراف الشيخ أحمد، والذي سجل اسمه عليها كأول محرر، فهو بذلك يقدم نفسه ضمن أوائل الأدباء العرب الذين ساهموا في مجال الطباعة الحديثة، ونشر كتب التراث العربي خلال القرن التاسع عشر. والجدير بالإشارة هنا أن الأعمال التي قام الشيخ أحمد بتأليفها، وتحريرها والإشراف على طباعتها، وعددها تسعة عناوين، قد بلغت نسبتها حوالي ٤٥% من إجمالي الأعمال العربية، وعدها عشرون عنواناً، والتي تم تحقيقها وطباعتها ونشرها في الكلية.^(٦٥)

رابعاً: رحلة الشيخ في الولايات الهندية

أمضى الشيخ أحمد قرابة ثلاثة عقود في خدمة شركة الهند الشرقية، منتقلاً بين مدن الهند وولاياتها المختلفة، وفقاً لمتطلبات الوظائف والمهام التي أوكلتها الشركة إليه؛ فمن كلكتا التي أمضى فيها قرابة ثمان سنوات، وصنع فيها اسمه الأدبي، انتقل إلى مدينة لكانا عاصمة ولاية أوده، ومنها إلى بنارس ثم بهوبال، ليختتم حياة التنقل بالاستقرار في مدينة بونه، التي قضى فيها بقية حياته حتى وفاته سنة (١٢٥٦هـ/١٨٤٠م).

كانت مدينة لكانا ثاني أهم محطة في مسيرة حياة الشيخ أحمد الأدبية في الهند؛ وتعددت دوافع وأسباب وسفره إليها؛ ففي كتابه "المناقب الحيدرية" أشار الشيخ أحمد إلى أنه غادر كلكتا متجهاً إلى لكانا في أول شعبان ١٢٣٢هـ/٥ يوليو ١٨١٨م، طلباً للرزق في المدينة المزدهرة ثقافياً، في ظل حاكم كريم يحب الشعراء والأدباء.^(٦٦) في حين قدم ابنه عباس في كتابه "تاريخ آل أمجاد" تفاصيل أكثر دقة، حيث بين أن غازي الدين حيدر، حاكم لكانا، طلب من المقيم البريطاني في شركة الهند الشرقية في كلكتا، لانسلوت ويلكنسون Lancelot Wilkinson، نقل خدمة الشيخ أحمد من كلكتا إلى لكانا.^(٦٧)

يبدو أن الغرض الأساسي من نقل خدمة الشيخ أحمد إلى لكانا، هو الاستفادة من خبرته في إدارة المطبعة السلطانية التي أسسها غازي الدين في لكانا، ١٨١٨م، بحكم تجربته التي قضاها في كلية فورت ولیم، وهو ماتم بالفعل، فقد باشر العمل في المطبعة إلى جانب تلميذه أوحده الدين البلجرامي، ولاتتوفر معلومات دقيقة

المحيي"، وقد تمت طباعة الديوان في مطبعة كلكتا في مجلد واحد سنة (١٢٢٩هـ/١٨١٤م).^(٦٨) وتعد هذه الطبعة من الأعمال التي سجلت باسم الشيخ أحمد كأول ناشر لها.

(٢/٣) ٥- كتاب عجائب المقدور

يُعدّ كتاب "عجائب المقدور في أخبار تيمور"، تأليف أحمد بن محمد المشهور بابن عرب شاه (ت. ٨٥٤هـ/١٤٥٠م)، من أهم المؤلفات العربية التي دونت سيرة الامبراطور المغولي تيمور لنك، منذ توليه السلطة عام (٧٧١هـ/١٣٧٠م)، وحتى وفاته عام (٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، كما تناول الكتاب تاريخ أحداث القرن الخامس عشر، وصراعات الدولتين العثمانية والمغولية.^(٦٩) وقد أدرجت إدارة كلية فورت ولیم الكتاب ضمن مناهجها الدراسية، بناءً على توصية لومسدن، وأوكلت مهمة تصحيحه وإعادة طباعته للشيخ أحمد؛ وذلك بعد أن لاحظ لومسدن وجود أخطاء في الطبعات الأوروبية السابقة؛^(٧٠) وبهدف ضمان جودة ودقة النص، فقد اعتمد الشيخ أحمد على أربع نسخ مخطوطة كانت متوفرة في كلكتا؛ وتمت طباعة الكتاب في مطبعة كلكتا سنة (١٢٣٣هـ/١٨١٨م)، وتُعرف هذه النسخة أيضاً بـ"نسخة الشرواني"، وتضمنت هذه الطبعة مقدمة كتبها الكابتن لوكيت (سكرتير كلية فورت ولیم).^(٧١) حيث أشار فيها إلى مكانة الشيخ أحمد كمحرر وأديب. "والمحرر نفسه يعني الشيخ أحمد) هو عربي المولد، وصاحب مواهب ومؤهلات متعددة، فهو بالنسبة لمواطنيه وكذلك للمتعلمين في الهند بصفة عامة، ضليع في اللغة العربية، التي يتحدث ويكتب بها بفصاحة وأناقة، وليس بالضروري هنا أن نعدد الأعمال الأدبية التي أعدها للطباعة منذ التحاقه بالعمل في كلية فورت ولیم لنثبت ذلك، غير أن خير شهادة على براعته ومهارته وتعدد مواهبه تظهر جلية في عمله الرائع القاموس المحيط.^(٧٢)

تُعدّ هذه المصنفات الأدبية، التي قام الشيخ أحمد بتحريرها وتصحيحها بتكليف من الكلية، من أهم كتب التراث الأدبي العربي المشهورة والمهمة. وقد تمت طباعة بعضها لأول مرة في الهند بواسطة كلية فورت ولیم

في عروضة، لا يرون لوزنه حسناً، ولذلك قالوا ويقولون،
شعر العرب غير موزون ...^(٧٣)

كما أن تأليفه للكتاب، كان متوافقاً مع اهتمام بعض
أعيان المدينة باللغة العربية، باعتبارها مادة تعليمية في
المدارس، فقد ذكر في المقدمة أيضاً أنه شرع في تأليف
الكتاب بناءً على اقتراح من ميرزا ضياء الدين محمد
بخت بهادير، أحد أعيان بنارس، الذي كان مهتماً
بتحسين مستوى اللغة العربية فيها. والجدير بالإشارة
إلى أن كتاب "منهج البيان الشافي" يعتبر آخر مؤلفات
الشيخ أحمد في مجال التعليم، وقد تمت طباعة الكتاب
سنة (١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) في مطبعة كلية فورت ولیم.^(٧٤)

مثّلت مدينة بنارس محطة مهمة في حياة الشيخ
أحمد الأسرية والاجتماعية، ففيها تزوج من ابنة الأمير
ركن الدولة إسماعيل خان المرشد آبادي، أحد أعيان
المدينة، وبعد عام رُزق بمولوده الأول عباس سنة
(١٢٤١هـ/١٨٢٦م)، الذي أصبح فيما بعد أحد أدباء الهند
البارزين خلال القرن التاسع عشر، والذي قضى جزءاً
كبيراً من حياته كأديب في بلاط بهوبال في عهد حاكمها
سيد محمد صديق بن حسن القنوجي، كما ارتبط
بعلاقات تتلمذ وصداقة مع الأديب والشاعر الهندي
ميرزا غالب، أبرز شعراء الهند في القرن التاسع
عشر.^(٧٥)

استمرت رحلة تنقل الشيخ أحمد بين المدن الهندية؛
فطلب من الوكيل السياسي الإنجليزي في ولاية أوده،
السير لانسليت ويلكنسون، انتقل الشيخ أحمد إلى مدينة
بهوبال، للعمل كمعلم للأمير جهانكير محمد خان؛ الذي
كانت الإدارة الانجليزية بصدد إعدادة ليصبح النواب
السادس لمدينة بهوبال، حيث كلفت العديد من المعلمين
والمستشارين للإشراف على تدريبه وتأهيله، وكان الشيخ
أحمد أحد هؤلاء المعلمين.^(٧٦)

باشراً الشيخ أحمد عمله في بلاط النواب جهانكير،
ولم يذكر بالضبط متى كان وصوله إليها، ولكن يبدو أن
ذلك كان في عام (١٢٥٣هـ/١٨٣٧م)، وخلال مدة إقامته
فيها، قام بتأليف كتابه "شمس الإقبال في تاريخ بهوبال"،
بطلب من النواب جهانكير، واستعرض فيه جزءاً من
سيرة النواب، وجزءاً من تاريخ مدينة بهوبال.^(٧٧) لم تدُم
إقامة الشيخ أحمد طويلاً في بهوبال، فقد غادرها متجهاً

عن فترة عمله في المطبعة، ولا عن أهم المطبوعات التي
نشرها، غير كتابه المناقب الحيدرية.^(٧٨)

سجّل الشيخ أحمد حضوراً بارزاً في بلاط النواب
غازي الدين، وأصبح ضمن المقربين منه، وألف كتاب
"المناقب الحيدرية" في سيرة غازي الدين، من باب
التقرب والامتنان للسلطان، وتضمن الكتاب تفاصيل
لبعض إنجازات غازي الدين حيدر؛ ويعتبر من المصادر
الأصلية التي قدمت لمحة عامة عن التاريخ العام
والثقافي لمدينة لكناو في زمن غازي الدين، كما قدم
الشيخ أحمد وصفاً تفصيلياً لرحلته إلى لكناو وتجربته
في البلاط.^(٧٩) والجدير بالذكر أن كتاب المناقب
الحيدرية، كان أول كتاب يتم طباعته في المطبعة
السلطانية في لكناو، وقد أشارت المستشرقة الألمانية آنّا
ماري شيمل (Annrmari Shimmel)، أن النواب
غازي الدين لم تعجبه الطباعة، دون توضيح الأسباب،
وأمر بإيقاف طباعة الكتاب، وإغلاق المطبعة، ونتيجة
لذلك، لم يُوزع الكتاب على نطاق واسع.^(٨٠)

غادر الشيخ أحمد مدينة لكناو في عام
(١٢٤٠هـ/١٨٢٥م)، مُتجهاً إلى بنارس بدعوة من نوابها
راجا صاحب كاشي، ولا يُستبعد أن رحلته إليها كانت
بتكليف من إدارة الشركة. وفي بنارس أمضى قرابة اثنا
عشر عاماً، استثمرها في تعليم اللغة العربية،^(٨١) وتعد
فترة إقامته في بنارس فقيرة من حيث الإنتاج الأدبي،
خاصةً عند مقارنتها بأعماله الفكرية التي أنتجها خلال
فترة حياته في الهند؛ إذ لم يؤلف فيها غير كتاب واحد
وهو كتاب "منهج البيان الشافعي في علم العروض
والقوافي"، وهو عبارة عن دليل للطلاب في فن
البلاغة.^(٨٢) وبحسب ما ورد في مقدمة الكتاب، فإن
تأليفه يأتي في إطار جهود الشيخ أحمد في نشر اللغة
العربية وإحيائها في الهند.^(٨٣) فقد لاحظ، منذ وصوله إلى
الهند، مدى تدهور مستوى اللغة بين الطلبة، وبؤس
مستواهم اللغوي، وإهمالهم قواعد اللغة العربية.: "بعد
الوصول من اليمن الميمون مظهر الإيمان، إلى هذه
الأقطار الهندية، رأيت كثيراً من الأكابر الأعيان، وطلاب
العلوم العقلية والنقلية، لا يقيمون لأكثر الشعر العربي
الفصيح وزناً، ولعدم شعورهم بالزحاف والعلل المذكورة

الكثير من المعلومات عن حياته وعلاقاته، وفيما يلي عرض سريع لمحتوى تلك المؤلفات.

١/٥- كتاب نفحة اليمن

عنوانه كاملاً "نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن"، وهو أحد أهم كتب الشيخ أحمد التعليمية، وقد أشار الشيخ أحمد في مقدمة الكتاب إلى أنه قد ألفه بطلب من السيد متى لومسدن: "والباحث لما قد بذل الحقيق جهده في انتخابه وتصدي لجمعه وترتيب أبوابه، هو إنسان عين الفضل والفخار، وبهجة محافل أهل العز الوقار، صدر المُدرسين مُفيد الطالبين ذو الرأي الصائب، والفهم الثاقب، وصاحب التحرير والبيان، والتقريب والتبيان، من اشتهر مكارم أخلاقه في كل موطن الشيخ العلامة متى لومسدن".^(٧٩)

كما وضّح في رسالته إلى شيخه عبد الرحمن البهكلي المؤرخة في سنة (١٢٢٧هـ/١٨١٢م)، أن الغرض من تأليف هذا الكتاب، هو تسهيل دراسة اللغة العربية على الطلاب في كلية فورت ولیم، وذكر أن الكلية قد طبعت خمسمائة نسخة من الكتاب في مطبعة هندوستاني في كلكتا عام (١٢٢٦هـ/١٨١١م).^(٨٠) وصُمم الكتاب ليكون كتاباً تعليمياً، وقد أصبح بالفعل ضمن مقررات الكلية التدريسية،^(٨١) وبقي هذا الكتاب يُدرس في المدارس النظامية والديوبندية في الهند وباكستان إلى منتصف القرن العشرين، ضمن مقررات مناهج اللغة العربية.^(٨٢) وقد أشار الشيخ أحمد إلى أهمية الكتاب وقيّمته الأدبية: فإن هذا المجموع قد اشتمل على ما تستلذ به الاسماع وتميلُ إليه الطِّباع من حكايات أنيقة مُعجبة واشعار رائقة مطربة وغرائب حُكم جواهرها غالية الأثمان [...] انتخبته من كُتب لا يُظفر بمَخدرات مضامينها السنيّة إلا من عَرَف السبيلُ إليها وكان بارعاً في الفنون الأدبيّة.^(٨٣)

قُسم محتوى الكتاب إلى خمسة فصول، ركز كل فصل منها على فن أدبي مُعين، وكانت أبرز الفنون المقدمة هي الحكايات، والمناظرات، والقصائد، واللاميات، والمراسلات. وتعددت موضوعات تلك الفنون، حيث شملت الغزل، التصوف، والحكمة، والمدح، وغير ذلك. كما أن الأعمال المختارة لم تقتصر على فترة

إلى حيدر آباد، وبعدها أتجه إلى مدينة كانبور، وفي نهاية المطاف أتجه إلى مدينة بونه غرب الهند، وفيها ألقى عصا الترحال، وأمضى ما تبقى من حياته، حتى وفاته يوم ١٩ ربيع الأول ١٢٥٦هـ الموافق ١٣ فبراير ١٨٤٠م، وقد دُفن في مقبرة "رضا شاه" في نفس المدينة.^(٧٨)

وتُعدّ الفترة (١٢٥٣ - ١٢٥٦هـ / ١٨٣٧ - ١٨٤٠م)، فترة غامضة؛ ولا تتوفر عنها أي تفاصيل، كما لا توجد أية معلومات عن إنتاجه أو أعماله التي قام بها أو أنجزها خلال هذه السنوات، ومن المرجح أنه قد تمكن من إتمام تأليف كتابيه "بحر النفائس" و"جوارس التفريح" خلال هذه الفترة.

خامساً: النتاج الأدبي للشيخ أحمد

ألّف الشيخ أحمد، خلال فترة إقامته في الهند، تسع مؤلفات في مجالات أدبية ولغوية متنوعة، ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة حقول: الأول يضم الكتب التعليمية وهي: كتاب "نفحة اليمن"، وخصصه لفن البلاغة، وكتاب "العجب العُجاب" تناول فيه فن الكتابة والمراسلات، وكتاب "منهج البيان الشافي" وهو في علمي العروض والقوافي. أما الحقل الثاني فيتضمن الكتب الأدبية وتضم: كتاب "حدايق الأفراح"، وكتاب "الجوهر الوقاد" شرح قصيدة بنات سعاد؛ وكتاب "بحر النفائس"، وكتاب "جوارش التفريح"؛ في حين يشمل الحقل الثالث كتباً ذات طابع تاريخي وهي كتاب "المناقب الحيدرية"، وكتاب "شمس الإقبال".

يعكس هذا النتاج بطريقة أو بأخرى، قدرات الشيخ أحمد وإمكاناته، ومواهبه اللغوية؛ وكذلك غنى ثقافته، وعمق معرفته باللغة العربية وبفنونها وآدابها؛ كما أنه يبرز التحولات في حياته المهنية، وما صاحبها من تطورات في كتاباته، وموائمة ذلك مع متطلبات كل مرحلة، ففي بداية حياته كان جُل اهتمامه مُنصب على تأليف كتب تعليمية، وبعد ذلك ركز على الإنتاج الأدبي، وحين عمل في بلاط حكام بعض الولايات الهندية، ألّف كتباً ذات صبغة تاريخية. وتُعدّ كتبه "نفحة اليمن"، و"العجب العُجاب" وكذلك "حديقة الأفراح" من أشهر وأهم مؤلفاته في فنون اللغة العربية المتنوعة، وتضمنت

٣/٥- كتاب حديقة الأفراح

عنوان الكتاب كاملاً "حديقة الأفراح لإزالة الأتراح"، ويندرج ضمن فن التراجم وقصص الأدباء، ويحتوي على مواضيع أدبية متنوعة، فضلاً عن تراجم وقصص طريفة للأدباء العرب، والهنود، والأتراك، والفرس. كما يتضمن أيضاً تراجم لمجموعة من أصدقاء الشيخ أحمد ومشائخه، وقد انتهى من تأليفه في ٦ صفر ١٢٢٩هـ الموافق ٢٨ يناير ١٨١٤م، وطُبع في نفس العام.^(٨٨) ويبدو أن معرفة الشيخ أحمد بهذا النوع من الأدب، شجعه على تأليف الكتاب باعتباره إسهاماً منه في مجال التأليف ونشر اللغة العربية، وعلى الرغم من أن الكتاب لم يكن ضمن المناهج التدريسية المعتمدة في قسم اللغة العربية، إلا أن الكلية قامت بطباعته ونشره من باب الإسهام في طباعة الكتب العربية. وعلاوة على ذلك فقد أراد الشيخ أحمد من خلال تأليفه للكتاب، أن يُخلد اسمه ككاتب، وهو ما أشار إليه صراحة، في مقدمة الكتاب.^(٨٩)

يتمثل كتاب حديقة الأفراح، من حيث البنية والتقسيم، مع مصادر عربية سابقة له، أهمها كتاب "نفحة الريحانة" لـ محمد المحبّي (١٠٦١/١٦٥١) وكتاب "سلافة العصر" لـ أبي معصوم الحسني (ت ١١١٩/١٧٠٧)، بالإضافة إلى كتاب "قلائد العقيان" لـ أبي نصر الفتح محمد بن خاقان (ت ٥٢٩/١١٣٤). فقد قُسم الكتاب إلى فصول، وكل فصل تضمن تراجم وسير ذاتية لعلماء وأدباء مشهورين، كما ألحق بكل فصل قسماً يضم بعض القصص الطريفة والمتنوعة.^(٩٠)

زمنية محددة، بل بعضها من العصر الجاهلي، وبعضها من العصر الإسلامي، والبقية تنتمي إلى عصر الشيخ، حيث ضم بعض قصائد أساتذته وأصدقائه ومعاصريه. وقد احتوى كتاب نفحة اليمن الكثير من الأعمال الأدبية اليمنية، وبعض مراسلات الشيخ مع أصدقائه وشيوخه.^(٨٤)

٢/٥- كتاب العجب العُجاب

عنوانه كاملاً "العجب العُجاب فيما يفيد الكتاب"، وهو ثاني كتاب يؤلفه الشيخ أحمد، وقد انتهى من تأليفه بتاريخ ٢٧ ربيع أول ١٢٢٨هـ الموافق ٢٩ أبريل ١٨١٣م، وطُبع في مجلد واحد في مطبعة هندوستاني - كلكتا عام (١٢٢٨هـ / ١٨١٣م)، تحت إشراف ورعاية كلية فورت ولیم،^(٨٥) وقد أشار الشيخ أحمد في المقدمة، أنه ألف الكتاب نظراً: لـ "تشوق طلبة العلم القاطنين في دار الإمارة كلكتة، للوقوف على المهارق العربية، الحاوية لكل لطيفة ونكتة، سيما نبلاء العصاة الإنجليزية (الإنجليزية)، أولي الأراء السديدة والأخلاق السنية، وفقهم الله لما يرضيه، وزادهم رغبة في العلم ومحبة لذويه".^(٨٦) أُعد الكتاب ليكون كتاباً تدريسياً، لتطوير وتحسين مهارات الكتابة وفن صياغة الرسائل، وعلم الإنشاء باللغة العربية لدى الطلاب، وكذلك الموظفين الإنجليز؛ ويتألف الكتاب من مقدمة وثلاثة فصول، بالإضافة إلى الخاتمة.

احتوى الكتاب على أكثر من ثلاثمائة رسالة متنوعة، من ضمنها الرسائل التي تبادلها الشيخ أحمد مع والده، وأصدقائه، وأساتذته؛ وتُعد تلك الرسائل مصدراً مهماً عن حياته في اليمن والهند، وكذلك عن شبكة علاقاته. وقد حاول الشيخ أحمد استعراض مواهبه وخبراته الكتابية، وعلق بأن كتابه هذا لا يقل أهمية عن كتب الأدب العربي الكبرى، مثل: "يتيمة الدهر" لـ أبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٨)، و"دمية القصر" لـ علي بن محمد. الحسن الباخري (ت ٤٦٦هـ/١٠٧٥م)، وكذلك كتاب "قلائد العقيان" لـ أبي نصر الفتح محمد بن خاقان.^(٨٧)

خاتمة

هكذا قضى الشيخ أحمد أكثر من نصف حياته في بلاد الهند، مُسجلاً حضوراً فكرياً، ومقدماتاً بذلك نموذجاً للأدوار الحضارية التي لعبها اليمنيون في بلاد الهند خلال القرن التاسع عشر؛ وتركزت مساهمته في مجالات الكتابة والتحرير والنشر؛ في الوقت الذي أعتى العلماء والفقهاء اليمنيين في الهند، بمجالات التصوف والفقه والحديث واللغة العربية؛ علاوة على ذلك فهو أول يمني وعربي يعمل مع شركة الهند الشرقية في أهم المراكز الاستشرافية، جنباً إلى جنب مع أشهر رواد حركة الاستشراق في شبه القارة الهندية.

ساهم الشيخ أحمد خلال فترة عمله في إحياء ونشر اللغة العربية، حيث قام بتأليف تسع مؤلفات أدبية، وتحرير وطباعة خمسة أعمال أدبية عربية مشهورة، مُسجلاً اسمه كأول مُحَرَّر وناشر لثلاثة عناوين وهي: كتاب القاموس المحيط، وكتاب ألف ليلة وليلة، وكتاب رسائل إخوان الصفا (الرسالة الثامنة). ويدين الشيخ أحمد لشركة الهند الشرقية بمعرفةٍ منحه فرصة عمل لديها، وما ترتب عليه من تطوير لقدراته ومواهبه، وإثبات نفسه كاتباً ومُحرراً؛ كما مكنته هذه الفرصة من خدمة اللغة العربية بطرق شتى؛ ومن المرجح، أنه لولا هذه الفرصة لظل مكتفياً بعمله كتاجر، ولبقي اهتمامه بالأدب العربي هواية شخصية خاصة.

ظلت مسألة هوية الشيخ أحمد اليمنية من المواضيع المهمة التي تكررت في كتاباته، ويبدو أن طول إقامته وتأقلمه واندماجه في المجتمع الهندي؛ قد جعله يتشبّه بهوية اليمنية خشية نسيانها، وهو ما كان يؤكد بشكل دائم، وبطرق عدة، فعنون أول مؤلفاته بـ"نفحة اليمن"، وسجل اسمه في جميع مؤلفاته بـ"أحمد بن محمد بن علي اليمني الأنصاري المعروف بالشيرواني"، وكان يفخر بانتمائه إلى اليمن، ويطلق على نفسه في بعض الأحيان اسم سهيل اليمني.^(٩١)

تمكن الشيخ أحمد من تسجيل اسمه كأحد أعمدة اللغة العربية في الهند، وذاع صيته، واكتسب سمعة طيبة، باعتباره عالماً لغوياً وأديباً فصيحاً؛ واشتى عليه معاصروه، حيث وصفه الشيخ عبدالعزيز بن شاه ولي

الله الدهلوي بأنه "أوحد فن الأدب ولا ثاني له ولا ثالث، وإن كان، فهما الجاحظ والأصمعي".^(٩٢) وقال الشيخ حسن بن علي الهاشمي بأن "قدومه [أي الشيخ أحمد] إلى الهند كان بمثابة حافز لانتشار اللغة العربية، ووصفه بسهيل اليمني"،^(٩٣) كما وصفه الأديب الهندي ممتاز علي في كتابه "آثار الشعراء" بأن الشيخ أحمد "أصبح حريري ومُتتبي عصره، وبأن كتبه الثلاثة: نفحة اليمن، والعجب والعُجاب، وحديقة الأفراح، تقابل في شهرتها كتب بستان وكستان" الفارسية للسعدي.^(٩٤)

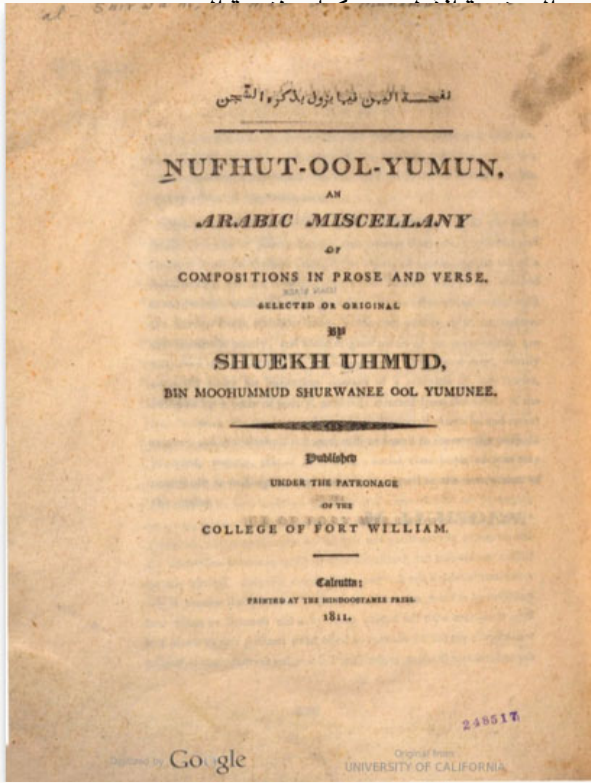
أخيراً، تأتي هذه الدراسة في إطار الجهود المتواصلة للتعريف بعلماء اليمن في المهجر، الذين أسهموا في تطور الحياة الفكرية والأدبية والعلمية في تلك البلدان، وكانوا بالفعل خير سفراء لبلدهم اليمن.

النتائج

مما تقدم، يمكن تلخيص النتائج التي توصلت إليها الدراسة على النحو التالي:

- اهتمت الإدارة الاستعمارية البريطانية في الهند باللغة العربية، وأدرجتها ضمن المواد التدريسية في بعض المؤسسات التعليمية الاستعمارية، وذلك في إطار السياسة البريطانية لتعليم موظفيها اللغات الشرقية.
- كان تعيين الشيخ أحمد في كلية فورت ولیم، في إطار سياسة إدارة الكلية بتوظيف ناطق بالعربية، ليتولى مسؤوليات تدريسها، وتطوير مناهجها، علاوة على الإشراف على تحرير بعض كتب التراث العربي وإعدادها للطباعة.
- يُعتبر الشيخ أحمد أول الفقهاء اللغويين اليمنيين، وربما العرب، الذين عملوا في كلية فورت ولیم، والتي كانت أحد أهم مراكز الدراسات الشرقية خلال القرن التاسع عشر، ويمكن القول إنه أول عربي خدم حركة الاستشراق في ذلك الوقت.
- لم يقتصر دور الشيخ أحمد كمُحرر لبعض الكتب العربية فحسب؛ بل سجل اسمه كأول مُحَرَّر وناشرٍ لثلاثة أعمال أدبية أساسية وهي: إخوان الصفا، وألف ليلة وليلة، والقاموس المحيط.

الملاحق



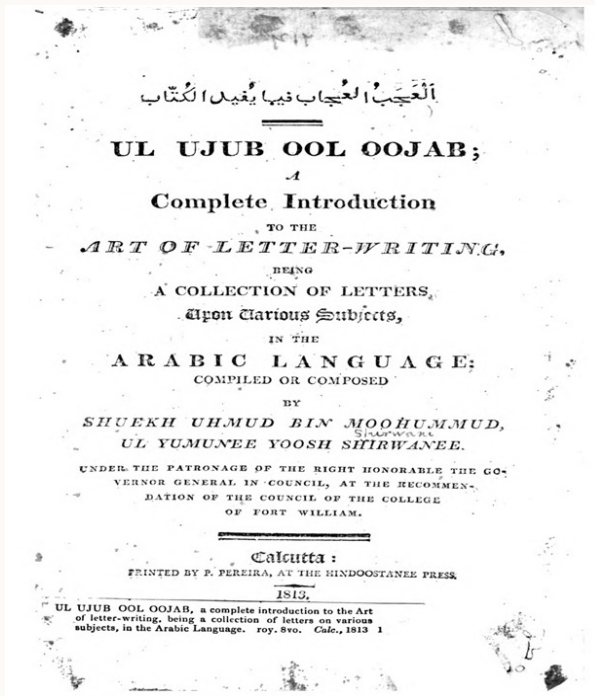
- لا يزال كتابه "نفحة اليمين" يستخدم ككتاب دراسي في بعض المدارس الإسلامية الهندية، حتى وقتنا الحاضر.
- يُعتبر الشيخ أحمد أحد أعمدة حركة الطباعة العربية في كلية فورت ولیم، فمن بين ٢٠ كتاباً عربياً طبعتها الكلية، منذ إنشائها عام ١٨٠٠ وحتى عام ١٨١٨م، قام بتأليف وتحرير تسعة منها، وتدل أهمية وقيمة هذه الأعمال على مكانة الشيخ أحمد، كأحد الرواد الأوائل في تاريخ الطباعة العربية الحديثة في القرن التاسع عشر.
- رفع الشيخ أحمد من قيمة اللغة العربية في بلاط بعض الأمراء الهنود، لتصل إلى مستوى مقارب للغتين الفارسية والأردية، وهما لغتا أدب البلاط في الهند في ذلك الوقت، وذلك حين استثمر عمله لدى الأمراء الهنود، فقام بتأليف كتابي "المناقب الحيدرية" و"شمس الإقبال" باللغة العربية.

التوصيات

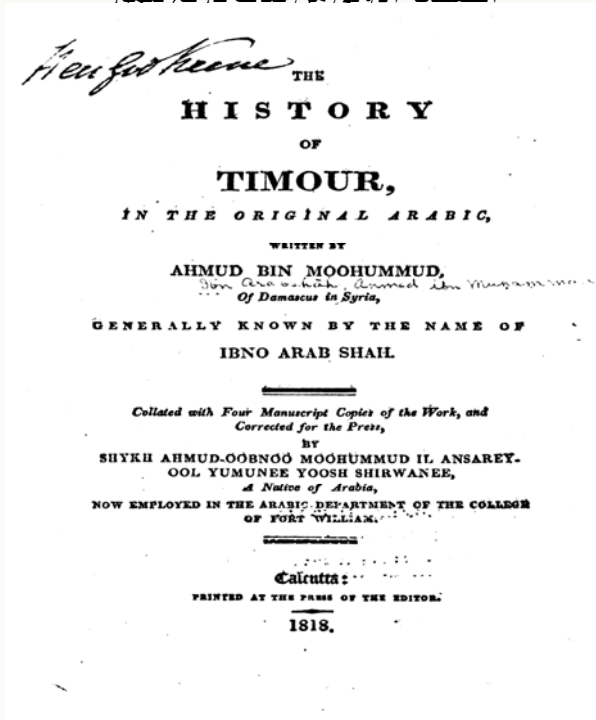
توصي الدراسة بما يلي:

- (١) الاهتمام بحقل العلاقات الحضارية بين اليمن وبلاد الهند بشكل عام، وتشجيع الباحثين على تناول هذا الجانب بالدراسة والبحث.
- (٢) التّركيز على الأدوار الحضارية التي لعبها علماء اليمن عامة، ومنطقة تهامة اليمن خاصة في بلاد الهند، خلال العصر الحديث.
- (٣) الاهتمام بحقل المدارس الفكرية في الهند، المتأثرة بأفكار علماء اليمن، خاصة تيار مدرسة الإمام الشّوكاني.^(٩٥)

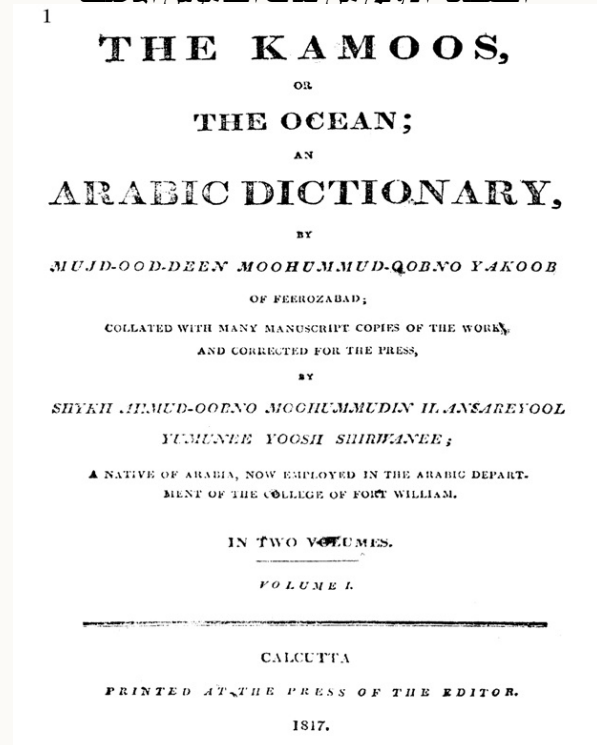
الصفحة الأولى من كتاب العجب العجائب



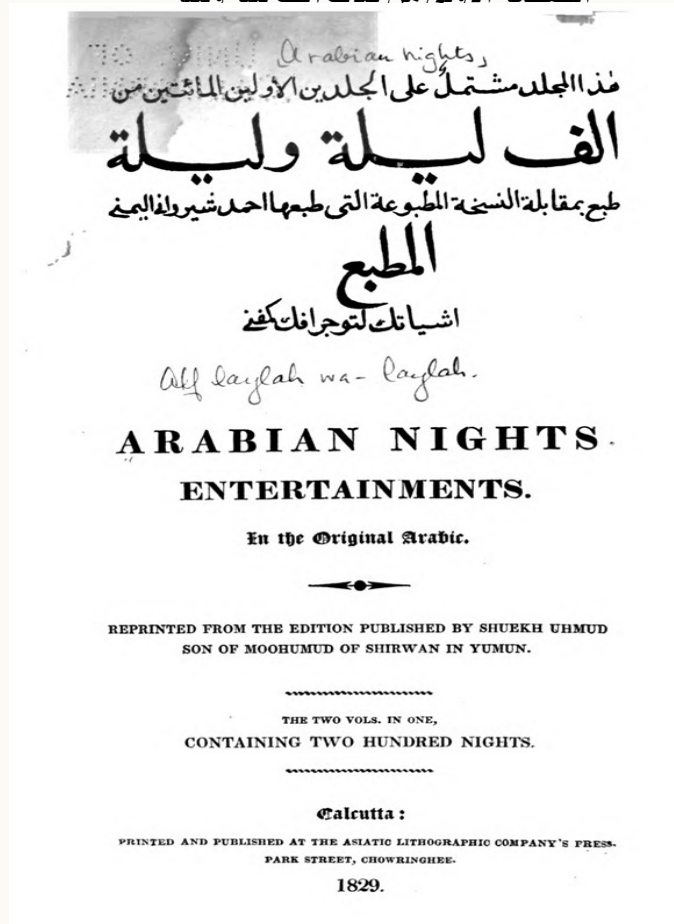
الصفحة الأولى من كتاب تاريخ تيمور



الصفحة الأولى، من كتاب القاموس، المحيط



الصفحة الأول، من كتاب ألف ليلة وليلة



الإحالات المرجعية:

- الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، (بيروت: دار بن حيان، ١٩٩٩م)، مج ٨، ص ١٢٥٦. توجد فجوات تاريخية بخصوص تتبع حياة آل الأنصاري وسيرتهم، لذلك فقد أشرنا في الدراسة إلى أسماء من برز من أفرادها، وكان له دور في الحياة العلمية والسياسية أو غير ذلك.
- (٦) ولا تتوفر معلومات دقيقة حول فترة بقائه في منصب الاستشارية، على أية حال، لم يستمر الميرزا إبراهيم في منصبه طويلاً، فقد اعتزل السياسة وهاجر إلى النجف مكرساً بقية حياته للعبادة حتى وفاته. آغا بزرگ الطهراني، **طبقات أعلام الشيعة**، ط ٢، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٩م)، مج ٩، ص ٣؛ الشرواني عباس، **تاريخ آل أمجاد**، ص ١٠٦؛ محسن العاملي، **أعيان الشيعة**، (بيروت: مكتبة آل البيت، د.ت)، مج الأولى، ص ٢٧.
- (٧) شروان أو شيراوان مدينة تقع جنوب شرق أذربيجان حالياً، وهي مدينة حدودية بين إيران وأذربيجان، وبحكم ثقافة العصر. آنذاك فقد كانت أسماء البلدان التي يستقر فيها أفراد الأسرة تُضاف إلى ألقاب العائلة.
- وفي مقالة الباحثة الأذربيجانية Mammadova Afsana أفزانا محمّدوف، المعنونة بـ "Taninmayan müəllif Əhməd ibn Məhəmməd əl-Şirvani haqqında ilkin bilgilə" (The initial data) on an unknown author Ahmad Mohammed Al-Shirwani ذكرت بأن الشيخ أحمد اليميني الشرواني هو أذربيجاني الأصل، وينتمي إلى مدينة شروان الأذربيجانية، وحثها في ذلك أن الاسم الأخير الذي حملته الشيخ أحمد هو الشرواني، كما علّلت بأن لقب اليميني الذي عُرف به ليس أكثر من لقب نسبة للمكان الذي ولد فيه. وقد وضحتنا في هذه الدراسة أن لقب الشرواني قد أُضيف إلى اسم الأسرة بعد أن هاجر محمد بن علي إلى شروان، وأستقر فيها لبعض الوقت، وبذلك فإن لقب الشرواني هو لقب نسبة أيضاً، مع العلم بأن الأسرة كانت تُعرف بأسرة الأنصاري وهو اللقب الأقدم. ولم تراعى الباحثة أن مولد الشيخ أحمد ونشأته وتعليمه جزءاً كبيراً من حياته، وكذلك حياة والده وإخوته كانت في اليمن، والأهم من كل ذلك أن الشيخ أحمد أكد مراراً وفي أكثر من مناسبة إلى انتماؤه إلى اليمن، وعرف نفسه دائماً باسم "أحمد بن محمد بن علي اليميني الأنصاري المعروف بالشرواني" فالشرواني كما أشار هو اسم الشهرة أو اسم عُرف به، ولم يشر أبداً بانتماؤه إلى شروان، علوة على أن أهم مؤلفاته حملت اسم اليمن ونعني بذلك كتاب "نحلة اليمن".
- يمكن الاطلاع مقالة الباحثة أفزانا على الرابط التالي:
https://www.academia.edu/38919418/Tan%C4%B1mayan_m%C3%BC%C9%99lif_%C6%8Fhm%C9%99d_ibn_M%C9%99h%C9%99mm%C9%99d_%C9%99l_%C5%9Eirvani_haqq_%C4%B1nda_ilkin_bilgil%C9%99r_The_initial_data_about_a_n_unknown_author_Ahmad_Mohammed_al_Shirwani_
- (٨) أشار عباس الشرواني أن جده محمد توجه إلى بنارس بدعوة من عميه الميرزا محمد حسين همداني، والشيخ علي حزين كيلاني. الشرواني عباس، **تاريخ آل أمجاد**، ص ١٠٧.
- (٩) النواب آصف الدولة، هو النواب الرابع لولاية أوده الهندية، وقد تولى الحكم بعد وفاة والده شجاع الدين سنة ١٧٧٥، ولعل أهم ما قام به هو نقل عاصمة الولاية من مدينة فايزآباد إلى لكناو، وبدأ بتأسيس المدينة لتكون مركزاً فكرياً للشيعة في الهند، وشجع العلماء والفقهاء والأدباء على القدوم إليها.

- (١) تعتمد هذه الدراسة في مادتها التاريخية بشكل كبير على أطروحة الدكتوراه للباحث نفسه، بعنوان بـ (Ahmad Ibn Muhammad al-Shirwānī al-Yamānī (1200-1256AH/1785-1840): His Contribution to Oriental Studies in British India.) المقدمة إلى جامعة إيفورت عام ٢٠١٥. ويأتي نشر هذا العمل باللغة العربية لعدة أسباب، أهمها: (أ) أن كثيراً من فقرات ومعلومات الدراسة موزعة بين فصول ومباحث الرسالة وفقاً لتقسيمها، ولذلك حاول الباحث في هذه الدراسة تنظيمها بما يخدم وحدة الموضوع. (ب) إضافة كثير من المعلومات الجديدة إليها. (ج) أن رسالة الدكتوراه ما تزال مكتوبة باللغة الإنجليزية، ممّا شجّع الباحث على نشر هذه الدراسة باللغة العربية، بهدف تعريف القارئ العربي بهذه الشخصية المهمة، التي لم يكتب عنها أحد من قبل - حسب علم الباحث. (د) تزويد المكتبة العربية بمعلومات مهمة عن دور الشيخ اليميني كنموذج لجهود علماء اللغة العربية في نشر وطباعة التراث العربي في القرن التاسع عشر.
- (٢) تناول الباحث أحمد المصري في دراسته التي أشرنا إليها سابقاً، شخصية الشيخ أحمد اليميني الشرواني، ودوره في نشر اللغة والتراث العربي، ولا توجد دراسات أخرى تناولت الموضوع - حسب علمي - سوى ما كتبه الباحث عبد الله الحبشي، في بضع صفحات، عن شخصية الشيخ أحمد في كتابه الرحالة اليمينيون. للمزيد انظر: الحبشي، الرحالة اليمينيون ورحلاتهم شرقاً وغرباً. وبخصوص الدراسات الأخرى التي تناولت الهجرات اليمنية، وكذلك الأدوار الحضارية لليمنيين في بلاد الهند، فأهمها كتاب "الهجرات الحضرية الحديثة إلى الهند وتأثيراتها منذ القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين" للدكتور جمال النظاري، وكتاب "اسهامات علماء حضرموت في نشر الاسلام وعلومه في الهند" للدكتور محمد أبو بكر باذيب، وكذلك كتابي
- Ulrike Freitag and Smith William Clarence "Hadhrami Traders, Scholars, and Statesmen in the India Ocean, 1750s-1960s. Claudia Preckel "Islamische Bildungsnetzwerke und Gelehrtenkultur im Indien des 19. Jahrhunderts: Muḥammad Ṣiddīq Ḥasan Ḥān (st.1890) und die Entstehung der Ahl-e hadit-Bewegung in Bhopal." (PhD Dissertation, Buchum, 2005).
- (٣) ذكر عباس ابن الشيخ أحمد اليميني الشرواني نسبه كما يلي "أبو الفضل محمد عباس بن أحمد بن محمد بن علي بن إبراهيم بن يوسف بن جابر بن عبد الله الأنصاري الخزرجي السلمي. أبو الفضل محمد عباس الشرواني، **تاريخ آل أمجاد**، (دهلي: مطبع الأنصاري، د.ت)، ص ١٠٦؛ أبو الفضل محمد عباس الشرواني، **بآغ جارجمن تاريخ الدكن**، (لكناو: مطبع جعفري، ١٩٨٨م)، ص ٥٥.
- (٤) علي بن محمد ابن الأثير، **أسد الغاية في معرفة الصحابة**، (بيروت: دار الكتب العالمية، د.ت)، مج ١، ص ٤٩٢-٤٩٤؛ خير الدين الزركلي، **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩م)، مج ١، ص ٤٩١.
- (٥) عباس الشرواني، **تاريخ آل أمجاد**، ص ١٠٦؛ عبدالحق بن فخر الدين الندوي، **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام: المُسمى بنزهة**

بن خالد الحازمي (ت. ١٢٣٣ / ١٨١٧) والي المخلاف السليماني وأحد علماء وأدباء تهامة(١)، والشريف يحيى بن حيدر آل خيرات (ت. ١٢٣٤ / ١٨١٨) والي مدينة الحديدة اليمنية، والنواب غازي الدين حيدر (١٢٤٢ هـ / ١٨٢٧ م) حاكم مدينة لكناو الهندية، والنواب محمد جهانغير (١٢٦٠ هـ / ١٨٤٤ م) حاكم مدنة بهوبال الهندية وغيرهم. انظر:

Al-Mesri, Ahmad al-Shirwānī al-Yamānī, p. 73-76, 168, 145, 155.

(٢٤) اليميني الشرواني: **العجب العجائب**، ص. ٥٥.

(٢٥) اليميني الشرواني: **العجب العجائب**، ص. ٥٢.

(٢٦) اليميني الشرواني: **العجب العجائب**، ص ٦٦-٦٨.

Al-Mesri, Ahmad al-Shirwānī al-Yamānī, p. 81-82.

(٢٧) اليميني الشرواني: **العجب العجائب**، ص. ٥٥-٥٦، ٦٦-٦٨.

(٢٨) من أشهر تلك المؤسسات "مدرسة كلكتا" "Calcutta Madrasa" أسسها وارن هاستنجز Warren Hastings عام ١٧٨١ م، و "الجمعية الآسيوية في بنغالة" Asiatic Society of Bengal، والتي أسسها السير وليم جونز William Jones بمساعدة زمليه تشارلز ويكينس Charles Wilkins في مدينة كلكتا عام ١٧٨٤، وكذلك "كلية سانت جورج" College of Fort St. George والتي أسسها فرانسيس ايليس في مدينة مدراس عام ١٨١٢ م.

Anat Kakba Priolker, The Printing Press in India: Its Beginning and Early Development. (Bombay: Mumbai Marathi Grantha Sangrahalaya, 1958), p 29, 47.

(٢٩) سميع الله، فورت **وليم كالج**، (لكناو: فخرالدين علي أحمد، ١٩٨٨ م)، ص ١١؛

Katharine Smith Diehl, "College of Fort William", in Journal of Library History (1974). no.4, p. 467.

(٣٠) لعل أهم المواضيع التي تم إدراجها في برنامج الكلية هي: علم السياسة، الإقتصاد، الجغرافيا، الرياضيات، اللغات الأوروبية الحديثة، التاريخ، الكيمياء، وكذلك علوم الفلك وغيرها. سميع الله، فورت وليم كالج، ص ١٤-١٥؛

David Kopf, British Orientalism and Bengal Renaissance: The Dynamics of Indian Modernization 1773-1835, (Calcutta: Firma K.L. Mukhopadhyay, 1969), p.13.

(31) Thomas Roebuck, Annals of the College of Fort William, (Calcutta: Hindoostanee press 1819), p.340, 479; Priolker, The Printing Press in India, 29, 47.

(32) Roebuck, Annals, p. 508, Appendix, 29- 32; Das, Sahibs and Munshis, p.14-15.

(33) Roebuck, Annals, Appendix III 46-47

(34) Das, Sahibs and Munshis, 38-40.

(35) عبد الرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين**، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤ م)، ص ٧٦؛

Roebuck, Annals, Appendix, p.54.

(36) Das, Sahibs and Munshis, 15-16; Al-Mesri, Ahmad al-Shirwānī al-Yamānī, p. 116-120.

Abd al-Halim Sharar, Lucknow the last Phase of an Oriental Culture. Trans. and Ed by E.S Harcourt and Fakhir Hussain, (New Delhi: Oxford University press, 1975), p.48-52; Amir Hasan, Palace Culture of Luckow, 1(ed), (Delhi: B.R. Publishing Corporation, 1983), p.3-4.

(١٠) الشرواني عباس، **تاريخ آل أمجاد**، ص. ٧؛ الندوي، **نزهة الخواطر**، مج. ٣، ص. ١٢٥٦.

(11) Fātmī, Introduction, p.12-13.

(١٢) ذاكر مصطفى فاطمي، محبوب سيّر مؤلفها أبو الفضل عباس الشرواني، (حيدر آباد: **كتابخانة وإدارة تحقيقات مخطوطات أكتوري بيرس شانكاريلي**، ٢٠٠٧ م)، ص ١٣؛ عباس الشرواني، **تاريخ آل أمجاد**، ص. ٢٠١.

(١٣) يتضح ذلك جلياً من خلال مراسلات الشيخ أحمد مع أصدقائه، والذين كانوا يذكرون والده بنوع من التقدير والاحترام، بل وصفه البعض بكلمات مثل شيخنا أو سيدنا.

(14) Ahmed Al-Mesri, "Ahmad Ibn Muḥammad al-Shirwānī al-Yamānī (1200-1256AH/1785-1840): His Contribution to Oriental Studies in British India", (PhD Dissertation, Erfurt University, 2015), p. 61.

(١٥) أحمد بن محمد اليميني الشرواني، **منهج البيان الشافعي في علم**

العروض والقوافي، (كلكتا: كلية فورت وليم، ١٨٣٤ م)، ص. ٢.

(١٦) ولم تقتصر علاقة الشيخ أحمد بآل الأمير على مسألة التلمذ فحسب، بل كان على تواصل مع يوسف بن إبراهيم بن إسماعيل ابن الأمير وتبادل المراسلات. الشرواني عباس، **تاريخ آل أمجاد**، ص. ٢٠٢؛ عبد الله الخادم العمري، **النهضة الأدبية في اليمن: بين عهدي الحكم العثماني (١٣٣٠-١٣٣٣ هـ)**، وبيوت العلم في مثلث التواصل، صنعاء، تهامة والمخلاف السليماني، (صنعاء: وزارة الثقافة، ٢٠١٤ م)، المجلد الثاني، ص. ٣٢٨-٣٢٩.

(17) Al-Mesri, Ahmad al-Shirwānī al-Yamānī, p.64.

(١٨) أحمد بن محمد اليميني الشرواني، **العجب العجائب فيما يفيد الكتاب**، (بومباي: مطبع فتح الكريم، ١٨٨٠ م)، ص. ١٦-١٨. تبادل الشيخ أحمد مع شيخه البهكلي العديد من الرسائل، والتي تناولت مواضيع أدبية متنوعة، وأخبار السياسة، والشؤون العامة، وقد أورد تلك المراسلات في كتبه المختلفة.

Al-Mesri, Ahmad al-Shirwānī al-Yamānī, p.65-66

(19) اليميني الشرواني، **العجب العجائب**، ص. ١٣٠-١٤٠.

(20) Al-Mesri, Ahmad al-Shirwānī al-Yamānī, p. 68.

(٢١) الشرواني عباس، **تاريخ آل أمجاد**، ص. ١٠٦. ولم يذكر الشيخ أحمد أي معلومات عن الشيخين اليماني والنجفي في جميع مؤلفاته، ولا تتوفر معلومات عنهما في المصادر المتاحة.

(22) Al-Mesri, Ahmad al-Shirwānī al-Yamānī, p. 165-166.

(٢٣) لعل أشهر الأدباء والعلماء الذين إلتقاهم وأشار إليهم في مؤلفاته هما: القاضي محمد أمين الزللي (ت. ١٢٤١/١٨٢٥)، وهو علماء وأدباء المدينة المنورة، وكذلك الأديب سالم بن محمد الدارمكي (ت. ١٢٢٤/١٨٠٩ م) قاضي مدينة بركاء بعمان، والشيخ عبدالعزيز بن شاه ولي الله الدهلوي (١٨٢٣ م) وهو من أشهر علماء أهل الحديث في بلاد الهند؛ أما الشخصيات السياسية فمن أبرزها السلطان العثماني بدر بن سيف البوسعيد (١٢٢١/١٨٠٧ م)، والشريف حسن

Roebuck, The Annals, p.585

(٥١) لمزيد من معلومات عن الأعمال الأدبية التي تم نشرها في الكلية انظر:

Al-Mesri, Aḥmad al-Shirwānī al-Yamānī, p. 116-120

(٥٢) وفي سياق حديث بروكلمان عن رسائل إخوان الصفا، أشار أن هذا الجزء طُبِعَ في كلكتا على يد مولوي حسين عام ١٨٨٨م، لم يشر إلى أن نفس الرسالة قد طُبِعَت في كلكتا عام ١٨١٢ على يد أحمد اليمني الشرواني.

Brokelmann, Geschichte der Arabische Litteratur, G.I, 213, S. I, 380.

(٥٣) أحمد بن محمد اليمني الشرواني، **رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء**، (كلكتا: المطبعة الهندوستانية، ١٨٤٧م)، ص ٣-٢.

(٥٤) محسن مهدي، **ألف ليلة وليلة من أصولها العربية**، (ليدن: بيل، ١٩٨٤م)، ص ١٤، ١٥، ٨٩؛ بدوي، **موسوعة المستشرقين**، ص ٤٧٦-٤٧٧.

(٥٥) مهدي، **كتاب ألف ليلة**، ص ١٤.

مهدي، **كتاب ألف ليلة**، ص ١٥؛ بدوي، **موسوعة المستشرقين**، ص (56) ٤٧٧. قدم الدكتور محسن مهدي ملاحظات نقدية عديدة على نسخة الشيخ أحمد، وكذلك حول إجراءات تحرير النسخة وطباعتها. للمزيد انظر: Mahdi, The Thousand and One Nights, 91.

(٥٦) عبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم، **الدليل إلى المتون العربية**، (الرياض: دار الصميعي، ٢٠٠٠م)، ص ٢٩٨؛

Roebuck, The Annals of the College of Fort William, 41; Das, Sahibs and Munshis, 69-71, 155

(58) Mjud-ood-Deen Moohummud Feerozabadi, The Kamoos, or The Ocean; An Arabic Dictionary. Collected with many Manuscript copies of the Word and Corrected for the press by Shaykh Ahmud-oo Bno Moohummudin Alnsareyool Yumanee Yoosh Shirwanee, (Calcutta: Calcutta Press, 1817), p.2; Roebuck, The Annals, p. 41, 556.

(٥٩) حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.)، مج ١، ص ٨٠٩-٨١١.

(٦٠) أحمد خان. **معجم المطبوعات العربية**، ص ٣٧٤-٣٨٣؛

Roebuck, The annals, Appendix, p. 43.

(٦١) البغدادي، **هدية العارفين**، مج ١، ص ١٢٠؛

Brockelmann, Geschichte, Vol. SII, 24-25, 36.GII, 29

٦٢ سرڪيس، **معجم المطبوعات العربية**، مج ١، ص ١٧٣-١٧٤.

(63) Roebuck, The annals, p.553

(64) Roebuck, The Annals, p.583; Ibn Arab Shah, The history of Timour, Collected and Corrected for the Press by Shaykh Aḥmad al-Yamānī al-Shiwrānī, (Calcutta: Hindoostanee press, 1818), p. II.

(٦٥) ثمة إشارة إلى أن كلية فورت ولیم قامت عام ١٨١٨م بطباعة كتاب "A Descriptive Catalogue of the Oriental Manuscripts" (فهرس وصفي للمخطوطات الشرقية) لـ Colin Mackenzie و Horace Hayman Wilson (كولين ماكينزي وهوريس وهايمان) وأن الشيخ أحمد قد تولى عملية الإشراف على الطباعة. انظر:

للمزيد حول جهود المعلمين الهنود نشر التراث الأدبي العربي انظر: (37) Al-Mesri, Aḥmad al-Shirwānī al-Yamānī, p. 116-120.

(38) Das, Sahibs and Munshis, p. 38.

بالغ المستشرق لومسندن في وصفه للمعلمين الهنود بتلك الأوصاف، قد يكون صحيحاً، بل ومنطقيّاً، أن مستوى لغتهم لم يكن بمستوى لغة الناطق الأصلي بها، ولكن من الصعب أيضاً إنكار معرفتهم بها، خاصة وأن العديد منهم قد بذلوا جهوداً قيمة في تحرير ونشر العديد من المصنفات العربية، ويبدو واضحاً أن نقد لومسندن كان بعد رحيل الجيل الأول من المعلمين الهنود، الذين ساهموا في تأسيس قسم اللغة العربية، وكان لهم دوراً جوهرياً في نشر التراث العربي. انظر:

Al-Mesri, Aḥmad al-Shirwānī al-Yamānī, p. 116-120.

(٣٩) اليمني الشرواني، **العجب العجائب**، ٧٤.

(٤٠) اليمني الشرواني، **العجب العجائب**، ٩٤.

(٤١) هو نجم الدين بن علي بن حامد الكاكوري، أحد علماء الهند في القرن التاسع عشر، وقاضي قضاة مدينة كلكتا لمدة ٢٥ سنة، وكان القاضي ممن عمل في كلية فورت ولیم في قسم اللغة الفارسية، وله العديد من المؤلفات باللغة العربية. كانت وفاته (١٢٢٩هـ/١٨١٤م). الندوي، **نزهة الخواطر**، مج ٧، ص ١١٢١؛ عبد الرزاق البيطار، **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، (بيروت: دار صادر، ١٩٩١م)، مج ٣، ص ١٢٠٣-١٢٠٤.

(42) Al-Mesri, Aḥmad al-Shirwānī al-Yamānī, p. 172-173.

(43) اليمني الشرواني، **العجب العجائب**، ص ٧٠-٧١.

(44) Roebuck, Annals, p. 284, 378, 476,

"طبقات (45) قام الشيخ أحمد بتوفير المصنفات الأدبية التالية: كتاب ربيعة (ت. ٩٢٢/٥٣١م)، وكتاب "طبقات بن الأندلس" لـ عثمان شعراء الرّاخر"، وكتاب "العباب الأنباري (ت. ٧٧٠هـ/١١٨١م الدين الأندلسي) لـ كمال الصاغاني (ت. ١٠١٧/١٦٠٨م)، وكتاب "أنوار الشرف محمد بن لـ الحسن شمس الوافي" لـ إسماعيل بن المقرئ (ت. ٨٣٧/١٤٣٣م)، وكتاب "الحميري سعيد بن نشوان ودواء كلام العرب من الكلوم" لـ العلوم (١١٧٨/٥٥٧٣م)، وكتاب "الدر اللقيط في أغلاص القاموس المحيط" لـ داؤود زاده (ت. ٧٣٣هـ/١١٧٨م)، وكتاب "شرح الكافية" لـ الإمام محمد بن القاسم بن محمد (ت. ١٠٧١هـ/١٦٠٨م). اليمني الشرواني، **العجب العجائب**، ص ٧٠-٧١.

Al-Mesri, Aḥmad al-Shirwānī al-Yamānī, p. 96.

(٤٦) الشرواني عباس، **تاريخ آل أمجاد**، ص ١٩.

Mojibur Rahman, History of Madrasa Education: With Reference to Calcutta Madrasah and W.B. Madrasah Education Board, (Calcutta: Rais Anwar Rahman and Brothers, no date), p281.

(٤٧) جمشيد أحمد، "أوجد الدين البلجرامي ومساهمته في الآداب العربية"، مجلة ثقافة الهند، (٢٠٠٦م)، العدد ٥٧، ص ١٥٢؛ أحمد بن محمد اليمني الشرواني، **حديقة الأفراح لإزالة الأثر**، (القاهر: المطبعة العامرة، ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م)، ص ٤٢٠.

الندوي، **نزهة الخواطر**، ج ٧، ص ٩٣٧-٩٣٨. (48)

(٤٩) الندوي، **نزهة الخواطر**، ج ٧، ص ١١١٧، ٩٦٣؛ محمد رحمان علي، تذكرة علماء هند، (مطبعة الجمعية التاريخية الباكستانية، ١٩٦١م)، ص ٥١٣.

(٥٠) الشيخ اليمني، **الجوهر الوقاد**، ص ٣٠.

وفي زيارتي العلمية للهند سنة ٢٠١٢م، التقيت بشخصيات هندية في الجامعة العثمانية في حيدر أباد، وقد أكدوا لي بأن كتاب نفحة اليمن ما يزال يُدرس في بعض مدارس التعليم الديني في الهند وباكستان، والتي تهتم بتعليم اللغة العربية، كما أن الكتاب يباع على نطاق واسع في المكتبات المتخصصة لبيع المناهج التعليمية، وبالفعل اشتريت نسخة منه من إحدى تلك المكتبات في حيدر أباد. الباحث.

(٨٣) أحمد بن محمد اليميني الشرواني، **نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن**، (بومباي: مطبع فتح الكريم، ١٨٨٠م)، ص ٢.

الشيخ اليميني، **نفحة اليمن**، ٣-٦٣. (84) Roebuck, Annals of the college of Fort William, 43; Das, Sahibs and Munshis, 155.

(٨٦) اليميني الشرواني، **العجب العجائب**، ص ٣.
(٨٧) ومن منظور نقدي، تعتبر مقارنة الشيخ أحمد كتاب العجب العجائب والعناوين الأخرى، نوعاً من الاعتزاز الافتخار الذاتي بعمله، وليس بالضرورة أن يكون مستوى العمل يصل بالفعل إلى قيمة تلك الأعمال. اليميني الشرواني، **العجب العجائب**، ص ٣-١.

(٨٨) اليميني الشرواني، **حديقة الأفراح**، ص ٥٠٥.
Roebuck, Annals of the College of Fort William, p.379

(٨٩) اليميني الشرواني، **حديقة الأفراح**، ص ٤.
(٩٠) اليميني الشرواني، **حديقة الأفراح**، ص ٥-٤.
(٩١) اليميني الشرواني، **العجب العجائب**، ص ٣.
(٩٢) اليميني الشرواني، **العجب العجائب**، ص ٨٨.
(٩٣) اليميني الشرواني، **حديقة الأفراح**، ص ٢٠٧.
(٩٤) Desnavī, Bholpal aūr Ghālīb, ١٩.

(٩٥) أشار البروفيسور حسين العمري إلى أسماء بعض طلاب العلم الهنود الذين تتلمذوا على يد الإمام الشوكاني، وحازوا منه على إجازات علمية، كما تناولت البروفيسورة الألمانية كلوديا بريجيل سيرة القاضي حسين بن محسن وأخيه القاضي زين العابدين بن محسن الأنصاري، قضاة مدينة الحديدة، وهجرتهم إلى بلاد الهند، والأدوار التي لعبوها في مجالي القضاء والتعليم في مدينة بهوبال الهندية، وانتشار أفكار الإمام الشوكاني في الهند عن طريق تلاميذه وأتباعه، وخاصة السيد حسن القنوجي. للمزيد، انظر: Al-Amri, The Yemen in the 18(th) & 19(th) centuries.

Preckel. "Islamische Bildungsnetzwerke und Gelehrtenkultur im Indien des 19. Jahrhunderts".

Mammadova, Tanınmayan müəllif əl-Şirvani, Footnote 31, p.10.

(٦٦) أحمد بن محمد اليميني الشرواني، **المناقب الحيدرية**، (لكناء: المطبعة السلطانية المباركة، ١٨٢٠م)، ص ٣؛ محمد علي تربيات، **دشمدانان أذربيجان**، (تبريز- طهران: دار الفردوسي للنشر ١٨١٨م)، ص ٣١.

(٦٧) كان غازي الدين حيدر يتبع سياسة سلفه النواب آصف الدولة في جذب العلماء والشعراء والفنانين إلى لكانا، لتكون عاصمة دينية للشبيعة في الهند على غرار بهوبال العاصمة السنية، علاوة على أن هذا الأمر يأتي في إطار التعاون بين الحكومة البريطانية في الهند وولاية أوده.

(68) Moinuddin Aqeel, "Commencement of Printing in the Muslim World: A View of Impact on Ulama at Early Phase of Islamic Moderate Trends", in, Kyoto Bulletin of Islamic Area Studies, 2-2 (March 2009), p.14-15. Accessed in October 2024.

http://nihcr.edu.pk/Latest_English_Journal/2.%20Objectification%20of%20Islam,%20M%20Farooq.pdf

(٦٩) اليميني الشرواني، **المناقب الحيدرية**، ص ٩٤.

(70) Annemarie Shammel, "Islamic Literature of India," in, A History of India Literature, ed. by Jan Gonda, (Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 1973), Vol. VIII, p. 251-252

وهناك اشارات أن سبب إغلاق المطبعة كان نتيجة خلاف بين غازي الدين حيدر والشيخ أحمد، الأمر الذي دفع غازي الدين إلى إصدار قرار اغلاقها. انظر:

Mammadova, Tanınmayan müəllif əl-Şirvani, p8

(٧١) عباس الشرواني، **تاريخ آل أمجاد**، ص ١٠٧؛ تربيات، **دشمدانان أذربيجان**، ص ٣١.

(٧٢) اليميني الشرواني، **منهج البيان**، ص ٥.

(٧٣) اليميني الشرواني، **منهج البيان**، ص ٥.

(٧٤) اليميني الشرواني، **منهج البيان**، ص ٨-٥.

(٧٥) فاطمي، **محبوب سير**، ص ١٤-١٥؛ الشرواني عباس، **تاريخ آل أمجاد**، ص ١٠٨.

(76) Claudia Prekel, Begums of Bhopal, (New Delhi: Lotus Collection, 2000), p.45.

(77) Al-Mesri, Ahmad al-Shirwānī al-Yamānī, p.155.

(٧٨) فاطمي، **محبوب سير**، ص ١٥؛ عبد القوي دسنوي، **بهوبال أور غالب**، (بهوبال: كلية بهوبال، ١٩٦٩م)، ص ٢١.

(٧٩) اليميني الشرواني، **نفحة اليمن**، ص ١.

(٨٠) اليميني الشرواني، **العجب العجائب**، ص ٩٤.

(81) Roebuck, Annals, p.284.

(٨٢) Mohammed Farooq, 'Objectification' of Islam: A Study of Pakistani Madrassah Texts /Latest English Journal, Nr 2, p45 Accessed Oktober 2024: under the link: http://nihcr.edu.pk/Latest_English_Journal/2.%20Objectification%20of%20Islam,%20M%20Farooq.pdf

المحبوبي أحرضان

سيرته وتصوره للمسألة الأمازيغية في المغرب

د. عبد الفتاح أيت أدري

باحث في التاريخ المعاصر والراهن
دكتوراه من جامعة الحسن الثاني
الرباط – المملكة المغربية



ملخص

يعتبر المحبوبي أحرضان من أبرز الزعماء السياسيين المغاربة، الذين راكموا تجربة ومساراً سياسياً مهماً، فقد عاصر ثلاث ملوك وتقلد مناصب سياسية مهمة. وكثر الحديث عنه في مناسبات كثيرة. وتكتسي هذه الشخصية أهمية بالغة في التاريخ الراهن للمغرب، لعدة أسباب أولها تعدد المهام التي تقلدها عبر حياته وأهميتها، من ضابط في الجيش الفرنسي، وبعده في جيش التحرير، مروراً بتعيينه عاملاً على منطقة الرباط، وتقلده لعدة مناصب وزارية (وزير الدفاع، وزير الفلاحة، وزير البريد..). وقيادته لحزب الحركة الشعبية، ثانياً مواقفه وتصريحاته المتضاربة حول كثير من القضايا: حل جيش التحرير، انتفاضة عدي ويهي، تأسيس الحركة الشعبية، مقتل عباس المساعدي، الأمازيغية.... ثالثاً ارتباط شخصيته العسكرية والسياسية بجانب آخر، وهو أحرضان الفنان حيث يتعاظم صاحبنا للرسم والشعر وتأليف الحكايات، وله إصدارات ومعارض في هذا المجال. سنحاول في هذا المقال أن نبين مسارات من حياته، مع تسليط الضوء على علاقته بموضوع الأمازيغية.

كلمات مفتاحية:

المحبوبي أحرضان، الحركة الشعبية، الأمازيغية، الحركة الشعبية، تاريخ المغرب الحديث

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٩ أكتوبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٣٠ نوفمبر ٢٠٢٤



10.21608/kan.2024.332264.1178

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الفتاح أيت أدري، "المحبوبي أحرضان: سيرته وتصوره للمسألة الأمازيغية في المغرب". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد التاسع والستون: يونيو ٢٠٢٥. ص ١٥٢ - ١٦٣.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: aitdraabelfatah@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٢٠٢٥ تحت رخصة المشاع المُنسب ٤.٠ (CC BY 4.0) (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

أسطوري، حيث يقول إنه يوم ولادته حل بمنزلهم ضيوف لا يعرفون من أين أتوا، وبعد إكرامهم لاحظوا حزناً يحيط بأهل البيت، ولما سألوهم أخبروهم أن جميع أولادهم يموتون بعد ولادتهم، ويخافون أن يكون نصيب المولود الجديد مثلهم، فنصحهم الضيوف بأن يسموه أحرضان (أي المتوحش)، ويبيعوه في السوق تم تشفع فيه أمه، وقدموا لها قطعة فضية على أحد وجهيها نسر، وطلبوا منها أن تضعها في يد المولود تم ترميها في النهر^(٣).

أما بالنسبة لمساره، فقد حفظ القرآن الكريم و المتون، ومنه المرشد المعين، بهدف أن يسير فقيهاً، بيد أن زيارة القبطان الفرنسي "دي بوتلي" (De Butler) وزوجته لقريته، وإعجاب هذه الأخيرة بإتقان أحرضان للعد بالفرنسية، جعلها تطلب من زوجها بناء مدرسة لأطفال القرية، فأسس مدرسة سميت بـ Ecole de Fortune^(٤)، حيث حصل منها أحرضان على شهادة الدروس الابتدائية، وانتقل للدراسة بكوليج أزرو، لكنه لم يلبث فيه كثيراً، وفضل متابعة دراسته بالمدرسة الحربية بمكناس حيث تخرج منها برتبة ملازم عام ١٩٤٠ وعمره يناهز العشرين سنة.

خلال الحرب العالمية الثانية انخرط أحرضان ضمن "القناصة المغربية" les tirailleurs Marocains، وشارك في عدة معارك بتونس وإيطاليا، عاد بعدها إلى المغرب متظاهراً بالمرض ومتردداً على المستشفى حتى حصل على رخصة طويلة الأمد، وفي نفس الوقت اتصل بـ "ادريس بن عمر" الذي كان ينوي الالتحاق بالجيش، وبعد مذاكرة دارت بينهما، حل أحرضان محله في الوظيفة التي كان يشغلها، فأصبح يشرف على "دار العسكري" (التابعة للقوات الفرنسية بالرباط) كمحافظ على حقوق معطوبي الحرب من أبناء شمال إفريقيا^(٥).

مكث أحرضان في دار العسكري إلى نهاية الحرب العامة الثانية، بعدها ذهب إلى فرنسا والتحق بكتيبة "الجنرال ميرك"، وفي مدينة "نيس"، ستكون مهمة أحرضان هي الإشراف على كل ما هو ثقافي كالرسم والموسيقى والمسرح، وربما كانت لهذه المهمة الأخيرة أثراً بليغة على الشخصية الفنية للرجل كرسام تجريدي في وقت لاحق. لم يطل به المقام حتى عاد للمغرب، وتزوج

يعتبر المحجوبي أحرضان (حوالي ١٩٢١/١٩٢٢ - ٢٠٢٠م) من أبرز الزعماء السياسيين المغاربة، الذين راكموا تجربة ومساراً سياسياً مهماً، فقد عاصر ثلاث ملوك وتقلد مناصب سياسية مهمة. وكثر الحديث عنه في مناسبات كثيرة. وتكتسي هذه الشخصية أهمية بالغة في التاريخ الراهن للمغرب، لعدة أسباب أولها تعدد المهام التي تقلدها عبر حياته وأهميتها، من ضابط في الجيش الفرنسي، وبعده في جيش التحرير، مروراً بتعيينه عاملاً على منطقة الرباط، وتقلده لعدة مناصب وزارية (وزير الدفاع، وزير الفلاحة، وزير البريد...) وقيادته لحزب الحركة الشعبية، ثانياً مواقفه وتصريحاته المتضاربة حول كثير من القضايا: حل جيش التحرير، انتفاضة عدي ويهي، تأسيس الحركة الشعبية، مقتل عباس المساعدي، الأمازيغية.... ثالثاً ارتباط شخصيته العسكرية والسياسية بجانب آخر، وهو أحرضان الفنان حيث يتعاطى صاحبنا للرسم والشعر وتأليف الحكايات، وله إصدارات ومعارض في هذا المجال.

سنحاول في هذا المقال أن نبين مسارات من حياته، مع تسليط الضوء على علاقته بموضوع الأمازيغية. انطلاقاً من الأسئلة التالية: ما هي الظروف التي ساهمت في تكوينه؟ وما أبرز المناصب التي تقلدها؟ ما دوره في جيش التحرير المغربي؟ ما سياق تأسيسه للحركة الشعبية؟ كيف يتمثل أحرضان المسألة الأمازيغية؟ وما جهوده لصون الثقافة الأمازيغية؟ هل حقاً يمكن اعتبار تأسيسه للحركة الشعبية وسيلة منه للدفاع عن الأمازيغية والأمازيغ؟

أولاً: المحجوبي أحرضان النشأة والمسار والأدوار

١/١- حياته وتكوينه

ليس لأحرضان تاريخ ميلاد مضبوط، حيث يرجعه في كتاب الزايع إلى بداية العشرينات^(١)، بتغزوت حدو إسماعيل بتورضوين، ناحية ولماس، أما والدته فتتتمي إلى قبيلة "أيت حاتم"^(٢). يحيط أحرضان ولادته بطابع

لجمع المساعدات والاستعداد لنقل الكفاح المسلح من المدن إلى المناطق الجبلية، واتصلا بعبد الكبير الفاسي الذي أعطى لأحرضان علامة تمكنه من الاتصال بأفراد المقاومة بمدينة الدار البيضاء، وقد لاحظ الخطيب أن أحرضان " تميز خلال فترة الكفاح بموقفه الرافض للتوقيع مع القياد على نفي محمد الخامس طيب الله ثراه، ومساهمته في المقاومة بجلال الأطلس... وبعد الاستقلال وجدنا أنفسنا (يقول الخطيب) من جديد في خندق واحد لمواصلة الجهاد الأكبر... فكان لابد من الاصطدام مع أعداء التعددية والديموقراطية والحريات العامة" (١٢).

لقد تزامنت العمليات التحريرية التي شنها أفراد المقاومة وجيش التحرير على المستعمر الفرنسي في مواقع مختلفة من البلاد، بقبول ممثلين للجانب المغربي، الجلوس إلى طاولة محادثات " إيكس لبيان"، التي بدأت أشغالها في ٢٤ غشت ١٩٥٥، وهو ما اعتبره قادة جيش التحرير بمثابة الخيانة العظمى للمغرب والمغاربة، ومع هذا الموقف الأخير يتماشى رأي أحرضان كما يصرح في " الزايغ": " كنت أتبني موقف جيش التحرير المغربي الرافض لهذه المفاوضات، باعتبار أن أي مفاوضات مع فرنسا يجب أن يقوم بها جلالة الملك محمد الخامس" (١٣).

بعد استقلال المغرب، شارك أحرضان في تأسيس جيش تحرير الصحراء، لكنه يعتبر تدخل حزب الاستقلال حاد بالجيش عن أهدافه التحريرية (١٤) فكان من الطبيعي حدوث انشقاق في الرؤى وصراعات حادة في صفوفه. ففي غياب محمد الخامس الذي كان حينها بأمريكا ودون استشارته، تم الهجوم على "إفني" بتخطيط من "البصري" و"المهدي بن بركة" اللذين كانت دوافعهم مريبة، كانت إسبانيا تدعم هذا الجيش وساعدته على الوصول إلى " اتر" بموريتانيا، إلا أن الزحف على " إفني" جعلها تتراجع متحالفة مع فرنسا، فنشب صراع حاد بين قيادات الجيش، وعلى لسان أحرضان: "كان جهادنا هناك امتداداً لأعمال جيش التحرير المغربي المجيدة، أما خصوصاً من قادة الحزب الوحيد، فقد كانوا يسعون للانتقام والترهيب، مستعملين

بفتاة فرنسية اسمها مريم رغم معارضة قيادة الجيش" (٦). في سنة ١٩٤٩، كان والده القائد "محمّد اومحمّد" على خلاف كبير مع سلطات الحماية، فكتب للملك يطلب الاستقالة، واقترح ابنه أحرضان خلفاً له، فعزل الفرنسيون والده وكلفوا الابن بالقيادة على سبيل التجربة لمدة أربع سنوات، قضى منها سنتين ثم طرده الفرنسيون بدوره، بدعوى المس بأمن الدولة (٧).

٢/١-أحرضان وجيش التحرير

يرجع أحرضان بداية اهتمامه بالعمل الوطني، إلى فترة تواجده بدار العسكري، حيث التقى بالرباط، بالفقيه بلعربي العلوي، حيث يقول: "ما إن جالسته حتى أصبحت بمثابة ابنه أأزمه طويلاً، أتعلّم منه أصول الوطنية الحقّة" (٨). كما يورد رواية حول لقاءه بمحمد بن يوسف قبل حادثة النفي بثلاثة أيام، أكد فيه للسلطان عن استعداده للكفاح في سبيل العرش إلى الممات (٩). كما يورد كونه أسس تنظيمًا يتكون من سبعة ضباط مغاربة وهم ميمون أوبجا، ولوباريس، وحسن اليوسي، وعبد الغني قباچ، وأوقفير، حيث التقوا في منزل هذا الأخير وأقسموا على دمائهم بعد مزج عينات منها serment du sang، من أجل الكفاح في سبيل العرش (١٠).

وحسب تصريحات أحرضان في "الزايغ"، فقد كانت له صلات وثيقة بقيادات جيش التحرير، كحسن صفّي الدين وعباس المساعدي، الذي كان كاتباً لدى والده قبل انخراطه في المقاومة، والذي كان اغتياله مثاراً للجدل، بسبب الغموض الذي تلبس حادث الوفاة (١١). هذا، علاوة على صلته بالدكتور عبد الكريم الخطيب، الذي أورد في تقديمه لكتاب "الزايغ"، أن ثمة علاقات وطيدة بينه وأحرضان بشأن تنظيم جيش التحرير، فقد حث الخطيب كلا من منصور وبونعيلات والشهيد الزرقطوني -أثناء لقاءهم الأول- بالاستعانة بخبرة أحرضان الذي كان ضابطاً في الجيش الفرنسي وكان مؤمناً بالقضية الوطنية. وفي ذات التقديم، يشير الخطيب إلى علاقة التعاون التي جمعت بينهما بعد تعارفهما عبر وساطة إدريس المحمدي -، بحيث أسسا شركة وهمية لتغطية تلك العلاقة، كما سافرا معا - خلال رحلة دامت ثلاثة أشهر - إلى الدول الأوروبية: كفرنسا، وألمانيا، وسويسرا،

جيش التحرير^(١٨)، فبعد الاجتماع الذي ترأسه كل من الحسن اليوسي وعدي أوبيهي بقصبة موحى وسعيد، حول إمكانية تأسيس " حزب أمازيغي"، اتصل عبد الكريم الخطيب بصديقه المحجوبي أحرضان متوجساً من فكرة هذه "الحركة" القائمة على أساس عرقي، فاتفقا معا على تنسيق الجهود لتأسيس حزب الحركة الشعبية^(١٩).

اختلف أحرضان مع الخطيب وباقي المؤسسين حول مسألة التوقيع على النداء الأول للحركة الشعبية، ومن يقدم الملف باسمه إلى الدوائر المختصة، وفي الأخير ظهر اسم حدو أبرقاش، الذي وقع النداء وقدم الملف إلى الدوائر المختصة، ويرجع سبب اختياره لكونه غير مرتبط بالإدارة المغربية. ثم تكونت اللجنة السياسية من أحرضان والخطيب وعبد الله الوكوتي والشرادي وبوخريطة والحسين حسون والفقيه الضرباني وبلحسن الدادسي وحدو أبرقاش وعبد الله الصنهاجي. وأعلن خلال شهر أكتوبر من سنة ١٩٥٧ عن تأسيس الحزب الجديد.

بقي الحزب الجديد يعاني من نقص في المشروع الوطنية، خصوصاً بعد نعتة من قبل حزب الاستقلال بحزب الإقطاعيين والمتعاونين مع الاستعمار والخونة، وحتى الخطيب نفسه اعترف بأن مجموعة من رجال السلطة السابقين والمتعاونين مع الاستعمار حاولوا الانضمام إلى الحركة الشعبية لضمان مستقبلهم السياسي، ولحمايتهم من حزب الاستقلال، رغم أن بعضهم سبق لهم أن قاموا بمضايقة أعضاء ينتمون للحركة الشعبية، مما جعل عبد الكريم الخطيب لا يقبل انضمام الجميع ورفض فئة منهم^(٢٠).

كانت لجنة من مفتشي حزب الاستقلال قد هيأت ٤٢٢٦ ملف لأشخاص تعاونوا مع السلطات الاستعمارية^(٢١)، لم يحاكم منهم سوى ٢٧٠ شخصاً في ٢٨ مارس ١٩٥٨، لكن عبد الكريم الخطيب لم يوافق على هذه الإجراءات بدعوى أن محمد الخامس أصدر عفواً^(٢٢) على الجميع، مما يزكي اتهامات بعض خصومه بأنه دافع وحمى بعض الخونة^(٢٣)، وربما هذه الوضعية هي التي دفعت قيادات الحركة الشعبية لاستغلال سمعة عباس المساعدي الوطنية، ونقل جثته في ذكرى انطلاق

في ذلك أبشع أنواع الترويع كالاختطاف وقلع الأذنين^(١٥).

إن تاريخ المغرب في السنوات القليلة التي تلت الاستقلال، طبعه صراع مرير بين قيادة حزب الاستقلال والذي يعتبر نفسه ممثلاً للحركة الوطنية، وقيادة جيش التحرير الذي يرى أن رجوع السلطان من المنفى ونيل المغرب استقلاله مرتبط بعملياته الكفاحية، وأخيراً المؤسسة الملكية الحاملة لشرعية تاريخية ودينية، هذا الصراع ومختلف التجاذبات التي واكبته عجلت بحل جيش التحرير وإعلان عناصر من قيادته تأسيس حزب الحركة الشعبية.

٣/١- أحرضان وتأسيس الحركة الشعبية

يُرجع أحرضان تأسيس الحركة الشعبية إلى تلك المجازر التي كان يرتكبها حزب الاستقلال في حق المواطنين، لذلك كان من اللازم حسب رأيه النضال ضد الحزب الوحيد^(١٦). على مستوى إكراهات التأسيس، كان الحسن اليوسي في حكومة البكاي الأولى (٧ دجنبر ١٩٥٥-٢٥ أكتوبر ١٩٥٦) "ممثلاً لمصالح الأمازيغ"، ينظر بعين التوجس والحذر إلى حزب الاستقلال، وحين طالب هذا الأخير في غشت ١٩٥٦ بتشكيل الحكومة المنسجمة، رحل اليوسي إلى القبائل الأمازيغية، ونظم حملته الأولى وقد قال إن مثل هذه الأحزاب: "تتسنى أن أكبر قدر من السكان في بلادنا هم من البادية، وأن العنصر الذي أنتج مفاخر بلادنا نبع من البادية (...)" [وأنه] ليس من مصلحة الشعب أن توكل جميع المسؤوليات السياسية والاجتماعية والاقتصادية لفر من الرجال يتجاهلون القبائل والبادية^(١٧).

يتضح إذن، أن الحركة المناهضة لحزب الاستقلال اتخذت منذ ارهاصات الأولى طابعاً "إثنياً"، باتهام حزب الاستقلال بكونه حزباً "مدينيّاً" يتجاهل مصالح القرويين وخاصة العناصر الأمازيغية. وهو الأمر الذي حدا باليوسي إلى التفكير في إيجاد هيئة سياسية تمثل هؤلاء الأمازيغ، خاصةً والبادية عامة، لكن سرعان ما انتقلت زعامة هذه الحركة إلى المحجوبي أحرضان -الذي كان يشغل حينها منصب عامل على الرباط- إلى جانب صديقه الدكتور عبد الكريم الخطيب القائد السابق في

نقل جثمان بطريقة غير قانونية والمس بأمن وبسلامة الدولة^(٢٩)، كانت ظروف اعتقالهم جيدة من حيث المعاملة والغرفة والمأكل والفراش، ثم نقلوا في مجموعة من السيارات الخاصة إلى فاس، وبعد توقف في إدارة الأمن رحلوا إلى سجن عين قادوس ليوضعوا في إحدى غرف إدارة السجن، حيث كان قاضي التحقيق محمد الخناتي يأتي للتحقيق معهم.

ظهرت بعد الاعتقال حركات عصيان في البوادي خلال مدة زادت عن ثلاثة أشهر شملت كل من منطقة الريف (بني ورياغل واكزنانية) تحت قيادة موحى أوحود، والأطلس المتوسط (ولاس منطقة أحرضان) تحت قيادة بن الميلودي، فقد وزعت منشائر تهدد بزحف القبائل على فاس إذا لم يطلق سراح المعتقلين الثلاثة^(٣٠). حوّل كل من أحرضان والخطيب والوكوتي سجنهم إلى منتدى فاستقبلوا عددا من السياسيين الذين كانوا يزورونهم لتأمين المستقبل، ومن ثمّ "إذا اعتقد بعض الاستقلاليين أن تلك الاعتقالات سوف تخنق الخطيب ومن معه في المهد فإن العكس هو الذي حصل"^(٣١).

أثناء وجود أحرضان بسجن عين قادوس بفاس أصدر محمد الخامس يوم ٨ ماي ١٩٥٨ "العهد الملكي"^(٣٢)، وبعد ما يزيد عن خمسين يوما من الاعتقال أُفرج عن أحرضان والخطيب والوكوتي، فأحضرت سيارات إلى باب السجن لنقلهم إلى العاصمة، لكن الدكتور الخطيب طلب أن يبيتوا تلك الليلة بفاس عند خالته حرم الحاج الفاطمي بنسليمان^(٣٣)، التي كانت تقيم عندها والدته طيلة المدة التي قضاهما بالسجن، وفي الغد سافروا إلى الرباط متوجهين في قافلة إلى منزل محمد الغزاوي مدير الأمن - وهي زيارة تطرح أكثر من سؤال باعتباره أول شخصية قاموا بزيارتها بعد الإفراج عنهم- الذي تناولوا معه وجبة الفطور، وعند الخروج من باب منزل مدير الأمن وجدوا أحمد بنسودة وعبد الهادي بوطالب ينتظرانهم، لكن أحرضان وعبد الكريم الخطيب استقبلاهما استقبالا جافاً، كما أن فاطمة الحصار بنت أخت الدكتور عبد الكريم الخطيب التي كان منزلها قريباً من منزل الغزاوي قد هيئت لخالها حفلاً، وعند وصولهم إلى الباب دخل الخطيب

عمليات جيش التحرير. فمع اقتراب يوم الثاني من أكتوبر سنة ١٩٥٨ الذي تحل فيه ذكرى انطلاق عمليات جيش التحرير، فكر قادة الحركة الشعبية في إحياء هذه الذكرى في إحدى معاقلها بأجدير بقبيلة اكزنانية بشمال المغرب، وقرروا نقل جثمان محمد بنعبد الله (الملقب بعباس المساعدي) من محل دفنه الأول بفاس إلى أجدير لدفنه مع بقية الشهداء، وكان عباس المساعدي قد "تحول في التصور الشعبي إلى شهيد ذهب ضحية طموحات وتطلعات هيمنة حزب الاستقلال"^(٣٤).

وجهت رسالة للملك يوم ٢٣ شتبر ١٩٥٨ تطلب السماح بنقل الجثمان^(٣٥)، كما تقدم المحجوبي أحرضان وعبد الكريم الخطيب وعبد الله الوكوتي بطلب إلى عامل فاس الغالي العراقي، الذي استدعاهم لمقر العمالة وأبلغهم برفض وزارة الداخلية لطلبهم عبر قرار كتابي، وقع عليه عبد الكريم الخطيب^(٣٦). ولكن في الصباح الباكر لليوم الموالي فوجئ الغالي العراقي بخبر نقل الجثة رغم أنه اتخذ جميع الإجراءات-حسب روايته- لمنع ذلك خصوصا الحراسة الأمنية للمقبرة، لكن مدير الأمن سحب قواته وسمح بنقل الجثمان تحت ضغط جهات عليا^(٣٧).

أُخرجت الجثة ووُضعت في سيارة معدة لذلك واتجه الجميع نحو أجدير حيث كان مشهدا أكثر ضخامة نظراً للعدد الكبير من الناس الذين حضروا، لأن المنظمين اختاروا يوم السوق الأسبوعي، وهو ما اعتبرته قيادات الحركة الشعبية تعبيراً على رفض سكان البادية لسياسة الحزب الوحيد.

أثناء إعادة دفن الجثمان وصلت قوات الجيش الملكي من تازة، بقيادة العقيد علوش والمفتش العام لوزير الداخلية المهدي الصقلي وممثل عامل الإقليم يحيى بن تومرت، ورغم بعض المناوشات بين الحاضرين ورجال السلطة تمت عملية الدفن، مما أعطى الطابع بأن الأمر كان أكبر من منفذيه "لأن جهات عليا هي التي خططت لهذه العملية"^(٣٨).

بعد عودة القيادات إلى مدنها، اجتمع الملك في اليوم الموالي مع كل من مفتش وزارة الداخلية المهدي الصقلي والغالي العراقي عامل فاس، وخرج الاجتماع بقرار اعتقال أحرضان والخطيب وعبد الله الوكوتي بتهمة

استقالتهما قبلت بالفرض، وقبل استفتاء ١٩٦٢ عين أحرضان وزيرا للفلاحة والإصلاح الزراعي في ٢٠ غشت^(٤١)، والخطيب وزيرا للصحة في ١٨ أكتوبر مكان يوسف بلعباس من حزب الاستقلال، ونتج عن مؤتمر مراكش انتخاب عبد الكريم الخطيب رئيساً وأحرضان أميناً عاماً للمجلس الوطني بدل اللجنة المركزية.^(٤٢) كانت الاشتراكية الإسلامية قاعدة برنامج الحركة الشعبية، الذي قدم أمام المؤتمر الأول بالرباط والمؤتمر الثاني بمراكش في أكتوبر سنة ١٩٦٢، وكان الحزب يسعى من خلال هذا المبدأ إلى الدفاع عن مصالح البوادي، فجاء مثلاً في بيان مؤتمر مراكش ما يلي: "اشتراكية في إطار اشتراكية إسلامية ووفق ميول الشعب المغربي التي تشكل أراضي الجموع و التوزيع"^(٤٣) بقايا بليغة"^(٤٤)، كما ظلت المساندة غير المشروطة للملكية عقيدة حزب الحركة الشعبية، ففي مؤتمر سنة ١٩٥٩ تحدث الخطيب عن التعلق بالعرش قائلاً: "الحافظ الذي كان وراء نضال جيش التحرير الذي كان وفاؤه ومشاعره الدينية محط احتقار للمثقفين المتأوربين"^(٤٥).

٤/١- أحرضان ومساره السياسي بعد الاستقلال

في أكتوبر أو دجنبر ١٩٥٩ عقد حزب الحركة الشعبية مؤتمره التأسيسي وأصبح المحجوبي أحرضان أميناً عاماً له. كما كان عضواً بمجلس النواب منذ ١٩٧٧. وفي دجنبر ١٩٨٠، عين عضواً بمجلس الوصاية. وفي يونيو ١٩٩٧، فاز أحرضان في الانتخابات البلدية. دخل البيت الوزاري في أول حكومة يرأسها الراحل الملك الحسن الثاني (٢ يونيو ١٩٦١-٥ يناير ١٩٦٣)، شغل خلالها منصب وزير للدفاع الوطني، وحافظ على نفس المنصب خلال الحكومتين التاليتين، أي طوال ثلاث حكومات متتالية، الحكومة السادسة والسابعة والثامنة. في الحكومة التاسعة كان وزيراً للفلاحة والإصلاح الزراعي، وخلال مرحلة (١٩٧٧ إلى ١٩٨٥)، تقلد المحجوبي أحرضان أربع حقائب وزارية، هي على التوالي: "وزير الدولة المكلف بالبريد والمواصلات خلال الحكومة الرابعة عشر (١٠ أكتوبر ١٩٧٧-٢٧ مارس ١٩٧٩)، ونفس المنصب خلال الحكومة الخامسة عشر (٢٧ مارس ١٩٧٩-٥ نونبر ١٩٧٩)، ثم "وزير الدولة

وأحرضان بينما بقي عبد الله الوكوتي بالخارج مع بوطالب وبنسودة"^(٤٦).

عندما خرج القادة الثلاثة من السجن كان ظهور الحريات العامة^(٤٧) قد خرج إلى الوجود، فعقدوا ندوة بفندق حسان بالرباط، بحضور بارز لمبارك البكاي، فأكد كل من أحرضان والخطيب بأن "المغرب قد استقل بفضل منطقة الريف التي خرج منها جيش التحرير المغربي، والريف لا يفهم لماذا لا يوجد له ممثلون له في الحكومة".^(٤٨) وقد فهم عبر هذا التأكيد من قبل أحرضان والخطيب بأنهما يطمعان في مناصب وزارية في حكومة عبد الله إبراهيم. وقد أشار أحرضان إلى أن الملك عرض عليهما المشاركة في الحكومة إلا أن عبد الكريم الخطيب هو الذي رفض، "ثم سافر كل من الخطيب وأحرضان إلى إسبانيا لأسباب غامضة، ربما حتى تهدأ الأوضاع ويوضع حد للأزمة التي تسببها فيها بالريف وتطلبت تدخلا عسكريا قويا بقيادة ولي العهد"^(٤٩).

حصلت الحركة الشعبية على الاعتراف القانوني في فبراير سنة ١٩٥٩، لكن المؤتمر التأسيسي لم ينعقد إلا ما بين ٩ و ١١ نوفمبر من سنة ١٩٥٩ بالغرفة التجارية بالرباط، فانتخب مجلسا وطنيا صوت على الدكتور الخطيب رئيسا له وعين أحرضان أميناً، وقد عانت الحركة الشعبية خلال هذه المرحلة من صعوبات مالية باستمرار، تدخل القصر والخطيب للتخفيف منها^(٥٠). عقد الحزب المؤتمر الثاني بمراكش الذي اشتهر بـ "مؤتمر الماعز"^(٥١). في أكتوبر سنة ١٩٦٢ (أي سنة إصدار أول دستور مغربي بعد الاستقلال) حيث طالب الحزب الجديد بملكية دستورية، الأمر الذي تحقق بعد ستة أشهر. وشارك عبد الكريم الخطيب من خلال إلقاء كلمة أمام الحاضرين، أثار فيها غياب ممثلي البادية في الحكومة، وطالب بإنشاء وزارة الشؤون القروية، وكان يشغل حينها منصب وزيراً للدولة مكلفاً بالشؤون الإفريقية، في أول حكومة كونها الحسن الثاني في يونيو ١٩٦١ و تقلد فيها أحرضان منصب وزير الدفاع^(٥٢)، لكنهما منصبان لم يوفرا للحركة الشعبية سوى مشاركة هامشية في تسيير الشؤون الداخلية، فهدأ أحرضان والخطيب بالاستقالة في صيف سنة ١٩٦٢ لكن

اتخاذ قرار إقالة المحجوبي أحرضان من منصب الأمانة العامة للحركة الشعبية واعتباره مجرداً من صفة الأمين العام^(٤٨)، ظل المحجوبي أحرضان يرقب الوضع ويعمل على إعادة ربط الصلة بالسلطة بهدف تأسيس حزب سياسي جديد.

ولما عين أحرضان كـممثل للمقاومة في المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان في ماي ١٩٩٠ من قبل الحسن الثاني، اعتبر ذلك بمثابة رسالة "تصالح" تفتح الطريق أمامه لاستعادة نشاطه الحزبي. وهو الأمر الذي تم بالفعل في تجمع بمدينة مراكش يومي ١٧-١٨ يونيو ١٩٩١، حيث أعلن عن ميلاد الحركة الوطنية الشعبية واختير أحرضان أمينها العام. وتتلخص أهداف ومبادئ الحزب الجديد في المرتكزات التالية:^(٤٩)

- الدفاع عن المؤسسات الدستورية والمقدسات العليا للبلاد.
 - الدفاع عن الوحدة الترابية للمملكة.
 - المساهمة في إقامة أسس الديمقراطية: سياسية واقتصادية وثقافية حسب متطلبات العصر.
 - تنمية البلاد في إطار اللامركزية، والتوازن بين جميع الجهات مع إعطاء الأولوية للمناطق الفقيرة.
 - حماية وتدعيم مبادرات القطاع الخاص.
 - الدفاع عن حقوق المرأة ودورها في المجتمع.
 - إعادة النظر في برامج التعليم والدفاع عن التعددية اللغوية والثقافية.
 - النضال من أجل تحرير الشعوب ومناهضة الميز العنصري بكل أشكاله.
 - مساندة وتأكيد كفاح الشعب الفلسطيني في حقه من أجل تقرير مصيره وحرية واستقلاله.
- بعد إقالته من "الحركة الشعبية" سنة ١٩٨٦، تمكن المحجوبي أحرضان من العودة إلى الواجهة، كأمين عام لحركته الجديدة (الحركة الوطنية الشعبية)، التي حصلت على ٢٥ مقعداً في الاستحقاقات التشريعية بتاريخ ٢٥ يونيو ١٩٩٣، مكنتها ذلك من تشكيل فريق برلماني باسم "فريق الحركة الوطنية" كما شاركت في الاستحقاقات التشريعية في طورها الأول المتعلق بتشكيل مجلس النواب بتاريخ ١٤ نونبر ١٩٩٧، حيث حصلت على ١٩ مقعداً وفي طورها الثاني المتعلق

المكلف بالشؤون الخارجية" خلال الحكومة السادسة عشر (١٨ نونبر ١٩٨١-٣٠ نونبر ١٩٨٣) وأخيراً "وزير دولة" في الحكومة السابعة عشر (٣٠ نونبر ١٩٨٣-١١ ابريل ١٩٨٥).^(٤٦)

عرف صاحب الزايغ بولائه المطلق للعرش، وصوتت الحركة الشعبية بنعم على أول دستور مغربي سنة ١٩٦٢، وفي ٢١ مارس ١٩٦٣، شارك أحرضان في تأسيس "جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية" في سياق تاريخي يروم تحجيم النفوذ اليساري المتسارع لحزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بزعامة عبد الرحيم بوعبيد والمهدي بن بركة. أدت تطورات المرحلة الموسومة بالصراع بين المعارضة والقصر إلى إعلان الملك الراحل الحسن الثاني لحالة الاستثناء عام ١٩٦٥، استمرت إلى عام ١٩٧٠، وهو الحدث الذي ساندته المحجوبي أحرضان.

أدت تطورات الأحداث المرحلية، إلى جانب مواقفه الانفرادية في اتخاذ القرارات وتسيير أنشطة الحزب إلى ظهور اختلالات بنيوية داخل التنظيم الحركي الذي لم يصمد كثيراً حتى شهد انشقاقه الأول عام ١٩٦٧، حيث انشق عنه رفيقه عبد الكريم الخطيب مؤسساً لحزب جديد تحت اسم "الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية". أما المحجوبي أحرضان فقد احتفظ بالحزب الأم، واستمر على نفس النهج الانفرادي في تدبير التنظيم، مما جعله أمام موجة من الانتقادات والصراعات خصوصاً مع مطلع الثمانينيات من القرن الماضي، توجت في أكتوبر ١٩٨٦ بعقد المؤتمر الاستثنائي للحزب، حيث تقرر إقالته من منصب الأمانة العامة.

عبر المحجوبي أحرضان عن رفضه للنتائج التي خلص إليها المؤتمر الاستثنائي لكونها تفتقر إلى الشرعية، بالإحالة إلى الفصل التاسع من القانون الأساسي للحركة الشعبية، مما أدى به إلى اللجوء إلى القضاء، غير أنه اضطر إلى سحب دعواه ثلاثة أيام قبل النطق بالحكم، بعدما استقبل الملك الحسن الثاني القيادة الجديدة للحزب يوم ١٦ يناير ١٩٨٧، مما اعتبر تزكية ملكية للمؤتمر الاستثنائي المنعقد بالرباط. وأمام واقع الحال، اضطر المحجوبي أحرضان إلى التفكير في إعادة ترتيب أوراقه بعد فهمه للإشارة الملكية^(٤٧). منذ

ثانيًا: المحجوبي أحرضان وتمثله للمسألة الأمازيغية

١/٢- موقف أحرضان من الأمازيغية

يرى زعيم الحركة الشعبية المحجوبي أحرضان بأن "الأصالة" هي كنه الأرض وجوهرها، وأصالة المغرب تكمن في وجود الأمازيغ، ويعتبر أحرضان أن "الأمازيغية ليست اتجاهًا"، وأنه لم يختر الدفاع عن هويته الأمازيغية إلا مع ظهور خطاب القومية العربية بالمغرب^(٥٣). إن الأمازيغية حسب رأي أحرضان تتعرض لهجمة شرسة وممنهجة، حيث يتم تغيير مجموعة من الأسماء الأمازيغية وتعويضها بأخرى عربية^(٥٤)، لذا "علينا الدفاع عنها فهي أساس الأمة المغربية"^(٥٥). أخذ المحجوبي أحرضان على عاتقه الدفاع عن الثقافة الأمازيغية (حسب تصوره) منذ السنوات الأولى للاستقلال، حيث صرح بكونه رفض مصطلح "المغرب العربي" في أول دستور للمغرب، واقترح تعويضه بمصطلح "المغرب الكبير" مقابل التصويت لصالحه^(٥٦). هذا بالرغم من أن الحزب ومنذ انطلاسته الأولى اتخذ من اسم "المغرب العربي" اسمًا لجريدته^(٥٧)، كما أن النداء الأول للحركة الشعبية لا توجد فيه بتاتًا أية إشارة للأمازيغية سواء لغة أو ثقافة أو هوية، بل على العكس نجد أن أهداف الحركة الشعبية المتضمنة في أول نداء لها، نصت على تحصين المغرب وتدعيم مركزه كدولة إسلامية عربية، والدعوة إلى نهج سياسة مستقلة جديدة "بعقيدتنا الدينية، وعروبتنا وتقاليدنا القومية"^(٥٨). وهو ما يوضح بجلاء أن أحرضان يزايد بالموضوع، لأهداف سياسية، خاصة مع ظهور الجمعيات الأمازيغية، بحيث اعتبر نفسه "المدافع الوحيد عن الأمازيغية"، وبسبب دفاعه عنها تلقى الكثير من الطعنات^(٥٩).

وفي مقابل الآراء التي تعتبر أحرضان مدافعًا صلبًا عن الهوية واللغة الأمازيغيتين، من خلال اعتبار الحركة الشعبية "حزبًا أمزيغيًا أو ممثلًا للأمازيغ"، ثمة آراء أخرى ترى العكس، إذ على الرغم من حضوره في العديد من الحكومات السابقة وحصول حركته على نسبة عالية من المقاعد البرلمانية، إلا أنه لم يبذل جهودًا حقيقية من أجل إعطاء المكانة اللازمة للغة الأمازيغية، سواء في

بتشكيل مجلس المستشارين يوم الخامس من شهر دجنبر حيث حصلت على ١٥ مقعدًا^(٥٠).

شاركت كذلك "الحركة الوطنية الشعبية" في حكومة التناوب التوافقي، وشكلت جزءًا من الأغلبية الداعمة لحكومة عبد الرحمان اليوسفي، حيث أوكلت لها ثلاث حقائب وزارية^(٥١).

وعلى الرغم من أهمية مضامين أهداف ومبادئ هذه الحركة الفتية، وبالرغم من حضورها الوزن في الاستحقاقات الانتخابية من خلال عدد المقاعد التي حصلت عليها، فلم يطل بها الأمد حتى تعرضت هي الأخرى للانشقاق، بعد أن طفت على السطح التناقضات داخلها، بحيث برزت مجموعات داخل الحزب مناهضة لأمينها العام المحجوبي أحرضان، منتقدة إياه بالتسيير الفردي و بالسلطة الانفرادية، بحيث في ١٧ أكتوبر ١٩٩٥، ستقدم مجموعة من المؤسسين على الانشقاق، بقيام ١٧ برلمانيًا بالانفصال عن الحزب، وتشكيل فريق برلماني جديد بقيادة محمود عرشان تحت اسم "الحركة الوطنية الديموقراطية". في السنة الموالية وبتاريخ ٢٩ ماي ١٩٩٦، انعقد المؤتمر التأسيسي ليعلن عن ميلاد "الحركة الوطنية الديموقراطية الاجتماعية"، بعد خمسة شهور سيصبح اسم هذا الأخير "الحركة الديموقراطية الاجتماعية"^(٥٢).

وبعد كل هذه الانشقاقات المتتالية، عملت في مارس ٢٠٠٦ قيادات كل من "الحركة الشعبية" و"الحركة الوطنية الشعبية" و"الاتحاد الديموقراطي" على توحيد صفوفها في حزب واحد هو "الحركة الشعبية"، وتم اختيار المحجوبي أحرضان رئيسًا للحزب ومحمد العنصر أمينًا عامًا ومحمد الفاضلي نائبًا له.

تفرغ المحجوبي أحرضان - بعد أن اعتزل العمل الحزبي - لأعماله الفنية، لكن في ذات الوقت بقي مراقبًا للمشهد الحزبي وحقل السياسة، إلى أن وافته المنية يوم ١٥ نونبر ٢٠٢٠.

إن السبب الذي جعل عدداً من الباحثين الأجانب يقدمون الحركة الشعبية كحزب بربري، يتجلى في كون أغلبية قياداته ناطقة بالأمازيغية، وتستلهم برامجها من التراث الأمازيغي مثل الجماعة والأراضي الجماعية والتوزيع، وكذا انطلاقاً من مواقف ومطالب أمنيته العام فيما يخص العناية بالأمازيغية وتعليمها^(٦٦). ف"واتربوري" يرى أن رفع الحزب لشعار "الاشتراكية الإسلامية"، كان يسعى من خلاله إلى الدفاع عن مصالح البوادي، وجعل من الجماعة الخلية الحية المحلية، وكذا الأراضي الجماعية، أساسين لبناء هذه الاشتراكية، وهو ما "يدل على تشبثه العنيد بالهوية الأمازيغية"^(٦٧).

فما سبب هذا الحكم إذن؟

السبب في رأيي راجع إلى ذلك التداخل الحاصل بين مؤسسة الحزب ومؤسسة الزعيم، فحزب أحرسان قد ظل سجين منطق القبيلة، حيث يجسد أمنيته العام دور أمغار (شيخ القبيلة)، الذي يحتكر كل الصلاحيات، إذ نجده هو هرم الحزب، يترأس المؤتمرات والمجالس الوطنية وأمين ماله والمفاوض باسمه وممثله لدى السلطات، بل إنه كان ينعت منتقديه بـ "المسخوطين"^(٦٨). هذا الاحتكار بدأ منذ المؤتمر التأسيسي الأول للحركة الشعبية، فأحرسان اعتمد -حسب رواية الوكوتي- على بعض عناصر الثقافة الأمازيغية التقليدية (رقصة أحيادوس وأحواش)، لتتصيب نفسه أمينا عاما على الحركة الشعبية، ويرسل رسالة مفادها أن مشروعية زعامة الحزب هي له وحده دون سواه، وأنه "يستمد تلك المشروعية من كونه يمثل تمثيلاً حقيقياً جماهير المناطق الأمازيغية في البوادي التي تعتبر الحركة الشعبية ناطقة باسمها"^(٦٩).

فالحركة الشعبية لم تتجاوز في تعاملها مع المسألة الأمازيغية الحدود المرسومة لها من قبل المخزن، على اعتبار أن وجودها السياسي كان بهدف إقامة نوع من التوازن داخل الحقل السياسي، ذلك أن هذه الحركة خلقت بالأساس للتصدي لحزب الاستقلال ذي الطموح الهيمني، فلم يخرج رهانها السياسي عن رهان القصر، "إذ لم تستطع أن تتحرر من سلطته في مواقفها بخصوص المسألة الأمازيغية"^(٧٠). فالملكية تحالفت مع

مجال الإعلام، أو في مجال التربية والتكوين، فمواقفه لا تعدو أن تكون مجرد مزايدات^(٦١)، فأحرسان كشخص كان ينادي بالأمازيغية لغة رسمية في حين أن حركته لم تتجاوز موقف اللغة الوطنية، وتبريراً منه لهذا التناقض يقول أحرسان: "أنا لا أرى الأمازيغية بمنظور الحزب، ولكن بمنظور الأمازيغ، فإننا لم أنتظر الحزب لأدافع عن الأمازيغية، فالموضوع سكنني منذ سنوات، ولذلك يمكن أن تسألني كأحرسان وليس كأمين عام للحزب"^(٦١)، وقد لاحظ الباحث مصطفى عنتر أن أحرسان يختزل الحديث عن الأمازيغية في "إيمازيغن" كعنصر بشري متواجد بالأطلس المتوسط، يجب ضبطه للحفاظ على التوازنات السياسية المرسومة^(٦٢)، خلافاً للحركة الأمازيغية التي تعتبر الأمازيغية هوية وثقافة ولغة. وهذا التناقض يجبرني لطرح سؤال جوهري: هل الحركة الشعبية فعلاً حزب يدافع عن الهوية والثقافة الأمازيغية؟

٢/٢- الحركة الشعبية حزب أمازيغي

غالباً ما يقدم حزب الحركة الشعبية كحزب أمازيغي، خاصة من قبل الباحثين الأجانب، ف"واتربوري" مثلاً يعتبر أن الحركة الشعبية قد جعلت من الهوية الأمازيغية موضوعاً ملازماً لها، وقد طالبت باستمرار بوضع برنامج لتعليم "اللهجات الأمازيغية"، للمحافظة على وحدة البلاد. ويرى أن وفاة عدي أوبيهي زادت من اعتزاز أحرسان بهويته الأمازيغية، بل إنه في اجتماع له بمدينة صفرو دافع عن عدي أوبيهي وأشاد بخصاله الحربية، ونفى عنه صفة الخيانة، وهو نفس الموقف الذي عبر عنه في كتاب الزايغ حيث قال: "عدي أوبيهي كان وطنياً مخلصاً (...) كان يرفض هيمنة الحزب ويعلن ولاءه للملك. وانتفاضته كانت دفاعاً عن النفس ضد الجبروت الحزبي"^(٦٣). وانتقد فصل السلطات القضائية الذي تم سنة ١٩٥٦ حيث قال: "في الواقع لما كنا نحتكم إلى إزرف"^(٦٤)، كانت وضعيتنا أفضل مما هي عليه الآن، لقد تسبب الانحرافيون في تشويه العدالة الإسلامية"^(٦٥).

وتتعلق بالجوهر والعمق، ويشكل هذا الحزب بالتالي النموذج المثالي للتركيز على العناصر السياسية للهوية حيث توضع العناصر الثقافية أو القبلية بالأحرى، في خدمة العناصر السياسية، ولا يتم بذل أي مجهود لإنماء العناصر الثقافية التي تشكل جوهر كل هوية^(٧٧). رغم كون أحرضان قد طرح ضرورة تدريس الأمازيغية في مجلس وزاري منذ سنة ١٩٦٤، فقد كان طرحه فرديا معزولا، وكان خطابه للكثيرين خطابا للاستهلاك السياسي لا غير، وهو ما شكل حسب الحسين وعزي عرقلة لظهور "الوعي العصري بالهوية الأمازيغية"^(٧٨).

هذه التهمة (أي المزايدة بموضوع الهوية والثقافة واللغة الأمازيغية) أثارت غضب أحرضان في حوار صحفي له مع جريدة العالم الأمازيغي حيث قال: "احشوما عليك تكول هاد الهضرة، أحرضان باع الماتش، الله يخليكم (...) نتوما إمازيغن واخا إعطيكم الواحد لحمو تاكلوه (...) واش بغيتيني نكون ضد الملك؟ (...) والحال أن القضية الأمازيغية متضمنة في القانون الأساسي للحركة الشعبية منذ تأسيسها" وتابع مؤكداً على أن الحركة الشعبية لا تسترزق بالأمازيغية "فالكل يعرف أحرضان الأمازيغي هوية ولغة وثقافة، ولعب دوراً مشهوداً لنصرة القضية الأمازيغية ومنح حياته وماله لها"^(٧٩). بل ويصر أحرضان في نفس الحوار على كون المكاسب التي تحققت للأمازيغية خلال بداية الألفية الثالثة (مثل اعتماد حرف تيفيناغ لكتابة الأمازيغية) مردها لحزب الحركة الشعبية وأحرضان.

لكن الملاحظ أن الحركة الشعبية وإن كانت تدفع عن نفسها تهمة الاستنزاق السياسي إلا أنها تماهت مع المخزن لدرجة فقدت معها استقلاليتها، وظلت الفصائل السياسية المنبثقة عنها تدور في فلك "دار الملك" حسب تعبير عبد الله حمودي، إذ تصدى المخزن لكل محاولة تروم تحقيق نوع من الاستقلالية عنه، وتُشكل كيفية إبعاد أحرضان عن رئاسة الحركة أو أسط الثمانينيات ومنحها لمُحدد العنصر خير نموذج لذلك^(٨٠).

النخب الأمازيغية القروية ضد النخب المدنية، لكنها لم تقم أبداً بالاعتراف بالحقوق الثقافية الأمازيغية^(٧١)، فتاريخ الحزب يلخص تاريخ الدور الذي تلعبه النخب الأمازيغية المنحدرة من الأطلس المتوسط ومن الريف كذلك في السياسة انطلاقاً من العاصمة الرباط^(٧٢). إن الحركة الشعبية كما عبر عن ذلك إدريس بلحوسين: "كانت الحركة وليدة الأحداث، لم تنشأ من أجل شيء ما، بل نشأت ضد شيء ما"^(٧٣).

بل يمكن القول في نظر حسن أوريد "أن الحركة الشعبية لم تكن إلا حركة احتوائية أكثر مما هي حركة لخدمة الثقافة الأمازيغية"^(٧٤)، خصوصاً إذا علمنا أنها في الأصل حركة أنشئت لتطويق كل نزوع أمازيغي، وهو ما عبر عنه أحرضان نفسه عند حديثه عن ظروف تأسيس الحركة الشعبية، (وهو ما أشرت له سابقاً) يقول أحرضان: "ترأس هذا الاجتماع في الشهور الأولى بعد استقلال بلادنا كل من لحسن اليوسي وعدي أوبيهي، وكان محوره يدور حول إمكانية تأسيس حركة بربرية، وقد اتصل بي الأخ عبد الكريم الخطيب وأبدى توجسه من الفكرة واتفقنا على العمل من أجل تأسيس حركة سياسية وطنية لا تقوم على أساس عرقي"^(٧٥).

أحرضان كان يزايد بموضوع الأمازيغية في وجه حزب الاستقلال، الحامل لشعار التعريب المطلق، أما مواقفه الحزبية سواء داخل البرلمان أو الحكومة فلم يكن لديها أي تأثير يذكر، إذ كانت "مجرد بيانات ومطالب موجهة إلى الحكومة والرأي العام قصد الاستهلاك ولم تتبلور في سلوك ومواقف الحركة"^(٧٦).

اعتبرت الحركة الشعبية نفسها حزياً مدافعاً عن الهوية والثقافة واللغة الأمازيغية، دون أن يستطيع انتزاع الاعتراف بما يدافع عنه رغم مشاركته في الحكومة، وهي مفارقة تعبر عن أزمة الوعي التقليدي-حسب الحسين وعزي- للدفاع عن الهوية الأمازيغية، إن التفسيرات السياسية لهذه المفارقة كُنت الحركة الشعبية بالانتهازية أو وصف سلوك أمينها العام بالماكيافيلية حيث يستغل الأمازيغية للحفاظ على مصالحه ومن ضمنها بقاءه في السلطة، لا تلمس من المسألة سوى الجانب السطحي، وما بقي مختفياً كان أعظم وأقوى وأشد تأثيراً. إن المسألة ثقافية بحته،

خاتمة

ولج أحرسان دائرة النخبة السياسية قادما إليها من البادية، وبالضبط من الأطلس المتوسط، مستفيداً من عدة عوامل منها انتماءه لعائلة مخزنية، بحيث كان أبوه قائداً على منطقة الماس، إضافة إلى تكوينه العسكري بالمدرسة الحربية الدار البيضاء بمكناس، وأخيراً تشبثه بالملك والملكية. من خلال تجربته الحزبية، يلاحظ أنه لعب كثيراً على وثر الأمازيغية، رغم إنكاره لهذا المعطى، وجنى بها مكاسب سياسية. جعلت الكثيرين يصفون شخصيته بالمكافيلية. لكن رغم هذه الأحكام فإن أي حكم في حقيقة الأمر يبقى نسبياً، نظراً لكون مسار وحياة أحرسان تفاعل في تشكله عوامل ذاتية وموضوعية في ظروف تاريخية معينة، جعلت منه أحد الفاعلين الأساسيين في تاريخ المغرب الراهن.

الإحالات المرجعية:

- (١٧) أورده أشفورد دوجلاس آي، **التطورات السياسية في المملكة المغربية**، ترجمة الدكتوراة عائدة سليمان عارف والدكتور أحمد مصطفى أبو حاكم، راجعه عبد الهادي بوطالب، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت - نيويورك، ١٩٦٣، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، بدون تاريخ، ص ٢٥٧.
- (١٨) محمد ضريف، **الأحزاب السياسية المغربية ١٩٣٤-١٩٧٥**، منشورات الجمعية المغربية لعلم الاجتماع السياسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠١، ص ٩٦-٩٥.
- (١٩) أحرسان، **... الزايف**، م س، ص ٣٣-٣٤.
- (٢٠) مثل محمد بن عمرو احميدوا الذي استقبله الخطيب مع بعض أعضاء الحركة الشعبية، لكنه رفض انضمامه للحركة الشعبية نظراً لماضي، فقد كان الخطيب قد طلب من أعضاء الحركة الشعبية السفر إلى وجدة للمشاركة في تشييع جنازة حركيين قتلوا تحت التعذيب في مراكز تابعة لمحمد بن عمرو احميدوا لكن البكاى تدخل لمنعهم من السفر خوفاً على حياتهم. انظر الوگوتي بنعبد الله، **معركتنا ضد الحزب الوحيد، معركتنا ضد الحزب الوحيد**، حواره محمد خليدي وحميد خباش، منشورات إفريقية، الرباط، ٢٠٠٠، ص ٦٧.
- (21) Ignace Dalle, **Les trois Rois: la monarchie marocaine de l'indépendance à nos jours**, Librairie Arthème Fayard, 2004 p.56.
- (٢٢) آخذ عبد الكريم الخطيب على المنظمات السرية للمقاومة بعد الاستقلال قيامها بعمليات اختطاف وقتل تحت ذريعة ما اسموه لوائح الخونة نهبوا بعض بيوت كبار القواد بسوس، واختطفوا أبناء الكلاوي بعد موته، وكانوا مسؤولين عن الأحداث الدامية بمراكش دون مراعاة العفو الملكي الذي شمل الجميع، انظر عبد الكريم الخطيب، **"مسار حياة"**، حوار مع محمد خالدي وحميد خباش، الطبعة الرابعة، منشورات منتدى الحوار، مطبعة كارتوكرافيك، د م، ٢٠٠٦، ص ٩٤.
- (٢٣) انظر عبد الكريم الفيلالي، **التاريخ السياسي للمغرب الكبير**، الجزء الثاني عشر، الناس للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٤٢.
- (٢٤) واتروري، **أمير المؤمنين والنخبة السياسية المغربية**، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد الغني أبو العزم وعبد اللطيف الفلق، مؤسسة الغني للنشر، الطبعة الأولى، الرباط، ٢٠٠٤، ص ٣١٢.
- (٢٥) انظر نص الرسالة ضمن زكي مبارك، **"الحركة الشعبية دواعي ومراحل التأسيس"**، ضمن: **مجلة أمل**، العدد ٣٤، السنة ١٦، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص ٧٢.
- (٢٦) العراقي الغالي، **ذاكرة نضال وجهاد: حديث عن سنوات الحديد والجمر والغبار**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ص ٣١٣-٣١٤.
- (٢٧) نفسه، ص ٣١٥.
- (٢٨) الغالي العراقي، **ذاكرة....**، م س، ص ٣٢٦.
- (29) Nasser-Eddine Bakkai Lahbil, **Une indépendance bâclée Maroc 1950-1961**, Impression Top Press, Rabat, 2007, p. 278.
- (٣٠) واتروري، **أمير....**، ص ٣٢١-٣٢٢.
- (31) Nassir-Eddine Bakkai Lhbil, **Une indépendance**, op cit, p. 289.

- (١) المحجوبي أحرسان، **الزايف**، حوار مع محمد خالدي وحميد خباش، منشورات إفريقية، الرباط، ١٩٩٩، ص ١١.
- (٢) نفسه ص ١٢.
- (٣) نفسه ص ١١.
- (٤) نفسه ص ١٢.
- (٥) محمد المنصوري، **الحركة الشعبية...الحقيقة**، منشورات اللجنة الموسعة للحكومة الجيدة، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، ص ١٩٣.
- (٦) أحرسان، م س، ص ١٧.
- (٧) نفسه، ص ١٨.
- (٨) نفسه ص ١٦.
- (٩) نفسه، ص ٢٠.
- (١٠) نفسه، ص ٢١.
- (١١) لتوضيح ملابسات هذا الحادث والشهادات القائمة حوله، يمكن الرجوع لكتاب محمد الخوجة، عباس المساعدي، **الشجرة التي تخفي غابة جيش التحرير**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ٢٠١١.
- (١٢) أحرسان، م س، ص ٨.
- (١٣) نفسه، ص ٢٧.
- (١٤) نفسه.
- (١٥) نفسه.
- (١٦) أحرسان، م س، ص ٣١٣.

- (٥٦) برنامج شؤون أمازيغية، اعداد وتقديم أحمد عصيد، قناة تامازيغت، حلقة استضاف فيها المحجوبي أحرسان بتاريخ ٦ يوليوز ٢٠١٢. تاريخ الاطلاع ١٦ شتنبر ٢٠١٩.
- (٥٧) حزب الحركة الشعبية، الهوية الحركية، قراءة في وجهات الخطاب - كلمات أحرسان والعنصر نموذجا - ١٩٥٩ - ١٩٩٨، الجزء الثاني، إعداد: أحمد بنقدور ومحمد والزين، " منشورات فريق البحث المكلف بصون الذاكرة الحركية"، الطبعة الأولى، الرباط، ٢٠١٠، ص ١٠٢.
- (٥٨) النداء الأول للحركة الشعبية، م س.
- (٥٩) برنامج شؤون أمازيغية، م س. يقارن أحرسان في هذا البرنامج نفسه بمحمد شفيق معتبرا أنه إذا كان شفيق قد دافع عن الهوية والثقافة واللغة الأمازيغية بالكتابة، فإنه من جانبه دافع عن هذه الأمور على المستوى السياسي.
- (٦٠) مصطفى عنتر، المسألة الأمازيغية بالمغرب: قراءة في مسار التحول من الثقافي إلى السياسي، الطبعة الأولى، دار القرويين، الدار البيضاء، 2007، ص ٤٨.
- (٦١) أوسي موح لحسن (تقديم)، حوارات حول المسألة الأمازيغية، منشورات الأبحاث المغربية، الدار البيضاء، ٢٠٠٤، ص ٥٠.
- (٦٢) مصطفى عنتر، المسألة الأمازيغية...، م س، ص ٤٩.
- (٦٣) أحرسان، الزايغ، م س، ص ٧١.
- (٦٤) أزراف أو أزراف ويعني القانون العرفي.
- (٦٥) واتربوري، أمير...، م س، ص ٣٢٦.
- (٦٦) الحسين وعزي، نشأة الحركة الثقافية الأمازيغية بالمغرب ١٩٦٧ - ١٩٩١ تحليل سيرورة تحول الوعي بالهوية الأمازيغية من الوعي التقليدي الى الوعي العصري، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، الرباط، ٢٠٠٠، ص ٦١.
- (٦٧) واتربوري، أمير...، م س، ص ٣٢٥.
- (٦٨) مصطفى عنتر، المسألة الأمازيغية...، م س، ص ٤٠.
- (٦٩) الحسين وعزي، نشأة...، م س، ص ٦٨.
- (٧٠) مصطفى عنتر، المسألة الأمازيغية...، م س، ص ٤٨.
- (71) AOUID Hassan, *le substrat culturel des mouvements de contestation au Maroc, analyse des discours islamiste et amazighe*, thèse de doctorat d'Etat, Faculté des Sciences Juridiques et Economiques et Sociales Agdal, Rabat, 1999., p. 201.
- (72) EL QUADERY Mustapha, *l'Etat national et les berbères : le cas du Maroc, mythe colonial et négation national*, thèse pour l'obtention du doctorat nouveau régime en Histoire contemporaine, Université Montpellier 3, 1995.203.
- (٧٣) أورد أحمد الدغرنبي، أية حركة شعبية، مطبعة الرسالة، ط ١، الرباط، ١٩٩١، ص ٥٨.
- (74) Aourid, *le substrat*, op cit, p. 177.
- (٧٥) أحرسان، الزايغ، م س، ص ٣٥-٣٦.
- (٧٦) مصطفى عنتر، المسألة...، م س، ص ٤٨.
- (٧٧) الحسين وعزي، نشأة...، م س، ص ٦٢.
- (٧٨) نفسه، ص ٧٠.
- (٧٩) جريدة العالم الأمازيغي، عدد ٩٠، نونبر ٢٠٠٧، ص ٦.
- (٨٠) مصطفى عنتر، المسألة الأمازيغية...، م س، ص ٤٠.
- (٣٢) التزم فيه بتزويد المغرب بأنظمة ومؤسسات سياسية ودستورية، تدعم السيادة الوطنية، وتضمن للمواطنين ممارسة حرياتهم الأساسية وتمتعهم بحقوق الإنسان وحرية التعبير والاجتماع وتكوين جمعيات. انظر النص الكامل للعهد الملكي، **الجريدة الرسمية عدد ٢٣٧٨**، السنة ٤٧، ٢٣ ماي ١٩٥٨، ص ١١٨٢-١١٨٣.
- (٣٣) والد الجنرال حسني بن سليمان.
- (٣٤) بنعيد الله الوگوتي، **معركتنا...**، م س، ص ٥٣-٥٤.
- (٣٥) تضمن هذا الظهير ثلاث ظواهر منظمة لحقوق تأسيس الجمعيات والتجمعات والصحافة. انظر **الجريدة الرسمية**، العدد ٢٤٠٤ مكرر، السنة ٤٧، ٢٧ نونبر ١٩٥٨.
- (٣٦) فيرمورين، **تاريخ المغرب منذ الاستقلال**، ترجمة عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص ٥٣.
- (٣٧) نفسه، ص ٥٣-٥٥.
- (٣٨) واتربوري، **أمير...**، ص ٣٢٥.
- (٣٩) هذا العنوان الذي اشتهر به المؤتمر، يعبر على المستوى والجو الذي يسود تجمعات الحركة الشعبية، فقد تعرض قادة الحركة الشعبية بإسهاب للاشتراكية الإسلامية، لكنهم لاحظوا أن اهتمام المؤتمرين تركز أكثر على مشاكل تربية الماعز، وخاصة التعسف الذي يتصرف به حراس الغابات، الذين يمنعون الماعز من الرعي قرب الأشجار. ويبدو أن أحرسان تدخل بلهجة حازمة لتوضيح أهمية الماعز الإسباني الذي لا يأكل الأوراق الأشجار ولا قشورها، وهكذا حصل أحرسان على لقب " رجل الماعز " انظر جون واتربوري، **أمير...**، م س، ص ٣٢٧.
- (٤٠) أسندت للخطيب في البداية وزارة الدفاع لكنه لاحظ أن التشكيلة الحكومية لا تضم أحرسان فتنازل له عن وزارة الدفاع وأحدث للخطيب منصب جديد وهو وزارة الشؤون الإفريقية، انظر بنعيد الله الوگوتي، **معركتنا...**، م س، ص ٦٨.
- (٤١) واتربوري، **أمير...**، م س، ص ٣٢٧-٣٢٨.
- (٤٢) Zaki M'barak, « le mouvement populaire : le parti qui a trahi sa cause », in *Dossiers à l'histoire de Maroc*, N°11, p. 2..Mai1997
- (٤٣) تعني التوزيع العمل الجماعي الذي يقوم به أفراد قبيلة ما لشق الطرق، أو أثناء عملية الحرث والحصاد.
- (٤٤) واتربوري، **أمير...**، م س، ص ٣٢٦.
- (٤٥) تأسست الحركة الشعبية على ثلاث مبادئ: الملكية الدستورية وتوحيد شمال إفريقيا والاشتراكية الإسلامية.
- (٤٦) معلمة المغرب، من انتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، ١٤١٩/١٩٩٨، ص: ٣٤٨٤-٣٤٨٩.
- (٤٧) محمد ضريف: " الأحزاب السياسية المغربية... "، مرجع سابق، ص ٢٣٢.
- (٤٨) نفسه، ص ٣٠٨.
- (٤٩) نفسه، ص ٣٠٩.
- (٥٠) نفسه، ص ٣٠٩.
- (٥١) نفسه
- (٥٢) نفسه، ص ٣٠٩-٣٠١.
- (٥٣) أحرسان، **الزايغ**، م س، ص ٥٣.
- (٥٤) نفسه، ص ٥٤.
- (٥٥) نفسه، ص ٥٨.

أثر أنشطة النقل البحري الفرنسي مع الموانئ العثمانية على الاقتصادين العثماني والفرنسي ١٢٥٤ - ١٣٣٢هـ / ١٨٣٨ - ١٩١٤م

د. مرج رافع البرغش

أستاذ مساعد في الجامعة الإسلامية بمينيسوتا
دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة دمشق - الجمهورية العربية السورية



ملخص

سعت السلطات الفرنسية إلى زيادة نفوذها في السلطنة العثمانية لتحقيق مشاريعها وأهدافها وعلى وجه الخصوص السياسية والاقتصادية منها، وقد اغتنمت الفرصة التي أتاحتها الثورة الصناعية من توفير وسائل نقل بحرية حديثة تتماشى مع أهدافها، فبدأت بتأسيس علاقات أقوى مع الموانئ العثمانية عبر النقل البحري البخاري؛ لتنمية أعمالها التجارية والاقتصادية مع السلطنة، وقد كان لهذه الأنشطة تأثيراً عميقاً ومباشراً في الاقتصادين العثماني والفرنسي منذ معاهدة بالطه ليمان حتى الحرب العالمية الأولى. لذلك فإن هذا البحث سيوضح الآثار الإيجابية والسلبية لأنشطة النقل البحري الفرنسي ويناقش المراحل المبكرة للاقتصادين العثماني والفرنسي منذ القرن السادس عشر وحتى معاهدة بالطه ليمان، مع الحديث عن بدايات دخول النقل البحري نحو الموانئ العثمانية وتأسيس علاقات معها والأثر الناتج عنه سواء كان إيجابياً أو سلبياً على الاقتصادين العثماني والفرنسي مع المقارنة بينهما، واختتم البحث بخلاصة لأهم النتائج.

كلمات مفتاحية:

الاقتصاد العثماني؛ الاقتصاد الفرنسي؛ النقل البحري الفرنسي؛ الموانئ العثمانية؛ البحر المتوسط

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٥ أكتوبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ١٨ ديسمبر ٢٠٢٤

معرف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.328615.1173



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

مرج رافع البرغش، "أثر أنشطة النقل البحري الفرنسي مع الموانئ العثمانية على الاقتصادين العثماني والفرنسي ١٢٥٤-١٣٣٢هـ / ١٨٣٨-١٩١٤م"، دورية كان التاريخية، - السنة الثامنة عشرة - العدد التاسع والستون: يونيو ٢٠٢٥، ص ١٦٤ - ١٨٣.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: marah.rafa.albarghash@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٤.٠ This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made. فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

إنَّ التطور الهائل الذي نتج عن الثورة الصناعيّة أظهر أهداف جديدة للسلطات الفرنسية، فلم تعدّ أهدافها تقتصر على توسيع أعمالها التجاريّة خارج حدودها فحسب، بل ظهرت الحاجة الماسّة إلى إيجاد المواد الأولية لمصانعها، وأسواق لبيع الفائض من المنتجات الصناعيّة، فالتجّهت أنظارها إلى الأراضي العثمانيّة؛ بسبب موقعها الاستراتيجي وغناها بالموارد الطبيعيّة. وفي مرحلة التطور الأوروبي الكبير، واجهت السلطنة تحديات في مختلف المجالات دفعت الدّول الأوروبيّة، بما في ذلك فرنسا إلى زيادة نفوذها الاقتصادي، وتوسيع أنشطتها التجاريّة، كما حفزت اتفاقية بالطه ليمان التجاريّة العثمانيّة-البريطانيّة الموقعة في العام (١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م) فرنسا للانخراط في أنشطة تجارية كبيرة ولعدم ترك المجال مفتوحاً لبريطانيا، فشرعت بالانضمام إلى المعاهدة لتتبعها بعد ذلك دول أوروبيّة أخرى، لكن ولتحقيق أهدافها كان من الضروري تطوير نقلها البحري.

ومع ظهور النّقل البحريّ المُحدث وإقامة علاقات مع الموانئ العثمانيّة ظهرت آثار واضحة على الاقتصادين العثماني والفرنسي، لذلك فإنّ الإشكاليّة تتمثل في البحث عن أنشطة النقل البحري مع السلطنة، مع دوافع وآثار هذه الأنشطة على الاقتصاد العثماني من جهة والاقتصاد الفرنسي من جهة أخرى منذ بداية تحديث النقل البحري وحتى الحرب العالميّة الأولى. أمّا أهميّة البحث فإنّها تتمحور حول الكشف عن أحداث لم يُسلط الضوء عليها من قبل في الدراسات العربيّة المُقتبسة الأحداث من الدراسات الأجنبيّة والتي تقصدت إخفاء بعض الحقائق التّاريخيّة والأهداف السياسيّة الاستعماريّة منها، كما تتمحور أهميّة البحث من أثر أنشطة النّقل البحري الفرنسي على الاقتصادين العثماني والفرنسي وعما آل إليه من نتائج فعّالة، كما يهدف البحث إلى تسليط الضّوء على الأحداث التّاريخيّة التي تفاضت عنها الدّراسات السّابقة، والسعي لسد فجوة في التّاريخ الحديث والمعاصر بعد التّعرّف على النقل البحري وكيفية دخوله إلى السلطنة، ومن ثمّ

تفصيل آثارها على الاقتصادين العثماني والفرنسي مع المقارنة بينهما.

وقد جرى في البحث الاعتماد على كل من: منهج البحث التاريخي، والمنهج التحليلي، والمنهج الإحصائي، والمنهج المقارن وذلك بعد فرز أنشطة النقل البحري الفرنسي مع الموانئ العثمانيّة وتحليلها استناداً إلى بعض التقارير والصحف الفرنسيّة، وعدد من الوثائق البريطانيّة المُواكبة للأحداث، وبعض المصادر الأصليّة والمراجع الأجنبيّة (الفرنسيّة- التّركيّة-الإنكليزيّة)، ومجموعة من المقالات التّركيّة والإنكليزيّة المُقتبسة معلوماتها من الوثائق العثمانيّة والأجنبيّة، وجزء يسير من المصادر والمراجع العربيّة والمعرّبة.

أولاً: ومضات موجزة حول الاقتصادين العثماني والفرنسي منذ القرن السادس عشر حتى العام ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م

لبيان كفيّة أثر أنشطة النقل البحري الفرنسي مع الموانئ العثمانيّة على الاقتصادين العثماني والفرنسي لا بدّ من عرض ومضات موجزة عن أبرز الأحداث التي أثرت على الاقتصادين العثماني والفرنسي منذ القرن السادس عشر حتى العام (١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م) لمعرفة حجم الآثار والفارق بين ما كان عليه الحال قبل النقل البحري البخاري الفرنسي وخلالها وما تركه من نتائج فعّالة.

١/١-الاقتصاد العثماني

اعتمد الاقتصاد العثماني منذ تأسيس السلطنة على الاكتفاء الذاتي، وكان الجزء الأكبر من النشاط الاقتصادي في السلطنة يدور حول الزراعة الريفيّة، حيث خصصت السلطنة الأراضي الزراعيّة لعائلات الفلاحين للزراعة فيها والعيش منها، ولكن وفي المقابل كان لزاماً عليهم تقديم ما يزيد عن احتياجاتهم لجباة الضرائب^(١)، أما بالنسبة للصناعة فقد كان زعماء الطوائف يسيطرون عليها، مع التركيز على الإنتاج والتسويق، إلا أن زيادة الضرائب على الصناعات لم يسمح بتراكم رأس المال^(٢)، وعلى صعيد التجارة، فقد كانت الأسواق منظمة بشكل جيد، كما أن تطوير العلاقات التجاريّة مع الدّول الأوروبيّة زاد من نيل

انتعاشاً متواضعاً، وازدهرت الزراعة، وترأست البرجوازية الأنشطة التجارية والصناعية، فشهدت هذه الأنشطة تقدماً واضحاً^(١٠).

استمرت هذه التطورات حتى مستهل القرن السادس عشر، وبدأت مرحلة جديدة مع تدفق المعادن الثمينة من العالم الجديد إلى فرنسا من جهة، ومع تبني هذه الدول النظام المركنتلي (Mercantilism) من جهة أخرى والذي أكد على فضل الصادرات في التنمية الاقتصادية وبين خطورة الواردات من المنتجات الصناعية على أي دولة، فأصدرت السلطات الفرنسية في العام ١٥٣٩هـ/١٥٤٥م مجموعة من المراسيم لحظر استيراد المنتجات الصناعية الأجنبية، فتقدمت الأعمال الصناعية والتجارية، وشهدت الصناعات الفرنسية طلباً متزايداً من الإمبراطورية الإسبانية ودول أوروبية أخرى، وكذلك من الموانئ مثل تلك الموجودة في السلطنة^(١١).

وفي القرن السابع عشر أعيد تقديم النظام المركنتلي وتطوير الصناعة الفرنسية، مع تقييد تجارة الحبوب وتعزيز المواد الزراعية للنمو الصناعي، وتوسيع التجارة الفرنسية مع الدول الأوروبية والسلطنة، وفي القرن الثامن عشر، شهدت التجارة الخارجية الفرنسية انخفاضاً بسبب حماية الصناعة المحلية في الدول الأوروبية، ومع ذلك استمرت التجارة مع المستعمرات الفرنسية، وتضاعفت التجارة مع السلطنة، وعلى الرغم من أن الصناعة الفرنسية لم تصل إلى مستوى الصناعة البريطانية، فإن استيراد الآلات البريطانية زاد من الإنتاج الصناعي الفرنسي^(١٢).

لكن هذا التطور لم يشمل كافة المستويات، فقد كان تفاقم الأوضاع سبباً في اندلاع الثورة الفرنسية (١٧٨٩هـ/١٧٩٣م)، فشرعت السلطات الفرنسية إلى تحسين الأوضاع الداخلية، ومن ثم التوسع خارجياً، وأحرزت انتصارات باهرة، لكن وبعد سلسلة من الثورات الأوروبية (١٢٤٥هـ/١٨٣٠م) هدأت الأوضاع وعاد الهدوء إلى أنحاء فرنسا، وشهدت المنتجات الزراعية فيها تطوراً جيداً، لكن بعض المنتجات لم تكن تنتج في أراضيها^(١٣)، ولم يكن الاعتماد على المستعمرات الفرنسية حلاً مثالياً لتلبية متطلباتها، مما دفعها إلى

السلطات العثمانية للرسوم الجمركية، والاستفادة من وصول كميات ضئيلة من السلع الأجنبية^(١٤). لكن السلطنة واجهت في نهاية القرن السادس عشر أزمات اقتصادية حادة مع انقطاع موارد السلطنة من توسعاتها، وانهايار قيمة العملة العثمانية الفضية بعد ازدياد تدفق المعادن الثمينة من العالم الجديد، فانتشرت هذه الصعوبات المالية في أنحاء السلطنة، وكان لها آثار سلبية في مختلف المجالات^(١٥).

كما أدى التفاوت المتزايد بين التقدم الذي شهدته الدول الأوروبية، وبين التراجع الذي شهدته السلطنة إلى تعرض الأخيرة لهزائم عسكرية في حروبها الخارجية وفقدان جزء من أراضيها، كما نجم عن معظمها توقيع معاهدات مجحفة أسفرت عن تنازل السلطنة عن بعض أراضيها الحيوية اقتصادياً^(١٦)، واضطرت إلى منح امتيازات تجارية للدول المنتصرة، وقد تجاوزت النتائج الكارثية لهذه الحروب ساحات المعارك، فقد اضطرت السلطنة إلى دفع غرامات حربية باهظة، الأمر الذي أسفر عن عجز في الميزانية^(١٧)، كما تزامنت هذه الأحداث مع حركات انفصالية في أجزاء من السلطنة^(١٨)، وكانت سبباً في عقد معاهدة بالطه ليمان في العام (١٢٥٤هـ/١٨٣٨م) مع بريطانيا وفرنسا وعدد من الدول الأوروبية، وقد فرضت هذه المعاهدة على السلطنة منح امتيازات استثمارية لهذه الدول، فنتج عنها تعزيز التغلغل الأجنبي في السلطنة، والمساهمة في انهيارها في نهاية المطاف.

٢/١- الاقتصاد الفرنسي

اعتمد الاقتصاد الفرنسي خلال العصور الوسطى اعتماداً رئيساً على الزراعة، وتآلف المجتمع من ثلاث طبقات، وكانت السلطة الواسعة من نصيب الطبقتين الأولى والثانية أي: رجال الدين والنبلاء، أما الطبقة الثالثة أي: عامة الشعب فإن الفقر والحرمان كان من نصيبها^(١٩)، ولكن هذه البنية الطبقية تبدلت مع مرور الزمن بسبب التغيرات المناخية^(٢٠)، وثورات الأرياف والمناطق الحضرية فأضعفت هذه الثورات النظام الإقطاعي وأزالت قيوده، وأظهرت الطبقة البرجوازية، وبمجرد أن انتهت الثورات فقد شهد الاقتصاد الفرنسي

كما ظهرت في الموانئ العثمانية شركة الخدمات البحرية للشحن الإمبراطوري (Compagnie des Services Maritimes des Messageries Imperiales)^(١٨) التي استفادت من الالتزام بتعليمات السلطات الفرنسية والمشاركة في حرب القريم ١٢٦٩-١٢٧٢هـ / ١٨٥٣-١٨٥٦م جانب السلطنة من تحويل الخطوط المفتحة مؤقتاً باتجاه البحر الأسود إلى خطوط دائمة ومنظمة، لذلك فقد شرعت الشركة في البدء برحلات دائمة للانضمام إلى التنافس الدولي هناك، كما أسست رحلات باتجاه موانئ البحر المتوسط^(١٩).

وقامت شركة نيكولاس باكيت للبواخر المغربية (Compagnie De Navigation A Vapeur Marocaine N. Paquet & Cie)^(٢٠) بربط أنشطتها مع الموانئ العثمانية بعدما انتهج مؤسسها خطة ربحية على مدار العام، فأحدث خطأً بحرياً منتظماً نحو موانئ البحر المتوسط والبحر الأسود، ثم سعى إلى تثبيت أقدام شركته في السلطنة عبر تغيير اسم الشركة إلى: شركة نيكولاس باكيت للبواخر المغربية والأرمنية (Compagnie De Navigation A Vapeur Marocaine et Armenienne N. Paquet & Cie)^(٢١)، كما برزت كذلك الشركة الفرنسية للملاحة البخارية سيبريان فابر وشركائه (La Societé Cyprien Fabre et Cie)^(٢٢) فقامت بتعزيز أنشطتها مع الموانئ العثمانية، وانتهجت رحلات متاثرة وعشوائية في بادئ الأمر ثم انتظمت وتحولت إلى رحلات نصف شهرية^(٢٣).

ثالثاً: أثر أنشطة النقل البحري الفرنسي مع الموانئ العثمانية على الاقتصاد العثماني

قدمت أنشطة شركات النقل الفرنسية في الأراضي العثمانية آثاراً اقتصادية مهمة، وهنا من الضروري عرض ما لهذه الشركات وما عليها في السلطنة العثمانية وفصل الآثار الإيجابية عن السلبية لتسهيل عرضها وتوضيح المعلومات.

التركيز على المنتجات الأولية العثمانية، فاستلزم ذلك تطوير بحريتها -كما سيتضح فيما بعد-.

ثانياً: بداية أنشطة النقل البحري الفرنسي مع الموانئ العثمانية

لم تكن السلطات الفرنسية ورغم التسهيلات التجارية التي وفّرتها معاهدة بالطه ليمان قادرة على الاستفادة من هذه التسهيلات بشكل يناسب حجم تجارتها مع السلطنة، فكان من الضروري تطوير شبكة النقل البحري، فشرعت السلطات الفرنسية إلى الاستفادة من تجارب الدول الأوروبية وسمحت للقطاع الخاص بتأسيس شركات نقل، فظهر عندئذ عدد من الشركات، برز منها: شركة الخدمة البريدية البحرية للدولة (Le Service Maritime Postal de l'Etat) كأول شركة بحرية بخارية فرنسية عامة بعدما منحت السلطات الفرنسية وزارة الحرب الفرنسية في العام (١٢٥٠هـ / ١٨٣٥م) امتياز تأسيس وإدارة الشركة، فأسست الوزارة رحلات منتظمة إلى موانئ مختلفة بما فيها موانئ البحر المتوسط إلى جانب استانبول في البحر الأسود، لكن واجهتها أزمات عدة انضبت مواردها المالية وأدت إلى إفلاسها في العام (١٢٦٧هـ / ١٨٥١م)^(١٤).

أما من بين الشركات البحرية الفرنسية الخاصة التي ربطت أنشطتها مع الموانئ العثمانية فقد ظهرت شركة روستاند التي أسسها كل من برونو روستاند (Bruno Rostand) (١١٩٣-١٢٧٦هـ / ١٧٨٠-١٨٦٠م)^(١٥) وابنه ألبرت روستاند (Albert Rostand) (١٢٣٣-١٣٠٨هـ / ١٨١٨-١٣٠٨م)^(١٦) بهدف تطوير الأعمال التجارية بين الموانئ الفرنسية وعدد من الموانئ العثمانية؛ برأسمال قدره ١,٥٠٠,٠٠٠ فرنك فرنسي، وبنت ثلاث سفن فقط، فأبحرت في ١٧ رجب ١٢٦٢هـ / ١١ تموز ١٨٤٦م أول سفينة تابعة لها نحو بعض موانئ السلطنة وبعد نجاح هذه الرحلة ابتدأت الرحلات المنتظمة وحقت إيرادات جيدة، لكنها لم تتمكن من منافسة شركات النقل الأجنبية الكبرى، وكان من الضروري البحث عن طرق فعالة للتمكن من الاستمرار^(١٧).

١/٣- الآثار الاقتصادية الإيجابية

من الواجب عدم المبالغة في تحميل المسؤولية لما جرى من أحداث مفاجئة في السلطنة على شركات النقل الفرنسية، لأنَّ تعاضم الأوضاع الداخلية، والخارجية أسفر عن تدهور وانحطاط الاقتصاد العثماني بنسب ملحوظة، والقول: إن الآثار الإيجابية لأنشطة النقل البحري الفرنسي مع الموانئ العثمانية ظهرت جلياً عبر الاشتراك في نقل جزءٍ من المنتجات الصناعية^(٢٤) التي لا تنتجها السلطنة؛ لتلبية حاجات المجتمع العثماني، كما كان لها آثار إيجابية عظيمة مع تيسير التنقل بين الولايات العثمانية من جهة، وبين الولايات العثمانية وأرجاء العالم من جهة أخرى، أضف إلى ذلك تقليص الوقت المستغرق إبان السفر، وتخفيف وطأة مشقة السفر.

كما ظهرت الآثار الإيجابية لشركات النقل الفرنسية عند التخفيف حدة المجاعات المنتشرة في أنحاء مختلفة من الولايات العثمانية، وعلى وجه الخصوص في استانبول، فشاركت هذه الشركات في نقل المواد الأولية إلى الولايات العثمانية التي تعاني من المجاعات، والأدلة على ذلك متعددة، منها: تلبية شركة الشحن البحري جزء من احتياجات استانبول من المنتجات الغذائية^(٢٥)، وتأمين شركة نيكولاس باكيت للبواخر المغربية والأرمنية أيضاً كميات يسيرة من المواد الأولية لاستانبول، ونقل الماشية من طربزون إليها^(٢٦)، وبالطبع، لم تقتصر الغاية على الجانب الإنساني؛ وإنما لنيل إيرادات مالية من شحن المواد الغذائية لمسافات قصيرة، ومهما كان الهدف المقصود، فإنها خفضت حدة المجاعات، وعادت بالفائدة على العثمانيين.

٢/٣- الآثار الاقتصادية السلبية

بعد توضيح الآثار الإيجابية الضئيلة المخصصة لأنشطة شركات النقل الفرنسية مع موانئ السلطنة العثمانية، يمكن الانتقال إلى ما خلفته أنشطة هذه الشركات من آثار اقتصادية سلبية بعد فرزها ضمن أربعة أقسام؛ لتسهيل عرضها.

١- (٢/٣) الزراعة

شهدت الزراعة العثمانية بعد ازدياد إبرام المعاهدات التجارية العثمانية - الأجنبية ومنها الفرنسية وبعد تنامي فكرة التنظيمات العثمانية وبدء أنشطة شركات النقل الفرنسية مع الموانئ العثمانية تحولاً بالغ الأهمية فانتقلت من ما عرف سابقاً بالاكفاء الذاتي إلى تهئية الزراعة العثمانية للتصدير العالمي^(٢٧)، فازدادت نتيجةً لذلك الأراضي الزراعية العثمانية بإشراف أوروبي - فرنسي بناءً على الأهداف المأمولة، وتضاعفت أعمال الفلاحين العثمانيين سعياً لتطوير المواد الزراعية الضرورية للمصانع، وحيازة كميات هائلة؛ لتوريدها إلى الموانئ الفرنسية، فبلغت الصادرات الموجهة إلى الموانئ الفرنسية ما يقارب ٩٠% من الصادرات العثمانية السنوية^(٢٨).

ومن الواضح أن هذه تكثيف الأعمال الزراعية في الأراضي العثمانية شكل عبئاً على الفلاحين وزاد من أعمالهم مع عدم تحسن أوضاعهم، وخاصةً لأنَّ السياسة العثمانية المطبقة على الفلاحين العثمانيين، والمركزة على توفير الغذاء اليومي فقط وتجهيز الفائض للعبادة بقيت مستمرة، ولم تقطع رغم التحولات الاقتصادية العالمية، ورغم مضاعفة أعمالهم وبيع منتجاتهم بالأسعار العالمية، إلا أن الفلاحين العثمانيين لم ينالوا مورداً مالياً مناسباً لحجم أعمالهم وجودة منتجاتهم^(٢٩)، ويبدو أن السبب الرئيس يرجع إلى الوسطاء العثمانيين الذين أقبلوا لنيل أرباح مضاعفة بعد شراء هذه المنتجات بأسعار زهيدة وبيعها للفرنسيين بأسعار أعلى لتصديرها عبر السفن البخارية إلى الموانئ الفرنسية، وعلى ذلك يمكن القول: إن ما شهدته الزراعة العثمانية من زيادة كانت مخصصة للتصدير الخارجي فقط، وليس لتنمية الاقتصاد العثماني أو لتحسين الأوضاع الزراعية والعاملين فيها.

٢- (٢/٣) الصناعة

كانت الشريحة الأكبر من العثمانيين قبيل العام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م ينتجون ملابسهم بأنفسهم عن طريق تنظيف الصوف، أو القطن، وغزله إلى خيوط، ونسج القماش بأنوال يدوية، بينما فضلت الشريحة الأخرى

أدى إلى نشوء ثلاثة أنواع من الصناعات: الأول: تقليد المنتجات الفرنسية، والثاني: استمرار الصناعة المحلية القديمة باستخدام الخيوط، والأقمشة، والمواد الصناعية الفرنسية^(٣٥)، أما الثالث: فقد تمثل في تأسيس حرف حديثة، مثل: النجارين، وصناع الأحذية، وصناع الساعات، والميكانيكيين، وغيرها^(٣٦).

الدرجة الصناعية الثالثة: تراجعت الصناعات المحلية فيها، وكان منها النول اليدوي، حيث أفاد أحد القناصل الفرنسيين بانخفاض عدد النول في حلب من أكثر من ١٢,٠٠٠ نول إلى ١٥٠٠ نول، ومن ٤,٠٠٠,٠٠٠ قطعة إلى ١٠٠٠ قطعة سنوياً، ورغم هذا التراجع إلا أن صناعة النول اليدوي استمرت في العمل حتى الحرب العالمية الأولى^(٣٧).

وقد كان لتدفق الصناعات الفرنسية الناجم عن ظهور شركات النقل الفرنسية، أثر واضح على الدرجات الصناعية المذكورة أعلاه، وتزامن ذلك مع مواجهة المصنعين العثمانيين للعقبات في امتلاك المواد الخام لورشاتهم^(٣٨)، ومن المحتمل أن ذلك ناتج عن تفضيل الوسطاء المحليين بيع المواد الخام للتجار الفرنسيين الذين يسددون مدفوعات نقدية أعلى، وهو ما لم يتمكن المصنعون المحليون من مواجهته بسبب محدودية مدفوعاتهم.

وهكذا فإن صمود الحرف الصناعية العثمانية أمام تدفق المنتجات الصناعية الفرنسية كان فريداً من نوعه؛ لأن السلطنة شهدت زيادة كبيرة في الواردات الفرنسية، حيث تضاعفت كمية المنتجات القطنية المنقولة إلى الموانئ العثمانية بنسبة ١٠٠%، فعلى سبيل المثال وفي العام ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م شحنت شركة روستاند منتجات صناعية إلى ميناء ازمير بما في ذلك الأقمشة والخيوط القطنية بقيمة ١٦,٤٧٤,٠٠٠ فرنكاً فرنسياً، وفي الستائر والمفروشات بقيمة ١,٤١٩,٠٠٠ فرنك فرنسي، وفي الأقمشة الحريرية بقيمة ٢٦٠,٠٠٠ فرنك فرنسي، وفي الأواني الزجاجية بقيمة إجمالية ٨٧٨,٠٠٠ فرنكاً فرنسياً، كما قدرت التكلفة الإجمالية للصناعات الحديدية بنحو ٨٢٨,٠٠٠ فرنكاً فرنسياً^(٣٩)، كما قامت شركة الخدمات البحرية للشحن الإمبراطوري بتصدير كميات من المنتجات الصناعية إلى العديد من الموانئ

شراء الأقمشة المحلية العثمانية المنتجة في الورش والمنازل وخطاتها بحسب أذواقهم^(٣٠)، لكن وبعد العام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م، فقد أحدث وصول شركات النقل الفرنسية تغييرات هائلة في الصناعة العثمانية، لكن وفي البداية من الضروري الابتعاد عن المبالغة أو التعميمات المستندة إلى بعض مزاعم الكتاب والقائلة إن الحرف اليدوية العثمانية اندثرت بشكل تام^(٣١) بسبب تدفق المنتجات الصناعية الأجنبية، وخاصة تلك القادمة من فرنسا والتي تم نقلها عبر السفن البخارية إلى الأسواق العثمانية، والقول إن تكثيف أنشطة شركات النقل الفرنسية أدى نحو الموانئ العثمانية إلى تدفق كميات كبيرة من المنتجات الصناعية الفرنسية، مما فرض تحديات عظيمة على الصناعات المحلية العثمانية، ولكن وبعد فحص البيانات المتاحة تبين أنه يمكن تصنيف أثر ظهور شركات النقل الفرنسية على الصناعة العثمانية بحسب درجة التأثير، ووفق الآتي:

الدرجة الصناعية الأولى: تأثرت الصناعات في هذه الدرجة مع تدفق المنتجات الصناعية الفرنسية تأثراً كبيراً، إلا أنها أظهرت قدرة على الصمود والثبات، وانقسمت إلى قسمين: القسم الأول سعى إلى مواصلة العمل بكل الوسائل المتاحة، وهو ما انطوى على خفض الأسعار بشكل كبير، وفي بعض الأحيان إلى ما يقارب من خمس الأسعار المعتادة^(٣٢)، ورغم هذه التخفيضات، فقد استمرت الصناعات في هذا القسم أظهرت مقاومة فعالة حتى الحرب العالمية^(٣٣).

أما القسم الثاني: فقد اشتهر بنشاطه التصديري المتزايد، ويتضح ذلك في صناعة النسيج التي شهدت تزايد الطلب الأوروبي عليه، وبدأت مجموعة من النساء في السلطنة في نسج السجاد وبيعه للوسطاء المحليين بأسعار منخفضة، ليقوم الوسطاء ببيعه للتجار الفرنسيين بأسعار أعلى لشحنه إلى الموانئ الفرنسية^(٣٤)، ومما تقدم يلحظ القارئ: إن الصناعات المحلية عملت على مقاومة الانحدار والحد من الاعتماد على المنتجات الصناعية الفرنسية، مع الحفاظ على الممارسات الاقتصادية والاجتماعية التقليدية.

الدرجة الصناعية الثانية: تأثرت الصناعة العثمانية فيها بالمنتجات الصناعية الفرنسية واقتبست منها، مما

الداخلية في الاعتماد على الصناعات التقليدية، فكانت الموانئ العثمانية أول من تأثر بتدفق المنتجات الصناعية الفرنسية نظراً لوصول هذه المنتجات من السفن البخارية الفرنسية إليها أولاً^(٤٢)، وحتى بعد إنشاء شركات الطرق الفرنسية والتزام التي تجرها الخيول، لم يكن هناك تغيير كبير في حركة المنتجات الصناعية، ومع ذلك أدى إدخال السكك الحديدية الفرنسية دوراً محورياً في تسهيل تدفق هذه المنتجات إلى الأراضي الداخلية، وقد تحقق ذلك من خلال ربط الأراضي الداخلية بأقرب ميناء تجاري.

(٢/٣) ٣- التجارة

كان للمستثمرين الفرنسيين دور فعال في تأسيس شركات متخصصة لبناء وتطوير الموانئ، والأرصعة العثمانية، وقد منحت هذه الشركات امتيازات استثمارية، مما سمح لها باحتكار جانب حاسم من التجارة العثمانية، وقد أمن هذا الاحتكار مزايا كبيرة للشركات الفرنسية في السلطنة، وخاصة في قطاع النقل، فقد عمل على تبسيط تفريغ البضائع، وتسهيل تحميل المواد الخام، وأدى إلى خفض الرسوم الجمركية، ومن بين الأمثلة التوضيحية لذلك يلحظ القارئ الخلافات بين الأخوين دوسو (Les frères Dussaud) الفرنسيين وبين البريطانيين المقيمين في ازمير أثناء تشييد رصيف ازمير الناجمة عن إعاقاة البريطانيين للبناء ورفضهم تحديث جزء من الرصيف المواجه للقنصلية البريطانية، وفي النهاية، وبعد المفاوضات، وافق البريطانيون على استكمال التشييد، فانهت أعمال التشييد في ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٧م، ومن الواضح أن الأخوين دوسو لم ينسوا الموقف البريطاني، ولكن تريثاً في الرد حتى افتتح الشركة، حيث فرضا على البريطانيين رسوماً مرتفعة مع تأخير تفريغ السفن التابعة لهم^(٤٣).

ومن الواضح أن الترابط بين الاستثمارات الفرنسية كان بمثابة القوة الدافعة وراء إشعال الصراع الفرنسي-البريطاني في السلطنة، وإفادة شركات النقل الفرنسية؛ ذلك لأن الموقف البريطاني العدائي لم يستهدف الأخوين دوسو فحسب، بل شمل جميع المستثمرين الفرنسيين في ازمير، مما أدى إلى تشييط الأنشطة التجارية البريطانية

العثمانية، مثل ميناء بيروت خلال العام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م.

الجدول رقم (١)

المنتجات الصناعية المصدرة إلى ميناء بيروت في العام (١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م)

نوع المنتج	الكمية المصدرة (كغ)	السعر (فرنك فرنسي)
الأقمشة (القطنية - الحريرية - الصوفية)	١٩٨,٦٥١	١,٩٧١,٦٠٠
أدوات معدنية	١٦١,٤٥٩	٩٦٨,٨٠٠
الصناعات الجلدية	٤١,٧٣٩	٢٧١,٣٠٠
العطور	١٠,٦٠٦	١٥٩,١٠٠
الأحذية	٦,٥٥٥	٧٨,٧٠٠

l'Agriculture du Commerce (1869), N° 18, P 39.

يتضح من الجدول أن شركة الخدمات البحرية للشحن الإمبراطوري كانت قادرة على شحن كميات لا بأس بها إلى ميناء بيروت على الرغم من الأحداث السياسية التي كانت تحيط بالميناء، وقد كان لهذه الشحنات وغيرها تأثير على الصناعات المحلية، ومن المحتمل أن تدفق هذه المنتجات بكميات كبيرة على مر السنين، وغزو الأسواق العثمانية أثر بشكل غير مباشر على أذواق معظم السكان القاطنين في الموانئ، والمدن الكبيرة، فاتجهت أذواقهم نحو المنتجات الصناعية ذات الطابع الغربي^(٤٤)، وفي المقابل، استمر غالبية السكان الذين يعيشون في الريف بإنتاج ملابسهم الخاصة معتمدين على الأقمشة والخيوط المنسوجة يدوياً، ولم تتمكن الصناعات الفرنسية من التأثير على ملابسهم التقليدية^(٤٥).

كما كان لتأخر إحداث شركات النقل البري إلى جانب تحديات توصيل المنتجات الصناعية بكميات كبيرة باستخدام الطرق التقليدية، أن واصلت الأراضي

تدريجياً، وفي غضون ذلك، استفادت بريطانيا من هذا الوضع ووسعت أنشطتها التجارية حتى تفوقت على فرنسا بعدما شغلت المرتبة الأولى في التجارة العثمانية، وكان هذا التحول مصحوباً بزيادة مماثلة في النفوذ السياسي والاقتصادي لبريطانيا في السلطنة، فضغت بذلك العلاقات التجارية الفرنسية هناك، وبدأت المنتجات الصناعية البريطانية تحل محل الفرنسية^(٤٧). وبعد استقرار الوضع الداخلي، شهدت الصناعة الفرنسية نمواً متسارعاً، وعلى الرغم من استئناف التجارة الفرنسية مع السلطنة، لكنها لم تتمكن من استعادة مكانتها التجارية السابقة، وظلت في المرتبة الثانية بعد بريطانيا.

١/٤- أثر شركة الخدمة البريدية البحرية

للدولة على الاقتصاد الفرنسي

بقيت الأوضاع الفرنسية السابقة الذكر على حالها حتى تأسست في العام (١٢٥٠هـ / ١٨٣٥م) شركة الخدمة البريدية البحرية للدولة؛ بهدف تعزيز العلاقات مع الجزائر، وربط الموانئ الفرنسية مع العثمانية^(٤٨). والسؤال الحاسم الآن هو ما إذا كانت هذه الشركة قد نجحت في تحقيق هذه الأهداف، وما إذا كان لها أثر كبير على الاقتصاد الفرنسي؟

يتضح من المعطيات السابقة، أنه كان لنقل امتياز الشركة إلى وزارة الحرب الفرنسية تأثير كبير في الحد من عائدات الشركة منذ البداية، وذلك لأن عمليات السفن البخارية التابعة للشركة ركزت في المقام الأول على تلبية الاحتياجات السياسية، والعسكرية لفرنسا، بدلاً من الانخراط في أنشطة تجارية أو نقل الركاب، والسبب الرئيس وراء ذلك هو أن سفن الشركة كان تصميمها عسكرياً، ولم تكن ملائمة لتقديم خدمات نقل الركاب وشحن البضائع إلا بأعداد وكميات شبه معدومة، ورغم دخول معاهدة بالطة ليمان حيز التنفيذ في ١٤ ذو الحجة ١٢٥٥هـ / ١ آذار ١٨٣٩م^(٤٩) لكن فرنسا لم تستفد منها بالكامل كما خططت على النقيض من بريطانيا التي كانت سفنها موصمة لشحن البضائع ونقل الركاب، لكنها واجهت عقبات أعاقَت تجارتها في السلطنة^(٥٠).

بشكل ملحوظ، ومن الأمثلة على ذلك تنفيذ تعريفات جمركية مخفضة عند تشغيل امتياز المنارات الفرنسية في السلطنة على شركات النقل الفرنسية والأوروبية، باستثناء البريطانية^(٤٤)، وتؤكد هذه الحالات على التأثير الإيجابي لامتيازات الموانئ الاستثمارية الفرنسية على شركات النقل الفرنسية مما مكنها من السيطرة على حصة كبيرة من التجارة العثمانية، كما يلاحظ وجود تعاون مشترك، ومنسق بين الاستثمارات الفرنسية وشركات النقل الفرنسية؛ لتحقيق تجارة فعالة تفيد الاقتصاد الفرنسي، وفي الختام يلاحظ، أنه أثرت شركات النقل الفرنسية بشكل كبير في تراجع الاستثمارات الأوروبية الأخرى في السلطنة.

أمام هذه التطورات، فقد أضحت احتكار الفرنسيين للموانئ العثمانية المهمة والمواد الخام المعدة للتصدير، أمراً مثيراً للقلق المتزايد، وأثر سلباً على الاقتصاد العثماني، وفقدت السلطات العثمانية السيطرة على أسعار المواد الأولية، ويعزى ذلك إلى سيطرة المستثمرين الفرنسيين على بعض المواد الخام، وكان الدليل على ذلك الزيادة الهائلة في نسبة صادرات الحبوب العثمانية من السفن الفرنسية الناجمة عن تزايد الطلب الفرنسي عليه، وتزامن ذلك مع الحروب العثمانية-الأجنبية، وفقدان الأراضي الغنية بالحبوب^(٤٥).

رابعاً: أثر أنشطة النقل البحري الفرنسي مع الموانئ العثمانية على الاقتصاد الفرنسي

تمكنت فرنسا من التغلب على العقبات الهائلة التي فرضتها قوانين الاحتكار العثمانية على المواد الأولية، وصعوبة الحصول على إذن من السلطات المحلية، والوسطاء المحليين، ومَشَقَّة التعامل مع السفن الشراعية متفوقة على نظيراتها الأوروبية، وبرزت باعتبارها الشريك التجاري الأول للسلطنة^(٤٦)، ومن الواضح أن التفوق الفرنسي لم يدم طويلاً، ويرجع هذا إلى انشغالها بالقضايا الداخلية والحروب الخارجية، مما أضعف التجارة في أراضيها، فعده بعض المؤرخين الفرنسيين كارثة وطنية مدمرة، وانعكس هذا التراجع على التجارة الفرنسية مع السلطنة حيث تضاعف النفوذ الفرنسي

وصادرات شركة شبه الجزيرة والملاحة البخارية الشرقية البريطانية، وكذلك شركة لويد النمساوية -

جدول رقم (٢)

مقارنة حركة الصادرات والواردات بين شركة شبه الجزيرة والملاحة البخارية الشرقية، وشركة لويد، وشركة روستاند خلال العام (١٢٦٢هـ/١٨٤٦م)

ميناء	شركة شبه الجزيرة والملاحة البخارية الشرقية (فرنك فرنسي)	شركة لويد (فرنك فرنسي)	شركة روستاند (فرنك فرنسي)
الإسكندرية	٣١,٦٣٦,٠٠٠	١٧,٧٣٦,٠٠٠	١١,٥٥٦,٠٠٠
بيروت	١١,٦١٥,٠٠٠	١,١٠٣,٠٠٠	٨,٢٠٥,٠٠٠
الإسكندرون	٣,٤٥١,٠٠٠	—	١,٣٧٠,٠٠٠
ازمير	٢١,٨٣٨,٠٠٠	١٦,٦٥٩,٠٠٠	٨,٤٢٢,٠٠٠
سلاطيك	٣,٦٧٤,٠٠٠	١,٥٦٠,٠٠٠	٣,٤٠٦,٠٠٠
المجموع	٧٣,٢١٤,٠٠٠	٣٧,٠٥٨,٠٠٠	٣٢,٩٥٩,٠٠٠

Compagnie Generale Des Comptoir Levantins (1850), P: 18,22, 25, 29, 40.

بناءً على الجدول، يتضح أن شركة روستاند وضعت فرنسا في المرتبة الثالثة في التجارة مع معظم الموانئ العثمانية، بعد شركة شبه الجزيرة والملاحة البخارية الشرقية، وشركة لويد، باستثناء مينائي بيروت، والإسكندرون فإنها نالت فيهما المرتبة الثانية متفوقةً على شركة لويد، وركزت الشركة أنشطتها في الموانئ العثمانية المطلة على البحر المتوسط، مع إيلاء أكبر قدر من الاهتمام بالمواد الأولية مثل الحبوب، والفواكه الطازجة والمجففة، والحديد، وشرانق الحرير، والمعادن وخاصةً النحاس، والصباغ الأصفر، والصوف، والجلود بكافة أنواعها... إلخ^(٥٣) في موانئ مثل الإسكندرية، وازمير، تلاها في الأهمية مينائي سلاطيك، وبيروت، لكن ميناء الإسكندرون حظي بالنصيب الأقل من الأهمية، وأظهرت واردات مرسيليا إلى هذه الموانئ طلباً متزايداً على المنتجات الصناعية الفرنسية بما في ذلك: الأقمشة القطنية، والستائر، والصناعات الحريرية، والأواني الزجاجية والصناعات الحديدية..^(٥٤) وكان للنفوذ

ومما سبق أعلاه يمكن الاستنتاج أن هذه الشركة فشلت في تحقيق أهداف اقتصادية كبيرة، فهي لم تلبي احتياجات النقل الفرنسية بين الموانئ المختلفة، كما لم تنجح في استيراد المواد الأولية العثمانية، وتصدير المنتجات الصناعية الفرنسية، ونتيجة لذلك لم تتمكن من توليد إيرادات من شأنها أن تفيد الاقتصاد الفرنسي، ويبدو أن الممارسة التقليدية الفرنسية المتمثلة في إرسال السفن الشراعية إلى الموانئ العثمانية منذ ابتداء العلاقات التجارية بينهما كانت أكثر فعالية في تلبية متطلبات التجارة الفرنسية من هذه الشركة.

ورداً على الأحداث الأخيرة التي أدت إلى إغلاق الشركة، حاولت صحيفة المرشد العالمي (Le Moniteur Universel)^(٥١) تحسين سمعة الشركة والتصريح بأن رحلاتها كانت مفيدة، وزادت من الاتصال مع الموانئ العثمانية، ووسعت النفوذ السياسي الفرنسي، وأتاحت فرصاً جديدة للصناعات الفرنسية، مما أعاد القوة الاقتصادية لفرنسا، لكن ما تبين أنه من المستحيل أن ينطبق وصف الصحيفة عليها، لأنها لم تحقق سوى الخسائر، ودلالة ذلك أن رأس المال الذي التزمت به وزارة المالية كان ٨٠٣,٣٨١,١٣ فرنك فرنسي، وكان من المتوقع أن تجني إيرادات تعود بالفائدة على الاقتصاد الفرنسي، إلا أنها أصيبت بعجز مالي في العام (١٢٦٥هـ/١٨٤٩م) وصل إلى ٢,٨٧٤,٣٩٠ فرنك فرنسي، في وقت ازدادت فيه مصاريف التشغيل في العام (١٢٦٧هـ/١٨٥١م) متخطية ١١,٣٠٦,٨٦١ فرنكاً فرنسياً، فقدّرت الخسارة بـ ٢٧,٢٣٧,٨٩٤ فرنك فرنسي^(٥٢).

٢/٤- أثر شركة روستاند على الاقتصاد الفرنسي

بعد إفلاس شركة الخدمة البريدية البحرية للدولة، ظهرت شركة روستاند كشركة عائلية خاصة، ووسعت نطاق عملياتها لتشمل الموانئ العثمانية، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل حققت هذه الشركة النجاح المنشود أم لاقت مصيراً مماثلاً لسابقتها؟ وهنا ولتقييم قدرات الشركة ومعرفة مدى تأثيرها على الاقتصاد الفرنسي، من الضروري مقارنة إجمالي الاستيراد والتصدير للشركة في الموانئ العثمانية بإجمالي واردات

٢٤,٠٠٠,٠٠٠ إلى ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك فرنسي^(٥٦)، وكان هذا الارتفاع نتيجة مباشرة للنجاح الذي حققته الشركة في إدارة عدد كبير من الخطوط في وقت واحد أثناء الحرب وقدرتها على التفوق على شركات النقل الأجنبية الأخرى.

ومما لا شك فيه، أنه وفي ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أدت الثورة الصناعية إلى تطور ملحوظ في استقلال فرنسا فرنسا التكنولوجي، وقد سمح هذا الاستقلال لفرنسا بتصنيع الآلات اللازمة لمصانعها، كما أدى بروز الرأسمالية الفرنسية، وتركيزها على التصدير إلى أجزاء مختلفة من العالم بما في ذلك السلطنة العثمانية^(٥٧) إلى تطوير إمكانيات الشركة، وإحرازها مكاسب جيدة في السلطنة، فعلى سبيل المثال، شغلت في بعض الموانئ المرتبة الأولى، بينما شغلت في البعض الآخر المرتبة الثانية أو الثالثة، في حين لم تحرز في بعض الموانئ أي إيرادات ملحوظة، ففي ميناء استانبول، مثلاً: بلغت حصة شركة الخدمات البحرية للشحن الإمبراطوري ٩٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك فرنسي من الواردات والصادرات بين مرسيليا واستانبول، بينما بلغت حصة الشركات البريطانية ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك فرنسي من البضائع المرسلة إلى استانبول، وبلغت حصة شركة لويد النمساوية ٣٢,٠٠٠,٠٠٠ فرنك فرنسي، وحصة الشركة الروسية ١٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك فرنسي. وهكذا شغلت شركة الشحن البحري المرتبة الثانية من حيث إجمالي الحمولات في الميناء بنسبة ٣٣,٧٧% تليها شركة لويد النمساوية بنسبة ٣٢,٣٠%، ثم الشركة الروسية البخارية بنسبة ٢٧,٣٢%، وشغلت الشركات البريطانية المرتبة الأولى بنسبة ٧٠,٩٢%، بينما بلغت حصة الشركات البخارية الفرنسية المتبقية من حمولاتها نحو استانبول ٥,٧٧% فقط^(٥٨)، ولذلك حققت شركة الخدمات البحرية للشحن الإمبراطوري نتائج مميزة في استانبول وحصلت على المرتبة الثانية عالمياً، والمركز الأول محلياً.

ويلحظ من الأمثلة على مكاسب شركة الخدمات البحرية للشحن الإمبراطوري أيضاً في ميناء الإسكندرية، أنها نقلت بفعالية المواد الخام المصرية، وخاصة القطن إلى المصانع الفرنسية، وبمقارنة

الفرنسي، والبيوت التجارية في هذه الموانئ تأثير كبير على هذه الإيرادات، وخاصة في بيروت والإسكندرية وازمير، التي تلقت أعلى كميات من المنتجات الصناعية الفرنسية، وعملت هذه الموانئ كبوابات للأراضي الداخلية المحيطة بها، حيث تخدم بيروت بشكل خاص: الشام، وحلب، والإسكندرية الأراضي المصرية كافة، وازمير تخدم ضواحي غرب الأناضول بأكمله.

وفي إطار أنشطة شركات النقل الأجنبية في ميناء استانبول، لوحظ أن التقارير والمصادر الأجنبية لم تقدم معلومات عن إجمالي إيرادات شركات النقل الأجنبية في الميناء على عكس الموانئ الأخرى، بل ركزت فقط على إجمالي حمولات كل شركة، وبعد فحص البيانات يتضح أن حمولات شركة روستاند بلغت حوالي ٦٩,٥٦٤ طناً، سبقتها شركة شبه الجزيرة البريطانية ٥٠٤,٨٠٤ طناً، ثم شركة لويد ٢٨٣,٥١٢ طناً^(٥٩). لكن بعد العام ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م لم تتمكن شركة روستاند من الصمود نتيجة للأسباب المذكورة أعلاه، إضافة إلى قلة رأسمالها ١,٥٠٠,٠٠٠ فرنكاً فرنسياً مقارنة مع الأعمال التي قامت بها، واقتصرت عمل الشركة على ثلاث سفن بخارية فقط، ورغم فشلها في الاستمرارية إلا أنه لا يمكن إنكار أنها حققت نشاطاً واسعاً وإيرادات جيدة خلال سنوات قليلة وانعكست على الاقتصاد الفرنسي، حتى أنه يمكن القول إن شركة روستاند قامت بأعمال جديرة بالملاحظة وتفوق نشاطها على نشاط شركة الخدمة البريدية البحرية للدولة.

٣/٤- أثر لشركة الخدمات البحرية للشحن

الإمبراطوري على الاقتصاد الفرنسي

لقد أصبح الأثر الاقتصادي في فرنسا واضحاً مع الأنشطة الرائعة لشركة الخدمات البحرية للشحن الإمبراطوري في الموانئ العثمانية، وذلك منذ أن أحرزت عند مشاركتها في حرب القريم ١٢٧٠-١٢٧٢هـ/ ١٨٥٤-١٨٥٦م أرباحاً ضخمة بلغت نحو ١٥,٩١٣,٧٩٣ فرنكاً فرنسياً، والجدير بالذكر أن تغطية فرنسا لنفقات الشركة أثناء الحرب كان له أثر بالغ الأهمية في ارتقاء الشركة إلى مستوى أعلى، فارتفعت نسبة أرباح الشركة إلى ١٤% وأدت إلى زيادة رأسمال الشركة من

جدول رقم (٢)

مقارنة الصادرات والواردات في ميناء الإسكندرية
 لشركة الخدمات البحرية للشحن الإمبراطوري، وشركة
 شبه الجزيرة والملاحة البخارية الشرقية
 ١٢٧٩-١٢٨٨هـ/١٨٦٣-١٨٧٢م

صادرات الشركة وواراداتها بصادرات وواردات شركة
 شبه الجزيرة والملاحة البخارية الشرقية؛ يمكن فهم
 مدى استفادة الاقتصاد الفرنسي من أنشطة الشركة.

شركة الخدمات البحرية للشحن الإمبراطوري		شركة شبه الجزيرة والملاحة البخارية الشرقية		العام
الصادرات (فرنك فرنسي)	الواردات (فرنك فرنسي)	الصادرات (فرنك فرنسي)	الواردات (فرنك فرنسي)	
٢,٣٥٤,٦٦٨	٥٨,٠٢٩,٩٧٣	٢,٦٣٦,٨٧٥	٨٢,٣٥٣,٨٩٧	١٢٧٩هـ/١٨٦٣م
٥,٧٦٦,٠٣٠	٨٢,٠٠٠,٠٠٠	٧,١٥٧,٥٧٥	٤٢,٣١٣,٩٢٥	١٢٨٠هـ/١٨٦٤م
٢٠,٤٠٠,٠٠٠	٥٥,٠٠٠,٠٠٠	١٤,٠٥٠,٦٥٠	٢٧,٥٤٦,٤٠٠	١٢٨١هـ/١٨٦٥م
٤٢,٦٠٠,٠٠٠	٣٤,٢٠٥,٩٨٦	٣٦,٢٥٦,٤٧٥	١٧,٦٢٤,٩٠٠	١٢٨٢هـ/١٨٦٦م
١٣,٢٦٥,٠٠٠	١٧,٧٩٦,٧٨٣	٨,٤٢٥,٢٧٠	٩,٧٨٣,٣٧٠	١٢٨٣هـ/١٨٦٧م
٣,٧٣٧,٠٠٠	٢٠,٩٤٢,٨٠٠	٤,٠٣٧,٧٧٧	٥٩,٥٠٣,٤٢٠	١٢٨٤هـ/١٨٦٨م
٥,٠٩٠,٠٠٠	١٢,٠٤٢,٦٠٣	١٥,٩٠١,٠٧٧	٧,٤٠١,٧٨٠	١٢٨٥هـ/١٨٦٩م
١٠,٦١٥,٠٠٠	٤,٢٦٠,٩٢٤	٣٩,٣٧١,٢٧٧	٣٢,١٣٨,٧٠٠	١٢٨٦هـ/١٨٧٠م
٥,٩٤٦,٨٠٠	٤٣,٩٦٥,٠٩٠	٤,٤٣٢,٥٠٠	٢٠,١٢٣,٧٠٠	١٢٨٧هـ/١٨٧١م
٥٩٦,٢٠٤	٤٠,٤٠٥,٩٣٧	٣,١٦٩,٩٥٠	٢٢,٥٦٤,٥٨٤	١٢٨٨هـ/١٨٧٢م

L'Emprunt Egyptien (1873), P: 15.

وفي ٦ جمادى الأولى ١٣١٢هـ/٥ تشرين الثاني ١٨٩٤م؛ وقعت السلطات الفرنسية اتفاقية لإعادة تنظيم خطوط البحر المتوسط، فارتفع الدعم الذي قدمته السلطات الفرنسية للشركة على خطوط البحر المتوسط من ٢٩٧٣٧٥ كم بدعم قدره ٧٩٢,٤٩٢ فرنك فرنسي، إلى ٥٧٦,٥٧٥ كيلومتر بدعم قدره ١,٣٥١,٦٦٥ فرنك فرنسي، وتحسنت الإيرادات، وأثرت بالوقت ذاته على الاقتصاد الفرنسي^(٥٩).

وبدراسة تقارير غرفة التجارة في مرسيليا (Chambre De Commerce De Marseille)، وفرز الأنشطة التجارية الواردة في التقارير، وتحليل حركة الصادرات والواردات في كل عام، يمكن تصنيف كافة المعلومات المتعلقة بحركة الصادرات والواردات لشركة الشحن البحري الخاصة التي تخدم الموانئ العثمانية

يشير الجدول إلى أن شركة الخدمات البحرية للشحن الإمبراطوري نافست واحدة من أقوى شركات العالم، وتفوقها عليها خلال الأعوام ١٢٧٩-١٢٨٨هـ/١٨٦٣-١٨٧٢م، كما أن الزيادة الكبيرة في الواردات إلى فرنسا دعمت الاقتصاد الفرنسي، وزودت المصانع الفرنسية بالمواد الأولية؛ اللازمة لإنتاج المنتجات الصناعية التي لم تكن تباع في الأراضي الفرنسية فحسب؛ بل وفي ميناء الإسكندرية أيضاً، إلا أن كمية الصادرات من مرسيليا إلى ميناء الإسكندرية ظلت ضئيلة مقارنة بالواردات؛ لأن المنتجات الصناعية الفرنسية كانت توزع عالمياً على أساس الطلب.

العالم، ولمعالجة هذا الأمر أصدرت السلطات الفرنسية قانون التجارة البحرية في ٢٨ ذي الحجة ١٣١٩هـ/ ٧ نيسان ١٩٠٢م؛ لتشجيع الشركات على تجديد سفنها البخاريّة، وسارعت شركة الشحن البحري إلى تنفيذ هذا القانون بزيادة رأسمالها، وشراء السفن البخاريّة المتطورة؛ مما أدى إلى زيادة إيراداتها في السلطنة واستمرت في الزيادة حتى الحرب العالمية الأولى، وكان لذلك أثر فعّال على الاقتصاد الفرنسي^(١١).

٤/٤- أثر شركات النقل البحريّة الخاصة على

الاقتصاد الفرنسي

أما بالنسبة لشركات النقل البحريّة الخاصة (الشركة الفرنسيّة للملاحة البخاريّة سيبريان فابر وشركائه - وشركة نيكولاس باكيت للبواخر المغربية والأرمنية - وشركة فريسينت للملاحة البخاريّة) فقد زادت أنشطتها في الموانئ العثمانيّة، فتضاعفت في سنوات، وانخفضت في سنوات أخرى، وذلك بسبب الظروف السياسية والاقتصاديّة في كل من السلطنة وفرنسا، إلا أنها أحرزت قدراً مهماً من الإيرادات وأثرت إيجاباً على الاقتصاد الفرنسي، ومن خلال تحليل تقارير غرفة التجارة في مرسيليا خلال الأعوام ١٢٨٤-١٢٩١هـ/ ١٨٦٨-١٨٧٥م، والتركيز على كل ما يتعلق بشركات النقل البحريّة الفرنسيّة، ومن ثمّ فرز حركة الصادرات والواردات لشركة فريسينت للملاحة البخاريّة بموانئ البحر المتوسط العثمانيّة، كان بالإمكان وضع الجدول التالي:

جدول رقم (٥)

الصادرات والواردات لشركة فريسينت للملاحة البخاريّة في موانئ البحر المتوسط خلال الأعوام ١٢٨٣-١٢٩٠هـ/ ١٨٦٧-١٨٧٤م

المطلّة على البحر المتوسط، وقد سمح هذا التحليل بتكوين الجدول التالي:

جدول رقم (٤)

الصادرات والواردات في موانئ البحر المتوسط خلال الأعوام ١٣١١-١٣١٥هـ/ ١٨٩٤-١٨٩٨م

العام	الصادرات (فرنك فرنسي)	الواردات (فرنك فرنسي)
١٣١١هـ/ ١٨٩٤م	٧,١٥٠,٠٠٠	١٦,٨٣٩,٠٠٠
١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م	٤٢,٤٤٧,٧٠٠	٢٠,٣٤٣,١٣٥
١٣١٣هـ/ ١٨٩٦م	٣٢,٥١٧,٠٠٠	٢١,٢١٦,٠٠٠
١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م	١٤,١٣٤,١٦٦	٢١,٧٣٦,٨٢٩
١٣١٥هـ/ ١٨٩٨م	١٠,٥٩٧,٣٦٠	٩,٧٢٨,٣٤٧

Chambre De Commerce De Marseille (1895), P: 193. Chambre De Commerce De Marseille (1896), P: 193. Chambre De Commerce De Marseille (1897), P: 193. Chambre De Commerce De Marseille (1899), P: 209.

توضح الإيرادات الفوائد الناجمة عن زيادة الدعم المقدم لموانئ البحر المتوسط مع الأخذ في الاعتبار أن الصادرات والواردات كانت مقتصرة على ميناء بيروت، وميناء ازمير، وميناء سلاّنيك فقط؛ ويرجع ذلك إلى أن الموانئ المصرية كانت تحت سيطرة البريطانيين، ويمكن عدّ هذه النتائج جديرة بتحقيق دخل مهم للشركة، وتلبية جزءاً من احتياجات الصناعات الفرنسيّة.

بالرجوع إلى الاتفاقية، يلاحظ أن أهم ما يميزها هو الإشارة إلى أنه في حالة تعرض الشركة لخسائر على خطوط التجارة الحرة في البحر الأسود، فإن هذه الخطوط ستتحول إلى خطوط مدعومة، ونتيجة لذلك تضاعفت أنشطة الشركة خاصة في الموانئ الواقعة على طول الساحل الروسي للبحر الأسود، وبحلول العام ١٣١٧هـ/ ١٩٠٠م ارتفعت إيرادات الشركة ارتفاعاً جيداً^(١٠).

وفي بداية العام ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م تزايدت الانتقادات الموجهة لفرنسا لأن السفن المستخدمة في شركة الشحن البحري باتت قديمة مقارنة بتطور السفن البخاريّة في

الواردات (فرنك فرنسي)	الصادرات (فرنك فرنسي)	العام	الواردات (فرنك فرنسي)	الصادرات (فرنك فرنسي)	العام
١١,١٥٧,٣٤٠	٢,٣١٢,٩٢٦	١٨٧١/هـ-١٢٨٧م	١٩,٨٢٠,٥٩٦	٣,٧٦١,٥٤١	١٨٦٧/هـ-١٢٨٣م
٦,٧١٨,٩٧٩	٢,١٩٠,٣١٩	١٨٧٢/هـ-١٢٨٨م	٩,٥٣٣,١٣٦	٩,٢٦٧,٢١٣	١٨٦٨/هـ-١٢٨٤م
٦,٩٦٩,٦٧٩	٢,٢٤٨,٦٢٩	١٨٧٣/هـ-١٢٨٩م	٢١,٣٢٦,١١٠	٤,٨٥٨,٤٩٩	١٨٦٩/هـ-١٢٨٥م
٤,٣٠٠,٠٩٠	٢,٤٥٤,٨٨١	١٨٧٤/هـ-١٢٩٠م	٢١,٧١٢,٠٨٨	٢,٦٥٠,٤٠٤	١٨٧٠/هـ-١٢٨٦م

الناس فحسب؛ وإنّما كان منهم: -على سبيل المثال- البرجوازيون الفرنسيون، وقد تضاءلت أعدادهم يوماً بعد يوم في الإسكندرية بعد ظهور شركات النقل البخارية الفرنسية، فحققوا أرباح كبيرة خلال إقامة علاقات تجارية في الأراضي المصرية، والوصول إلى أسواق للصناعات الفرنسية، ونقل كميات كبيرة من المواد الخام والمنتجات من الموانئ المصرية، وخاصة من ميناء الإسكندرية إلى الموانئ الفرنسية^(٦٢).

وفي نهاية المطاف، يلحظ مدى أثر شركات النقل البحرية والبرية الفرنسية في زيادة الصادرات والواردات، وكان لهذه الزيادة دوراً حيوياً في نمو الاقتصاد الفرنسي الذي شهد زيادة بنسبة ١,١%، وفي تضخم معدلات الإنتاج الصناعي الفرنسي إلى ٢,٣٥%، واستمرت معدلات الزيادة في الاقتصاد الفرنسي، والصادرات الفرنسية معاً حتى بلغت ١٧,١%، وحفز هذا النمو تبني تقنيات صناعية حديثة، وعزز النمو الاقتصادي الفرنسي، وحافظ على مكانته ك ثاني أكبر قوة اقتصادية في العالم بعد بريطانيا حتى الحرب العالمية الأولى، إلا أنه وبعد انهيار السلطنة تراجع الاقتصاد الفرنسي إلى المركز الرابع عالمياً حيث

Chambre De Commerce De Marseille (1868), P: 149. Chambre De Commerce De Marseille (1869), P: 146. Chambre De Commerce De Marseille (1871), P: 142. Chambre De Commerce De Marseille (1872), P: 128. Chambre De Commerce De Marseille (1873), P: 127. Chambre De Commerce De Marseille (1874), P: 142. Chambre De Commerce De Marseille (1875), P: 150.

تظهر بيانات الجدول نموذج عن الصادرات والواردات لشركة فريسينت للملاحة البخارية في موانئ البحر المتوسط خلال الأعوام ١٢٨٣-١٢٩٠هـ / ١٨٦٧-١٨٧٤م، ويمكن ملاحظة أنها رفدت بشكل كبير الاقتصاد الفرنسي، وساعدت السلطات الفرنسية خلال الأزمات الاقتصادية مثل الكساد الكبير مثلاً بالتغلب على معظم الأزمات بأقل الخسائر، وأسهمت في نمو البلاد، ودفعتها إلى مراكز متقدمة في التجارة العالمية، ونتيجة لذلك فقد قامت الشركات الفرنسية البحرية الأخرى بالافتداء بهذه الشركة، فأفادت الاقتصاد الفرنسي بشكل كبير.

كما كان لأنشطة شركات النقل البحرية الفرنسية في الاستيراد والتصدير، وكذلك في نقل الركاب من الموانئ الفرنسية إلى الموانئ العثمانية أثر كبير في رفد الاقتصاد الفرنسي، ولم يكن كل هؤلاء الركاب من عامة

تَفَوَّتْ اقتصادات دول أخرى عليه، مثل: الإمبراطورية الألمانية، والولايات المتحدة الأمريكية^(٦٣).

خامساً: مقارنة أثر أنشطة النقل البحري الفرنسي مع الموانئ العثمانية على الاقتصادين العثماني والفرنسي

بعد عرض أثار أنشطة النقل البحري الفرنسي مع الموانئ العثمانية على الاقتصادين العثماني والفرنسي وتوضيح حجم الأهداف والنتائج الإيجابية والسلبية عليهما، ومن المعطيات التي توضح على الاقتصادين قبل ظهور النقل البحري الحديث وبعده فقد تم التوصل إلى مقارنة تبين حجم الأثر على الاقتصادين في: (الصناعات المحلية - اقتصاد الدولة المعنية ذاتها - اقتصاد الدولة الأخرى - الموانئ المحلية - التطورات التقنية - الملاءمة والتكيف - الاستثمارات - التنافسية العالمية)، ويمكن إجمالها عبر الجدول الآتي:

المجال	الاقتصاد العثماني	الاقتصاد الفرنسي
الصناعات المحلية	تأثرت الصناعات العثمانية المحلية بسبب الضغط الكبير من الصناعات الفرنسية المنافسة لها، وصعوبة تحديث كافة الصناعات المحلية.	تحفيز الصناعات المخصصة للتصدير عبر النقل البحري، وتطوير صناعات جديدة مناسبة للطلب الخارجي.
الاقتصاد ذاته	تسهيل التجارة الداخلية والخارجية، واعتماد كبير على الواردات الصناعية الفرنسية، وتوفير فرص عمل محدودة في الموانئ العثمانية، وفي المقابل فقدان وظائف في قطاعات مختلفة.	نمو كبير في التجارة الفرنسية مع السلطنة العثمانية، وخلق فرص عمل مهمة في الأراضي الفرنسية في مختلف المجالات.
الاقتصاد الدولة الأخرى	تسهيل نقل المواد الخام العثمانية إلى الموانئ الفرنسية،	زيادة تدفق المنتجات الفرنسية نحو الأسواق

المجال	الاقتصاد العثماني	الاقتصاد الفرنسي
الموانئ المحلية	شهدت معظم الموانئ العثمانية تحديثات وتطورات استثمارية؛ لاستيعاب حجم التجارة.	توفير شبكة واسعة للتجار الفرنسيين في الأراضي العثمانية.
التطورات التقنية	شهدت السلطنة تطور بطيء نسبياً، مع صعوبة كبيرة في مواكبة التطور الأوروبي في ظل تفاقم الأوضاع السياسية والاقتصادية في أراضيها.	شهدت الموانئ الفرنسية ازدهاراً ونمواً في حركة التجارة، وتزامن ذلك مع تطوير الموانئ لاستيعاب حركة السفن.
الملاءمة والتكيف	لم تتمكن السلطنة من التكيف مع التغيرات الاقتصادية العالمية والتحديات الجديدة.	اكتسبت فرنسا مقدرة على التكيف مع تغيرات الأسواق العالمية، وتوسيع النشاط البحري إلى ما بعد الموانئ العثمانية.
الاستثمارات	ازدياد الاستثمارات الفرنسية المباشرة وغير المباشرة في الأراضي العثمانية وازداد التحكم في المؤسسات الاقتصادية العثمانية.	نمو البنوك الفرنسية لتمويل التجارة ولمنح قروض لأصحاب الشركات والمشاريع والاستثمارات بين فرنسا والسلطنة.
التنافسية العالمية	ازداد تراجع السلطنة عالمياً، مع صعوبة المنافسة خارج نطاق البحرين الأسود والمتوسط.	أصبح النقل البحري مصدراً مهماً للاقتصاد الفرنسي، وزاد من القدرة التنافسية للصناعات الفرنسية عالمياً.

خاتمة

أدركت فرنسا في سياستها التجارية منذ تنمية أعمالها التجارية في القرن السادس عشر أن الاهتمام بالتجار المحليين كان أحد أهم مرتكزات نهوض اقتصادها، فكانت تأخذ بالاعتبار آراء التجار والمنتجين، مع الحرص على استخدام القوارب الشراعية التابعة لها في التجارة مع الدول المعنية؛ لزيادة الإيرادات وتقليل البطالة والعمل على زيادة الصادرات، وتجنب الواردات الصناعية؛ لتحقيق أرباح تعود بالفائدة على الاقتصاد والتجار في آن واحد، وأيضاً، لحماية الصناعات المحلية من الصناعات الأجنبية، أما السلطنة، فإنها لم تدرك أبعد هذه السياسات، ولم تهتم بالتجار العثمانيين، بل على العكس تماماً، فقد أهملت تجارها، وأغدقت بالمقابل على التجار الفرنسيين امتيازات وفيرة تشجيعاً للتجارة الخارجية، فحققت بهذه العطايا الأهداف الفرنسية، كما أنها حظرت تصدير أغلب المواد الأولية، في حين أجازت للمنتجات والسلع غزو الأسواق العثمانية دون قيود، وبذلك استفادت فرنسا من طبيعة النظام العثماني؛ لفرض سياساتها، وتنفيذ أهدافها الرأسمالية، وساعدها على ذلك، فرض السلطنة قيود على التصدير، وتشجيع الاستيراد.

وبالطبع، فإن تقييد تصدير المواد الخام العثمانية حتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر كان له إيجابياته؛ لأنه عاد بالفائدة على السكان العثمانيين، ورسخ الاكتفاء الذاتي، ووفر المواد الغذائية في الأسواق، وثبت الأسعار إلى حد ما لإرضاء فئات المجتمع العثماني، لكن هذه السياسة -مع أهميتها- لم تكن كافية؛ لأنهم في الوقت ذاته لم يبذلوا جهداً لحماية المنتجات الصناعية العثمانية من منافسة المنتجات الصناعية الخارجية، وعندما ظهر تأثير الثورة الصناعية في أنحاء العالم، وتساعد غزو المنتجات الصناعية الأجنبية الأسواق العالمية، فقد طورت فرنسا سياستها في حماية الصناعات المحلية؛ لتحقيق نجاح مستدام، أما السلطنة، فلم تبذل أي جهود لحماية صناعاتها أو تنميتها، وقد كان بإمكانها عند محاولتها الاقتداء بالدول الأجنبية، أن تحذو حذو هذه الدول في تنمية اقتصادها ليقف في

ومن هذه المقارنة يلحظ أن الجوانب الإيجابية لأنشطة النقل البحري الفرنسي مع الموانئ العثمانية كانت ضئيلة جداً على الاقتصاد العثماني مقارنةً مع ما حققته للاقتصاد الفرنسي من مزايا عظيمة ويظهر الأثر الإيجابي بوضوح مع المساهمة في نمو التجارة الفرنسية وتعزيز مكانتها في الأسواق العالمية، وهذا شيء طبيعي لأن الهدف من هذه الأنشطة لم يكن لإفادة الاقتصاد العثماني، بل لإفادة مؤسسات الموطن الأم، كما يلحظ أن هذه الأنشطة عمقت من اعتماد الاقتصاد العثماني على الاقتصاد الأوروبي عامة ومنه الفرنسي، مع تركيز هذه الأنشطة على تسهيل التجارة الفرنسية دون أن تؤدي إلى تحفيز للإنتاج المحلي العثماني أو التطور الصناعي العثماني، مما أدى إلى تراجع قوتها الاقتصادية، وأضعف من قدرتها التنافسية على المدى الطويل.

الإحالات المرجعية:

- (1) Pamuk (2007), P: 37-46.
- (2) Özkiraz, Hamdemir (2009), P: 66.
- (٣) إينالجيك، كواترت (٢٠٠٧)، ج: ١، ص: ٥٤-٦٤، ٦٥-٨٠. فاروقي (٢٠٠٨)، ص: ٥٤-٥٥.
- Kurmuş (2007), P: 58.
- (٤) هرشلانغ (١٩٧٣)، ص: ١٥-١٤.
- (٥) هرشلانغ (١٩٧٣)، ص: ١٥.
- (6) Shaw, Shaw (1976, 1977), Vol: 1. P: 250. Vol: 2. P: 32.
- (٧) رافق (١٩٩٣)، ص: ٨٤-١٩١.
- (8) Elliot (1955), P: 129. Miski min (1975), P: 26.
- (9) Miskimin (1975), P: 25-28.
- (10) Miskimin (1975), P: 81-82, 92-93, 113-115. Trevelyan (2013), P: 36.
- بيرنجيه، دوران، كونتامين، راب (١٩٩٥)، ج: ٢، ص: ١١١-١١٨.
- (11) Kellenbenz (1976), P: 29. Negishi (2013), P: 3-6,8.
- فاروقي (٢٠٠٨)، ص: ٥٤-٥٥. فريد بك (١٩٨١)، ص: ٢٢٤.
- (12) Boyns, Edwards, Nikitin (2013), P: 22. Dutta (2010), P: 199. Sée (2004), P: 76-77, 87-88, 90, 92.
- (١٣) دريفوس، ماركس، بوادوفان (١٩٩٥)، ج: ٣، ص: ٦١-٦٠.
- (14) Le Moniteur Universel (1851, 17, Juin), P: 17.
- (١٥) ولد في الأرغون، وبرز في الأعمال التجارية في مرسيليا بعد انتقاله إليها.
- Roland, Eliane, Pierre (1999), P: 256.
- (١٦) تاجر، ومصرفي، ولد في مرسيليا، وكان الابن الأكبر لبرونو روستاند الذي علمه أسس التجارة منذ صغر سنه حتى برع فيها.
- Roland, Eliane, Pierre (1999), P: 259.
- (17) Berneron-Couvenhes (2007), P: 54-58. Compagnie Generale Des Comptoir Levantins (1850), P: 18, 22, 25, 29, 34, 40. Giraud (1929), P: 37. Uygun (2015), P: 38-39.
- (١٨) بعد اندماج شركة روستاند وشركة الشحن الوطنية وتشكيل شركة الشحن البحرية الوطنية، اكتسبت هذه الشركة امتياز النقل من السلطات الفرنسية في ٢٦ ربيع الآخر ١٢٦٧هـ/ ٢٨ شباط ١٨٥١م، فغيرت اسم الشركة إلى شركة الخدمات البحرية للشحن الإمبراطوري، ودام استخدام هذا الاسم حتى ٤ رمضان ١٢٨٨هـ/ ١٧ تشرين الثاني ١٨٧١م فعدل إلى شركة الشحن البحري، وبقي مستخدماً حتى نهاية القرن العشرين، وفي هذا البحث سيتم تغيير اسم الشركة بحسب المرحلة التاريخية المرافقة له.
- Cozic (1884), P: 538-539. Giraud (1929), P: 45-46. Uygun (2015), P: 48.
- (19) Annales De La Chambre Des Députés (1887), P: 523. Jurisprudence Générale (1851), P: 124-125. Vaillant (1856), P: 43-44.
- (٢٠) تأسست في مرسيليا في العام ١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م، بهدف مُساندة الإمبراطورية الإسبانية إبان حربها مع المغرب (١٢٧٥-١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩-١٨٥٧).

وجه الوضع المتدهور، وتدرك أن التخلص من التدهور الاقتصادي لا يتم من تجميع الضرائب، بل من الاهتمام بالتصنيع المحلي.

فكان أثر أنشطة النقل البحري الفرنسي واضح على الاقتصاديين العثمانيين والفرنسي مع فارق واضح أن أثره انعكس سلباً في معظمه على الاقتصاد العثماني، بينما انعكس إيجاباً على الاقتصاد الفرنسي، ويلحظ هذا من تأثير شركات النقل الحديثة على المجتمع العثماني اقتصادياً وإبدالها بفارق كبير المجالات الاقتصادية العثمانية سواء كانت زراعية أو صناعية أو تجارية، بخلاف الاقتصاد الفرنسي الذي نفعته نفعاً كبيراً، ومن المُرجح عودة التوضيح إلى جانبين: تمثل الجانب المباشر منه في العلاقة بين شركات النقل البحرية والشركات الخاصة بالخدمات الحضرية في الأراضي الفرنسية، وهذا الارتباط المباشر بينهما انعكس على الإيرادات بشكل فعال، أما الجانب غير المباشر: فكان من إسهام شركات النقل البحرية في تزايد فرص العمل، وتنشيط التجهيزات المرتبطة في ورش الصيانة والبناء، وتنشيط حركة الموانئ وتطورها لتضحي مراكز لظهور العديد من الصناعات وغيرها، وهذه الارتباطات نشطت الاقتصاد الفرنسي، وأنمت عوائده المالية بدرجة مميزة، وأسهمت في ردد الاقتصاد الفرنسي بجزء ضئيل في بادئ الأمر، لكن منذ تسعينيات القرن التاسع عشر ولغاية (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م) وبالتحديد بعدما توافرت شبكة متكاملة من الاستثمارات الفرنسية في السلطنة، وربطت الأراضي الداخلية بالموانئ، فإنها رفدت الاقتصاد الفرنسي بجزء هائل أفاد المؤسسات الفرنسية، وخاصة الاقتصادية منها.

- (43) Geyikdağı (2011), P:62. Kütükoğlu (1979), P:525. Kurmuş (2007), P: 150-151.
- (44) Kurmuş (2007), P: 150-151.
- (45) Yıldırım (2001), P: 318.
- (٤٦) عيسوي (١٩٨٥)، ص: ٧٣.
- Pamuk (2013), P: 100-101.
- (47) Heywood (1992), P: 15-16. Kurmuş (2007), P:58-59.
- (48) Crouzet (1974). P: 170. Daumalin, Faget, Raveux (2016), P: 248.
- (49) Accounts And Papers (1893, 10, January) P:5.
- (50) Accounts And Paper (1839, 4, May), P:26. Accounts And Papers (1839, 12, November), P:67. Foreign Office 424 (1845, 6, January) P: 29- 31.
- (٥١) جريدة رسمية وطنية تأسست في باريس في العام ١٢٠٣ هـ/١٧٨٩م، اهتمت بمتابعة القوانين والمراسيم، ومناقشات المجلس الوطني ومجلس الشيوخ، والمجلس الاقتصادي، والوثائق الإدارية.. إلخ، وبقيت في عملها حتى العام ١٢٨٤ هـ/١٨٦٨م.
- Winterton, Moys (1997), P:197.
- (52) Le Moniteur Universel (1851, 17, Juin), P: 17.
- (53) Ministère Du Commerce (1877), P:554.
- (54) Compagnie Generale Des Comptoir Levantins (1850), P: 23, 35.
- (55) Compagnie Generale Des Comptoir Levantins (1850), P: 34.
- (56) Uygun (2015), P: 58-59.
- (57) Crouzet (1974), P: 178. Lafrance (2019), P:8-9, 254.
- دريغوس، ماركس، بوادوفان (١٩٩٥)، ج:٣، ص:١٧١.
- (58) l'Agriculture du Commerce (1869), N0: 20. P: 6-7, 12-13, 43.
- (59) Françoise, Couvenhes (2007), P: 270. Journal Officiel (1887, 8, Juillet), P: 3146.
- (60) Uygun (2015), P: 84-85.
- (61) Uygun (2015), P: 85-89.
- (62) Uygun (2015), P: 97.
- (63) Heywood (1992), P:51,54-55.
- ١٨٦٠م، ثم طوّرت أهدافها بعد الاطلاع على إمكانيات المغرب الاقتصادية، وافتتحت خطأً نحو الموانئ المغربية.
- Le Journal Des Débats (1926, 10, Septembre), P: 4.
- (21) C. Cervati (1891), P: 140. Cols Bleus (1949, 17, Juin), P: 5.
- Le Journal Des Débats (1926, 10, Septembre), P: 4. Le Temps (1890, 14, décembre), P: 3. Uygun (2016, 15, Haziran), P: 1344, 1346.
- (٢٢) أقدم سيبريان فابر على تطوير أعماله التجارية البحرية، إلى جانب اهتمامه بالأعمال المصرفية، وأسس مع بعض المصرفيين شركة نقل بخاري في العام ١٢٨٤ هـ/١٨٦٨م لإنشاء خدمات نقل متطورة في موانئ عدة حول العالم.
- Camau (1905), P: 390. Giraud (1929), P: 25. Guiral (1988), P: 125. Uygun (2018, 10, Mayıs), P: 102-105.
- (23) Camau (1905), P: 401-402. Giraud (1929), P: 67. Uygun (2018, 16, Ekim), P: 416.
- (24) Compagnie Generale Des Comptoir Levantins (1850), P: 23, 35. l'Agriculture du Commerce (1869), N0: 21. P: 4-7.
- (25) Ministère Du Commerce (1891), Vol: XXI. P: 483. Uygun (2015), P: 185, 192-193.
- (26) Uygun (2016, Mayıs), P: 151, 156.
- (٢٧) إينالجيلك، كواترت (٢٠٠٧)، ج:٢، ص: ٤٩٣-٤٩٤.
- (28) l'Agriculture du Commerce (1869), N0: 20. P: 6-7, 12-13, 43. N0: 24, P 5-7.
- Ministère Du Commerce (1877), P:554. Uygun (2015), P: 234-235. Ministère Du Commerce (1889, 30, Mai), Vol: Xviii. P:266, 284-285.
- (٢٩) حوراني، خوري، ويلسون (٢٠١٦)، ج:١، ص:٣٣١. عيسوي (١٩٨٥)، ص:١٠٤.
- Pamuk (2013), P: 100-101.
- (30) Pamuk (2013), P: 138.
- (٣١) عيسوي (١٩٨٥)، ص: ٢٨٢.
- Pamuk (2013), P: 100-101.
- (32) Pamuk (2013), P: 137.
- (٣٣) صوان (٢٠١٣)، ص: ٨٥. عيسوي (١٩٨٥)، ص: ٢٨٨.
- (34) Pamuk (2013), P: 223.
- حوراني، خوري، ويلسون (٢٠١٦)، ج:١، ص: ٣٧٤.
- (35) Pamuk (2013), P: 101.
- (٣٦) مانتران (١٩٩٣)، ج: ٢، ص: ١١٧.
- (٣٧) عيساوي (د.ت)، ص: ٦٤٦. عيسوي (١٩٨٥)، ص: ٢٨٤-٢٨٥.
- (٣٨) عيساوي (د.ت)، ص: ٦٤٦. عيسوي (١٩٨٥)، ص: ٢٨٤-٢٨٥.
- (39) Compagnie Generale Des Comptoir Levantins (1850), P: 30. Pamuk (2013), P: 100.
- (٤٠) عيساوي (د.ت)، ص: ٦٥٤.
- (41) Pamuk (2013), P: 139.
- (٤٢) عيسوي (١٩٨٥)، ص: ٢٨٣-٢٨٤.
- Pamuk (2007), P: 224.

- La Circonscription De Marseille Pendant L'année 1870. Marseille: France. Typographie et Lithographie Barlatier- Feissat Père et Fils. P: 148.
- 4- Chambre De Commerce De Marseille. (1872). Compte - Rendu De La Situation Commerciale et Industrielle De La Circonscription De Marseille Pendant L'année 1871. Marseille: France. Typographie et Lithographie Marius olive. P: 134.
- 5- Chambre De Commerce De Marseille. (1873). Compte - Rendu De La Situation Commerciale et Industrielle De La Circonscription De Marseille Pendant L'année 1872. Marseille: France. Typographie et Lithographie Barlatier- Feissat Père Et Fils. P: 134.
- 6- Chambre De Commerce De Marseille. (1874). Compte - Rendu De La Situation Commerciale et Industrielle De La Circonscription De Marseille Pendant L'année 1873. Marseille: France. Typographie et Lithographie Marius olive. P: 148.
- 7- Chambre De Commerce De Marseille. (1875). Compte - Rendu De La Situation Commerciale et Industrielle De La Circonscription De Marseille Pendant L'année 1874. Marseille: France. Typographie et Lithographie Barlatier- Feissat Père et Fils. P: 156.
- 8- Chambre De Commerce De Marseille. (1895). Compte - Rendu De La Situation Commerciale et Industrielle De La Circonscription De Marseille Pendant L'année 1894. Marseille: France. Typographie et Lithographie Barthelet. P: 218.
- 9- Chambre De Commerce De Marseille. (1896). Compte - Rendu De La Situation Commerciale et Industrielle De La Circonscription De Marseille Pendant L'année 1895. Marseille: France. Imprimerie Marseillaise. P: 248.
- 10- Chambre De Commerce De Marseille. (1897). Compte - Rendu De La Situation Commerciale et Industrielle De La Circonscription De Marseille Pendant L'année 1896. Marseille: France. Typographie et Lithographie Barthelet. P: 293.
- 11- Chambre De Commerce De Marseille. (1899). Compte - Rendu De La Situation Commerciale et Industrielle De La Circonscription De Marseille Pendant L'année 1898. Marseille: France. Typographie et Lithographie Barthelet. P: 238.
- 12- Compagnie Generale Des Comptoir Levantins Memoir et Documents Sur Le Commerce Des Pays D'Europe. (1850). Paris: France. Imprimerie Centrale De Napoléone. P: 111.
- 13- Ministère Du Commerce De L'industrie et Des Colonies. (1877). Rapport Adressé Au Consul De France À Trébizonde Par M. Doulcet, Agent Vice-Consul De France À Samsoun. Commerce et Navigation Du Port De Samsoun Pendant L'année 1876. Bulletin Consulaire Français Des Rapports

المصادر والمراجع العربية:

- 1- حوراني، ألبرت، خوري، فيليب، ويلسون، ماري. (٢٠١٦). الشرق الأوسط الحديث. ط: ١. القاهرة: مصر. مدارات للأبحاث والنشر. ج: ١. ص: ٤٩٤.
- 2- رافق، عبد الكريم. (١٩٩٣). العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦. دمشق: سورية. ط: ٢. د. ن. ص: ٦٠٦.
- 3- صوان، محمد شعبان. (٢٠١٣). السلطان والمنزل الحياة الاقتصادية في آخر أيام الخلافة العثمانية ومقاومتها لتمدد الرأسمالية الغربية. بيروت: لبنان. ابن النديم للنشر. والتوزيع. وهران: الجزائر. دار الروافد الثقافية ناشرون. ص: ٣٢.
- 4- فريد بك، محمد (١٩٨١)، ص: ٢٠٩. فريمو، جاك. (١٩٩١). فرنسا والإسلام من نابليون إلى ميتران. ترجمة هاشم صالح. ط: ١. ليماسول: قبرص. شركة الأرض للنشر. ص: ٣٢.

المراجع المعربة:

- 1- إينالجيك، خليل، كواترت، دونالد. (٢٠٠٧). التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية ١٣٠٠-١٦٠٠م. ترجمة عبد اللطيف الحارس. ط: ١. دار المدار الإسلامي. بيروت: لبنان. ج: ٢-١. ص: ١٤٦٢.
- 2- بيرنجيه، جان، دوران، ايف، كوتامين، فيليب، راب، فرنسيس. (١٩٩٥). موسوعة تاريخ أوروبا العام منذ بداية القرن الرابع عشر. وحتى نهاية القرن الثامن عشر. ترجمة وجيه البعيني. مراجعة أنطوان أ. الهاشم، ط: ١. بيروت: لبنان. وباريس: فرنسا. منشورات عويدان. ج: ٢. ص: ٧٠١.
- 3- دريفوس، فرانسوا جورج، ماركس، رولان، بوادوفان، ريمون. (١٩٩٥). موسوعة تاريخ أوروبا العام منذ عام ١٧٨٩ حتى أيامنا. ترجمة حسين حيدر. مراجعة أنطوان أ. الهاشم. بيروت: لبنان. ط: ١. باريس: فرنسا. منشورات عويدان. ج: ٣. ص: ٦٠٧.
- 4- عيساوي، شارل. (د.ت). التاريخ الاقتصادي للهلل الخصب ١٨٠٠-١٩١٤م. ترجمة عوف عباس حامد. د.م. ص: ٨٣٩.
- 5- عيسوي، شارل. (١٩٨٥). التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ترجمة سعد رحمي. ط: ١. بيروت: لبنان. دار الحداثة. ص: ٤٦٨.
- 6- فاروقي، ثريا. (٢٠٠٨). الدولة العثمانية والعالم المحيط بها. ترجمة حاتم الطحاوي. مراجعة عمر الأيوبي. ط: ١. بيروت: لبنان. دار المدار الإسلامي. ص: ٤٣٢.
- 7- هرشلاغ، ز.ي. (١٩٧٣). مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط. ترجمة مصطفى الحسيني. بيروت: لبنان. دار الحقيقة. ص: ٣٦٨.

التقارير الفرنسية:

- 1- Chambre De Commerce De Marseille. (1868). Compte - Rendu De La Situation Commerciale et Industrielle De La Circonscription De Marseille Pendant L'année 1867. Marseille: France. Typographie V Marius Olive. P: 154.
- 2- Chambre De Commerce De Marseille. (1869). Compte - Rendu De La Situation Commerciale et Industrielle De La Circonscription De Marseille Pendant L'année 1868. Marseille: France. Typographie et Lithographie Barlatier- Feissat Père Et Fils. P: 152.
- 3- Chambre De Commerce De Marseille. (1871). Compte - Rendu De La Situation Commerciale et Industrielle De

- 4- Jurisprudence Générale Recueil Périodique et Critique De Jurisprudence, De Législation. (1851). Directeur et M. Dalloz Ainé. et M. Armand Dalloz. Son Frère. et M. Édouard Dalloz. P-P: 1-1039. Paris: France.
- 5- Le Journal Des Débats. (1926, 10, Septembre). Politiques et Littéraires. P-P: 1-4. Paris: France.
- 6- Le Moniteur Universel. (1851, 17, Juin). Journal Officiel De République Française. P-P:1-24. Paris: France.
- 7- Le Temps. (1890, 14, décembre). Supplément Économique. P-P: 1-4. Paris: France.

المصادر والمراجع الفرنسية:

- 1- Berneron-Couvenhes, Marie-Françoise. (2007). Les Messageries Maritimes: L'essor D'une Grande Compagnie De Navigation Française, 1851-1894. Paris: France. PUPS. P: 839.
- 2- C. Cervati, Raphael. (1891). Annuaire Oriental Du Commerce. Paris: France. Encres D'imprimerie Ch. Lorilleux & Cie. 10ème Année. P: 1343.
- 3- Camau, Émile. (1905). Marseille Au Xxme Siècle Tableau Historique Et Statistique De Sa Population, Son Commerce, Sa Marine, Son Industrie Suivi D'indications. Marseille: France Paul Ruat. P: 1006.
- 4- Cozic, H. (1884). La Bourse Mise A La Portée De Tous Ce Qu'elle A Été ... Ce Qu'elle Est ... Ce Qu'elle Sera. Paris: France. A La Librairie Illustrée. P: 839.
- 5- Daumalin, Xavier, Faget, Daniel, Raveux, Olivier. (2016). La Mer En Partage Sociétés Littorales Et Économies Maritimes. Xvie-Xxe Siècle. Aix-En-Provence: France. Presses Universitaires De Provence. P: 368.
- 6- Giraud, Hubert. (1929). Les Origines Et L'évolution De La Navigation A Vapeur A Marseille (1829 – 1900). Marseille: France. Société Anonyme Du Semaphore De Marseille. P: 78.
- 7- Guiral, Pierre-Felix Reynaud. (1988). Les Marseillais Dans L'histoire. Toulouse: France. P: 317.
- 8- L'Emprunt Egyptien.(1873). Paris: France. Amyot Editeur. P: 16.
- 9- l'Agriculture du Commerce et des Travaux publics, Ministère. (1869). Annales Du Commerce Extérieur, Turquie, Librairie Administrative De Paul Dupont TURQUIE 1860 A 1868. Paris: France. Librairie Administrative De Paul Dupont. P: 593.
- 10- Roland, Caty, Eliane, Richard, Pierre, Echinard. (1999). Les Patrons Du Second Empire Marseille. Paris: France. Picard Cénomane. P: 332.

المراجع التركية:

- 1- Kurmuş, Orhan (2007). Emperyalizmin Türkiye'ye Girişi. İstanbul: Türkiye. Yordam Kitap. P: 304.

- Commerciaux Adresses Au Ministre Des Affaires Étrangères. Paris: France. Imprimerie Nationale. P: 5.
- 14- Ministère Du Commerce De L'industrie et Des Colonies. (1889, 30, Mai). De Petiteville Le Consul Général De France À Beyrouth Commerce et Navigation De Beyrouth En 1888. Bulletin Consulaire Français Des Rapports Commerciaux Adresses Au Ministre Des Affaires Étrangères. Paris: France. Imprimerie Nationale. Vol: XVIII. P: 20.
- 15- Ministère Du Commerce De L'industrie et Des Colonies. (1891). Cillière Le Gérant Du Consulat De France À Constantinople, Situation Commerciale, Industrielle et Agricole De La Turquie. Bulletin Consulaire Français Des Rapports Commerciaux Adresses Au Ministre Des Affaires Étrangères. Paris: France. Imprimerie Nationale. Vol: XXI. P: 16.
- 16- Vaillant, Le Maréchal. (1856). Rapport Présenté A L'empereur Sur L'organisation De L'armée D'orient, Librairie Pour L'art Militaire. Paris: France. Les Sciences et Les Arts. P:45.

الوثائق البريطانية:

- 1- Accounts And Paper. (1839, 4, May). Correspondence Relative To The Continuance Of Monopolies In The Dominions Of Turkey. NO. 29 (Mr. Vice Consul Charnaud to Viscount Palmerston Smirna). Printed By T. R. Harrison. P:1.
- 2- Accounts And Papers. (1839, 10, January). Correspondence Relative To The Continuance Of Monopolies In The Dominions Of Turkey. NO: 2 (Viscount Palmerston To Her Majesty's Consuls General and Consuls in the Turkish Dominions Foreign Office). Printed By T. R. Harrison. P:2.
- 3- Accounts And Papers. (1839, 12, November). Correspondence Relative To The Continuance Of Monopolies In The Dominions Of Turkey. Inclosure 1 in NO. 65 (Protest of Mr. Consul Brant against the Pacha of Kutayah Smirna). Printed By T. R. Harrison. P:1.
- 4- Foreign Office 424. correspondence. (1845, 6, January). Inclosure 5 In No. 15. Replies of Mr. Perkins of Smyrna. Constantinople: sultanat ottoman. P: 3.

الصحف الفرنسية:

- 1- Annales De La Chambre Des Députés Documents Parlementaires. (1887). Imprimerie Des Journaux Officiels. Tome: XX. P-P: 1-769. Paris: France.
- 2- Cols Bleus. (1949, 17, Juin). Journal De Marine Française. Directeur Paul-Jean Lucas. P-P: 1-5. Paris: France.
- 3- Journal Officiel De La République Française. (1887, 8, Juillet). Lois et Décrets. P-P: 1- 3146. Paris: France.

- 12- Trevelyan, G.M. (2013). England Under the Stuarts. Cambridge: UK. & New York: USA. Routledge Taylor & Francis Group. P: 610.
- 13- Winterton, Jules, Moys, Elizabeth M. (1997). Guides to Information Sources Information Sources in Law. London: UK. Bowker Saur. P:695.

المقالات التركية:

- 1- Kütükoğlu, Mübahat. (1979). İzmir Rıhtımı İnşaatı ve İşletme İmtiyazı. Tarih Dergisi. Sayı: 32. P-P: 495-558. İstanbul:Türkiye.
- 2- Özkiraz, Ahmet, Hamdemir, Berkan. (2009). Anayasacılık Hareketleri, Kapitalizm Ve Osmanli. Gazi Üniversitesi İktisadi Ve İdari Bilimler Fakültesi Dergisi, Sayı: 2, Cilt: 11. P-P:59-78. Ankara: Türkiye.
- 3- Uygun, Süleyman. (2016, 15, Haziran). Paquet Vapur Nakliyat Kumpanyasi (Compagnie De Navigation Paquet) Ve Osmanli Ermenileri. Atatürk Üniversitesi Türkiyat Araştırmaları Enstitüsü Dergisi. Sayı: 56. P-P: 1339 – 1363. Erzurum: Türkiye.
- 4- Uygun, Süleyman. (2016, Mayıs). Karadeniz Sularında Fransız Paquet Vapur Kumpanyasi (1878-1914). Karadeniz İncelemeleri Dergisi. Sayı: 20. P-P: 137-172. Trabzon: Türkiye.
- 5- Uygun, Süleyman. (2018, 10, Mayıs). Fransız Fraissinet Vapur Kumpanyasi (La Compagnie Fraissinet) Ve Osmanli Limanlarındaki Faaliyetleri. Karadeniz İncelemeleri Dergisi. Vol: 12, Issue: 24. P-P: 97-140. Trabzon: Türkiye.
- 6- Uygun, Süleyman. (2018, 16, Ekim). Fransız Cyprien Fabre Vapur Kumpanyasi (Compagnie Française De Navigation A Vapeur Cyrien Fabre) Ve Levant Limanlarındaki Faaliyetleri (1868-1914). Uluslararası Tarih Araştırmaları Dergisi. Cilt: 3. P-P: 412-448. Sakarya: Türkiye.
- 7- Yıldırım, İsmail. (2001). Ondokuzuncu Yüzyıl Osmanlı Ekonomisi Üzerine Bir Değerlendirme (1838-1918). Fırat Üniversitesi Sosyal Bilimler Dergisi. Cilt: 11, Sayı: 2. P-P: 313-326. Elazığ: Türkiye.

المقالات الإنكليزية:

- 1- Crouzet, François. (1974). French Economic Growth In The Nineteenth Century Reconsidered. History Wiley. Vol: 59. No: 196. P-P: 167-179. Hoboken: USA.

- 2- Pamuk, Şevket. (2007). Osmanlı- Türkiye İktisadi Tarihi 1500 – 1914. 4nd Ed. İstanbul: Türkiye. İtişim yayınlan. P: 236.
- 3- Pamuk, Şevket.(2013). Türkiye'nin 200 Yıllık İktisadi Tarihi Büyüme, Kurumlar Ve Bölüşüm. Ankara: Türkiye. Türkiye İş Bankası. P: 387.
- 4- Uygun, Süleyman. (2015). Osmanlı Sularında Rekabet Mesajeri Maritim Vapur Kumpanyası (1851-1914). İstanbul: Türkiye. Kitap Yayınevi. P: 400.

المراجع الإنكليزية:

- 1- Boyns,Trevor, Edwards, John R, Nikitin, Marc. (2013). The Birth Of Industrial Accounting In France And Britain. Cambridge: UK. & New York: USA. Routledge Taylor & Francis Group. P: 248.
- 2- Dutta, Bholanath. (2010). International Business Management Text And Cases. New Delhi: India. Excelbooks. P: 478.
- 3- Elliot, Margaret M. (1955). British History Displayed 1688-1950. Cambridge: UK. Cambridge University Press. P: 384.
- 4- Geyikdağı, V. Necla. (2011). Foreign Invesment In The Ottoman Empire International Trade And Relations 1854–1914. London: UK. & New York: USA. I.B.Tauris Publishers. P: 218.
- 5- Heywood, Colin. (1992). The Development Of The French Economy 1750-1914. London: UK. The Macmillan Press Ltd. P: 74.
- 6- Kellenbenz, Hermann. (1976). The Rise Of The European Economy: An Economic History Of Continental Europe From The Fifteenth To The Eighteenth Century. New York: USA. Holmes & Meier Publishers. P: 354.
- 7- Lafrance, Xavier. (2019). The Making of Capitalism in France Class Structures, Economic Development, the State and the Formation of the French Working Class, 1750–1914. Boston: USA. Brill. P:324.
- 8- Miskimin, Harry A. (1975). The Economy Of Early Renaissance Europe 1300-1460. Cambridge: UK. Cambridge University Press. P: 188.
- 9- Negishi, Takashi. (2013). Developments of International Trade Theory. 2nd Ed. Tokyo: Japan. Springer Science & Business Media. P: 227.
- 10- Sée, Henri. (2004). Economic and Social Conditions in France During the Eighteenth Century. Translated by Edwin H. Zeydel. Kitchener: Canada. Batoche Books. P: 112.
- 11- Shaw, Stanford, Shaw, Ezel Kural. (1976,1977): History Of The Ottoman Empire And Modern Turkey. New York: USA. Cambridge University Press. Vol: 1-2. P: 916.

تسليح جيش التحرير الوطني الجزائري عبر الحدود الشرقية (الجزائرية - التونسية) ١٩٥٤ - ١٩٦٢

أ.د. سعاد يمينة شبوط

قسم التاريخ
جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان
الجمهورية الجزائرية

أ.د. الطاهر جبلي

قسم التاريخ
جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان
الجمهورية الجزائرية

ملخص

تشكل هذه الدراسة محاولة هادفة للبحث في تاريخ التطور العسكري لجيش التحرير الوطني من خلال التركيز على الجهود والمساعدات الرائدة التي قام بها قادة الثورة الجزائرية خلال الثورة التحريرية (١٩٥٤-١٩٦٢)، للبحث عن مصادر تمويل النشاط العسكري والحفاظ على ديمومته بالأسلحة والذخيرة، سواء في الداخل؛ انطلاقاً من المناطق الحدودية الشرقية (المنطقة الأولى والثانية)، بفضل الدور البارز الذي لعبه كل من: مصطفى بن بولعيد، وعباس لغور، ولزهر شريط، وعمار بوقلاز، ومحمد العربي بن مهيدي. أم في الخارج، بفضل جهود أحمد بن بلة، وعلي مهساس، وقاضي بشير، بالإضافة إلى دور محمد بوضياف الذي تكلف بمهمة التسليح على الجبهة الغربية، بالتعاون والتنسيق مع محمد العربي بن مهيدي، وهي المساعدات والجهود التي شكلت الأرضية لمشروع إمداد الثورة بالأسلحة والذخيرة الذي تجسدت معالمه بعد صائفة ١٩٥٦، من خلال النشاط الحيوي لشبكات الدعم اللوجستيكي في عمليات الإمداد بالأسلحة والذخيرة؛ الذي عرفته الثورة التحريرية على الجبهتين البرية والبحرية، انطلاقاً من قواعد عسكرية خلفية للإمداد في طرابلس وتونس ووعدة والناظور، ثم قواعد ومراكز حدودية للتموين في الشرق والغرب، لتصل إلى مقاتلي جيش التحرير الوطني في الولايات الداخلية بواسطة قوافل للتسليح عبر مسالك وممرات برية، أو خطوط إمداد بحرية تربط شبكة التسليح في الخارج (أوروبا والشرق العربي) ببعض الموانئ في الغرب الجزائري والسواحل المغربية.

كلمات مفتاحية:

الثورة الجزائرية؛ جيش التحرير الوطني؛ شبكة التسليح؛ الحدود الشرقية؛ تونس؛ مصطفى بن بولعيد؛ طرابلس؛ أحمد بن بلة

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٨ نوفمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ١٢ ديسمبر ٢٠٢٤

معرف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.436410



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الطاهر جبلي، سعاد يمينة شبوط، "تسليح جيش التحرير الوطني الجزائري عبر الحدود الشرقية (الجزائرية - التونسية) خلال سنوات ثورة التحرير الجزائرية ١٩٥٤ - ١٩٦٢". دورية كان التاريخية. السنة الثامنة عشرة - العدد التاسع والستون: يونيو ٢٠٢٥. ص ١٨٤ - ٢١٣.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: djebli_tahar@yahoo.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٤.0 This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

لا يخفى على الباحث في التاريخ العسكري للثورة الجزائرية مدى الأهمية التي يكتسبها موضوع التسليح إذ يجب الإشارة إلى أن الدعم اللوجستيكي يشكل في كل الأحيان الشريان الرئيسي لجميع الثورات التحريرية في العالم وعند الحاجة الملحة لمصادر التسليح والمال تلجأ تلك الثورات إلى استدراك الوضع بوضع مخططات ومشاريع للطرق والمسارات التي من شأنها تسهيل عمليات الإمداد بالعتاد العسكري انطلاقاً من قواعد لوجستكية محددة.

ومما لا شك فيه أن حركية النشاط الثوري منذ الانطلاقة في ليلة أول نوفمبر ١٩٥٤ إلى غاية يوم وقف إطلاق النار في ١٩ مارس ١٩٦٢ ظلت في أمس الحاجة إلى السلاح باعتباره أهم آليات العمل الثوري الميداني المباشر. وانطلاقاً من أهمية الموضوع وحساسيته لارتباط جانب كبير منه بالنشاط السري والمخابراتي بالنسبة للطرفين (جبهة وجيش التحرير الوطني- والمصالح الفرنسية الخاصة) تولدت لدى الرغبة في هذا الموضوع بالذات دون غيره من المواضيع الأخرى.

وسأحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على الجهود والمساعي الرائدة التي قام بها قادة الثورة الجزائرية خلال الثورة التحريرية (١٩٥٤-١٩٦٢)، للبحث عن مصادر تمويل الثورة بالأسلحة والذخيرة، سواء في الداخل والخارج بفضل مصطفى بن بوالعيد وأحمد بن بلة، بالإضافة إلى دور محمد بوضياف الذي تكلف بمهمة التسليح على الجبهة الغربية، بالتعاون والتنسيق مع محمد العربي بن مهيدي، وهي الجهود التي شكلت الأرضية لمشروع إمداد الثورة بالسلاح والذخيرة الذي تجسدت معاملة بعد صائفة ١٩٥٦، من خلال النشاط الحيوي لشبكات الدعم اللوجستيكي في عمليات الإمداد بالأسلحة والذخيرة لفائدة هيكلية واستراتيجية جيش التحرير الوطني والتطور العسكري الذي عرفته الثورة التحريرية على الجبهتين البرية والبحرية، انطلاقاً من قواعد عسكرية خلفية للإمداد في طرابلس وتونس ثم قواعد ومراكز حدودية للتموين في الشرق والغرب، لتصل إلى مقاتلي جيش التحرير

الوطني في الولايات الداخلية بواسطة قوافل للتسليح عبر مسالك وممرات برية أو خطوط إمداد بحرية تربط شبكة التسليح في الخارج (أوروبا والشرق الأقصى والشرق العربي) ويمكن اعتبار ذلك الامتياز أحد أهم الروافد التي ساهمت في صناعة العديد من الانتصارات العسكرية والدبلوماسية خلال سنوات الثورة التحريرية.

أهمية موضوع البحث

١- يشكّل موضوع التسليح أهمية بالغة في مجال التاريخ العسكري للثورات والحروب في العالم، ولا يخفى على الباحث في هذا الميدان مدى الأهمية التي يكتسبها موضوع التسليح، إذ يجب الإشارة إلى أن الدعم اللوجستيكي يشكل في كل الأحيان الشريان الرئيس لجميع الثورات التحريرية في العالم، وعند الحاجة الملحة لمصادر التسليح والمال تلجأ تلك الثورات إلى استدراك الوضع بوضع مخططات ومشاريع للطرق والمسارات التي من شأنها تسهيل عمليات الإمداد بالعتاد العسكري، انطلاقاً من قواعد لوجستكية محددة.

٢- مما لا شك فيه أن حركية النشاط الثوري منذ الانطلاقة في ليلة أول نوفمبر ١٩٥٤ إلى غاية يوم وقف إطلاق النار في ١٩ مارس ١٩٦٢ ظلت في أمس الحاجة إلى السلاح، باعتباره أهم آليات العمل الثوري الميداني المباشر. سنحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على قضايا متعددة مرتبطة بموضوع الإمداد عبر الحدود الشرقية (الجزائرية التونسية)، وبإنشاء شبكات لدعم اللوجستيكي التي يمكن اعتبارها أحد أهم الروافد التي أسهمت في صناعة عدد من الانتصارات العسكرية خلال سنوات الثورة التحريرية، والوقوف عند الظروف والإمكانات التي سخرتها قيادة الثورة لتأمين هذا النوع السري من العمليات العسكرية.

٣- يمكن الباحث من الوقوف على الأهمية البالغة التي يكتسبها موضوع البحث من خلال عنوانه الذي يتناول مرحلة حاسمة من مراحل تسليح جيش التحرير الوطني وتطوره عبر الحدود الشرقية (الجزائرية- التونسية)، في مواجهة السياسة الاستعمارية الفرنسية بمختلف أشكالها وأبشع صورها خلال سنوات ثورة التحرير الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢).

وبمعركة المصير الواحد للأمة العربية والإسلامية في مواجهتها لكل أشكال الهيمنة الكولونيالية، والتحديات والمخاطر والمؤامرات التي يحكيها تحالف الصهيونية والاستعمار في العالم بشكل عام والعالم العربي والإسلامي بشكل خاص.

٩- يعدّ موضوع البحث في مسائل تسليح جيش التحرير الوطني عبر الحدود الشرقية وتطور مصالحه وهيئاته خلال هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الجزائر المعاصر والوضع الذي أصبح عليه عشية الاستقلال في صائفة ١٩٦٢م نتيجة حتمية لذلك التطور الطبيعي الذي أصبح عليه الجيش الوطني الشعبي في الوقت الحالي، من حيث قوته العسكرية واللوجستية، والإمكانات المادية والتكتيك العسكري؛ الأمر الذي أهله أن يحتل المرتبة (٢٦) عالمياً والمرتبة الثانية إفريقياً والثالثة عربياً؛ استناداً إلى تصنيف مركز غلوبال فاير باور (GLOBAL FIREPOWER) لسنة ٢٠٢٤م، الذي صنّف الجيوش حسب قوتها العسكرية واللوجستية وفقاً لخمسين مؤشراً.

أسباب اختيار موضوع البحث وأهدافه

١- الدافع العلمي؛ بحكم تخصصنا في مجال البحث العلمي المرتبط بالتاريخ العسكري الوطني، خصوصاً مرحلة الثورة التحريرية (١٩٥٤-١٩٦٢).

٢- تنامي الهشاشة الاقتصادية والأمنية لإفريقيا، وفي منظور الاستشراف الدبلوماسي لأية علاقات جزائرية-إفريقية ستبقى العقدة الأمنية هي الأساس، وستبقى الجزائر تحاول إدارة "صناعة الاستقرار" في العمق الإفريقي ولو على حساب "المقاربة الاقتصادية والتنمية"، بالإضافة إلى طبيعة الظروف السياسية والعسكرية الراهنة المحيطة بالجزائر وضرورة تحقيق السلام والأمن الإقليمي سوف تجعل للمؤسسة العسكرية الجزائرية وريثة (جيش التحرير الوطني-NATIONAL LIBERATION ARMY) الصوت الأعلى في إدارة الملفات الأمنية والإقليمية والدولية، خصوصاً وأن الدبلوماسية الجزائرية تواجه تحدياً حقيقياً بترؤسها مجلس السلم والأمن الإفريقي في شهر ماي ٢٠٢١، مما قد يعيدها إلى قيادة القارة التي تعيش وضعاً

٤- إبراز البعد التاريخي والأهمية الإستراتيجية للجبهة البرية على الحدود الشرقية، من خلال السبق التاريخي الذي عرفته الجبهة البرية منفذاً لتهريب الأسلحة والذخيرة، مما يدفع الباحث من باب الموضوعية التاريخية من جهة أخرى إلى محاولة إبراز أهمية الموقع الإستراتيجي الذي انفردت به الحدود الشرقية عبر التاريخ، وأصبحت تحتله خصوصاً مع نهاية الحرب العالمية الثانية، من خلال عدد من المقومات والمؤهلات، من أهمها انفتاح الجبهة الشرقية على الفضاء الجغرافي العربي الإسلامي المفتوح المجال في حدوده البرية لدول عربية شقيقة مثل: تونس، وليبيا، ومن ورائهما مصر.

٥- تكمن أهمية موضوع الدراسة بالنسبة للباحثين في تاريخ الحركة الوطنية والثورة التحريرية (١٩٤٥-١٩٦٢) في كشف النقاب عن الكثير من القضايا التي لم تُشر إليها المصادر والكتابات التاريخية السابقة، خصوصاً التي تتعلق بعمليات التسليح السرية وميلاد الأنوية الجينية لشبكات الإمداد والتسليح وتأسيس قواعد لوجستية خلفية عبر فضاء الجبهة الحدودية الشرقية وعلاقتها بقوة جيش التحرير الوطني وتطوره في المكان والزمان.

٦- يكشف موضوع البحث انطلاقاً من المادة التاريخية المتوفرة عن فصول من تطور عمليات إمداد جيش التحرير الوطني بالأسلحة والذخيرة على الجبهة البرية الشرقية، مع رصد أهم المسالك والممرات عبر الحدود الشرقية التي شكلت المنافذ الحساسة لتهريب الأسلحة القادمة من الخارج منذ فترة المنظمة الخاصة-L.O.S (١٩٤٧-١٩٥٠) حتى المرحلة الأخيرة من عمر الثورة التحريرية (١٩٦٠-١٩٦٢).

٧- البحث في رصد وإبراز وتموين الثورة الجزائرية بالسلح عبر الحدود الشرقية (تونس)، لمواجهة المخططات والمشاريع الاستعمارية الهادفة لخنق الثورة وشلّ عملية التسليح جيش التحرير الوطني وفصل قيادة الثورة في الخارج عن الداخل.

٨- إبراز مظاهر الدعم العربي والإسلامي للثورة الجزائرية في مختلف المجالات المادية والمعنوية، والذي يرتبط بوحدة المنظومة الحضارية والتاريخية والثقافية

٦- تحديد النتائج والآثار التي انعكست بسبب مشكلة التسليح على الأداء المتميز للعمل الثوري من جهة، وعلى طبيعة العلاقة بين مؤسسات الثورة التحريرية السياسية والعسكرية الداخلية والخارجية.

منهجية الدراسة

من أجل الإلمام بجوانب موضوع الدراسة وطبيعتها خصوصاً أنها تتعلق بجانب سري وحساس من جوانب الثورة التحريرية (١٩٥٤-١٩٦٢)، وبفرض إزالة الغموض عن بعض الحقائق التاريخية التي هي الهدف والمسعى بالنسبة للباحث الجاد؛ ارتأينا الاعتماد على المنهج التاريخي التحليلي المقارن، وكذا المنهج الوصفي الذي تفرضه متطلبات بناء الواقعة التاريخية.

حدود الدراسة وإشكالية موضوع البحث

يمكن حصر حدود موضوع دراستنا في إطارين أساسيين، يرتبط الأول بحدود الدراسة الزمنية المضبوط بفترة تاريخ الثورة التحريرية الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢)، دون استثناء الفترة التي سبقت مرحلة الانطلاقة المحددة زمنياً بالفترة (١٩٥٤-١٩٥٤)، وهي مرحلة المخاض التي كانت بمثابة خريطة الطريق إلى نوفمبر ١٩٥٤، أما حدود الدراسة من حيث إطارها المكاني فهي تتعدى الإطار الجغرافي للثورة الجزائرية على امتداد الجبهة الشرقية المفتوح على الفضاء العربي بما فيه تونس ليبيا ومصر.

وقبل الولوج في صلب هذه الدراسة التي سنحاول أن تكون جامعة قدر الإمكان؛ يستحسن طرح الإشكالية التي سيتم إخضاعها للبحث والتحليل: انطلاقاً من المادة التاريخية المتوفرة (أرشيف، ومقابلات شخصية، وشهادات شفوية ومكتوبة، ومذكرات شخصية لبعض قادة الثورة وقادة الجيش الفرنسي، وكتابات عربية وأجنبية، وملتقيات، ومقالات، ودوريات، وتقارير الولايات). وتتوقف إشكالية الدراسة على الإجابة عن جملة من التساؤلات المرتبطة بموضوع تسليح جيش التحرير الوطني عبر الحدود الشرقية (الجزائرية-التونسية) خلال سنوات ثورة التحرير الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢)، وهي تساؤلات من قبيل:

يزداد تدهوراً على جميع المستويات السياسية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية؛ الأمر الذي يفسر ارتفاع موازنة الدفاع والأمن للجزائر التي يمكن ربطها بالدول المجاورة، بل يندرج ضمن إطار دولة تبحث عن دور لها في الخريطة الجيوسياسية، خصوصاً مع تنامي الأزمات والتهديدات الأمنية عبرالجبهة الغربية وفي منطقة الساحل وجنوب الصحراء.

٢- إبراز مدى أهمية الفضاء الجغرافي المفتوح والبعد التاريخي والأهمية الاستراتيجية للجبهة البرية على الحدود الشرقية، من خلال رؤية استشرافية مستقبلية تؤكد اهتمامات قيادة المؤسسة العسكرية في محافظة الجزائر على علاقتها التاريخية الاستراتيجية بتونس وليبيا في شقها الأمني، في ظل عقد اتفاقيات استراتيجية ترتبط بتبادل المعلومات الأمنية والتعاون الاستخباراتي، وتبادل خبرات التدريب، في ظل مطالبات ليبيا وتونس بالاستفادة من الخبرات الجزائرية الاحترافية، وفي هذا المجال "نسجل بهذا الصدد بناء ثلاث منظومات عسكرية لمراقبة الحدود بين الجزائر وتونس، وكذلك تحويل التعاون الأمني الجزائري الليبي إلى شراكة حقيقية.

٤- الرغبة الملحة في محاولة إثراء وتعميق مستوى المعرفة التاريخية فيما يتعلق بمسائل الدعم بالأسلحة ومدى أهميتها في حيوية النشاط الثوري، وتقديم دراسة مقارنة تدرج في إطار إعادة كتابة تاريخ الثورة التحريرية، والإسهام في بناء مدرسة تاريخية وطنية بأقلام جزائرية أصلية.

٥- إبراز الارتباط العضوي بين فكرة العمل المسلح والتسليح ضرورة ملحة لاستمرار العمل الثوري وتحقيق أسباب النصر منذ ما قبل الانطلاقة إلى وقف إطلاق النار (١٩٤٧-١٩٦٢).

٦- دحض وتفنيد الأطروحات والمزاعم التي تضمنتها جل الكتابات الفرنسية الاستعمارية التي ألفت الكتابة بنظرة ملؤها الغلو والتحيز لخدمة الأهداف الاستعمارية وإضفاء الشرعية على الفعل الاستعماري، مثل: طروحات إيف كوريار، وجون فوجور، وجاك ديشمان، وهنري لومير... وغيرهم.

المطلب الثاني: مكانة الجبهة الحدودية الشرقية في اهتمامات رواد مشروع الثوري والحسم العسكري.

المطلب الثالث: دور الجبهة الحدودية الشرقية في النشاط العسكري وتشكيل النواة الأولى لجيش التحرير الوطني، خلال الثورة التحريرية في مرحلتها الأولى (١٩٥٤-١٩٥٦):

١. قاعدة طرابلس ودورها في تفعيل عمليات الإمداد بالسلاح.
٢. قاعدة تونس.
٣. المساعي الحدودية لتسيق الكفاح المغاربي المشترك وانعكاساته على واقع التسليح بالجبهة البرية الشرقية.
٤. شبكات ومسالك قوافل تسليح الثورة التحريرية بالجبهة البرية الشرقية (١٩٥٤-١٩٦٥).

المطلب الرابع: استقلال تونس وانعكاساته على واقع تسليح الثورة التحريرية عبر الجبهة الحدودية الشرقية.

المطلب الخامس: دور مؤتمر الصومام في هيكلة وتنظيم المصالح اللوجيستية لجيش التحرير الوطني عبر الجبهة الحدودية الشرقية ١٩٥٦ م.

المطلب السادس: تسليح جيش التحرير الوطني عبر الجبهة البرية الشرقية من خلال التقارير الأرشيفية الفرنسية.

المطلب السابع: الواقع العسكري لتسليح جيش التحرير الوطني على الجبهة البرية الشرقية، من خلال المصادر والوثائق الأرشيفية (أرشيف الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية GPRA):

١. عمليات الإمداد خلال سنتي (١٩٥٨-١٩٥٩).
٢. الإمداد على الجبهة الشرقية في المرحلة الأخيرة للثورة التحريرية (١٩٦٠-١٩٦٢).

- أين تكمن طبيعة العلاقة بين مشروع العمل الثوري ومتطلباته المادية (السلاح)؟

- ما البعد التاريخي والأهمية الإستراتيجية للجبهة الحدودية الشرقية في اهتمامات رواد مشروع العمل المسلح؟

- فيمَ يكمن الدور الذي لعبته الحدود الشرقية بخصوص حركية النشاط العسكري، وانعكاساته على نشأة وتطور قدرات جيش التحرير الوطني المادية والمعنوية؟

- ما الجذور التاريخية لفكرة إنشاء القواعد الخلفية التي ارتبطت أشد الارتباط بمشكلة التسليح؟ وما أهم القواعد العسكرية الخلفية للثورة الجزائرية عبر فضاءات الجبهة الحدودية الشرقية؟ وما دورها في إمداد وتموين فيالق جيش التحرير الوطني المتمركزة على طول الحدود الجزائرية التونسية؟

- ما الظروف والأوضاع المحيطة بعمليات تسليح جيش التحرير الوطني عبر الحدود الشرقية؟ وما حجم السلاح الذي كانت الثورة الجزائرية بحاجة ماسة إليه لتحقيق أسباب النصر والاستقلال؟

- كيف كان هذا السلاح يصل إلى الثوار المقاتلين في جبهات القتال؟ وما مصادره الخارجية؟

- كيف تعاملت قيادة الثورة التحريرية لإيجاد حلول وبدائل لمشكلة التسليح على امتداد سنوات الكفاح المسلح (١٩٥٤-١٩٦٢)؟

- ما الحجم الحقيقي الذي تكفلت بأدائه شبكات الإمداد بالسلاح في تفعيل العمل الثوري الميداني وتحقيق النصر، وانعكاساتها على القدرات القتالية المستقبلية لجيش دولة ما بعد الاستقلال؟

عناصر البحث

قسمنا موضوع بحثنا إلى مقدمة وسبعة مطالب وخاتمة ومجموعة من الملاحق مرتبطة بمتون الدراسة بشكل وثيق.

المطلب الأول: البعد التاريخي والأهمية الإستراتيجية للجبهة البرية على الحدود الشرقية.

أولاً: البعد التاريخي والأهمية الإستراتيجية للجبهة البرية على الحدود الشرقية

نالت الجبهة البرية سبقاً تاريخياً مقارنة مع الواجهة البحرية بخصوص عملية إمداد الثورة بالسلاح، وطرق تهريبه إلى المقاتلين في المناطق الداخلية، رغم الظروف الصعبة التي أحاطت بها، وردود الفعل الفرنسية جراء عمليات المراقبة المتواصلة.

ويعود هذا السبق إلى الأهمية البالغة التي أولّاها نشطاء الفصيل الثوري في التيار الاستقلالي للجبهة الحدودية البرية خلال مرحلتها المنظمة الخاصة (١٩٤٧-١٩٥٠)، والتحضير الميداني الجاد لانطلاق العمل المسلح بين (١٩٥٠-١٩٥٤)؛ حيث شكلت الحدود الرهان الأساس بالنسبة لكل من محمد بولوزداد ومصطفى بن بولعيد ومحمد العربي بن مهيدي ومحمد بوضياف، وأصبحت دائماً تحتل مكانة مهمة في الحسابات العسكرية بالنسبة لقادة الثورة في الداخل أو الخارج منفذاً إستراتيجياً لعبور العدة والعتاد، وصمّام أمان يؤمّن استمرار النشاط الثوري بما يحتاجه من دعم ومدد مادي من القواعد الخلفية للثورة التحريرية خارج إطارها الإقليمي.

وإنّ السبق التاريخي الذي عرفته الجبهة البرية منفذاً لتهريب الأسلحة والذخيرة يدفع الباحث من باب الموضوعية التاريخية من جهة أخرى إلى محاولة إبراز أهمية الموقع الإستراتيجي الذي انفردت به الحدود الشرقية وأصبحت تحتله، خصوصاً مع نهاية الحرب العالمية الثانية، من خلال المقومات والمؤهلات الآتية:

أ- انفتاح الجبهة الشرقية على الفضاء الجغرافي العربي المفتوح المجال في حدوده البرية لدول عربية شقيقة، مثل: تونس، وليبيا، ومن ورائهما مصر.

ب- شساعة مساحتها وامتدادها من القالة شمالاً إلى قمار بالوادي على طول مسافة تقارب (٤٦٠ كم).

ت- الطابع الجغرافي المتنوع والمتميز بخصائص تضاريسية معقدة، مثل: المناطق الجبلية الوعرة الممتدة على طول الشريط الحدودي مع تونس، ولعل أبرزها: جبال القالة، وبني صالح، وبوصالح، وأولاد مومن،

وويلان، وبوعمود؛ بالإضافة إلى جبال بوخضرة، والعنق، والونزة^(١).

وبالنظر إلى خريطة استغلال السطح في الجزائر؛ يمكن ملاحظة أن المناطق الحدودية الشرقية تتراعى على ربوعها الأحراش والتلال، كما يغلب عليها الطابع الغابي من ساحل الطارف إلى ضواحي سوق أهراس، حيث تغطي غابات الفلين مساحة (٧٠) ألف هكتار بمنطقة القالة^(٢).

ث- قربها من أكبر مخزن للأسلحة والذخيرة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث كانت الأسلحة التي جمعها أحمد بن بلة في ليبيا تعود في أكثريتها إلى مخزون أسلحة أفريقيا كوربس (الفيلق الإفريقي أو الألماني والجيش البريطاني)، وقد تم إرسالها بصعوبة انطلاقاً من الساحل الليبي نحو الجزائر عبر الجنوب التونسي^(٣).

ج- الأهمية الاقتصادية البالغة التي ميّزت معظم المناطق الواقعة على طول الشريط الحدودي من الشمال إلى الجنوب. وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن هذه المناطق استقطبت أعداداً كبيرة من الكولون، واستطاع الاستيطان الزراعي تغيير المناطق الشرقية، خصوصاً تلك الواقعة شرق وادي سيبوس جنوب عنابة، ونتج عنه بداية الاستيطان الرسمي بإنشاء مدن قبل سنة ١٨٧٠م، وتم استغلال مساحات شاسعة بموجب الاستيطان الحرّ في مجال زراعة الكروم التي أصبحت تغطي (٩٠٠٠) هكتار، حيث حظيت بعناية فائقة من طرف معمرين فرنسيين وإيطاليين^(٤).

كما أولى المعمرين الفرنسيون أهمية بالغة للغابات التي نجد منها نسبة (٦٢%) من مساحتها في الجزائر خاضعة مباشرة للإدارة الاستعمارية من بلاد القبائل إلى عنابة وسوق أهراس، ومردّد ذلك إلى أن تلك الغابات كانت تحظى بأهمية اقتصادية لتوفرها على الفلين الذي كان بإمكانه منافسة أجود الأنواع الأسبانية والبرتغالية في السوق العالمية^(٥). ولتوضيح الأهمية الاقتصادية في الجانب الزراعي ببعض المناطق الحدودية الشرقية بالنسبة للمعمرين الفرنسيين، نشير إلى أنه في سنة ١٩٢٨ بلغ عدد الجمعيات الزراعية (١٥) جمعية^(٦).

ومما لا شك فيه أن أنصار العمل المسلح الأوائل في الحركة الوطنية الجزائرية لم يفوتوا فرصة الاستفادة من الحدود وتوظيفها لخدمة مخططاتهم العسكرية لتفجير الثورة. وفي هذا السياق تجب الإشارة إلى أن معظم الأسلحة التي جمعت خلال فترة المنظمة الخاصة (١٩٤٧-١٩٥٠) تم تهريبها عبر الحدود الشرقية من ليبيا عبر الوادي نحو الأوراس؛ بفضل جهود كل من بوضياف وبن بولعيد وبن مهدي^(١١).

وفي الاتجاه نفسه انطلق عدد من الجزائريين عبر الحدود الشرقية لنصرة إخوانهم في فلسطين سنة ١٩٤٨م، ثم شاركهم في الثورة التونسية فيما بعد سنة ١٩٥٢م. وقبل الانطلاقة بقليل تكفل بن بولعيد بمهمة ارتياد الحدود نحو ليبيا لتفعيل شبكات الدعم اللوجستيكي القديمة، حيث كلت جهوده بتأسيس قاعدة للتسليح في طرابلس برفقة أحمد بن بلة وقاضي بشير في أوت ١٩٥٤^(١٢).

وعشية الانطلاقة في أول نوفمبر ١٩٥٤م كانت الجبهة الشرقية مهيأة لكي تكون متفصلاً للنشاط الثوري بعد أن أصبحت وفق مخططات قادة المناطق الحدودية مصدراً للتموين بالأسلحة عبر مسارب مختلفة لنقل الأسلحة والذخيرة، التي مكنت المجاهدين خصوصاً في المنطقتين الأولى والثانية من إلحاق هزائم عسكرية كبرى بجيش العدو، ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى معركة الجرف الأولى والثانية بالمنطقة الأولى، التي تزامنت مع وصول قافلة لجيش التحرير الوطني محملة بالسلاح إلى الداخل من تونس عبر الحدود الشرقية^(١٣).

ويبدو أن الأسلحة التي كانت تعبر الحدود الشرقية لم تكن الدول الشقيقة المجاورة مصدراً لها، بل كانت تأتي من أوروبا الشرقية والغربية وآسيا عبر مصر، فليبيا، وعلى هذا الأساس شكلت الحدود الشرقية حلقة ربط أساسية لطريق شاق ومليء بالمخاطر؛ يمتد من مرسى مطروح بمصر عبر السلوم إلى بن غازي ثم طرابلس بليبيا، ثم بن قردان إلى مدين، ثم قفصة ومدن تونسية أخرى، إلى أن تعبر الحدود نحو المناطق الثورية في الداخل^(١٤).

وبعيداً عن الزراعة، كانت المناطق الحدودية الشرقية تزخر في أعماقها بثروات معدنية مهمة منذ أواخر القرن ١٩م، لكن عملية الاستغلال المنجمي تأخرت نسبياً بسبب المواصلات.

ومن أهم المناطق الحدودية الشرقية التي تنتشر فيها المناجم نذكر: مناجم جبال الوزنة، وبوخضرة، والكويف، وتتووع الثروات المعدنية لتشمل خامات الحديد والرصاص والزنك والفوسفات والزنابق. واستدعى استغلال هذه الثروات ضرورة توفر شبكة من الطرق والسكك الحديدية لدى شركة قائمة وعنابة التي تتوفر على (٤٣٦ كم) من السكك الحديدية في شكل خطوط رئيسية، أهمها: الخروب، وبوشقوف، وقالة - بوشقوف، وبوشقوف - عنابة، وبوشقوف - سوق أهراس - غار الدماء، وسوق أهراس - تبسة^(١٥).

ح- استفادتها من الدعم العربي بعيداً عن الحصار المكثف الذي كانت تعاني منه الحدود الغربية، والتي كانت لها منطقة الريف المغربي المتنفس والمعبّر الوحيد للأسلحة والذخيرة برّاً إلى المناطق الداخلية رغم الظروف الصعبة المحيطة بهذه العملية^(١٦).

وبعد هذا العرض يمكن للباحث أن يدرك بعمق مدى الأهمية التي شكلتها الحدود الشرقية بالنسبة لأنصار العمل المسلح من جهة، والقيادة العسكرية للعدو من جهة أخرى^(١٧).

ثانياً: مكانة الجبهة الحدودية الشرقية في اهتمامات رواد مشروع الثوري والحسم العسكري

إن التفكير في بناء السدّ الشائك (خط موريس) كان في فترة مبكرة، حيث وضع بعض الضباط الفرنسيين مخططاً لذلك سنة ١٩٥٥م في منطقة نقرين؛ الأمر الذي تظن له بن بولعيد، ولم يتمكنوا من تجسيد مخططهم؛ لأن معركة الحدود والصراع على امتلاكها والسيطرة عليها كان هاجساً يومياً بالنسبة لقادة المنطقة الأولى بشكل خاص لإدراكهم أهمية الحدود وإستراتيجيتها، لذلك دافعوا عنها ببسالة من خلال أكبر المعارك شراسة على الحدود الجزائرية التونسية خلال سنتي ١٩٥٥-١٩٥٦^(١٨).

ثالثاً: دور الجبهة الحدودية الشرقية في النشاط العسكري وتشكيل النواة الأولى لجيش التحرير الوطني خلال الثورة التحريرية في مرحلتها الأولى (١٩٥٤-١٩٥٦)

قبل الخوض في صلب هذه الدراسة التي تُعنى بالبحث في عمليات الإمداد اللوجيستيكي بين سنوات (١٩٥٦-١٩٦٢) على الجبهة البرية الشرقية، لا بأس من ذكر بعض عمليات الإمداد بالأسلحة والذخيرة المهمة براً عبر الحدود الشرقية؛ خلال المرحلة الأولى من عمر الثورة التحريرية (١٩٥٤-١٩٥٦)، والتي شكلت صمام أمان في استمرار وديمومة النشاط الثوري وتشكيل النواة الأولى لجيش التحرير الوطني على أرض الميدان.

١٣-قاعدة طرابلس ودورها في تفعيل عمليات الإمداد بالأسلحة

انطلاقاً من المصادر التاريخية المتوفرة نشير إلى أنه مباشرة بعد التأسيس الفعلي لقاعدة طرابلس في ٢٠ أوت ١٩٥٤م، والاتفاق الذي وقع بين بن بلة وبن بولعيد وقاضي بشير حول الظروف والإمكانات المتعلقة بعمليات الإمداد بالأسلحة انطلاقاً من هذه القاعدة الجديدة، وما يمكن أن تقدمه للثورة التحريرية، كلف بن بولعيد قاضي بشير ببذل جهوده في عملية تهريب السلاح من غدامس إلى الوادي، وسوف يرسل عند عودته إلى الأوراس محمد بلحاج لإتمام المهمة. ومنذ هذا التاريخ تم نقل أسلحة كثيرة إلى الجزائر عن طريق محمد عرعار، وعمر البرجي، وغيرهم من الوطنيين الجزائريين^(١٥).

وفي هذا السياق يشير المجاهد قاضي بشير إلى أن الإمداد بالأسلحة من هذه القاعدة مرّ بمرحلتين؛ ففي الأولى كان يتم اختيار أشخاص معينين لغرض تهريب قطع محدودة من السلاح، أما في المرحلة الثانية فقد تم الاعتماد فيها على القوافل التي كان بإمكانها شحن كميات لا بأس بها من السلاح، وتسلك المسالك البعيدة عن عمليات المراقبة التي كانت تقوم بها المصالح الفرنسية على طول الشريط الحدودي قبل وصولها إلى الداخل.

أما بالنسبة لشحنة اليخت انتصار الذي وصل أحد الموانئ القديمة شرق طرابلس ليلة ٧ ديسمبر ١٩٥٤؛

فقد تم إفراغ حمولته تحت إشراف أحمد بن بلة وعبد الحميد درنة، وقد أخفيت هذه الكمية من السلاح في منزل هذا الأخير، كما تحمل أيضاً عناء نقلها وهو يهز على كتفيه صناديق الأسلحة حسب شهادة أحمد بن بلة نفسه^(١٦)، على أن تأخذ هذه الكمية في مدة لا تتجاوز ١٥ يوماً، إلا أن الأمور سارت عكس ذلك، حيث تأخرت العملية لمدة شهرين، وبعد ذلك نقلت هذه الشحنة بمساعدة الليبيين على متن الشاحنات إلى الحدود الليبية الجزائرية لتتقل بالجمال عبر الحدود الشرقية إلى تبسة^(١٧). ويضيف بن بلة أنه منذ بداية هذا التاريخ ظلت مصر تدعم وحدها الثورة بالسلاح عبر ليبيا لمدة سنتين ونصف^(١٨).

وتعدّ هذه المحاولة أول عملية لنقل الأسلحة من مصر عبر طريق ليبيا، انطلاقاً من ميناء الخمس شرق طرابلس ومنها إلى الجزائر في شهر فيفري ١٩٥٥م، وفي السياق نفسه؛ يذكر فتحي الديب أن هذه الشحنة تضمنت أيضاً حصة من السلاح موجهة لتزويد المكافحين التونسيين ببعض احتياجاتهم، باعتبارهم سيشاركون في عملية تهريب الأسلحة عبر تونس من ناحية، ولدعم قدراتهم على الاستمرار في المقاومة من أجل تخفيف ضغط القوات الفرنسية على الجزائريين، وذلك بالاتفاق مع أحمد بن بلة وصالح بن يوسف^(١٩).

وعلى أساس المساعدات المصرية المباشرة خلال هذه الفترة تم وضع مخطط للدعم بالأسلحة والعتاد للمقاومة في المغرب العربي ككل، إذ إن عمليات تهريب الأسلحة بين سنوات (١٩٥٤-١٩٥٦) غالباً ما كانت تتم على نطاق مشترك؛ ففي الجبهة الشرقية كانت موجهة إلى المقاومة في كل من الجزائر وتونس، على أن توجه بالجهة الغربية إلى المقاومة الجزائرية والمراكشية، وكذا الأمر بالنسبة لقواعد تمرير السلاح وتهريبه بليبيا؛ فقد كانت كذلك مشتركة.

٢/٣-قاعدة تونس^(٢٠)

يعود الفضل في وضع الأسس الأولى لقاعدة تونس إلى قادة المنطقة الأولى (الأوراس) خصوصاً المرحلة الأولى من الثورة (١٩٥٤-١٩٥٦)، من خلال الجهود الرائدة التي قام بها كل من: الطالب العربي، وسعيد عبد الحي، ولزهر شريط، وعباس لغرور، وشيهاني بشير إلى

ومما لا شك فيه أن قاعدة تونس تعدّ قاعدة مهمة بالنسبة للقيادة التي أشرفت على مهام الإمداد، باعتبارها همزة وصل بين مصادر السلاح في مصر وليبيا وانفتاحها على طول الحدود البرية من الشمال إلى الجنوب؛ الأمر الذي ترك هامش حركة على مسافات واسعة لتهريب السلاح انطلاقاً من القواعد الأساسية للدعم والكثير من المستودعات المؤقتة عبر ممرات ومسالك رئيسة لشحن السلاح إلى المقاتلين في المنطقة الأولى والثانية والقاعدة الشرقية.

٣/٣-المساعي الوحدوية لتنسيق الكفاح المغربي المشترك وانعكاساته على واقع التسليح بالجهة البرية الشرقية

تشير المصادر التاريخية إلى أن شبكات التسليح التي أسسها الثلاثي (بن بلة بن بولعيد وقاضي بشير)، شرعت في عملية التنسيق وتوحيد الجهود مع عناصر المقاومة التونسية المكلفة بجمع وإمداد المقاومة التونسية بالسلاح عن طريق ليبيا، انطلاقاً من أهم قواعد تخزين السلاح والتدريب عليه أيضاً^(٢٦)، وقد كانت عملية تهريب الأسلحة إلى تونس تحت مسؤولية مشتركة لكل من: الطاهر لسود، وابن أخيه البشير، وأحمد بن بلة^(٢٧).

وبما أن المجاهدين الجزائريين لم يكونوا يتمتعون بحق الإقامة في ليبيا، فقد تولى عبد العزيز شوشان أمر هؤلاء الثوار القادمين من الجزائر، بحيث يقدمهم إلى السلطات الليبية على أنهم ثوار تونسيين^(٢٨).

وفي هذا السياق تمكن عبد العزيز شوشان من خلال تولّيه رئاسة مكتب تونس في طرابلس برفقة علي الزليطي من تشكيل شبكة للتسليح ضمت أشخاصاً بارزين في المكتب لاجئين في طرابلس، وتشير بعض المصادر حول هذا الموضوع أن هناك مجموعة من الثوار الجزائريين حذوا حذوهم وتعاونوا معهم لاستخدام شبكاتهم لتمرير الأسلحة وتهريبها عبر الحدود الشرقية إلى الجزائر، ونذكر من عناصر هذه الشبكة: محمد بوعزة، ومحمد الهادي عرعار، وعمر البرجي؛ وهم من بين العناصر الذين تمّ تسليحهم بأسلحة جمعت من صحراء طرابلس بمساعدة شبكة التسليح التونسية بحكم أسبقيتهم في هذا الميدان. ومن أنواع الأسلحة

جانب مشاركتهم في المقاومة التونسية، وقد لعب هؤلاء دوراً بارزاً في جمع الأسلحة في تونس لصالح الثورة في مرحلة الفصائل المشتركة (١٩٥٤-١٩٥٧)^(٢٩).

وفي هذا السياق شكّل موطن الحامة بلد الطاهر الأسود الواقع غرب قابس على بعد (٤٠ كم) مركزاً مهماً لتخزين الأسلحة الآتية من ليبيا، وفيها كانت توزع من طرف مجاهدين تونسيين على مختلف الفصائل في تونس والجزائر^(٣٠).

ومن أهم الفصائل فصيلة الطيب الزلاق التي تكونت من ١٧ جندياً في بداية الأمر في شهر فيفري ١٩٥٦م بمنطقة منقار البط Bec de canard بغار الدماء، وهي فصيلة مشتركة بين الجزائريين والتونسيين، وقد كان أكبر مركز للمقاتلين الجزائريين والتونسيين بجبال منطقة قفصة والجريد والظهر وشريط المناجم، حيث وجد هناك عمل منسق مع مجاهدي منطقة وادي سوف، وتُقدم التقارير الفرنسية الفصائل المشتركة الجزائرية التونسية وتعداد أفرادها التي قامت بعمليات مهمة في مجال تهريب السلاح والمقاومة بهذه المناطق وعددها ١١ فصيلة. ومن أهمها فصيلة الطالب العربي^(٣١).

وعند اندلاع الثورة مباشرة كلف الطالب العربي من طرف بن بولعيد بمهمة تموين الثورة بالسلاح عبر الحدود الليبية التونسية، ثم كلف بحماية الشرايين التي تمدّ الثورة بالسلاح من الشرق إلى أن استشهد سنة ١٩٥٧م، وفي الوقت نفسه عيّنت قيادة الأوراس السعيد عبد الحي وكلفته بإنشاء قاعدة تنظيمية بتونس العاصمة برفقة عبد الكريم هالي الذي كلف بدوره مع بداية سنة ١٩٥٥م بالاتصال مع الخارج لجلب السلاح عبر ليبيا^(٣٢).

ودون الاستطراد في خلفيات المشاكل التي وقعت في تونس والتي انتهت بتعيين مهساس على مهام التسليح بتونس بعد عودته من قاعدة طرابلس، يمكن القول: إنه بعد الهيكلية العسكرية التي قامت بها قيادة الثورة بدأت عمليات الإمداد اللوجيستية، من خلال المهام التي أشرفت عليها مصلحة التسليح والتموين العام (DARG) تم تأسيس قاعدة تونس في شهر أكتوبر ١٩٥٧م قاعدة خلفية لاستقبال وإمداد الولايات الداخلية بالأسلحة^(٣٣).

على شاحنة نقل حديثة من نوع "بيد فور" ذات حمولة ثمانية أطنان أعدت خصيصاً لنقل السلاح إلى الحدود التونسية، وبالضبط إلى رقدا لين المحطة الرئيسة لتجميع الأسلحة مرة أخرى، ثم ينقلها الثوار الجزائريون بواسطة القوافل مروراً عبر الحدود التونسية إلى المنطقة الأولى^(٣٣).

ويشير المجاهد قاضي بشير في هذا الصدد إلى أن عملية إمداد الثورة بالأسلحة قد استمرت بهذه الطريقة حوالي سنة ونصف، حيث استطاعت قافلة متكوّنة من ١٠ جمال نقل حوالي طن ونصف من الأسلحة، وقد كان كلّ جمل يحمل أكثر من عشر بندق، ومع مرور الوقت تطورت العملية، وأصبحت القافلة تتكون من (٢٠) جملاً؛ الأمر الذي انعكس بدوره على نوعية الأسلحة، حيث بدأت مع ربيع ١٩٥٥م تعبر الحدود الشرقية إلى المنطقة الأولى أسلحة متنوعة، نذكر منها: البنادق ذات عشر طلقات، وأسلحة رشاشة من ستارن، والقنابل اليدوية، ومدافع الهاون.

أما بالنسبة لطريق هذه القوافل نحو الجزائر؛ فقد كان عبر الجنوب، وهو مؤمن باستمرار من طرف عناصر المقاومة التونسية، رغم الصراع القائم بين الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف الأمين العام للحزب الدستوري؛ فالحركة اليوسفية كان لها الفضل في دعم وحماية القوافل المحمّلة بالسلاح خلال عملية عبورها عبر الأراضي التونسية، واستطاعت بذلك أن تتجنب في الكثير من الأحيان الوقوع في يد السلطات الفرنسية، ما عدا القافلة التي كان يقودها المجاهد عثمان حيحي التي اصطدمت بالقوات الفرنسية، أو تلك القافلة التي وصلت جبل الجرف مع بداية معركة الجرف الكبرى سبتمبر أكتوبر ١٩٥٥م، في المكان الذي عقد فيه شيجاني بشير اجتماع رؤساء المناطق المجاورة برأس الطرف^(٣٤).

ومما يمكن قوله خلال هذا العرض: إن الطريق البري من الإسكندرية إلى ليبيا الممتد على مسافة ٢٠٠٠ كم أصبح يشكل معبراً مهماً بالنسبة لشبكات التسليح الجزائرية النشطة عبر هذا الخط، وأصبحت طرابلس قاعدة تخزين جدّ مهمّة للسلاح القادم من مصر. وقد

التي كانت بحوزتهم: الخماسي الألماني، والستاتي الإيطالي، والعيشاري الإنجليزي، والرشاشات من نوع ستارن^(٣٥).

وقد تمكنت عناصر شبكة التسليح الجزائرية في ليبيا خلال هذه المهلة من تهريب عشرات القطع من الأسلحة إلى الجزائر عبر تونس؛ بمساعدة ودعم من المناضلين في الحزب الدستوري التونسي، الذين سخروا وسائل نقل تونسية كالشاحنات والسيارات لنقل هذه الأسلحة، وفي الإطار نفسه يشير قاضي بشير بأن أحمد بن بلة اشترى سيارة من نوع جيب بـ (٧٠) ليرة في بن غازي، وقد استخدمت هذه السيارة في تنقلات عناصر الشبكة وعمليات تهريب السلاح إلى الحدود التونسية^(٣٦).

وعند هذا المقام يجب الإشارة إلى نقطة مهمّة وهي أن شبكات التسليح الجزائرية استفادت من دعم وخبرة وتجربة الشبكات التونسية؛ غير أن ذلك الأمر لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما أسست قاعدة مستقلة مقرها طرابلس؛ لأن المحطة التي كانت تُجمّع بها الأسلحة بغدامس لم تكن في مستوى طموحات قادة شبكات التسليح الجزائرية؛ على الرغم من أنها عرفت حركة نشيطة في عمليات تمرير الأسلحة للجزائر قبل الانطلاقة سنة ١٩٥٤م عبر الوادي، وأصبح هذا الأمر واضحاً بعد عملية إلقاء القبض على بن بولعيد في فيفري ١٩٥٥^(٣٧).

٣/٤- شبكات ومسالك قوافل تسليح الثورة التحريرية بالجبهة البرية الشرقية (١٩٥٤-١٩٥٦)

تمكن شيجاني بشير مباشرة بعد تولّيه قيادة المنطقة الأولى من إعادة تشكيل وبعث شبكة التسليح في طرابلس، عندما قام بإرسال محمد الأوراسي إلى ليبيا، حيث اتفق مع قاضي بشير على ضرورة تزويد الشبكة بعناصر من المجاهدين لنقل الأسلحة إلى الجزائر، خصوصاً بعد تراكم كميات هائلة من الأسلحة المخزنة بطرابلس؛ الأمر الذي أصبح من الضروري التفكير في نقله إلى الثوار المقاتلين بالمناطق الشرقية^(٣٨).

وعلى هذا الأساس انطلقت أوّل قافلة تسليح من طرابلس مع نهاية شهر ماي ١٩٥٥م، معتمدة في ذلك

السياسة البورقيبية التي كانت تسعى إلى إقناع التونسيين بالحكم الذاتي.

وقد وقعت بعض المشاكل في عملية تعاون قوافل التسليح الجزائرية مع الحركة اليوسفية، تسبب فيها الحبيب بورقيبة بشكل مباشر، الأمر الذي دفع إلى تدخل أحمد بن بلة الذي جاء سراً من روما إلى تونس، وتفاوض مع بورقيبة لمدة ٢٤ ساعة بغرض تنظيم عملية عبور السلاح عبر التراب التونسي دون مشاكل أو عراقيل مقصودة^(٣٧).

وتجدر الإشارة إلى أن بن بلة لعب خلال هذه المرحلة دوراً بارزاً باعتباره العنصر الأساس في عملية البحث عن السلاح بشتى الطرق ونقله وتخزينه بتوجيه الشبكات المختصة، الأمر الذي دفع بالمصالح الفرنسية الخاصة إلى محاولة التخلص منه، إلا أن تلك المحاولات باءت كلها بالفشل.

لقد استمرت عمليات نقل الأسلحة من مصر عبر الأراضي الليبية، غير أنه واجهتها بعض الصعوبات والمشاكل في طرابلس، حيث ارتفع مخزون الأسلحة بسبب تراجع عمليات نقله إلى الحدود الجزائرية، الأمر الذي دفع أحمد بن بلة وفتحى الديب للسفر نحو طرابلس لتقصي الوقائع وتذليل الصعوبات والمشاكل، حيث اتصلا بالملحق العسكري المصري بليبيا الذي عرف بتعاونه السري في عمليات تهريب الأسلحة^(٣٨).

وفي استعراض للموقف في ليبيا من قبل أحمد مهساس ممثل الثورة الجزائرية بليبيا، وعبد العزيز شوشان ممثل صالح بن يوسف عن عدم تهريب السلاح والذخيرة المخزنة بليبيا؛ حينئذ تحدثا عن تحركات "جايلز" قائد الشرطة الليبية البريطاني الذي كان يتابع نشاطاتهم وتحركاتهم بشكل مستمر، بالإضافة إلى تزايد نشاط الدوريات الفرنسية على الحدود الليبية التونسية، وعن ارتفاع ثمن الجمال المستخدمة، بالإضافة إلى تمكن أنصار بورقيبة من شراء ذمم بعض العناصر التونسية التي شاركت في بعض عمليات التهريب^(٣٩).

وقد ذلّت هذه المشاكل والصعوبات بعد مباحثات مع المدير العام للشرطة الليبية عبد الحميد درنه من أجل تقديم مساعداته لعلي مهساس وعبد العزيز شوشان، وتمّ فعلاً تزويد مهربي السلاح بوسائل نقل تمثلت في

تلقت الشبكة دعماً ومساعدة كبيرة من قبل الشرطة الليبية التي كانت تشرف على عملية نقل السلاح عبر التراب الليبي، ثم تقوم شبكة التسليح الجزائرية بمواصلة عملية تمرير الأسلحة عبر الحدود التونسية إلى المنطقة الأولى.

وفي الإطار نفسه أرسلت قيادة الثورة في المنطقة الثانية في صيف ١٩٥٥م مبعوثين لها إلى طرابلس، من أجل نقل السلاح وتوجيه بعض قوافل السلاح إلى الشمال القسنطيني، باعتبار أن الأسلحة المهربة عبر الحدود التونسية كانت موجهة للمنطقة الأولى حسب مبعوثي المنطقة الثانية، حيث يمكن أن نذكر بعض هؤلاء القادة من منطقة سوق أهراس مثل: محمد الحاجي، وعبد الرشيد يوس^(٤٠).

ولم يدم التعاون الجزائري التونسي في عمليات التموين بالأسلحة عبر ليبيا طويلاً، حيث توقف بشكل نهائي بعد توقف نشاط الشبكات التونسية النشطة في ليبيا، إثر تسليم الثوار التونسيين في ١٠ ديسمبر ١٩٥٥م، وأصبح الجزائريون في حالة من اليأس والركود؛ لأن مكتب تونس بليبيا أو حتى القاهرة لم يعد بإمكانه إرسال الأسلحة كما كان في الأول، الأمر الذي دفع بشبكات التسليح الجزائرية إلى الدخول في مرحلة جديدة من العمل والتعاون مع مقاومة صالح بن يوسف الذي كانت تعمل معه قوافل الأسلحة مناصفة، وبذلك استمرت بقايا الجيش التونسي تقدم دعمها لقوافل التسليح الجزائرية دون تأثير الخلاف الذي ظهر بين صالح بن يوسف والطاهر لسود^(٤١).

ويمكن القول في هذا السياق: إن تجربة الكفاح المشترك التي خاضتها مقاومة الحركة اليوسفية (أنصار صالح بن يوسف) وثوار الجزائر جنباً إلى جنب، وإن كانت مدتها الزمنية قصيرة، إلا أنها أكدت بعمق على حتمية الترابط والمصير الواحد المشترك بين أبناء البلدين، حيث استفادت الثورة التحريرية الجزائرية من خدمات اليوسفيين، بعدما تنكّر بورقيبة لمبادئ لجنة تحرير المغرب العربي وقبّل بالاستقلال الداخلي لتونس، ومن جهتها أيضاً استفادت الحركة اليوسفية من خلال تحالفها مع قادة الثورة الجزائرية في تعزيز مكانتها أمام

التي لجأت إليها المصالح الفرنسية لمساعدة رجال بورقية، وقد تم تهريب أربع دفعات من السلاح، أدخلت إلى الجزائر ما بين ٢٠ مارس و ٠٦ أبريل، وفي هذا السياق يؤكد فتحي الديب بأن هذه العمليات تمت بحذر كبير من طرف شبكة التهريب، رغم تفتن "جايلز" قائد الشرطة البريطاني في ليبيا الذي قام بعمليات تفتيش ومتابعة عمليات التهريب في منطقة غريان تحت غطاء إجراء مناورات، إلا أن عبد الحميد درنه تمكن من إيقاف عملية التفتيش. وقد كان المكلف بهذه العملية خلال شهر مارس من الجانب الجزائري علي مهساس المفوض من قبل بن بلّة، وكان لمهساس علاقات وطيدة مع المناطق الشرقية (سوق أهراس والأوراس)، التي وصلت شحنات من الأسلحة المهربة، تمثلت فيما يأتي^(٤٥):

الكمية	الصنف
٦٥	بندقية ٣٠٣ ر
١٠	رشاش فبكرز متوسط ٣٠٣ ر
٣٠	رشاش لانكستر
٢١٦	قنبلة يدوية
٦٠	خزنة للان كستر
٢٠	خزنة للفي كرز
٦٠٠٠	طلقة ٩ ملم

رابعاً: استقلال تونس وانعكاساته على واقع تسليح الثورة التحريرية عبر الجبهة الحدودية الشرقية

لم تكن المصالح الفرنسية بمعزل عن تلك التطورات العسكرية التي عرفت عمليات تهريب الأسلحة من ليبيا إلى الجزائر عبر الأراضي التونسية التي كانت أكبر مسرح لها، لذلك لجأت إلى ممارسة ضغطها على الحكومة التونسية لوقف نشاط حركة المعارضة اليوسفية، وتم الاتفاق بين السلطات الفرنسية وبورقية على توقيف صالح بن يوسف وإلقاء القبض عليه، ورغم تمكنه من الفرار إلى ليبيا إلا أن ذلك لم يفده في شيء، حيث أصبح مقيداً، ولم تترك له حرية التحرك والتصرف بعد الضغوطات التي تعرضت لها ليبيا من طرف تونس وفرنسا، ومما لا شك فيه أن هذه التطورات

(٣٠) جملاً قسمت إلى ثلاث مجموعات لحمل السلاح والعتاد إلى الحدود الجزائرية^(٤٦)، كما كان عبد الحميد درنه يشرف بنفسه على عملية نقل الأسلحة إلى الحدود الليبية التونسية^(٤٧).

وحول الموضوع نفسه يوضح المجاهد محمد الطيب بيزار المدعو "حمّة" عن عملية نقل السلاح من ليبيا أنها كانت تتم بواسطة الشاحنات بمشاركة مجموعة من الثوار الجزائريين نذكر منهم: بخوش بلخير، وعمر مزهودة، وحسين حشوحوش. ويشرف على هؤلاء مسؤولون من قبل جبهة التحرير الوطني في طرابلس، أمثال: محمد الهادي عرعار، وقاضي بشير، وطالب محمد، وساكركمال، وأحمد سليم. وكانت العمليات تتم تحت إشراف قادة الثورة وعلى رأسهم: أحمد بن بلّة، وعلي مهساس^(٤٨).

وبعد الاجتماع الذي جمع ممثلي حركة المقاومة في المغرب العربي في شهر جانفي ١٩٥٦م بالقاهرة تطورت عمليات الإمداد بالسلاح من مصر، حيث نقلت شحنة من السلاح يوم ١٨/٠١/١٩٥٦م؛ لتلبية احتياجات الجبهة الشرقية، حيث كانت أسلحة هذه الشحنة متنوعة وكثيرة تم إنزالها من اليخت "قود هوب" GOOD HOPE (الحظ السعيد) بميناء زوارة الليبية، حيث تم نقلها إلى الحدود الشرقية لتأخذ طريقها إلى المنطقة الأولى وسوق أهراس^(٤٩).

وبعد هذه العملية التقى من جديد قادة المقاومة في المغرب العربي بالقاهرة مرة أخرى في اجتماع ضمّ كلّاً من عبد الكريم الخطابي قائد جيش التحرير المراكشي، وعباس لغرور قائد منطقة الأوراس، كما انضم إليهما كل من الدكتور المهدي عبود، وأحمد بن بلة عن جيش التحرير الجزائري، والطاهر الأسود قائد جيش التحرير التونسي يوم ٢٤ فيفري ١٩٥٦م^(٥٠).

وقد أجمع الحاضرون في هذا اللقاء على ضرورة مواصلة مصر لعملية الإمداد بالسلاح للأقطار المغاربية الثلاثة، وعلى هذا الأساس عرفت عمليات تهريب الأسلحة إلى الجزائر خلال النصف الثاني من شهر مارس من السنة نفسها تطوراً ملحوظاً عبر الحدود الليبية التونسية لتزويد منطقة الأوراس وناحية سوق أهراس بالسلاح، على الرغم من عمليات المراقبة المكثفة

بالسلطات التونسية إلى التدخل وحسم الخلاف، وألقي القبض على عبد الحي وأطلقت سراح الذين سجنهم، الأمر الذي دفع بن بلة إلى البحث عن مسؤول آخر يتولى مهام التسليح في تونس بدلاً من عبد الحي^(٥٠).

خامساً: دور مؤتمر الصومام^(٥١) في هيكلة وتنظيم المصالح اللوجيستية لجيش التحرير الوطني عبر الجبهة الحدودية الشرقية ١٩٥٦م

يمكن القول: إن عملية الإمداد بشكل عام سواء على الحدود الشرقية أو الغربية كانت الانشغال الأول لدى المؤتمرين خلال مؤتمر الصومام ١٩٥٦م، بالنظر إلى الظروف والمشاكل التي اعترضت قادة الثورة في الخارج والداخل من أجل تموين الثورة بالسلح والذخيرة؛ لذا كانت عملية الإمداد أبرز النقاط المسجلة في جدول أعمال مؤتمر الصومام، حيث تم إقامة هيكل وطني للإمداد في الخارج يتكفل بمهمة تلبية احتياجات جيش التحرير الوطني؛ بعد تطور العمل العسكري الذي فرضته ردود الفعل الاستعمارية.

وقد ارتبطت بداية هذه المرحلة بمجموعة من الأحداث البارزة بالنسبة للثورة التحريرية، انعكست بشكل ملحوظ على عمليات الإمداد بالسلح؛ لعلاقتها المباشرة بميكانيزمات العمل الثوري، يمكن حصرها فيما يأتي:

- استقلال تونس وجلاء القوات الفرنسية النسبي من مناطق الحدود التونسية الليبية، حيث أصبح الطريق مفتوحاً لإيصال الأسلحة من ليبيا إلى الحدود التونسية على متن الشاحنات.
- انعقاد مؤتمر الصومام (أوت ١٩٥٦) وما نص عليه من هيكلة سياسية وعسكرية للمؤسسات القيادية للثورة التحريرية، وظهور مفاهيم جديدة تخص طرق العمل المسلح ووسائله.
- اختطاف الطائرة التي كانت مقلة لقادة الثورة في الخارج يوم ٢٢ أكتوبر من العام نفسه، وانعكاساته على مهام التسليح، وطبيعة العلاقة بين قيادات الثورة في الخارج والداخل.

العسكرية والسياسية خصوصاً بعد توقيع البروتوكول التونسي الفرنسي يوم ٢٠ مارس ١٩٥٦م؛ كان لها تأثير سلبي على عملية تهريب الأسلحة إلى الجزائر عبر الأراضي التونسية^(٤٦).

وفي خضم هذه الظروف التقت اللجنة العسكرية المكلفة بمهمة التسليح يوم ٢٧ أبريل ١٩٥٦م، وقد جمعت كلاً من محمد خيضر، والأمين دباغين، وفرحات عباس، وأحمد توفيق المدني، وأحمد فرنسيس، والعباس بن الشيخ، وانتهت إلى القرارات الآتية:

- العمل على ربط علاقات مع الحكومة التونسية بقيادة بورقيبة؛ للسماح بتمرير السلح من ليبيا إلى الجزائر عبر أراضيها.
- توصي اللجنة باستئجار سفينة من تركيا لنقل الأسلحة التي قد وضعتها سوريا تحت تصرف الثورة الجزائرية.
- إجراء اتصالات مع مصطفى بن حليم رئيس الحكومة الليبية من أجل الترخيص للجنة باستعمال مطار أو مطارين على الحدود الجزائرية من الناحية الجنوبية؛ بغرض تهريب السلح إلى الجزائر بعيداً عن المراقبة الفرنسية^(٤٧).

وفي ٠١ جوان ١٩٥٦م عقدت اللجنة العسكرية لقاءً آخر بحضور كل من: بن بلة ومحمد خيضر وتوفيق المدني والأمين دباغين وعبد الرحمن كيوان، ومن أهم النقاط التي درستها اللجنة رسالة المسؤولين الجزائريين الجدد بتونس الموفدين من طرف الجبهة، وهما يؤكدان على ضرورة التعامل مع حكومة بورقيبة بدلاً من جماعة صالح بن يوسف^(٤٨).

وقد استقرت اللجنة العسكرية المكلفة بمهمة التسليح على قرار التعامل مع حكومة بورقيبة بدلاً من جماعة صالح بن يوسف بعد تراجع حركته. ورغم معارضة محمد خيضر فإن أحمد بن بلة وافق على مقترحات اللجنة، وفي الإطار نفسه طلب من مهساس التوجه نحو تونس^(٤٩)، خصوصاً وأن المسؤولين الجديدين عن عملية التسليح لم يتوصلا إلى اتفاق مع عبد الحي بتونس. وتطوّرت الخلافات داخل اللجنة المكلفة بالتسليح، حيث ألقى عبد الحي القبض على حامد روابحية؛ مما دفع

فوردي "Bet Ford" ملك الثورة، وشاحنات ضخمة أخرى يملكها الليبي سالم شلبك وضعت لخدمة الثورة الجزائرية، كما كانت شركة عبد الله عابد السنوسي تنقل الأسلحة مجاناً من السلوم إلى طرابلس، وتطلب الأمر إنشاء محطات برية على طول المسلك: مرسى مطروح، بن غازي، طرابلس، تونس، الحدود الشرقية، غار الدماء^(٥٦).

وفي السياق نفسه يشير المجاهد عبد الرحمن عمران بأنه تم نقل كمية كبيرة من الأسلحة من مصر إلى تونس في ٢٠ نوفمبر ١٩٥٦م، وزّعها عمار بن عودة على الولايات الداخلية وفق الحصص الآتية^(٥٧):

الولاية الأولى	٤٠٠ بندقية رشاش مع الذخيرة FM Brent
الولاية الثانية	٤٠٠ بندقية رشاش مع الذخيرة FM Brent
الولاية الثالثة	٤٥٠ بندقية رشاش مع الذخيرة FM Brent
الولاية الرابعة	٥٥٠ بندقية رشاش مع الذخيرة FM Brent
سوق أهراس (القاعدة الشرقية)	١٠٠ بندقية رشاش مع الذخيرة

وتجدر الإشارة إلى أن نظام عمليات الإمداد بالأسلحة والعتاد الحربي قد تنظم أكثر من السابق، خصوصاً الهيكلية العسكرية التي وضع أسسها مؤتمر الصومام من جهة، والانتصارات التي حققتها الثورة التحريرية ميدانياً من جهة أخرى، فضلاً عن اكتسابها للدعم العربي الإسلامي والدولي من طرف بلدان قارتي آسيا وأوروبا.

وقد تجسد نظام عمليات الإمداد بالأسلحة من خلال قرار لجنة التنسيق والتنفيذ؛ القاضي بإنشاء تنظيمات جديدة، منها دائرة التسليح والتموين (DARG) في مارس ١٩٥٧م، ومهمتها التكفل بعمليات إيصال الأسلحة من مختلف القواعد الخلفية إلى الحدود، وإدخالها إلى الولايات الداخلية، وقد أسندت هذه المصلحة إلى العقيد أوعمران، وكان للمصلحة مكتب عسكري بالقاهرة

وطبقاً لقرارات مؤتمر الصومام؛ فقد أولت قيادة الثورة الجديدة المثلة في لجنة التنسيق والتنفيذ اهتماماً بالغاً بقضية إمداد الثورة بالأسلحة من الخارج، وقد عبرت عن هذه المشكلة بأنه: "يجب أن ندرك بأن تموين جيش التحرير بالأسلحة هو دائماً ضمن الأولويات، لأن توقف مرور السلاح بضعة أشهر سوف يجعل الوضع أكثر تدهوراً". وعلى هذا الأساس كلّف عمر أوعمران بمهام التسليح على الحدود الشرقية والغربية، كما عين عمار بن عودة مساعداً له ونائبه على الجبهة الشرقية^(٥٨).

لقد تمكن أحمد مهساس المسؤول عن التسليح بالحدود الشرقية (قاعدتا طرابلس وتونس) المكلف من طرف الوفد الخارجي للثورة من إدخال كميات معتبرة من الأسلحة إلى تونس وتوزيعها على المناطق الشرقية (الولاية الأولى والقاعدة الشرقية)، ونجح في الوقت نفسه في جمع عدد كبير من المجاهدين حوله، لذلك؛ وحين عين العقيد عمار بن عودة محل مهساس لم يتمكن من تصفية الأجواء والسيطرة على الوضع؛ الذي شهدته تونس خلال هذه الفترة إلا فيما بعد^(٥٩).

وفي أثناء هذه المستجدات ترك بن عودة الوضع كما هو في تونس، وانتقل إلى طرابلس التي حالفه الحظ فيها، حيث كان محمد الهادي عرعار مسؤولاً عن مخازن السلاح، وكان قبل ذلك من جنود بن عودة، الأمر الذي مكّن هذا الأخير من وضع يده على هذه المخازن، وشرع على التّو في عملية نقلها إلى تونس ويشير عمار بن عودة، إلى أنه تم إلغاء كل عمليات إدخال السلاح التي كلف بها مهساس وأحمد بن بلة؛ لأسباب عدة، أهمها: أن السلاح مُخزّن وموجود بكثرة في ليبيا، وأن طريق الصحراء بعيدة ومراقبة من قبل الطيران الفرنسي، والسواحل مراقبة عن طريق البحرية الفرنسية؛ لذلك تمّ وضع هذه الأسلحة في صناديق كُتب عليها "الكاوكاو"، لنقلها من ليبيا إلى تونس عبر بن قردان^(٥٤)، وفي أول نوفمبر ١٩٥٦م كانت أول شحنة تعبر الحدود الليبية التونسية بنجاح في اتجاه المخزن الرئيس لأسلحة الثورة على الحدود الشرقية^(٥٥).

كما أصبحت عملية إمداد الثورة بالأسلحة خلال هذه الفترة تتم انطلاقاً من مصر على متن شاحنات "بت

مهمته على أحسن وجه في عملية تموين الثورة بالأسلحة^(٦٠).

كما أكدت المصادر نفسها أن (٨٠%) من حركة تهريب الأسلحة إلى الجزائر تمت عن طريق الخطوط البرية بين ليبيا وتونس، قائلة: "إن عملية المرور كانت سرية ورسمية ومنسقة مع حاكم مدين، ونهت التقارير نفسها التي قدمتها المخابرات الفرنسية بأن عملية شحن الأسلحة وإلقائها في الشمال القسنطيني عن طريق الجو كانت مبرمجة؛ بحيث وضعت مصر تحت تصرف الثوار في الجزائر طائرتين من نوع "داكوتا" بقيادة طيارين ألمانين مدربين على تلك المهمة، إلا أن العملية لم تتج برب رفض السلطات الليبية استقبال الطائرتين على أراضيها^(٦١).

ورغم الأوضاع الصعبة التي عرفت الثورة التحريرية بعد سنة ١٩٥٦ نتيجة تأزم العلاقات بين قيادات الثورة بسبب المواقف المتباينة من مؤتمر الصومام؛ لعدم تمثيلته لكل الأطراف الشرعية والتاريخية في مسألة القيادة، كما تم الاتفاق عليه عشية الانطلاقة سنة ١٩٥٤م، بالإضافة إلى عملية القرصنة الجوية واختطاف قادة الثورة في الخارج، ثم العدوان الثلاثي على مصر، فإن عملية إمداد الثورة بالسلح استمرت رغم الظروف عبر الحدود الشرقية، انطلاقاً من مصر إلى ليبيا، حيث تم إرسال دفعات من الأسلحة عبر الطريق البري بعد الاتفاق مع بعض التجار الليبيين للاستفادة من وسائل النقل الخاصة بهم لتهريب الأسلحة، والتي كانت تستعمل بانتظام ما بين مصر وليبيا لنقل البضائع. وقد تم شحن أول دفعة للسلح يوم ١٩٥٧/٠٢/٧ تحت إشراف أحمد مهساس، وكانت معظم هذه الشحنة ذخيرة خاصة بالأسلحة الرشاشة ومدافع الهاون، بالإضافة إلى مدافع من نوع "A.T.F" المضادة للعربات المدرعة تم نقلها إلى المناطق الشرقية؛ لطبيعة العمل العسكري الذي تميزت به الجبهة الشرقية عموماً^(٦٢).

ومن ليبيا نقلت هذه الأسلحة (الدفعة الأولى) إلى المخازن المعدة قرب الحدود التونسية. كما تسلّم الأمين دباغين دفعة ثانية من الأسلحة يوم ٧ أفريل ١٩٥٧م؛ تم نقلها مباشرة بالسيارات إلى الحدود التونسية، ووجهت إلى الأوراس والشمال القسنطيني والولاية الرابعة،

بشرف على ثلاث قواعد إمداد رئيسة، هي: قاعدة جبهة التحرير الوطني في تونس، وقاعدة طرابلس، وقاعدة جبهة التحرير الوطني في المغرب^(٥٨).

ولم تكن عملية البحث عن الأسلحة ونقلها بالأمر الهين؛ الأمر الذي اضطر بن عودة إلى الاستمرار متقللاً بين القاهرة وطرابلس وتونس والسفر إلى أوروبا أحياناً. وفي هذا الإطار يشير بن عودة بأنه تم عقد صفقات عدة للأسلحة باسم بلدان عربية في أوروبا، مثل: المملكة العربية السعودية، والعراق^(٥٩).

سادساً: تسليح جيش التحرير الوطني عبر الجبهة البرية الشرقية من خلال التقارير الأرشيفية الفرنسية

صرحت المخابرات الفرنسية عن عمليات تهريب الأسلحة عبر الحدود الشرقية في الكثير من تقاريرها العسكرية خلال سنتي ١٩٥٦-١٩٥٧، منبهة للحركة النشطة لعمليات نقل الأسلحة وتهريبها نحو الداخل؛ بهدف دعم قدرات كتائب جيش التحرير الوطني، وذهبت هذه التقارير إلى أن تعيين أوعمران على رأس لجنة جبهة التحرير في تونس محلّ مهساس هو انتصار الداخل على الخارج والسياسي على العسكري.

وأوضحت التقارير نفسها بأن ازدياد وتيرة تهريب السلّاح بدأت مع منتصف شهر ماي ١٩٥٧م، إذ أصبح معدل عبور قوافل السلّاح يومياً تقريباً، وأن أكبر كميات الأسلحة كانت تأتي عن طريق ليبيا بعد رفع الرقابة الفرنسية عن الموانئ التونسية، وأصبح النقل منتظماً من طرف لجنة جبهة التحرير في تونس بالتنسيق مع ممثل بورقيبة أحمد التليلي أمين مال حزب الدستور الجديد، والأمين العام للاتحاد العام للعمال التونسيين، حيث قدّم هذا الأخير لعمر أوعمران وسائل نقل ممثلة في شاحنات الحرس القومي التونسي؛ لشحن الأسلحة من ليبيا ونقلها وحمايتها حتى تصل إلى مراكز التخزين بتونس في مقرّات رسمية وتوزيعها فيما بعد بالشاحنات نفسها على قواعد الثورة على الحدود الشرقية؛ لإدخالها إلى الجزائر (الأوراس، والقاعدة الشرقية، والشمال القسنطيني)، عن طريق البهائم أو الشاحنات أو الرجال. وأشارت التقارير نفسها بأن أوعمران أدى

سبل مع المسؤولين المصريين لنقل بقية الصفقة التشيكية التي قدرت بجوالي (٣٥٠) طنًا من الأسلحة والذخيرة، وانتهى الأمر بنقل وتهريب الكمية على أربع مراحل (دفعات)، بين الفترة الممتدة بين ١٧ مارس ١٩٥٧ إلى غاية ٢١ أكتوبر ١٩٥٧، وقد وقّع على استلام الشحنات أحمد سليم نيابة عن ممثل الثورة لدى السلطات المصرية. أما الهدف من ذلك فهو إيصال أكبر كمية من هذه الشحنات إلى الولايتين الثالثة والرابعة انطلاقًا من ميناء الإسكندرية؛ مركز تفريغ الأسلحة التشيكية إلى مرسى مطروح بالقرب من الحدود الليبية عن طريق عربات السكة الحديدية، حيث يتم تخزينها في مخازن مخصصة لتخزين أسلحة الثورة، ومن هناك تنقل بواسطة شاحنات تحت إشراف مندوب الثورة في ليبيا إلى الحدود التونسية، حيث يتم تفريغها مرة أخرى في مخازن سرية؛ لحفظ الأسلحة في تونس لتتقل بواسطة الجمال عبر الأراضي التونسية إلى الداخل^(٦٦).

سابعاً: الواقع العسكري لتسليح جيش التحرير الوطني على الجبهة البرية الشرقية من خلال المصادر والوثائق الأرشيفية (أرشيف الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية GPRA)^(٦٧)

١/٧ عمليات الإمداد خلال سبتي (١٩٥٨-١٩٥٩)

لم تتوقف عمليات إمداد الثورة بالأسلحة، التي من المفروض أن تدخل من الحدود الشرقية؛ ففي ٢٦ جانفي ١٩٥٨ استلم العقيد عمر أوعمران شحنة من الذخيرة^(٦٨)؛ لإرسالها إلى الداخل براً عبر الحدود الشرقية. وفي ١٠ فيفري من نفس السنة تسلّم العقيد أوعمران كمية أخرى من الذخيرة لتلبية احتياجات المقاتلين بعد تطوّر العمليات العسكرية في الداخل، وقد قدرّت هذه الشحنة بـ (٢٧٥، ٥٤٠) طلقة لبندقية الموزر ٩ ملم، و (٢٠٠، ٢٧٣، ١) طلقة لبندقية حربية^(٦٩).

وتشير المصادر التاريخية المتوفرة إلى تكثيف إمداد الثورة بالأسلحة والذخيرة بكميات كبيرة؛ لم يسبق أن شهدت هذه العمليات قبل هذا التاريخ. ففي مارس ١٩٥٨ وقّع عمر أوعمران محضر استلام دفعتين من

وتلتها دفعة ثالثة تسلمها محمد الهادي عرعار يوم ٢٠ ماي ١٩٥٧ م. أما بالنسبة للدفعة الرابعة فقد نقلت من الإسكندرية إلى ليبيا على متن المركب الأسباني خوان إيلوكاس؛ تحت إشراف الأمين دباغين الذي شرع في إجراء اتصالات مع عبد الله عابد السنوسي في ليبيا، لنقل هذه الشحنة داخل ليبيا وفي تونس، وبذلك وقعت أول عمليات عبور هذه الأسلحة بإشراف عبد الله عابد السنوسي ابتداء من الفاتح جويلية ١٩٥٧ م، انطلاقاً من مرسى مطروح نحو تونس بواسطة الشاحنات عبر الأراضي الليبية نحو مخازن السلاح على الحدود الجزائرية التونسية^(٦٣).

كما شاهد النصف الثاني من سنة ١٩٥٧ عمليات تهريب كميات معتبرة من الأسلحة إلى الداخل عبر الحدود الشرقية، حيث استغل عامل توتر العلاقات بين فرنسا وتونس التي كانت قد رفعت من مراقبتها على نقاط عبور السلاح، وقد أصبحت الحدود الشرقية قاعدة لتموين الولايات الداخلية، وأصبح جيش التحرير الوطني الذي فاق تعداده ١٠٠ ألف مقاتل مسلح بنسبة تفوق (٥٠%) تسليحاً جيداً^(٦٤).

ويمكن للباحث بعد اطلاعه على قوائم شحنات الأسلحة التي عبرت الحدود الشرقية أن يلاحظ مدى التطور النوعي والكمي للسلاح والذخيرة، الأمر الذي يعكس القدرة القتالية التي تميّزت بها كتائب جيش التحرير في الداخل. وبعملية حسابية نجد أن المناطق الشرقية حظيت وحدها خلال النصف الأوّل من عام ١٩٥٧ بجوالي ٦٧٦، ١٠ قطعة سلاح بين بندقية ورشاش خفيف، وحظيت أيضاً بجوالي (١٤٢) مدفع هاون، أما الذخيرة في القوائم التي نشرها مراد صديقي وفتحي الديب في كتابيهما؛ فهي بالملايين، وهو ما يبيّن أن جيش التحرير أصبح يعتمد على قدرة تيسر مهمته في مواجهة العدو؛ خصوصاً بعد بداية معركة الحدود التي شهدتها الجبهة الشرقية خلال هذه الفترة^(٦٥).

كما شهد النصف الثاني من سنة ١٩٥٧ تهريب كميات هائلة من الأسلحة إلى الداخل عبر الحدود الشرقية، حيث استغل عامل توتر العلاقات الفرنسية التونسية التي غضت الطرف عن مراقبتها لنقاط عبور السلاح من طرف قيادة الثورة، وشرعت في البحث عن

لجيش التحرير الوطني، والتي كثيراً ما دفعت قادة الثورة إلى ضرورة التفكير في حلول وبدائل؛ لتجاوز الوضعية الصعبة التي أصبح يعاني منها النشاط الثوري.

وقد ركّز التقرير على مسألة التعداد التي أشار فيها إلى زيادة معتبرة في عدد الجنود، وهذه الزيادة ستغير من معطيات المشاكل التنظيمية والإستراتيجية والتكتيكية، وبذلك من الضروري دراسة انعكاسات هذه الزيادة لاستخلاص النتائج المنتظرة^(٧٣).

أما عن مسألة الإمداد بالأسلحة والذخيرة وكل عتاد المعركة؛ يشير التقرير إلى أن تموين جيش التحرير الوطني بالأسلحة كان دون الاحتياجات حتى عندما كانت الظروف مهيأة لذلك، وقد توقف إيصال الأسلحة منذ بضعة أشهر، وزاد في تأزم الوضع معاناة الجبهة الغربية، الأمر الذي أدى إلى تباطؤ العمليات الميدانية، في وقت ارتفع فيه عدد الإطارات والمجندين في جيش التحرير الوطني^(٧٤).

ولم تنعكس نتائج الجهود الرائدة التي بُذلت من طرف مندوبي الثورة في الخارج المكلفين بمهمة التسليح؛ وعلى رأسهم العقيد عمر أوعمران بشكل إيجابي لتحقيق وتلبية متطلبات العمل العسكري في الداخل، ونجاح عمليات إمداد الثورة بالأسلحة إلى غاية وصولها إلى المقاتلين في الداخل. ومما لا شك فيه أن الواقع العسكري للثورة مع بداية ١٩٥٨ لم يكن في حقيقة الأمر يبعث على التفاؤل بالنسبة لقادة الثورة العسكريين؛ في ظلّ الانعكاسات التي كانت لها آثار وخيمة على وتيرة الإمداد وتسليح الولايات الداخلية، انطلاقاً من الحدود الشرقية جراء إنشاء الإدارة الاستعمارية للسدود المكهربة كخط موريس على الحدود الجزائرية التونسية؛ الذي كان سبباً مباشراً في الحدّ من مرور قوافل السلاح إلى الداخل، وسوف تتعقد العملية أكثر بعد إنشاء خط شال سنة ١٩٥٩، وتزويد الخطّين بخطوط مكهربة وإشارات ضوئية وآلات إلكترونية، وحقول ألغام، ومراكز مراقبة، ودوريات حراسة^(٧٥).

وأمام المشاكل والصعوبات الميدانية التي واجهت قيادة الثورة وعلى رأسها الأزمة الداخلية التي انتهت بما عُرف بقضية عبان رمضان^(٧٦)، إلى جانب العائق الميداني الناجم عن خط موريس الذي أظهر نقاط عجز

السلاح والذخيرة تمّ إرسالها إلى الداخل عبر الحدود البرية الشرقية، ونظراً لسهولة عملية التهريب عبر الأراضي التونسية استغلت قيادة الثورة هذه الظروف ليتم تهريب دفعة أخرى من الأسلحة والذخيرة استلمها أيضاً عمر أوعمران بتاريخ ٢٦ ماي ١٩٥٨^(٧٧).

وبالنظر إلى الإحصائيات الخاصة بشحنات السلاح التي تسلّمها مندوبو الثورة في الخارج؛ على أساس إيصالها إلى المقاتلين في الولايات الداخلية، يُمكن للباحث عند هذا المقام أن يتساءل: هل كانت هذه الدفعات من الأسلحة كافية حينذاك لتسليح جيش حديث النشأة؟ وهل كان بمقدوره القتال لمدة أطول دون الحاجة لإمداد جديد؟ والأهم من ذلك: هل تمكّن مندوبو الثورة في القواعد الخلفية من إدخال كل الأسلحة التي تم توقيع محاضر استلامها من الحكومة المصرية، أم بقيت مكدسة في مخازن الثورة في مصر وليبيا وتونس؟ أين التوثيق؟

لقد استفادت كتائب جيش التحرير في النصف الأول من سنة ١٩٥٨ أكثر من (١٧,٨٠٠) قطعة سلاح، وآلاف القنابل اليدوية، والملايين من الطلقات مختلفة العيارات، مع كميات هائلة من أدوات التفجير؛ الأمر الذي كان له كبير الأثر في تطوير القدرات القتالية لجيش التحرير الوطني وفعاليته في الميدان، وتحسّن وضعه العسكري لكي يصبح جيشاً نظامياً^(٧٨)، وفي السياق نفسه؛ تحصى المصادر الفرنسية معتمدة في ذلك على تقارير القادة العسكريين عدد قطع الأسلحة التي كانت بحوزة الوحدات النظامية لجيش التحرير الوطني سنة ١٩٥٨ بحوالي (١٢,٠٠٠) قطعة سلاح حربي، كما تمّ إحصاء وجود (٨,٠٠٠) قطعة على الحدود الشرقية، و(١,٠٠٠) قطعة مماثلة على مستوى الحدود الغربية، أضف إلى ذلك ما يقارب (١٠,٠٠٠) قطعة أخرى ببقية التراب التونسي، و(٨,٠٠٠) قطعة بليليا، و(٣٥,٠٠٠) قطعة في طريقها من الشرق الأوسط إلى ليبيا؛ لتأخذ فيما بعد طريقها براً عبر الحدود الشرقية نحو الداخل^(٧٩).

لكن بالعودة إلى ذلك التقرير الذي أعدته لجنة التنسيق والتنفيذ في خريف ١٩٥٨ حول الوضع العسكري في الداخل، بمكن للباحث أن يقف على قضايا مهمة ذات ارتباط وثيق بالإمكانات المادية والبشرية

ويمكن تفسير توقف دخول الأسلحة عبر الحدود الشرقية حسب ما جاء في نص التقرير الذي أعدته لجنة التنسيق والتنفيذ؛ بسبب ردود الفعل الاستعمارية الفرنسية المتمثلة بشكل خاص في إنشاء خط موريس المكهرب على الحدود التونسية الجزائرية، الأمر الذي أدى إلى الحد من عمليات عبور قوافل السلاح عن طريق الشاحنات أو الدواب. وبقيت عمليات تسلل الأشخاص بصعوبة وخطورة الوسيلة الوحيدة للاتصال بالمقاتلين في الشمال القسنطيني (الولاية الثانية)^(٧٩).

ونشير في هذا الإطار إلى أن دفعات السلاح قبل إنشاء السد كانت تتنقل بشكل منتظم عبر منطقة سوق أهراس (القاعدة الشرقية)، ومن هناك يُعاد توزيعه على الولايات الداخلية الثانية والثالثة وكذلك الرابعة، أما الأوراس (الولاية الأولى) فكانت قوافل الأسلحة تصلها عبر الصحراء.

وبذلك تركت الوضعية العسكرية على الحدود الشرقية نتائج وآثاراً سيئة على واقع قواعد الإمداد ومخازن السلاح المنتشرة في كل من تونس وليبيا، حيث تكدست كميات هائلة من الأسلحة والذخيرة في هذه المخازن مقابل الإلحاح على طلب الأسلحة من مصر من طرف العقيد أوعمران، وفي هذا السياق يؤكد فتحي الديب بأنه حاول إقناع أوعمران بأن الكميات التي تسلمها من مصر خلال النصف الأول من سنة ١٩٥٨م كافية لتسليح جيش التحرير، وأنه لم يقصر في الاستجابة لكل طلبات السلاح من قيادة الثورة؛ إلا أنه لا يجذب أي اتجاه لتكديس السلاح والذخيرة في المخازن بل ليبيا وتونس؛ خصوصاً وأنه لم يكن يطمئن لتطورات الأحداث في كلا البلدين، وبذلك لم يخف إصراره على ضرورة إتمام سحب كل ما هو مكدس بمخازن الثورة بل ليبيا وتونس، وسرعة إدخاله إلى الثوار والمقاتلين في ميدان القتال. وأكد مرة أخرى لأوعمران بأنه لن يتجاوب مع أي طلب جديد للسلاح؛ ما لم يتأكد من إدخالهم لكل ما هو مكدس حالياً إلى الجزائر^(٨٠).

وفي خضم هذه المستجدات التي عرفها العمل العسكري على الجبهة الشرقية رأت قيادة الثورة ضرورة تعطيل فعالية خط موريس عن طريق نسفه بواسطة طوربيدات البنجالور من جهات عدة، ولو لمدة مؤقتة

كثيرة بالنسبة لجيش التحرير على الحدود الشرقية، بدأت لجنة التنسيق والتنفيذ في إعطاء فعالية أكثر للعمل الثوري في المناطق الحدودية؛ برفع مستوى القدرات القتالية لأفراد جيش التحرير بعد أن أوكلت مهمة تأطيرهم إلى أولى مجموعات الضباط الجزائريين الفارين من الجيش الفرنسي أواخر سنة ١٩٥٧، والذين استطاعوا إقناع كريم بلقاسم بضرورة إعادة هيكلة فرق ومجموعات جيش التحرير؛ للتجاوب بصورة أفضل مع الواقع الصعب الذي فرضته العمليات العسكرية الفرنسية. وفي أبريل ١٩٥٨ أخرج كريم بلقاسم الفكرة إلى العلن عندما اقترح تشكيل قيادة للعمليات العسكرية Commandment Des Operations Militaries، التي كلفت بمهام رئيسة تمثلت في تحطيم خط موريس والقضاء على فلول بلونيس، وتسوية وضعية الضباط الملتحقين بالثورة بعد فرارهم من الجيش الفرنسي.

وقد تزامنت الأيام الأولى لتشكيل قيادة العمليات مع معركة من أكبر معارك العبور التي شهدتها الثورة التحريرية على الحدود الشرقية، وهي المعركة الشهيرة بمعركة سوق أهراس الكبرى بتاريخ ٢٦ أبريل ١٩٥٨، التي اعتبرت تحدياً حقيقياً للخطوط المكهربة وعملية استعراضية، إلا أنها من جهة أخرى أوضحت الآثار السلبية للسدود المكهربة؛ خصوصاً بعدما أنشئ أمام مريس شال خط آخر في ربيع ١٩٥٩م. وفي هذا السياق اعتبرت معركة سوق أهراس بالنظر إلى نتائجها أول محك تعرضت له قيادة العمليات الشرقية فيما يتعلق بأول مهمة أقيمت على كاهلها^(٧٧).

ويمكن القول: إنه إذا كانت قيادة العمليات قد استطاعت في الأشهر القليلة التي أعقبت تشكيلها تحقيق نتائج ملموسة في ملاحقتها لفلول بلونيس ومعاقل الحركة الوطنية؛ فإن عمليات اختراق الخطوط لإمداد الثورة وعبور قوافل السلاح كثيراً ما انتهت بنتائج وخيمة تؤكد المصادر التاريخية من شهادات ووثائق، حيث تعرض جيش التحرير الوطني خلال ثلاثة أشهر (من أبريل إلى جوان ١٩٥٨) إلى فقدان (٦٠٠) مجاهد إثر عمليات العبور^(٧٨).

كافية لتنفيذ خطة التدمير ثم العبور، وعلى الرغم من ذلك لم تتفد إلا في حدود ضيقة وبصورة محدودة ضد خطي موريس وشال على الحدود الشرقية. ويمكن تفسير ذلك بالفشل الكبير في استعمال البنجالور أمام الحصانة التي يتميز بها خط موريس^(٨٦).

وبعد الإعلان عن ميلاد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في سبتمبر ١٩٥٨م أصبحت مصلحة التسليح والتموين العام DARG تحمل اسم وزارة التسليح والتموين العام MALG، لها المهام نفسها والصلاحيات والتنظيم حتى نهاية ١٩٥٩م، وأسندت مهمة الإشراف عليها إلى العقيد محمود الشريف.

وقد اهتمت قيادة الثورة خلال هذه المرحلة بوسائل نقل السلاح المخزن في ليبيا بشكل خاص، حيث تمّ اقتناء شاحنات جديدة في الجبهة الشرقية، بالإضافة إلى إنشاء ورشات للإصلاح وصيانة السيارات بمختلف أنواعها^(٨٧)، وفي هذا السياق يُشير المجاهد عبد المجيد بوزيد إلى أنه بهدف الحدّ من التبعية للغير في مجال النقل والحصول على استقلالية أكبر وأمن أحسن؛ قررت قيادة الثورة تشكيل حظيرتها، وقد أنجزت العملية في ليبيا، إذ تمّ شراء شاحنات فيات بمقطورات ومرسيدس بحمولة ثمانية أطنان، وستة لانسيا "Lansia" بحمولة ٢٥ طناً في شهر أكتوبر ١٩٥٨م، وبعد ذلك تمّ اقتناء سيارات ليموزين للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية^(٨٨).

وحول الموضوع نفسه يشير المجاهد دحو ولد قابلية بأن الثورة التحريرية بعد ١٩٥٨م أصبحت تمتلك أسطولاً من شاحنات النقل بعد أن تدعمت بشاحنات جديدة من لانسيا ومرسيدس وشاحنات بعربات من نوع برتوغا Bertoga وإينيموغ Unimog، إضافة إلى سيارات خفيفة ظلت متنقلة باستمرار بين القواعد الخلفية للثورة بمساعدة الأشقاء الليبيين والتونسيين^(٨٩).

لتمكن الثوار من اجتيازها بأمان، وفي هذا الإطار يجب الإشارة إلى أن مندوبي الثورة في الخارج تسلّموا كميات كبيرة من مصر؛ بغرض تجريبيها في عمليات اختراق وعبور قوافل السلاح للخطوط المكهربة.

وتشير بعض المصادر إلى أن نجاح تجربة استخدام الدفعة الأولى من المتفجرات أو طوربيدات البنجالور^(٨١) دفعت بقيادة جيش التحرير الوطني على الحدود الشرقية إلى طلب كميات أخرى منها في ٠٢ جانفي ١٩٥٨، وقد تضمنت: (٧٠٠) طوربيد بنجالور بلاستيك، و(١٠٠) متر فتيل مأمون، و(١,٠٠٠) متر مفجر ألمنيوم عيار ٨، تسلّمها مندوب الثورة محمد نور الدين فراج نائب العقيد عمر أوعمران في القاهرة^(٨٢). كما تسلّم حسين نشابي في القاهرة بتاريخ ١٩ فيفري ١٩٥٨ شحنة أخرى من المتفجرات نقلت على التّو نحو تونس لاستخدامها في عمليات اختراق وعبور الخطوط المكهربة^(٨٣). وقد تضمنت الكميات الآتية:

٥٠٠	طوربيد بنجالور صاج معبأ
٥٠٠	طوربيد بنجالور بلاستيك
٢٠٠٠	مفجر عيار ٨
١٠٠٠	متر فتيل أمان مغطى

وفي الإطار نفسه سجل ترحيل كميات أخرى من المتفجرات إلى تونس على ثلاث دفعات: الأولى والثانية تسلمها محمد نور الدين فراج بتاريخ أول ماي و١٩ جوان ١٩٥٨، أما الدفعة الثالثة فقد تسلّمها العقيد عمر أوعمران بتاريخ ٠٢ أوت من السنة نفسها^(٨٤).

وعلى الرغم من وضع خطة محكمة لاختراق السد المكهرب والتدريب الجيد للقوة المكلفة بعملية التدمير، وتكدس المعدات ومستلزمات عمليات التفجير في مخازن ومستودعات الأسلحة بتونس، إلا أنه لم يسجل إلى غاية هذا التاريخ تنفيذ أي عملية، رغم محاولة تغطية النقص في الموارد والاحتياجات اللازمة لخطوط تدمير الخط^(٨٥).

ومما لا شك فيه أن مضمون الكميات الهائلة من المعدات والوسائل الموجهة لاختراق الخط المكهرب تبدو

٢/٧-الإمداد على الجبهة الشرقية في المرحلة الأخيرة للثورة التحريرية (١٩٦٠-١٩٦٢)

لقد وصلت كميات هائلة من الأسلحة والتجهيزات العسكرية إلى الموانئ في مصر وليبيا خلال سنتي ١٩٥٩ و١٩٦٠، ودامت عملية إفراغها من السفن؛ استناداً إلى بعض الروايات حوالي أربعة أشهر من طرف حوالي (١١٠) مجاهدين؛ جلّهم من المعطوبين بعد أن هُيأوا الموانئ والسكك الحديدية لتسهيل سير العملية، وكانت هذه الأسلحة من الدول الاشتراكية والاتحاد السوفياتي، وبشكل خاص الصين الشعبية التي أرسلت ثلاث سفن محملة برشاشات ومدافع ثقيلة من مختلف العيارات، منها المضادة للطيران والمضادة للدبابات، ومدافع هاون عيار (٥٠ مم) إلى عيار (١٢٠ مم)، ومدافع ميدان من عيار (٨٥ مم) إلى عيار (١٢٢ مم)، ومدافع ميدان بلا ارتداد Sans reculs، الأمر الذي انعكس بالإيجاب على تطور سلاح جيش التحرير الوطني؛ خصوصاً بالمناطق الحدودية من بندقية الصيد البسيطة إلى مدافع الميدان^(٩٠).

ولم تكن عملية تهريب الأسلحة من ليبيا إلى الحدود الجزائرية خلال هذه الفترة بالأمر السهل، بل كانت مغامرة بسبب المخاطر المحيطة بها؛ فبالإضافة إلى طول المسافة نجد هناك تركز القوات الأمريكية والبريطانية التي لتزال بليبيا، أما تونس فلم تكن هي الأخرى مستقلة تماماً مع وجود القوات الفرنسية التي كانت مكلفة بمراقبة المناطق الحدودية من شوشة بالحدود الليبية التونسية إلى الحدود الجزائرية، ففي شوشة مركز عسكري لمراقبة حركة الأشخاص على الحدود، وفي بن قراد نكتة بكامل عدتها وعتادها، بالإضافة إلى قاعدة جوية في قابس، وبذلك شكلت هذه القوات عائقاً كبيراً لحركة الثوار خلال عمليات تهريب الأسلحة والذخيرة عبر الحدود الليبية التونسية بشكل خاص^(٩١).

وبعد التغييرات التي عرفتتها الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، والتعديلات التي طرأت على هيكلها، وأجهزة قيادتها السياسية والعسكرية في جانفي ١٩٦٠، تمّ دمج وزارة التسليح والتموين العام

ووزارة المواصلات العامة في وزارة واحدة؛ هي وزارة التسليح والمواصلات العامة MALG، وقد أُسندت مهمة الإشراف عليها إلى العقيد عبد الحفيظ بوصوف. وقد سجلت أنظمة التسليح خلال المرحلة الأخيرة من عمر الثورة تحولاً كبيراً على المستويين التنظيمي والوسائل والنشاطات. وفي هذا السياق نشير إلى المديريتين الجديدتين اللتين أنشئتا لإمداد الثورة بالسلاح وهما: مديرية التسليح الغربية، ومديرية التسليح الشرقية التي كان مقرها بالقرب من مقر الحكومة المؤقتة في تونس، وللمديرية مراكز وممثلات في بلدان عدة، مثل: تونس، وليبيا، ومصر، وسوريا، والعراق، وألمانيا...^(٩٢).

وقد ضمت مديرية التسليح الشرقية التي كلف بمهمة الإشراف عليها العقيد عمار بن عودة؛ مديريتين فرعيتين، هما: مديرية السلاح والعتاد، ومديرية التموين العام. وقد تلخصت مهام هاتين المديريتين بشكل خاص في توفير ونقل وأمن الأسلحة والتجهيزات العسكرية القادمة من الشرق الأقصى، والشرق العربي، وإيصالها إلى الحدود الشرقية والغربية أيضاً، وتزويد فيالق جيش التحرير الوطني على الحدود الشرقية ومصالح الحكومة المؤقتة بتونس بالأغذية، وغيرها^(٩٣).

وللإشارة؛ فقد انعكست هذه الإجراءات على قدرات شبكة الدعم اللوجستيكي المتمركزة في الجبهة الشرقية بشكل ملموس، حيث عرفت عملية تمويل جيش التحرير الوطني بالأسلحة من الخارج عبر خطوط الإمداد؛ انطلاقاً من مصر ثم ليبيا إلى غاية الحدود الجزائرية التونسية، خلال فترة وزارة التسليح والمواصلات العامة (١٩٦٠-١٩٦٢) حركة نشيطة، وقطعت الشاحنات استناداً إلى شهادة المجاهد دحو ولد قابلية مسافة ما يقارب (٤,٤٥٠,٠٠٠ كم)، ونقلت ما يقارب (٢٥٠٠) طن من الأسلحة والعتاد، بمعدل ٥ إلى ٦ رحلات شهرياً^(٩٤).

وعند هذا المقام لا بد من الاعتراف بأنه رغم كل التنظيمات والهياكل الجديدة التي أرسنها قيادة الثورة؛ فإن عملية إدخال السلاح وإيصاله إلى أيدي المقاتلين في الولايات الداخلية لم تكن بالأمر الهين، خصوصاً في السنوات الأخيرة أين اشتدت مراقبة السلطات الفرنسية لمراكز العبور وتدعيم السدود بخطوط إضافية مكهربة وملغمة، خصوصاً بعد الانتهاء من إنجاز خط شال الذي

السياسية والعسكرية للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وإنشاء وزارة التسليح والمواصلات العامة (MALG)، الأمر الذي أدى إلى تسجيل محطات ناصعة من عمليات التسليح، التي كان لها الأثر الكبير في اشتداد لهيب الثورة واستقلال الجزائر.

يمكن للباحث أن يدرك بعمق الوضعية التي أصبح عليها جيش التحرير الوطني، خصوصاً بعد سنوات ١٩٥٨ و ١٩٥٩، إلى غاية نهاية الثورة من حيث التأطير والتنظيم العسكري المحكم الذي تميزت الانضباط والالتزام بالمهام، والأوامر الصادرة من القيادة العليا للثورة، وقد مكنته قواعد التموين الحدودية ومراكز التدريب العسكري وتخزين السلاح من تسليح نفسه سلاح حربي عصري مكنته من أداء مهمته الأساسية، المتمثلة في تموين الولايات الداخلية بالأسلحة والذخيرة، رغم الصعوبات والمخاطر خاصة على مستوى السدود المكهربة.

حسب تقرير الخبراء والمختصين في ميدان التسليح أن أداء قواعد الإمداد على الحدود الشرقية والغربية كان جيداً، غير أن عملية الاستقبال بالولايات المعنية لم تكن مدروسة بطرق مناسبة؛ الأمر الذي أبقى مشكلة الإمداد مطروحة على كل الولايات مع تفاوت حدته بين الواحدة والأخرى، وتؤكد ذلك الرسائل المتبادلة بين قادة الولايات وقيادة الأركان. كما تعبر عنه التصريحات الصادرة عن هذا المسؤول أو ذاك، مثلما صرح به الرائد الحاج لخضر قائد الولاية الأولى بالنيابة في ربيع ١٩٥٩م: "لولا نقص السلاح؛ لتطوع الشعب كله"، وهي إشارة صريحة إلى الطابع الشعبي للثورة التحريرية وإمكانات التجنيد غير المحدودة التي كانت بحوزة جيش التحرير في الداخل.

من خلال الدور البارز الذي قام به قادة الثورة في عمليات الإمداد اللوجستيكي، انطلاقاً من الخارج، سواء من المشرق أو أوروبا الغربية والشرقية وحتى الشرق الأقصى؛ نجح جيش التحرير الوطني في الداخل وعلى الحدود في الشرق والغرب من خلال تنظيمه المحكم وتسليحه الجيد في مواجهة قوات العدو في الكثير من المعارك المصيرية، وقد أشار التقرير الذي أعدته وزارة التسليح والاتصالات العامة إلى أن كمية السلاح بمختلف

كان بهدف قطع خطوط الإمداد بالأسلحة، ووضع حدّ نهائي لعمليات عبورها عبر الحدود البرية الشرقية^(٩٥). وبذلك شهدت عملية إرسال الأسلحة عبر طول الحدود الشرقية تضاماً ملحوظاً، وأصبحت الكتائب والقوافل المكلفة بنقل السلاح إلى الثوار المقاتلين في الداخل تعاني جراء شدة المراقبة، وعلى الرغم من استعمال البنجالور والقنابل بمدافع الهاون من طرف كتائب جيش الحدود؛ فإن ذلك لم يمكن من فتح ثغرات كافية وسليمة في السدود المكهربة تمكن بدورها من مرور الحد الأدنى من الأسلحة والذخيرة لقوات جيش التحرير المنتشرة في الولايات الداخلية^(٩٦).

خاتمة

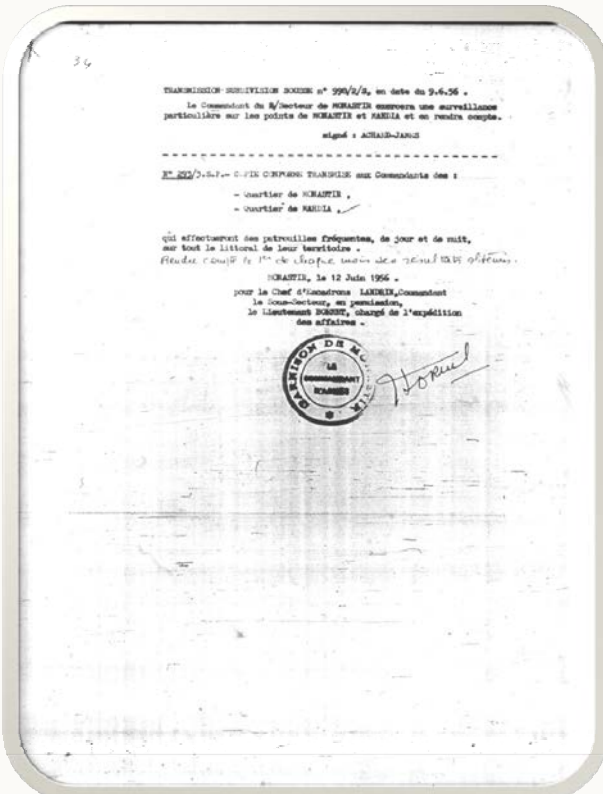
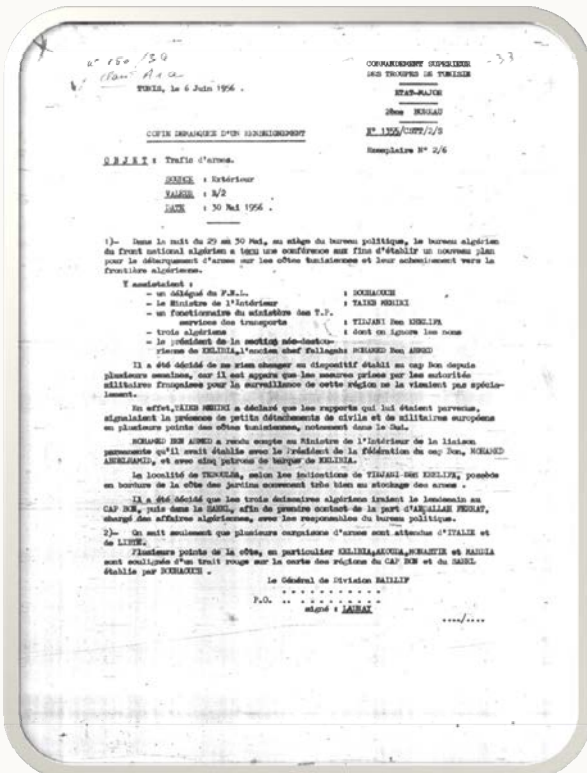
يمكننا التأكيد في خاتمة هذه الدراسة على الدور البارز الذي لعبته الجبهة الحدودية الشرقية في مجال الإمداد بالسلاح خلال الثورة التحريرية الجزائرية، باعتبارها منطقة متاخمة للحدود التونسية والحدود الليبية؛ مما جعلها تضطلع بعمليات التسليح وعمليات العبور، سواء عبر خطي "موريس" و"شال" -بعد إنشائهما- إلى الأراضي التونسية، ثم الدخول إلى أرض الوطن، أو العبور إلى الولايات الداخلية؛ انطلاقاً من نقاط مختلفة من الجبهة الشرقية.

نجحت قيادة الثورة في مهمة تسليح الثورة منذ الوهلة الأولى لاندلاعها؛ في تنسيق الجهود والمساعي الوحدوية مع دول الجوار الإقليمي للجبهة الشرقية (تونس وليبيا)، من أجل مواجهة مشكلة نقص السلاح، إيماناً منهم بأهمية الأسلحة في مشروعهم الثوري، بما يعكس البعد الوحدوي المغربي الذي تبنته الثورة من خلال موثيقها الأساسية. وبالفعل فقد تمكنت قيادة الثورة نتيجة هذه الجهود من الحصول على شحنات مهمة من الأسلحة والذخيرة من دول عربية شقيقة؛ تم تسريبها إلى الداخل عبر الجبهة الشرقية، خاصة خلال الفترة الممتدة من ١٩٥٤-١٩٥٨ والمرحلة التي أعقبتها.

شهدت عمليات الإمداد بالسلاح عبر الجبهة الشرقية تطورات الكبيرة، بعد إعادة هيكلة القيادات

المحلق

الملحق رقم (١)



تقرير عسكري فرنسي (أرشيف ما وراء البحار. فرنسا). عن عمليات تهريب الأسلحة على الحدود الجزائرية التونسية، مؤرخ بتاريخ ٠٦ جوان ١٩٥٦. المعهد العالي للحركة الوطنية التونسية. المنوبة. تونس- BOBINE.S523.2H-398-DOSSIE01

أنواعها (الخفيفة والثقيلة) القادمة من الخارج قدرت بـ(٤٥٠٠٠ طن، القسط الأكبر منه تسلمته دائرة التسليح في الشرق ودخل عبر الحدود الشرقية إلى الولايات الداخلية بحمولة قدرت بـ(٤٢٠٠٠ طن، بالإضافة إلى الأسلحة المسترجعة خلال العمليات العسكرية مع القوات الفرنسية والأسلحة المصنوعة محلياً.

شكل الدعم والتضامن المغربي مع الثورة الجزائرية عاملاً مهماً في تحقيق الجزائريين لاستقلالهم ونيل حريتهم؛ الأمر الذي يبرز أهمية البعد القومي والتوجه الوحدوي آلياً للدفاع عن مختلف القضايا العربية والإسلامية، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية في الوقت الراهن.

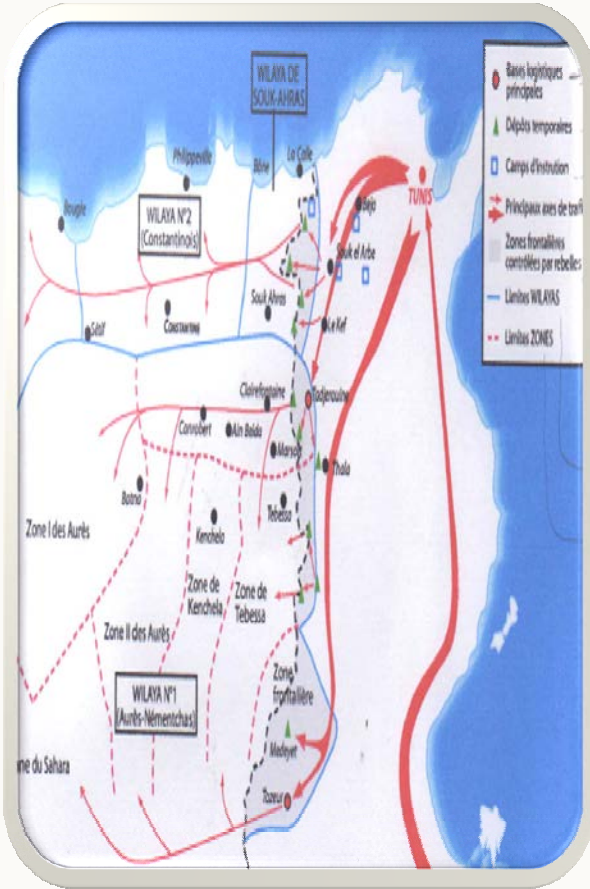
توصيات الدراسة

- تنظيم مختلف التظاهرات العلمية التي تبرز دور الجيوش الوطنية الأصيلة كخيار عسكري استراتيجي لتحرير الشعوب المستعمرة من ذلك مثلاً ما حدث في الجزائر أثناء الحقبة الكولونيالية.
- التفكير بجدية في ضرورة امتلاك قوة عسكرية رادعة وبناء جيش عقائدي مرتبط بقضايا الوطن والأمة بما يساعد على مواجهة كل التحديات الراهنة.
- لا يمكن تصفية كل أشكال الاستعمار ومواجهة الصهيونية العالمية إلا من خلال تبني خيار المشروع العسكري كما جسده التجربة الفيتنامية والتجربة الجزائرية التي شكلت نموذجاً رائداً للكثير من حركات التحرر في العالم خلال القرن العشرين الميلادي، بما يجعل دعم القوى الممانعة والمقاومة حتمية وطنية وقومية إسلامية للقضاء على ما تبقى من بقايا الاستعمار في إفريقيا وتحرير فلسطين في الوطن العربي.

الملحق رقم (٢)

الملحق رقم (٣)

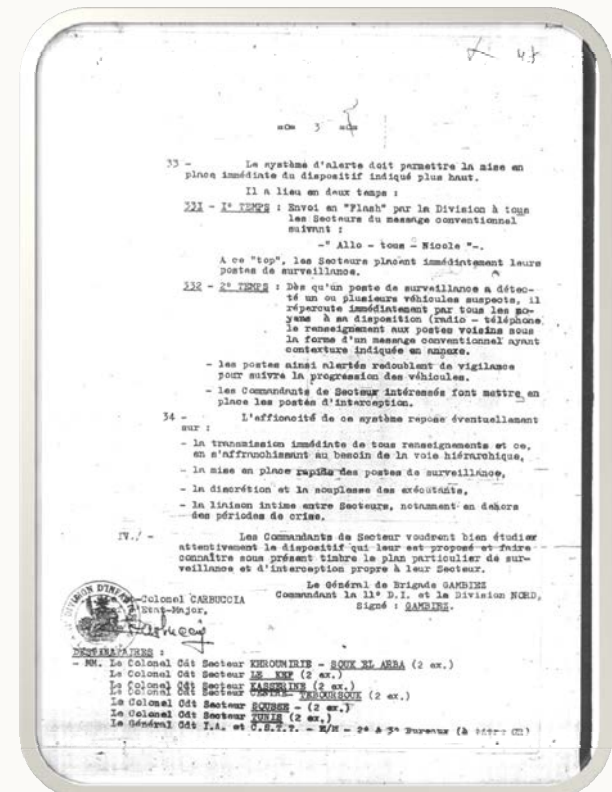
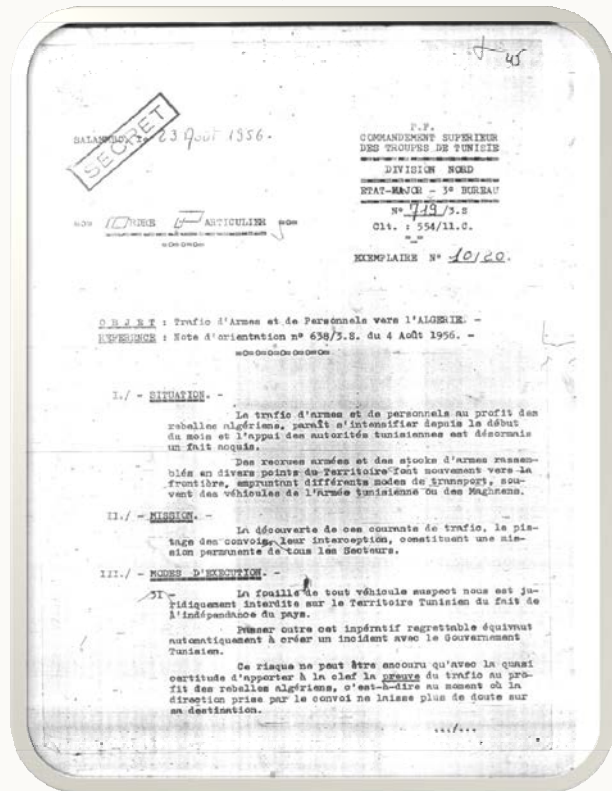
قاعد تونس الخلفية للثورة الجزائرية (أكتوبر ١٩٥٧)



الطرق الرئيسية لتهريب الأسلحة على الحدود الشرقية (هيئة الأركان العامة). المكتب الثاني

Cahier de la recherche doctrinal, l'emploi des forces terrestres dans les missions de stabilisation en Algérie.

CDEF * DREX.WW.CDEF. Défenses gouv.f-mai 1998. p 23.



تقرير عسكري فرنسي (أرشيف ما وراء البحار، فرنسا). عن عمليات تهريب الأسلحة والأشخاص على الحدود التونسية باتجاه الجزائر، مؤرخ بتاريخ: ٢٣ أوت ١٩٥٦. المعهد العالي للحركة الوطنية التونسية. المنوبة، تونس - BOBINE.S523.2H-398-DOSSIE01.

الملحق رقم (٥)

[illegible]

جدول تفصيلي لمختلف الأسلحة والذخيرة التي عبرت مركز تونس
عبر الحدود الشرقية نحو الولايات الداخلية (١-٣-٤-٥-٦-القاعدة
الشرقية) من ١ ماي ١٩٥٧ إلى ٣١ أوت ١٩٥٩ .
المركز الوطني للأرشيف - رئاسة الجمهورية . الجزائر - ٢٠٢٩

الملحق رقم (٦)

[illegible]

حسبيلة مخزون وزارة التسليح من السلاح والذخيرة في مختلف المراكز التابعة لها في تونس وليبيا ومصر إلى تاريخ: ٣١ أوت ١٩٥٩ - ملاحظة بخط اليد في الأسفل (وثيقة مقدمة لتوزيعها على رؤساء الولايات).

المركز الوطني للأرشفيف - رئاسة الجمهورية. الجزائر- ٢٠٢٦
MICROFICHE 15-

الملحق رقم (٤)

[illegible]

حصيللة مخزون الذخيرة والمتفجرات المسلّمة من طرف وزارة التسليح وعبرت من مركز تونس نحو الجزائر خلال الفترة الممتدة من ١ ماي ١٩٥٧ إلى ٣١ أوت ١٩٥٩. المركز الوطني للأرشفيف - رئاسة الجمهورية. الجزائر- ٢٠٣٠- MICROFICHE 15-

الملحق رقم (٧)

a été acheminée d'Est en Ouest.

La quantité d'armes ainsi parvenues à l'Ouest a changé fondamentalement la physionomie du front Ouest; elle a permis notamment de réordonner l'enthousiasme, de supprimer les dissensions et de procéder enfin en milieu algérien à un recrutement important au profit du front Ouest.

L'armement dont dispose aujourd'hui le front Est de nature à permettre la dotation d'une armée de 20.000 hommes bien équipés.

Le front Est.

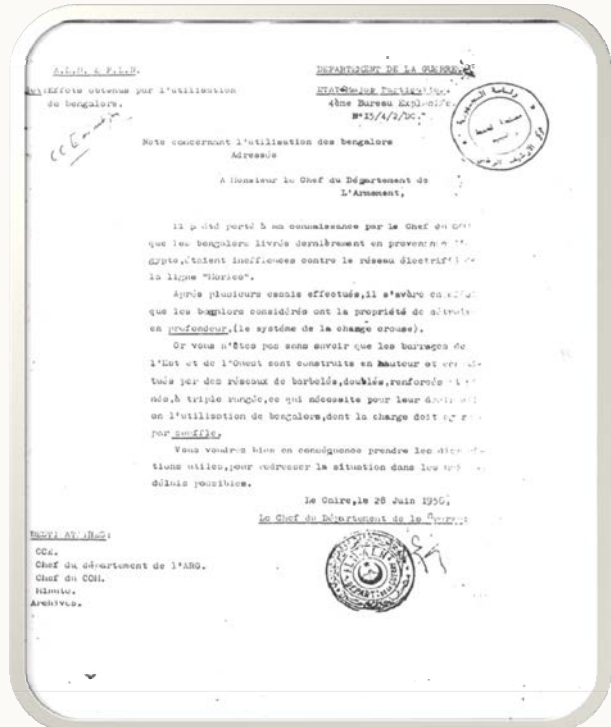
C'est en territoire Est que des quantités importantes ont été réceptionnées. En effet, la DLE a eu à réceptionner et à transporter 42.000 tonnes d'armement.

Le front Est avait déjà pu être alimenté antérieurement par une livraison chinoise mais les quantités étaient loin de correspondre à ce qu'elles sont aujourd'hui.

Les 42.000 tonnes d'armes reçues sont arrivées en 8 cargaisons, trois de 300, 450 et 300 tonnes ont été réalisées par nos propres moyens et par conséquent payées sur le budget spécial affecté au RALG à cet effet; 4 cargaisons russes et chinoises contenant 25.000 tonnes d'armes de tous calibres, la dernière cargaison technique est d'environ 15.000 tonnes (le matériel de cette dernière cargaison a été arrêté à la date du 20 Juin tandis que l'arrivage en question est de la deuxième quinzaine du mois de Juillet).

Il y a lieu de mentionner que les fournitures en provenance d'Irak et la RAU ne dépassent pas la cinquantaine de tonnes en tout.

La DLE a été trouvée placée devant des problèmes de mm



مراسلة لرئيس مصلحة التسليح يعرب فيها عن فشل استخدام البنجالور في عملية اختراق السد المكهرب (خط موريس) موجهة إلى لجنة التنسيق وتنفيذ - CCE - المركز الأرشيف الوطني - رئاسة الجمهورية. الجزائر - وثيقة غير مصنفة.

الملحق (٨)

MANUTENTION et de transport ^{difficile} impossible à résoudre. Les hommes ainsi que leurs chefs de service ont travaillé pendant plusieurs mois, jour et nuit, pour stocker, acheminer ces quantités considérables de matériel. Mais, l'Armée de l'Est est aujourd'hui pourvue d'un matériel qui dépasse les besoins. Il y a de quoi équiper sur ce front, en tenant compte des stocks anciens, une armée bien équipée forte de 200.000 hommes.

Quel a été l'armement récupéré.

Tant qu'en territoire Est qu'en territoire Ouest, il a été procédé à une récupération systématique. Le fait le plus important à noter est la récupération d'armes appartenant à la Révolution qui se trouvaient dans un dépôt situé à Souk El Arba et qui ne nous avait pas été signifiée lors de la passation des consignes. Le dépôt contenant notamment 204 armes, 1.500.000 cartouches de divers calibres, des explosifs, des accessoires et des équipements.

D'autres matériels provenant de mainies par les Tunisiens avaient été également récupérés.

Profitant du ramassage d'armes en Tunisie, nous avons visité les dépôts d'armes de la Révolution situés en Tunisie et leur tout leur contenu à l'armée (le dépôt de Kairouan comme le dépôt du Kef qui lui aussi ne nous avait pas été passé en consigne et se trouvait entre les mains des Tunisiens).

On peut considérer aujourd'hui les possibilités de récupérations comme épuisées tant à l'Est qu'à l'Ouest.

Voilà l'armement fabriqué.

Primitivement la fabrication a été prévue pour...

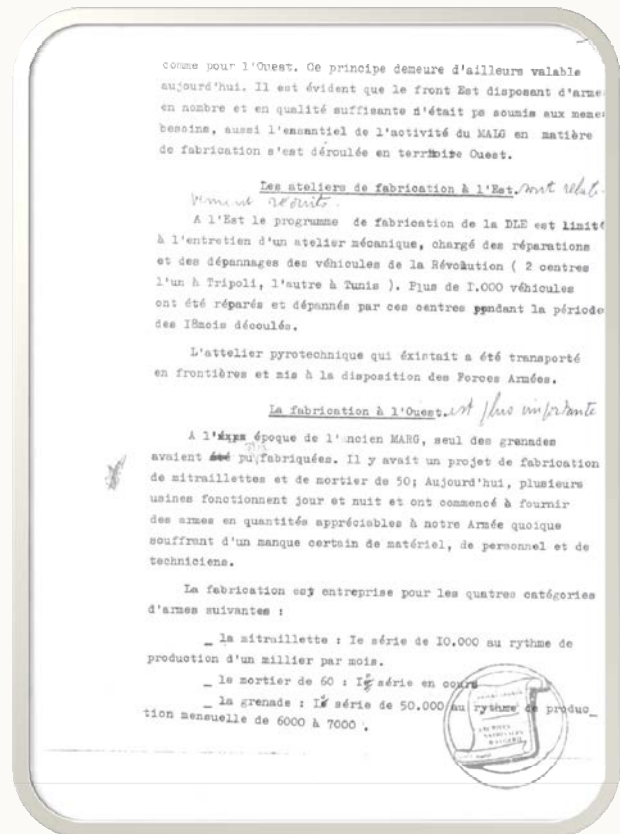
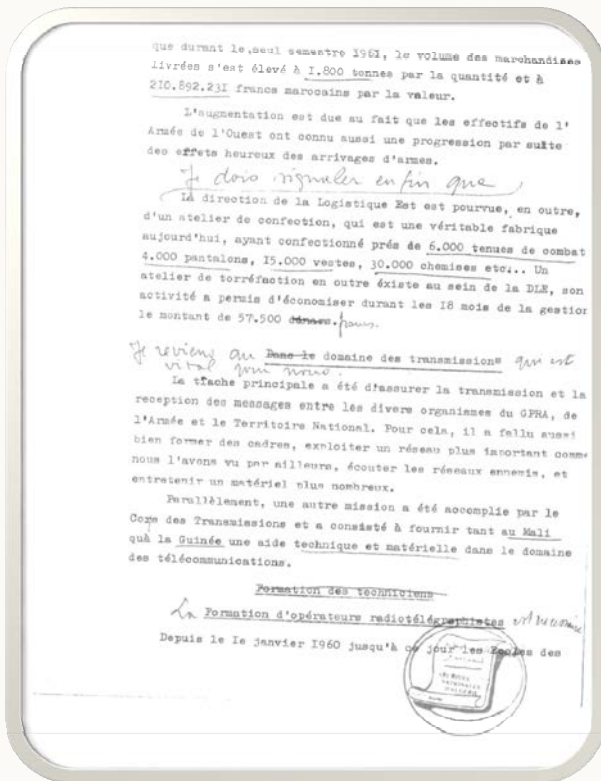
Dans le domaine des transmissions, l'extension d'un service a permis de doter l'Armée et nos services extérieurs de moyens de liaisons permanents, sûrs, rapides et efficaces.

C'est dans le domaine de l'Armement que le résultat est le plus important. Une réunion générale avec tous les responsables de la logistique a permis d'étudier à fond le problème posé à nous, à savoir : l'approvisionnement de l'Armée en armes et la solution du problème de l'acheminement. Tous les efforts y ont été consacrés. Les prospections ont été nombreuses et tous les moyens d'acheminement ont été étudiés et tentés tant par la voie maritime que par la voie aérienne ou sous marine. La prospection a été faite aussi dans les pays de l'Ouest que dans les pays de l'Est. Nous n'avons hésité sur l'utilisation des petits, ni des grands moyens. Nous avons été en relation avec les plus grands trafiquants d'armes connus dans le monde, comme avec les plus petits d'entre eux.

Nous nous sommes préoccupés parallèlement des livraisons qui posaient non seulement le problème politique avec les pays frères mais aussi un incessant problème technique dû à l'insuffisance de nos moyens de transport. De même il n'a pas été perdu de vue la question des livraisons directes à l'intérieur du territoire national, mission qui nécessitait la réunion de moyens matériels tant maritime qu'aérien, mission qui nécessite aussi la formation des techniciens nécessaires.

Les résultats d'un tel déploiement d'activité ne se sont pas fait attendre et l'armement réalisé par les achats de Chine et les fournitures de la Russie, de la République tchèque d'Irak et de la RAU est particulièrement considérable.

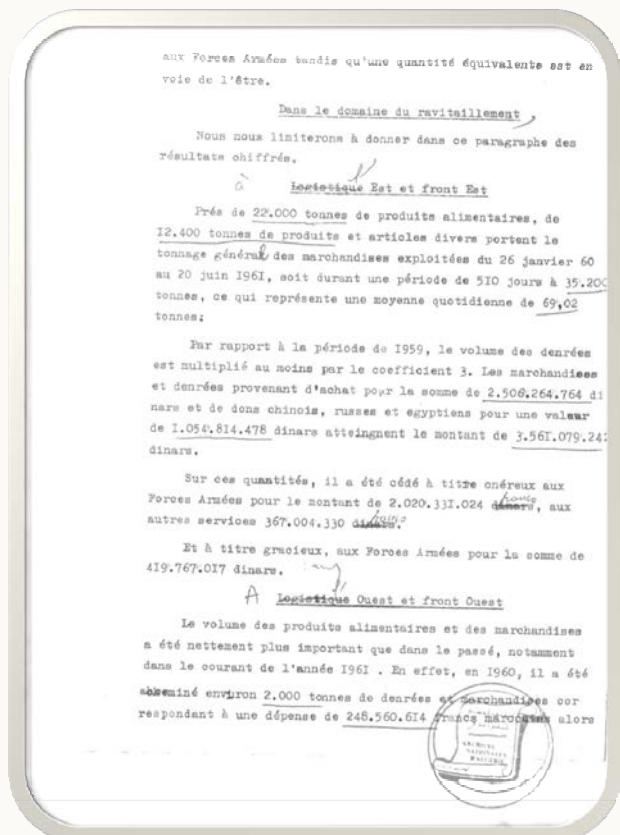
La fabrication et la récupération ont enregistré des



مقتطفات من التقرير المفصل الذي أعدته وزارة التسليح والاتصالات العامة في (٢٣ صفحة) حول الوضعية العسكرية في الداخل بخصوص التسليح. دون تاريخ.

المركز الوطني للأرشيف - رئاسة الجمهورية. الجمهورية الجزائرية.

الجزائر - (sd) 36-8.12 microfiche



الإحالات المرجعية:

- (١٣) بوبكر حفظ الله، **التموين والتسليح إبان الثورة التحريرية الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢**، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، ٢٠٠٦-٢٠٠٧، ص ١٩٧.
- (١٤) نفسه، ص ١٩٧.
- (١٥) علي العياشي، لقاء مع **المجاهد عمارة بوقلزل**، مجلة أول نوفمبر، العدد المزدوج ٢١٢-٢١٣، جانفي، فيفري، ١٩٩٠، ص ٨.
- (١٦) شهادة المجاهد: قاضي بشير في **الملتقى الوطني حول قوافل السلاح بوادي سوف**، يومي ١٩-٢٠ مارس ١٩٩٩م، شريط سمعي بصري، مكتبة المتحف الوطني للمجاهد.
- (١٧) **شهادة أحمد بن بلة** في حصة تلفزيونية (شاهد على العصر) على قناة الجزيرة الفضائية القطرية، حلقة يوم: ٢٧/١٠/٢٠٠٢م. وانظر أيضاً: مصطفى هشماوي، **جذور نوفمبر ١٩٥٤م**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤م، الجزائر، ١٩٩٦م، ص ٩٦.
- (١٨) شهادة أحمد بن بلة، المصدر السابق.
- (١٩) فتحي الديب: **عبد الناصر وثورة الجزائر**، ط ١، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ٦٣.
- (٢٠) انظر: خريطة القواعد الخلفية للثورة التحريرية الجزائرية (طرابلس وتونس) في الملحق رقم (٣).
- (٢١) تكونت في خصم أحداث تونس وفترة حصولها على الاستقلال الذاتي والاستقلال التام في إطار التكافل مع فرنسا وحدات مشتركة جزائرية تونسية لمحاربة الاستعمار وأعوانه، واتخذت تدابير عدة للتنسيق على المستوى التنظيمي وفي مجال إمداد الجزائر بالسلاح وتمكين المعارضة التونسية من تحرير البلاد.
- (22) Amira Aleya Sghier, la tunisie et la revolution Algérienne in Actes du 1er congres du forum d'histoire contemporaine sur méthododie de l'histoire des mouvements nationaux Maghreb foundation Temimi, September 1998, P 113-115.
- (23) Ibid. P118.
- (24) سعيد العمارة والجيلالي العوامر: **شهداء الحرب التحريرية بوادي سوف**، مطبعة النخلة، الجزائر، لد. س. ن، ص ٤٦.
- (25) انظر: خريطة قاعدة تونس الخلفية وأهم المحاور الرئيسية لتهريب الأسلحة نحو الولايات الداخلية.
- (26) **شهادة أحمد بن بلة**، المصدر السابق. وانظر أيضاً: شهادة بشير قاضي في الملتقى الوطني حول قوافل التسليح بوادي سوف يومي ١٩-٢٠ مارس ١٩٩٩، شريط سمعي بصري (خاص) تم نسخه من مكتبة المتحف الوطني للمجاهد.
- (27) Amira Aleya Sghier, Op.Cit, P113.p113.
- (28) محمد البجاوي، المصدر السابق، ص ١٥١.
- (29) بشير قاضي، **المسيرون المغاربة الاتفاق والاختلاف**، جيش التحرير المغربي (١٩٤٨-١٩٥٤)، أعمال مؤسسة محمد بوضياف، الجزائر، ٢٠٠٤م، ص ١٧٣-١٧٤، وقد كانت عمليات الاتصال والتنسيق مع الشبكات التونسية عبر مجموعة محطات بارزة، حيث يتصل محمد شلوف من الجزائر بعبد العزيز شوشان في مدين، ويتم عبور الحدود التونسية نحو ليبيا، وفي بن غردان يقوم عبد العزيز شوشان بتسهيل انتقال بشير غريسيا بمساعدة الدليل ناصر عشين المدعو الأزرق، يساعدهم في ذلك سوء الظروف الطبيعية، لا سيما الرياح المحملة بالأتربة للوصول إلى قاعدة

- (١) شهادة المجاهد: شوبيشي العيساني، **مجلة أول نوفمبر**، ديسمبر، ١٩٨٨م، ص ٣٧. وأيضاً: المنظمة الوطنية للمجاهدين، **الملتقى الجهوي لتاريخ الثورة "القاعدة الشرقية"**، سوق أهراس، ١٤-١٥ فيفري، ١٩٨٥م، ص ٢٠١.
- (2) Jean Depois, Rene Rynal, Géographie De l'Afrique De nord, Payot, Paris, 1975, p, 201.202.
- (3) محمد البجاوي: **حقائق عن الثورة الجزائرية**، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٧١، ص ١٥٤، كما تجدر الإشارة إلى أن العمليات الأولى لمحاولة جلب وإدخال السلاح إلى التراب الوطني أظهرت بصورة جلية أهمية المناطق الحدودية مناطق عبور ومراكز للتخزين. Gouvernement General De l'Algérie, l'Algérie Economique, Office Algérienne.
- (4) D'action(S.D)P.
- (5) Annuaire Statistique De l'Algérie, Gouverneur General. d'Algerie, Anne 1935, P 309.
- (6) IBID, P 310.
- (7) Gilbert Meynier, l'Algérie Reveille, Droz, Genève, 1981, P 339. ويعود الاهتمام الفرنسي بمناجم الونزة وبوخضرة إلى كون حديدها يعدّ من أحسن وأجود أنواع الحديد في العالم بفضل مقاومته ودرجة توفر المعدن في الخام المرتفعة التي تفوق نسبة (٥٠%).
- (٨) يوسف مناصرية، **"تمركز قوات جيش التحرير الوطني على الحدود الجزائرية المغربية من خلال الوثائق الفرنسية (١٩٥٦-١٩٦٠)"** في مجلة عصور، يصدرها مخبر البحث التاريخي، مصادر وتراجم، عدد ٧-٦، جامعة وهران، جوان-ديسمبر، ٢٠٠٥م، ص ٥٥.
- (٩) يمكن أن ندرك أهمية الحدود الشرقية بالنسبة للعدو الفرنسي من خلال الأسباب الثلاثة التي كانت في اعتقادي وراء إنشاء خط موريسوهي: ١- منع دخول الأسلحة والذخيرة من الخارج إلى المقاتلين في الداخل. ٢- عزل قيادة الثورة في الخارج عن الداخل. ٣- حماية المصالح الاقتصادية الفرنسية الحيوية المنتشرة على طول الحدود الشرقية (الشركات المنجمية، طرق المواصلات، والثروة الزراعية كالكروم والحوامض).
- (١٠) يوسف مناصرية وآخرون، **النسلك الشائكة وحقول الألغام**، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤م، وزارة المجاهدين، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ١٠.
- (١١) **شهادة أحمد بن بلة** في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤م، تاريخ الجزائر (١٨٣٠-١٩٦٢) القرص المضغوط، وزارة المجاهدين، ٢٠٠٢م.
- (١٢) Eperviers in historia Magazine n 197- 13 octobre 1972, p 109. P- Lentin. Galomb Alger. وانظر كذلك: **شهادة أحمد بن بلة** في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤م، تاريخ الجزائر (١٨٣٠-١٩٦٢) القرص المضغوط، وزارة المجاهدين، ٢٠٠٢م.

مهمة، وبعد عودته إلى العاصمة وقدم تقريراً عن مهمته إلى عيان الذي سرعان ما طلب منه الالتحاق نهائياً مع آيت الحسين بصفته ممثلاً للجبهة وجيش التحرير الوطني في مكان عبد الحّي، وقد حلّ روابحية فعلاً بتونس يوم ١٢ ماي ١٩٥٦م؛ فاستقبل ببرودة من طرف جماعة عبد الحّي. ويذكر روابحية على حد قوله أن وثيقة الاعتماد كانت قد وصلت عبد الحّي قبل وصولها إلى روابحية، مفادها وجوب التعاون فيما بينهم؛ غير أن عبد الحّي كتب تقريراً إلى قيادة الأوراس يعلمهم بوجود نظام جديد حلّ بتونس ينافس النظام القائم بها، ومن هنا بدأ الصدام بين الطرفين. للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر: محمد عباس، مع المناضل الشيخ حامد روابحية في جريدة الشعب، عدد ١٩/١٩٨٧، ١٤/٢.

(٤٩) التحق مهساس بمنصبه الجديد ممثلاً لجبهة وجيش التحرير الوطني على الحدود الشرقية، وبهذه الصفة سوف يلعب مهساس دوراً بارزاً في تكوين ما عرف بالقاعدة لتموين الثورة الجزائرية. ويبدو أن مهساس ترأس لفترة من الوقت قاعدة طرابلس قبل التحاقه بتونس مع نهاية ١٩٥٥م. انظر: رسالة عيان رمضان، بتاريخ ٤. نوفمبر ١٩٥٥، (الوثيقة رقم ١١) في كتاب: Mabrouk Belhocine, le courier Alger- le Caire 1954-1956, editions Casbah, Alger, 2000, p108-110.

(٥٠) أحمد توفيق المدني، المصدر السابق، ص ١٨٥-١٨٦. بعد الأحداث التي عرفتتها تونس بين المجاهدين الجزائريين من ممثلي الثورة في الداخل والخارج؛ جاء علي مهساس من القاهرة ليحلّ محلّ عبد الحّي، أما الشيخ حامد روابحية وزميله آيت الحسين فقد طلب من عيان العودة إلى الجزائر، إلا أن هذا الأخير طلب منهما الذهاب إلى القاهرة.

(٥١) يُعدّ مؤتمر الصومام في شهر أوت ١٩٥٦م اللبنة الأساسية للثورة الجزائرية، كونه وضع الهيكلية العسكرية لمشروع الثورة التحريرية من خلال تنظيم جيش التحرير الوطني وهيكله مصلحه المختلفة وعلى رأسها مصلحة التسليح (Service Logistique) التي عين عليها العقيد عمر أوعمران في خريف ١٩٥٦م، ومهمة هذه المصلحة تتلخص في الإشراف على عملية نقل وإيصال الأسلحة من مختلف القواعد والمراكز إلى الحدود الجزائرية التونسية والحدود المغربية. ثم زاد الاهتمام بتحسين مستوى الأداء في المردودية العمل العسكري لجيش التحرير الوطني ميدانياً إلى تأسيس هيئة الأركان العامة ووزارة الحربية ووزارة التسليح والاتصالات العامة بعد ميلاد أول حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية في شهر ١٩ سبتمبر ١٩٥٨م الذي توج الثورة التحريرية بالطابع المؤسسي؛ الأمر الذي كان له كبير الأثر في اعتراف الكثير من الدول في العالم بشرعية القضية الجزائرية على مستوى المحافل الدولية. للمزيد من التفاصيل، انظر: العنصر رقم ٥. في فهرست هذا البحث.

، ومهمة Service Logistique (52) كلف عمر أوعمران بمصلحة التسليح هذه المصلحة تتلخص في الإشراف على عملية نقل وإيصال الأسلحة من مختلف القواعد والمراكز إلى الحدود الجزائرية التونسية والحدود المغربية. انظر: مديرية التسليح الشرقية، وزارة التسليح والمواصلات العامة، لمحات حول التسليح في ثورة ١٩٥٤م (نشرية) بالمركز الوطني للأرشيف، الجزائر، جويلية، ١٩٩٦م، ص ٦، وأيضاً:

العسة بليبيا، حيث تكمن بن بلة من جمع كميات هائلة من الأسلحة تعود في معظمها إلى الحرب العالمية الثانية. انظر: محمد البجاوي، المرجع السابق، ص ١٥٣، ١٥٢.

P5. Bachir El Kadi, de Tripoli a la Wilaya 1, El Watan, 10 Janvier 2005.

(31) Bachir El Kadi, OP.CIT. p05.

(٣٢) سعيد العمامرة والجيلالي العوامر: **شهداء الحرب التحريرية بوادي سوف**، مطبعة النخلة، الجزائر، لد. س. ن. ص ٢٦-٣١.

(33) Bachir El Kadi, Opcit, p05.

(34) Bachir El Kadi, Opcit, p05.

p06. (35) ibid, Op.Cit.

(٣٦) بشير قاضي، المصدر السابق، ص ١٧٤.

(٣٧) بشير قاضي، المصدر السابق، ص ١٧٤. ويؤكد المجاهد قاضي بشير في الإطّار نفسه أنه منذ خريف ١٩٥٥م أصبح تنقل أفراد شبكات التسليح يتم بكل حرية، حيث أصبحت شحنات الأسلحة التي يفوق وزنها أحياناً (٣٠ طناً) تمر عبر مدينين وقابس ثم إلى تونس، وبعد ذلك تنقل إلى الحدود الشرقية الجزائرية، حيث تقسم على مختلف المناطق بحضور ممثليها. انظر: Bachir El Kadi, La Rout Tunisienne s'ouvre aux d'armes, in EL Watan, le 10/01/2005, p06.

(٣٨) فتحي الديب، المصدر السابق، ص ١٢٦.

(٣٩) فتحي الديب، المصدر السابق، ص ١٢٦.

(٤٠) لقد كان الجمل يحمل ١٢ قطعة سلاح مع ٣٠ طلقة.

(٤١) محمد ودوع، **ليبيا والثروة الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢**، رسالة ماجستير، قسم التاريخ كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر، ٢٠٠١-٢٠٠٢، ص ١٩١.

(٤٢) علي العياشي، **لقاء مع مجاهد محمد الطيب بيزار**، مجلة أول نوفمبر، عدد ٨٧، المرجع السابق، ص ٦١.

(٤٣) عميرة عليّة الصغير، **جيش التحرير التونسي حقيقته ومصيره، جيش التحرير المغربي**، في المجلة التاريخية المغربية (العهد الحديث والمعاصر)، عدد ١٠٩، زغوان، تونس، ٢٠٠٣م، ص ٨٩، ٨٩.

(٤٤) عميرة عليّة الصغير: المرجع السابق، ص ٨٩-٩٠.

(٤٥) فتحي الديب: **عبد الناصر وثورة الجزائر**، ط ١، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ١٦.

(٤٦) فتحي الديب، المصدر السابق، ص ١٧٨-١٧٩، وأيضاً: Amira Aleya, Sghaier, Opcit, p120.

(٤٧) أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح مع ركب الثورة التحريرية**، الجزائر، ١٩٨٢، ١٣٧/٣، ١٣٨.

(٤٨) مع مطلع سنة ١٩٥٦ بدأ المسؤولون في تونس يتبرءون من تعدد المتحدثين باسم الثورة الجزائرية، فطلبوا عن طريق اتحادية جبهة التحرير الوطني بفرنسا من مسؤولي الثورة بالداخل إيفاد مسؤول يسوي هذه المسألة بتونس، فاتصل عيان رمضان بحامد روابحية لسابق علاقته بتونس. وقد علم هذا الأخير أن هناك مسؤولاً عن الثورة وهو سعيد عبد الحّي، فاتصل به واتفق معه على التعامل مع الحكومة التونسية بشكل رسمي بصفته ممثل الثورة. وعلى هذا الأساس قدمه للمسؤولين التونسيين، وقد استحسن عبد الحّي هذا الموقف من روابحية، وعرض عليه البقاء في تونس؛ لتنظيم جبهة التحرير، غير أن روابحية اعتذر بمبرر أنه جاء إلى تونس في

- (٦٥) للمزيد من التفاصيل حول شحنات الأسلحة التي عبرت خلال النصف الأول من سنة ١٩٥٧ انظر: فتحي الديب، المصدر السابق، ص ٣٥٩، ٣٥٣. وأيضاً: مراد صديقي، المصدر السابق، ص ٥٢-٥٥.
- (٦٦) للمزيد من التفاصيل حول الشحنة التي وصلت إلى الولايتين الثالثة والرابعة عبر الحدود الشرقية؛ انظر: الجدول في: مراد صديقي، المصدر السابق، ص ٥٦.
- (٦٧) انظر بالتفصيل حول الظروف المحيطة بالوضع العسكرية لقواعد الإمداد الخلفية على الجبهة الشرقية والواقع العسكري لجيش التحرير الوطني في الداخل في الملاحق (٤ - ٥ - ٦ - ٧ - ٨).
- (٦٨) للاطلاع على تفاصيل شحنة الذخيرة؛ انظر: مراد صديقي، المصدر السابق، ص ٥٧.
- (٦٩) مراد صديقي، المصدر السابق، ص ٥٨.
- (٧٠) للمزيد من التفاصيل حول مضمون الشحنات التي تسلمها كل من أحمد سليم وكذلك العقيد أوعمران؛ انظر: فتحي الديب، المصدر السابق، ص ٣٥٣-٣٥٩.
- (٧١) مراد صديقي، المصدر السابق، ص ٥٩.
- chier de la Recherche Doctrinale, l'Emploi des Forces Terrestres dans les Missions de (72) Stabilisation en Algérie C.D.E.F.DREX. www.cdef.terre.defense.gouv.fr, mai. 1998, p23, 24.
- (٧٣) راجع نص التقرير المفصل الذي أعدته وزارة التسليح والاتصالات العامة في (٢٣ صفحة) حول الوضعية العسكرية في الداخل بخصوص التسليح دون تاريخ- المركز الوطني للأرشيف - رئاسة الجمهورية- الجزائر- (sd) 36-8.12. microfiche.
- (٧٤) حفظ الله بوبكر، المرجع السابق، ص ٢٣٢-٢٣٣. كما يجب التنبيه إلى ضرورة مراجعة المقتطفات من التقرير المفصل (في الملحق الأخير) الذي أعدته وزارة التسليح والاتصالات العامة في (٢٣ صفحة) حول الوضعية العسكرية في الداخل بخصوص التسليح. دون تاريخ. المركز الوطني للأرشيف - رئاسة الجمهورية الجزائرية- الجزائر.. microfiche (sd) 36-8.12.
- (٧٥) للمزيد من التفاصيل حول السدود المكهربة. انظر: مقال لأحد العقلاء الفرنسيين المكلفين بحراسة خطي شال وموريس. Colonel. J. Buchoud, le Barrage in Historia, N°235, Juillet 1972, p, 1245-1246
- (٧٦) محمد البجاوي، المصدر السابق، ص ١٩٢-١٩٣.
- (٧٧) يؤكد التقرير الولائي لتاريخ الثورة بولاية سوق أهراس وبعض الشهادات الحيّة لمن عايشوا وقائع المعركة بأن عدد شهداء هذه المعركة يفوق خمسمائة شهيد، وهي الحصيلة التي أحدثت أضراراً بليغة في صفوف جيش التحرير الوطني بالقاعدة الشرقية. انظر: شهادة المجاهد نوبلي الزين، القاعدة الشرقية، (شريط تلفزيوني)، إعداد: بلقاسم جعافرية، الجزائر، ١٩٩٨م.
- (٧٨) انظر: تصريح العقيد عمر أوعمران مسؤول التسليح في تقريره إلى لجنة التنسيق والتنفيذ في جويلية ١٩٥٨ في كتاب: Mohamed Harbi, les archive de la revolution Algérienne, ed jeune Afrique Paris 1980, P189- 194.

- Mohamed Tegua, l'Algérie en guerre, office des publications universitaires, Algérie 1988.p321..
- (٥٣) محمد عباس، العقيد عمار بن عودة، جريدة الشعب، عدد ١٥، يوم ٢٥ مارس ١٩٨٦م، ٦/٣. وانظر أيضاً: Mohamed Tegua, Opcit, p321
- (٥٤) عمار بن عودة، محاضرة حول السلاح خلال الثورة التحريرية (١٩٥٤-١٩٦٢)، (نشرية) منقولة من شريط سمعي بصري، أقيمت بمناسبة أول نوفمبر ١٩٥٤، متحف الجهاد، ديوان رياض الفتح، الجزائر، ١٩٨٥م، ص ٣.
- (٥٥) محمد عباس، ثوار عظماء، حديث الإثنين، مطبعة دحلب، الجزائر، ١٩٩١م، ص ٩٦.
- (٥٦) عبد الرحمن عمراني، التسليح أثناء الثورة في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤م. التسليح والمواصلات أثناء الثورة التحريرية: ١٩٥٦-١٩٦٢، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، ٢٠٠١م، ص ٩٧.
- (٥٧) عبد الرحمن عمراني، المصدر السابق، ص ٩٧. وانظر أيضاً: محاضرة عمار بن عودة، المصدر السابق، ص ٨.
- (٥٨) انظر: التنظيم الهيكلي لدائرة التسليح في عبد المجيد بوزيد، الإمداد خلال حرب التحرير الوطني. شهاداتي. ط ٢، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص ٣. ص ١٢. لقد أصبح العقيد عمر أوعمران يتولى بتكليف من قيادة الثورة مصلحة التسليح والتموين العام إلى غاية سبتمبر ١٩٥٨، وكانت مهمة هذه المصلحة البحث عن السلاح والحصول عليه، ثم توزيعه على ولايات الداخل، وهي في الواقع المهام نفسها التي كان يتولاها قبل ذلك أحمد بن بلة ثم محمد الأمين دباغين، وكان المركز الرئيس لهذا المسؤول هو القاهرة، بصفتها القاعدة التي ترسل إليها كل الأسلحة والذخيرة التي اشتريتها الثورة مباشرة بإنشاء فرنسا وأسبانيا، وكذلك الأسلحة التي كانت تقدم مساعدة مجانية للثورة من طرف الدول العربية والاشتراكية، ومن مصر يعاد إرسال هذه الأسلحة عن طريق ووسائل مختلفة.
- (٥٩) محمد عباس، العقيد عمار بن عودة، جريدة الشعب، المرجع السابق، ص ٦.
- (٦٠) Annie Rey Goldzeiguer, La Frontier Algero-Tunisienne Militaires de Pendant la Guerre d'Algérie dans les Archives Vincennes. في أعمال الندوة الدولية السابعة حول المقاومة المسلحة في تونس في القرنين التاسع عشر والعشرين. المنعقد أيام ١٨-٢٠-٢١ نوفمبر ١٩٩٣م بنزل الدبلوماسية بتونس، جامعة تونس الأولى، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، المنوبة، تونس، ١٩٩٥م، ص ٥٩.
- (61) Annie Rey Goldzeiguer. op. cit. p 59.
- (٦٢) مراد صديقي، الثورة الجزائرية عمليات التسليح السرية، مكتبة الحياة، بيروت، (د.س.ن)، ص ٥٣.
- (٦٣) فتحي الديب، المصدر السابق، ص ٣٣-٣٤. وللإطلاع على القوائم كاملة بأسماء الأسلحة والذخيرة. انظر: مراد صديقي، المصدر السابق، ص ٥٣-٥٤، وأيضاً: فتحي الديب، المصدر السابق، ص ٣٣-٣٤.
- (٦٤) فتحي الديب، المصدر السابق، ص ٣٥٣-٣٥٩.

(٩٣) مديرية التسليح الشرقية، **وزارة التسليح والمواصلات العامة**، المرجع السابق، ص ٨، وأيضاً: محمد عباس، العقيد عمار بن عودة، جريدة الشعب، عدد ٢٥ مارس ١٩٨٦، ٥/٣.

(94) Dahou Ould Kablia, Op cit, p87-88.

(95) Maurice Challe . Notre révolte, Presses de la cité, Paris, 1968, p. 46. وانظر كذلك: «LE PLAN CHALLE VICTOIRE INTROUVABLE» FRANCE OBSSEVATEURE, N° 468, 23 AVRIL 1959, P 3. EDOUARD ROERMOND.

(٩٦) مديرية التسليح الشرقية، **وزارة التسليح والمواصلات العامة**، المرجع السابق، ص ١٣.

(٧٩) بوعلام، **خط شال وموريس وإدارة الثوار**، مجلة الجيش، عدد ٣٧٦، نوفمبر، ١٩٩٤م، ص ٢٢-٢٣.

(٨٠) فتحي الديب، المصدر السابق، ص ٣٧٦.

(٨١) سلمت الدفعة الأولى بتاريخ: ١٩٥٧/١٢/٥م، وقد تمثلت هذه المتفجرات في (٥٤) طوربيد بنجالور (١٥٠مم)، و(١.٨) كبسولة طرفي ماركة (٧)، و(١٦٢) من فتيل مأمون. انظر: فتحي الديب، المصدر السابق، ص ٣٧١.

(٨٢) انظر: كشف بيان الدفعة الثانية من الأسلحة المعدة للاستخدام طوربيد البنجالور، المستند رقم ٢٦، فتحي الديب، المصدر السابق، ص ٦٨٥.

(٨٣) انظر: المستند رقم ٣. فتحي الديب، المصدر السابق، ص ٦٨٩.

(٨٤) للمزيد من التفاصيل حول كمية المتفجرات التي تضمنتها الدفعات الثلاث التي تسلمها كل من نورالدين فراخ وعمر أوعمران، انظر: المستندات رقم ٣٣ و ٣٦ و ٣٩ في قائمة الوثائق والمستندات، فتحي الديب، المصدر السابق، ص ٦٩٩، ٦٩٥، ٦٩٢. وأيضاً: مراد صديقي، المصدر السابق، ص ٦١، ٦٠.

(٨٥) لقد ادعت حكومة فرحات عباس في أكتوبر ١٩٥٨ وفقاً لشهادة فتحي الديب أن عدم تنفيذ عمليات نفس الخط يعود إلى العجز في الموارد والاحتياجات الضرورية لخطه التدمير، وعلى هذا الأساس سارع المسؤولون في القاهرة إلى شحن كميات هائلة من المتفجرات والألغام سلمها مندوب الثورة عرار خميسي. انظر: فتحي الديب، المصدر السابق، ص ٤٠٣-٤٠٤.

(٨٦) مراد صديقي، المصدر السابق، ص ٦٣. وللمزيد من التفاصيل حول أسباب فشل استخدام البنجالور، انظر: الملحق (٧).

(٨٧) عبد الرحمن عمراني، المصدر السابق، ص ١٠٠.

(٨٨) للمزيد من التفاصيل حول الوسائل والتجهيزات التي وفرتها قيادة الثورة في تحضيرتها بتونس وليبيا لإمداد الثورة بالسلح انظر: عبد المجيد بوزبيد، المصدر السابق، ص ٥٥-٦٢. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الشاحنات نقلت كميات من الأسلحة على دفعات متعددة خلال سنة ١٩٥٩. وللإطلاع على أهم هذه الدفعات انظر: مراد صديقي، المصدر السابق، ص ٦٤.

(89) Dahou Ould Kablia, la Contribution du M.A.L.G a la Lutte de Liberation National, in N°06, Mars 2002, CNER MNRN, Alger, p84 Massadir El

(٩٠) عمار بن عودة، المصدر السابق، ص ٩. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأسلحة تسلمها مندوب الثورة في القاهرة عرار خميسي على دفعات ابتداء من ٢. جانفي إلى غاية شهر أوت ١٩٥٩. للمزيد من التفاصيل حول مضمون شحنات السلح انظر: فتحي الديب، المصدر السابق، ص ٤١٠-٤٤٣.

(٩١) محمد بلقاسم وآخرون، **القواعد الخلفية للثورة الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢**، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر، ص ٧١.

(٩٢) مديرية التسليح الشرقية، **وزارة التسليح والمواصلات العامة MALG**، المرجع السابق، ص ٧-٨. وأيضاً: عبد الرحمن عمراني، المصدر السابق، ص ١٠٠-١٠١.

ملكية الأرض ونظام الاستغلال في المغرب ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلادي

د. بويكارن هشام

دكتوراه في التاريخ الحديث
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة بني ملال
خنيفرة - المملكة المغربية



بيانات الأطروحة

الباحث:	بويكارن هشام
إشراف:	الأستاذ الدكتور عبد المالك ناصري
التخصص:	التاريخ الحديث
التاريخ:	ديسمبر ٢٠٢١
لجنة المناقشة:	الدكتورة فاطمة نافع رئيسة الدكتور عبد اللطيف مرون عضوًا الدكتور سعيد واحدي عضوًا الدكتور عبد المالك ناصري مشرفًا

يعالج موضوع بحث "ملكية الأرض ونظام الاستغلال بالمغرب ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلادي"، قضية التملك للأرض واستغلالها خلال العصر الحديث من خلال إشكالية تتركز على السؤال حول وضعية هذه الملكية والوسائل المستخدمة فيها والأطراف المتحكمة بها، ثم أهم أصناف الملكية المنتشرة منها بالمغرب، وفي الأخير النظام المعتمد في استغلال الأرض من قبل المغاربة للاستفادة من محصولها. إن هذا المشروع البحثي يحاول البحث في البعد التاريخي للملكية والاستغلال للأرض، باعتبارها قضية ذات راهنية مازالت تطرح علينا مجموعة من التحديات والإشكالات، تستوجب منا البحث لها عن حلول خاصة أمام تعدد المشاكل المرتبطة باستغلال وضعيتها، أو إيجاد حلول لها على المستوى القضائي. رغم أن الزمن الذي يشمل الموضوع هو الفترة الممتدة ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلادي، فإنه يمكن استغلاله اليوم لمعرفة تاريخ الملكية والاستغلال بالمغرب، وفي الوقت نفسه تتبع التطورات التي مرت منها حتى وصلت إلى ما هي عليه اليوم، مما سيعطينا نظرة شمولية بعد تاريخي، يمكن أن تسهم في إعطاءنا نظرة عامة لفهم بعض القضايا المطروحة اليوم حول الملكية، خاصة أن مجموعة من مظاهر الاستغلال والتملك القديمة مازالت حاضرة في الميدان الفلاحي تتعايش مع التطورات التي يعرفها القطاع في ميدان التقنيات وأشكال الاستغلال التي تتراوح بين أشكال قديمة وأخرى حديثة.



10.21608/kan.2025.346697.1196

معرف الوثيقة الرقمي:

كلمات مفتاحية:

المغرب؛ ملكية الأرض؛ نظام الاستغلال؛ التملك؛ التاريخ الحديث والمعاصر.

مقدمة

شكلت دراسة موضوع الملكية ونظام الاستغلال مجالاً خصباً لمجموعة من العلوم الإنسانية، كالعلوم الاجتماعية والتاريخية والأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا وغيرها؛ خاصة مع مطلع القرن العشرين الميلادي، نظراً لأهمية الأرض في حياة الإنسان سواء في

المغرب أو خارجه على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وحتى السياسي. اهتمت بها المغاربة منذ الحقبة القديمة، وحاولوا الاستفادة من إمكانياتها بالوسائل المتاحة عندهم، تغيرت وضعيتها بتعدد أشكال ملكيتها والمالكين لها ومستوى وسائل الإنتاج خلال الحقب المتوالية، مما جعل حتى النقاش حولها يتغير ويتطور تبعاً لتطور

الملكية ووسائل استغلالها وكذلك طبيعة إدارتها من قبل المستفيدين منها.

ومسيرة لتعدد المقاربات التي تناولت ملكية الأرض ونظام الاستغلال بالمغرب جاء اختيارنا لهذا البحث حول موضوع "ملكية الأرض ونظام الاستغلال بالمغرب ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلادي"، وحسبنا في مقاربتنا له بعد النظر في الدراسات السابقة التي تناولته بالدرس والإفادة منها والتأسيس عليها في إضافة بحث جديد في التاريخ المغربي حول موضوع الملكية؛ خاصة خلال العصر الحديث، للتأكيد فيما يأتي على أن البحث التاريخي والمؤرخ بإمكانه أن يساهم من خلال دراسته في الكشف عن جوانب مهمة منه، ما سيمكن لا محالة من توضيح مجموعة من القضايا التي ما زال يكتنفها الغموض في كثير من جوانبها.

وقد مكنا تفحص مجموعة من الدراسات في الموضوع مختلفة المشارب منها ما كتب بلغات أجنبية ومنها ما هو باللغة العربية تسجيل مجموعة من الملاحظات ارتأينا إبرازها في هذا التقديم لأنها كانت بدايتنا في الموضوع أهمها:

- هيمنة الصبغة الإشهادية للحضور التاريخي في بعض الدراسات لا يعني دائماً اعتماد المقاربة التاريخية لقضايا الملكية والاستغلال في المغرب.
- ندرة الأبحاث التاريخية المنجزة قبل القرن التاسع عشر الميلادي في موضوع الملكية والاستغلال بالمغرب، مما يجعل الباحثين حول موضوع الملكية لا يجدون ضالهم في فهم واقع الملكية والأرض خلال مجموعة من الحقب السابقة.
- عجز أو ضعف اهتمام الباحثين بقضايا الملكية والأرض في بلدنا، خاصة في الحقب التي اعتراها نقص في الأبحاث، وهذا يعود بطبيعة الحال إلى الصعوبات التي يطرحها الموضوع عند البحث فيه تاريخياً.

اعتبارات اختيار الموضوع

تحكمت في اختيار موضوعنا مجموعة من الأسس والاعتبارات، نذكر منها ما يلي:

اعتبارات ذاتية: تتمثل في انتمائنا إلى المجال القروي ومعاشتنا لتدبير استغلال الأرض وملكيتها؛ حيث الاحتكاك بتعقيداتها وتشعباتها التي لا يمكن فهمها في بعض الأحيان نظراً للإشكاليات المرتبطة بتفسيرها ونتائجها، سواء على أطراف الاستغلال أو العلاقات الاجتماعية في المجال، والتي يتداخل فيها الذهن الجماعي والفردى لكي يخلق صورة تبين أن

الأرض هي أكثر مما نرى على مستوى الصورة الظاهرة، كبرت معه فينا مجموعة من التساؤلات مهدت لاختيار الموضوع، الذي كان من بين أهدافنا فيه محاولة فهم جوانب من هذا الواقع وتلمس خيوط وإجابات عنها من خلال إنجاز الأطروحة.

اعتبارات علمية: تتجلى بالرغبة في البحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، نظراً لأهميته في الكشف عن جوانب من حياة المجتمعات التي لم تحظ بالاهتمام من التاريخ السياسي بفعل الصعوبات المنهجية والمعرفية التي يواجهها الباحثون في هذا المجال خاصة في الحصول على الوثيقة المصدرة لكتابته، وهذا ما ظهر لنا في هذه المغامرة البحثية؛ حيث تتداخل في الموضوع عدة قضايا مرتبطة بأهمية الأرض باعتبارها ركيزة الاقتصاد؛ الشيء الذي جعلها تساهم في تحريك مجموعة من الأحداث السياسية والاجتماعية في العديد من المجالات وبالخصوص في مرحلة الأزمات، وبالتالي فإن أي محاولة لتفسيرها والإجابة عن إشكالاتها لا يمكن أن تكون دون الرجوع إلى هذه الأهمية.

اختيار الفترة الزمنية

يأتي اختيارنا للفترة الممتدة ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلادي، من أهمية هذه الفترة في تاريخ المغرب بفعل التحولات التي عرفت على المستوى المحلي والإقليمي؛ حيث شهد المغرب انتقالاً من دول العصبية إلى دول الشرف مع السعديين والعلويين، وكذلك معاشته لمجموعة من الأزمات الداخلية التي أثرت على حياة السكان الاجتماعية والاقتصادية، وغيرت بفعل تأثيراتها مجموعة من مظاهرها، بالإضافة إلى تأثير التحولات الإقليمية على مستوى بلدان الجوار والعالم المتوسطي، وما عرفت من تطور جعلها تفرض نفسها بالمنطقة بل وتتدخل في شؤون المغرب لمحاولة الهيمنة عليه في إطار توسيع نفوذها، مما كان له تداعيات على اقتصاد البلاد وبنيتها.

اختيار المجال

جاء اختيار المغرب كمجال لهذه الدراسة، دون الاكتفاء فقط بمجال ضيق يشمل قبيلة أو جهة معينة، كما هو شأن بعض المونوغرافيات، كمحاولة لتجاوز بعض الصعوبات المنهجية التي تطرحها مثل هذه البحوث والمواضيع، خاصة في فترات سابقة للقرن التاسع عشر الميلادي؛ حيث يواجهنا شح في المعلومات التاريخية المتاحة على مستوى جهة أو

- تدبير ملكية الأرض واستغلالها يتم بشكل جماعي وتنظيمها يقوم على قوانين مختلفة تتفق عليها الجماعة المسيرة للمجتمع، ويلجأ فيها إلى أحكام الشرع الإسلامي عند عجز العرف عن حل قضاياها، نظرا لهيمنة القبيلة.
- ملكية الأرض لها دور كبير في حياة السكان على جميع الأصعدة، إذ هي عماد الاقتصاد نظراً لهيمنة الفلاحة على باقي الأنشطة الأخرى، وتوجه أغلب السكان إلى الاشتغال فيها.

منهج البحث

انطلق منهج البحث من طبيعة الموضوع الذي يندرج في ميدان التاريخ وخصوصيات هذا العلم وكتابته، بالضوابط المعروفة في الكتابة التاريخية. جعلنا نصب أعيننا فيه التركيز على ضبط الجانب التوثيقي فيما يرتبط بهذه الفترة التاريخية، حيث ترددنا على مجموعة من المكتبات للحصول على ما أمكننا من الوثائق المختلفة؛ المخطوط منها والمطبوع، ثم فيما بعد قمنا بتصنيفها حسب الموضوع ونوع الوثيقة وقراءتها وفق الضوابط العلمية المعمول بها في قراءة الوثائق التاريخية وتحليلها.

كما سعينا إلى الانفتاح على بعض العلوم المساعدة في الإحاطة بالموضوع من مختلف جوانبه؛ كالسوسيولوجيا والأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا وغيرها. وقوفاً عند أهم القضايا التي تناولتها فيما يتصل بموضوعنا؛ الأمر الذي أسعفنا في إيجاد إجابات قصرت بعض المصادر التاريخية عن إمدادنا بها في بعض محاور الموضوع.

أما فيما يتعلق بكتابة البحث وتحريه، فقد اعتمدنا بشكل أساس على وصف القضايا وتفسيرها وتحليلها، مع الاستعانة بمنهج أخرى في الكتابة -كلما دعت الضرورة إلى ذلك- مثل المنهج المقارن؛ وذلك للمقارنة بين أوضاع الملك واستغلال الأرض في المجالات المغربية بهدف الخروج بمعرفة أوجه التشابه والاختلاف بينها، كما لا ننسى استعمالنا -في بعض الأحيان- للمنهج الاستقرائي والاستنباطي في معالجة بعض المعلومات التاريخية، التي تطلبت منا تأويل مضمونها بمراعاة الواقع التاريخي.

على أننا لم نغفل المنهج الوصفي أيضاً في مقاربة بعض القضايا والأحداث التي تطرقنا إليها في موضوعنا، وكذا المنهج التحليلي -في أحيان أخرى- مراعاة للضرورة في تحليل بعض المعطيات التاريخية

قبيلة معينة بشكل مفصل؛ إذ المصادر والوثائق التي لدينا حالياً على اختلاف أنواعها، لا يمكن أن توصلنا إلى نتائج في هذا الإطار بشكل مفصل وواضح، وحتى إذا دخلنا في اختيارها فإنه سيقع بحثنا ضمن البحوث الميدانية أكثر من التاريخية.

إشكالية الموضوع

ترمي الإشكالية إلى محاولة فهم العناصر المحيطة بعملية الإنتاج في المغرب بنشاط مهم في تاريخه واقتصاده وهو الفلاحة؛ وذلك من خلال البحث في طبيعة هذه الملكية وأشكالها والفئات المتحكمة فيها، وصولاً إلى معرفة واقع وسائل الإنتاج الفلاحي ومدى تأثيرها في مسار تطوره، سواء من حيث كميته أو نوعيته، دون إغفال التجاذبات والعلاقات التي كانت محيطة بملكية الأرض في ظل طبيعة المجتمع وتنظيماته، وكذا دورها في تطور المجال المغربي.

والإحاطة بموضوع البحث خلال الفترة المدروسة، اختزلنا الإشكالية في مجموعة من الأسئلة أهمها:

- بماذا تميزت أوضاع ملكية الأرض في المغرب خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلادي؟
- ما هي الأطراف التي تحكمت في ملكية الأرض ووسائل ذلك بالمغرب في ظل مجتمع قبلي عرف بهيمنة هذا الأخير وتنظيماته في عدة مناطق على تدبير الأرض؟ هل الدولة، أم القبيلة، أم الأفراد؟
- كيف كان يتم تدبير تنظيم ملكية الأرض واستغلالها؟ هل بشكل جماعي أم فردي؟ وما هي مختلف مستويات هذا التدبير؟
- ما حدود مساهمة ملكية الأرض ونظام الاستغلال لها في بناء العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين مكونات المجتمع المغربي؟ وهل برزت اختلافات بين المجالات المغربية في هذه العلاقات؟
- إلى أي حد ستساعد مثل هذه المواضيع في الكشف عن جوانب مهمة من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي خاصة خلال فترة الدراسة؟

وبهدف الإجابة على هذه الأسئلة وضعنا مجموعة من الفرضيات تتماشى مع الإشكالية، ويحاول البحث رصد مدى مواكبتها للموضوع، يمكن حصرها فيما يلي:

- تدبير ملكية الأرض واستغلالها بتجلياته المختلفة ساهم في تغيير المجالات الفلاحية.

وتفسيرها؛ خاصة عند البحث عن عوامل بعض الوقائع التاريخية ونتائجها.

المصادر المعتمدة في البحث

تطلب منا إنجاز بحثنا هذا حول موضوع ملكية الأرض ونظام الاستغلال بالمغرب الاطلاع على مجموعة من المصادر المختلفة الأشكال والمواضيع في عدة مجالات، منطلقين من الانفتاح على جميع المصادر ومركزين على الوثيقة التاريخية وتوسيع مفهومها، ويمكن على العموم حصر المصادر المعتمدة بهذا البحث في:

الوثائق والمخطوطات

الوثائق: وتشمل المراسلات المخزنية والظواهر والكنائش والعقود، وغيرها، وقد اطلعنا على بعضها في مديرية الوثائق الملكية والخزانة الحسنية خاصة منها ذات الصلة بالموضوع، بالإضافة إلى التوقف عند بعضها الآخر في مجموعة من المصادر المغربية التي أوردتها، يكفي الإشارة في هذا الإطار إلى كتاب "رسائل سعدية"^(١) و"تحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس"^(٢).

المخطوطات: حاولنا الاطلاع على بعضها في الخزانة الحسنية ومكتبة آل سعود، واستفدنا منها في مقارنة بعض محاور البحث، نشير فيها كمثال إلى مخطوط "شرح العمل الفاسي"^(٣)، و"نوازل ابن هلال السجلماسي"^(٤).

المصادر التاريخية المطبوعة

احتلت هذه المصادر مكانة مهمة في بحثنا على غرار التي ذكرنا سابقا، وحصلنا فيها على مصادر مختلفة ومتنوعة يمكن تصنيفها في هذا الإطار إلى:

المصادر الإخبارية: رغم طبيعة المعلومات التي تركز فيها على أخبار السلاطين والدول، إلا أن لها أهمية في الاطلاع على بعض الأحداث والوقائع المرتبطة بالأرض، مثل الهجرات وتدخلات الدولة في المجال والأزمات الدورية التي شهدتها المغرب وغيرها، وكلها وقائع تساعد على تحليل وتفسير مجموعة من القضايا المرتبطة بالأرض نذكر كمثال على ذلك: "نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي" للأفراني^(٥)، "تاريخ الدولة السعيدة" للرباطي^(٦).

مجاميع الفتاوي وكتب النوازل: تعتبر ذات قيمة مهمة في مثل موضوع بحثنا على اعتبار المعلومات التي تحتوي عليها، وقد استفدنا منها كثيرا في جميع محاور البحث، وكثيرا ما كانت قيمتها كبيرة في معالجة

بعض القضايا التي توسعنا في الاطلاع عليها، كما عززنا ذلك برجوعنا إلى مصادر غير معاصرة لفترة دراستنا مع الأخذ بمميزات الفتاوى، ومنهج استغلالها في البحث التاريخي. ومن أمثلتها نشير إلى: المعيار المعرب للونشريسي^(٧)، والأجوبة الناصرية^(٨).

كتب الفلاحة والطب: هذه الكتب تشكل مصدراً مهماً لبحثنا، حيث استفدنا منها في مجموعة من فصوله خاصة عند الحديث عن نظام استغلال الأرض، رغم أن جانب الملكية فيها لم تعط له أهمية أكثر عكس ما أعطي للنشاط الفلاحي، من أهم هذه المصادر التي حاولنا الاستفادة منها نجد: كتاب "الفلاحة الأندلسية" لأبي العوام الإشبيلي^(٩)، وكتاب "الفلاحة النبطية" لابن وحشية^(١٠).

كتب الرحلات: للرحلة قيمة مصدريّة في البحث التاريخي نظراً لطبيعة المعلومات التي ينقلها أصحاب هذه الكتب، والتي تكون في الغالب من مشاهداتهم العينية، مما يجعلها ذات مصداقية في التأريخ للأحداث والوقائع التاريخية، نذكر من أهم هذه الرحلات: "أفريقيا" لمارمول كاريخال^(١١)، "رحلة إلى مكناس" لجون وندوس^(١٢).

المصادر الأجنبية.

نجد إلى جانب الرحلات التي ذكرنا العديد من التقارير الأجنبية التي كتبها مجموعة من السفراء الأجانب والديبلوماسيين في إطار مهامهم بالمغرب، أو بعض الأسرى الذين تم أسرهم في البلد وبعد فديتهم كتبوا مذكرات عن أوضاعهم به ومعاناتهم، ورغم صبغتها التي تحمل دائما نوعا من الحقد فهي مهمة فيما يخص التأريخ للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية به، ويمكننا من خلالها تغطية بعض الوقائع التي تمر عليها بعض المصادر الإخبارية المغربية، ومن نماذج هذه المصادر نذكر: "أخبار أحمد المنصور الذهبي" لأنطونيو دي صالادنيا^(١٣)، و"تاريخ الشرفاء" لدييكو دي توريس^(١٤) وغيرها.

المراجع والدراسات التاريخية

تضم هذه المراجع والدراسات مجموعة من الأبحاث التاريخية التي أنجزت حول تاريخ المغرب، وكذلك مجموعة من المقالات التي نشرت في عدة مجلات وندوات علمية أو في إطار موسوعات منها ما كتب باللغة العربية أو بلغات أجنبية، حاولنا فيها الاطلاع على ما تمكنا الحصول عليه في هذا الميدان قصد معرفة ما وصلت إليه في هذا الخصوص، سواء التي لها علاقة مباشرة بالموضوع أو غير مباشرة بهدف التعرف على معظم النقاط التي بحثت فيها وتجنب

خلاصات البحث

بعد بحث في موضوعنا خلال المدة التي أتيت لنا خرجنا بمجموعة من الخلاصات يمكن إدراجها كالتالي:

المغاربة خلال العصر الحديث اهتموا باستغلال الأرض وتوسيع ممتلكاتهم منها، عبر مجموعة من وسائل التملك المتراوحة بين البيع والهبة والصدقة وغيرها، كانوا يكيّفونها على حسب وضعيتهم وهدفهم من التملك؛ حيث السعي إلى الحفاظ عليها باستغلال جميع الإمكانيات.

اختلاف ظروف المناطق الاجتماعية والسياسية أثر بشكل جلي على أشكال الملكية، التي تباين توزيعها بالمجالات المغربية بين الملك الفردي والجماعي، وأملك المخزن، والجيش، وغيرها.

تنوع أساليب الاستغلال؛ وتباين أشكالها من منطقة إلى أخرى، ومن ملك إلى آخر، تبعاً لحاجيات السكان؛ التي كانت غالباً هي المحدد لنظام استغلال الأرض، الذي كان يهدف في الأخير إلى ضمان إنتاجية تسد رمق عيش الفلاحين وأسرهم.

بقاء أدوات الإنتاج في مستوى تقليدي بجميع أشكال الملكية، وحتى في الملكيات التابعة للمخزن وأعوانه؛ التي توفرت لها إمكانيات التطور أكثر من الأشكال الأخرى، حيث ظهر عدم استفادتها منها، وبالتالي احتفظت بنفس مستوى التقنيات المعتمدة في ملك الفلاح البسيط.

استمرار الاختلاف والتنوع في المنتوجات التي كانت تدرها الأرض على الفلاحين المغاربة، تتحكم فيها الأوضاع المحيطة به من مستوى الفلاحين وأدوات الإنتاج وكذلك طبيعة الاستغلال.

تعدد أشكال الملكية وتداخلها سواء في نظام التملك أو الاستغلال، غالباً ما واكبه مجموعة من المشاكل والصراعات التي أثرت عليها، مما انعكس على ظروف الإنتاج المتغيرة في هذه الأملاك.

تبقى الأرض والفلاحة بشكل عام مكوناً رئيسياً في حياة السكان ترتبط بجميع الأنشطة الأخرى لهم، والتي لا يمكن الاستغناء عنها في حياتهم اليومية.

يظل المستوى الاقتصادي للبلاد وعدم وجود قاعدة لتطور المجال الفلاحي في المغرب قبل الاستعمار، إلى جانب توجهات المخزن الاقتصادية وعدم إشراك باقي فئات المجتمع فيها وفي بلورتها، من بين الأسباب التي جعلت ملكية الأرض واستغلالها على الحال الذي كانت عليها في هذه الفترة موضوع الدراسة.

تكرار ما درس منها خاصة حول قضية ملكية الأرض والاستغلال، وركزنا بشكل كبير على البحوث التاريخية مع الانفتاح على بحوث أخرى في علوم مختلفة، وخلال بحثنا وجدنا العديد منها والتي اكتفينا بجردها في لائحة المصادر والمراجع المرفقة بالبحث لكي يطلع عليها القارئ.

تصميم الموضوع

وإجابة عن إشكالية الموضوع والوصول إلى الأهداف المرجوة من هذا البحث، عملنا على تقسيم الموضوع إلى بابين، تندرج تحت كل واحد منها مجموعة من الفصول؛ تفرعت بدورها إلى مجموعة من المحاور، إضافة إلى مقدمة وخاتمة للبحث خصصناها لأهم الاستنتاجات التي توصلنا إليها، فجاء تصميم الموضوع على الشكل الآتي:

الباب الأول: الأرض بين حقي التملك والتصرف

بالمغرب

- الفصل الأول: ملكية الأرض والاستغلال بين التطور والتحول في تاريخ المغرب
- الفصل الثاني: أهمية إنتاج الأرض ونظام امتلاكها بالمغرب ما بين القرنين ١٦ و ١٨م
- الفصل الثالث: وسائل ملكية الأرض بالمغرب ما بين القرنين ١٦ و ١٨م
- الفصل الرابع: محددات الملكية والاستغلال ما بين القرنين ١٦ و ١٨م
- الفصل الخامس: الشراكة في الاستغلال ما بين القرنين ١٦ و ١٨م

الباب الثاني: أصناف ملكية الأراضي واستغلالها

بالمغرب ما بين القرنين ١٦ و ١٨م

- الفصل الأول: ملكية الأراضي الجماعية والفردية ما بين القرنين ١٦ و ١٨م
- الفصل الثاني: أراضي ملك الدولة/ المخزن
- الفصل الثالث: ملكية أراضي الأقباس بالمغرب
- الفصل الرابع: ملكية أراضي قبائل الجيش
- الفصل الخامس: أراضي السلطان ورجال المخزن
- الفصل السادس: المشاكل المرتبطة باستغلال الأرض في المغرب ما بين القرنين ١٦ و ١٨م

الاحالات المرجعية:

النش المعارف، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة،
الرباط، السنة، ١٩٨٩، (جزءان).

(١٢) جون وندوس، **رحلة إلى مكناس**، ترجمة: زهراء إخوان،
تقديم: عبد اللطيف الشاذلي، منشورات عمادة
جامعة مولاي إسماعيل، (ب.ط)، (ب.س).

(١٣) أنطونيو دي صالديا، **أخبار أحمد المنصور الذهبي**،
تقديم وترجمة وتحقيق: إبراهيم بوطالب، عثمان
المنصوري، لطفي بوشنتوف، نشر الجمعية
المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة الرباط
نيت، المغرب، السنة: ٢٠١١.

(١٤) ديكو دي طوريس، **تاريخ الشرفاء**، ترجمة: محمد
حجي، محمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف
والترجمة والنشر، شركة المدارس للنشر والتوزيع،
الدار البيضاء، مطابع سلا، السنة: ١٩٨٨.

(١) عبد الله كنون، **رسائل سعية**، نشر معهد مولاي
الحسن، دار الطباعة المغربية، تطوان، المغرب، السنة:
١٩٥٤.

(٢) ابن زيدان، عبد الرحمان بن محمد السجلماسي، **إتحاف
أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، تحقيق: علي
عمر، نشر مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة: ١، السنة:
٢٠٠٨، (٥ أجزاء).

(٣) محمد بن أبي القاسم السجلماسي، **شرح العمل
الفاسي لأبي زيد الفاسي**، نسخ جامعة الملك
سعود، قسم المخطوطات، الرقم: ٥٢٨٨، عدد
الأوراق: ١٧٥

(٤) محمد بن أبي القاسم السجلماسي الشريف الحسني،
نوازل السجلماسي، مخطوط، الخزانة العامة بالرباط،
رقم المخطوط: ٩٠١٦.

(٥) محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفراني، **نزهة
الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تحقيق: عبد
اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار
البيضاء، الطبعة: ١، السنة: ١٩٩٨.

(٦) محمد الضعيف الرباطي، **تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة
السعية)**، تحقيق وتعليق وتقديم: أحمد العماري،
نشر دار المأثورات، طبع معهد الدراسات والأبحاث
للتعريب، الرباط، الطبعة: ١، السنة: ١٤٠٦/١٩٨٦م.

(٧) أحمد بن يحيى الونشريسي، **المعيار المغرب والجامع
المغرب عن فتاوى افريقية والأندلس والمغرب**،
خرجه مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي،
نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، دار
الغرب الإسلامي، بيروت_ لبنان، السنة: ١٩٨١.

(٨) أبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي، **الأجوبة الناصرية
في بعض مسائل البادية**، اعتنى به: أبو الفضل
الدمياطي أحمد بن علي، مركز التراث الثقافي في
المغرب، الدار البيضاء، المغرب، دار ابن حزم، بيروت،
لبنان، الطبعة: ١، السنة: ١٤٣٣/٢٠١٢م.

(٩) أبو زكرياء يحيى ابن محمد بن أحمد العوام الاشبيلي،
الفلاحة الأندلسية، تحقيق: أنور أبو سويلم، أنور
الدروبي، علي ارشيد محاسنة، منشورات مجمع اللغة
العربية الأردني، الطبعة: ١، الاردن، عمان، ٢٠١٢.

(١٠) أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني المعروف
بابن وحشية، **الفلاحة النبطية**، تحقيق: توفيق فهد،
المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية،
دمشق، سوريا، (ب.ط)، (ب.ت)، (جزءان).

(١١) مارمول كاربخال، **افريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد
زنيبر، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد بنجلون، نشر
الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار

الخرائط الإسلامية في العصور الوسطى

دراسة استكشافية

أ.د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ تاريخ وتراث العصور الوسطى
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن رشد



بيانات الكتاب

الكتاب:	الخرائط الإسلامية في العصور الوسطى: دراسة استكشافية
المؤلف:	الدكتورة كارين بينتو
ترجمة:	أ.د. أنور محمود زناتي (مترجم رئيس)
ترجمة:	أ.د. عامر أبو حيلة (مترجم مشارك)
الناشر:	دار الأفاق العربية - القاهرة.
عدد الصفحات:	٥٦٢ صفحة.
سنة النشر:	٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.436415

معرف الوثيقة الرقمي:

كلمات مفتاحية:

علم الخرائط، العالم الإسلامي، العصور الوسطى، الحضارة الإسلامية، التاريخ الإسلامي

مقدمة

إن البحث في خرائط العالم الإسلامي يُعدُّ فتحًا جديدًا في علم الجغرافية، وبيان مساهمة علماء الجغرافية الإسلامية في هذا العلم، وهذا يظهر تطور هذا العلم النافع، وتتجلى أهميتها في أنها جاءت بمفاهيم ورؤى جديدة كان العلماء العرب قد سبقوا غيرهم في هذا الحقل العلمي الذي هو على أهمية بالغة بين العلوم. وتُعدُّ خرائط العلماء المسلمين إبداعًا في مجال الفكر الجغرافي، فقد رسموا عشرات الخرائط ووضعوا صورًا لها في كتبهم يستشف منها شكل الأرض العام. ومنها ما كان مُحدّدًا بدقة الحدود الإدارية للدول التي كانت قائمة

على هيأتها بالنسبة لبعضها البعض بدقة تكاد تكون متناهية ومذهلة.

ولقد أقام علماء العالم الإسلامي خرائطهم على أسس من المعرفة الواسعة والتصورات السليمة للظواهر الجغرافية، كما ساروا في اتجاه الاهتمام بالخرطة واعتبارها أساسية في الدراسة الجغرافية وهو مبدأ ما يزال يستخدم إلى وقتنا المعاصر. وحرص هؤلاء العلماء على الحصول على المعلومات من الميدان من أهل المنطقة، وذلك من خلال الرحلة والتجوال والمشاهدة، فتأتي المعلومات صحيحة ودقيقة، وكان بعضهم يسأل السؤال نفسه لأكثر من شخص أو

للشخص ذاته مرتين إلى أن يتبين دقة الإجابة أو التناقض في الإجابات، فكانت الرحلة الميدانية لديهم من شروط كسب المعرفة من الحقل ذاته.

ولقد جاب أغلب هؤلاء العلماء الأقاليم وكتبوا مشاهداتهم ورسموا خرائط تلك الأقاليم التي زاروها، فكان أغلبهم رحالة، والرحلة عين الجغرافية المبصرة، فكان هدفهم من الترحال هو المشاهدة والاطلاع، وفضلاً عن ذلك التحقق من صحة المعلومات التي تلقوها بصورة شفوية، كما وضعوا المعايير والأسس المهمة للخارطة، إذ بدونها لا يمكن أن تُقرأ الخارطة قراءةً صحيحة ومنها: عنوان الخارطة ومقياس الرسم والاتجاه فضلاً عن ذلك لغة الخارطة ورموزها.^(١)

تنتشر مئات الصور الخرائطية الاستثنائية في مجموعات المخطوطات العربية والفارسية والتركية من العصور الوسطى والعصور الحديثة المبكرة. إن كثرة النسخ التي تم إنتاجها في أنحاء العالم الإسلامي على مدى ثمانية قرون تشهد على الأهمية المستمرة لهذه الرؤى الخرائطية في المخيلة الجغرافية الإسلامية. في كتابها "الخرائط الإسلامية في العصور الوسطى"^(٢)، تقدم المؤرخة كارن سي. بينتو (Karen C. Pinto) أول دراسة معمقة لفن رسم الخرائط الإسلامي في العصور الوسطى، تمتد من منتصف القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر.

تقوم بينتو بفك خيوط تاريخ الخرائط، متتبعة بداياتها وتطورها، وتحللها لتكشف عن هويات من أنشأوها ورسموها ومولوها، وكذلك عن الواقع الاجتماعي والمادي الحي الذي عكسته تلك الخرائط. ومن خلال هذا العمل، تطور بينتو تقنيات مبتكرة للتعامل مع السجل البصري للتاريخ الإسلامي، وتستكشف كيف كان المسلمون في العصور الوسطى يرون أنفسهم وعالمهم، كما تضع الخرائط الشرق أوسطية في موقع مركزي في دراسة تاريخ علم الخرائط.

تعريف المؤلفة

كارين سي بينتو (Karen C. Pinto) هي أستاذة التاريخ الإسلامي والشرق الأوسط في جامعة ولاية بوير (Boise State University) وتعمل بقسم التاريخ، وهي متخصصة في عدد من المجالات التاريخية وخاصةً رسم الخرائط الإسلامية وتاريخ الشرق الأوسط. وقد حصلت

المؤلفة على الماجستير والدكتوراه في التاريخ من جامعة كولومبيا Columbia University، ودرّست في كلية جيتسبيرغ Gettysburg College والجامعة الأمريكية في بيروت. تُعرف بينتو بأبحاثها المتعمقة في مجال الخرائط الإسلامية التقليدية، وقد نشرت العديد من الدراسات والمقالات في هذا المجال.^(٣)

مضمون الكتاب

كتاب (Medieval Islamic Maps: An Exploration) "الخرائط الإسلامية في العصور الوسطى: دراسة استكشافية" من تأليف كارن سي. بينتو، هو دراسة معمقة في مجال الجغرافيا الإسلامية، حيث يقدم تحليلاً شاملاً لخرائط العصور الوسطى الإسلامية من القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر. يركز الكتاب على نوع خاص من الخرائط يُعرف باسم "كتاب المسالك والممالك" (Kitāb al-Masālik wa-al-Mamālik)، الذي أُنتج في العصور الإسلامية الوسطى. تتناول بينتو هذه الخرائط من ثلاثة محاور رئيسة: الرمزية البصرية (الرموز والصور)، السياق التاريخي والثقافي، ورعاية هذه الأعمال من قبل الحكام والطبقات الحاكمة. من خلال هذا المنهج، تكشف بينتو كيف كانت هذه الخرائط تعكس تصورات المسلمين للعالم، وتُظهر كيف تطورت هذه التصورات عبر الزمن. تُظهر بينتو كيف كانت هذه الخرائط تُستخدم كأدوات للتعبير عن السلطة والسيطرة، وكيف كانت تعكس التفاعلات الثقافية بين العالم الإسلامي والمجتمعات الأخرى.

الكتاب غني بالصور والرسومات، حيث أُعيد إنتاج معظم الخرائط بنسخ ملونة عالية الجودة، وقد التقطت المؤلفة العديد منها بنفسها. وبعض هذه الخرائط تُنشر مطبوعة لأول مرة. تُظهر بينتو دقة كبيرة في تناول التفاصيل البصرية للخرائط من حيث الأفكار والرموز الزخرفية، وتعبر عن أملها في أن يوجّه مؤرخو الفن اهتمامهم نحو الرسوم التوضيحية في المخطوطات العلمية. تطرح المؤلفة فرضية أن هذه الخرائط كانت أدوات معرفية وفنية، وليست مجرد وسائل لإيجاد الطرق، بل خرائط لفهم العالم وفق رؤية إسلامية كونية – روحانية، صوفية، وجمالية. ويُمكّن وصف عملها بأنه دقيق وابتكاري في آنٍ واحد، فالكتاب استكشاف حقيقي بكل معنى الكلمة.

تعريف المترجمين

أنور محمود زناتي (مصر): أستاذ التاريخ والحضارة بجامعة عين شمس، كاتب وأكاديمي مصري في مجال التاريخ والحضارة. كتابات متعددة في مجالات مختلفة مثل صدام الحضارات والاستشراق والإسلام، وتهويد القدس. حائز على جائزة الأستاذ الدكتور عبد الحميد العبادي من الجمعية التاريخية ٢٠٠٥م، وجائزة الإبداع من السويد ٢٠٠٨م وعضو الهيئة الاستشارية والتحريرية في مجلة حوليات معهد الآداب الشرقية، جامعة القديس يوسف، (بيروت) وفي دورية كان التاريخية المحكمة (مصر)، كما اختارته جائزة الملك فيصل العالمية ليكون ضمن المائة المختارين على مستوى العالم لكتابة ونشر سلسلة مائة كتاب وكتاب.

عامر أبو جبلة (الأردن): أستاذ التاريخ الإسلامي في قسم التاريخ بجامعة مؤتة. في رصيده العلمي أكثر من ٣٠ بحثاً محكماً نُشرت في مجلات أكاديمية أردنية ومصرية، تمحورت معظمها حول الحياة العلمية في الإسلام. حصل على رتبة أستاذ في أكتوبر ٢٠١٤، بعد أن ساهم في تطوير البحث الأكاديمي، وأشرف على العشرات من الرسائل الجامعية لمرحلتى الماجستير والدكتوراه في عدد من الجامعات. كما أشرف على تحكيم العديد من البحوث العلمية والترقيات الأكاديمية في جامعات عربية مرموقة. نال الدكتور أبو جبلة درع شوامخ المؤرخين العرب من اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة عام ٢٠٢٠، تقديراً لإسهاماته الواسعة في خدمة التاريخ العربي والإسلامي.

محتوى الكتاب

يدور هذا الكتاب حول الطرائق العديدة لقراءة الخرائط، وخصوصاً خرائط العالم الإسلامية، والتي تأخذنا إلى أماكن وأحياء مكانية ورؤى مختلفة. فتلك الخرائط الإسلامية فريدة في نوعها في أنها تتجاوز الحاجز الزمني والمكاني، فهي تأتي إلينا بداية من العصور الوسطى إلى أوائل العصر الحديث، ومن أحد أطراف العالم الإسلامي إلى آخر، وعلى الرغم من اتساع تلك المساحة الزمانية والمكانية من الهند إلى إسبانيا عبر ثمانية قرون، تحتفظ تلك الخرائط بدرجة من التفرد التصويري الشكلي الذي يقاوم بشكل غامض رسم التجاوزات المصاحبة في فن رسم الخرائط الحداثي، فتكمن الفروق الدقيقة المميزة

لرسماني تلك الخرائط في الفجوات الكامنة بين خطوط الخريطة وفي أنماط التذهيب التي تكشف عند دراستها رؤى جديدة مثيرة للدهشة عن التاريخ الإسلامي الحديث في العصور الوسطى وأوائل الحقبة الحديثة.

تعرف بينتو نوعاً جديداً من الخرائط الإسلامية في العصور الوسطى، تُطلق عليه اسم خرائط KMMS، وهي اختصار لـ Kitāb al-Masālik wa-al-Mamālik (كتاب المسالك والممالك) مضافاً إليه كلمة šūrat (صورة) بالعربية – أي مجموعة الرسوم الجغرافية المصاحبة لأدب الرحلات في هذا التقليد. تدرس بينتو خرائط KMMS من خلال ثلاث زوايا:

- وجود البحر المحيط، وهو عنصر رمزي وكوسموغرافي (cosmographic) أساسي مشترك بين ثقافات عدة.
- تسمية إقليم البجا، وهي جماعة بشرية في شرق إفريقيا.
- رعاية الحكام لهذه الخرائط، وهي تقليد إمبراطوري كان وراء إنتاجها.

هذا الإطار التحليلي يسلط الضوء على التلاحق الثقافي الكوزموبوليتاني للأفكار والأيدولوجيات الناتج عن الرحلات والاستكشافات داخل وخارج العالم الإسلامي، كما يكشف عن الأشكال الجمالية والأدبية التي دُون فيها هذا التراث.^(٤)

أما فصول الكتاب^(٥) وفق الترجمة العربية، كالتالي:

- (١) مقدمة: الطرق المختلفة للنظر إلى الخرائط الإسلامية.
- (٢) نظرة إلى الوراء.
- (٣) مخطط تمهيدي للاتجاه التراثي لرسم الخرائط الإسلامية.
- (٤) وصف تمهيدي لخرائط العالم المأخوذة من كتاب المسالك والممالك.
- (٥) نظرة علم دراسة الصور لصيغة بحر المحيط.
- (٦) بحور المحيط الكلاسيكية في العصور الوسطى.
- (٧) زخرفة البحر المحيط من المنظور الإسلامي.
- (٨) شعب البجا Beja زمانياً ومكانياً.
- (٩) كيف تمكن شعب البجا Beja من أسر الخيال.



خريطة نموذجية للعالم لابن الوردي على أساس نموذج الخرائط المأخوذة من كتاب المسالك والممالك KMMS. لفترة أواخر القرن السابع عشر الميلادي. مكان التواجد: مكتبة جامعة لايدن.^(٧)

أهمية الكتاب

إن الوضع الراهن لعلم الخرائط العربي والإسلامي يمثل في الوقت الحاضر تحدياً للباحثين العاملين في هذا المجال. فالإتيان بجديد من حيث التحليل أو الفرضيات أمر بالغ الصعوبة في حقل يمتلك إرثاً جغرافياً يمتد على مدى قرنين. أضف إلى ذلك صدور المجلدين الأول والثاني من العمل الضخم (History of Cartography) "تاريخ الخرائط" بتحرير جي. بي. هارلي (J. B. Harley) وديفيد وودوارد (David Woodward)، وهما: الخرائط في أوروبا والبحر المتوسط في العصور الوسطى (١٩٨٧)، والخرائط في المجتمعات الإسلامية وجنوب آسيا (١٩٩٢). هذا هو التحدي الذي واجهته كارين سي. بينتو في كتابها "الخرائط الإسلامية في العصور الوسطى" (٢٠١٦)، وقد حققت فيه نتائج مرضية إلى حد كبير.^(٨)

يُعتبر هذا الكتاب مرجعاً أساسياً في دراسة الجغرافيا الإسلامية، حيث يقدم تحليلاً نقدياً للخرائط الإسلامية ويُبرز دورها في فهم التاريخ والثقافة الإسلامية. تنبع أهمية هذا الكتاب من كونه من أوائل الأعمال التي تقدم تحليلاً شاملاً للخرائط الإسلامية من منظور بصري وثقافي وفني، وليس فقط جغرافي أو تاريخي. يتجاوز الكتاب القراءات الغربية التقليدية التي اختزلت الكارتوغرافيا (علم دراسة الخرائط) الإسلامية، ليكشف عن أصالة وتعدد أنماط الخرائط التي أبدعها المسلمون بين

- (١٠) محمد الثاني والرعاية المقدمة لراسمي الخرائط.
(١١) المجموعة العثمانية المأخوذة من كتاب المسالك والممالك.
(١٢) المصدر الأصلي للمجموعة العثمانية.

تهدف هذه الفصول إلى تقديم منهج جديد لعلم رسم الخرائط الإسلامي. فهذا الكتاب لا ينص على تقديم إعادة تقييم نهائي للاتجاه التراثي لرسم الخرائط الإسلامية بأكملها، بل يقدم سلسلة من السيناريوهات التي توضح طرائقاً جديدة ومنهجيات بديلة لمعالجة التراث الإسلامي الخرائطي الغني. في محاولة لأن تمهد هذه الدراسة الطريق إلى إعادة تقييم استخدام المصادر البصرية كنهج لدراسة التاريخ الإسلامي، ولإثراء مجال تاريخ علم رسم الخرائط بشكل كبير.

نماذج من الخرائط



جانب من خريطة الأميرال البحري العثماني بيري ريس (ت. ١٥١٩هـ / ١٥١٣م) تظهر أمريكا الجنوبية. مكان التواجد: متحف قصر طوب قابي، إسطنبول.^(٩)

الجانب النقدي

يتميز الكتاب بالدقة الشديدة في تحليل الصور والخرائط، مع جهد واضح في جمع نسخ نادرة تُنشر لأول مرة. كما يُحسب للمؤلفة ابتعادها عن السردية الاستشراقية التقليدية في تفسير الإنتاج العلمي الإسلامي. ومع ذلك، يلاحظ أن تركيزها الأكبر انصبّ على خرائط العالم الإسلامي الشرقي، مع تجاهل واضح للخرائط المغربية والأندلسية.

الفصول التمهيدية مربكة بعض الشيء؛ فعلى الرغم من أن بينتو تقدّم نظرة شاملة على الأدبيات المتعلقة برسم الخرائط الإسلامية في العصور الوسطى، إلا أنها تكثّر من النقد التفصيلي للأعمال السابقة في هذه المرحلة، مما يجعل من الصعب على القارئ فهم الخلفية التاريخية للموضوع. فهي توضح كيف يختلف منهجها الأكاديمي عن وجهات النظر السابقة، قبل أن توضح أطروحتها الخاصة بشكل كافٍ. ومع ذلك، تكتسب حجتها ثمارها وزخمها عند التعمق أكثر في القراءة، حيث تبدأ في توضيح كيفية تجريد العالم المكتشف وتحويله إلى الشكل الكارتوغرافي غير المألوف في خرائط KMMS خطوة بخطوة، وتبدأ الرسوم المرفقة في أن تصبح أكثر وضوحاً. ومع رسمها لتوازيات بين تطوّر تقاليد رسم الخرائط الإسلامية والوصف الكوزموغرافي والكارتوغرافي لثقافات أخرى، يتجلّى بوضوح الدور الثقافي والسياسي لتلك الخرائط باعتبارها نصوصاً رمزية تعبّر عن العالم.

كما أن عدم التمييز الدقيق في بعض المواضع بين ابن الوردي "الأصلي" وما يُسمى ابن الوردي "المنتحل" قد يربك القارئ المتخصص. كما تشير مارينا تولماتشييفا في مراجعتها للكتاب^(١١) فقد توفي ابن الوردي سنة (٨٦١هـ/١٤٥٧م)، والمؤلفة في بعض المواضع تشير إلى ما يُعرف بـ ابن الوردي "المزور" أو "المنتحل"، أي شخصية ظهرت بعد زمن المؤلف الأصلي لكتاب "خريدة العجائب وفريدة الغرائب"، وهو أبو حفص زين الدين عمر بن المظفر ابن الوردي (٦٩١هـ/١٢٩١-٩٢م - ٧٤٩هـ/١٣٤٨-٤٩م).

القرنين التاسع والسادس عشر. كما يُعدّ الكتاب مساهمة فريدة في دمج تاريخ الفن الإسلامي مع تاريخ العلم، مما يفتح آفاقاً جديدة أمام الباحثين في مجالات متداخلة.

يقول المؤرخ البريطاني فيليب فرنانديز-أرمستو (Felipe Fernández-Armesto)^(٩) كتاب "الخرائط الإسلامية في العصور الوسطى" هو مشروع ذو قيمة وأهمية كبيرة: فهو يستخدم الخرائط كمستندات للتاريخ السياسي والثقافي ويربطها بالتغيرات في الفنون الأخرى. تعرض بينتو معرفة عميقة بمصادرها، ووعي ممتاز بالسياق، وبحثاً لا يعرف الكلل، وعيناً حريصة على الأدلة، ومرونة في التفكير، وطلاقة في التعبير. تضع خرائطها في إطار التأثيرات الثقافية المتبادلة، والظروف السياسية، وأجندات صانعي الخرائط والرعاة. نهجها أصلي بشكل ملحوظ مقارنة بالأعمال الموجودة التي تميل إلى التركيز على الجوانب التقنية لعلم الخرائط. قراءة "الخرائط الإسلامية في العصور الوسطى" هي تجربة غنية ومجزية، وأي باحث مهتم بالإسلام أو علم الخرائط أو تاريخ الكتابة يجب أن يولي اهتماماً لهذا العمل الرائع.^(١٠)

أهمية الترجمة العربية

يُعدّ هذا الكتاب مرجعاً بالغ الأهمية للباحثين في تاريخ العلوم الإسلامية، وتاريخ الفن، والجغرافيا الثقافية. وتُعدّ ترجمته إلى اللغة العربية إضافة ثمينة للمكتبة الأكاديمية العربية، خاصة في ظل النقص الشديد في الدراسات الجادة حول الكارتوغرافيا الإسلامية من منظور فني وثقافي متكامل. الكتاب يُعدّ من أوائل المراجع الجادة المتخصصة في الخرائط الإسلامية من منظور تكاملي (بصري، ثقافي، فني)، وترجمته تتيح للقارئ العربي الاستفادة منه.

في الحقيقة، تمثل الخرائط الإسلامية جزءاً مهماً من تراثنا، والترجمة العربية للكتاب تساهم في إبرازه. وتتمثل إيجابيات الترجمة في جودة اللغة، والدقة العلمية، والحفاظ على روح الكتاب الأصل. ويؤخذ على المترجمين قلة الشروحات والتعليقات الناتجة عن ضيق الوقت، ونأمل أن تكون الطبقات التالية من الترجمة مزيدة بهوامش وتوضيحات من المترجمين والتي سوف تثري النص الأصلي بطبيعة الحال.

(١) كارين بينآو، الآرائط الإسلامفة فف العصور الوسطى: دراسة اسآكشاففة- القاهرة: دار الآفاق العربفة، ٢٠٢٥. (مقدمة المرآمفن، ص٩ - ١٠).

(2) Karen C. Pinto: Medieval Islamic maps. An exploration, Chicago (Il.)/London: The University of Chicago Press, 2016,X+406 pp., 162 figures.

(٣) فمكن الاطلاع على السفرة العلمفة الآصة بالآآورة كارفن سف بفنآو من آلال الرابآ الآالف:

<https://colorado.academia.edu/KarenPinto/CurriculumVitae>

(4) See: Hale, Jordan. "Review of Medieval Islamic Maps: An Exploration by Karen C. Pinto." Information Bulletin (Western Association of Map Libraries) 49, no. 1 (November 2017). <https://waml.org/waml-information-bulletin/49-1/medieval-islamic-maps-an-exploration/>.

(5) See: Branco, Marco Di. "Karen C. Pinto: Medieval Islamic Maps. An Exploration." Journal of Transcultural Medieval Studies 5, no. 1 (2018): 189-191. <https://doi.org/10.1515/jtms-2018-0013>.

(٦) كارفن بفنآو، الآرائط الإسلامفة فف العصور الوسطى، ص٥٧.

(٧) كارفن بفنآو، الآرائط الإسلامفة فف العصور الوسطى، ص٦٩.

(8) See: Franco Sánchez, Francisco. "Reseña de Karen C. Pinto. Medieval Islamic Maps: An Exploration. Chicago/London: University of Chicago Press, 2016. Pp. x, 406; many color figures. ISBN: 978-0-226-12696-8." Speculum 93, no. 3 (July 2018): 894-895. <https://doi.org/10.1086/698686>.

(٩) فشفل آالفًا منصب أسآاذ الآرفف فف آامعة آوترآام فف ولاية إنآفانا، الولافآ الآآآة الأمرفكة.

(10) Fernández-Armesto, F. (2025). Review of Medieval Islamic Maps. University of Chicago Press. Retrieved June 20, 2025, from <https://press.uchicago.edu/index.html>

(11) See: Tolmacheva, Marina. "BOOK REVIEW: Karen C. Pinto, Medieval Islamic Maps: An Exploration (Chicago: University of Chicago Press, 2016)." Peregrinations: Journal of Medieval Art and Architecture 6, 2 (2017): 104-110. <https://digital.kenyon.edu/perejournal/vol6/iss2/13>

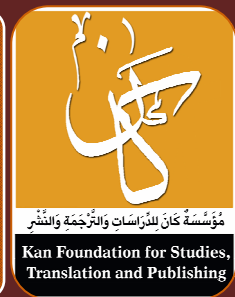
فآور آآاب "الآرائط الإسلامفة فف العصور الوسطى: دراسة اسآكشاففة" آول الطرائق العففة لقراءة الآرائط، وآصوصًا آرائط العالم الإسلامفة، والآف آأآنا إلى أماكآ وأآفاز مآانفة ورؤف مآآلفة. فآلك الآرائط الإسلامفة فرفة فف نوعها فف أنفا آآآاوز الآآز الزمفف والمآانف، ففف آآفف إلفنا بآافه من العصور الوسطى إلى أوائل العصر الآآف، ومن أآأ أطراف العالم الإسلامف إلى آفر، وعلى الرغم من اسآاع آلك المساحة الزمانفة والمآانفة من الهند إلى إسبانفا عبر آمانفة قرون، آآآفظ آلك الآرائط بآرآه من الآفرآ الآصوفرف الشكلف الآف فقاوم بشكل فامض رسم الآآاوزاف المصاحبة فف فن رسم الآرائط الآآافف، فآآآن الفروق الآقفقه الممفزة لرسامف آلك الآرائط فف الفآواف الآامآه بفن آطوط الآرفطة وفف أنماط الآآآفب الآف آكشف عآأ آراسآفا رؤف آآففة مآففة للآهشة عآ الآارفف الإسلامف الآآف فف العصور الوسطى وأوائل الآقفه الآآففة.

آُعدّ الآرآمة العربفة لآآاب "الآرائط الإسلامفة فف العصور الوسطى" آطوة أساسفة فف نقل المعرفة الكارآوآراففة الإسلامفة إلى الآمهور العربف، ومرآعًا لا فنى عآه للباحآفن والطلاب على آآ سواء. فُعبّر آفا الآآاب عآ فآه آاآ ومعبّر لاسآعارض منهآفة الآآرافففن المسلمفن وسفرهم فف رسم الآرائط، وإعاهة آقفمها وفق أسس علمفة. فؤكد الآآاب على أن الآآرافففن المسلمفن هم من رسم أول آرفطة آقرفففة آقفقه للآالم، وأن الآرائط الإسلامفة - امآآاآًا للنهآ العلمف - سبقت أقرانها فف أوروبا، آاصة آلال العصر الآآبف.

أضف إلى آلك اسآعارض الآرائط الإسلامفة عبر العصور وإسهاماف علماء الآآراففة المسلمفن فف آفا المآال رفآًا للفكر الآآرافف القائم على أسس علمفة، مآفرآفن ففه عآ ففرهم فف آلك الوقت ومآآآمفن علفهم. وعلى الرغم من آرآع علم الآرائط فف أوروبا فف العصور الوسطى، إلا أن رسم الآرائط ازآهر آلال العصر الآآبف للإسلام، وقام العفآ من علماء المسلمفن بعمل بعض الآرائط والقفاساف الأكثر آقة فف العالم فف آلك الآقفه.



2008 - 2025



<https://kan.journals.ekb.eg>

Historical Kan Periodical

ISSN: 2090 – 0449 (Online).

Peer-reviewed, open-access journal,
indexed and abstracted in several
international databases.

<https://portal.issn.org/resource/ISSN/2090-0449>
<https://www.facebook.com/historicalkan>